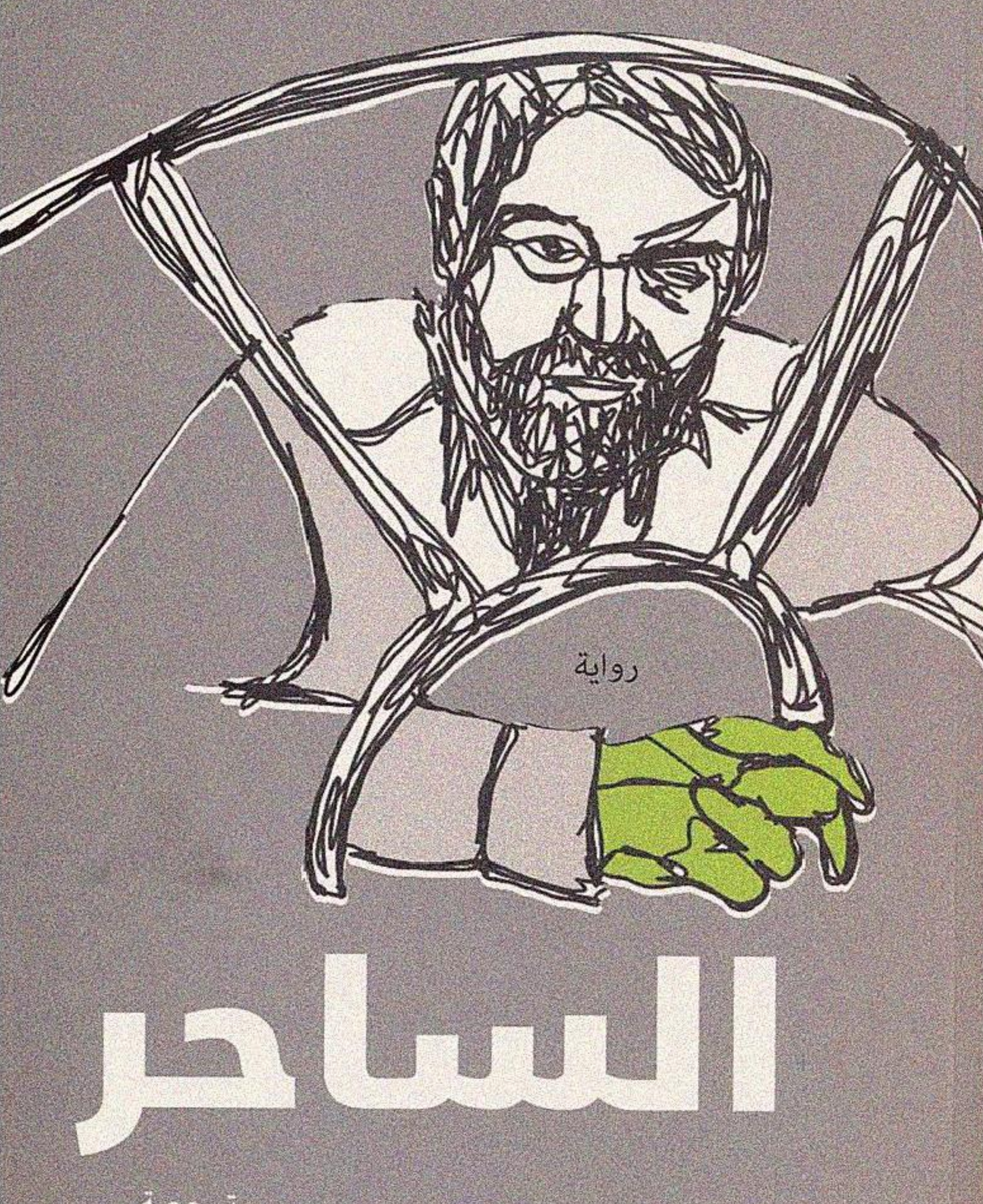
جون فاولز



رواية

الساحر

ترجمة

عبدالحميد فهمي الجمال

طوى
للثقافة والنشر والإعلام

جـون فـاولـز

الساحر

رواية

ترجمة

عبدالحميد فهمي الجمّال

للثقافة والنشر والإعلام

جون فاولز: ولد في قرية قريبة من لندن عام ١٩٢٦، درس الأدب الفرنسي في نيوكوليج بجامعة أكسفورد وعرف برحلاته حول العالم، ومن تجربة هذه الرحلات استقى رائعته النادرة «الساحر». كتب الرواية والدراسة الفلسفية، والقصة القصيرة. وهو من المقلين في إبداعهم. من أبرز أعماله الساحر ٢٠١٥ تصدر عن طوى للثقافة والنشر والإعلام «جامع الفراشات» التي التي تصدر عن طوى للثقافة والنشر والإعلام ٢٠١٥ «عشيقة الضابط الفرنسي» ١٩٦٩، وكلها أعمال حولتها السينما إلى أفلام شهيرة. تتميز أعمال فاولز الأدبية بأنها أرقى من كافة الأفلام المأخوذة عنها. من مجموعاته القصصية «برج الأبنوس» ومن دراساته الفلسفية «الامتياز» وهو كتاب فلسفي يدور حول الصراع الأبدي بين الأضداد.

Book: Alsaher

الكتاب: الساحر

John Fowles

ترجمة: عبدالحميد فهمي الجمّال

Translated By: Abdulhameed Aljammal

First Edition: 2015

الطبعة الأولى ٢٠١٥



للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ISBN 978-9933-35-209-7

قبل أن تقرأ

إذا أردت أن تقرأ أدباً جميلاً، وراقياً، فاقرأ روايات «جون فاولز»، فرغم أن فاولز نشر خلال عمره الأدبي خمس روايات فقط، طوال ثلاثين عاماً، وكتابين آخرين فإنك لو قرأت إحدى هذه الروايات فسوف تكتشف أن رواية واحدة منها كفيلة بأن تصنع شهرة كبيرة لأي كاتب.

ويكفي أن تقرأ ملحمة روائية مثل روايته المعروفة «الساحر» لتعرف أن فاولز قد استوعب معارف عصور متعددة، وأنه توغل في الجغرافيا، والميثولوجي، والفنون الدرامية، والتاريخ، فضلاً عن رؤيته الواضحة للكون.

وفاولز الذي ولد في قرية قريبة من لندن عام ١٩٢٦م، درس الأدب الفرنسي في نيوكولدج بجامعة أكسفورد، وعرف برحلاته المتعددة في أنحاء العالم، كتب الرواية والدراسة الفلسفية والقصة القصيرة.

فروايته الأولى «جامع الفراشات» منشورة عام ١٩٦٤م، ثم جاءت روايته «الساحر» عام ١٩٦٦م، و«عشيقة الضابط الفرنسي» عام ١٩٦٩م، ومجموعته القصصية الوحيدة تحمل عنوان «برج الأبنوس» ١٩٧٤م، أما كتابه «الامتياز» فهو رؤية فلسفية تدور حول الصراع الأبدي بين الأضداد، ومن رواياته الأخرى «دانيل مارتن» ١٩٧٧م و«فانتيسا» ١٩٨٢م.

ويميل فاولز إلى الخروج من الأجواء التقليدية التي اعتادها القارئ

ليقدم له نفس الوجوه المألوفة التي يراها كل يوم في أماكن عديدة مصبوغة بصبغات غريبة فوق وجوهها، وداخل مشاعرها، فتتصرف بما هو أقرب إلى الجنون والشذوذ، ورغم أن أصحاب هذه الوجوه يبدون شباباً ناضرين، فإنهم يخفون في دواخلهم نيراناً متأججة.

في روايته الأولى نرى ذلك الشاب البريء النقي الوجه المغرم باصطياد الفراشات ثم جمعها في مجموعات واحدة، ورغم جمال هذه الفراشات وما تتمتع به من ألوان جذابة، فإنها ليست سوى كائنات ميتة لا روح فيها، وهذا الشاب يعمل موظفاً صغيراً في أحد البنوك يروق له أن يتلصص على حسناوات المدينة.

وذات يوم يكسب مبلغاً كبيراً من المال في «السباق»، فيفكر في أن يغير من حياته، يشتري منزلاً معزولاً في إحدى الضواحي، ويظل يرقب الفتاة التي يرغبها في سيارته الجديدة ويقوم يوماً باختطافها ويذهب بها إلى مملكته التي صنعها، تتنبه الفتاة لأنها قد وضعت داخل سجن جميل به الألوان الممتعة كافة، تحاول التخلص من سجنها ويتحول صاحب هذا الوجه إلى شخص شرس يعاملها بعنف ويضربها حتى تمتثل.

والرواية ذات صوتين روائيين، يحكي فيهما الشاب جزءاً من منظوره وتحكي الفتاة المخطوفة الجزء الثاني بعد أن تم اختطافها، سرعان ما تدرك أنها واحدة من هذه الفراشات، وأنه يود أن يضمها إلى مجموعته، لكنها ليست فراشة، وهو لا يستطيع أن يجعلها تحبه، ولكنه يضعها في علبة كبيرة هي غرفة أنيقة، يربطها هناك ويمنعها من الخروج، وتحاول الفتاة الهرب أكثر من مرة، وتكاد تنجح في إحدى المرات لكنها تسقط تحت المطر، وعندما يجرها داخل المنزل يصاب بجرح فتحنو عليه، ومنذ ذلك الحين تنمو علاقة دقيقة بين الطرفين، يفك وثاقها، ترفض أن تذهب، ولكن مرضها يزداد عليها بعد تلك الليلة التي حاولت الهرب فيها، يعتني بها، ويحضر لها الأطعمة، والعلاج، لكنها تموت، ولأن

لديه مسكناً بعيداً، ومجموعة نادرة من الفراشات، فإنه ينزل مرة أخرى إلى شوارع المدينة، يتلصص على الحسناوات، ويختار إحداهن كي يأتي بها إلى مجموعة فراشاته الجميلة.

وفور صدور هذه الرواية قامت السينما بتحويلها إلى فيلم من إخراج ويليام وايلر، وبطولة سامانتا أيجروتيرنس ستامب وعرض تجاريًا في مصر بعنوان «شقة المحروم»، وقدمتها روايات الهلال في ترجمة كاملة في «يوليو» ١٩٩٢م.

وفاولز مثل العديد من أبناء وطنه الإنجليز، يحب الإبحار بنفسه، وبأبطاله، إنه مثل دانيال ديغو وجوزيف كونراد ووليام جولدنج، ولذا فإنه في روايته الثانية «الساحر» يذهب إلى إحدى جزر البحر المتوسط في بلاد اليونان ليصور لنا عالماً بالغ الغرابة، فنحن أمام شاب إنجليزي بلا وظيفة، يلتحق بوظيفة مدرس في اليونان، ويترك وراءه قصة حب معقدة ويرى أن البحر يمكنه أن يمزج بين الواقع الذي يصبح فيه والخيال الذي يصنعه، وهناك يجد نفسه في تجربة غريبة من خلال لقائه بأحد أثرياء الجزيرة ويدعى كونشيس، هذا الرجل صنع من الجزيرة قصرا للسرايات والأجواء الفنتازية، إنها الأجواء التي يجد نيكولاس نفسه منجذباً إليها لدرجة أنه يرفض أن يعود إلى بلاده، كلما ازدادت التجربة غموضاً، إنه أشبه بأوليس الذي لجأ إلى جزيرة الساحرة سيرسة، والجزيرة أيضاً بها نساء جميلات وخاصة الممثلتين الفاتنتين جوليا وجين اللتين نكتشف أنهما مجرد ممثلتين عليهما الاشتراك في بطولة مسرحية حية.

والساحر رجل درس علم النفس وعرف أسرار النفس البشرية وفي استطاعته أن يتحكم في سلوك البشر الذين حوله وأن يدفعهم للعمل لمصلحته بما له من سطوة وثروة، فهو يدفع بإحدى المرأتين إلى أن تسيطر بجسدها على نيكولاس كي يتوه في دنيا الرجل الكبير، وفي

النهاية فإن الشاب الإنجليزي يجد نفسه مطرودا من الجزيرة، فردوسه الخصوصي، ويعود إلى بريطانيا في انتظار بنيليوبي، فهو لا يزال أوليس الذي عليه الرجوع إلى حبيبته، أما الجزيرة، فهي بلا شك إحدى الجزر التي نزل عندها أوليس، والساحر هو صورة من تلك الساحرة التي تهتف للبطل الهيلليني أن يترك مركبه وينضم إليها، رغم أنه يعرف أنها تحول كل عشاقها، الذين نزلوا من قبله أرضها إلى... خنازير.

وفور صدور هذه الرواية قامت السينما الأمريكية بشراء حقوقها وحولتها عام ١٩٦٩م إلى فيلم أخرجه جاي جرين وقام ببطولته أنتوني كوين في دور الساحر اليوناني وأدى مايكل كين دور الشاب الإنجليزي، وجسدت كانديس برجن دور جوليا، أما الممثلة الفرنسية آنا كارنينا فقامت بدور الفتاة الأسترالية آلسيون، ورغم أن فاولز نفسه كتب سيناريو الفيلم، ورغم تكلفة الفيلم الواضحة ونجومه الكبار، فإنه شتان بين رواية عظيمة كتبها فاولز وبين الفيلم المتواضع الذي أخرجه جرين، ويبين هذا الفارق روعة الأدب وقصور السينما، وقد انعكس ذلك أيضاً في الأفلام الأخرى المأخوذة عن أعمال نفس الكاتب.

وجون فاولز يهيم وسط علاقات بين الخيال وفنتازيا الواقع، ولذا فإن لغته تمزج بين الشعر والنثر والحوار الشعري، وهو يميل إلى استخدام الكثير من المقاطع الشعرية في هذه الروايات خاصة في روايته الثالثة «عشيقة الضابط الفرنسي»، حيث يبدو فاولز مشغوفا بأحداث تداخل بين عديد من الشخصيات مثلما فعل في روايتيه السابقتين.

تدور أحداث الرواية في عام ١٨٦٧م، أي قبل أن يكتبها بنحو مائة عام تقريبا في قرية على شاطئ البحر جنوب إنجلترا حدثت حكاية سارة وتشارلز، فقد ذهب هذا الأخير لخطبة الفتاة أرنستينا فريان، إنه يطمع في منحة الزواج التي يقدمها أبو العروس له عند إتمام الزواج، خاصة أنه ينتظر أن يرث ثروة من عمه، وتشارلز رجل مثقف يميل إلى

استخدام ثقافته في جذب أنظار المجتمع حوله، إنه مؤمن بنظريات داروين ويرى أن العلم سوف يأتي بما هو أكثر تطوراً من هذه النظريات، يتردد تشارلز على منزل إحدى السيدات الراقيات كي يفخر بثقافته في الأحاديث المختلفة ويصبح نجم هذا المجتمع.

أما خطيبته أرنستينا فهي فتاة في العشرين من العمر، وهي وحيدة والديها، رآها تشارلز لأول مرة عندما كان في زيارة عمتها في إحدى القرى بالجنوب الإنجليزي.

في هذه القرية نرى السيدة بولتني العجوز التي تعيش في قصر فخم يملؤه الخدم، في منزل هذه السيدة الراقية تعمل سارة ضمن طاقم الخادمات، وهي فتاة مثقفة أحبت يوماً أحد الأطباء الفرنسيين الذين هجروها، فآثرت أن تغلق عواطفها عن كل ما يدور حولها، ينبض الحزن في عينيها، يسميها أهل القرية الآنسة «مأساة» بسبب أحزانها المتكالبة، لكن هل هناك ضابط فرنسي يعمل فوق المراكب التجارية ارتبط بها فعلاً؟ يُقال إنها أذلت كبرياءها من أجله وكان يطردها وينهرها، وإنها كانت تنتظره حين قدومه وتودعه حين سفره.. أما سارة فتقول لتشارلز في أول لقاء لهما يتحدثان فيه عن هذا الملازم إن عليها أن تصنع لنفسها «خيالاً» تحبه حين تجد رجلاً في حياتها.. وحين تزوره في الفندق، ويتم أول لقاء ويكتشف عذريتها يعرف أنه لم يكن هناك رجال في حياتها.

سارة نموذج غريب، أشبه بالساحر كونشيس، فهو يريد أن يسيطر على الجزيرة كي يغدو الجميع حواريين له، أما هي فتريد أن يتحدث عنها أبناء القرية ولو جاء ذلك ضد سمعتها كفتاة لم تعرف رجلاً واحداً في حياتها سوى في خيالاتها المحمومة، ومثلما تخيلت الضابط الفرنسي تجيء صورة تشارلز، ولكن سارة امرأة لم تخلق للواقع، فهي تنفر من حبيبها عندما تشعر بأن الحب الذي تكنه له قد أصبح جسداً

مميزاً واضحاً، إنها تفضل أن تعيش في حلم يصنعه خيالها عن الحياة في أحضان رجل تهبه نفسها، فتهرب منه وتحبس خيالها من جديد داخل هذا الحلم.

وتشتد العلاقة بين تشارلز وسارة بعد أن تتفسخ علاقته بخطيبته حين يدرك هذا الأخير أنه لن يكون وريثاً لعمه، فيترك فتاته باحثاً عن سارة فتاة الغابة، ورغم أن تشارلز يحن بعد فترة أخرى إلى خطيبته فإنه يجد سارة أقرب النساء إلى طبيعته، وحين تختفي سارة من حياته لا يعود إلى خطيبته كي يجد فيها سلوى، بل إنه يدور حول العالم في رحلة نسيان يعود بعدها إلى القرية متنسماً أخبارها، وعندما يقابلها يكتشف أن رجلاً جديداً قد دخل حياتها، إنها ترفض أن تتزوج تشارلز من جديد، كما رفضت أن تتزوج هذا الفنان، ورغم هذا الموقف الغريب فإن تشارلز يفاجأ أن لسارة فتاة أنجبتها منه على أثر هذا اللقاء الوحيد الذي تم في الفندق.

في تداخل رائع يقوم جون فاولز بالمزج بين كل من واقع المرأة والخيالات التي تصنعها، فهي فتاة من العصر الفيكتوري لكنها أيضاً امرأة من القرن العشرين، يقال إنها ماتت في نفس اليوم الذي غزا فيه هتلر بولندا، وهي كما رأينا امرأة غريبة الأطوار لا نستطيع أن نحصرها بين أصابعنا مثل نساء «جامع الفراشات» و«الساحر».

البطل في أدب فاولز يعيش في حلم دائم، ممزوج بالواقع الأقرب إلى الخيال، فلا يمكن أن تفصل بين الاثنين، والكاتب هنا لا يمزج بين أربع شخصيات كل اثنتين منهم في وحدة واحدة ليكونا ثنائيّاً فقط، ويقول بعض النقاد إن فاولز قد مزج بين العصر الفيكتوري في ستينيات القرن الماضي وبين عقلية الكاتب الذي يعيش في أواخر القرن العشرين.

وإذا كان الكاتب قام بوضع ثلاث نهايات مختلفة لرواياته، فإنه عندما كتب في عام ١٩٨١م سيناريو الفيلم الذي أخرجه كارل رايز، قام

بمعالجة مختلفة تماماً لهذه الرواية، حيث يمزج الحلم بالواقع، حين يخلق رجلاً وامرأة يقومان بتمثيل فيلم عن العلاقة بين تشارلز وسارة، الممثل يدعى مايك، أما الممثلة فهي من أمريكا اسمها آنا، وهما يحملان كل صفات التنافر فيما بينهما، وكذلك كل سمات التنافر بينهما وبين الشخصيتين اللتين يجسدانهما، ومع ذلك تصبح الفواصل بين الحقيقة والخيال غير موجودة، فأين الممثل من شخصية تشارلز وأين الممثلة الأمريكية من آنا؟! المفاجأة أن الجميع يندمجون ـ ولو فترة ـ داخل هذه الشخصيات ثم يرحلون ولا يلتقون مرة أخرى.

الباب الأول

(١)

وُلدتُ في عام ١٩٢٧م، كنت الطفل الوحيد لأبوين إنجليزيين من الطبقة المتوسطة، ولقد وُلد أبواي في الظلال الممتدة في تشويه تلك الملكة فيكتوريا القزمة الشديدة البأس، لم يتمكن والداي على الإطلاق من الارتفاع فوق التاريخ بالقدر الذي يسمح لهما بترك تلك الظلال، تم إرسالي لتلقي التعليم في مدرسة عمومية وقضيت عامين من حياتي هباء في أداء الخدمة الوطنية، وذهبت إلى أكسفورد، وهناك اكتشفت أنني لست الشخص الذي أريد أن أكونه.

وكنت قبل ذلك بوقت طويل قد اكتشفت أنه ينقصني الأبوان والجدان الذين أحتاج إليهم، فقد كان والدي برتبة عميد في الجيش وكانت والدتي نموذجا للمرأة التي أصبح زوجها بصدد الحصول على رتبة اللواء العسكرية، بمعنى أنها لم تدخل معه في جدال أو مناقشات على الإطلاق وتتصرف كأن زوجها يسترق السمع في الغرفة المجاورة حتى ولو كان بعيداً على مسافة آلاف من الأميال، نادراً ما كنت أشاهد والدي في أثناء الحرب، اعتدت طوال فترات غيابه الطويلة أن أكون صورة ذهنية عنه تتسم بالنقاء، ولكنه كان يحطم تلك الصورة الذهنية في خلال الـ ٤٨ ساعة الأولى من الإجازة التي يحصل عليها.

إنه يتمسك بالمظاهر السطحية شأن جميع الرجال غير الأكفاء في

وظائفهم، فبدلاً من اللجوء إلى الحكمة فإنه كان يجمع عتاداً من الكلمات المختصرة وإذا ما أتتني الشجاعة ـ وهذا أمر نادر للغاية ـ للدخول معه في جدال فإنه يلجأ إلى إحدى هذه الكلمات الطوطمية، ومما لا شك فيه أنه في الظروف المماثلة كان يخمد الضباط الذين تحت رئاسته بنفس الطريقة، فإذا أصر أحدهم على رفض الأوامر الصادرة له بالاستلقاء والموت فإنه كان يستشيط غضباً، ويتفوه بألفاظ بذيئة، وكان سريع الغضب من السهل عليه أن ينفجر في موجة من الغضب.

هناك أخبار تفيد بأن أسرتنا جاءت من غرب فرنسا.. لا يوجد أحد بين أجدادي قد أظهر أي ميول فنية، فهم جيلاً وراء جيل كانوا يعملون ضباطاً وقساوسة وبحارة وملاكاً لمساحات صغيرة من الأراضي، وكانوا جميعاً لا يتميزون بالنبوغ والتفوق، ولديهم جميعاً ولع شديد بلعب القمار والمضاربات وتضييع الأموال سُدى.

وكان لجدي أربعة أبناء، مات اثنان منهم في الحرب العالمية الأولى، وقد اتخذ الثالث منهم وسيلة دنيئة في سداد ديون القمار فاختفى من أمريكا، ولم يشر إليه والدي على أنه مازال على قيد الحياة، وكان والدي وهو أصغر إخوته لديه كل الصفات التي افترض وجودها لدى الأبناء الكبار.

وفي أثناء السنوات الأخيرة من التحاقي بالمدرسة أدركت أن الأمور الخاطئة في والديّ تتمثل في أنهما لا يمتلكان سوى ازدراء الحياة التي أريد أن أحياها، فقد كنت متفوقاً في اللغة الإنجليزية، وطبعت لي قصائد في مجلة المدرسة، كنت أعتقد أن د.هـ. لورانس هو أعظم إنسان ظهر في القرن العشرين، ومن المؤكد أن والديّ لم يسمعا عنه على الإطلاق، اللهم إلا من حيث ارتباط اسمه بكتاب «عشيق الليدي تشاترلي»، وكانت هناك أشياء مثل: تلك الرقة العاطفية التي تتميز بها

والدتي وذلك المرح الذي يجتاح والدي من وقت لآخر، يمكنني اكتساب المزيد منها عنهما، لكنني أحب فيهما أشياء لا يرغبان في أن يحبا من أجلها وبحلول الزمن الذي بلغت فيه الثمانية عشرة أصبح والداي مجرد شخصين يقدمان لي ما أحتاج إليه من أشياء، وكان عليَّ أن أعبِّر لهما عن العرفان بالجميل.

كنت أعيش نوعين من الحياة، ففي المدرسة اكتسبت شهرة بوصفي إنسان محب للفن وإنسان كلبيّ النزعة، وكان عليَّ أن أنضم للكتيبة العسكرية، فالتقاليد والتضحية بالنفس أرغماني على الانضمام للجيش، عليَّ أن ألتحق بالجامعة فيما بعد ومن حسن الحظ أن ناظر مدرستي وقف إلى جانبي، وواصلتُ العيش في حياة مزدوجة: في الجيش حيث كنت منهمكا في تمثيل دور ابن العميد أورفي أمام الناس مع الاستمرار في القراءة سراً دون أن يعرف الناس ذلك، وعكفت على العمل على تسريح نفسي من الجيش بأسرع ما يمكن.

التحقت بجامعة أكسفورد عام ١٩٤٨م، واضطر والدي أن يسافر بالطائرة إلى الهند، واصطحب أمي معه، وتحطمت الطائرة التي يستقلانها وتحولت إلى محرقة تدار بالبنزين شديد الاشتعال؛ وذلك بسبب تعرضها لعاصفة رعدية على مسافة ٤٠ ميلاً إلى الشرق من كراتشي، وبعد أن تلقيت الصدمة الأولى شعرت بشيء من الارتياح والحرية، ولم يتبق إلا شقيق والدتي الذي يعمل في روديسيا، لذلك لم تعد لديّ أسرة تحاول أن تعرقل اتجاهاتي في الحياة، وربما لم أكن بارا بوالدي ولكني كنت ملتزماً بالنظام والنواحي العلمية.

أو هذا هو ما كنت أعتقده، وشاركني في ذلك مجموعة من الزملاء غريبي الأطوار، أسسنا نادياً صغيراً يُسمى «نادي الثائرين»، وكنا نحتسي معا النبيذ الإسباني شديذ التركيز، ونرتدي الحلل ذات اللون الرمادي

الغامق وأربطة العُنق السوداء في أثناء الاجتماعات التي نعقدها (وكان هذا الزي بمثابة احتجاج ضد تلك السنوات الحقيرة المليئة بالمعاطف المصنوعة من نسيج صوفي خشن سادت في أواخر الأربعينيات). في النادي كنا نتناقش في مسألة الوجود والعدم، فنطلق على السلوك الذي لا ينشأ عن مقدمات بأنه «وجودي»، وكان من المتوقع أن يطلق الناس الأقل استنارة على ذلك السلوك أنه يتسم بغرابة الأطوار والأنانية، ولكننا لم ندرك أن أبطال الروايات الوجودية الفرنسية التي قرأناها لم يفترض فيهم أنهم واقعيون، كنا نحاول تقليدهم ونعتقد بطريق الخطأ أن الوصف المجازي للمشاعر ما هو إلا وصف مباشر للسلوك، كنا نشعر على الفور بالكروب، كنا نود أن نبدو مختلفين عن غيرنا، وكنا نفعل ذلك في نادينا الخاص، ولقد اكتسبت عادات باهظة التكاليف وأساليب زائفة، وكان وهماً من الدرجة الأولى الشعور بأنني كنت شاعراً، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شيء أقل شاعرية من معاناتي في حياتي بوجه عام وفي كسب العيش بصفة خاصة، كنت ساذجاً للغاية بحيث لم أدرك أن المذهب الكلبي يخفي وراءه عجزاً. وقصارى القول إنني لم أدرك أن احتقار كل جهد هو أعظم الجهود على الإطلاق. ولكنني تشربت بالفعل جرعة صغيرة لشيء واحد مفيد بصفة دائمة، وهو أعظم هدية قدمتها أكسفورد للحياة المتحضرة: وهذا الشيء هو الأمانة السقراطية، إذ أوضحت لي على نحو متقطع للغاية أنه لا يكفي للمرء أن يثور ضد ماضيه، وذات يوم أبديت استيائي أمام بعض الأصدقاء وشعوري بالمرارة إزاء الجيش، وعندما عدت إلى مسكني فيما بعد شعرت فجأة بالدهشة من نفسي لأنني قلت أشياء كان من الممكن أن تصيب والدي الميت بسكتة في المخ، إذ كنت لا أزال واقعاً تحت نفوذه وتأثيره، وحقيقة الأمر أنني لم أكن ساخراً ومتهكماً بطبيعتي، وإنما كنت كذلك من خلال تمردي، لقد ابتعدت عن الأمور التي كنت أكرهها ولكنني لم

أعثر على المكان الذي أحبه ولذلك ادعيت بأنه لا يوجد هناك مكان يمكنني أن أحبه.

خرجت إلى العالم العريض الفسيح وأنا مهيأ للفشل، لأن والدي لم يضم كلمة «عدم التبذير في النواحي المالية» لمجموعة الكلمات الجوهرية العسكرية الخاصة به.

كان يحتفظ برصيد بسيط في بنك «لادبروك»، وكانت فواتير الطعام في ميز الضباط تصل إلى أرقام عالية بشكل مذهل لأنه يحب أن يبدو محبوباً بين الناس، كما كان يطلب المشروبات الكحولية في أماكن الجاذبية، وما تبقى من نقوده عقب حصول المحامين ورجال الضرائب على نصيبهم كان مبلغاً ضئيلاً لا يكاد يكفيني لمواجهة نفقات الحياة، ولكن كل وظيفة من الوظائف التي تطلعت إليها ـ سواء في وزارة الخارجية أو في شئون المدينة أو شئون المستعمرات أو البنوك أو التجارة أو الإعلان كانت قابلة للاختراق، وحضرت العديد من المقابلات الشخصية، ولأنني لم أشعر بأنني مضطر لأن أظهر الحماس المليء باللهفة والذي يتوقعه عالمنا من موظف شاب؛ فإنني لم أحرز نجاحاً في أية مقابلة من تلك المقابلات.

وفي نهاية الأمر، استجبت لإعلان صدر في «الملحق التعليمي للتايمز» وذهبت إلى المكان الذي ورد بالإعلان وهو مدرسة عمومية صغيرة وتم تفحصي واختباري ثم عُرضت عليَّ الوظيفة، ثم أصبح من المقرر أن أتسلم العمل بعد ثلاثة أسابيع.

وكان أولاد الطبقة المتوسطة المنتجون على نطاق واسع سيئين بما فيه الكفاية، وكانت المدينة الصغيرة أقرب إلى الكابوس، ولكن الغرفة العمومية المشتركة كانت هي الشيء الذي لا يُحتمل ولا يُطاق، حتى إن الذهاب إلى الفصل أصبح بمثابة إغاثة شيء من الارتياح في النفس، إذ كان الضجر والملل والسأم والتنبؤات السنوية المخدرة للأحاسيس

والمتعلقة بالحياة تهيمن على الموظفين مثل السحابة، كان مللاً وسأماً حقيقيّاً وليس مجرد السأم المتمشي مع الموضة الحديثة، ومن خلال ذلك الملل كان ينساب الرياء والنفاق والحركات الفجائية التي تطيح بالأشياء، كما كان ينساب منه غضب الناس الأكبر سناً الذين أدركوا أنهم فشلوا، وغضب الأصغر سناً الذين يخامرهم الشعور بأنهم سوف يفشلون، كان الأساتذة الكبار يقفون مثل الخطب الدينية التي تشبه المشانق، حيث يشعر المرء الموجود معهم بنوع من الدوار ويشاهد لمحة من لمحات الحفرة الجهنمية التي لا قاع لها والخاصة بالعبث الإنساني.. أو هكذا كان شعوري في أثناء الفترة الثانية من العام الدراسي.

كان بمقدوري أن أقضي حياتي في عبور مثل هذه «الصحراء»، وكلما شعرت بذلك أدركت أن المدرسة المميتة المتحجرة كانت بمثابة ماكيت مصغر للدولة بأكملها، وأن التخلي عن شيء ما دون الشيء الآخر سيصبح أمراً يدعو للسخرية، كما كانت هناك أيضاً فتاة تسبب لي الضيق والضجر.

ولدى انتهاء العام الدراسي تقدمت باستقالتي فقُبلت في إذعان ورضوخ ولقد اعتقد ناظر المدرسة أنني أرغب في الذهاب إلى أمريكا أو إحدى دول الكومنولث.

ـ إنني لم أتخذ قراراً حتى الآن أيها الناظر.

ـ أعتقد أننا قد جعلنا منك مدرساً ممتازاً يا أورفي، وكما تعرف فإنه كان عليك أن تصنع هنا شيئاً، ولكن لقد فات الأوان.

ـ أخشى أن يكون الأمر كذلك.

ـ أنصحك بعدم التجوال بالخارج، وعلى كل حال فأنت قد اخترت هذا من قبل وسوف نشاهد النتائج الآن.

وتساقطت الأمطار بغزارة في اليوم الذي سافرت فيه، كان لدي إحساس غريب وممتع بأنني أفر هارباً، لم أكن أعرف إلى أين أنا ذاهب ولكنني كنت أعرف ما أريده، كنت أريد أرضاً جديدة وسلالة جديدة من البشر ولغة جديدة، كنت بحاجة إلى التوصل إلى سر غامض جديد، رغم أنني لم يكن باستطاعتي التعبير عن ذلك بالكلمات آنئذ.

(٢)

سمعت أن المعهد البريطاني أصدر إعلاناً يطلب فيه مدرسين، لذلك توجهت في أوائل أغسطس إلى شارع دافيز وعقدت لي سيدة امتحاناً شفوياً، وكانت هذه السيدة متقدة بالحماس وذات عقلية حضارية، أوضحت لي في شيء من الثقة أنه من الأمور البالغة الأهمية أن يتم «تمثيلنا» في الخارج عن طريق النموذج الملائم، ولكن الإجراءات مزعجة للغاية، لأن كل الوظائف ينبغي الإعلان عنها وينبغي أن يتم الاختيار من بين المتقدمين بطلبات للحصول على الوظائف عن طريق عقد مقابلة شخصية لهم، وقالت إنهم يركزون على الوظائف بالأماكن التي تقع فيما وراء البحار.. ووصلت إلى لُبّ الموضوع: إن الوظائف الوحيدة المتاحة هي تدريس اللغة الإنجليزية في مدارس أجنبية، هل بدا ذلك شنيعاً للغاية؟

فقلت: إن ذلك شنيع بالفعل.

وفي الأسبوع الأخير من أغسطس وعلى نحو أشبه بالمزاح أصدرت إعلاناً في الصحف وحصلتُ على عدد من الردود على العرض الموجز الذي قدمته والذي ينص على الذهاب إلى أي مكان وإنجاز أي عمل، وبغض النظر عن النشرات التي تذكرني بأنني كنت في مركز قوي وردت ثلاثة خطابات جذابة من أناس مفلسين يتسمون بالحذر.

ولاح شهر سبتمبر في الأفق، فبدأت أشعر باليأس والقنوط،

فاضطررت إلى التفكير في العودة في يأس إلى الوظائف الكئيبة الباهتة اللانهائية، لذلك عدت في صباح أحد الأيام إلى شارع دافيز، وتساءلت: هل لديهم أية وظائف تتعلق بمهنة التدريس بمنطقة حوض البحر المتوسط؟ فانطلقت المرأة التي لها قرون استشعار مخيفة لكي تحضر أحد الملفات، وبدأت أشاهد نفسي في مدريد أو روما أو مارسيليا أو برشلونة.. أو حتى في لشبونة، سيكون الأمر مختلفاً بالخارج، لن تكون هناك حجرة مخصصة للمدرسين وينبغي أن أكتب الشعر، عادت وهي خائفة للغاية ناولتني قصاصة من الورق عن مدرسة في مدينة ميلانو الإيطالية، فهززت رأسي، فوافقتني على رأيي، ثم قالت: تطلب مدرسة اللورد بيرون في فراكزوس باليونان في أوائل أكتوبر مساعد مدرس لتدريس اللغة الإنجليزية، ينبغي للمتقدم للوظيفة أن يكون أعزباً وأن يكون حاصلاً على مؤهل في اللغة الإنجليزية، الراتب في حدود ٦٠٠ جنيه سنويّاً ويمكن تحويله بالكامل، والعقد مدته سنتان وقابل للتجديد، والأجور تسدد في بداية ونهاية التعاقد.

وكانت هناك قصاصة من الورق ملحقة بالإعلان تعطي المزيد من المعلومات، وقد ورد بها أن فراكزوس جزيرة تقع في بحر إيجة على مسافة ٨٠ ميلاً من أثينا، وأن مدرسة اللورد بيرون هذه كانت «واحدة من أشهر المدارس الداخلية التي تقدم المبيت والوجبات للتلاميذ والتي كانت تدار وفقاً لأساليب المدارس العمومية الإنجليزية»، وهذا هو السبب في أنها قد سميت بذلك الاسم، وقد اتضح أن بها كل التسهيلات التي ينبغي أن توجد في أي مدرسة.

كانت تبلغ من العمر حوالي ٣٠ عاماً، ولدت لتكون عانساً، وهي خالية تماماً من مظاهر الأنوثة أو الرجولة، حتى إن ملابسها البالغة الأناقة والمكياج الثقيل الذي تضعه على وجهها جعلها مثيرة للشفقة.

ألقيت نظرة أخرى على قصاصة الورق التي تعطي بعض المعلومات

عن الجزيرة والمدرسة، وأضافت: نحن في الواقع لم يسبق لنا أن قمنا باتخاذ إجراءات لتعيين مدرسين هناك، ونحن نقوم بهذا الإجراء الآن في حقيقة الأمر من قبيل المجاملة للمدرسة.

وعندما عدتُ إلى منزلي قمت بملء طلب الاستخدام الذي أحضرته معها لدى مجيئها إلى المطعم، ثم ذهبت على الفور لإرسال طلب الاستخدام بالبريد، وفي هذا المساء تقابلت مع آليسون.

(٣)

أعتقد أنه كان لدي قدر كبير من الجاذبية الجنسية بالنسبة لسني، فالفتيات أو نوع معين من الفتيات كن يشعرن نحوي بالارتياح والحب، وكانت لدي سيارة ـ وهو أمر كان غير شائع بين الطلبة الذين لم ينتهوا من دراساتهم في تلك الأيام ـ كما كان لدي بعض الأموال، لم أكن دميم الخلقة أو قبيح الشكل، والأهم من ذلك كله أنني كنت أعيش وحيداً بدون أقارب، وهذا في حد ذاته يعتبر سلاحاً مميتاً مع النساء وهو أمر يدركه جيداً كل وغد في المدينة، وكانت «الوسيلة» التي ألجأ إليها هي إظهار اللامبالاة وإظهار المزاج الكلبي وعدم توكيد الأمور، وبعدئذ ومثلما يفعل الساحر المشعوذ مع أرنب أبيض كنت أظهر العواطف الجياشة الانفرادية.

لم أركز على عمليات الفتح والغزو، ولكن بحلول الوقت الذي غادرت فيه أكسفورد كنت قد قمت بفض بكارة ١٢ فتاة، وكنت أجد المتعة في النجاح الجنسي مثلما أجدها في طبيعة الحب الذي يتسم بالزوال من الناحية الظاهرية، كان الأمر يبدو وكأنني إنسان ماهر في لعبة الجولف يكون مغطى من كل الزوايا سواء أكان يلعب أم لا، ولقد رسمت معظم خططي خلال الإجازات بعيداً عن أكسفورد مادام الفصل الدراسي الجديد يعني أنني باستطاعتي أن أترك مكان الجريمة التي

ارتكبتها بكل سهولة، وأصبحت لباقتي في إنهاء العلاقات تكاد تكون في نفس لباقتي لدى البدء في إقامة العلاقات.

قد يبدو الأمر كأنني أضع حسابات لهذه المواقف، لكن ذلك لم يكن ينجم عن البرود الحقيقي بقدر ما ينجم عن الاعتقاد النرجسي في مدى أهمية أسلوب الحياة، اعتقدت بطريق الخطأ أن مشاعر الارتياح التي تتعلق بالإيقاع بفتاة تؤدي دائماً إلى عشق الحرية، وربما أن الشيء الوحيد الذي كان في صالحي: أنني لم أكذب إلا بقدر ضئيل للغاية، حيث كنت أحرص دائماً على أن تدرك الضحية جيداً قبل أن تخلع ملابسها الفرق بين المضاجعة والزواج.

ولكن الأمور أصبحت معقدة آنئذٍ، إذ بدأت في التملص من ابنة أحد كبار المدرسين، كانت جميلة، أدركت فيما بعد أنها كانت عاطفية من أجل تحقيق غرض معين، ألا وهو الارتباط بالزواج مني، فبدأت أشعر بالضيق لأن رغبتي الجسدية في هذه الفتاة قد تتسبب في إرباك شئون حياتي، بل كانت هناك ليلة أو ليلتان شعرت خلالهما أنني على وشك الاستسلام لجانيت وهي فتاة سخيفة تماماً، وكنت أدرك أنني لم أحبها ولن أحبها مستقبلاً على الإطلاق، ولقد ظل منظر الفراق بيننا وهو منظر مرير مليء بالدموع والبكاء في داخل السيارة بجوار بحر يوليو ماثلاً في ذهني، ومن حسن الحظ أنني كنت أدرك أنها ليست حاملاً، وجئت إلى لندن وأنا مليء بالتصميم على الابتعاد عن النساء لبعض الوقت.

كانت الشقة الموجودة في ميدان راسيل التي تقع أسفل الشقة التي قمت باستئجارها شاغرة في معظم شهر أغسطس، ولكنني في أحد أيام الأحد سمعت صوت غلق أبواب في عنف وكانت هناك موسيقى تصدح، وتخطيت فتاتين غير جميلتين على السلالم في يوم الإثنين وسمعتهما تتحدثان، كانتا من أستراليا.

وفي مساء يوم الجمعة طرقا على الباب ووجدت الفتاتين القصيرتين الممتلئتين واقفتين هنالك، قالت:

ـ أوه، هاي، أنا مارجريت، وأسكن في الشقة الموجودة تحتك، يسعدني أن أتعرف عليك، ونحن بصدد إقامة حفل صغير لتناول الخمور، فهل تحب أن تنضم إلينا؟

ـ أوه، حسناً، في حقيقة الأمر.. فالضجة والضوضاء ستتصاعدان لأعلى إلى هنا.

وكان ذلك هو الأسلوب المتبع دائماً: توجيه الدعوة بهدف القضاء على الشكوى من الضجة والضوضاء، فترددت في اتخاذ القرار ثم هززت كتفي في غير مبالاة، وقلت: وهو كذلك، شكراً لك.

ـ «حسناً، هذا أمر رائع، الساعة الثامنة».

وبدأت في النزول على السلالم ثم توقفت وقالت بصوت مرتفع: ألديك صديقة تود أن تحضرها معك؟

ـ ليس لدي صديقة حالياً.

ـ سوف نتخذ الترتيبات اللازمة لك، باي. ثم اختفت، وعندئذ تمنيت لو كنت قد رفضت هذه الدعوة.

نزلت على السلم عندما سمعت الأصوات وتأكدت أن عدداً كبيراً من الناس قد وصل بالفعل، وكنت آمل أن يكون قد تم التخلص من الفتيات القبيحات ـ ودائماً ما تصل الفتيات القبيحات في وقت مبكر، كان باب الشقة مفتوحاً، فدخلت إلى صالة صغيرة ووقفت في مدخل حجرة الجلوس ممسكاً بزجاجة خمر ومتأهباً لتقديم الزجاجة، حاولت أن أعثر في الغرفة المزدحمة على إحدى الفتاتين اللتين شاهدتهما من قبل، وكانت هناك أصوات أسترالية، كما يوجد العديد من الهنود الغربيين، وبدا الأمر كأن الحفل لا يتوافق مع مزاجي، وكنت على

وشك الانزلاق خارجاً في خلال خمس ثوان، وعندئذ وصل شخص ما ووقف في الصالة ورائي.

كانت فتاة في نفس عمري تقريباً، تحمل حقيبة سفر ثقيلة علاوة على حقيبة من الجلد صغيرة معلقة على كتفيها، وكانت مرتدية معطفاً واقياً من الأمطار بالياً من كثرة الأسفار، وكانت بشرتها مدبوغة باللون الأسمر، مما يدل على أنها تعرضت لأشعة الشمس على مدى أسابيع، ولم يكن شعرها غريباً، لأن تسريحة القنفذ كانت هي التسريحة المتماشية مع الموضة، البنات مثل الأولاد وليس البنات مثل البنات، كانت مثل حيوان ضال تبدو غير متمسكة بالأخلاق.

تجنبت الاقتراب من الباب المفتوح واستدعتني، وكانت ابتسامتها خفيفة للغاية ومليئة بالنفاق والرياء والفظاظة.

ـ أيمكنك أن تعثر على ماجي وتطلب منها أن تخرج إليَّ؟

ـ مارجريت؟

فأومأت برأسها، فشققت طريقي إلى داخل الغرفة المزدحمة ثم لمحت مارجريت في نهاية الأمر في المطبخ.

ـ هاي! هل عملتها؟

هنالك شخص ما يريد أن يراك بالخارج، إنها فتاة تحمل حقيبة سفر، «أوه! لا!» ثم استدارت نحو امرأة خلفها، فأدركت أن هناك بعض المتاعب، وترددت بعض الشيء ثم تركت زجاجة البيرة التي كانت تحاول فتحها، وسرت وراء كتفيها الممتلئتين عائداً بين حشد الجمهور.

ـ اليسون! قلت الأسبوع القادم.

ـ لقد أنفقت كل النقود التي كانت معي.

وتسببت الأشياء المسروقة في أن جعلت الفتاة الأكبر سناً تبدو في

غاية القلق والتمزق، حيث بدا عليها الشعور بالذنب والحذر في آن واحد، وتساءلت: هل عاد بيتي؟

وهبط الصوت في تحذير: لا، ولكن تشارلي وبيل عادا.

بدا عليها الغضب، وقالت: «أوه، اللعنة، ينبغي لي أن آخذ حماماً».

- لقد ملأه تشارلي لكي يبرد البيرة، فهو مليء حتى الحافة.

فتدلت الفتاة ذات البشرة التي لفحتها الشمس في ضعف وارتخاء، فتدخلت قائلاً: استخدمي دورة المياه الخاصة بي، في الدور العلوي.

- نعم، يا آليسون، هذا الشاب هو....

- نيقولاس.

- هل تسمح لي؟ لقد عدت توا من باريس.

- بالطبع، ولسوف أصعد معك لأعلى.

- يجب عليّ أن أذهب لأحصل على بعض الملابس أولاً، وبمجرد أن دخلت إلى الغرفة صدرت صيحة عالية.

- هاي إلي! أين كنت أيتها الفتاة؟

وتجمع حولها رجلان أو ثلاثة رجال أستراليين، فقبلتهم جميعاً قبلات سريعة، وفي خلال دقيقة قامت مارجريت وهي واحدة من تلك الفتيات الممتلئات اللائي يقمن برعاية الفتيات النحيلات بدفع الرجال بعيداً، وظهرت آليسون مرة أخرى ومعها الملابس التي تريدها ثم صعدنا السلم معاً.

قالت: يا إلهي من الأستراليين!

- أين كنت؟

- في جميع أرجاء فرنسا وإسبانيا.

ودخلنا معا إلى الشقة.

ـ سأقوم بتنظيف الحمام من العنكبوت وعليك أن تتناولي مشروبا هنالك.

وعندما رجعت عقب الانتهاء من تنظيف الحمام كانت واقفة وقد أمسكت بكأس من الاسكوتش في يدها، وابتسمت لي مرة أخرى، كانت تبذل مجهوداً لكي تبتسم، قمت بمساعدتها على خلع معطف المطر الخاص بها، وكانت تضع عطراً فرنسيّاً، وكان قميصها المزركش بأزهار الربيع قذراً ومتسخاً.

ـ أتسكنين الطابق الأول؟

ـ أوه، بالتأكيد.

رفعت كأسها في نخب صامت، كانت لها عينان رماديتان جريئتان نزيهتان، الشيئان الوحيدان اللذان يتسمان بالبراءة في وجه فاسد كما لو أن الظروف ـ وليست طبيعتها ـ قد أرغمتها على أن تكون صارمة لكي تحمي نفسها ولكي تبدو أنها في حاجة لمن يدافع عنها، وكانت لصوتها مسحة خفيفة من الطابع الأسترالي، وكان يتأرجح ما بين الخشونة ورائحة الأنف الزنخة بعض الشيء والصراحة المكشوفة المباشرة، كانت إنسانة شاذة وغريبة.

ـ أأنت بمفردك في الحفل؟

ـ نعم.

ـ هل ستظل إلى جواري في هذا المساء؟

ـ بالطبع.

ـ أيمكنك أن تعود إليَّ بعد عشرين دقيقة؟

ـ سوف أنتظرك.

ـ أفضل أن ترجع إليَّ.

وتبادلنا ابتسامات مليئة بالحذر وعدت إلى الحفل.

وجاءت مارجريت، وقالت: لدي فتاة إنجليزية لطيفة ومتلهفة لأن تقابلك يا نيقولاس.

ـ أخشى أن تكون صديقتك قد شرعت في ذلك قبل حلول الوقت الملائم.

فحملقت في وجهي ثم نظرت فيما حولها وبعدئذ أشارت لي بيدها لكي أرجع إلى الصالة، وقالت: استمع إليَّ، من الصعب أن أشرح لك الموقف ولكن.. أود أن أقول لك إن آليسون مخطوبة لأخي، وبعض أصدقائه موجودون هذه الليلة.

ـ أهكذا؟

ـ لقد تعرضت لتشويش ذهني شديد.

ـ لست أفهم.

ـ كل ما أوده ألا يحدث أي شجار.

ـ لن أبدأ في أي شيء.

وترامى من الداخل صوت شخص ينادي عليها، وحاولت أن تشعر بأنها واثقة مني ولكنها فشلت في ذلك، نظرت إليَّ نظرة مليئة بالخبرة الطويلة ثم أومأت إليَّ إيماءة حزينة وانصرفت، وانتظرت لفترة في حدود عشرين دقيقة تقريباً بالقرب من الباب، ثم عدت إلى شقتي، ودققت الجرس، وكانت هناك فترة صمت طويلة وبعدئذ ترامى صوت من وراء الباب.

ـ من الذي يدق الجرس؟

عشرون دقيقة.

فُتح الباب، كان شعرها ممشطاً لأعلى، وكانت هناك عباءة ملفوفة

حول جسدها، وكتفاها لهما لون بني غامق للغاية وكذلك الساقان، ورجعت على وجه السرعة إلى غرفة الحمام، وكانت المياه تقرقر في البالوعة، فصحت من خلال الباب:

ـ هناك من حذرني أن أبتعد عنك.

ـ ماجي؟

ـ إنها تقول إنها لا تريد أن ينشب شجار في المنزل.

ـ إنها بقرة ملعونة، وهي بصدد أن تصبح أخت زوجي.

ـ أعرف ذلك.

سادت فترة صمت، واستطردت: ألا يبدو الأمر غريباً للغاية؟ فالمرء يذهب بعيداً ويعتقد أن الناس قد تغيروا ثم يفاجأ أنهم ظلوا كما هم.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ انتظرُ لحظة، انتظرُ دقيقة، انتظرتُ لدقائق عديدة، ولكن الباب فتح، كانت ترتدي فستاناً بسيطاً للغاية ذا لون أبيض وأصبح شعرها ممشطاً لأسفل، وكان وجهها خالياً من الماكياج وبدت أفضل عشرات المرات مما لو كانت قد وضعت الماكياج على وجهها.

ابتسمت ابتسامة خفيفة مقتضبة وقالت:

ـ ما رأيك.. هل شكلي معقول؟

ـ أنت حسناء الحفلة الراقصة.

ونظرت إليَّ على نحو مباشر مما جعلني أشعر بالارتباك، فتساءلتُ: هل ننزل إلى الشقة السفلية، الآن؟

ـ أتسمح لي بمجرد تناول جرعة واحدة؟

فملأت لها كأسها مرة أخرى وبكمية أكبر مما كانت تريد، قالت لي

وهي ترقب الويسكي الذي ينساب إلى الكأس: لست أدري لماذا أنا خائفة؟

ـ مِمَ تخافين؟

ـ لست أدري، ماجي، الأولاد، الحفارون القدامى الأعزاء.

ـ هل تخافين من هذا المنزل الذي يمكن أن يشهد الشجار والمتاعب؟

ـ أوه، يا إلهي! لقد كنت غبية للغاية، لقد كان هناك ولد لطيف، وكنا لا نفعل شيئاً سوى تبادل القبلات، وكان هناك حفل، وذلك هو كل ما في الأمر، ولكن تشارلي أبلغ بيتي، ودخلوا في شجار.. وأنت تعرف فحول الرجال، هؤلاء الرجال الذين لديهم رجولة كاملة.

وفقدتها في الشقة السفلية لبعض الوقت، أصابني إحساس شديد بالاغتراب عن كل شخص حولي، وكانت هناك فتاة تضع نظارة على عينيها ولها عينان قصيرتا النظر في وجه رقيق وهي واحدة من تلك المخلوقات العاطفيات المثقفات اللائي ولدن لكي يتم افتراسهن واستغلالهن بمعرفة الدجالين، ابتسمت لي في حياء من الجانب الآخر للغرفة، كانت واقفة بمفردها، خمنت أنها هي «الفتاة الإنجليزية الظريفة» التي اختارتها مارجريت من أجلي، كان أحمر الشفاه في وجهها شديد الاحمرار، وكانت مألوفة مثل نوع من الطيور، وأعرضت بوجهي عنها كأنني أبتعد عن حافة صخرة ثم ذهبت وجلست على الأرض بجوار رف للكتب، وهناك تظاهرت بأنني أقرأ كتاباً له غلاف من ورق غير سميك.

وركعت آليسون إلى جواري، لقد أطاح برأسي ذلك الويسكي، ثم تناولت قدراً من مشروب الجِن.

وفكرت في وجه الفتاة الإنجليزية الأبيض ذات الفم الملطخ باللون

الأحمر، على الأقل كانت هذه الفتاة مفعمة بالحيوية، صحيح أنها تبدو قليلة الخبرة، ولكنها مليئة بالحيوية.

وقلت: إنني سعيد لعودتك في هذه الليلة، وراحت ترتشف مشروب الجن الخاص بها، ورمقتني بنظرة سريعة.

حاولت مرة أخرى... هل سبق لك أن قرأت هذا؟

ـ فلننفذ إلى الموضوع مباشرة، وليذهب الإنتاج الأدبي إلى الجحيم، أنت إنسان ذكي وأنا إنسانة جميلة، والآن فلنتحدث عمن نكون نحن في حقيقة الأمر.

وعذبتني العينان الرماديتان أو تجاسرت على ذلك.

ـ من هو بيتي؟

ـ إنه طيار، ونحن نقيم معا، من وقت لآخر، وذلك هو كل ما في الأمر، وهو بصدد الدخول في دين جديد، في الولايات.

ثم حملقت في أرضية الغرفة وبدت للحظات فتاة مختلفة تتسم بالمزيد من الوقار، وأضافت: «وماجي هي التي تدعي أننا مخطوبان، ولكننا لسنا كذلك، واستطردت: نحن بدون خطوبة حتى الآن».

ولم يكن من الواضح ما إذا كانت تتحدث عن خطيبها أو تتحدث لصالحي، أو ما إذا كانت الحرية هي مجرد ادعاء من جانبها أو حقيقة واقعة.

ـ وما هي الأعمال التي تقومين بها؟

ـ بعض الأمور، معظمها أعمال في قسم الاستقبال.

ـ بالفنادق؟

جعدت أنفها وقالت: «أي شيء، ولقد تقدمت بطلب للحصول على

وظيفة جديدة: مضيفة جوية، وهذا هو السبب في أنني بدأت في تقوية نفسي في اللغة الفرنسية والإسبانية في الأسابيع الأخيرة.

ـ أيمكننا أن نخرج معاً غداً؟

وجاء رجل أسترالي ثقيل الوزن في الثلاثينيات من عمره واستند على عمود جانبي بالباب في مواجهتنا، فصاحت عبر الغرفة: «أوه تشارلي، لقد سمح لي باستخدام الحمام الخاص به توّاً، وهذا أمر لا أهمية له».

فأومأ تشارلي برأسه في بطء، ثم أشار بإصبع قصير غليظ في شيء من التحذير، ثم دفع بنفسه للسير في خط مستقيم وانصرف مترنحاً.

ـ شيء ممتع، وقبلت يدها ونظرت إلى راحة يدها.

ـ هل أمضيت عامين ونصف العام في معسكر ياباني يضم أسرى الحرب؟

ـ لا، لماذا تسألين هذا السؤال؟

ـ لقد أمضى تشارلي هذه الفترة في معسكر ياباني لأسرى الحرب.

ـ مسكين تشارلي.

ـ الأستراليون أناس وقحون ولا يتصفون بالوسامة، والإنجليز خنازير.

ـ لو أنك...

ـ إنني أسخر منه لأنه واقع في حبي وهو يرتاح لذلك، ولكن لا يسخر منه أي شخص آخر، إذا كنت موجودة في مكان قريب.

وسادت فترة صمت أخرى:

ـ آسفة.

ـ وهو كذلك.

ـ بشأن الغد؟

ـ لا، بشأنك.

وعلى نحو تدريجي جعلتني أتحدث عن نفسي، لقد فعلت ذلك من خلال توجيه الأسئلة الجريئة ومن خلال التغاضي عن الإجابات الخاوية، فبدأت أتحدث عن مشاعر الوحدة القاسية التي أمر بها وركزت على شرح جوانب شخصيتي في بساطة شديدة وبدون اللجوء إلى التجمل، واكتشفت شيئين في آليسون: أنها كانت ـ على الرغم من الفظاظة وتبلد الحس الذي تبدو عليه ـ خبيرة في شئون الملاطفة وتعرف كيف تسوس الرجال، بل كانت تتميز باللياقة الجنسية وأن جاذبيتها تكمن في صراحتها وإخلاصها بل في جسدها الجميل ووجهها المثير وإدراكها لتلك الحقائق، كانت لديها مقدرة على أن تظهر فجأة بعض الحقائق وبعض الأمور الجادة علاوة على موجات من الاهتمام السريع، وكنت أدرك أنها كانت ترقبني، وبعد لحظات نظرت إليها، كانت على وجهها تعبيرات تدل على الخجل والاستغراق في التفكير، كانت كياناً جديداً.

ـ يا آليسون، كم أشعر بالارتياح نحوك.

ـ وأعتقد أنني أميل إليك أيضاً، فأنت لديك فم لطيف، بالنسبة لشخص متزمت.

ـ أنت أول إنسانة أسترالية قابلتها في حياتي.

ـ ياللمسكين.

كانت جميع الأضواء قد أطفئت منذ فترة طويلة باستثناء ضوء واحد معتم وكانت المجموعات الثنائية من ذكر وأنثى والمستسلمة كالمعتاد مستلقية على كل قطع الأثاث المتاحة وعلى المساحات الشاغرة بأرضية الغرف، لقد توزع جميع الحاضرين وأصبحوا كل اثنين مع بعض، وبدت ماجي وكأنها قد اختفت تماماً، وكان تشارلي غارقاً في نوم عميق فوق أرضية غرفة النوم، بدأنا في الرقص متقاربين ثم ازداد اقترابنا

وقمت بتقبيل شعرها ثم رقبتها وقامت هي بالضغط على يدي وزادت من اقترابها مني.

ـ هل سنذهب إلى الدور العلوي؟ اذهب أنت أولاً، وسأجيء إليك بعد لحظات.

ثم انزلقت وصعدت أنا إلى شقتي، ومرت عشر دقائق، وبعدئذ وصلت إلى باب شقتي وقد أظهرت ابتسامة خفيفة، كانت تقف هنالك في ردائها الأبيض ضئيلة الحجم وبريئة، وفاسدة خلقيّاً وخشنة، ورقيقة ومبتدئة، وخبيرة.

ودخلت ثم أغلقت الباب وعلى الفور اندمجنا في قبلات على مدى دقيقة أو دقيقتين وانضغط جسدانا على الباب في الظلام، وكان هناك وقع أقدام بالخارج ثم طرق حاد على الباب تكرر مرتين، فوضعت آليسون يدها على فمي، وجاء الطرق الحاد على الباب مرة أخرى، وساد التردد وتزايدت ضربات القلب، ثم تلاشى وقع الأقدام.

فقالت: ضمني تعال إليَّ.

(٤)

استيقظت في وقت متأخر من صباح اليوم التالي، أما هي فكانت لا تزال نائمة، وقد استدارت بظهرها العاري البني اللون بعيداً عني، فاتجهت إلى المطبخ وقمت بإعداد شيء من القهوة وأخذت القهوة إلى غرفة النوم، كانت قد استيقظت وراحت تحملق في من فوق بطانيات السرير، كانت نظراتها طويلة، خالية من التعبيرات، فجلست إلى جوارها وحاولت أن أكتشف ما إذا كان هناك شيء خاطئ، ولكنها ظلت جاذبة ملاءة السرير في إحكام على رأسها، لذلك توقفت عن التربيت عليها وعدت إلى قهوتي، وبعد فترة قصيرة نهضت جالسة في السرير

وطلبت سيجارة، ثم سألتني هل بالمستطاع أن أعيرها قميصا، لم تكن تنظر إليَّ نظرات مباشرة في عيني، ثم ارتدت القميص واتجهت إلى الحمام، وأبدت عدم اهتمامها بي بأن هزت شعرها لدى عودتها من الحمام وارتمائها على السرير مرة أخرى، فجلست عند نهاية السرير ورحت أرقبها وهي تحتسي القهوة.

ـ ماذا في الأمر؟

ـ هل تعرف كم عدد الرجال الذين اضطجعت معهم خلال الشهرين الماضيين؟.

ـ خمسين؟

لم تبتسم: لو نمت مع خمسين لأصبحت محترفة.

ـ تناولي المزيد من القهوة!.

ـ بعد نصف ساعة من رؤيتي لك في الليلة الماضية اعتقدت أنني إذا كنت إنسانة فاسدة بالفعل فإنني سأستلقي في السرير معك.

ـ شكراً جزيلاً.

ـ لقد حكمت عليك من الطريقة التي تحدثت بها.

ـ حكمت عليَّ بماذا؟

ـ بأنك من طراز بياع الأجساد.

ـ هذا أمر يدعو للسخرية.

وسادت فترة صمت.

وقالت: لقد مرغت في الأوحال وأصبحت أشعر بالإرهاق الشديد..

آسفة، أنت إنسان لطيف، ورائع للغاية في السرير، أتفعل ذلك باستمرار؟

ـ لست معتاداً على هذا.

ـ إنني معتادة على ذلك.

ـ هذه ليست جريمة، كل ما هنالك أنك تبرهنين على أنك لا ترغبين في الزواج من ذلك الشخص.

عمري ٢٣ عاماً، كم عمرك؟

ـ ٢٥ عاماً.

ـ هل ستظل شخصيتك على ذلك النحو للأبد؟ إن ما أشعر به هو أنني سأظل فتاة مومساً أسترالية غبية للأبد.

ـ هدئي من روعك.

ـ أود أن أقول لك ما يفعله بيتي في هذه اللحظة، إنه يكتب الخطابات إليَّ ليقول لي: (لقد خرجت مع فتاة يوم الجمعة الماضي وتم بيننا «ووزامارو»).

ـ ما معنى ذلك؟.

ـ هذا معناه «وأنت أيضاً يمكن لك أن تنامى مع أي شخص تحبين أن تضطجعي معه.

وراحت تحملق إلى الخارج من خلال النافذة، وأضافت: لقد عشنا معاً طوال فصل الربيع، ونحن تحقق التوافق بيننا، ونحن مثل أخ وأخت عندما نغادر السرير، أنت لا تعرف ما تشعر به فتاة عندما تستيقظ من النوم لتجد نفسها مع رجل لم تتعرف عليه إلا منذ الأمس، أنه أمر يوحي بأن الفتاة تفقد شيئاً ما، ليس مماثلاً تماماً لما تفقده جميع الفتيات.

ـ أو تكسب شيئاً ما.

ـ يا إلهي، ما الذي تكسبه الفتاة التي تفعل ذلك، أخبرني.

ـ الخبرة والمتعة.

ـ هل أخبرتك بأنني أحب فمك؟

ـ مرات عديدة.

فأطفأت السيجارة وجلست في اعتدال.

ـ أتعرف السبب الذي جعلني أبكي الآن؟ لأنني سأتزوجه، بمجرد أن يعود سأتزوجه، إنه هو كل ما أستحقه.

وجلست مستندة بظهرها على الحائط وهي مرتدية القميص الفضفاض على جسدها الأنثوي النحيل الضئيل الذي له وجه يدل على كثرة ما تعرضت له من آلام جسدية، وراحت تحملق فيَّ وتحملق في أغطية السرير في أثناء فترة الصمت التي سادت بيننا وقالت:

ـ أشعر بالتعاسة عندما أنخرط في التفكير ـ عندما أستيقظ من النوم وأشاهد ما أنا عليه.

ـ الآلاف من الفتيات يفعلن ذلك.

ـ لست مثل الآلاف من الفتيات.

انزلقت بالقميص على رأسها ثم تراجعت تحت أغطية الفراش.

وتساءلت: ما هو اسمك الحقيقي؟ ما هو اسم أسرتك؟

ـ أورفي.

ـ اسمي كيللي.

ـ ألا تعتقد أنني مومس؟

ربما آنئذٍ وأنا أنظر إليها عن كثب شديد كانت لدي حرية التعبير عن رأيي.

كان بمقدوري أن أقول لها ما يدور في ذهني: نعم، أنت مومس بل والأسوأ من ذلك أنك تستغلين مومسيتك، ولكم تمنيت لو كنت قد أخذت بنصيحة أخت زوجك، وربما لو كنت موجوداً في مكان بعيد

عنها في الجانب الآخر من الغرفة أو في أي مكان بعيد عنها بحيث يمكنني تجنب عينيها لكنت قد اتخذت الأسلوب الوحشي في ردي عليها، ولكن تلك العينين الرماديتين اللتين تتوسلان إليَّ ألا أكذب، هما اللتان جعلتاني أكذب.

ـ إنني أشعر بالود والارتياح نحوك، كثيراً للغاية في حقيقة الأمر.

ـ عد إلى السرير وأمسك بي، عانقني فقط، فألقيت بنفسي على السرير واحتضنتها، ولأول مرة في حياتي اضطجع مع امرأة غارقة في دموعها.

وقد بكت بالدموع أكثر من مرة في ذلك اليوم الأول من أيام السبت، لقد نزلت إلى الدور الأول لتقابل ماجي في نحو الساعة الخامسة ثم عادت وقد احتقنت عيناها بالاحمرار والدموع، حيث قامت ماجي بطردها من المنزل، وبعد نصف ساعة صعدت آن ـ وهي تلك الفتاة الأخرى الموجودة في الشقة وهي واحدة من تلك الإناث اللائي تنحدر وجوههن بشكل مسطح تماماً ابتداء من فتحتي الأنف حتى الذقن، إلى شقتي بالدور العلوي، لقد خرجت ماجي من شقتها وأرادت أن تقوم آليسون بنقل كل حاجياتها، لذلك نزلنا على السلالم وقمنا بإحضار حاجياتها، وتحدثت مع آن، وبأسلوبها الهادئ الذي يميل إلى التحفظ بعض الشيء أظهرت تعاطفاً مع آليسون أكثر مما كنت أتوقع، وكان الواضح أن ماجي متغافلة تماماً عن أخطاء أخيها.

وظلت آليسون ملتزمة بعدم الخروج إلا في الليل على مدى أيام حيث كانت خائفة من ماجي، كنت أذهب لأشتري الطعام وكنا نتحدث معاً وننام معاً ونمارس الحب ونرقص معاً ونطهو الطعام في أي وقت بعيدين عن الالتزام بالأوقات المعتادة التي يتم فيها طهو الطعام مثل ابتعادنا عن عالم لندن الكئيب الماثل خارج النوافذ.

كانت آليسون أنثوية الطابع دائماً، فهي لم تخن أبداً جنسها الأنثوي مثلما تفعل العديد من الفتيات الإنجليزيات، لم تكن جميلة بل لم تكن وسيمة في كثير من الأحيان، كان لها قوام صبياني نحيل يتماشى مع الموضة، وكانت ذات ذوق معاصر في الملابس وتتعمد أن تمشي بطريقة معينة، وكان إجمالي كيانها يزيد على مجموع أعضاء جسدها على نحو غير عادي، كنت أجلس في السيارة وأرقبها وهي تسير في الشارع متجهة نحوي وهي تتوقف وتعبر الطريق وكانت تبدو رائعة في ناظري، ولكنها عندما تكون قريبة مني أو بجواري، فكثيراً ما تبدو أشبه بطفلة فاسدة الأخلاق، بل قبيحة الشكل وبعدئذٍ تأتي بحركة ما أو بتعبير أو بزاوية من وجهها وعندئذ يصبح القبح أمراً مستحيلاً.

اعتدت أن أشاهد الرجال ينزلقون بعيونهم نحوها لدى مرورها بالقرب منهم، كانت واحدة من الفتيات النادرات اللائي ولدن مزودات بهالة طبيعية من النشاط الجنسي بحيث يلفتن النظر حتى في حالة وجودهن بين نساء جميلات بالفعل، فالأمور في حياتهن دائماً تتركز على العلاقات مع الرجال لأن أهم الأمور عندهن هي الكيفية التي تكون عليها ردود الفعل لدى الرجال، حتى إن أكثر الرجال وداعة يشعرون بوجود هذه الهالة الطبيعية.

كانت آليسون تبدو أكثر بساطة عندما تزيل الماكياج، فهي لم تكن صورة طبق الأصل من ذاتها في خلال تلك الساعات الاثنتي عشرة الأولى، إلا أنها ظلت دائماً إنسانة لا يمكن التنبؤ بما يدور في داخلها، إذ لا يمكن للمرء أن يعرف متى ستظهر شخصيتها لأن تضحي بنفسها في عنف وبعدئذ تتثاءب في اللحظة غير المناسبة تماماً، كما كانت على استعداد لأن تقضي يوماً بأكمله في ترتيب وتنظيف الشقة وفي الطهو وكي الملابس ثم تقضي الأيام الثلاثة أو الأربعة التالية مستلقية على الأرض في بوهيمية أمام المدفأة وقد انهمكت في قراءة المجلات

النسائية، كانت تحب إنجاز الأمور وعمل الأشياء، لكنها عندئذٍ فقط تعثر على سبب يدعوها إلى إنجاز الأعمال.

ذات يوم عادت إليَّ ومعها قلم حبر غالي الثمن.

ـ هذا من أجل المسيو «ولكن ما كان ينبغي لك»، الموقف على ما يرام، فقد سرقته، إنني أسرق كل شيء، ألم تدرك ذلك؟

ـ كل شيء!

ـ إنني أسرق من المحالّ الكبيرة فقط، فهم يرغبون في ذلك، لا تنظر إليَّ هكذا في دهشة بالغة.

ـ لست مدهوشاً.

ولكنني في حقيقة الأمر كنت مدهوشاً، وقفت ممسكاً بالقلم في حرص وحذر لكي لا أتسبب في إصابته بأية أضرار، فابتسمت: إنها مجرد هواية، إنني أكره المحلات الضخمة، ولا أكره الرأسماليين، هدئ من روعك وكن رياضيّاً وابتسم، لقد أصبحت الآن مثل النعامة الصغيرة عقب الجريمة.

ووقفت إلى جواري في أثناء قيامي بصب الخمور وقالت: يا نيقولاس، هل تعرف السبب الذي يجعلك تأخذ الأمور مأخذ الجد أكثر من اللازم؟ لأنك تتخذ موقفاً جاداً للغاية من نفسك.

وابتسمت لي ابتسامة ضئيلة غريبة تجمع بين الرقة والسخرية، ثم انصرفت بعيداً لكي تقشر البطاطس، فأدركت على نحو غامض أنني أسأت إليها وإلى نفسي.

ذات ليلة سمعتها تذكر أسماء في أثناء استغراقها في النوم، سألتها في صباح اليوم التالي: من هو ميشيل؟

ـ إنه شخص أريد أن أنساه. وراحت تتحدث عن أمها الإنجليزية، وقالت إنها لطيفة، لكنها تميل إلى فرض سيطرتها، وتحدثت عن والدها

الذي كان يعمل ناظر في محطة للسكة الحديد والذي مات بالسرطان منذ أربع سنوات.

ـ وذلك هو السبب في حصولي على ذلك الصوت المخبول الذي أتميز به في حنجرتي، إنهما والداي يظلان على قيد الحياة عقب المشاجرات في كل مرة أفتح فيها فمي، وأعتقد أن هذا هو السبب الذي جعلني أكره أستراليا، لم أتمكن على الإطلاق من الإحساس بالسعادة هناك ومع ذلك دائماً أشعر بالحنين للوطن، فهل هذا الكلام معقول؟

كانت دائماً تسألني هل كلامها مفهوم ومعقول.

ـ ذهبت لزيارة أسرتنا القديمة في ويلز حيث يقيم عيسى وهو شقيق والدتي، فوجدت الأمور تكفي لأن تجعل الحيوانات الصغيرة تبكي.

ولكنها وجدتني إنجليزي الطابع للغاية ومبهراً تماماً، ولأنني كنت «مثقفاً» إلى حدٍ ما، وهي كثيراً ما تستخدم في حديثها كلمة «مثقف»، أما بيتي فكان دائماً يصيح فيها بصوت يشبه صوت الأوزة، ذات يوم قالت: أنت لا تعرف مدى ظرف بيتي، فبالإضافة إلى أنه ابن زنا فهو ابن غير شرعي، وأنا دائماً أعرف ما يريده، أعرف ما يفكر فيه وماذا يقصد عندما يقول أي كلام، أما أنت فلا أستطيع أن أعرف منك أي شيء، فأنا أسيء إليك ولا أعرف السبب في ذلك، وأنا أدخل عليك السرور ولا أعرف السبب في ذلك.

كانت قد استكملت تعليمها في المرحلة الثانوية في أستراليا، وأمضت عاماً في دراسة اللغات في جامعة سيدني، إلا أنها تقابلت مع بيتي آنئذ، ثم تعقدت الأمور وأجريت لها عملية إجهاض ثم جاءت إلى إنجلترا.

ـ هل هو الذي طلب منك أن تتخلصي من الجنين؟

كانت جالسة فوق ركبتي.

ـ لم يعرف على الإطلاق أنني حامل، ربما كان السبب في الحمل شخصاً ما آخر، لم أكن متأكدة من ذلك.

ـ أنت مسكينة.

ـ وكنت أدرك أنه إذا كان بيتي هو السبب في الحمل فإنه لن يرغب في الحصول على المولود وإذا لم يكن الجنين بسببه فلن يرغب في الحصول على المولود، هكذا كان الأمر.

ـ ألم تكوني أنت.

ـ لم تكن لدي الرغبة في الحصول على مولود لأنه كان سيصبح عقبة في طريقي. ولكنها أضافت في مزيد من الرقة: «نعم، لقد كنت».

ـ ومازلت؟

فساد الصمت، ثم هزت كتفيها بعض الشيء، أحيانا لم يكن بمقدوري مشاهدة وجهها، فجلسنا في صمت، وكلانا يدرك أننا متلاحمان ومتورطان في الخجل والارتباك بسبب تعقيدات هذا الكلام الذي ينصب على الأطفال، ففي هذه المرحلة من العمر التي نمر بها لم يكن الجنس هو الذي يطل برأسه القبيح وإنما الحب هو الذي يطفو على السطح.

وذات مساء ذهبنا معاً لكي نشاهد فيلماً قديماً لمارسيل كارنيه، بعنوان «رصيف الضباب»، وانخرطت في البكاء عندما خرجنا من السينما ثم انخرطت في البكاء مرة أخرى عندما أصبحت في السرير، وأحست بعدم رضائي عن ذلك.

ـ أنت لست أنا، ولا يمكنك أن تشعر بالأحاسيس نفسها التي أشعر بها.

ـ يمكنني ذلك.

ـ لا، لا يمكنك، أنت تفضل ألا تشعر أو بأي شيء من هذا القبيل، ثم يبدو لك كل شيء وكأنه على ما يرام.

ـ ليس كل شيء على ما يرام، ولكن كل شيء ليس رديئاً للغاية.

ـ ذلك الفيلم جعلني أشعر بما أحس به إزاء كل الأمور، إذ لا يوجد هناك أي مغزى أو معنى، فأنت تحاول أن تكون سعيداً ثم يحدث شيء ما بطريق المصادفة وينتهي.. ذلك كل شيء، والسبب هو أننا لا نؤمن بوجود حياة عقب الموت.

ـ ليست المسألة هي أننا لا نؤمن، وإنما هي أننا لا نستطيع أن نؤمن.

ـ في كل مرة تخرج فيها بدون أن أكون موجودة معك، فإنني أعتقد أنك قد تموت، بل إنني أفكر في مسألة الموت في كل يوم، وفي كل مرة أضاجعك فيها أعتقد أن الاضطجاع انتزعني من بين براثن الموت، تماماً مثلما يكون لديك كمية كبيرة من النقود بينما المحالّ والدكاكين على وشك أن تغلق أبوابها في خلال ساعة واحدة، إنه أمر يدعو للضيق ولكنك مضطر لأن تنفق، فهل هذا يوحي بأي معنى مفهوم أو معقول؟

ـ بالطبع، القنبلة الذرية.

ـ إنها ليست القنبلة، إنها نحن، وكانت تؤمن بأنها ينبغي لها أن تكون وحيدة تماماً في هذا العالم وألا تكون لديها أية ارتباطات عائلية.

وعندما قمت ذات يوم بإبداء ضيقي وتبرمي بسبب عدم وجود أي أصدقاء حميمين لي مستخدماً التعبير المجازي الخاص بي: القفص الزجاجي الذي يحول بيني وبين باقي أنحاء العالم ـ فإنها اكتفت بالانفجار في الضحك، ثم قالت: أنت تحب ذلك الوضع، أنت تقول عن نفسك إنك معزول، ولكنك تعتقد في حقيقة الأمر أنك مختلف.

وقامت بتحطيم الصمت المليء بالآلام والذي اجتاحني بأن قالت في

وقت متأخر للغاية: أنت إنسان مختلف عن الآخرين، تزوج من أي فتاة، تزوجني.

قالت تلك العبارة كما لو كانت تقترح عليّ أن أتناول أسبرين للقضاء على الصداع، فركزت عيني على الطريق.

ـ أنتِ سوف تتزوجين بيتي.

ـ وأنت لن تتزوجني لأنني مومس ولأنني من سكان المستعمرات.

ـ آمل ألا تستخدمي تلك الكلمة.

كنا دائماً نبتعد عن حافة الهاوية الخاصة بالمستقبل، كنا نتحدث عن مستقبل ما وعن الحياة في كوخ حيث ينبغي لي أن أقوم بالتأليف والكتابة ونتحدث عن شراء سيارة والتجول بها عبر أرجاء أستراليا.

وانزلقت الأيام وذابت متداخلة في أيام أخرى، وبصرف النظر عن أي شيء آخر فإنها كانت أكثر إسعاداً من الناحية الجسمانية، وفي خارج السرير كنت أشعر بأنني أقوم بتعليمها وإضفاء الطابع الإنجليزي عليها من حيث المظهر والشخصية ولهجتها في نطق الكلمات والعبارات علاوة على تهذيب جوانب الخشونة في شخصيتها وتهذيب طابعها الإقليمي، أما في داخل نطاق السرير فكانت تقوم بمهمة التعليم، وكنا ندرك هذا التبادل في العملية التعليمية بدون أن نكون قادرين على تحليل ذلك، ربما لأننا مجرد طفلين أعزبين، كل منا لديه شيء ما يعطيه وشيء ما يكتسبه.. وفي نفس الوقت كانت لدينا أرضية مشتركة مادية، ونفس الرغبات ونفس المشارب والأذواق علاوة على فن الحب ولكن هذا هو ما كنت أفكر فيه في ذلك الوقت.

أذكر ذات يوم عندما كنا نقف في إحدى الغرف في متحف «تات»، كانت آليسون مستندة بعض الشيء عليَّ وممسكة بيدي حيث كانت تنظر بطريقتها اللطيفة إلى لوحة لرينوار، وفجأة هبط عليَّ إحساس بأننا بمثابة

جسد واحد وأنها إذا اختفت فسوف أفقد نصف كياني، شعور رهيب شبيه بالموت كان سينظر إليه أي شخص آخر على أنه بمثابة حب عميق، لكنني اعتقدت أن ذلك هو أمر نابع من الرغبة الجامحة، فانطلقت بها بالسيارة إلى المنزل وقمت بتمزيق ملابسها.

وفي يوم آخر تقابلنا بطريق المصادفة مع بيللي وايت، إنه رجل لطيف وليس من النوع الذي يتعالى على من يعتبرهم أدنى منه، إلا أنه كان يحمل في جوانبه ـ ربما على الرغم منه ـ مسحة من طبقة اجتماعية منغلقة على نفسها بالإضافة إلى اتصاله المستمر مع أفضل الناس مع حرصه على تقليد الطبقة العليا الاجتماعية، فانطلقنا إلى بار يقدم المحار، ولم تتكلم آليسون إلا بقدر ضئيل للغاية ولكنني شعرت بالخجل بسبب لهجتها، حيث كان هناك فارق بينها وبين الزبائن الآخرين الجالسين بالقرب منا، وتركتنا للحظات، بينما كان بيللي يصب الكمية الأخيرة من خمور عنب الموسكاديت.

ـ إنها لفتاة لطيفة أيها الولد.

قلت: إنها أرخص من التدفئة المركزية، أدركت ما كان يدور في ذهنه، وظلت آليسون صامتة تماماً بعد أن تركناه، وكنا منطلقين بالسيارة إلى هامبستيد لكي نشاهد فيلماً، فنظرت إلى وجهها المتجهم.

ـ ماذا في الأمر؟ ما هي الأمور الخاطئة التي حدثت؟

ـ أنتم أيها الإنجليز تبدون في بعض الأحيان في غاية الوضاعة، لقد كنت تعاملني كما لو أنني لم أكن أنتمي إليك.

ـ لا تكوني سخيفة!

ـ كما لو كنت إنسانة لعينة دموية في حالة سقوط بنطلوني على الأرض أو أي شيء من هذا القبيل.

ـ من الصعب عليَّ للغاية أن أوضح لك الأمور وأشرح لك!

ـ لست من النوع الذي يخدع بهذا الكلام، هذا لا ينفع معي!

وذات يوم قالت: ينبغي لي الذهاب غداً لكي أحضر المقابلة الشخصية التي ستعقد لي.

ـ هل تريدين الذهاب؟ أعتقد أنك لم تفكري في الأمر جيداً.

سأشعر بالارتياح في حالة قبولهم لي، لمجرد أن أعرف أنني قد قبلت، وغيرت موضوع الحديث، وفي نفس اليوم التالي وصلني خطاب لكي أحضر مقابلة شخصية، واعتقدت آليسون أنها حازت القبول، وبعد ثلاثة أيام وصلها خطاب يفيد أنها قد ووفق عليها لكي تدخل في التدريب وأنها ستبدأ في خلال عشرة أيام.

وعقد لي امتحان بمعرفة مجموعة من الموظفين المهذبين، وقابلتني آليسون بالخارج وذهبنا معاً لتناول وجبة طعام في مطعم إيطالي مثل شخصين أجنبيين، كان وجهها مليئاً بالإرهاق وخداها منتفخين، فسألتها عما كانت تفعله في أثناء عدم وجودي معها؟

ـ «كنت أكتب خطاباً».

ـ «إليهم»؟

ـ «نعم».

ـ هل أخبرتهم أنك نجحت في المقابلة الشخصية؟

سادت فترة صمت حرجة وصعبة، كنت أعرف ما تريد أن أقوله، كنت أشعر بما يشعر به المصاب بمرض المشي في أثناء النوم والذي يستيقظ من نومه عند نهاية حافة السقف، إذ لم أكن مستعداً للزواج والاستقرار، ولم أكن قريباً إليها للغاية من الناحية النفسية، كان هناك شيء ما لا أستطيع تحديد كنهه، شيء ما غامض بيني وبينها.

«بعض رحلات الطيران الخاصة بهم تذهب عن طريق أثينا، فإذا

كنت موجوداً باليونان فإنه يمكننا أن نتقابل، وربما ستكون أنت في لندن».

وبدأنا نضع الخطط التي تضمن لنا العيش معاً في حالة عدم حصولي على الوظيفة في اليونان.

لكنني حصلت على الوظيفة في اليونان، إذ وصل خطاب يفيد بأن اسمي قد اختير ليقدم إلى هيئة للتدريس بالمدرسة وأنه ينبغي لي أن أذهب إلى اليونان في أول أكتوبر.

ووضعت الخطاب في يد آليسون ورحت أرقبها وهي تقرأ الخطاب، كنت أتوقع أن تبدي بعض الأسف، لكنها بدلاً من ذلك راحت تقبلني.

ـ لقد أخبرتك، فلنحتفل بهذا المناسبة، هيا بنا إلى الريف.

وتركتها تنطلق بي بعيداً، لم تأخذ الأمر مأخذ الجد، ولم تكن لديّ الشجاعة الكافية التي تعينني على أن أتوقف وأفكر في السبب الذي جعلني أحس بأن مشاعري جُرحت على نحو غير مباشر وذلك بسبب رفضها لأن تأخذ الأمور مأخذ الجد، لذلك انطلقنا إلى الريف وعندما عدنا ذهبنا لكي نرقص في كازينو سوهم، تم كل ذلك بدون أن تأخذ الأمر مأخذ الجد.

ـ يا آليسون، ما الذي سأفعله غداً؟

ـ سوف توافق.

ـ هل تريدين أن أوافق؟

ـ لن يحيق بنا الخراب مرة أخرى.

كنا في حالة استلقاء على الظهر، وكانت عيناها مفتوحتين، وهناك إلى أسفل ألقت أوراقاً ضئيلة موجودة أمام عمود كهربائي بظلال عبر السقف في غرفتنا.

ـ لو قلت لك ما أشعر به نحوك، فإنك سوف...

ـ أعرف ما تشعر به.

وكان هناك ذلك الأمر «الصمت المليء بالاتهام»، لمست بطنها العارية، فدفعت يدي بعيداً عنها، لكنها ظلت ممسكة بها.

ـ نحن نشعر بما هو صالح وخير، إن الأمر هو ما نشعر به معاً، إن ما تحس به أنت هو ما أحسه كذلك، فأنا امرأة.

دب الخوف والرعب في كياني وحرصت على أن أتوخى الدقة في إجابتي:

ـ هل تتزوجينني إذا طلبت منك ذلك؟

ـ لا يمكنك أن تقول هذا على ذلك النحو.

ـ إنني على استعداد لأن أتزوجك غداً إذا اعتقدت أنك في حاجة إليّ بالفعل، أو تريدينني بالفعل.

ـ أوه يا نيقولاس! يا نيقولاس، وضربت الأمطار في عنف على زجاج النافذة، وراحت تطرق بيديها على السرير فيما بيننا، وسادت فترة صمت طويلة.

ـ اطلب مني أن أتزوجك.

ـ هل ستتزوجينني؟

ـ لا، فأنا سأصبح مضيفة جوية، وأنت بصدد الذهاب إلى اليونان، وأنت حر.

وهطلت الأمطار في لفحات هائلة فجائية عبر قمم الأشجار وضربت النوافذ والسقف في عنف، مثل مطر الربيع الذي يتم خارج نطاق الموسم، وبدا الهواء في غرفة النوم مليئاً بالكلمات غير الملفوظة وبالذنوب غير المتشكلة ومليئاً بالصمت الشرير، مثل تلك اللحظات

التي تسبق انهيار كوبري، كنا نرقد في استلقاء بدون أن نتلامس، تمثالين على سرير تحول إلى مقبرة، وكان كل منا يخشى تماماً أن يُعبِّر عما يدور في رأسه، وفي نهاية الأمر تحدثت بصوت حاولت أن يبدو طبيعيّاً ومع ذلك بدا الصوت فظّاً في خشونة.

ـ لا أريد أن أؤذي مشاعرك وأنا كلما شعرت بالمزيد من الرغبة فيك أدى ذلك إلى المزيد من إيذاء مشاعرك، وأنا لا أريد أن تؤذي مشاعري، وكلما أبديت المزيد من عدم رغبتك فيَّ أدى ذلك إلى المزيد من الإيذاء لمشاعري.

ثم نهضت تاركة السرير للحظات، وعندما رجعت قالت: «هل اتفقنا على ذلك»؟

ـ «أظن ذلك».

ولم نقل أي كلام آخر، وسرعان ما اعتقدت أنها ذهبت للنوم.

وفي الصباح بدت وكأنها مُصممة على أن تكون مبتهجة، وأجريت اتصالاً تليفونيّاً مع المعهد البريطاني، ثم اصطحبتها معي لكي نتناول معاً وجبة الغداء وتمنيت أن تكون وجبة غداء أخيرة.

(٥)

الذي كان ينبغي لآليسون ألا تعرفه هو أنني كنت أخونها مع امرأة أخرى في أثناء الجزء الأخير من شهر سبتمبر، نظراً لأنني نفسي لم أدرك هذه الحقيقة إلا بصعوبة، أما هذه المرأة فهي بلاد اليونان، إذ كنت سأذهب إلى اليونان حتى في حالة عدم اختياري للتدريس بها، لم يسبق لي أن درست اللغة اليونانية بالمدارس ومعلوماتي عن اليونان الحديثة بدأت وانتهت مع موت الشاعر بيرون.

وبدا الأمر كما لو أن شخصاً ما قد عثر بطريق المصادفة على حل

رائع عندما بدا كل شيء وكأنه قد ضاع، اليونان ـ لماذا لم أفكر فيها من قبل؟ إن النغمة جميلة للغاية: «إنني ذاهب إلى اليونان»، لم أكن أعرف أي شخص سبق له الذهاب إلى هناك، إذ كان ذلك قبل أن يغزوها السياح، وأمكنني الحصول على كتب يونانية، ودهشت عندما أدركت أن معلوماتي كانت ضئيلة للغاية عنها، فرحت أقرأ وأقرأ، وكنت مثل ملك من ملوك العصور الوسطى ووقعت في حب الصورة قبل مشاهدة الواقع الحقيقي بفترة طويلة.

وتلقيت برقية من المدرسة تؤكد تعييني، ووصلني بالبريد عقد لكي أوقع عليه، كما جاءني خطاب ترحيب مكتوب بلغة إنجليزية بشعة من ناظر مدرستي الجديد، ولم يبق على سفري سوى عشرة أيام.

وأصبحت الأمور في غاية الصعوبة والحرج بالنسبة لآليسون، وكان عليَّ أن أترك الشقة الموجودة في ميدان «راسيل»، وأمضينا ثلاثة أيام مليئة بالإحباط في البحث لها عن مكان تعيش فيه، وأخيراً عثرنا على غرفة استوديو كبيرة بعيدة عن شارع بيكار، وتسبب نقل الحاجيات وتعبئة الأشياء وحزمها في مضايقتنا نحن الاثنين، لم يكن عليَّ أن أذهب حتى اليوم الثاني من أكتوبر، أما آليسون فإنها قد بدأت العمل بالفعل، وأصبح الالتزام بضرورة الاستيقاظ مبكراً وإدخال الانضباط والنظام على حياتنا يشكل عبئاً ثقيلاً علينا، نشب بيننا شجاران مروعان، الأول ابتدأته ثم زادته اشتعالاً ووصلت به إلى مرحلة صبت فيها احتقارها الشديد لكل الرجال ولي بصفة خاصة، قالت إنني إنسان متعالٍ لأنني أحتقر أفراد طبقتي الاجتماعية، كما قالت إنني شديد التزمت إلى حد الإزعاج وإنني دونجوان تافه لا قيمة له، وفي اليوم التالي ظلت ملتزمة بالصمت في فترة تناول طعام الإفطار.

وعندما ذهبت في المساء لكي أقابلها لم تكن هناك، وأجريت اتصالاً تليفونيّاً: لم يتم الاحتفاظ بالمضيفات الجويات إلى هذه الساعة

المتأخرة؟ فانتظرت بينما الغضب يتصاعد في داخلي تدريجيّاً حتى الساعة الحادية عشرة وبعدئذ وصلت إلى المنزل، ثم دخلت إلى الحمام وخلعت معطفها وارتدت قميص النوم اللبني اللون الذي ترتديه دائماً قبل النوم ولم تنطق بكلمة واحدة.

ـ أين كنت بحق الجحيم؟

ـ لن أجيب على أية أسئلة.

ووقفت على الموقد في داخل كوة المطبخ، إنها التي أصرت على الحصول على غرفة رخيصة وأنا كنت أكره النوم والطهو وكل شيء في غرفة واحدة، كما أمقت الحمام المشترك، لأن ذلك يحتم على المرء اللجوء إلى الهمس والفحيح.

ـ أعرف أين كنت، لقد كنت مع بيتي.

ـ وهو كذلك، كنت مع بيتي، ورمقتني بنظرة سوداء مليئة بالغضب.

ـ كان باستطاعتك الانتظار حتى يوم الخميس.

ـ ولماذا ينبغي لي أن أنتظر؟

وبعدئذ فقدت أعصابي وانتزعت من ذاكرتي كل الأمور التي يمكن أن تؤذي مشاعرها، فلم ترد عليَّ بأي كلام وإنما راحت تخلع ملابسها وصعدت على السرير واستلقت وأدارت وجهها إلى الحائط، ثم انخرطت في البكاء، وبين طيات الصمت ظللت أذكر نفسي، في ارتياح شديد، بأنني سوف أرتاح من كل هذا، وأنا لم أكن أؤمن بصدق اتهاماتي لها ولكني كنت أكرهها لأنها أرغمتني على أن أسوق تلك الاتهامات ضدها. وفي نهاية الأمر جلست إلى جوارها ورحت أرقب الدموع تنساب من عينيها المتورمتين.

ـ لقد ظللت منتظرا إياك لساعات.

ـ لقد ذهبت إلى السينما، ولم أقابل بيتي.

ـ ولماذا كذبت عليَّ؟

ـ لأنك لا تثق بي، كما لو أنني من المتوقع لي أن أفعل ذلك.

ـ ولكن هذه الطريقة التي لجأت إليها سخيفة.

ـ كان بإمكاني أن أقتل نفسي في هذه الليلة، لو كانت لديّ الشجاعة لألقيت بنفسي تحت عجلات القطار.

ـ لسوف أحضر لك كأساً من الويسكي. وعدت بالكأس وناولتها لها.

ـ إنني آمل أن تعيشي مع إنسانة ما، ألا توجد هناك أي مضيفة جوية أخرى يمكنها أن...

ـ لن أعيش مع أية امرأة أخرى.

ـ هل ستعودين إلى بيتي؟

رمقتني بنظرة غاضبة:

ـ أتحاول أن تقول لي إنه ينبغي لي ألا أرجع إلى بيتي؟

وغاصت إلى الوراء وحملقت في الحائط، ولأول مرة تبتسم ابتسامة خفيفة، لقد بدأ الويسكي يعمل مفعوله.

ـ هل أصبحنا صديقين مرة أخرى؟

ـ لا يمكن لنا أن نصبح صديقين مرة ثانية.

ـ لو لم يكن الأمر متعلقاً بك لكنت قد غادرت المنزل هذا المساء.

ـ ولو لم يكن الأمر متعلقاً بك لما رجعت إلى المنزل.

ومدت كأسها من أجل الحصول على المزيد من الويسكي فقبلت معصم يدها وذهبت لكي أحضر الزجاجة.

وقالت عبر أرجاء الغرفة: أتعرف ما الذي فكرت فيه اليوم؟.. لقد خطر على ذهني أنني إذا انتحرت فإنك ستشعر بالسرور وتقول في كل مكان إنها قتلت نفسها بسببي، وأعتقد أن هذا هو السبب الذي يبعدني

دائماً عن الانتحار، لكي لا أدع شخصاً ملعوناً مثلك يشعر بالفخر بنفسه. ثم فكرت في أنه بإمكاني أن أنتحر إذا كتبت مذكرة أولاً أوضح فيها الأسباب التي دعتني إلى الانتحار، انظر في داخل حقيبة يدي، استخرج رزمة الورق، فقمت باستخراجها، وأضافت قائلة: «تصفح الأوراق الأخيرة بها».

كانت هناك صفحتان مكتوب عليهما بخط يدها الكبير.

ـ متى قمت بكتابة هذا؟

ـ اقرأ الكلام المكتوب.

«ولم أعد أرغب في العيش، فأنا أقضي معظم أوقات حياتي دون أن تكون لي رغبة في الحياة، والمكان الوحيد الذي أشعر فيه بالسعادة هو هنا حيث أجد نفسي أفكر في شيء ما آخر أو أقرأ الكتب أو أذهب للسينما أو أمارس الحب، فأنا لا أشعر بالسعادة إلا إذا نسيت أنني أعيش، لا أشعر بالسعادة إلا عندما لا يوجد من كياني سوى عيني وأذني وبشرتي وجلدي، لا أذكر أنني كنت سعيدة على مدى عامين أو ثلاثة أعوام، منذ الإجهاض، كل ما أذكره هو أنني كنت أرغم نفسي في بعض الأحيان لكي أبدو سعيدة لكي أوهم نفسي ـ إذا ما وقع بصري على وجهي في المرآة ـ للحظات أنني سعيدة بالفعل».

رفعت بصري عن الكلام المكتوب، وحملقت في عينيها الرماديتين.

ـ لا يمكن أن يكون هذا المعنى هو ما تهدفين إليه.

ـ لقد كتبت ذلك الكلام في فترة تناول القهوة، ولو كنت أعرف وسيلة تعينني على الموت في هدوء في البوفيه لفعلت ذلك.

ثم قالت في صوت أقرب إلى الصراخ.

ـ إنني هستيرية.

ثم انخرطت في البكاء مرة أخرى، لكنها في هذه المرة كانت تبكي

بين ذراعيّ، وحاولت أن أسوق لها الحجج والبراهين العقلية، وقدمت لها الوعود: إنني على استعداد لأن أؤجل سفري إلى اليونان، وعلى استعداد لأن أترك هذه الوظيفة.. مئات الأشياء التي لم أكن أهدف في الحقيقة أن أنفذها وكانت هي تدرك ذلك، لكنها تقبلت أخيراً هذا الكلام من حيث هو أمر يؤدي إلى تهدئة أعصابها.

وفي الصباح أقنعتها بأن تتصل تليفونيّاً وتعتذر لهم عن تغيبها لأن صحتها ليست على ما يرام، وقضينا اليوم في نزهة خلوية بالمناطق الريفية.

في صباح اليوم التالي ـ وهو الذي يسبق موعد سفري بيومين ـ وصلتني بطاقة بريدية مرسلة من ميتفورد الرجل الذي كان في فراكسوس وقال فيها إنه سيكون في لندن لبضعة أيام.

اتصلت به تليفونياً في يوم الأربعاء في نادي البحرية وطلبت منه أن نتناول مشروباً معاً، كان أكبر مني بعامين مدبوغ البشرة وله رأس ضيق.

ومن عادته أن يلمس شاربه باستمرار، يرتدي جاكيت خفيف يميل إلى اللون الأزرق الغامق ويرتدي رباط عنق له الطابع العسكري، كانت تفوح منه رائحة الفساد الكريهة، وعلى الفور دخلت في حرب عصابات حيث حاول كل منا أن يبرهن على نفوذه وهيبته بينما الآخر يحاول إدحاض ذلك، وكان قد أنزل بالمظلة في اليونان في أثناء الاحتلال الألماني لها.

كان لطيفا مع الأتراك ومع الأيرلنديين التابعين له، لقد بذل قصارى جهده لكي يكتسب شخصية الإغريقي المثقف، إلا أنه كان يتكلم بلغة غير سليمة وكان يميل إلى التعنت، حاولت أن أنجح في مهمتي رغم الصعوبات.. أخبرته أن الحرب التي خضتها كانت من عامين مليئين بالاشتياق إلى التسريح من الجيش، وكان الأمر سخيفاً، إذ كنت أريد

معلومات منه وليس الكراهية، لذلك اعترفت في النهاية بأنني ابن ضابط وسألته عن الشكل الذي تبدو عليه المدينة.

فأومأ برأسه إلى كشك عرض الطعام الموجود في الحانة التي تقابلنا فيها، ثم أشار بسيجارته.. تلك هي الجزيرة. وهذا هو ما يطلقه عليها السكان المحليون «فطيرة محشوة باللحم»، سلسلة الجبال المركزية، هاهي ذي مدرستك وقريتك في هذا الركن، وباقي كل هذا الجانب الشمالي وكل أرجاء الجانب الجنوبي مهجور، وذلك هو موقع الأرض.

ـ والمدرسة؟

ـ إنها أفضل مدرسة في اليونان.

وسألته عن الحياة خارج نطاق المدرسة:

ـ لا توجد أية حياة زاخرة، ولكن الجزيرة تعتبر جميلة للغاية إذا كنت تحب تلك النوعية من الحياة المليئة بالطيور والنحل ونباتات القبار.

ـ وماذا عن القرية؟

ابتسم في تجهم وقال: أيها الولد، قريتك اليونانية لا تشبه أية قرية إنجليزية، فهي مستودع لعين للقمامة، مجموعة من الفيلات القليلة، لكنها تعمل كبنسيونات لتقديم المبيت والوجبات على مدى عشرة أشهر من كل عام، مكان بعيد ومنعزل، ولسوف تجد أن الناس الذين يسكنون الفيلات أغبياء بعض الشيء، وهناك واحد بينهم قد تقول عنه إنه ليس غبيا ولكني لا أظن أنك ستقابله، لقد تعاون هذا الأفاق مع العدو الذي يحتل البلاد وذلك في أثناء الحرب، وهذا هو السر الدفين المستتر وراء الشجار، ثم عليك أن تصبر على المدرسين الآخرين إذا كنت تريد الدردشة معهم.

ـ أيتحدثون باللغة الإنجليزية؟

ـ معظمهم يتكلمون الفرنسية، لكن هناك شاباً يونانيّاً يدرّس اللغة

الإنجليزية معك، وهو إنسان أفاق ومغرور بنفسه، ولقد أسأت إليه يوماً ما.

ـ لقد مهدت أمامي الطريق، ضحك وقال: عليك أن تمارس القمع على الفلاحين، وخاصة الفلاح الكريتي الخاص بك هو من خيار الناس، إنهم أناس مدهشون، صدقني.

فسألته عن السبب الذي جعله يترك هذا المكان.

فقال: إنني أؤلف كتاباً حالياً، أتناول فيه تجاربي في فترة الحرب وكل الأمور المتعلقة بتلك الفترة، ولكي أتقابل مع الناشر الذي سيقوم بطبع ونشر كتابي.

كان هناك شيء من التعاسة في داخل كيانه، وكان باستطاعتي أن أتخيله وهو يهرول في اندفاع ونشاط وحيوية فيما حوله مثل تلميذ الكشافة الذي يعمل مخبرا ويفجر الكباري ويرتدي زي الكشافة الرسمي الخلاب، إلا أن عليه أن يعيش في هذا العالم الجديد الكئيب المليء بالرفاهية مثل قاضٍ إغريقي قديم ترك في بلاد غريبة عليه، واستطرد على وجه السرعة:

ـ ولسوف تتحرق شوقاً إلى إنجلترا، ولسوف تكون الأمور سيئة بالنسبة لك، لأنك لا تعرف اللغة اليونانية، ولسوف تتناول الخمور بكميات كبيرة. فكل فرد مضطر إلى أن يفعل ذلك، أما البنات في أثينا فيشكلن خطراً داهماً اللهم إلا إذا كنت تريد أن تصاب بمرض الزهري.

أوصلته بالسيارة عائداً به تجاه ناديه.

سألته: هل تعتقد أنني سأنجح في مهمتي؟

كانت نظراته مليئة بالشك والريبة، ثم قال: عليك أن تعاملهم في خشونة، فتلك هي الوسيلة الوحيدة، ولا تجعلهم يسيطرون عليك، فقد سيطر التلاميذ على الزميل الذي كان قبلي.

ثم خرج من السيارة، وابتسم قائلاً: حسناً، أتمنى لك كل توفيق لكن، احترس من حجرة الانتظار، ثم أغلق باب السيارة على الفور كما لو كان قد سبق له أن عاش تلك التجربة.

ناديت وراءه «أحترس من أي شيء»؟

التفت إليَّ واكتفى بالتلويح بيده إليَّ في حدة، ثم ابتلعه الجمهور الغفير، ولم أستطع أن أخرج تلك الابتسامة التي ظهرت على وجهه من داخل ذهني، لقد كانت تخفي وراءها شيئاً تعمد إغفاله، شيئاً ما ادّخره، كلمة أخيرة غامضة، حجرة الانتظار، حجرة الانتظار، حجرة الانتظار، لقد راحت تلك الكلمة تدور في أرجاء رأسي طوال ذلك المساء.

(٦)

التقطت آليسون وذهبت إلى الجراج الذي كان بصدد اتخاذ إجراءات بيع السيارة نيابة عني، كنت قد عرضت على آليسون في وقت سابق أن تأخذ سيارتي ولكنها رفضت ذلك.

ـ إذا أخذت سيارتك فإنها ستذكرني بك دائماً، ولا يمكنني أن أتحمل رؤية إنسان آخر غيرك يجلس في نفس المكان الذي كنت تجلس فيه وراء عجلة القيادة.

ـ لقد حصلت منك على الكثير، وأنت تستحقين هذه السيارة.

ـ كأجر لي؟

ـ لا تكوني سخيفة.

كنت أعرف أنها ترغب في الحصول على دراجة بخارية، لذلك فكرت أن أترك شيكاً عند أحد محالّ بيع الدراجات واعتقدت أنها سوف تتقبل تلك الهدية عقب مغادرتي للبلاد، وكان المساء الأخير هادئاً للغاية مما أثار دهشتي، وكأنني غادرت الديار بالفعل، وكنا بمثابة شبحين

يتحدثان بعضهما إلى بعض، ووضعنا الترتيبات لما ينبغي أن نفعله في الصباح، لم تكن لديها الرغبة في المجيء لتوديعي عند فيكتوريا حيث كنت سأسافر بالقطار، ولذلك اتفقنا أن نتناول طعام الإفطار كالمعتاد ثم تستأذن بالإنصراف على أساس أن هذه هي أبسط الوسائل الممكنة، وقمنا بوضع الترتيبات الخاصة بأيامنا في المستقبل، فعليها أن تحاول بقدر الإمكان الذهاب إلى أثينا، وإذا تعذر ذلك فإنني أقوم بالسفر بالطائرة عائدا إلى إنجلترا في عيد الميلاد، وقد نتقابل في منتصف المسافة في روما أو سويسرا.

وفي الليل رقدنا ساهدين وكل منا يدرك أن الآخر مستيقظ لكن الخوف يعقد لسانه، وشعرت بيدها تتحسس للعثور على يدي، وظللنا لبعض الوقت ملتزمين الصمت ثم بدأت هي بالكلام.

- لو أخبرتك أنني سأنتظرك فأعتقد أنه بمقدوري أن أفعل.

- أعرف ذلك.

- دائماً ما تقول «أعرف ذلك» ولكن هذه العبارة لا تعتبر ردّاً على أي شيء.

- لنفرض أنني أخبرتك أن عليك أن تنتظرني لأنني في خلال عام سوف أعرف موقفي، وعلى ذلك فسوف تضطر لانتظاري طوال هذه السنة.

- لا تهمني هذه الفترة الطويلة، سألتزم بالانتظار.

- لكن ذلك ينطوي على مسحة من الجنون، فالأمر يبدو كأنك تضع فتاة في دير للراهبات حتى تستعد للزواج منها، وبعدئذٍ تقرر أنك لا ترغب فيها، علينا أن نترك الحرية لأنفسنا للاختبار.

- لا تفقدي أعصابك.

- علينا أن نترك المجال مفتوحا لنرى ما ستسفر عنه الأمور.

قالت: لسوف أكتب خطابات يوميّاً، إنه نوع من الاختبار الحقيقي لنا، ولسوف نرى كم يفتقد كل منا الآخر.

ـ أعرف تلك الأحاسيس التي يشعر بها الناس عندما يتم الفراق، ففي خلال الأسبوع الأول تسود مشاعر الكرب ثم تسود المشاعر الأليمة في الأسبوع الثاني ثم يبدأ الإنسان في النسيان تدريجيّاً وبعدئذٍ يبدو الأمر كأن شيئاً لم يحدث، أو أن شيئاً حدث لشخص ما آخر.

ثم بعدئذٍ يهز الإنسان كتفيه ويقول لنفسه: لا تشغل بالك، إنها سُنة الحياة، تسير كأنك لم تفقد بالفعل أي شيء إلى الأبد.

ـ لن أنسى، لن أنسى أبداً.

ـ لسوف تنسى، وأنا أيضاً سوف أنسى، إننا مضطرون لخوض غمار الحياة مع الاستمرار في السير في مناكبها، مهما كانت حياتنا مليئة بالأحزان.

وبعد مرور فترة صمت طويلة قالت:

ـ لا أظن أنك تعرف جوهر الحزن.

تأخرنا في الاستيقاظ من النوم في صباح اليوم التالي، وكنت قد تعمدت أن أضبط مؤشر المنبه على وقت متأخر بهدف أن نصبح على عجلة من أمرنا في صباح اليوم التالي بحيث لا يكون هناك متسع من الوقت لذرف الدموع، وتناولت آليسون طعام الإفطار وهي واقفة وتحدثنا معاً في أمور تافهة، وبعدئذٍ وضعت آليسون فنجان القهوة على المنضدة وأصبحنا واقفين معاً عند الباب. وشاهدت وجهها ـ وبدا الأمر كأنه مازال هناك متسع من الوقت وكأن المسألة ليست سوى حلم رديء بينما كانت عيناها الرماديتان تبحثان عن عينيّ كما شاهدت خديها الصغيرين المنتفخين.

كانت الدموع تتجمع في داخل عينيها وفتحت فمها لتقول كلاماً. إلا

أنها انحنت للأمام في يأس وارتباك وقبلتني بسرعة، حتى أنني لم أشعر بفمها يلامس فمي وانصرفت كالبرق، ولم تنظر وراءها، فهرعت إلى النافذة وشاهدتها تسير بسرعة عبر الشارع، المعطف الشاحب والشعر الذي يكاد يكون له نفس لون المعطف وحركة من يدها إلى حقيبة يدها ثم تمخط أنفها ولم تنظر وراءها ولو مرة واحدة، ثم تحولت مشيتها السريعة إلى جرى وهرولة، ففتحت النافذة على مصراعيها ورحت أطل ملقياً برأسي إلى الخارج وظللت أرقبها إلى أن اختفت عند الناصية لدى انتهاء الشارع والتقائه، وعلى طول تلك المسافة لم تنظر خلفها على الإطلاق.

استدرت إلى الغرفة وقمت بغسل سرفيس الإفطار ورتبت السرير ثم جلست إلى المنضدة وحررت شيكاً بمبلغ ٥٠ جنيهاً، كما كتبت مذكرة مختصرة:

آليسون يا حبيبتي.

أرجو أن تعتقدي أنه إذا كان بمقدوري أن أصبح أي شخص آخر لكنت أنت ذلك الشخص الآخر، آمل أن تتأكدي من أنني كنت أشد حزناً بكثير مما بدا عليَّ من أحزان، لكنني لم أرغب في إظهار كل جوانب الحزن، لكي لا نصاب معاً بالجنون، وأرجو أن ترتدي القرط في أذنيك وأن تأخذي هذه النقود لكي تشتري دراجة بخارية وتذهبي بها إلى الأماكن التي اعتدنا الذهاب إليها معاً ـ أو تنفقي هذه النقود في أي وجه من وجوه الإنفاق التي تروق لكِ، وآمل أن تهتمي برعاية نفسك، لو كنت فقط أستحق أن تظلي منتظرة إياي.

نيقولاس

كان من المفروض أن يبدو ذلك الخطاب كأنه قد كتب بطريقة عفوية تلقائية، لكنني في حقيقة الأمر ظللت أعدِّل صياغته على مدى أيام،

وقمت بوضع الشيك والخطاب في ظرف وضعته على رف المستوقد مع العلبة الصغيرة التي تحتوي على القرط الذي سبق لنا أن شاهدناه في محل للخردوات، لكنه كان مغلقا، وبعدئذ قمت بحلاقة ذقني وخرجت لكي أستقل سيارة أجرة.

الشيء الذي أحسست به في مزيد من الوضوح عندما توارت آليسون مع أول ناصية في الشارع هو أنني قد هربت منها كما أحسست بالمزيد من الكراهية لنفسي.. إنها كانت تحبني على نحو يفوق حبي لها، ومن ثم كان لديّ إحساس بالانتصار العاطفي يفوق مشاعر الإثارة المتعلقة بالرحلة التي أنا بصدد القيام بها إلى الأماكن المجهولة لي، إنه انتصار مليء بالجفاف، ولكنني أميل إلى الأشياء التي تكون في حالة من الجفاف، واتجهت إلى ميدان فيكتوريا مثلما يتجه رجل جائع إلى وجبة عشاء رائعة عقب تناول كأسين من مشروب المنزنيلا، وشرعت أدندن مترنماً ولم تكن تلك محاولة شجاعة لإخفاء حزني وإنما كانت بمثابة رغبة في الاحتفاء بإطلاق سراحي.

(٧)

أربعة أيام رحت أنظر لأسفل نحو المنظر الذي يضم أثينا/ بيرايوس ومدناً وضواحي ومنازل منثورة مثل الملايين من مكعبات زهر الطاولة المنتشرة في سهل أتيك، وإلى الجنوب كان يمتد بحر الصيف المتأخر الصافي الزرقة، بالإضافة إلى الجزر الشاحبة اللون، وإلى ما وراءها من جبال هادئة وشامخة من بعيد في محاذاة الأفق بين تدفق رائع من الأراضي والمياه، حاولت البحث عن كلمات أخرى أقل استخداماً إلا أن أية كلمات أخرى بدت أقل تعبيراً، كان بمقدوري مشاهدة ٨٠ ميلاً من المناظر الممتدة وكلها صافية المنظر.

عندما سقط الضوء الباهر للبحر المتوسط على العالم فيما حولي

أدركت أنه ضوء بالغ الروعة والجمال، لكنه عندما لمسني شعرت أنه ضوء عدائي يخلو من الود، بدا كأنه ينخر في كياني ويبث فيه التآكل والصدأ ولا ينظفني أو يطهرني، بدأت ذاتي القديمة تدرك أنه يتعذر عليها الصمود والتحمل، كان الأمر في بعض جوانبه بمثابة الرعب الذي ينجم عن الحب الدافق، لأنني وقعت تماماً وإلى الأبد في حب جارف مع المناظر الطبيعية اليونانية الخلابة، لكن مع الحب تولدت مشاعر مثيرة للضيق والسخط، تتعلق بالإحساس بالعجز والدونية، كما لو كانت اليونان بمثابة امرأة مثيرة جنسيّاً ينبغي لي أن أقع في حب جسدي معها، ولكنها في الوقت نفسه بالغة الأرستقراطية بحيث لا يمكن لي مطلقاً الاقتراب منها.

ولم يكن هناك كتاب من بين الكتب التي قرأتها يقدم لي تفسيراً لهذا السحر الخلاب المليء بالآثام، فنحن في إنجلترا نعيش في علاقة بكماء وهادئة للغاية وبالغة الترويض مع ما يتبقى من مناظرها الخلابة الطبيعية وضوئها الشمالي الهادئ، أما في اليونان فكل من المناظر الطبيعية والضوء جميل للغاية وكلي الحضور وحاد وبريء حتى إن العلاقة تصبح على الفور علاقة حب/ كراهية. علاقة حب/ آلام. علاقة جنس، وقد استغرق الأمر شهوراً عديدة لكي أفهم هذا واستغرق سنوات عديدة لكي أتقبله.

وفي وقت متأخر من ذلك اليوم كنت واقفاً عند النافذة في غرفة بالفندق الذي وجهني إليه ذلك الشاب الثقيل الظل الذي استقبلني في المعهد البريطاني، وكنت قد انتهيت توّاً من تحرير رسالة إلى آليسون إلا أنها بدت لي بعيدة للغاية بالفعل بحيث أصبحت خارج نطاق البعد الزماني والبعد المكاني، لكنها صارت موجودة في بعد ما آخر ليس له اسم، ربما هو بعد يمكن لنا أن نطلق عليه اسم: الحقيقة، نظرت لأسفل إلى ميدان الدستور، كانت السماء صافية تماماً، قمت بمد عنقي إلى الأمام للنظر في اتجاه الشرق.

فتمكنت من مشاهدة جبل الهايميتوس الذي وقفت عنده في ذلك الصباح كما رأيت منحدراته التي تواجه غروب الشمس، وفي الاتجاه الآخر عند الأكوام غير المنتظمة للأسقف توجد الصورة الظلية الهائلة السوداء للأكروبول، كانت متطابقة تماماً مع الصورة الذهنية التي كونتها في ذهني عنها، حتى إنها بدت وكأنها غير حقيقية، لكنني شعرت بإرباك أفقدني حاسة الزمان والمكان في نوع من الغبطة والانفرادية التي أحست بها أليس في بلاد العجائب.

تقع فراكسوس على مسافة جنوب أثينا تقطعها الباخرة الصغيرة في ثماني ساعات، وهي توجد في وسط منظر ريفي يخطف الألباب، كانت جزيرة جميلة، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ، ولقد حبست أنفاسي مشدوهاً في انبهار هائل لدى مشاهدتي لها لأول مرة، وهي تطفو عائمة تحت فينوس مثل حوت ضخم أسود اللون مهيب الطلعة في بحر أرجواني، إنها مازالت تقطع أنفاسي في انبهار شديد حتى الآن كلما أغلقت عيني وتمثلتها في داخل ذهني، كان جمالها من النوع النادر في بحر إيجة، حيث كانت تلالها مغطاة بأشجار الصنوبر، وكان ٩/ ١٠ مساحة الجزيرة غير مأهول بالسكان وغير مزروع، أما الأهالي فكانوا متجمعين في ركن واحد بالشمال الشرقي، حيث كانوا يسكنون في منازل بيضاء كالثلج حول اثنين من الموانئ الصغيرة.

إلا أنه كان هناك منظران قبيحان يسببان الإزعاج لعين المشاهد، أحدهما فندق يوناني قديم يقع بالقرب من الميناء، وهو فندق يستقبل الزائرين مثلما تفعل مركبة حربية في معبد يوناني قديم، أما الثاني فيقف شامخاً عند مشارف القرية مما يجعل الأكواخ حوله تبدو ضئيلة وتافهة أكثر من اللازم، مبنى طويل بشكل رهيب ومروع ويتكون من عدة طوابق عالية ويذكر الإنسان بالمصانع على الرغم من واجهته المليئة بالزخارف.

ولكن إذا استثنينا مدرسة اللورد بيرون وفندق فيلادلفيا والقرية فإن الجزيرة كانت أرضاً بكراً.

أما النقصان في المياه المكشوفة فكان يعني أنه لا توجد حيوانات برية في الجزيرة كما لا توجد سوى طيور قليلة للغاية بها، وكانت أهم ميزات الجزيرة هي الصمت.

كما كانت هذه الجزيرة هي أقل الأماكن التي توحي بالخوف، وأكثر الأماكن انعزالاً في المساحات غير الشمالية من الكرة الأرضية، ولم يتغلغل الخوف إلى هذه الجزيرة على الإطلاق، فهي إذا كانت قد تعرضت للاقتحام فإن الذي قام بالاقتحام هم الحوريات وليس الوحوش الضارية.

ولقد أرغمت على الذهاب للنزهة مراراً وتكراراً، لكي أهرب من الجو المليء بإرهاب الاحتجاز في داخل مدرسة اللورد بيرون، هذا بالإضافة إلى أنه كان هناك شيء ما سخيف يتعلق بالتدريس في مدرسة داخلية لأنها تقع على مسافة قصيرة إلى الشمال من المكان الذي قامت فيه كلتمنسترا بقتل زوجها أجامون، وكان المدرسون ضحايا لدولة لا يوجد بها سوى جامعتين، أما التلاميذ فلم يكونوا أفضل أو أسوأ من باقي التلاميذ في جميع أرجاء العالم، لكنهم ينظرون نظرة تتسم بالطابع العملي للغة الإنجليزية، انصبت اهتماماتهم على العلم وليس الأدب، فإذا حاولت أن أقرأ معهم القصائد الشعرية الرمزية المقررة عليهم فإنهم يتثاءبون ولكنني إذا قمت بتدريس الأسماء الإنجليزية لأجزاء السيارة فإنني أجد صعوبة في إخراجهم من الفصل عقب انتهاء الدرس، وهم كثيراً ما كانوا يحضرون لي كتباً علمية أمريكية مليئة بمصطلحات يتعذر عليَّ فهمها.

وكان كل من المدرسين والتلاميذ يكرهون الجزيرة ويعتبرون أنفسهم وكأنهم يقضون بها فترة عقوبة.

كان ديمترييادس هو المدرس الوحيد الذي يجيد الإنجليزية، لذا اصطحبني في جولة بين حوانيت القرية وتذوقت الطعام اليوناني والموسيقى الفلكلورية اليونانية، ولكن كان هناك دائماً شيء ما حزين في القرية تحت ضوء النهار، وكان هناك العديد من الفيلات التي تقدم الطعام للأشخاص لفترات متفق عليها، كان على المرء أن يذهب دائماً إلى نفس الحانتين اللتين هما أفضل من باقي الحانات الأخرى لكي يتناول وجبة من الطعام ومن هنا كان يتقابل مع نفس وجوه الناس التي اعتاد مشاهدتها، مجتمع إقليمي تافه ينتمي إلى عالم الامبراطورية العثمانية أكثر مما هو ينتمي إلى الخمسينيات من القرن العشرين، وكان عليَّ أن أتفق في الرأي مع ميتفورد: إنه مجتمع كئيب للغاية، وذهبت إلى واحد أو اثنين من محلات الخمور التي يتردد عليها صيادو الأسماك، كانت أكثر بهجة ومرحاً، ولكنني أحسست أنهم يشعرون بأنني أزور هذه الأماكن الفقيرة على سبيل الفضول أو المتعة أو التحقيق العلمي أو القيام بعمل خيري، بالإضافة إلى أن لغتي اليونانية لم تكن في نفس مستوى اللهجة المحلية التي يتحدثون بها في الجزيرة.

وأجريت استفسارات وتحريات عن الرجل الذي تشاجر مع ميتفورد، ولكن بدا على الناس أنهم لم يسمعوا عنه أو عن ذلك الشجار أو عما يسمى «بغرفة الانتظار»، وكان من الواضح أن ميتفورد قد أمضى بعض الوقت في القرية وأن علاقاته مع المدرسين لم تكن قوية وكانت هناك أيضاً الآثار العنيقة الناجمة عن شدة الكراهية للإنجليز والتي عمقتها المواقف السياسية في ذلك الوقت .وكان عليه أن يتحمل كل ذلك.

سرعان ما توجهنا إلى التلال، لم يسبق لأحد من المدرسين أن ذهب إلى مكان أبعد ولو ببوصة واحدة عن الأماكن التي هو بحاجة إليها، أما التلاميذ فلم يكن من المسموح لهم أن يذهبوا إلى ما وراء ملاعب المدرسة، كانت التلال دائماً نظيفة ومشرقة ونائية، وبدون رفيق سوى

الضجر والملل الذي يلازمني بدأت لأول مرة في حياتي أتطلع إلى الطبيعة وأشعر بالأسف لأن معرفتي بلغة الطبيعة كانت ضئيلة مثل معرفتي باللغة اليونانية، وأصبحت لدى معلومات عن الحجارة والطيور والزهور والأراضي بطريقة جديدة وكذلك المشي والسباحة والطقس الرائع وعدم وجود حركة المرور على الأرض أو في السماء، حيث لم تكن هناك سيارة واحدة في الجزيرة كلها ولم تكن هناك أية طرق خارج نطاق القرية والطائرات التي تجتاز سماءها بمعدل أقل من مرة واحدة شهريّاً، كل هذه الأمور جعلتني أشعر بأنني أكثر امتلاء بالصحة والحيوية عن ذي قبل، وبدأت أشعر بالمزيد من التوافق بين جسدي وذهني أو هكذا بدا الأمر لي، وكان ذلك وهماً.

ووصلني خطاب من آليسون، كان خطاباً مختصراً للغاية، ومن المؤكد أنها كتبت ذلك الخطاب في أثناء وجودها في العمل في نفس اليوم الذي تركت فيه لندن:

إنني أحبك، ولا يمكنك أن تفهم معنى الحب لأنك لم تشعر بالحب نحو أي إنسان، وهذا هو ما حاولت أن ألفت نظرك إليه خلال هذا الأسبوع الأخير، كل ما أريد أن أقوله لك هو أنك في يوم ما عندما تقع في تجربة الحب ستتذكر ذلك اليوم، ستتذكر أنني قبلتك وخرجت مسرعة من الغرفة، ستتذكر أنني طوال سيرى في الشارع لم أنظر ورائي ولو مرة واحدة على الإطلاق، وكنت أدرك أنك ترقبني، تذكر أنني فعلت كل ذلك وأنا أحبك، فإذا نسيت كل شيء آخر يتعلق بي أرجوك أن تتذكر ذلك المشهد، لقد سرت في الطريق بدون أن أنظر إلى الوراء على الإطلاق وأنا أحبك، فأنا أحبك، وأنا أحبك حبّاً عميقاً للغاية لدرجة أنني سوف أكرهك للأبد بسبب ذلك اليوم.

ووصلني خطاب آخر منها في اليوم التالي، ولم يكن يحتوي على أي شيء سوى الشيك الذي حررته لها وقد مزقته إلى نصفين وكتبت على

ظهر أحد النصفين: «لا داعي لهذا الشيك، شكراً جزيلاً»، وبعد يومين وصل خطاب ثالث مليء بالحماس الشديد لأحد الأفلام التي شاهدتها، وهو خطاب مليء بالدردشة، ولكنها قالت في نهاية هذا الخطاب: «أرجوك أن تنسي ما كتبته لك في الخطاب الأول، فقد كنت مضطربة للغاية، ولقد تخلصت من هذا الاضطراب تماماً الآن».

وبالطبع كنت أرد على خطاباتها وإن لم يكن يوميّاً فهو بمعدل خطابين أو ثلاثة خطابات أسبوعيّاً، خطابات مطولة مليئة بتبرير للذات، إلى أن كتبت لي ذات يوم:

«لو سمحت لا تسهب في الكلام عنك وعني، حدثني عن الأشياء الموجودة بالجزيرة وعن المدرسة، فأنا أعرف كنه طبيعتك، وعليك أن تكون على ما أنت عليه وعندما تكتب لي عن الأشياء يمكنني أن أتخيل أنني معك ولا داعي لأن تشعر بأنك أسأت، العفو هو النسيان».

المعلومات حلت محل العاطفة في خطاباتنا، وكتبت لي عن عملها وعن فتاة تصادقت معها وعن أشياء منزلية صغيرة وأفلام وكتب، وأنا كتبت لها عن المدرسة والجزيرة كطلبها، وذات يوم أرسلت صورة فوتوغرافية لها بالزي الرسمي، لقد قصت شعرها ليصبح قصيراً تحت غطاء رأسها، وكانت تبتسم في الصورة، مما أعطاها طابعاً مهنيّاً زائفاً، وأدركت أنها أصبحت إنسانة أخرى غير الإنسانة التي أحببت أن تظل ماثلة في ذاكرتي، لم تكن هي آليسون الخاصة بي وحدي، وبعدئذٍ أصبحت خطاباتها بمعدل خطاب واحد فقط أسبوعيّاً، وبدأ التحرق الجسدي الذي شعرت به نحوها خلال الشهر الأول يتلاشى تدريجيّاً، كانت هناك لحظات أدرك خلالها أنني أتحرق شوقاً إليها، وأنني على استعداد للتخلي عن أي شيء في سبيل الحصول عليها في السرير، إلا أن تلك اللحظات كانت لحظات من الإحباط الجنسي وليست لحظات من الحب المأسوف عليه، وذات يوم رحت أفكر: لو كنت في هذه

الجزيرة لتوقفت عن التفكير في هذه الفتاة تماماً، وأصبحت كتابة الخطابات بمثابة مهمة روتينية بغيضة خالية من المتعة، ولم أعد أسارع إلى العودة إلى غرفتي عقب تناول وجبة العشاء لكي أكتب الخطابات، كنت أحرر تلك الخطابات على وجه السرعة في أثناء وجودي في الفصل المدرسي وأرسل تلميذاً لكي يعطي الخطاب لساعي البريد الخاص بالمدرسة.

وفي إجازة نصف السنة ذهبت مع ديمترييادیس إلى أثينا، وأراد أن يصطحبني إلى بيت الدعارة المفضل لديه.

عندما خرجنا من بيت الدعارة كان المطر يهطل مدراراً، وعندئذٍ تذكرت سريري مع آليسون، ولكن آليسون ولندن قد ذهبا إلى غير رجعة بعد أن فصلتهما عن حياتي، وقررت أن أبعث بخطاب إلى آليسون في تلك الليلة أعرب فيه عن عدم رغبتي في التراسل معها مرة أخرى، وكنت مخموراً للغاية لدى عودتنا إلى الفندق حتى إنني لم أعرف ماذا أقول لها، وأخيراً اكتفيت بإرسال بطاقة بريدية لا أقول فيها شيئاً.

وجاء شهر ديسمبر وكنا مازلنا نتبادل الخطابات، وأدركت أنها تخفي أموراً عني، فحياتها وفقاً لما ورد في خطاباتها كانت تتسم بالبساطة الشديدة والخلو من عنصر الرجال، مما جعلني أدرك أنه كلام غير صادق وغير حقيقي، ولذلك عندما وصلني الخطاب الأخير لم أصب بالدهشة.

عزيزي نيقولاس

«لم يعد بإمكاني الاستمرار على ذلك النحو، وإنني لآسفة للغاية إذا كان هذا سيجرح مشاعرك، أرجو أن تعتقد أنني آسفة للغاية وأرجو ألا تغضب مني.

لقد تعرضت لمشاعر الاكتئاب الشديد، وأنا لم أخبرك في خطاباتي

السابقة بمدى عمق تلك المشاعر، لم يكن باستطاعتي أن أخبرك بهذا العذاب الذي اجتاحني، في تلك الأيام الأولى كنت أتحلى بالشجاعة في أثناء انهماكي في العمل وبعدئذٍ كنت أصاب بالانهيار التام لدى عودتي إلى المنزل.

لقد بدأت في الاضطجاع مع بيتي من جديد عندما يكون في لندن، وقد بدأ ذلك الأمر منذ أسبوعين، وأرجو أن تصدق أنني اندفعت إلى ذلك الأمر بدون تفكير عميق، أنا أعرف أنك تدرك ذلك، لم تعد مشاعري نحوه هي المشاعر السابقة نفسها، وليست مثل مشاعري نحوك، وأرجو ألا تشعر بالضيق والحقد والغيرة.

كل ما هناك أنه غير معقد على الإطلاق، وهو يزيل الكرب عني ولا يجعلني أستغرق في التفكير الأليم ويبعد مشاعر الوحدة القاسية عن كياني، وربما نتزوج.

إنه لأمر شنيع، مازالت لديّ الرغبة في أن أكتب إليك وأن تكتب إليَّ، وأنت في ذاكرتي دائماً.

وداعاً آليسون

وقمت بتحرير خطاب ردّاً على خطابها قلت فيه إنني كنت أتوقع وصول رسالة منها على ذلك النحو وأنها في حرية من أمرها تماماً، ولكنني قمت بتمزيق ذلك الخطاب، إذا كان هناك شيء سيؤذي مشاعرها فإنه الالتزام بالصمت، وأنا كنت أريد أن أسبب لها الآلام.

(٨)

كنت أشعر بالتعاسة المريرة خلال تلك الأيام الأخيرة السابقة على إجازات أعياد الميلاد وبدأت أكره المدرسة كرهاً لا يرتكز على أساس عقلاني، وعندما توقفت خطابات آليسون تزايدت مشاعر الوحدة القاسية

لديّ وأصبح العالم الخارجي المتمثل في لندن وإنجلترا زائفاً وغير حقيقي على نحو مريع وسخيف، واعتدت أن استمع إلى محطة «بي.بي.سي» من وقت لآخر، ولكن الأنباء التي تذاع بدت لي وكأنها تجيء من مجتمع لا علاقة لي به، ويبدو أن الجزيرة كلها كانت تحس بهذه العزلة.

ومع ذلك، كانت الجزيرة جميلة، ومع اقتراب الأعياد أصبح الجو قارس البرودة، واكتست الجبال بالثلوج وبدأت أكثر من الخروج للنزهة هروباً من الملل الشديد، وبدا أنه لا يوجد لي مكان في هذا العالم، فأنا من أبناء المدن وبلا جذور، ولذلك انتهى بي الحال إلى أن أصبحت معلقاً في الهواء.

وجاءت إجازات الكريسماس، كان عليَّ أن أتجول بمفردي لكي أعطي لنفسي فرصة للابتعاد عن جو المدرسة، لو كانت آليسون غير مرتبطة بأحد لسافرت عائداً إلى إنجلترا، وراودتني أفكار بأن أقدم استقالتي إلا أن ذلك بدا كأنه فشل آخر وقلت لنفسي إن الأمور ربما تتحسن مع بداية فصل الربيع.

كنت لا أفكر في آليسون ألا بقدر يسير للغاية، لكنني كنت أشعر بها باستمرار بمعنى أنني حاولت أن أمحوها من ذاكرتي ولكنني فشلت في ذلك، وجاءت عليَّ أيام اعتقدت فيها أن باستطاعتي أن أظل بدون زواج طوال الفترات المتبقية من حياتي، وجاءت أيام شعرت خلالها بالتحرق شوقاً إلى فتاة أتجاذب معها أطراف الحديث، وكانت النساء في تلك الجزيرة من سلالة ألبانية ولهن وجوه كالحة وصارمة وشاحبة ولا يشكلن أي إغراء.

بدأت أنظم القصائد التي تتناول الجزيرة وبلاد اليونان التي بدت لي عميقة من الناحية الفلسفية ومثيرة من النواحي الفنية، وتزايدت أحلامي في إمكان تحقيق نجاح في المجالات الأدبية، وقضيت الساعات

محملقاً في حوائط غرفتي متخيلاً ظهور مقالات في النقد الأدبي عن إنتاجي من الشعر بالإضافة إلى وصول خطابات إليَّ كتبها زملاء لي من مشاهير الشعراء.

الآن أصبحت موجوداً في خضم البحر وقد غاص طوق النجاة إلى قاع البحر مثل قطعة من الرصاص، كان جهداً يرمي إلى عدم ذرف دموع الشفقة على الذات، وكان وجهي صارماً مثل وجه رجل توقف النبض في جسده، ومشيت على مدى ساعات وشعرت بأنني في الجحيم.

هناك نوع من الناس ينغمس في المجتمع بدون أن يدرك ذلك، وهناك نوع آخر من الناس يندمج في المجتمع من خلال التحكم فيه والسيطرة عليه، النوع الأول هو مجرد ترس في ماكينة أو سن في عجلة، أما النوع الثاني فهو مهندس أو سائق، ولكن الشخص الذي فضَّل الخروج من المجتمع نهائيّاً لا يكون له سوى مقدرته على التعبير عن فض الاشتباك ما بين الوجود والعدم في داخل كيانه.

وعلى مدى أيام بعد ذلك شعرت بنفسي وقد امتلأت بالعدم، امتلأت بإحساس ميتافيزيقي بأنني شخص ملقى على ساحل جزيرة مهجورة، وهو إحساس يكاد يكون ملموساً.

استيقظت من النوم ذات صباح فشاهدت في جسدي قرحتين، وكنت أتوقع إلى حد ما ظهورهما، ففي أواخر فبراير كنت قد ذهبت إلى أثينا وقمت بزيارة أخرى لمنزل الدعارة الموجود في كفسيا، وكنت أدرك أنني قد أقدمت على مخاطرة، ولكن المسألة لم تكن تهمني كثيراً في ذلك الوقت.

وشعرت بالصدمة الهائلة حتى إنني ظللت مكتوف الأيدي على مدى يوم كامل بدون أن أتخذ أية إجراءات، وكان هناك طبيبان في القرية:

أحدهما يمارس مهنته وهو المسئول عن المدرسة من الناحية الطبية، أما الثاني فهو رجل عجوز يقوم بعلاج بعض الحالات القليلة رغم أنه شبه متوقف عن مزاولة مهنة الطب.

نظر الطبيب إلى القرحتين ثم نظر إليَّ وهز كتفيه وسأل:

ـ هل التقطت هذا المرض في أثينا؟

فأومأت برأسي.

فقال: الفتيات هناك رهيبات، المغفلون فقط هم الذين يقعون في هذا المطب.

وصدرت عنه ابتسامة خبيثة ماكرة، وظهرت عليه المتعة والتسلية وهو يرد على أسئلتي العديدة، وأوضح لي أن هناك فرصاً لشفائي من المرض، كما قال إنني لست ناقلاً للعدوى ولكن ينبغي أن أتوقف عن ممارسة الجنس، وأشار إلى أنه كان بمقدوره القيام بعلاجي من ذلك المرض لو كان لديه الدواء الملائم، لكنه لا يستطيع الحصول على البنسلين، وأوضح أنه قد سمع أنه يمكن للمرء الحصول عليه من مستشفى خاص موجود بأثينا، ولكن الأمر يستلزم أن أدفع ثمناً أعلى مما ينبغي بكثير، وأشار إلى أنه ستنقضي ثمانية أسابيع قبل التأكد من أن العلاج قد أتى بالنتيجة المرجوة.

وقفت عند الباب لدى خروجي محاولاً في غباء كسب تعاطفه معي:

ـ لقد حل بي الشقاء والبلاء!

فهز كتفيه وأوصلني إلى خارج عيادته في غير مبالاة.

كان الأمر شنيعاً، فكرت في العودة إلى إنجلترا. ولكني لم أستطع تحمل فكرة العودة إلى لندن، هذا بالإضافة إلى أنه كان هناك نوع من الغفلية في اليونان ولو أن ذلك لم يكن موجوداً في الجزيرة، ولم أكن في حقيقة الأمر أشعر بالثقة في الدكتور بتاريسكو، وكان هناك مدرس أو

اثنان من المدرسين القدامى صديقين حميمين له يتقابلان معه كثيراً، ورحت أفتش وراء كل ابتسامة ماكرة أشاهدها وأفتش في كل كلمة تقال لي بحثاً عن إشارة خفية إلى هذا المرض الذي أصابني، خيل إليَّ أنني شاهدت في نفس اليوم التالي في العيون العديدة نوعاً من التسلية الجافة، وذات صباح في أثناء فترة الاستراحة قال لي ناظر المدرسة:

ـ هون عليك يا أورفي وإلا فسوف نقول إن مفاتن اليونان قد سببت لك الأحزان.

وفي خلال ثلاثة أيام من مقابلتي لذلك الطبيب تأكدت أن كل فرد يعرف خبر إصابتي بما في ذلك التلاميذ، ففي كل مرة يتهامس فيها التلاميذ كنت أسمع كلمة «الزهري».

وفجأة وفي نفس ذلك الأسبوع الرهيب هبط الربيع اليوناني علينا، وبدت الأراضي وكأنها تغطت في خلال يومين فقط بنباتات الشقار والسحلبية والبرواق والجلاديولي البرية، وفجأة ظهرت الطيور في كل مكان قادمة في هجرتها السنوية من الشمال، وصاحت في السماء خطوط متموجة من طيول اللقلاق بصوت كالنقيق، وكانت السماء زرقاء صافية والأولاد يتغنون وحتى أكثر المدرسين وقاراً انفرجت وجوههم عن الابتسامات وطار العالم من حولي، أما أنا فكنت ملتصقاً بالأرض، كنت أعيش ليالي بشعة قمت في إحداها بكتابة خطاب مطول لآليسون محاولاً أن أشرح لها ما حدث لي، وكيف أنني كرهت نفسي وأنه كان ينبغي لي أن أتزوجها حيث كان سيصبح لي على الأقل رفيقة في هذه الصحراء.

لم أضع الخطاب في صندوق البريد، ورحت أفكر مرة وراء مرة وليلة وراء ليلة في الانتحار، وبدا لي كأن الموت يقف لعائلتي بالمرصاد، كانت حالتي أسوأ من حالة آليسون، فهي كانت تكره الحياة أما أنا فكنت أكره نفسي، فأنا لم أبتكر أي شيء وانتميت إلى العدم

واللاوجود، بدا لي أن موتي هو الشيء الوحيد الذي يمكن لي أن أخلفه، ولكنني كنت أعتقد أن موتي ربما يسبب الاتهامات لأشخاص لم تكن لهم علاقة بي على الإطلاق، هذا بالإضافة إلى أن ذلك يتعارض مع المذهب الكلبي الذي أؤمن به، كما أنه يبرهن على أنانيتي ولسوف يكون ذلك بمثابة انتصار أسود.

وفي اليوم السابق على انتهاء الفترة الدراسية كنت أعرف ما سأفعله، فبواب المدرسة يمتلك بندقية قديمة يتسع مستودعها لـ١٢ طلقة، وهو كان قد عرض عليَّ ذات مرة إعارتها لي إذا كنت أرغب في الذهاب للصيد في التلال؛ لذلك ذهبت إليه وطلبت منه استعارتها فرحب بذلك وملأ جيوبي بطلقات الخرطوش وأشار إلى أن غابات الصنوبر مليئة بطيور السلوى والسمان المهاجرة، وسرت في أخدود يقع خلفع المدرسة وتسلقت ربوة صغيرة وسرعان ما تواريت عن الأنظار، كان عليَّ أن أتأكد أن أحداً لا يمكنه أن يراني، وأخيراً عثرت على تجويف صخري، ووضعت طلقة في البندقية ثم جلست على الأرض وأسندت ظهري إلى جذع شجرة صنوبر، ووضعت البندقية في الاتجاه العكسي، ورحت أحسب الزاوية التي ينبغي أن أضع رأسي عندها، ووضعت الماسورة في مواجهة عيني اليمنى وأدرت رأسي قليلاً حتى يمكن للطلقة أن تهرس مثل البرق الأسود المخ، وتفجر الجزء الخلفي من الجمجمة تماماً - كان كل ذلك على سبيل التجربة - ووجدت أنه من الصعب تنفيذ ذلك على هذا الوضع، فمع الانحناء إلى الأمام ربما أقوم بلوي رأسي في اللحظة الأخيرة، مما قد يفسد المهمة، لذلك بحثت عن غصن ناشف لكي أضعه ما بين الزند وصمام الأمان، وأخرجت الطلقة من البندقية ودفعت بالغصن في ذلك المكان ثم جلست ووضعت البندقية بين ركبتي ووضعت نعلي قدمي على الغصن بينما الماسورة اليمنى للبندقية على مسافة بوصة من عيني، وكانت هناك طقطقة لدى سقوط

زند البندقية، كان الأمر غاية في البساطة، فقمت بوضع الطلقة في البندقية مرة أخرى.

وترامى من التلال الواقعة إلى ما ورائي صوت لفتاة، من المؤكد أنها تهبط بقطيع الماعز من التلال متجهة إلى القرية، كانت تغني في حماس شديد بأعلى صوتها بلحن غير معروف ذي فواصل تركية/ عربية، وتذكرت أنني سمعت صوتاً مماثلاً ربما هو صوت هذه الفتاة نفسها ذات يوم في التل الموجود خلف المدرسة، ولقد انساب صوتها آنئذٍ إلى داخل حجرة الدراسة فراح الأولاد يضحكون ضحكات مكتومة، ولكن الصوت في هذه المرة كان يبدو غامضاً منطلقاً من غياهب المعاناة الشديدة، مما جعل مشاعر الوحدة التي تجتاحني تبدو تافهة وسخيفة إذا قورنت بحالة الفتاة، كنت أجلس بينما البندقية بين ركبتيّ غير قادر على الحركة في حين ينساب الصوت لأسفل، لاحظت أن السماء قد أظلمت وتحوَّل لون البحر إلى رمادي.

رفعت البندقية مرة أخرى إلى أن أصبحت الماسورة مصوّبة في اتجاهي، كان الغصن ناتئاً في انتظار أن تقوم بتحريكه لأسفل، وكان الهواء هادئاً وساكناً للغاية، وعلى مسافة أميال عديدة سمعت صوت مركب أثينا يقترب من الجزيرة، إلا أن ذلك كان بمثابة شيء ما خارج نطاق الفضاء الكوني.

رحت أنتظر مجيء قوة الإرادة ومجيء اللحظة السوداء، طوال الوقت وأنا أشعر أن هناك من يرقبني وأنني لست بمفردي، وأدركت أن ما أسعى إليه ليس موتاً حقيقياً، إنه موت للذكرى وليس الموت الحقيقي.

بدأت الظلمة في الازدياد، وبدأ صوت مركب أثينا يئن في توجع، وكنت أنا مازلت جالساً أدخن السيجارة، رحت أقيّم نفسي من جديد، وأدركت أنني منذ الآن فصاعداً إنسان جدير بالازدراء.

رفعت البندقية لأعلى وأطلقت رصاصة على غير هدى في السماء فأذهلني ذلك الصوت الهائل الذي دوى في الفضاء، وكان هناك صدى للصوت وتساقطت بعض الأغصان، ثم ساد بئر الصمت العميق.

سألني الرجل العجوز عند البوابة: هل تمكنت من قتل أي شيء؟

قلت: أطلقت رصاصة واحدة وأخطأت الهدف.

(٩)

بعد سنوات شاهدت الجابيا في مدينة البياشنتزا الإيطالية، إنها قفص كناريا أسود اللون، خشن الملمس، معلق في جانب برج الأجراس الشامخ، كان يترك فيه السجناء ذات يوم ليهلكوا جوعاً حتى الموت ويتعفنوا أمام أنظار أهالي المدينة أسفل البرج، ومع النظر لأعلى إلى ذلك القفص تذكرت ذلك الشتاء في اليونان، تذكرت تلك الجابيا التي شيدتها لنفسي من الضوء والوحدة الانفرادية وخداع الذات، إن كتابة الشعر والانتحار ـ وهما أمران متناقضان للغاية من الناحية الظاهرية ـ كانا في الواقع هما الشيء نفسه، كانا بمثابة محاولات نحو الهروب، وكانت مشاعري في نهاية تلك الفترة الدراسية الرهيبة هي مشاعر من يدرك أنه محتجز في قفص ومعرض لتلقي كل السخريات من طموحاته القديمة إلى أن يموت.

لكنني ذهبت إلى أثينا، إلى العنوان الذي أعطاه لي طبيب القرية، وأجريت لي اختبارات وتأكد لي التشخيص الذي أدلى به الدكتور بتاريسكو، وكان العلاج في خلال الأيام العشرة الأولى باهظ التكاليف؛ فمعظم الأدوية كان يتم تهريبها إلى داخل اليونان أو كانت تتم سرقتها، وكنت أنا الطرف المتلقي في شبكة تضم ثلاثة رجال، أخبرني الطبيب الرقيق المشاعر أنه ينبغي ألا أشعر بالقلق لأن التكهنات بالاحتمالات التي قد يتخذها المرض كانت ممتازة، وفي نهاية إجازات عيد الفصح

عدت إلى الجزيرة فوجدت بطاقة مرسلة إليَّ من آليسون، كانت بطاقة مليئة بالزخارف الملونة وعليها صورة حيوان الكانجارو مع عبارة مطبوعة صادرة عن فم الكانجارو تقول «هل تعتقد أنني نسيتك»؟ لقد حل عيد ميلادي السادس والعشرين أثناء وجودي في أثينا، وكانت البطاقة عليها خاتم بريد أمستردام، ولم يكن بالبطاقة رسالة موجهة إليَّ، لم يكن عليها سوى توقيع «آليسون» فقط، فألقيت بها في سلة المهملات، لكنني في مساء نفس هذا اليوم التقطتها من السلة مرة أخرى.

وانتظرت في قلق ظهور نتائج العلاج وكنت أخشى من ظهور التطورات في المرحلة التالية، وبدأت انتهاك حرمة الجزيرة في هدوء، فرحت أسبح في مياهها وأمشي بين أرجائها، دائماً ما كنت أذهب إلى القمة الجبلية؛ حيث كنت أريد أن أبتعد بقدر الإمكان عن القرية والمدرسة، فهنالك عُزلة مطلقة، بدت الجزيرة وكأنها شقت وقسمت إلى ظلام ونور.

لم أشغل ذهني بالتفكير في المستقبل، وعلى الرغم مما قاله الطبيب في العيادة، فإنني كنت واثقاً من أن العلاج سيفشل وهنا بدأت تظهر الألغاز والأمور البالغة الغموض.

الباب الثاني

(١٠)

كان أحد أيام الآحاد في أواخر مايو، وكان ذلك اليوم في نفس زرقة جناح الطائر، وتسلقت دروب الماعز المؤدية إلى أعالي الجبال بالجزيرة، كان البحر يمتد مثل سجادة حريرية عبر الحوائط الظلالية للجبال الموجودة بالأراضي الرئيسية المتجهة نحو الغرب، وهو حائط يمتد لمسافات بعيدة في اتجاه الجنوب على مسافة ستين ميلا نحو الأفق البعيد، كان عالماً نقيّاً إلى درجة مذهلة، وكما هو الحال دائماً، كلما وقفت على قمة سلسلة الجبال الرئيسية بالجزيرة، فإنني كنت أنسى معظم مشاكلي، سرت في اتجاه الغرب، وكانت السحالي تتحرك فوق جذوع أشجار الصنوبر مثل قلادات من الزمرد الأخضر مليئة بالحيوية والحياة.

وصلت إلى مكان تنحدر عنده الحالة إلى الجنوب نحو جرف صغير، اعتدت أن أجلس هنالك لكي أدخن سيجارة وأتأمل في مياه البحر والجبال، وبمجرد أن جلست لاحظت أن شيئاً ما تغير، فعند منتصف المسافة على طول الشاطئ الجنوبي للجزيرة كانت تحصينات من نوع ما خاصة بالفيلا الانفرادية التي تقع في الأرض الداخلة في البحر، وكل ما أعرفه عن ذلك المنزل، أنه ملك لرجل غني من أثينا، وأنه لا يستخدم ذلك المنزل إلا في مقدمة موسم الصيف، وبسبب

الارتفاع المتداخل في غابة الصنوبر لم يكن بمقدور المرء أن يشاهد سوى السطح المفلطح لهذا المنزل عند سلسلة الجبال الرئيسية.

في هذه المرة هناك خيط رفيع من الدخان المتصاعد في تجعد فوق السطح، لم يكن المنزل خالياً من سكانه، وكان أول إحساس هبط عليَّ لدى رؤية الدخان هو الاستياء، استياء شبيه باستياء روبنسون كروزو، لقد تعودت أن أكون بمفردي تماماً في هذه المنطقة وكأنها ملك لي وحدي بدون أن يشترك معي فيه أي شخص آخر، عدا الصيادين المساكين الذين يقطنون الأكواخ الثلاثة، وليس لأي فرد آخر ينتمي لطبقة تعلو على طبقة الفلاحين الحق في الوجود في ذلك المكان؛ لذلك دب في قلبي حب الاستطلاع واخترت ممرّاً يؤدي إلى لسان البحر الذي توجد الفيلا عليه.

وأخيراً سطع البحر وشريط من الأحجار المائلة إلى اللون الأبيض من خلال أشجار الصنوبر، كان بمثابة كهف كبير مفتوح وامتداد من الحصى والحصباء ومياه البحر الرائقة مثل الزجاج وقد أحاط بها لسانان من الأرض الداخلة في مساحة الماء، وكان اللسان الواقع جهة الشرق الذي يسمى البوراني يضم الفيلا المتوارية بين الأشجار، كان الموقع بمثابة بلاج رائع سبق لي الوصول إليه مرتين من قبل، وهو مثل بلاجات الجزيرة يعطي للمرء الذي يزوره إحساساً بأنه أول إنسان تطأ قدمه رماله، لم يكن هناك أثر لوجود أي شخص تابع لهذه الفيلا، فوقفت عند أقصى الطرف الغربي من البلاج ورحت أسبح في الماء، ثم تناولت طعام الغداء، ورغم كل ذلك لم أشاهد أي شخص.

بعد الظهر سرت إلى نهاية كهف الفيلا، كانت هناك كنيسة مصغرة متوارية بين الأشجار، ومن خلال ثقب الباب تمكنت من مشاهدة كرسي مقلوب وشمعدان شاغر بالإضافة إلى صنف من الأيقونات الموضوعة فوق حاجز صغير عليها اسم أجيوس ديمتريوس ـ القديس جيمس،

قفلت راجعاً إلى البلاج، ولأول مرة لاحظت وجود بعض الأسلاك الشائكة على مسافة عشرين قدماً من سفح المنحدر الصخري، وكان بمقدور أية امرأة عجوز أن تنفذ من خلال الأسلاك الصدئة بدون أية صعوبات، إلا إن كانت هذه أول أسلاك شائكة أشاهدها في الجزيرة، لم أشعر بالارتياح، لأنها قطعت أوصال هذا المكان البالغ الانعزال.

كنت أحملق لأعلى نحو منحدر الأشجار الكثيفة الساخنة عندما أحسست بأن هناك شخصاً يرقبني، ولكن لم يكن هناك أي شخص، سرت مقترباً من الصخور المجاورة للأسلاك الشائكة التي تخترق الشجيرات الكثيفة القصيرة.

دققت النظر فيما حولي ثم حركت الفوطة التي تحت قدمي، كان هناك كتاب، إنه أحد الكتب الشائعة التي تتناول الشعر الإنجليزي المعاصر الذي أملك منه نسخة، وكان ذلك أمر غير متوقع، حتى إنني ظللت أحملق في الكتاب في غباء بعد أن خطر على ذهني أنه نسختي وأن شخصاً قام بسرقتها.

لم يكن كتابي، لم يكن صاحب هذا الكتاب قد دوَّن اسمه أو اسمها على الصفحة الداخلية وكانت به صفحات عديدة مفكوكة وتكاد تنخلع نهائيّاً، وقلبت صفحة ووجدت خطّاً بالحبر الأحمر تحت أربعة أبيات من الشعر:

«لن نتوقف عن الاستكشاف

والنهاية لأي استكشاف

ستكون مرفأنا الذي بدأنا منه

وعندئذ سنتعرف على نفس هذا المكان لأول مرة».

والأبيات الثلاثة الأخيرة وضعت إلى جوارها علامة أخرى إضافية عمودية، نظرت لأعلى مرة أخرى نحو الأشجار الكثيفة قبل أن أتصفح

ورقة أخرى، لقد تم وضع علامات على الصفحات التي تتناول إشارة إلى الجزر أو البحار، وكانت هناك حوالي ١٢ إشارة من ذلك النوع، وفي وقت لاحق من تلك الليلة رحت أقرأ بعض المقطوعات في النسخة الخاصة بي:

«كل واحد في سريره الصغير تخيل الجزر..

حيث كان الحب بريئاً نظراً لبعده عن المدن».

هذان البيتان المأخوذان عن أودين وضعت علامة تحتهما بينما لم توضع علامة على البيتين الآخرين المتداخلين، وكانت هناك أبيات عديدة في أماكن متفرقة مأخوذة عن عزرا باوندَ:

«تعال وإلا ستنزلق الموجة النجمية بعيداً

تجنب ساعة اضمحلالها شرقاً الآن!

لأن الإبر ترتعش في داخل نفسي..

لا تسخر من فيضان النجوم فهذا الأمر محتوم».

وأيضاً:

«الذي وهو في حالة وفاة يجعل عقله سليما

هذا الضوء جاء في الظلام

يجب عليك الذهاب أولاً إلى الطريق إلى جهنم».

أعدت الكتاب إلى مكانه تحت الفوطة واتجهت نحو التل، تأكدت تماماً أن هناك من يرقبني بالفعل، ثم انحنيت لأسفل والتقطت الفوطة والكتاب ووضعتهما إلى قمة الصخرة لكي يكون من السهل العثور على هذه الأشياء في حالة مجيء شخص ما للبحث عنها، ليس من باب الشفقة والعطف ولكن لمجرد تبرير فضولي أمام العينين المخبأتين، وكان بالفوطة بقايا عطر نسائي.

ورجعت إلى المكان الذي به ملابسي ورحت أرقب بزاوية من عيني وأنظر على طول البلاج، ثم انسحبت إلى ظل أشجار الصنوبر الموجودة خلف البلاج، كانت البقعة البيضاء فوق الصخرة تتوهج تحت ضوء الشمس، واستلقيت على الأرض واستسلمت للنوم، لكنني عندما أستيقظت من النوم نظرت لأسفل في اتجاه البلاج لاحظت أن الأشياء اختفت، فالفتاة ـ ومن المؤكد أنها فتاة ـ قد أخذت حاجياتها دون أن يراها أحد، فارتديت ملابسي وذهبت إلى المكان.

كان الممر المؤدي إلى المدرسة يبدأ من وسط الخليج، ومن عند الخليج شاهدت ممراً آخر صغيراً يتجه لأعلى من عند التفاف الأسلاك الشائكة، كان ممراً منحدراً وكانت الشجيرات كثيفة للغاية بحيث لا يمكن للمرء الرؤية من خلالها، ومن بين الظلال تبزغ الرؤوس القرمزية لنباتات الجلاديولي.

فجأة دوى جرس من على مسافة ما تقع إلى ما وراء الشجيرات القصيرة، فتوقف الطائر عن الغناء وواصلت صعودي لأعلى، كان من الواضح أن ذلك بمثابة توجيه نداء لبعض الناس للمجيء لتناول وجبة ما، أو ربما هناك طفل يعبث بالجرس.

كانت هناك بوابة، مربوطة بالسلاسل الصدئة ومدهونة بالطلاء القديم، وكان هناك مدق عشبي متسع ممتد على طول الأرض الممتدة إلى أسفل التل وكان المدق ينعطف بين الأشجار ولا يكشف أي جزء من المنزل، ورحت أصغي للحظات ولكن لم تكن هناك أصوات آدمية، وإلى أسفل التل راح الطائر يتغني مرة أخرى.

نفذت من خلال الفتحة، كان على مسافة شجرتين إلى الداخل، توجد كتابة تقول «المنتهكون لحرمة هذا المكان سيلقون العقاب» هذه اللافتة كتبت عليها بحروف حمراء اللون غير واضحة على خلفية بيضاء اللون..

حجرة الانتظار: بدت كأنها قد أخذت منذ سنوات من محطة سكة حديد فرنسية أو كأنها دعابة كتبها أحد الطلاب القدامى، كان الطلاء بها قد تساقط وظهرت بعض أجزاء من المعدن الصدئ، وعند أحد طرفيها توجد أربعة ثقوب ناجمة عن طلقات الرصاص، كان ذلك هو التحذير الذي أشار إليه ميتفورد: احترس من غرفة الانتظار.

وقفت فوق المدق العشبي في حيرة، وغير قادر أن أقرر ما إذا كان عليَّ أن أستمر في الاتجاه نحو المنزل، خمنت أن ذلك المنزل هو الفيلا الخاصة بالشخص الذي تعاون مع العدو المحتل لبلاده، ولكنني تخيلته في ذهني كرجل يوناني حقير الوجه مخادع وماكر وليس كرجل مثقف للغاية بحيث يقرأ أو يكون لديه ضيوف يقرأون كتباً بقلم آليون وأودين، ترددت لفترة طويلة للغاية حتى إنني تضايقت من نفسي بسبب عدم تمكني من اتخاذ قرار، وأخيراً أرغمت نفسي على الاستدارة للانصراف، وعدت خارجاً من خلال الفتحة وتتبعت المدق وسرت نحو سلسلة الجبال الرئيسية، وسرعان ما تلاشى المدق واندمج مع درب للماعز، وعندما وصلت إلى الجبال الرئيسية من ذلك الموقع لم يكن المنزل مرئيّاً على الإطلاق، لكنني عرفت مكانه على وجه الدقة.

كان الجو يسوده الهدوء والسلام وخبز القربان والهواء الذهبي والمسافات الزرقاء البكماء، عندما شرعت في النزول على الممرات المنحدرة المتجهة إلى المدرسة بدا لي الجانب الشمالي من الجزيرة مقهوراً ومحزوناً وتافهاً بالمقارنة مع الجانب الآخر.

(١١)

وفي صباح اليوم التالي عقب الإفطار اتجهت إلى منضدة ديمترياديس، الذي كان بالقرية في مساء اليوم السابق، لم أهتم بالانتظار لحين عودته، كان قصيراً ممتلئ الجسم، وجهه يشبه

الضفدعة، وكان يشعر بكراهية إزاء أشعة الشمس وكل ما هو ريفي، كان لا يكف عن إبداء استيائه من الحياة الريفية التي اضطررنا لأن نعيشها في الجزيرة، وهو في أثينا كان يعيش حياة الليل وينغمس في ممارسة هوايتيه المفضلتين: معاشرة البغايا وتناول الطعام، وكان ينفق كل أمواله لتحقيق هذين الهدفين بالإضافة إلى شراء الملابس لنفسه، ولذلك كان يتوقع له أن يبدو شاحباً ومتسخاً وفاسداً، إلا أنه كان دائماً متورد الوجه ونظيفاً، كان مثله الأعلى في التاريخ هو كازانوفا، وكان له سحر وجمال جميع الناس الذين يؤمنون بأن لديهم نوعاً من التكامل.

خرجت به إلى الحديقة، وكان اسم التدليل الخاص به هو ميلي، حيث كان يحب الأشياء الحلوة المذاق مثل الأطفال.

ـ يا ميلي، ماذا تعرف عن الرجل الموجود في بوراني؟

ـ هل تقابلت معه؟

ـ لا.

ـ «آي»!

قالها صائحاً في غلظة.

كانت شخصية كازانوفا تقتصر تماماً على حياته الخاصة، أما في الفصل فكان مثل الضابط الصارم المتشدد.

ـ هل تعرف اسمه؟

ـ فقال: اسمه كونشيس.

ـ لقد قال ميتفورد إنه دخل في شجار مع كونشيس ذات يوم.

ـ لقد كذب عليك، حيث دأب على قول الأكاذيب دائماً.

ـ ربما، ولكن من المؤكد أنه تقابل معه.

ـ بو ـ بو، وهذا تعبير باللغة اليونانية معناه «إنني أرتاب وأشك في

صحة هذا الكلام»، ذلك الرجل لا يقابل أي شخص على الإطلاق أبداً، ويمكنك أن تسأل في ذلك المدرسين الآخرين.

ـ ولكن ما السبب في هذا؟

ـ هناك قصص وروايات قديمة وكثيرة، وأنا لا أعرف هذه الروايات.

ـ لو سمحت.

ـ إنها ليست شيقة.

سرنا معاً على مدق مليء بالحصى، كان ميلي يبغض الصمت، بدأ يخبرني بما يعرفه عن كونشيس.

«كان يعمل لصالح الألمان في أثناء الحرب، وهو لا يذهب إلى القرية على الإطلاق، لأن القرويين على استعداد لقتله رمياً بالحجارة، بل أنا شخصياً على استعداد لأن أقتله إذا شاهدته».

ابتسمت: ولماذا؟

ـ لأنه رجل غني ومع ذلك فهو يعيش في جزيرة صحراوية مثل هذه الجزيرة بينما كان في استطاعته أن يعيش في باريس.

ـ هل يتكلم اللغة الإنجليزية؟

ـ أظن ذلك، ولكن ما السبب في اهتمامك الشديد بذلك؟

ـ لست مهتمّاً، كل ما هنالك أنني شاهدت المنزل.

ودوى جرس المدرسة عبر البساتين والممرات، وأثناء الرجوع إلى الفصل دعوت ميلي لكي يتناول طعام العشاء معي بالقرية في اليوم التالي.

كان الشخص القيادي بالقرية رجلاً يسمى سرانتوبولوس ويعرف المزيد من المعلومات عن كونشيس، جاء وتناول معنا كأساً من الخمر في أثناء تناولنا الطعام الذي طبخه لنا، صحيح أن كونشيس كان يعيش

العزلة ولم يذهب إلى القرية على الإطلاق، لكنه لم يكن متعاوناً مع الأعداء المحتلين للبلاد، فذلك كذب وافتراء، لقد عينه الألمان في منصب عُمدة في أثناء الاحتلال، وهو في حقيقة الأمر بذل كل ما في وسعه من أجل القرويين، فإذا كان لا يتمتع بأية شعبية الآن فإن السبب في ذلك أنه يأمر بشراء معظم حاجياته من أثينا، وانهمك في سرد قصة طويلة، وكانت اللغة العامية التي يتكلم بها وهي لغة أهالي الجزيرة صعبة للغاية حتى بالنسبة لليونانيين الآخرين من غير سكان الجزيرة، وبذلك لم أتمكن من فهم كلمة واحدة، وانحنى في حماس عبر المنضدة، وبدا على ديمتريياديس الملل والسأم وراح يومئ برأسه من وقت لآخر في نوع من المجاملة.

ـ يا ميلي، ماذا يقول هذا الرجل؟

ـ لا شيء، مجرد قصة عن الحرب، لا أهمية لها على الإطلاق.

ونظر سارانتوبولوس فجأة إلى ما وراءنا وقال كلاماً ما لديمترييادس ثم نهض فالتفت حولي، كان هناك رجل طويل حزين الوجه من سكان الجزيرة، يجلس في المكان الخاص بأهالي الجزيرة في الحجرة الطويلة الشاغرة، وشاهدت سارانتوبولوس يضع يده على كتف الرجل، وحملق الرجل فينا في شيء من الريبة والشك ثم استسلم وسمح لنفسه بأن يقاد إلى منضدتنا.

ـ أنه الحمَّار الخاص بالمستر كونشيس.

ـ ماذا؟

ـ أنه يمتلك حماراً، وهو ينقل الخطابات البريدية والطعام إلى بوراني.

ـ كان اسمه هرميز.

اعتدت أن أسمع أسماء تلاميذ غير أذكياء يسمون باسم سقراط أو

أرسطو، ومناداة المرأة العجوز التي تقوم بتنظيف حجرتي باسم أفروديت، حتى إن سماعي لهذه الأسماء الشهيرة التي تطلق تفكها على أناس عاديين لم يعد يدفعني للابتسام، وجلس الحمَّار وتقبل على الرغم منه كأساً صغيرة وراح يداعب حبات مسبحته الكهرمانية، تمكن ميلي من أن ينتزع منه قدراً ضئيلاً من المعلومات.

ـ ما الذي فعله المستر كونشيس؟

ـ كان يعيش بمفرده، نعم بمفرده، مع مدبرة لشئون المنزل وكان يزرع حديقته زراعة حقيقية على ما يبدو، وكان يعشق القراءة، وقد قرأ العديد من الكتب، كان لديه بيانو، يتحدث بلغات عديدة، كان يذهب أحياناً إلى أثينا وإلى بعض البلدان الأخرى.

ـ اسأله عما إذا كان بالمستطاع أن أقوم بزيارة كونشيس؟

ـ لا، هذا أمر مستحيل تماماً.

كان فضولنا وحب استطلاعنا أمراً طبيعيّاً، أما تحفظه فهو الأمر الذي كان يبدو غريباً، ربما قد وقع الاختيار عليه بسبب تجهمه وتحفظه، ونهض واقفاً لكي ينصرف.

تساءل ميلي: أأنت متأكد أنه لا يخفي في منزله فتيات جميلات؟ رفع الحمَّار ذقنه الزرقاء وحاجبيه في إجابة بالنفي صامتة ثم استدار مبتعداً وقد ظهرت على وجهه مشاعر الازدراء.

وتمتم ميلي وراء الرجل قائلاً: «يالك من فلاح»! وتلك العبارة هي أسوأ الشتائم في اللغة اليونانية، ثم أمسك بمعصم يدي وقال: «يا عزيزي، هل سبق لي أن حدثتك عن الرجلين والسيدتين الذين قابلتهم ذات مرة في مكونوس وعن الطريقة التي مارسوا بها الجنس؟».

ـ نعم، ولكن لا بأس.

شعرت بالإحباط على نحو غريب، ولم يكن السبب في ذلك هو

فقط أنني سمعت للمرة الثالثة في تفصيل دقيق كيف أن ذلك الرباعي الأكروباتي قد تمكن من ممارسة الجنس.

تمكنت من التقاط المزيد من المعلومات في أثناء الأيام المتبقية من الأسبوع وذلك عقب عودتي للمدرسة، لم يذهب إلى هنالك قبل الحرب سوى اثنين من المدرسين، وتمكن كلاهما من مقابلة كونشيس مرة واحدة أو مرتين آنئذ، ولكن منذ ذلك الوقت لم تفتح المدرسة أبوابها إلا منذ عام ١٩٤٩م، قال أحدهما إنه موسيقار متقاعد، وقال الآخر إنه شكاك في طبيعة الدوافع البشرية بالإضافة إلى أنه ملحد، إلا أنهما اتفقا في الرأي على أن كونشيس رجل يعشق العزلة، وفي أثناء الحرب أرغمه الألمان على العيش في القرية، وذات يوم ألقى الألمان القبض على بعض المقاتلين المنتمين للمقاومة الشعبية والذين كانوا موجودين في الأراضي الرئيسية وطلبوا من كونشيس أن يقوم بتنفيذ حكم الإعدام في هؤلاء المقاتلين، فرفض فقاموا بوضعه هو ومجموعة من القرويين أمام فرقة عسكرية مزودة بالأوامر لإطلاق النيران عليهم رمياً بالرصاص، لكنه أفلت من الموت بأعجوبة، اعتقد القرويون أن كونشيس كان ينبغي له أن ينفذ الأوامر التي أصدرها الألمان إليه، ولكن ذلك أصبح جزءاً من الماضي، وإذا كان هو قد أخطأ فإن ذلك كان من أجل شرف اليونان، وعلى كل حال فلم تطأ قدمه القرية على الإطلاق منذ ذلك الوقت.

وبعدئذ اكتشفت شيئاً ما صغيراً ولكنه غير طبيعي، لقد سألت العديد من الناس بالإضافة إلى ديمترياديس الذي لم يمكث بالمدرسة سوى عام واحد عما إذا كان ليفارير ـ وهو المدرس السابق على ميتفورد ـ أو ميتفورد نفسه، قد سبق له التحدث عن مقابلته لكونشيس، وكانت الإجابة دائماً بالنفي، وهي إجابة معقولة على ما يبدو بالنسبة لحالة ليفارير لأنه كان رجلاً متحفظاً للغاية، ثم تصادف أن كان الشخص

الأخير الذي سألته نفس هذا السؤال هو مدرس «علم الحياة» فقال كارازوجلو بلغته الفرنسية الركيكة إن ليفاريير لم يسبق له الذهاب إلى هناك على الإطلاق لأنه لو ذهب لأخبره بذلك، إذ كان متقارباً مع ليفاريير أكثر من أي مدرس آخر، وراح يتحسس في أحد الأدراج ثم استخرج صندوقاً مليئاً بقصاصات من الورق تلتصق بها أزهار مجففة كان ليفاريير قد جمعها، وكانت تعليقات مطولة ومكتوبة بخط اليد في وضوح مع استخدام كلمات علمية وفنية على مستوى عالٍ مع وجود اسكتشات مهنية بالحبر الشيني وألوان الماء، وبينما كنت أتصفح في غير اهتمام في الصندوق سقطت مني إحدى الصفحات التي توجد بها أزهار مجففة وكان ملحقاً بها ورقة أخرى بها ملاحظات إضافية، وقد انزلقت هذه الورقة، وعلى ظهرها كانت هناك بداية لخطاب مؤرخ في ٦ يونيو ١٩٥١م، أي منذ عامين:

«عزيزي المستر كونشيس، إنني أخشى كثيراً أنه منذ ذلك المشهد غير العادي..» وبعد ذلك توقف الخطاب.

لم أقل أي كلام لكارازوجلو الذي لم يلحظ أي شيء، لكنني آنئذٍ قررت القيام بزيارة المستر كونشيس.

لا أعرف الأسباب التي جعلتني أشعر فجأة به، ربما لأن المدرسين السابقين عليَّ قاما بزيارة هذا الرجل الذي لا يمكن أن يقابله أحد، ولم يرغبا في التحدث عن زيارتهما له، وعلى نحو ما شعرت بأن الدور جاء عليَّ لكي أقابله، ولم أفعل سوى شيء واحد في ذلك الأسبوع، كتبت خطاباً لآليسون وأرسلته في ظرف موجه إلى آن في الشقة السفلية في ميدان راسيل، وطلبت من آن أن تبعث الخطاب إلى العنوان الذي تسكن فيه آليسون، ولم أقل أي كلام له أهمية في خطابي لآليسون، كل ما قلته إنني اكتشفت معنى كلمة «غرفة الانتظار» وإنها يمكنها أن ترد على

خطابي هذا إذا كانت ترغب في ذلك حقاً وإنني سأقدر موقفها إذا لم ترد.

وكنت أدرك أن الشخص الذي يعيش في هذه الجزيرة ينجذب كثيراً إلى الماضي، لأن الجزيرة يسودها قدر كبير من الهدوء ولا يوجد هناك سوى قدر ضئيل من اللقاءات والزيارات، حتى إن المرء يمكنه الخروج بسهولة من مرحلة الوقت الحاضر، وعندئذٍ يبدو الماضي قريباً له للغاية ولعشرات الأضعاف عما هو عليه في حقيقة الأمر، وكان من المحتمل ألا تكون آليسون قد فكرت فيّ على مدى أسابيع لأن لديها مشاغل كثيرة للغاية، لذلك وضعت الخطاب في صندوق البريد وكأنني ألقي برسالة موضوعة في زجاجة في البحر ليس على سبيل التفكه تماماً وإنما أقرب إلى ذلك.

(١٢)

إن عدم وجود الرياح الشمسية التي لا تنضب عادة جعل يوم السبت التالي حارّاً للغاية، وكانت الغابة في تلك الآونة خلية من النشاط المرئي والمسموع بعد أن زالت عنها عزلتها التامة.

وصلت إلى الحافة الجبلية مرة أخرى، كان البحر في لون التركواز واتخذت الجبال اللون الأزرق الرمادي تحت الحرارة الخالية من الرياح، وكان باستطاعتي مشاهدة التاج الأخضر اللامع لأشجار الصنوبر الموجودة حول بوراني، وكان الوقت في فترة الظهيرة تقريباً عندما خرجت من بين الأشجار ومشيت على حصى البلاج الذي به الكنيسة الصغيرة. كان المكان مهجوراً، ورحت أتأكد من ذلك، ولكن لم أعثر على أي شيء ولم أشعر بأن هناك من يرقبني، فسبحت في الماء، ثم تناولت طعام الغداء، ثم رحت في سِنة من النوم تحت ظل شجرة صنوبر.

وتحركت الشمس وبدأت أشعة الشمس تغمرني وتسبب لي التوتر، ففكرت في آليسون والممارسات السابقة التي تمت معها، وتمنيت لو كانت موجودة إلى جواري، كنت ممتلئاً بحزن جاف وبمزيج من التذكر للماضي وإدراك للوضع الراهن، كنت أتذكر الماضي وأشعر بالارتياح لأن أعراض الزهري لم تظهر مرة أخرى، لم أعرف ما الذي ستسفر عنه حياتي، شعرت بأنني في حالة من التعطيل المؤقت، كنت في حالة انتظار ولكني لم أكن أشعر بأي خوف، وانقلبت على بطني وتخيلت آليسون بعض الوقت، ثم جريت وألقيت بنفسي في مياه البحر للاستحمام، ثم تسلقت المدق الممتد بجوار الأسلاك الشائكة والشجيرات القصيرة الكثيفة، ومررت بجوار البوابة ووقفت أمام اللافتة الغامضة باللون الأبيض، كان باستطاعتي مشاهدة النوافذ الفرنسية المفتوحة في غرفة بالدور الأول تؤدي إلى داخل المنزل، ومن الناحية الشرقية والخلفية من المنزل كانت هناك صفوف من النباتات الشبيهة بالسيوف، بالإضافة إلى كتل صغيرة من الشجيرات بها أزهار قرمزية وصفراء، وإلى الأمام في الاتجاه القبلي واتجاه البحر كانت هناك مساحة من الحصباء الممتدة وبعدئذٍ تنحدر الأرض فجأة نحو البحر، وعند زاويتي الأرض المغطاة بالحصباء توجد أشجار نخيل محاطة بحلقات من الحجارة البيضاء.

شعرت بضعف الثقة في نفسي لدى مشاهدتي لهذا المنزل، كان طابعه غير يوناني ومليء بالوفرة والثراء مثل الثلج السويسري، مما جعلني أشعر بأنني غريب التصرفات.

صعدت على مجموعة من السلالم الصغيرة إلى الجانب القرميدي، كان هناك باب مغلق له مطرقة حديدية على شكل دولفين، رحت أطرق على الباب، لكن لم يحضر أحد، وانتظرنا أنا والمنزل في صمت زاخر بأصوات الحشرات، ثم مشيت على طول صف الأعمدة إلى ناصية

الواجهة القبلية من المنزل وهنالك كان صف الأعمدة أكثر اتساعاً وكانت البواكي الرفيعة أكثر انفتاحاً، ووقفت في الظلال الكثيفة ونظرت إلى الخارج عبر قمم الأشجار وعبر البحر إلى الجبال ذات اللون الأرجواني الفاتح.

كان هناك كرسيان قديمان من الخيزران في وسط صف الأعمدة بالإضافة إلى منضدة مغطاة بمفرش من النوع المشغول بالتريكو وعلى المنضدة يوجد كأسان وطبقان كبيران عليهما قطعة من القماش القطني، لاحظت الطابع الثنائي لمنضدة الشاي ووقفت عند الزاية وقد اعتراني الارتباك وبدأت تجتاحني رغبة سخيفة في التراجع، وعندئذٍ وعلى نحو فجائي ظهر هيكل عند مدخل الباب، لقد كان كونشيس.

(١٣)

أدركت أنه كان هناك، شاهدني دون أن تبدو الدهشة على وجهه، وظهرت على وجهه ابتسامة باهتة تكاد تكون تكشيرة ألم أو ازدراء.

كان أصلع الرأس وبني اللون، قصيراً ونحيلاً، رجل من الصعب معرفة عمره، ربما يكون ستين وربما يكون تسعين عاماً، يرتدي قميصاً ذا لون أزرق داكن وبنطلوناً قصيراً ينتهي عند الركبتين وحذاءً رياضيّاً مبقعاً بآثار الملح، وأغرب شيء فيه هو حدة عينيه، ومما يزيد وضوح لون عينيه أن المساحة البيضاء في عينيه كانت ناصعة البياض للغاية، مما جعل عينيه تبدوان كأنهما ليستا من نوع العيون الآدمية تماماً.

رفع يده اليسرى لأعلى قليلاً في نوع من التحية الصامتة، ثم سار نحو صف الأعمدة تاركاً إياي مع كلماتي التي كونتها، ثم احتجزت في حلقي، ونادى إلى الوراء في اتجاه الكوخ:

- ماريا!

وسمعت إجابة بها عويل خفيف.

وعندما استدار إليَّ بدأت بقولي: اسمي.. رفع يده اليسرى لكي يسكتني، وأمسك بذراعي وقادني إلى حافة صف الأعمدة، كان لديه نوع من السلطة والنفوذ والبت الحازم الفجائي، مما جعلني أفقد توازني، وألقى نظرة عامة شاملة على المنظر الطبيعي ثم نظر إليَّ في تفحص، وتصاعدت الروائح الطيبة التي تشبه الزعفران.

ـ هل تراني أحسنتُ اختيار هذا المكان؟

وكان من الواضح أن لغته الإنجليزية رصينة وممتازة.

ـ على نحو عظيم للغاية، ولكن يجب أن تسمح لي.. ومرة أخرى امتدت ذراعه البنية اللون التي تشبه الجبال نحو البحر والجبال والجنوب لإسكاتي، كان من الواضح أنه من النوع الذي لا يبتسم إلا فيما ندر، وكان هناك شيء ما يشبه القناع في وجهه، وكانت الأخاديد والتجاعيد تهبط من جوار أنفه إلى زاويتي فمه، فأوحى ذلك لي بأنه رجل لديه خبرة في الحياة، كان مجنوناً بعض الشيء، ومما لا شك فيه أن جنونه كان من النوع غير الضار، خطر بذهني أنه ظن أنني شخص آخر، فجأة هز رأسه هزة سريعة خفيفة، ساخرة توحي بأنه لا يتوقع إجابة، ثم تحولت سحنته كأن الذي حدث بيننا مجرد نكتة أو تمثيلية مُثلت وانتهت وفقاً لخطة معينة، وفقدت توازني للغاية مرة أخرى، ابتسم وعاد إلى المنضدة، وقال: فلنتناول الشاي معاً.

ـ لقد جئت فقط لكي أتناول كوباً من الماء، وهذا هو....

ـ لقد جئت إلى هنا لكي تقابلني، لو سمحت، الحياة قصيرة.

فجلست، المكان الثاني كان لي، وظهرت امرأة عجوز ترتدي ثياباً سوداء، وكانت تحمل صينية عليها براد شاي مصنوع من الفضة،

بالإضافة إلى السكرية وطبق به شرائح من الليمون علاوة على غلاي الشاي.

ـ هذه هي مدبرة المنزل.. ماريا.

وتحدث معها بلغة يونانية دقيقة، وسمعت اسمي واسم مدرستي يرد أثناء كلامه، وانحنت المرأة العجوز في اتجاهي وهي تنظر نحو الأرض دون أن تبتسم، ثم أخذت تفرغ حمولة صينيتها، وقام كونشيس بجذب الشاش بسرعة من فوق أحد الأطباق في اعتداد بالنفس شبيه بذلك الذي يتمتع به المشعوذ أو الساحر، فشاهدت ساندوتشات محشوة بالخيار، وراح يصب الشاي.

ـ كيف عرفت اسمي يا مستر كونشيس؟

أخذ رشفة من الشاي ثم قال: إذا استفسرت من هيرميز فإن زيوس سيعرف.

ـ أخشى أن يكون زميلي قد تصرف في غير لباقة.

ـ من المؤكد أنك عرفت كل ما يتعلق بي.

ـ لم أعرف سوى القليل للغاية.

فنظر إلى فنجان الشاي، ثم قال: «هناك قصيدة من الشعر هذا هو نصفها: هناعند الحدود توجد أوراق متساقطة، رغم أن جميع جيراني من البرابرة ورغم أنكعلى مسافة ألف ميل، فإنه يوجد دائماً على منضدتي اثنان من فناجين الشاي».

فابتسمت وقلت: دائماً؟

ـ لقد شاهدتك يوم الأحد الماضي.

ـ هل الأشياء التي كانت هناك خاصة بك؟

فأومأ برأسه، ثم قال: لقد شاهدتك أيضاً بعد ظهر هذا اليوم.

ـ آمل ألا أكون قد حرمتك من الاستمتاع بشاطئك.

ـ لا، على الإطلاق، فشاطئي موجود هنا، وأشار بيده إلى الحصباء وأضاف: ولكنني أحب دائماً أن يكون لي شاطئ خاص بي، والآن فلتتناول الشرائح.

وأخذ يصب لي المزيد من الشاي، وفي الطبق الآخر كانت توجد فطائر بالزبد مخروطية الشكل ومحشوة بالسكر، وتناولت قطعة من فطيرة وأومأت برأسي تعبيراً عن إعجابي الشديد بمذاقها.

ـ لست أول شخص إنجليزي يبدي إعجابه بالمأكولات التي تعدها ماريا.

ـ ميتفورد؟ لقد قابلته في لندن.

فراح يصب المزيد من الشاي.

ـ ما أريك في الكابتن ميتفورد؟ هل تحدث عني؟

ـ لا، كل ما قاله.. هو أنك كانت لديك.. وجهة نظر مختلفة.

ـ لقد جعلني الكابتن ميتفورد أشعر بالخجل من دمائي الإنجليزية.

وحتى تلك الآونة كنت قد شعرت بأنني قد بدأت أتعرف على مواصفاته.

أولاً وقبل كل شيء فإن لغته الإنجليزية رغم أنها ممتازة فإنها ـ على نحو ما ـ لم تكن لغة معاصرة، فهي أقرب إلى لغة شخص ما لم يذهب إلى إنجلترا منذ سنوات عديدة، وثانياً: كان مظهره بأكمله أجنبيّاً، وكان به تشابه عجيب مع بيكاسو.

ـ لم أكن أعرف أنك كنت إنجليزيّاً.

ـ لقد أمضيت ١٥ عاماً من حياتي في إنجلترا، والآن لدي الجنسية اليونانية ولدي اسم والدتي اليونانية.

ثم غير موضوع الحديث بسرعة إذ قال:

ـ أيعجبك منزلي؟ لقد أعددت بنفسي تصميماته، كما قمت ببنائه بنفسي.

فنظرت فيما حولي وقلت: إنني أحسدك.

ـ وأنا أيضاً أحسدك، فأنت لديك الشيء الوحيد الذي له أهمية، فجميع استكشافاتك موجودة أمامك.

حسناً، الآن سوف أتركك لدقائق قليلة، وبعدئذٍ سنلقي نظرة على هذا المكان معاً، عليك بتناول هذه الكمية من الفطائر لو سمحت؛ فهذا سيكون تكريماً لماريا.

وسار تحت ضوء الشمس عند حافة صف الأعمدة ومد ذراعيه وأصابعه وأشار لي بحركة أخرى لكي أتناول الطعام ثم اتجه إلى داخل الغرفة، كان باستطاعتي مشاهدة أحد طرفي أريكة ومنضدة عليها زهرية مليئة بأزهار لبنية اللون، توقفت عن تناول الطعام، سائلاً نفسي في تعجب: ترى ما هي المفاجأة الجديدة التي ستقدم لي؟!

وكانت هناك لحظات من الصمت، ربما لترك المجال لي للتخمين، وبعدئذ ترامى الصوت الحزين الهادئ للبيانو، ترددت ثم قررت أنه يمكن لاثنين أن يعزفا لعبة الاستقلال، كان يعزف بسرعة ثم في بطء وتوقف مرة أو اثنتين لكي يعيد جملة، وجاءت العجوز وأخذت بقايا الطعام والشراب في صمت دون أن تنظر إليَّ حتى عندما امتدحت الفطائر بلغتي اليونانية المليئة بالتكلف والرسميات، كان من الواضح أن صاحب البيت يفضل الخادمات الصامتات، انسابت الموسيقى في وضوح من الغرفة، ثم راح يكرر مقطوعة ثم توقف فجأة مثلما بدأ.

شعرت بأنه كان ينبغي لي أن أبدأ بزيارته في وقت مبكر عن ذلك

بعض الشيء، لأنني بذلك تسببت في مضايقته، ولكنه ظهر قادماً من المدخل وقال:

ـ أرجو ألا أكون قد ازعجتك بتركي لك وحيداً.

ـ لا، أنت تجيد العزف تماماً.

ـ ذات يوم كان بمقدوري أن أعزف جيداً، لا بأس، هيا بنا، سيريك بروسبيرتو ممتلكاته من الأرض.

وبينما كنا نهبط على السلالم إلى الحصى قلت:

ـ بروسبيرتو كانت له بنت.

ـ بروسبيرتو كانت لديه أشياء كثيرة، وهي ليست كلها صغيرة وجميلة يا مستر أورفي.

فابتسمت في لباقة معتقداً أنه يشير بالتأكيد إلى ذكريات عن الحرب، ولذتُ بالصمت للحظات قليلة.

ـ أتعيش بمفردك هنا؟

ـ يعتقد البعض أنني أعيش بمفردي، والبعض الآخر لا يعتقد ذلك.

قال ذلك في نوع من الاحتقار المليء بالاشمئزاز، واستمر في المشي مسرعا، مع الاستمرار في الشرح والتعليق على الأشياء، وأراني حديقة الخضراوات الصغيرة، والمساحات المزروعة بالخيار واللوز وشجرات ورد البشملة ذات الأوراق الطويلة وأشجار الفستق ومن عند الحافة البعيدة لهذه الحديقة، كان باستطاعتي أن أشاهد المكان الذي كنت مستلقياً فيه منذ ساعة وساعتين.

ـ موستا.

ـ لم أسمع أحداً يطلق عليها ذلك الاسم من قبل.

فطرق على أنفه وقال: «ألبانية»، وأضاف: الأنف، بسبب تلك الصخرة الموجودة هنالك.

ـ هذه التسمية ليست شعرية ولا تتناسب مع مثل هذا البلاج الجميل.

ـ الألبانيون كانوا قراصنة ولم يكونوا شعراء، ولقد أطلقوا على هذا الرأس اسم بوراني.

وبينما كنت أسير وراءه قلت: لقد تعجبت من اللافتة الموجودة عند البوابة، والتي كتب عليها غرفة الانتظار.

ـ لقد وضع الجنود الألمان تلك اللافتة هنالك ولقد صادروا بوراني في أثناء الحرب.

ـ لكن لماذا فعلوا ذلك؟

ـ أعتقد أنهم كانوا متمركزين في فرنسا، واكتشفوا أنه من الغباء أن يقيموا حامية عسكرية يتمركزون بها هنا في هذا المكان، كان هذا هو ما حدث على وجه الدقة، ويجب عليَّ أن أشكر الألمان على هذه الدعابة من جانبهم، وكان ينبغي عليَّ أن أرحب بعدم تدمير مثل هذه النباتات النادرة.

ـ أتعرف اللغة الألمانية؟

ـ من المستحيل معرفة اللغة الألمانية، ولكن من الممكن للمرء أن يتحملها، أنا أحكم على البلاد من خلال مَيزاتها الخاصة، كان بمقدور الإغريق القدامى أن يضحكوا على أنفسهم، أما الرومان فلم يكن بمقدورهم أن يفعلوا ذلك، وذلك هو السبب في أن فرنسا مجتمع متحضر بينما إسبانيا ليست كذلك، وذلك هو السبب في أنني أغفر لليهود وللأنجلوسكسون رذائلهم وعيوبهم التي لا حصر لها، وهذا هو السبب أيضاً في أنه ينبغي لي أن أشكر الله لأنه لا تجري في عروقي دماء ألمانية.

ووصلنا إلى تعريشة ظليلة تقع في نهاية أرض الحديقة، أشار إلى تمثال مرعب وسأل:

ـ أتعرف ما هذا؟

ـ أهو بان Pan (إله الغابات عند الإغريق)؟

ـ إنه بريابوس (إله الإنجاب)، وفي العهود القديمة كان لكل حديقة وكل بستان تمثال من هذا النوع، بهدف تخويف اللصوص، علاوة على جلب الخصوبة وينبغي أن يصنع من خشب أشجار الكمثرى.

عدنا في اتجاه المنزل، وكان هناك ممر ضيق متعرج يمتد في انحدار من أمام صف الأعمدة متجهاً إلى الشاطئ، وكان هنالك كهف صغير عند الشاطئ، وكان قد أنشأ مرسى علاوة على قارب مزود بموتور، وكان القارب مربوطاً في المرسى، وعند أحد طرفي البلاج كان باستطاعتي مشاهدة كهف صغير وبراميل كيروسين، وكانت هناك مضخة صغيرة مع وجود أنابيب صاعدة إلى الصخرة.

تساءلت:

ـ «كيف جئت إلى هنا لأول مرة يا مستر كونشيس»؟

ـ هل ستغفر لي إذا طلبت منك ألا توجه أسئلة إليَّ؟

ـ بالطبع.

والتزمت بذلك، وأقفلت فمي، لو كان هناك شخص آخر موجود معنا لكنت قد اضطررت للانفجار في الضحك.

وبدأت الظلال تسقط عبر المياه قادمة من أشجار الصنوبر، وكان هناك هدوء شديد، فالحشرات في حالة خمود واستكانة والمياه هادئة مثل المرآة، وقد وضع يديه على ركبتيه وكان من الواضح أنه منهمك في تأدية تمرينات التنفس العميق، من الناحية الظاهرية كان يبدو عليه أنه لا يشعر نحوي سوى بقدر ضئيل من الاهتمام، ومع ذلك كان يرقبني

في أثناء الاستدارة بوجه بعيداً عني، وجلسنا هنالك معاً في صمت كما لو كنا نعرف جيداً بعضنا البعض، ومن ثم فلا حاجة لنا لأن نتجاذب أطراف الحديث، وبدا هذا الصمت من جانبنا أنه يتلاءم مع الجو الهادئ في ذلك اليوم، كان صمتاً غير طبيعي ولكنه يخلو من الارتباك.

تحرك فجأة، ورفرفت عيناه نحو قمة الصخرة الموجودة إلى يسارنا. فنظرت فيما حولي، لم يكن هناك أي شيء.

فنظرت إليه: رحت أرقب بروفيل وجهه، حاولت أن أجره إلى الكلام معي مرة أخرى:

ـ أعتقد أنك تقابلت مع كلا الشخصين السابقين على ليفاريير؟

ـ من أخبرك بذلك؟

ولسبب ما كان خائفاً مما قد يكون قد قاله عنه من وراء ظهره، فتكلمت عن قصاصة الورق التي كانت تضم بعض الملاحظات وعندئذ شعر بالارتياح وقال: لم يكن سعيداً هنا، في فراكسوس.

ـ وهذا هو ما قاله لي ميتفورد، وظهرت عليه الحملقة المليئة بالاتهام مرة أخرى وقال:

ـ ميتفورد؟

أظن أنك قد سمع بعض الإشاعات في المدرسة

فراح يتفحص عينيَّ ثم أومأ برأسه ولكن بدون أن يظهر عليه اقتناع كامل، فابتسمت له ورد عليَّ بابتسامة خفيفة، كنا نلعب لعبة شطرنج غامضة، وخيل إليَّ أنني في موقف أفضل ولكني لم أعرف السبب في ذلك.

ومن المنزل غير المرئي الموجود لأعلى جاء صوت الجرس، دق ثلاث مرات، كان من الواضح أن ذلك له معنى معين، وعبر عن حالة التوتر الغريبة التي تسود المكان وصاحبه على ما يبدو والتي تعارضت

تماماً مع السلام الهائل سرعان ما وقف كونشيس وقال: ينبغي أن أذهب، وأنت أمامك مشي طويل.

وعند منتصف المسافة إلى الصخرة العالية حيث يتسع الممر المنحدر كان هناك مقعد صغير من الحديد المطاوع، فجلس عليه كونشيس ليرتاح بعض الشيء وكانت أنفاسه لاهثة وكذلك أنفاسي، وراح يطرق بخفة على قلبه، وتظاهرت بالاهتمام بحالته، لكنه هز كتفيه في لا مبالاة.

جلسنا في صمت واسترد كل منا أنفاسه، وشاهدت السماء الضاربة إلى اللون الأصفر من خلال أشجار الصنوبر الرقيقة. وكانت السماء في جهة الغرب، ضبابية وغائمة، وكان هناك القليل من سحب السماء متجعدة لأعلى في السماء فوق صمت العالم.

مرة أخرى تساءلت في هدوء:

ـ هل تشعر أنك مختار بمعرفة أي شيء؟

ـ مختار؟

ـ لقد شعر جون ليفاريير بأنه مختار، وأن الله هو الذي اختاره.

ـ إنني غير مؤمن، ولا أشعر بأنني مختار.

ـ أعتقد أنك ربما تكون مختاراً.

فابتسمت في نوع من الشك وقلت:

ـ شكراً.

ـ ليس هذا مدحاً، فالمصادفة تجعلك مختاراً، فأنت لا تستطيع أن تختار نفسك.

ـ وما الذي يختارني؟

ـ المصادفة تتقمص وجوها عديدة.

عندئذ نهض واقفاً رغم أن يده استقرت للحظات على كتفي كما لو كان يريد أن يعيد الطمأنينة إليَّ، أو يريد أن يقول إن ذلك ليس له أهمية، وصعدنا على الجزء المتبقي من التل، وأخيراً وصلنا إلى الحصباء الموجودة بجوار صف الأعمدة، وهنا توقف، كان وجهه المتجهم خالياً من روح الفكاهة والمزاح وقال:

ـ أطلب منك شيئين، الأول هو ألا تخبر أي شخص هنالك بأنك قابلتني، وهذا سببه أحداث معينة وقعت في أثناء الحرب.

ـ لقد سمعت هذه القصة.

ـ توجد هناك روايتان لهذه القصة، ولكن لا داعي للتطرق إلى هذا الموضوع الآن، أنا بالنسبة لهم إنسان انطوائي ومنعزل عن العالم، ولا يقابلني أي شخص، أبداً، أتفهمني؟

ـ بالطبع، لن أخبر أي شخص أنني قابلتك.

وكنت أدرك أن المطلب الثاني الذي يريده هو أن أمتنع عن زيارته مرة أخرى، ولكنه قال:

ـ أما الشيء الثاني الذي أطلبه منك هو أن تجيء إليَّ هنا في عطلة نهاية الأسبوع التالي، وتمكث عندي يومي السبت والأحد، هذا إذا كنت على استعداد للاستيقاظ من النوم مبكراً للغاية في صباح يوم الإثنين.

ـ شكراً جزيلاً لك، إنني أرحب بذلك.

ـ أعتقد أن لدينا أشياء كثيرة ينبغي لنا اكتشافها.

ـ لن نتوقف عن أعمال الاستكشاف؟

ـ قرأت تلك العبارة في الكتاب الذي كان على الشاطئ؟

ـ ألم تتركه لي لكي أقرأه؟

ـ وكيف لي أن أعرف أنك كنت ستجيء؟

ـ كان لديَّ إحساس بأن هناك شخصاً ما يرقبني.

ونظر إليَّ نظرات ثاقبة بعينيه ذواتي اللون البني الغامق، وصمت للحظات طويلة قبل أن يجيب، ولم تظهر على وجهه سوى مسحة من ابتسامة باهتة:

أتشعر الآن أن هناك من يرقبك؟

ومرة أخرى رفرفت عيناه إلى ما وراء كتفي كما لو كان يشاهد شيئاً ما في داخل الأشجار، فنظرت فيما حولي، لم يكن هناك شيء بين أشجار الصنوبر، فنظرت إليه:

ـ أهي نكتة؟!

كان لا يزال يبتسم ابتسامة جافة باهتة.

ـ «أهناك من يرقبني»؟

ـ كنت أتساءل فقط يا مستر أورفي، إذا لم تستطع الحضور أترك رسالة في سرانتوبولوس من أجل هيرميز. ولسوف تصلني الرسالة في اليوم التالي.

وصافحت يده، وانحنيت تحية له، وشكرته على تقديم الشاي، فرد عليَّ بانحناءة خفيفة جافة، وشققت طريقي خارجاً.

وبعد خمسين ياردة نظرت إلى الوراء، كان لا يزال واقفاً هناك، مثل الملك في مملكته، ولوحت بيدي فرفع ذراعيه محيياً وقد تقدمت إحدى قدميه قليلاً عن القدم الأخرى كما لو كان ذلك بمثابة نوع ما من أنواع منح البركات البدائية، وعندما نظرت إلى الوراء مرة أخرى قبل أن يختفي المنزل نهائيًا وراء الأشجار أدركت أنه اختفى ودخل منزله.

لم يكن شبيهاً بأي إنسان آخر شاهدته في حياتي، كان به شيء ما

أكثر من مجرد مشاعر الوحدة، أكثر من مجرد الخيال الجامح للشيخوخة الذي يحترق في عينيه الذاهلتين وفي تلك المحادثات التي تمت معه وفي نظراته الفجائية الملتوية إلى لا شيء، ولكنني بالتأكيد لم أكن أتصور لدى دخولي بين الأشجار أنني سأحصل على إجابة واضحة عقب المشي لمسافة مائة ياردة أخرى بين الأشجار.

(١٤)

قبل أن أصل إلى البوابة التي تقع خارج بوراني، شاهدت شيئاً ما يميل إلى اللون الأبيض مُلقى في الفجوة، في بادئ الأمر ظننت أنه منديل، لكنني عندما انحنيت لألتقطه أدركت أنه قفاز شاحب، وفي داخل المعصم يوجد تكيت عليه كلمات: صانع القفاز، رحت أتشمم رائحة القفاز واكتشفت أنها نفس الرائحة التي كانت موجودة بالفوطة في الأسبوع الماضي، الآن بدأت أدرك السبب في أنه لا يرغب في الزيارات غير المتوقعة أو الزيارات التي تتم بدون موعد مسبق، كم لا يرغبون في الإشاعات! ولم أستطع أن أتخيل السبب الذي دعاه لأن يخاطر بإفشاء سره لي في خلال الأسبوع التالي على ما يبدو، ولم أستطع أن أتخيل من تلك الفتاة؟ قد تكون سيدة أو ابنة أو زوجة أو أختاً، أو ربما تكون قد شاهدتني في الأسبوع الماضي، وفي هذه المرة سمعت عن مجيئي وحاولت أن تلقي نظرة خاطفة عليَّ، لقد كان يدرك أنها «موجودة بالخارج» وهذا يقدم تعليلاً للمقعد الثاني الشاغر عند منضدة الشاي ويفسر أيضاً دقات الجرس الغامضة.

استدرت فيما حولي متوقعاً إلى حد ما سماع ضحكات مكتومة أو ضحكات بلهاء بعض الشيء وبعدئذ وبينما كانت أنظر إلى الشجيرات القصيرة القريبة من البوابة وأتذكر الإشارة إلى بروسبيرتو في شيء من الاشمئزاز هبط على ذهني تفسير مليء بالمزيد من الشرور، إنه ليس

الخلل العقلي وإنما هو نوع من التشويه المريع للوجه «وهي ليست كلها صغيرة وجميلة يا مستر أورفي»، شعرت لأول مرة في هذه الجزيرة برعشة برد ناجمة عن الخوف من هذا المكان الموحش.

كانت الشمس منخفضة، علقت القفاز بالقرب من منتصف عمود البوابة وانطلقت بسرعة وقد خطر على ذهني أن كونشيس ربما يكون شخصاً من النوع الذي يجد متعة في ارتداء ملابس النساء، وبعد قليل بدأت لأول مرة منذ شهور أشدو بالغناء.

لم أطلع أي شخص على زيارتي لكونشيس، ولكنني قضيت ساعات عديدة في التفكير في ذلك الشخص الغامض الثالث الموجود بالمنزل، وخيل إليَّ أن أكثر الاحتمالات هو وجود زوجة متخلفة عقلياً، وهذا يفسر طابع العزلة والانعزال والخدم الملتزمين بالصمت، حاولت أن أكّون فكرة ذهنية عن كونشيس أيضاً، إن حركاته توحي بأنه يريد أن يبدو أصغر سناً، وما الذي كان يقصده بقوله إنه يتم اختياري؟ أو قوله إن لدينا أشياء كثيرة ينبغي استكشافها؟ هذا الكلام قد لا يكون له سوى معنى واحد ألا وهو أنه رجل مجنون.

وعثرت على خريطة للجزيرة بمقياس رسم كبير في مكتبة المدرسة، وعلى الخريطة علامة توضح حدود منطقة بوراني، وأدركت أنها أكبر حجماً مما كنت أتوقع، وفكرت فيها مرات عديدة وجلست على قمة نتوئها الجبلي الداخلي في مياه البحر، في أثناء الساعات المرهقة التي أقضيها في الكفاح مع كتاب «المنهج الإنجليزي» وكنت أستمتع بحصص المحادثة.

كنت أنظر من النافذة إلى السماء الزرقاء وأشجار السرو والبحر وأدعو الله أن ينتهي اليوم حتى يمكنني الذهاب إلى جناح المدرسين لأستلقي على سريري، كانت بوراني تبدو لي بعيدة للغاية؛ فأسرارها لم تعد سوى نكهة مضافة أو مخاطرة مضافة إلى المتعة الحضارية المرتقبة منها.

(١٥)

في هذه المرة كان منتظراً إياي عند المنضدة، ووضعت حقيبتي إلى جوار الحائط ونادى كونشيس على ماريا لكي تحضر الشاي، كانت تصرفاته في هذه المرة أقل غرابة، ربما لأنه قرر أن ينتزع مني كافة المعلومات، تحدثنا عن المدرسة وأكسفورد، وعائتلي وتدريس الإنجليزية للأجانب وعن الأسباب التي دعتني للمجيء إلى اليونان، ورغم أنه كان يداوم على توجيه الأسئلة إليَّ، فإنني كنت أشعر بأنه لا يهتم اهتماماً، حقيقياً بالكلام الذي أقوله؛ إذ كان يهمه شيء آخر: بعض الأعراض المتزامنة التي قد تظهر عليَّ، أو الفئة التي أنتمي إليها، لم أكن في حد ذاتي مثيراً لاهتماماته وإنما أنا من حيث إنني نموذج فقط، حاولت مرة أو مرتين أن أعكس أدوارنا، لكنه أوضح لي أنه لا يرغب في التحدث عن نفسه، فلم أتحدث معه عن موضوع القفاز.

أجلسني في كرسي فوتيه، ثم بدأ يعزف بعض المقطوعات القصيرة ثم بعض الألحان الراقصة ولم تعجبني كثيراً، لكنه كان يعزف في شيء من التمكن والأستاذية، ثم توقف فجأة في أثناء العزف وكأن الضوء الكهربائي قد انقطع، وظهر عليه الغرور مرة أخرى.

أومأت برأسي نحو لوحة لرسام موديلياني وذهبنا ووقفنا أمام اللوحة وأضاف قائلاً: أمي.

وللوهلة الأولى ظننت أنه يمزح.

ـ أمك؟

«من حيث الاسم ومن حيث الحقيقة الواقعة فهي أمه، ولقد كانت دائماً أمه»، فنظرت إلى عيني المرأة، لم يكن بهما الشحوب المعتاد الموجود في عيني موديلياني، كانت عيناها تحملقان وترقبان مثل عيني

قرد، نظرت إلى الوجه المدهون بالطلاء، فأدركت أنني لم أكن أنظر إلى لوحة هي نسخة طبق الأصل من لوحة أصلية:

يا إلهي، من المؤكد أنها غالية الثمن للغاية، بمثابة ثرورة.

فقال من دون أن ينظر إليَّ: «لا شك في ذلك، يجب ألا تعتقد أنني فقير لأنني أعيش هنا عيشة بسيطة، فأنا بالغ الثراء، ولم أدفع أي نقود ثمناً لها، وكان ذلك بمثابة صدقة لوجه الله، وكنت أود أن أقول إنني اعترفت بعبقريته، لكنني لم أقل ذلك.

ـ أكنت تعرفه؟

ـ موديلياني؟ لقد تقابلت معه، مرات عديدة، وكنت أعرف صديقة ماكس جاكوب، وتلك كانت هي المرحلة الأخيرة من حياته، كان قد أصبح مشهوراً في ذلك الوقت.

ونظرت خلسة إلى كونشس لدى حملقته لأعلى نحو اللوحة، قد اكتسب من خلال التعليق بأهداب النواحي الثقافية بعداً جديداً تماماً ألا وهو الشعور بالاحترام نحوي، بدأت أحس أنني لم أعد واثقاً تماماً من شذوذه العقلي وزيفه وغرابة أطواره، كما بدأت أشعر بتفوقي في المسائل التي تمس جوهر الحياة.

ـ من المؤكد أنك تتمنى لو كنت قد اشتريت المزيد من اللوحات.

ـ لقد اشتريت لوحات أخرى بالفعل، فالإنسان المفلس هو الذي يبيع لوحاته الفنية الجميلة، وباقي لوحاتي موجودة في منازلي الأخرى.

ـ وأين هي... منازلك الأخرى؟

ـ هل يعجبك هذا؟ (ولمس تمثالاً لشاب من البرونز تحت لوحة موديلياني)، هذا ماكيت قام المثَّال روودان بصنعه، أما بالنسبة لمنازلي الأخرى، فهي موجودة في فرنسا وأميركا ولبنان ولدى مصالح مالية تجارية في جميع أرجاء العالم.

ـ وماذا عن اللصوص؟

لو كان لديك العديد من اللوحات الغالية الثمن كما هو الحال بالنسبة لي ـ ولسوف أريك المزيد من اللوحات الموجودة في الدور الثاني فيما بعد ـ فإنك ستتوصل إلى رأي أو قرار، بمعنى أنك إما أن تتعامل مع هذه اللوحات على أساس أنها مجرد قطع من قماش القنب المدهون بالطلاء، وإما أن تنظر إليها على أساس أنها كتل من الذهب الخالص فتضع الحواجز الحديدية على نوافذك وتظل مستيقظاً في قلق طوال الليل، «إذا أردت أن تسرق هذه الأشياء فإنني سأبلغ الشرطة، ولكنك قد تنجح في سرقتها والهرب بها، والشيء الوحيد الذي تنجح فيه هو أن تبث القلق والحزن في نفسي، كما أن الجزر اليونانية لا يوجد بها لصوص، ولكني مع ذلك لا أحب أن يعرف الناس أن لدي هذه اللوحات هنا.

ـ بالطبع.

ـ حسناً، والآن أتركك لبعض الوقت لكي تأخذ حريتك، وأنا سأقوم بإنجاز بعض الرسائل والمكاتبات الخاصة بي، وغرفتك موجودة بالدور العلوي... إذا أردت أن تصعد إليها كي تستجم.

وانصرف، ورحت أحملق مرة أخرى في لوحة موديلياني وأملس على تمثال رودان وأتفحص الغرفة، وشعرت كأنني إنسان قد طرق على باب كوخ ثم وجد نفسه فجأة موجوداً في قصر، وخرجت من الحجرة إلى صف الأعمدة، وبعد برهة قمت بعمل شيء ما آخر لم أقم به على مدى شهور عديدة: بدأت أكتب مسودة لقصيدة.

من هذه الصخرة التي تشبه الجمجمة تلقي الجذور الذهبية الغربية بالأيقونات والأحداث المهمة الرجل المتنكر تحت القناع يحدث تأثيراً

عليَّ أنني الأبلة الذي يتداعى ولا يتعلم أبداً كيف ينتظر ويراقب الموقف إيكاروس ملعون أبد الدهر.

واقترح عليَّ أن نلقي نظرة على باقي المنزل، وكان هناك باب يؤدي إلى صالة خالية من الأثاث، وكانت هناك حجرة للطعام، قال عنها إنه لم يستخدمها على الإطلاق، وكانت هذه الحجرة تقع على الجانب البحري من المنزل، وكانت هناك غرفة أخرى تشبه دكاناً قديماً لبيع الكتب: فوضى من الكتب ـ أرفف مليئة بالكتب وزكائب مليئة بالكتب وأكوام من المجلات والجرائد بالإضافة إلى طرد جديد لم يفتح بعد وقد وضع على مكتب بجوار النافذة، التفت نحوي، وقال:

ـ إنني مهتم بعلم الأنثروبولوجيا، أتسمح لي بأن أقيس جمجمتك؟ (وافترض جدلاً أنني موافق على ذلك فأحنيت رأسي، وضغط بيده في قوة على جمجمتي).

ـ هل تحب قراءة الكتب؟

وبدا عليه كأنه نسى ـ ولكن من المحتمل ألا يكون قد نسى ـ أنني درست اللغة الإنجليزية في جامعة أكسفورد.

ـ بالطبع.

ـ ما هي الكتب التي تقرؤها؟

ـ أوه.. أقرأ أساساً القصص والروايات، ثم الشعر والنقد الأدبي.

ـ الرواية لم تعد بمثابة قالب فني.

ـ كان هذا الكلام بمثابة نكتة عندما كنت طالباً في أكسفورد، فإذا كنت لا تعرف ما تقوله في أثناء وجودك مع أناس آخرين في حفلة من الحفلات فإنك تسأل سؤالاً كهذا.

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل «هل تعتقد أن القالب الروائي قد استنفد من حيث هو قالب فني؟ وعندئذ لا تتوقع أن تسمع إجابة جادة.

ـ أدرك ذلك، لم يكن السؤال جاداً.

كانت غرفة نومه تكاد تشغل كل الواجهة المطلة على البحر من المنزل، ولاحظت وجود سرير كبير مزدوج علاوة على وجود دولاب كبير للملابس، كان هناك باب مغلق يؤدي إلى غرفة أخرى أصغر حجماً، وربما تكون غرفة لارتداء الملابس، وبالقرب من ذلك الباب توجد منضدة غريبة الشكل قد رُفع غطاؤها.

وفي ركن بعيد توجد مقصورة مثلثة الشكل وكانت أضواء المساء تغمرها وبدت مألوفة أكثر من الغرفة التي تحتها، خاصة أنها خالية من الكتب، إلا أن طابعها المميز يرجع إلى وجود لوحتين زيتيتين من الصور العارية، فتيات في ملابس داخلية ومضاءة بنور الشمس بألوان قرمزية وحمراء وخضراء وعسلية، والأضواء مشعة والدفء منتشر ومتوهج مثل نيران صفراء مليئة بالطابع الحياتي والإنساني والمنزلي والجنسي وطابع حوض البحر الأبيض المتوسط.

ـ أتعرف الفنان الذي رسم هاتين اللوحتين؟ إنه بونار، لقد رسمها قبل وفاته بخمس أو ست سنوات، وقد دفعت نقوداً كثمن لهاتين اللوحتين.

ـ إنهما تستحقان الشراء.

ـ ضوء الشمس، وفتاة عارية، وكرسي، وفوطة، وأرضية من القرميد الأحمر، وكلب صغير، مع إعطاء المعنى لكل ما هو موجود.

حملقت في اللوحة الموجودة إلى اليسار وليس إلى اللوحة التي قمت بجرد محتوياتها، كانت تعبر عن فتاة موجودة عند نافذة مضاءة بنور الشمس وقد أدارت ظهرها حيث كانت تجفف فرجها على ما يبدو

وترقب شكلها في المرآة في نفس الوقت، وعندئذ تذكرت آليسون وهي تتجول عارية في أرجاء الشقة وتتغنى بالألحان وكأنها طفلة، كانت لوحة لا يمكن للمرء نسيانها.

تحرك كونشيس في اتجاه الفراندة فسرت وراءه، وإلى جهة الغرب من النافذتين الفرنسيتين توجد لوحة فوتوغرافية بها زهرية مليئة بالأزهار كما لو كانت قد أعدت قبل التقاط صورة فوتوغرافية بجوارها.

كانت صورة كبيرة ذات إطار فضي من طراز قديم، وبجوار الزهرية تقف فتاة، شاهدني كونشيس وأنا أطيل النظر إلى اللوحة.

ـ هذه الفتاة، كانت خطيبتي في يوم ما.

فنظرت إلى اللوحة مرة أخرى، كان اسم المصور مكتوباً بلون فضي عند أسفل الركن ـ وعنوانه في لندن.

ـ ألم تتزوجها؟

ـ لقد ماتت.

ـ شكلها يوحي بأنها إنجليزية.

ـ لقد كانت إنجليزية.

ظل يحملق لأسفل نحو الصورة وهز رأسه في بطء.

ـ تعال.

نظرنا فوق أعالي قمم الأشجار إلى المنظر الرائع، وإلى قبة الضوء الشاسعة الممتدة فوق الأرض والبحر، وكانت جبال البلوبونيسوس قد اتخذت اللون الأزرق الصارخ، وكان كوكب الزهرة معلقاً في السماء الزرقاء الباهتة مثل مصباح أبيض اللون، جلس في مواجهة الحاجز معطياً ظهره للمنظر الطبيعي.

ـ وماذا عنك؟ هل أنت في فترة خطوبة؟

من المؤكد أنك تجد الحياة هنا موحشة للغاية.

ـ حسناً، كانت هناك فتاة ولكن..

ـ ولكن؟

ـ لا أستطيع توضيح الأمور.

ـ هل هي إنجليزية؟

ـ هل لي أن أطلب منك ما طلبته مني في الأسبوع الماضي؟ لا أسئلة.

عندئذ جلسنا في صمت، نفس الصمت الغريب الذي فرضه على الشاطئ في يوم السبت الماضي، وأخيراً استدار تجاه البحر وتكلم مرة أخرى «اليونان مثل المرآة، إنها تجعلك تقاسي وتعاني، وبعدئذ تتعلم أن تعيش ما أنت عليه.

وعدنا إلى داخل المنزل، كانت هناك ثلاث حجرات أخرى في الجهة البحرية بالدور الأول وسمح لي بإلقاء نظرة سريعة على واحدة من الغرف، كانت غرفة مخصصة لتخزين الأشياء القديمة بها، وشاهدت بها صناديق وأقفاص وبعض الأثاث المغطى لحمايته من التراب، وكان هناك حمام وبجواره توجد غرفة للنوم صغيرة، وكان السرير بها مرتباً وشاهدت حقيبتي فوق السرير، وتوقعت أن تكون هناك غرفة مغلقة بالمفتاح، أنها غرفة المرأة ذات القفاز، ربما تسكن في الكوخ وربما كانت تسكن في نفس هذه الغرفة التي خصصت لي.

ناولني كتيب القرن السابع عشر الذي كنت قد تركته على منضدة، سألني:

ـ هل سمعت بعض الأشياء غير المستحبة عني؟

ـ لم أسمع سوى قصة واحدة عنك، وهي قصة في صالحك إلى حد كبير.

ـ قصة الإعدام؟

ـ أخبرتك بذلك في الأسبوع الماضي.

ـ لدي إحساس بأنك سمعت شيئاً ما آخر، فهل سمعت شيئاً من الكابتن ميتفورد؟

ـ لا شيء على الإطلاق، أؤكد لك.

كان واقفاً عند فتحة الباب وكان يناولني أهم الكتب لديه، وبدا عليه أنه يستجمع قواه لكي يتخذ قراراً بشأن إماطة اللثام عن السر الغامض ثم تكلم.

ـ إنني وسيط روحاني.

ـ لماذا قلت لي ذلك؟

فاستدار نحو منضدة صغيرة بجوار الباب وأشعل عود كبريت لكي يشعل مصباحاً زيتياً، وراح يعدل من وضع المصباح في حرص تاركاً إياي في انتظار الإجابة، وأخيراً ابتسم وقال:

ـ لأنني وسيط روحاني، وسار في الممر إلى حجرته.

وأغلق بابه ثم تفجر الصمت في أرجاء المنزل مرة أخرى.

(١٦)

كان السرير من الحديد الرخيص، في غرفة لا يمكن أن يتخيل المرء أنها الغرفة الاحتياطية في منزل مليونير، كانت الحوائط عارية باستثناء صورة فوتوغرافية لرجال قرويين واقفين أمام منزل، إنه منزل كونشيس، وتبينت كونشيس الصغير في السن يقف وسط القرويين مرتدياً قبعة من القش وشورتا وهناك امرأة واحدة في الصورة، فلاحة ولكنها ليست ماريا لأنها بدت في الصورة في نفس سن ماريا، من الواضح أن تاريخ الصورة يرجع إلى ثلاثين عاماً، رفعت لمبة الزيت لأعلى وقلبت الصورة

لكي أشاهد ما إذا كانت هناك أية كتابات على ظهرها، لم يكن هناك سوى برص ملتصق بالحائط يرقبني بعينين معتمتين.

وعلى المنضدة توجد صدفة مفلطحة تستخدم كطفاية للسجائر وثلاثة كتب: مجموعة قصص أشباح وإنجيل قديم ومجلد كبير غير سميك عنوانه «مفاتن الطبيعة»، ويدعى مؤلف قصص الأشباح أنها حقيقة وصادقة، ولقد تثبت من صحتها اثنان على الأقل من شهود العيان الموثوق فيهم.

فتحت كتاب «مفاتن الطبيعية»، الطبيعة بالغة الأنوثة والمفاتن متركزة في الصدر، هناك لقطات للصدور من جميع الزوايا، مع تكبير الصور تدريجياً إلى أن تصبح الصورة النهائية ليست سوى ثدي فقط مع وجود حلمة قاتمة وأكبر في الحجم من المعتاد، وكانت تتسم بالمبالغة الشديدة لدرجة أنها بدت غير جنسية.

التقطت المصباح الزيتي وذهبت إلى الحمَّام، كان مجهزاً تماماً وبه صندوق للأدوية، رحت أبحث عن أية دلائل تدل على استخدام امرأة لهذا المكان، لكنني لم أجد أي شيء، كانت هناك مياه جارية ولكنها باردة ومالحة، ولا تصلح إلا للرجال فقط.

عدت إلى الغرفة واستلقيت على السرير، كانت السماء زرقاء من خلال النافذة المفتوحة، سمعت أصواتاً خفيفة مترامية من الكوخ الموجود أسفل نافذتي وتمكنت من شم رائحة طهو الطعام، كان الصمت الهائل يطبق على المنزل، لقد سبب لي كونشيس الحيرة والارتباك الآخذ في التزايد، فهو يبدو أحياناً عقائدياً إلى الحد الذي يجعلني أشعر بالرغة في الضحك وفي بعض الأحيان الأخرى يحدث تأثيراً شديداً عليَّ ـ على الرغم مني ـ ليس فقط لأنه رجل غني يمتلك لوحات فنية لا تقدر بثمن في داخل منزله، وها هو أخيراً قد حاول أن يبث الرعب في قلبي، ذلك النوع من الخوف غير المنطقي الذي

يجعلني أشخر في سخرية، عندما يتعرض له الآخرون، ولكنني كنت أشعر طوال الوقت بأنني لم توجه إليَّ الدعوة بدافع من كرم الضيافة ولكن من أجل سبب ما آخر.

كان هناك شيء ما عجيب للغاية يرفرف في الجو، «هل تم اختيارك؟».. «أنا وسيط روحاني».. كلها تعبيرات تشير إلى الروحانية وإلى الطرق الخفيف على المنضدة، وربما كانت السيدة صاحبة القفاز النسائي وسيطة روحية من نوع ما، ومن المؤكد أن كونشيس ليس رجلاً عادياً.

أشعلت سيجارة وبعد برهة ابتسمت، ففي هذه الغرفة العارية بدا لي الأمر غير ذي بال، وحقيقة الأمر أنني كنت مليئاً بنوع جديد من الإثارة. ولم يكن كونشيس سوى أداة، فلما تقابلت عقب فترة من العزوبية بأكسفورد مع فتاة وبدأت في إقامة علاقات معها فإنني أيضاً بدأت في الدخول في شيء ما مثير مع كونشيس، بدا لي الأمر مرتبطاً على نحو ما برغبتي في مشاهدة آليسون مرة أخرى، أردت أن أحيا مرة أخرى.

كان المنزل هادئاً مثل هدوء الموت، مثل الهدوء في داخل الجمجمة، ولكنني في عام ١٩٥٣ كنت غير مؤمن على الإطلاق بالروحانية والأشباح وأعمال الشعوذة، واستلقيت هنالك نصف ساعة، وكان الصمت في المنزل في ذلك اليوم مازال له طابع السلام والأمان أكثر مما له طابع الخوف والذعر.

(١٧)

عندما نزلت إلى الدور الأول كانت غرفة الموسيقى مضاءة بنور المصباح ولكنها كانت شاغرة، وقمت بجولة بين أرفف الكتب، كانت الكتب مرتبة بطريقة منهجية علمية، كان هناك قسمان كاملان للكتب الطبية معظمها باللغة الفرنسية وتشتمل على العديد من كتب الطب

النفسي التي لا تتلاءم مع الروحانية إلا فيما ندر، كما توجد مجموعات من الكتب العلمية التي تتناول الموضوعات كافة، وعدد لا بأس به من الكتب في الفلسفة وعلم النبات وعلم الطيور ومعظمها باللغة الإنجليزية والألمانية، ولكن الغالبية العظمى من الكتب الباقية تتناول السيرة الذاتية لكبار الشخصيات، يبدو أنها جمعت بدون أي منهج، مما يوحي بأنك أمام مكتبة عامة.

نظرت في تمعن إلى ساعة الحائط، كانت تضم بعض المناظر الفاحشة، وكذلك الحال بالنسبة لصندوق النشوق، لست أدري ما الذي جعل كونشيس يضع خطيبته المتوفية بين هذه الأشياء غير الأخلاقية.

كانت تطل من الإطار الفضي البيضاوي للصورة في تيقظ بينما عيناها تبتسمان، كانت بشرتها البيضاء الرائعة ورقبتها الجميلة، وبدت صغيرة السن وكأنها كانت ترتدي أول ثوب رسمي للسهرة لها في حياتها.

وترامى صوت إغلاق باب في الدور العلوي، فاستدرت مبتعداً، وبدت عينا موديلياني وكأنها تحملق فيه بشدة لذلك تسللت خارجاً إلى صف الأعمدة حيث انضم إليَّ كونشيس بعد دقيقة، كان قد غيَّر ملابسه وارتدى بنطلوناً فاتح اللون، وكان يقف على هيئة صورة ظلية منعكسة عن الضوء الشاحب المنساب من الغرفة، وشرب نخبي في صمت.

ـ شكراً على الكتب التي وضعتها لي بجوار السرير.

ـ إذا عثرت على أية كتب أخرى أكثر إمتاعاً فوق الأرفف أرجوك أن تأخذها.

وانبعث نداء غريب من بين الأشجار المظلمة التي تقع شرق المنزل، وقد سبق لي أن سمعت ذلك النداء في الأمسيات بالمدرسة وظننت في بادئ الأمر أنها تصدر عن طفل قروي مخبول، كان نداءً حاداً للغاية ومتكرراً على فترات منتظمة: كيو ـ كيو ـ كيو.

قال كونشيس: «هذه هي صديقتي».

فخطر على ذهني أنه يقصد المرأة ذات القفاز، وتخيلتها وهي تنساب من بين أشجار الجزيرة مرتدية قفازها، وترامى النداء مرة أخرى حاداً وغبياً منساباً من الليل المخيم وراءنا، فراح كونشيس يعد من رقم ١ إلى رقم ٥ في بطء فظهر النداء مرة أخرى عندما رفع يده، ثم راح يعد حتى رقم خمسة مرة أخرى وعندئذ صدر النداء مرة ثانية.

ـ ما هذه؟

ـ إنها البومة، وهي ضئيلة الحجم للغاية، أقل من عشرين سنتيمتر.

ـ لاحظت أن لديك بعض الكتب عن الطيور، وأنت قد درست الطب، ما الذي كنت تقصده بقولك عن نفسك أنك وسيط روحاني؟

ـ كنت أقصد الطفولة، أي أن يحتفظ الإنسان بخصائص الطفولة إلى ما بعد سن البلوغ.

ـ أنت لم تجب عن سؤالي.

ـ إن أول رد فعل لديك هو عدم التصديق وعدم الإيمان، وهذه من الصفات التي يتميز بها القرن العشرين.

ابتلعت الجزء المتبقي من الأوزو في كأسي.

وقلت:

ـ أليس القرن العشرين هو قرنك أيضاً؟

ـ لقد عشت فترات طويلة في قرون أخرى.

ـ تقصد في عالم الأدب؟

ـ في الواقع، في الحقيقة.

وترامى صوت البومة مرة أخرى وعلى فترات منتظمة، فحملقت في الظلام المنتشر بين أشجار الصنوبر.

ـ التناسخ والتقمص والتجسد من جديد؟ هذا كلام فارغ لا يمكنني الهرب من الامتداد الحياتي البشري الخاص بي، ولذلك ليس أمامي سوى العيش في قرون أخرى.

التزمت بالصمت، ثم قلت: إنني أنسحب من المناقشة.

ـ لا تنسحب، انظر لأعلى، ماذا ترى؟

ـ النجوم، الفضاء.

ـ وماذا أيضاً؟ وإنك تدرك أنها موجودة هنالك، رغم أنها غير مرئية.

ـ عوالم أخرى؟

استدرت لكي أنظر إليه، كان جالساً على هيئة ظل أسود، شعرت برعشة خفيفة تسرى في عمودي الفقري، وتمكن من معرفة ما يدور في ذهني، قلت:

ـ أنت... تسافر إلى عوالم أخرى؟

ـ نعم، أسافر إلى عوالم أخرى.

فوضعت كأسي على المنضدة وجذبت سيجارة وأشعلتها قبل أن أستأنف كلامي.

ـ بالجسد؟

ـ إذا استطعت أن تقول لي أين ينتهي الجسد وأين يبدأ العقل فإنني سأجيب على سؤالك.

ـ هل.. لديك دليل على هذا؟

ـ دليل كافٍ لأولئك الذين لديهم ذكاء يعينهم على مشاهدته.

ـ هل تعني أن ذلك يتم من خلال الاختيار وعن طريق الوساطة الروحية.

ـ إلى حد ما.

التزمت الصمت ورحت أفكر في نوع التصرفات التي ينبغي لي اللجوء إليها، وأحسست بعداوة كامنة انبعثت من خلف أي شيء قد مر بيننا، بدا لي أن أفضل شيء هو اللجوء إلى مذهب الشك.

قبل أن يجيب كان هناك وقع أقدام خفيف حول صف الأعمدة، وقفت ماريا وأحنت رأسها بالتحية، قال كونشيس: شكراً يا ماريا، العشاء جاهز.

ذهبنا إلى غرفة الموسيقى، قال: هناك أشياء لا تستطيع الكلمات التعبير عنها أو إلقاء الضوء عليها.

فنظرت لأسفل وقلت: تعلمنا في أكسفورد أن نفترض أنه إذا لم تستطع الكلمات توضيح الأشياء فلا يمكن لأي وسيلة أخرى أن تفعل ذلك.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام أحضرت ماريا القهوة التركية في إناء مصنوع من النحاس الأصفر، ثم أخذت المصباح الذي كان قد بدأ في اجتذاب الكثير من الحشرات، ووضعت مكانه شمعة واحدة، أشعلت سيجارة وجلست في اتجاه البحر والجهة القبلية، لم يكن يرغب في التكلم واكتفيت أنا بالترقب، فجأة ترامى وقع أقدام، كانت الأقدام تبتعد عن المنزل وتمشي في اتجاه البحر، اعتقدت في بادئ الأمر أنها أقدام ماريا، لكنني في الثواني التالية خطر على ذهني أنها أقدم الفتاة ذات القفاز.

كانت الخطوات خفيفة كما كان ذلك الشخص يحاول إحداث أقل قدر ممكن من الأصوات، كنت جالساً بعيداً عن حاجز الشرفة، نظرت إلى كونشيس، كان يحملق للخارج في الظلام كما لو كان ذلك الصوت أمراً طبيعياً للغاية، وذهبت إلى الحاجز لألقي نظرة ولكن وقع الأقدام

تلاشى في غياهب الصمت، واندفعت فراشة كبيرة نحو الشمعة، فانحنى كونشيس للأمام وراح يزيل الجزء المحترق من فتيل الشمعة:

ـ هل لديك مانع من الجلوس في الظلام.

ـ على الإطلاق.

ـ ينبغي أن أحكي لك قصة مجيئي إلى هنا.

ـ من المؤكد أنك عثرت على مكان رائع للغاية.

شعر على ما يبدو أنه في حيرة من أمره، ثم قال: لقد جئت إلى فراكسوس للبحث عن منزل لكي أستأجره، لكي أقضي فيه فترة الصيف، فأنا لم أكن أحب القرية، ولا أحب الشواطئ، وفي يومي الأخير أحضرت مراكبياً لكي يطوف بي حول الجزيرة، لمجرد النزهة والمتعة وبطريق المصادفة، رسا بي عند موتسا من أجل الاستحمام في الماء، قال إنه يوجد كوخ صغير في الأعالي، هناك بالمصادفة صعدت إلى الكوخ، كانت حوائط الكوخ متداعية، اللبلاب الشوكية، وكان الجو حاراً، حدث ذلك حوالي الرابعة بعد ظهر ١٨ أبريل عام ١٩٢٨.

ثم توقف عن الكلام كما لو أن ذكرى تلك الحرب قد منعته من الكلام، ولكي يجعلني مستعداً للتعرف على جانب آخر من جوانب شخصيته، قال: كان هناك الكثير من الأشجار آنئذ، لم يكن باستطاعة المرء مشاهدة البحر، فوقفت في المساحة الشاغرة الصغيرة المحيطة بالحوائط المتداعية، وهبط عليَّ على الفور إحساس بأنني كنت متوقعاً شيئاً ما كان قد ظل منتظراً هناك طوال حياتي، وقفت هنالك وعرفت من الذي كان ينتظر ومن الذي كان يتوقع مجيئي، إنه أنا نفسي الذي كان ينتظر ذاتي، فلقد كنت هنا وهذا المنزل كان هنا، أنت وأنا وهذا المساء كانوا هنا، وهم كانوا دائماً هنا، بدا الأمر شبيهاً بالحلم، سرت نحو باب مغلق، وعن طريق سحر فجائي أصبح خشبه غير القابل للنفاذ

والاختراق زجاجاً شاهدت من خلاله ذاتي تجيء من الاتجاه الآخر من المستقبل، إنني أتحدث بلغة القياس التمثيلي، هل تفهمني؟

أومأت برأسي في حرص بدون الاهتمام بالفهم، لأنني كنت قد بدأت أشعر أن أي شيء يفعله يكون به مسحة من الغرابة، فهو لم يقص عليَّ قصة مجيئه إلى بوراني كرجل يحكي شيئاً ما تصادف أن حدث له بطريقة المصادفة وإنما يحكي ككاتب مسرحي ويحكي نادرة واستطرد:

ـ أدركت على الفور أنه ينبغي لي أن أعيش هنا، ولم يكن بمقدوري أن أتجاوز ذلك، ففي هذا المكان فقط يندمج الماضي مع مستقبلي، لذلك أقمت في هذا المكان، وأنا موجود هنا الليلة وأنت موجود هنا الليلة.

سألت:

ـ هل هذا هو ما كنت تقصده بقولك إنك تستجيب للمؤثرات الخارقة؟

ـ إن هذا هو ما أقصده من وراء كلمة تصادف، إذ يجيء وقت على الحياة يشبه نقطة الارتكاز، وفي ذلك الوقت عليك أن تتقبل نفسك وأنت صغير في السن بحيث لا يمكنك أن تدرك هذا، فأنت مازلت في مرحلة الصيرورة، وليس مرحلة الوجود.

ـ وماذا يحدث لو أن شخصاً ما لم يتعرف على نقطة الارتكاز؟

ـ ستكون مثل العديدين، ولا يدرك هذه اللحظة سوى عدد قليل، ويتصرفون بما يتماشى معها.

ـ المختار؟

ـ المختار عن طريق المصادفة.

وسادت فترة صمت، ثم قال:

ـ لا أريدك أن تلتزم بالأدب الجم، فالأدب يخفي وراءه رفضاً لمواجهة أنواع أخرى من الحقيقة، سأخبرك بشيء عنك قد يصدمك، فأنا أعرف شيئاً ما عنك لا تعرفه، يا نيقولاس، أنت أيضاً إنسان حساس للقوى الروحية أو الخارقة للطبيعة، أنت أيضاً وسيط روحاني.

ـ أود أن أعرف السبب الذي جعلك تعتقد ذلك.

ـ أفضل ألا أقول.

ـ ولكن عليك أن تقول، بل إنني لا أعرف ماذا تقصده على وجه الدقة من كلمة وسيط روحاني، إذا كنت تقصد بها مجرد نوع من الذكاء الحدسي عندئذ آمل أن أكون وسيطاً روحياً، ولكني أعتقد أنك تقصد شيئاً آخر.

والتزم الصمت مرة أخرى، ثم قال: أنت تتناول هذا الأمر كأنني اتهمتك بجريمة ما، أو بنقائص أو حالات ضعف معينة.

ـ آسف، فلم يسبق أن مررت بتجربة روحية خارقة للطبيعة في حياتي وعلى كل حال فأنا إنسان مادي.

كان صوته هادئاً وجافا وهو يقول: لا أتحدث عن الله وإنما أتكلم عن العلم، والتزم الصمت، وأصبح صوته أكثر جفافاً وهو يستطرد قائلاً: حسناً، إنني أوافق على أنك تعتقد أنك.. لست وسيطاً روحانياً، أستأذنك لدقائق قليلة.

واختفى في داخل غرفة نومه، ونهضت وذهبت إلى حاجز الشرفة حتى يمكنني من هناك الرؤية في ثلاثة اتجاهات، كان المنزل مغلفاً من جميع الجوانب بصمت أشجار الصنوبر المعتمة تحت ضوء النجوم، وإلى أعلى وعلى مسافة بعيدة في اتجاه الشمال كان باستطاعتي سماع صوت طائرة وكانت هي المرة الثالثة أو الرابعة التي أسمع فيها بالليل صوت طائرة منذ أن جئت إلى هذه الجزيرة، وتخيلت مضيفة مثل

آليسون مع احتمال فقدانها للأبد، وتخيلتها إلى جواري وقد أمسكت يدها بيدي، لقد كان دفئاً بشرياً وحالة سوية ونموذجية من حيث التلاؤم معي.

وبعد لحظات قليلة عاد كونشيس، وذهب إلى حاجز الشرفة واستنشق الهواء في عمق، كان لا يزال بمقدوري سماع صوت الطائرة، فأشعلت سيجارة وتخيلت أن آليسون ربما تكون قد أشعلت هي الأخرى سيجارة في مثل هذه اللحظة.

(١٨)

ـ أعتقد أننا سنشعر بمزيد من الراحة لو جلسنا على كراسي طويلة.

ساعدته على جذب الكرسيين الطويلين، ثم ألقينا بظهرينا إلى الوراء في جلسة مريحة، وعلى الفور تمكنت من شم الرائحة المنبعثة من الوسادة المربوطة في رأس الكرسي ـ نفس العطر القديم الذي كان موجوداً في الفوطة وفي القفاز، كنت متأكداً أن ذلك لا يخص كونشيس أو ماريا العجوز، إذن هناك امرأة ما وهي كثيراً ما استخدمت هذا الكرسي.

ـ سيستغرق الأمر وقتاً طويلاً لكي أحدد ما أقصده، سيستلزم الأمر أن أقص عليك قصة حياتي كلها.

كان الصمت سائداً وأعطت النجوم إشارات متلألئة، وبدأ يروي قصة حياته.

«أخبرتك أن والدي كان إنجليزياً، ولكن أعماله التجارية كانت توجد أساساً في المشرق وكان من بين المنافسين له رجل يوناني يعيش في لندن، وفي عام ١٨٩٢ حدثت لهذا الرجل اليوناني أحداث مأساوية، إذ مات أخوه الأكبر وزوجته بسبب زالزال وبقى ثلاثة أطفال لهما على قيد

الحياة، وتم إرسال الولدين الأصغر سناً إلى أمريكا الجنوبية للعيش مع أخ ثالث، أما الطفلة الأكبر سناً وهي فتاة في سن ١٧ عاماً فقد أحضرت إلى لندن لترعى شئون منزل عمها الذي هو منافس لوالدي في التجارة، وكانت زوجته قد ماتت منذ فترة طويلة وعاش أرمل وكانت ذات جمال مميز، الجمال المميز الذي تمتاز به الفتيات اليونانيات اللائي تجري في عروقهن دماء إيطالية، وشاهدها والدي، وكان والدي أكبر منها في السن بكثير، لكنه كان وسيماً، قصارى القول إن والدي تزوج الفتاة.. وكنت ثمرة هذا الزواج. «أول شيء أتذكره في وضوح هو غناء والدتي، كانت تتغنى دائماً سواء أكانت سعيدة أم حزينة، فكانت الموسيقى هي أهم شيء في حياتي، كنت طفلاً عبقرياً، وقد ألفتُ أول كونشيرتو وأنا في سن التاسعة، لم أكن غبياً ولكني كنت كسولاً للغاية، لم أعرف سوى التزام واحد: ألا وهو أن أعزف على البيانو عزفاً جيداً.

«كنت سعيد الحظ، إذ كان لدى مدرس للموسيقى شهير يُدعى برونو، كان يحلم بأن يكون لديه تلاميذ مهرة، وعندما بلغت الخامسة عشرة أصبت بما نسميه اليوم بالانهيار العصبي، إذ كان برونو يدفعني للعزف المتواصل، مما جعلني أصاب بالإجهاد الشديد، ولم أهتم على الإطلاق بالألعاب الرياضية وسمحت لي المدرسة بتركيز نشاطي في مجال الموسيقى، ولم يكن لديّ أي أصدقاء بالمدرسة، ربما لأنهم كانوا ينظرون إليَّ على أساس أنني يهودي، ولكن الطبيب قال إنني عندما أشفى من الانهيار العصبي ينبغي لي أن أقلل من العزف وأكثر من الخروج للنزهة، كنت مكتئباً، وعاد إليَّ والدي ذات يوم ومعه كتاب غالي الثمن عن الطيور، ومع استلقائي في السرير والنظر إلى أوضاع الصور المختلفة بالكتاب بدأت تجتاحني الرغبة في مشاهدة الحقيقة الحية، والحقيقة الوحيدة التي يمكن البدء بها بالنسبة لي كانت هي الغناء الذي كنت أسمعه من خلال نافذة غرفة مرضي، وانتبهت للطيور من

خلال أصواتها، بل وبدت لي فجأة زقزقة العصافير الصغيرة غامضة، وتغريد الطيور الذي سبق أن سمعته آلاف المرات في حديقتنا بلندن بدأت أسمعه وكأنني لم أسمعه من قبل على الإطلاق، وبعدئذ قادتني الطيور إلى تجربة غير عادية للغاية.

شاهدت ليلى لأول مرة عندما كان عمرها ١٤ عاماً، كنت أنا أكبرها بسنة واحدة، وذلك عقب تعرضي للانهيار العصبي مباشرة، كنا نسكن في حي سانت جون وود، في واحد من المنازل البيضاء التي يسكنها التجار الناجحون.

ذات يوم صاف من شهر يونيو، كنت أقرأ قصة حياة شوبان، أذكر ذلك على وجه الدقة، كنت أقرأ وأتخيل نفسي «شوبان» وكان لديّ كتابي الجديد عن الطيور، وكان ذلك في عام ١٩١٠، فجأة سمعت صوتاً مترامياً من الجانب الذي يفصل ما بين حديقتنا وحديقة المنزل المجاور لنا، وهو منزل شاغر، لذلك أصابتني الدهشة، وبعدئذ ظهرت رأس، في حذر إنها رأس فتاة صغيرة، كتلة من الشعر الأشقر الفاتح الذي يتدلى خلفها، وشاهدت وجهها الغارق في الظلال ورأيت عينيها السوداوين وفمها المفتوح قليلاً في فضول، إنها وقورة لكنها مصممة على أن تكون جريئة، شاهدتني، وحملقت في وجهي للحظات في سديم ضوئها الذي تشع منه الصدمة الفجائية، ولا أعرف السبب الذي جعلني غير قادر على التكلم.. وبعدئذ نادى صوت على اسمي.

«تحطم السحر والافتنان، وتحطم معه كل الماضي الخاص بي، وهناك بيت من الشعر بقلم الشاعر سفريس (نوبل ١٩٦٣): **«الرمانة المكسورة تمتلئ بالنجوم»**، كان الأمر شبيهاً بذلك، سرعان ما اختفت وعدت للجلوس مرة أخرى وأصبح من المستحيل أن أقرأ، فذهبت إلى الحائط القريب من المنزل وسمعت صوت رجل وأصواتاً نسائية فضية تترامى في ضعف من خلال أحد الأبواب.

كنت في حالة من الاكتئاب المرضي، إلا أن ذلك اللقاء الأول.. سيطر على كل كياني، على مدى أسابيع.

وانتقل والدها إلى المنزل المجاور لنا مباشرة وتقابلت مع ليلى وجهاً لوجه، وكان هناك جسر ما بيننا، ولم يكن ذلك من قبيل تخيلاتي، فذلك الشيء جاء من كلينا حبل سري مشترك، شيء ما لم نجرؤ على التحدث عنه بالطبع، إلا أن كلا منا كان يعرف أن هناك؟؟؟.

كانت تشبهني في الكثير من الأمور، ليست موهوبة على نحو مذهل، لكنها موسيقية، مازلت أذكر ليلى وهي تعزف أول عزف منفرد.

وسرعان ما توطدت الصداقة بين عائلتينا، وبدأت أصطحب ليلى وأحياناً كنا نعزف لحنا ثنائياً وفي بعض الأحيان كان ينضم إلينا والدها وأحياناً كانت الأمان تشتركان في الغناء.

وتوقف عن الكلام، وأردت أن أشعل سيجارة ولكن أهم من ذلك أنني كنت أريد ألا أشتت أفكاره، لذلك أمسكت بالسيجارة بين إصبعيَّ وانتظرت.

كان جمالها من النوع الذي عبر عنه الرسام بوتيشللي، شعر أشقر طويل، عينان لهما لون رمادي، ولكن ذلك يجعلها تبدو شاحبة أكثر من اللازم، كان بها شيء ما قد اختفى من الدنيا ومن عالم الأنوثة، عذوبة وحلاوة بدون نزعة عاطفية، شفافية بدون سذاجة، كانت تبدو خالية من الألوان، كانت جميلة للغاية ولكن روحها فريدة من نوعها.

لم توضع بيننا عقبات باستثناء تلك الخاصة بالاحتشام والأدب، لقد قلت إننا كنا متشابهين في المشارب والأهواء والأذواق والاهتمامات، ولكننا كنا على النقيض من حيث المزاج، فقد كانت تتحلى دائماً بضبط النفس وتقديم العون للآخرين، أما أنا فكنت سريع الغضب ومتقلب المزاج وغاية في الأنانية، لم أشاهدها على الإطلاق تؤذي أي شخص

ولكنني إذا أردت شيئاً فإنه يتحقق على الفور، وقد اعتادت ليلى أن تذكرني بعيوبي واعتدت أن أفكر في دمائي اليونانية على أنها دماء داكنة بل تكاد تكون دماء زنجية.

وبعدئذ بدأت أحبها حباً جسدياً أيضاً بينما هي كانت تحبني أو تعاملني كأخ لها، ثم تواعدنا على الزواج عندما كان عمرها ١٦ عاماً فقط، ولم يُسمح لي بتقبيلها إلا فيما ندر، ثم بدأت أتعرض لأحلام يقظة ذات طابع شهواني، ليلى المحتشمة في قبعتها القش، سرت إلى جوارها عبر ميدان ريجينت في ربيع عام ١٩١٤، فهي الفتاة المبهجة التي وقفت خلفها في الدهليز في شهر يونيو وأنا أكاد أصاب بالإغماء بسبب حرارة الجو، وفي صيف ذلك العام أصبحت ليلى في داخل تصوراتي الذهنية الليلية هي المومس الشابة المهجورة، واعتقدت أنني غير سوي للغاية، لأنني قد خلقت هذه الصورة الذهنية الثانية عن ليلى من الصورة الحقيقية لها، وشعرت بالخجل المرير من نفسي ومن دمائي اليونانية، وألقيت باللوم على والدتي، وعانت والدتي من ذلك، يالها من امرأة مسكينة! ولقد كانت أسرة والدي تُحقِّر من شأنها بما فيه الكفاية.

كنت أشعر بالخجل آنئذ من دمائي اليونانية، فأنا أوروبي، وذلك هو كل ما يهمني، لكنني في عام ١٩١٤ كنت أريد أن أكون إنجليزياً محضاً حتى أتمكن من تقديم نفسي غير الملوثة بدماء أخرى إلى ليلى.

كانت الأيام الأولى لا توحي بأن الحرب قد بدأت، وكان هناك قدر كبير من السلام لفترة طويلة، وفي داخل العقل الجماعي كان كل فرد يرغب ـ على ما يبدو ـ في أن يحدث تغييراً حوله، ولكن بدا لنا نحن المواطنين غير المشتغلين بالسياسة أن المسألة مرتبطة بالزهو العسكري.

وجاء ديسمبر، واختفت «الفتيات المتبرجات» و«الأشخاص المهووسون» وأبلغني والداي ذات مساء أنهما لن ينظرا إليَّ نظرة سيئة

إذا لم أتطوع، كان الجو في بادئ الأمر معادياً للتطوع، فالحرب ليست لها علاقة بالفن أو الفنانين، وأذكر مناقشات أسرتي وأسرة ليلى عن الحرب، كانوا متفقين في الرأي أن الحرب مسألة غير إنسانية، ولكن كلام والدي معي أصبح مليئاً بالتوتر، لقد أصبح عضواً في لجنة الطوارئ المحلية، وبعدئذ قتل ابن رئيسه في المعارك، فتركني أنا وأمي بمفردنا، ولم تصدر تعليقات وكان كل شيء واضحاً ومفهوماً.. وبعد ذلك بوقت قصير وقفت مع ليلى لنرقب كتيبة من الجنود تسير في الشوارع، كانت الشوارع مبتلة عقب سقوط الأمطار وكانت الأرصفة متلألئة، أخذت أرقب وجوههم المغنية في أرق تحت اللون الأصفر المنبعث من مصابيح الغاز، ورحت أرقب الناس المبتهجين حولنا، وترامت رائحة الصوف المبتل، كانوا مخمورين: الجنود السائرون والمتفرجون، كانوا جميعاً تجتاحهم مشاعر الإحساس بالقوة، لم أكن قد سمعت العبارة الشهيرة، ولكن هذه العبارة كانت: تقبل الحرب في إثارة.

«أخبرت ليلى بأن هؤلاء الناس مجانين، ولكنها لم تسمعني، ولكنهم عندما اختفوا عن الأنظار استدارت نحوي وقالت: «لو كان مقدراً لي أن أموت غداً لشعرت بالغضب الشديد»، وذهلت لدى سماع هذه العبارة، وعدنا إلى المنزل في صمت، وعلى طول الطريق كانت تدندن بأغنية ذلك اليوم».

وتوقف للحظات، ثم أخذ يدندن بتلك الأغنية في شبه غناء: **«لسوف نفتقدك، ولسوف نقبلك ولكننا نعتقد أنه ينبغي لك أن تذهب»**.

شعرت كأنني طفل صغير إلى جوارها، فرحت أؤنب نفسي على دمائي اليونانية التعيسة، التي جعلتني منغمساً في الشهوات، فالمسئولية الاجتماعية لم تكن أبداً إحدى الصفات التي يتميز بها الإنسان اليوناني.

وعندما وصلنا إلى منزلينا، قبلتني ليلى على خدي وجرت إلى داخل

منزلها، وقضيت الليلة ونهار اليوم التالي والليلة التالية في كرب عظيم، وفي صباح اليوم التالي شاهدت ليلى وقلت لها إنني سأتطوع، فانسحبت كل الدماء من خديها ثم انفجرت باكية وانهمرت الدموع من عينيها وألقت بنفسها بين ذراعي، وهكذا فعلت والدتي عندما أخبرتها، ولكن حزن والدتي كان أكثر نقاءً وعمقا.

ونجحت في كشف الهيئة، وأصبحت بطلاً، وقدم لي والد ليلى مسدسه القديم تكريماً لي، وفتح والدي زجاجات الشمبانيا وبعدئذ عندما دخلت حجرتي وأمسكت بالمسدس في يدي انفجرت في البكاء، بسبب إدراكي لذلك العمل النبيل الذي أقدمت عليه.

وتم إلحاقي بالكتيبة رقم ١٣ اللندنية لحملة البنادق، وتم تدريبنا على فنون القتال، كانوا يقولون لنا إن الحرب لن تستمر لشهر آخر بسبب التكاليف الهائلة التي تتطلبها الحرب.

وشعرت به يتحرك وهو جالس في كرسيه، وعندما بدأ في التكلم مرة أخرى شممت هواء الليل وشعرت بالخرسانة الصلبة تحت قدمي ولمست قطعة من الطباشير في جيبي، ولكن هبط عليَّ إحساس قوي عندما رفعت قدمي عن الأرض، وألقيت بظهري إلى الوراء بأن شيئاً ما كان يحاول الانزلاق بيني وبين الحقيقة.

(١٩)

ووجدت نفسي في فرنسا بد فترة تزيد قليلاً على ستة أسابيع عقب تطوعي، لم تكن لديّ رغبة في استخدام البندقية، ولكنهم اعتبروني حاد الذكاء كما اكتشفوا أنني أستطيع الجري بسرعة فائقة ولذلك اختاروني للعمل كخادم من نوع ما يطلقون عليه اسم «المرسال»، والرجل الذي تولى تدريبي أنا وزملائي كان ضابطاً نظامياً بالجيش يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، يُدعى الكابتن مونتاجو، كانت ساقة قد كسرت منذ فترة

قصيرة وأصبح غير ملائم للعمل في الجيش النظامي، كان من أغبى الناس الذين صادفتهم في حياتي وقد علمني الكثير للغاية.

قبل أن ينتهي من تدريبنا صدر قرار بتعيينه في وظيفة عاجلة في فرنسا، في نفس اليوم أبلغني أنه سيستخدم نفوذه ليلحقني في وظيفة معه في فرنسا، وقابلت ذلك الخبر في فتور ولكنه لم يدرك ذلك لأنه رجل أجوف، ولسوء الحظ أنه أصبح شغوفاً بي للغاية.

كان لديه ذهن قادر على استيعاب فكرة واحدة في كل مرة، وكانت الفكرة الملتصقة بذهنه آنئذ هي: الهجوم الطائش المتهور، فقد اعتاد أن يقول: (إن قوة الصدمة هي الكتلة، وقوة الكتلة هي الدافع وقوة الدافع هي الروح المعنوية، والروح المعنوية العالية والدافع القوي والصدمة القوية هي النصر)، ويطرق بيده في عنف على المنضدة قائلاً: «النصر».

وأصر على أن نحفظ جميعاً ذلك النص عن ظهر قلب، وذلك في أثناء التدريبات على استخدام الحربة، «الـ نـ صـ ر» مسكين ومغفل.

وقضيت يومين أخيرين مع والديَّ وليلى، أقسمت أنا وليلى أن نحب بعضنا بعضاً للأبد، ذهبنا مباشرة إلى الجبهة، وكان أحد قادة السرية هناك قد مات بسبب مرض في الرئة فحل محله مونتاجو، كنا في أوائل عام ١٩١٥، وكان المطر ينهمر بدون توقف، أمضينا أياماً قليلة في المناورات العسكرية، وبعدئذ قام مونتاجو في يوم ما بتوجيه خطاب للسرية، كنا بصدد الدخول في معركة، النصر فيها مضمون بشكل أكيد، معركة ستنتهي بنا إلى دخول برلين خلال شهر واحد، وفي اليوم التالي استقللنا قطارا في الليل، وتوقف القطار في مكان ما في منتصف سهل منبسط ثم سرنا على الأقدام، وكان من المقرر أن يتم قصف القرية بالمدافع الثقيلة علاوة على الإغارة عليها في هجوم مكثف بمعرفة الطائرات الجديدة، كان الجو قارس البرودة وكان إشعال النيران

ممنوعاً، وبدأت تطفو على السطح ذاتي الحقيقية، بدأت أشعر بالخوف، والخوف هو أسهل طريقة تفسد بها الحرب أخلاقنا.

كان أول شيء رأيته على ما أعتقد هو انعزال كل منا عن الآخر، فليست الحرب هي التي تعزل الناس عن بعضهم البعض، فمن المعروف جيداً أن الحرب تجمع الناس، لكنها أرض المعركة، إنها شيء مختلف، ففيها يظهر العدو الحقيقي أو الموت، لم أعد أشاهد دفئي في الأعداد الكبيرة من زملائي لم أشاهد فيهم سوى موتي.

لسوف أشرح لك السبب الذي دعانا للذهاب إلى الحرب! لماذا يذهب الجنس البشري دائماً إلى الحرب، السبب ليس سياسياً أو اجتماعياً، الدول ليست هي التي تذهب إلى الحرب وإنما الرجال الذين يذهبون إليها، المسألة شبيهة بالملح، فما أن يذهب المرء للقتال في الحرب حتى يحصل على الملح اللازم له على مدى الفترات المتبقية من حياته، هل تفهمني؟

ـ بالطبع.

لذلك ففي جمهوريتي الفاضلة سيكون الأمر بسيطاً، حيث سيكون هناك اختبار لجميع الشباب الذين هم في سن ٢١ سنة، حيث سيذهبون إلى مستشفى لكي يلقوا بزهر الطاولة، وأحد الأرقام الستة سيكون معناه الموت، فإذا ألقوا بذلك فإنهم سيقتلون بدون ألم، ودون وحشية، ودون تدمير للمشاهدين الأبرياء، ولكن رمية واحدة هادئة لزهر النرد.

ـ من المؤكد أن هذا بمثابة إدخال تحسينات على الحرب.. هل قلت إنك لم تشاهد أي معركة في الحرب الأخيرة؟

ـ لا.

وأمسك بصندوق الحبوب واستخرج منه من بين الأشياء الأخرى ستة ضروس كبيرة ويوجد في اثنين أو ثلاثة منها سدادات قديمة:

ـ هذه الضروس أو الأسنان قد وزعت على الجواسيس على كلا الجانبين في أثناء الحرب الأخيرة، من أجل استخدامها في حالة استجوابهم.

ووضع أحد الضروس فوق طبق الفنجان ثم سحقها بطعنة صغيرة لأسفل مستخدماً أداة للرَّج، وكانت هشة كقطعة شيكولاته ممزوجة بالعطر، ولكن رائحة السائل الذي لا لون له كانت مثل رائحة اللوز الحامض المر، رائحة لاذعة ومخيفة، فأبعد على وجه السرعة الطبق لمسافة ذراع إلى الركن البعيد من الفراندة ثم عاد.

ـ أهي حبوب خاصة بالانتحار؟

ـ تماماً، إنها حامض الهيدروسيانيد.

ابتسمت قائلاً: أتريد مني أن ألقي بالزهر؟

ـ إنني أعرض عليك حرباً بأكملها في ثانية واحدة.

ـ ولنفرض أنني لا أريدها.

ـ فكر، في خلال دقيقة من الآن باستطاعتك أن تقول إنك جازفت بحياتك وألقيت بالزهر من أجل الحياة وكسبت الحياة، إنه لشعور رائع للغاية أن تظل باقياً على قيد الحياة، باستطاعتي أن أبرهن بكل سهولة أنها حالة انتحار.

حملق في وجهي ونفذت عيناه في وجهي ونفذت عيناه في داخل كياني مثلما ينفذ رمح ذو ثلاث شعب في جسد سمكة، مع ٩٩ شخصاً من بين مائة شخص لكنت قد أدركت أن هذه مجرد خدعة، ولكنه كان إنساناً مختلفاً، وتملكتني حالة عصبية قبل أن أتمكن من مقاومتها.

ـ إنها لعبة قمار روسية، ولا أرغب في لعبها.

ـ إذن فأنت جبان يا صديقي.

ـ خيل لي أنك تعتقد أن الرجال الشجعان مغفلون.

ـ لأنهم يصرون على اللعب بزهر النرد مرات عديدة، ولكن الشاب الذي لا يريد أن يخاطر بحياته ولو مرة واحدة في حياته هو إنسان مغفل وجبان في آن واحد.

ـ هل أجريت هذه التجربة على الناس السابقين عليَّ؟

ـ جون ليفاريير لم يكن جباناً أو مغفلاً، وحتى ميتفورد لم يكن جباناً.

ونجح في أن يضعني في موقف حرج، كان ذلك الأمر سخيفاً ولكني مددت يدي نحو أداة الرج، انحنى للأمام ووضع يده على معصم يدي، ثم وضع ضرساً إلى جواري واستطرد: «يجب أن تقسم لي بأنك ستتناول القرص إذا ظهر الرقم (٦).. وكان وجهه مليئاً بالجدية والحزم، فأحسست بأنني أرغب في التراجع عن هذه اللعبة الخطيرة».

ـ «أقسم لك».

أمسك بزهر النرد، ووضعه في آلة الرج، فأخذت أهزه بسرعة ثم ألقيت بزهر النرد فجرى على القماش وارتطم بقاعدة المصباح ثم استقر، كان الرقم هو رقم ٦.

والتزم كونشيس تماماً بالهدوء وراح يرقبني.. وأدركت أنني لن ألتقط القرص، لم أستطع النظر إلى كونشيس، ابتسمت ونظرت إليه وهززت رأسي.

فمد يده مرة أخرى وقد تثبتت عيناه عليَّ وأمسك بالضرس الموجود إلى جواري ووضعه في فمه وكسره بأسنانه وابتلع المادة السائلة، فتدفقت الدماء إلى وجهي، ومد يده مرة أخرى وهو مازال يرقبني ووضع الزهر في آلة الرج وألقى به، وكان الرقم ٦ ، وكرر العملية مرات ومرات وفي كل مرة يظهر الرقم ٦ ثم بصق الغلاف الخارجي للضرس.

ـ إن ما قررته أنت هو بالضبط ما قررته أنا في ذلك الصباح منذ ٤٠ عاماً، لقد تصرفت على النحو الذي ينبغي أن يتصرف به أي إنسان ذكي، أهنئك.

ـ ولكن ما هذا الذي قلته عن الجمهورية الفاضلة؟

ـ كل الجمهورية الفاضلة كلام فارغ تماماً، فالاشتياق الشديد للمخاطرة إلى درجة الموت هو آخر انحراف هائل نقع فيه، إننا نجيء من الليل ونذهب إلى الليل، فلماذا نعيش في الليل؟!

ـ ولكن زهر النرد كان مثل بندقية محشوة بالذخيرة.

ـ الروح الوطنية والدعاية والشرف الوظيفي، ما هو جوهر كل هذه الأشياء؟ يتم التحكم في الزهر بطريقة غير مشروعة لدى إلقائها.

ـ والشخصان الآخران، على أي نحو كانت تصرفاتهم؟

فابتسم: هذه وسيلة يستخدمها المجتمع ليمنع حرية الاختيار بين أفراد عبيده ليخبرهم أن الماضي كان أكثر نبلاً من الحاضر، وجون ليفاريير رجل كاثوليكي، وكان أكثر حكمة منك، لأنه رفض من البداية الوقوع تحت هذا الإغراء.

ـ وماذا فعل ميتفورد؟

ـ إنني لا أضيع وقتي هباء وسدي على تعليم الناس المصابين بالعمى.

(٢٠)

أمضينا الساعات الست الوسطى من ذلك النهار في الانتظار، ولم يكن الألمان قد أطلقوا علينا أية قذائف على الإطلاق إلا فيما ندر، كان الشيء الواضح للغاية هو أنه علينا أن نبادر إلى الهجوم على الفور،

ولكن الأمر كان يستلزم وجود قائد ممتاز للغاية لكي يدرك في الوقت الملائم ذلك الشيء الواضح للغاية.

بدأنا نتحرك إلى الأمام، وكان مونتاجو والرقيب الأول يصيحان باستمرار لكي نظل في محاذاة الصفوف، وكان علينا أن نعبر حقلاً محروثاً ومليئاً بالحفر العميقة الناجمة عن انفجار القنابل وبعدئذ نعبر حقلاً آخر صغيراً ومنه إلى الهدف الذي نريد الوصول إليه وهو كوبري موجود هناك، وبعد أن قطعنا نصف المسافة تقريباً بدأنا في الجري مسرعين نحو الهدف وبدأ بعض الرجال يصيحون مهللين، وبدا على الألمان أنهم توقفوا عن إطلاق النيران نهائياً، وصاح مونتاجو في انتظار مليء بالنشوة: إلى الأمام يا أولاد.. إلى النصر!

وكانت هذه هي آخر كلمات قالها في حياته، لقد نصب الألمان مصيدة لنا، دار مونتاجو حول نفسه وسقط على الأرض عند قدمي وارتمى على ظهره محملقاً في وجهي، فتهاويت إلى جواره، لم يكن الهواء سوى وابل متلاحق من القذائف فغمرت وجهي في الطين وتبولت لا إرادياً وقد تيقنت أنني سأقتل في أي لحظة، وفي يأس قام الرقيب الأول بجر جثة مونتاجو إلى الخلف، وحاولت أن أساعده في هذه المهمة وأنا أحس بضعف شديد، وانزلقنا إلى إحدى الحفر الناجمة عن إلقاء القنابل، كان الجزء الخلفي من رأس مونتاجو قد أطيح به تماماً ولكن وجهه كانت ترتسم عليه ابتسامة شخص عبيط كما لو كان يضحك في سخرية من نومه، لم أنس في حياتي منظر هذا الوجه على الإطلاق، الابتسامة الأخيرة لمرحلة تطور.

وتوقف القصف، كنت قد فقدت الرغبة في أي شيء وحتى الرغبة في أن أكون جباناً، وتم إطلاق الرصاص على ظهور الكثيرين في أثناء انطلاقهم في الجري، وكنت واحداً من القلائل الذين تمكنوا من

الوصول إلى الخندق الذي بدأنا منه أحياء وبدون أية إصابات، وما إن وصلنا إلى ذلك الخندق حتى بدأ القصف الشديد مرة أخرى من جانبنا.

تولى القيادة ملازم أول جريح، وجثم إلى جواري وقد ظهر جرح بالغ على خده، كانت عيناه تتقدان في عتمة، وربما كان هذا هو الشكل الذي نبدو عليه جميعاً، فكلما تمكن الإنسان من البقاء على قيد الحياة لفترة أطول كلما أصبح الأمر خرافياً وزائغاً.

«جاء لنجدتنا المزيد من القوات وظهر ضابط برتبة كولونيل، أدركت أن هذا الطوفان الرهيب يجب أن يكون نهاية لجريمة بربرية ارتكبت ضد الحضارة، يجب أن يكون نهاية لأكذوبة بشرية رهيبة، ولم أكن أعرف آنئذ ماهية تلك الأكذوبة بسبب معلوماتي الضئيلة للغاية آنئذ عن التاريخ أو العلم، وأنا أدرك الآن أن تلك الأكذوبة تتمثل في أننا نعتقد أننا كنا نحقق هدفاً معيناً يخدم خطة معينة وأن كل الأمور ستكون على ما يرام في النهاية لأن هناك خطة عظمى تشمل الجميع، هذه هي الأكذوبة التي تحل محل الحقيقة، لا توجد هناك خطة، وكل شيء هو من قبيل المجازفات والمقامرات، والشيء الوحيد الذي سيحافظ علينا هو أنفسنا».

ولاذ بالصمت، وكان يحملق في اتجاه البحر كما لو كانت المعركة هنالك ومليئة بالطين والجحيم الرمادي.

بعد أن توقف القصف ظللت في الحفرة طوال الليل، وعودت نفسي على التعايش مع الرائحة الرهيبة، وازدادت البرودة ليلاً، وخيل إلى أنني أصبت بالحمى، ولكني صممت على عدم الخروج من الحفرة إلا عقب انتهاء المعركة، لم أخجل من نفسي بسبب هذا التصرف بل تمنيت أن ينجح الألمان في اجتياح مواقعنا وأن يسمحوا لي بأن أقدم نفسي أسيراً لديهم.

الحمى، ما ظننته بطريق الخطأ أنه الحمى لم يكن حمى وإنما نيران الوجود على قيد الحياة، أو النزعة الشديدة نحو الوجود، وهذه حقيقة أدركها الآن، أنا لا أهدف إلى الدفاع عن نفسي، فكل حالات الحمى والهذيان تكون معادية لمصلحة المجتمع إلى حد ما وأنا أقول هذا الكلام من الناحية التحليلية وليس من الناحية الفلسفية، لقد تمكنت في تلك الليلة أن أسترجع كافة الأحاسيس المادية، وهذه الاسترجاعات حتى لأبسط الأشياء وأقل الأشياء تسامياً مثل: كوب مليء بالماء أو رائحة شواء لحوم الخنزير قد بدت لي وكأنها تتعدى وتتفوق أو على الأقل تتساوى مع ذكرياتي عن أعظم الأعمال الفنية وأسمى الإنتاج الموسيقى بل وتتساوى مع أرقّ اللحظات مع ليلى، لقد عشت تجربة هي على النقيض تماماً مما أكد عليه الميتافيزيقيون في القرن العشرين على أنه هو الحقيقة: إن كل ما هو آخر يكون معادياً للفرد، لقد أدركت أن كل ما هو آخر يبدو مختاراً حتى تلك الجثة وتلك الفئران التي تطلق صرخات طويلة حادة، وأن تكون قادراً على الدخول في تجربة ـ بغض النظر عما إذا كانت تلك التجربة متمثلة في حالة من البرد والجوع والغثيان ـ فهو في حد ذاته بمثابة معجزة، حاول أن تتخيل أنك تكتشف في يوم ما أن لديك حاسة سادسة، وهي حاسة جديدة لم يكن أحد يتصور أنها موجودة في الإنسان حتى ذلك الوقت، وهي شيء ما لا يمكن فهمه من خلال الإحساس والمشاهدة والحواس الخمسة التقليدية، ولكنها حاسة أكثر عمقاً من الحواس التقليدية وهي المصدر الذي تنساب منه باقي الحواس الأخرى، فالكلمة «يكون» لم تعد كلمة سلبية أو وصفية ولكنها كلمة فعالة.. وتكاد تكون ملحة وحتمية وآمرة.

وقبل أن ينتهي الليل أدركت أنني أمتلك ما يسميه المتدينون بالتخاطب، إذ سطع عليَّ بالفعل ضوء من السماء حيث كانت هناك

قذائف نجومية دائمة ومستمرة، لكنني لم يكن لديّ حُسن فهم لله، لم يكن لدي سوى إدراك بأنني قد قفزت فترة حياتية خلال ليلة واحدة.

وصمت للحظات قصيرة، وتمنيت لو كان هناك شخص ما إلى جواري ولتكن آليسون لتشارك معي تجربة الظلام الحي، ولو أنه كان سينبغي لهم أن يكونوا قد مروا معي بتلك التجربة التي شهدتها في خلال الأشهر الأخيرة المنصرمة، الرغبة الجارفة في البقاء على قيد الحياة، لقد عفوت عن نفسي، وعفوت عن فشلها في أن تموت.

إنني أحاول أن أصف لك ما حدث لي، والحالة التي كنت عليها، وليس الحالة التي كان ينبغي لي أن أكون عليها، ليس مكامن الخطأ والصواب الخاصة بالاعتراض الواعي، وأرجو ألا تنسى ذلك.

في منتصف الليل زحفت عائداً إلى القرية على بطني، وكنت أخشى أن يقوم الحراس الليليون بإطلاق النار عليَّ، ولكن المساحة كانت مليئة بالجثث وكنت أشق طريقي في وسط صحراء زاخرة بالموتى، ومررت بجوار خندق للاتصالات وكان مليئاً بالصمت المطبق، يقول المثل الإسباني إن الرجل الذي يتعرض للموت، غرقاً يتعلم كيف يعوم، وأدركت أنني من الناحية الرسمية في عداد الموتى، وهذا معناه أنني إذا هربت فلن يقوم أحد بمطاردتي وإلقاء القبض عليَّ، وبحلول مطلع الفجر وصلت إلى مسافة عشرة أميال خلف خطوطنا، وعثرت على فلاحين قاموا بإيوائي وإطعامي في ذلك اليوم التالي، وفي الليلة التالية واصلت المسير عبر الحقول وفي اتجاه الغرب دائماً عبر مقاطعة آرتوا بشمال فرنسا في اتجاه بولونيا.

كانت بولونيا مليئة بالجنود والبوليس الحربي فبدأ اليأس يدب في قلبي، بالطبع كان من المتعذر تماماً أن أصعد على ظهر سفينة حربية بدون أن يكون لدى أوراق رسمية تنص على سفري بالسفينة، وفكرت أن أقدم نفسي عن رصيف الميناء لكي أقول لهم إن محفظة أوراقي

سرقت.. ولكن لم يكن لدى الجرأة التي تعينني على تنفيذ هذه الخطة، وبعدئذ وقف الحظ إلى جواري، إذ أتاح لي الحظ الفرصة لأن أقوم بنشل جندي من لواء الرماة الذين يستخدمون البنادق كان مخموراً للغاية، فدفعته لأن يتناول المزيد من الخمور لكي تزداد حالته سوءاً، ثم لحقت بسفينة مغادرة للميناء بينما كان المسكين مازال يغط في شخيره ونومه في حجرة بالقرب من المحطة.

«ثم بدأت متاعبي الحقيقية، ولكنني قد تحدثت بما فيه الكفاية».

(٢١)

بعد فترة من الصمت، سألته:

ـ وما الذي حدث عندما رجعت إلى منزلك؟

ـ لقد تأخر الوقت، غداً نستكمل.

وأشعل المصباح مرة أخرى، وعندما انتصب بقامته عقب الانتهاء من تعديل فتيلة المصباح حملق في وجهي، وقال:

ـ ألا تشعر بالخجل لأنك ضيف رجل خائن لبلاده؟

ـ لا أعتقد أنك كنت خائناً للجنس البشري.

وتحركنا نحو نوافذ حجرة نومه:

ـ الجنس البشري لا يشكل أهمية، ولكن الذات أو النفس هي التي ينبغي عدم خيانتها.

ـ «أظن أنه يمكن للمرء أن يقول إن هتلر لم يقم بخيانة ذاته».

فاستدار نحوي: أنت على حق، إنه لم يخن نفسه، ولكن الملايين الألمان خانوا أنفسهم، وتلك كانت هي المأساة، فالمسألة ليست ذلك الرجل الواحد الذي لديه الشجاعة أن يكون شريراً ولكنها تلك الملايين التي لم يكن لديها الشجاعة لأن يكونوا أخياراً.

وقاد الطريق إلى داخل غرفتي وأشعل المصباح هناك من أجلي: طابت ليلتك يا نيقولاس.

وعندما رجعت من غرفة الحمام نظرت إلى ساعتي، كانت الساعة الواحدة إلا الربع، خلعت ملابسي ثم أطفأت المصباح ووقفت للحظات بجوار النافذة المفتوحة، كانت هناك رائحة غامضة تشبه رائحة مياه الصرف في الهواء الساكن، رائحة سيارة للصرف الصحي موجودة في مكان ما، دخلت إلى السرير واضطجعت ورحت أفكر في كلام كونشيس.

بدا لي أكثر إنسانية وأكثر تعرضاً للوقوع في الخطأ عما كان عليه من قبل إلا أنه مع ذلك كان يشوبه عدم النقاء في سرد قصته، فما قاله هو أقرب إلى السيرة الحياتية منه إلى السيرة الذاتية، وما قاله هو أقرب إلى الدروس الخفية منه إلى الاعتراف الحقيقي، ولم تكن المسألة هي أنني كنت أعمى البصيرة حتى إنني لم أشاهد أي شيء يمكن أن أستفيد منه ولكن كانت المسألة هي: كيف تجرأ أن يقول كل هذا الكلام رغم أنه لم يكن يعرف عني سوى قدر ضئيل للغاية من المعلومات؟ وما الذي دفعه أن يهتم بي كل هذا الاهتمام؟

كنت على وشك الاستغراق في النوم ولكن ترامى إلى ذهني صوت شبيه بهلوسة خفيفة يصعب تحديد كنهها على وجه الدقة، واعتقدت أن الصوت منبعث بالتأكيد عبر الحوائط من جراموفون في غرفة نوم كونشيس، فجلست منتصب القامة ثم وضعت أذني على الحائط ورحت أصغي، وبعدئذ قفزت من السرير واتجهت إلى النافذة، كان الصوت يزحف لأسفل مترامياً من الخارج من مكان ما بعيد على مسافة ميل أو أكثر، لم يكن هناك أي ضوء ولا أي صوت واضح باستثناء صوت حشرات الحديقة، ولا شيء سوى تلك الدندنة الخفيفة للغاية لمجموعة

من الرجال يتغنون من على مسافة بعيدة، واعتقدت أنهم ربما يكونون من صيادي الأسماك، ولكن لماذا يوجدون في التلال؟

ازداد وضوح الأصوات بعض الشيء، ربما مع ظهور هبة ريح فجائية، تعاظمت الأصوات ثم خفتت مرة أخرى، وخيل إليَّ في لحظة لا يمكن تصديقها أنني سمعت شيئاً ما مألوفاً في ذلك الصوت، دبت الحياة في الصوت مرة أخرى، تأكدت بما لا يدع مجالا للشك من نوع الكلمات التي كان يتغنى بها هنالك، لقد كانت «تبراري» ثم انخفض الصوت بشكل متعمد، ولست أدري سبب ذلك.. هل وجود مسافة بعيدة أو وجود جهاز تسجيل؟ ومن الرجح أنه صوت منبعث من جهاز تسجيل، خيل لي أيضاً أنه توجد بعض التحريفات النغمية إلا أنني لم أتأكد من ذلك تماماً، ولكن الأغنية كانت تنساب في بطء وإعتام وإظلام شبيه بالأحلام وكما لو كان الغناء ينبعث إلى الخارج قادماً من النجوم بحيث كان عليه أن يخترق كل ذلك الليل والفضاء الكوني لكي يصل إليَّ.

ذهبت إلى باب غرفتي وفتحته، وكان لديّ شعور بأن جهاز التسجيل موجود بالتأكيد في غرفة كونشيس، وربما يكون قد أوصل الصوت على نحو ما بمكبر للصوت موجود في التلال، أغلقت الباب وأسندت ظهري عليه، كانت الأصوات والأغنية تنساب في خفوت لأسفل خارجة من جوف الليل وعبر غابة الصنوبر وفوق المنزل ومنه إلى البحر، فجأة دفعتني اللمسات الشعرية للموقف بأكمله والتي تكتنفها روح الفكاهة والسخافة والرقة إلى أن أبتسم، من المؤكد أن ذلك بمثابة مزاح متعمد من كونشيس على أساس أنها مجرد اختبار لروح الفكاهة عندي واختبار للباقتي وذكائي، لم تكن هناك حاجة لأن أسارع لاكتشاف الكيفية التي يتم بها تنفيذ ذلك الأمر، فهذا هو ما سأكتشفه مع حلول الصباح، وإلى

أن يجيء الصباح يجب أن أستمتع بسماع ذلك الصوت، ورجعت عائداً إلى النافذة.

لقد أصبحت الأصوات ضعيفة للغاية لا تكاد تسمع، إلا أن شيئاً ما آخر قد بدأ يتغلغل في عنف، إنها رائحة المجاري التي سبق أن لاحظتها من قبل، رائحة مثيرة للغثيان والإغماء تتألف من خليط من روائح الجثث المتعفنة والبول والبراز وكانت نفاذة للغاية حتى إنني اضطررت للإمساك بأنفي مع التنفس من خلال فمي، مددت رأسي لأسفل لأن مصدر الرائحة كان قريباً للغاية على ما يبدو، واتضح لي أن هذه الرائحة كانت مرتبطة بالغناء، لم أتمكن من مشاهدة أي شيء غير عادي أو أي حركة غير عادية.

خفت الصوت تدريجياً إلى أن تلاشى تماماً، وبعد دقائق بدأت الرائحة تتلاشى، ظللت واقفاً لمدة عشر دقائق مع تركيز عيني وأذني بهدف ملاحظة أدنى حركة ولكن لم تكن هناك أية حركات، لا شيء على الإطلاق، كانت حشرات الجدجد تسقسق وكانت النجوم تنبض، لقد تلاشت التجربة تماماً، ورحت أتشمم بجوار النافذة، كانت الرائحة العفنة مازالت عالقة في الهواء ولكن كانت تطغى عليها الرائحة الطبيعية لأشجار الصنوبر والبحر.

وسرعان ما بدا لي الأمر وكأنني كنت أتخيل كل هذه الأشياء التي حدثت، وظللت مستيقظاً على مدى ساعة أخرى على الأقل، ولكن لم يحدث أي شيء آخر، ولم تفض الافتراضات إلى شيء مقبول أو معقول، لقد دخلت إلى منطقة النفوذ.

(٢٢)

طرق شخص الباب عليَّ، نظرت إلى ساعتي، كانت العاشرة والنصف صباحاً، اتجهت إلى الباب وسمعت صوت شبشب ماريا وهي

تنزل على السلالم، وتحت الضوء الباهر وصخب حشرات الحصاد بدت لي أحداث الليلة المنصرمة وكأنها أمور خيالية على نحو ما وكما كنت قد تناولت قدراً يسيراً من المخدرات، كنت أشعر بصفاء الذهن التام، وارتديت ملابسي وحلقت ذقني ونزلت على السلالم لكي أتناول طعام الإفطار تحت صف الأعمدة، وظهرت ماريا حاملة القهوة، تحاول ـ شأنها شأن القرويات مع الأجانب ـ أن تتكلم في مزيد من الوضوح وإنما نطقت في حروف سريعة غير واضحة ومتداخلة مع بعضها البعض بنفس الطريقة التي اعتادت أن تنطق بها الحروف الهجائية اللينة.

تناولت طعام الإفطار ثم حملت الصينية عائداً بها على طول جانب صف الأعمدة ونزلت بها على السلالم المؤدية إلى كوخها، كانت الغرفة الأمامية بالكوخ مجهزة لتخدم كمطبخ، كانت تشبه أي غرفة مطبخ/ معيشة أخرى في فراكسوس، كل ما هنالك أن الأوعية والآنية كانت أكثر طموحاً والموقد أكثر ضخامة، دخلت إلى المطبخ ثم وضعت الصينية على المنضدة.

خرجت ماريا من الغرفة الخلفية، ولمحت في تلك الغرفة سريراً كبيراً من النحاس الأصفر والمزيد من الصور الفوتوغرافية، ولاحت ابتسامة خفيفة على فمها، ولكنها كانت ابتسامة متعلقة بالموقف وليست ابتسامة جوهرية من أعماق القلب، وكان من الصعب أن أوجه إليها أسئلة باللغة الإنجليزية دون أن أبدو فضوليا، ترددت للحظات، ثم شاهدت وجهها خاوياً مثل الباب الموجود وراءها فقررت عدم توجيه أسئلة إليها.

سرتُ في الممر الذي يقع بين الكوخ والمنزل ومنه إلى حديقة الخضراوات، وعلى الجانب الغربي من المنزل توجد نافذة مغلقة بالشيش وموافقة مع الباب الموجود عند نهاية غرفة نوم كونشيس، وبدا أنه يوجد هناك شيء ما أكثر من مجرد دولار، نظرت لأعلى إلى ظهر

المنزل الذي يواجه جهة الشمال وإلى غرفتي، كان من السهل الاختباء وراء الحائط الخلفي للكوخ إلا أن الأرض كانت صلبة وعارية ولم تظهر أي شيء، واصلت المسير إلى داخل التعريشة الموجودة في داخل الحديقة، ورأيت تمثال إله الإخصاب يمد يديه نحوي مبتسماً ابتسامته الوثنية في وجهي الإنجليزي.

«ممنوع الدخول».

وبعد عشر دقائق وصلت إلى الشاطئ الخاص، كانت المياه مثل الزجاج الأزرق والأخضر، وكانت باردة في اللحظات الأولى وبعدئذ أصبحت مقبولة ومنعشة ولذيذة، رحت أسبح بين الصخور المنحدرة ومنها إلى البحر المكشوف، تمكنت من مشاهدة كونشيس يجلس في الفراندة يقرأ كتاباً، وبعد برهة قصيرة نهض واقفاً، فلوحت له بيدي، فرفع ذراعيه لأعلى بطريقته الكهنوتية، وهي طريقة أدركت منها آنئذ أن بها شيئاً رمزياً، وليس شيء ما ناجم عن المصادفة، ظهر كونشيس، وكان يرغب في أن يظهر لكي ينشر بركاته لكي تصدر تعليماته ويتولى القيادة، في ملكه ومنطقة نفوذه، وغطست تحت الماء ولكن المياه المالحة لسعت عيني فارتفعت إلى سطح الماء، وكان كونشيس قد استدار مبتعداً ربما لكي يتحدث مع آريل الذي يشغل الأسطوانات أو مع كاليبان الذي كان يحمل دلوا مليئاً بالأمعاء المتعفنة أو ربما مع.. ولكني استدرت معطياً ظهري تجاه المنزل، كان من السخف أن أعول كثيراً على وقع الأقدام السريعة، وعلى مجرد اللمحة الخاطفة السريعة للغاية لهيكل له لون أبيض.

وعندما قفلت راجعاً إلى الشاطئ بعد مرور عشر دقائق كان كونشيس جالساً على العارضة الخشبية، ولدى خروجي من الماء نهض واقفاً وقال: سوف نستقل الزورق ونذهب إلى بتروكارتافي.

وبتروكارتافي ومعناها «سفينة حجرية» هي جزيرة صغيرة تقع على

مسافة نصف ميل من جزيرة فراكسوس، وكان يرتدي ملابس العوم علاوة على طاقة صارخة بالألوان، أمسك في يده بزعانف الحوت المطاطية الزرقاء بالإضافة إلى زوج من أقنعة الوجه وأدوات التنفس تحت الماء، سرت وراء ظهره البني اللون العجوز فوق الحصباء الساخنة.

أسرعت في خطواتي إلى أن أصبحت محاذياً له في أثناء المسير، وقلت: لقد سمعت أصواتاً في أثناء الليل.

لم تظهر عليه الدهشة، فقلت: «جهاز التسجيل، لم يسبق في حياتي أن مررت بتجربة كهذه، فكرة غير عادية وشاذة.

لم يرد عليَّ، واكتفى بأن اتخذ خطوات لأسفل إلى القارب ثم فتح غطاء الموتور، قمت بفك الحبل من الحلقة الحديدية المثبتة في الخرسانة المسلحة بالشاطئ، ثم جلست القرفصاء فوق حاجز الماء ورحت أرقبه وهو يحاول فتح الباب المؤدي إلى غرفة في باطن الزورق، ثم قلت: أظن أن لديك مكبرات للصوت بين الأشجار.

ـ لم أسمع أي شيء.

رحت أعبث بالحبل بين أصابع يدي، وابتسمت ثم قلت: لكنك تعرف أنني سمعت شيئاً ما.

أشار لي بيده لكي أعبر إلى الزورق فخطوت إلى داخله وجلست على مقعد التجديف في مواجهته، وبعدئذ قلت: أردت أن أشكرك على إعداد هذه التجربة الفريدة من نوعها من أجلي.

ـ إنني لم أعد ولم أنظم أي شيء.

ـ من الصعب أن أصدق ذلك.

ظللنا نحملق في بعضنا البعض للحظات، كانت الطاقية قد جعلته شبيهاً بشمبانزي يقوم بتمثيل دور مسرحي، والابتسامة مازالت مرتسمة

على وجهي، لكنه لم يرد على ابتسامتي من جانبه، بدا الأمر وكأنني ارتكبت غلطة اجتماعية بسبب تحدثي عن ذلك الغناء، وتوقف عن القيام بتهيئة مقبض تشغيل الموتور.

ـ دعني أفعل ذلك نيابة عنك، أنا لا أرغب في الإساءة إليك، وعلى كل حال فلن أتحدث في ذلك الأمر مرة أخرى.

وانحنيت لكي أدير المقبض، فسقطت يده على كتفي، وقال: لا أشعر أنك أسأت إليّ يا نيقولاس، وأنا لا أطلب منك أن تصدق، كل ما أريده منك أن تتظاهر بأنك تصدق، فسيكون الأمر أكثر سهولة.

كان ذلك أمراً غريباً، فمن خلال حركة واحدة نجح في إنهاء التوتر بيننا، وكنت أدرك أنه يلعب معي نوعاً من الحيل الخادعة، لعبة خادعة مثل لعبة زهر النرد، وكنت أدرك أنه يشعر بالارتياح نحوي، خرجنا بالقارب من الخليج الصغير، لاحظت وجود ندبتين غائرتين وجرح قديم في الجزء العلوي من ذراعه اليمنى، خمنت أن هذه الجروح ناجمة عن إجراءات تنفيذ حكم الإعدام فيه أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان في أثناء قيادته للزورق شبيهاً بالزعيم الهندي غاندي، ولكن لدى اقترابنا من جزيرة بتروكارتافي نهض واقفاً، لقد صبغت السنوات المتواصلة من أشعة الشمس بشرته باللون البني فأصبحت مماثلة تماماً لبشرة صيادي السمك بالجزيرة.

تتبعت ضربات أقدامه المتأنية فوق الأرض المليئة بكتل الصخور التي ترفرف فوقها أسراب السمك، رفع كونشيس رأسه فوق سطح الماء وقال:

سأذهب لكي أحضر الزورق، انتظرني هنا.

واستأنف السباحة، وتتبعني سرب يضم بضع مئات من الأسماك الذهبية اللون، واستدرت فاستدارت ورائي ثم انطلقت في السباحة

فانطلقت ورائي، استلقيت على بلاطة صخرية كانت تدفئ المياه بحيث أصبحت درجة حرارتها مماثلة لدرجة حرارة الماء في الحمامات الساخنة، ووقع ظل الزورق على الصخرة.. قادني كونشيس عبر مسافة قصيرة إلى شق عميق بين جلمودين صخريين.. وهناك قام بتعليق قطعة من القماش الأبيض عند طرف صنارة.

سألني: ما رأيك في عالم البحار الموجود تحتنا؟

ـ رائع.. ويشبه الحلم.

ـ إنه يشبه عالم الإنسان ولكن منذ ملايين السنين.

وألقى كونشيس بالأخطبوط تحت مقعد المجدف، وأضاف متسائلاً: هل تعتقد أن هذه الأسماك لديها حياة عقب الموت؟

فنظرت لأسفل نحو الكتلة المكسوة بطبقة لزجة، ثم نظرت لأعلى لكي أواجه ابتسامته الجافة، لقد مالت طاقيته الحمراء، البيضاء قليلاً على جانب.. وأصبح منظره شبيهاً ببيكاسو الذي يقلد غاندي الذي يقلد القراصنة، ثم تحرك بالقارب، هززت رأسي، وأومأ كونشيس برأسه ورفع قطعة القماش البيضاء، كانت أسنانه المنتظمة المتساوية تلمع في تزييف وحيوية تحت الضوء الباهر للشمس، وألمح إلى أن الغباء يفضي إلى الموت وكأنه يريد أن يقول:

انظر إليّ، لقد تمكنت من البقاء على قيد الحياة.

تناولنا طعام الغذاء تحت صف الأعمدة، كانت حشرات زيز الحصاد تصدح بين أشجار الصنوبر المحيطة بنا وقت حرارة الجو خارج نطاق البواكي الباردة.

حاولت في أثناء عودتنا من البحر بذل مجهود واحد آخر لاختراق الموقف بأن أدفعه للتحدث عن ليفارير.

ولكنه تردد ثم ألقى نظرة عليّ في جدية ولكنه لم يستطع أن يخفي تماماً الابتسامة الكامنة وراء تلك النظرة.

ـ هل هذا هو ما يعلمونه لك في أكسفورد الآن؟ هل يقرأ المرء الفصول الأخيرة من الكتاب أولاً؟

اضطررت لأن أبتسم وألقي ببصري لأسفل، فإذا كانت إجابته لم تشبع حب الاستطلاع عندي فإنها قد تخطت على الأقل ادعاء آخر وحركتنا خطوة إلى الأمام، وطوال فترة تناول الغداء تحدثنا عن عالم البحار، كان عالم البحار بالنسبة له بمثابة قصيدة عملاقة، بمثابة حانوت رجل مشتغل بالكيمياء القديمة حيث يكون لكل شيء داخل دكانه قيمة غامضة، بمثابة تاريخ داخلي ينبغي تتبع نشأته، لقد جعل التاريخ الطبيعي يبدو شبيهاً بشيء مركزي وشاعري الطابع وليس مجالاً لنشاط رؤساء فرق الكشافة.

ما إن انتهينا من تناول الطعام حتى نهض واقفاً، كان بصدد الذهاب إلى الدور العلوي من أجل الاضطجاع قليلاً في فترة القيلولة وكان من المقرر أن نتقابل مرة أخرى في الوقت الخاص بتناول الشاي.

ـ وما الذي ستفعله؟

فتحت نسخة من مجلة «تايم» القديمة كانت إلى جواري، وفي داخلها عثرت على نسخة من كتيب عن القرن السابع عشر.

فقال في دهشة: ألم تقرأ هذا الكتيب حتى الآن؟

إنه كتيب نادر، رفع يده ملوحاً لي ودخل إلى المنزل.

رحت أتجول في تكاسل بين الأشجار، ثم جلست وأسندت ظهري على جذع شجرة واستغرقت في قراءة الكتيب، إنه يضم الاعترافات الخاصة بالكاتب روبرت فولكس، فعلى الرغم من أنه كان من العلماء المثقفين وقام في عام ١٦٧٧ بالاعتداء على فتاة صغيرة وحبلها، ثم قام

بقتل المولود فحكم عليه بالإعدام بسبب قتله للطفل المولود، كان قد وصل إلى قمة الحقوق والانحلال واللاتقوى، رغم أنه كان يدرك أن القسيس «هو المرآة التي ينظر الناس فيها».. وقال مزمجراً من الزنزانة التي احتجز فيها قبل إعدامه:

«اسحقوا الحية الخرافية، فأنا ميت بحكم الشرع والقانون»، ولكن بالنسبة للفتاة فإنه أنكر أنه قد حاول أن يفسدها وهي في سن التاسعة من عمرها، لأن «كلتي عينيها قد شهدت وكلتي يديها قد فعلت، وأقسم لكم كرجل ميت أن هذا هو ما حدث»..

الكتيب يقع في حوالي ٤٠ صفحة فقرأته في خلال نصف ساعة كان مثلما وصفه كونشيس من قبل ـ أكثر صدقاً من أي قصة تاريخية وأكثر إثارة للمشاعر وللذكريات والعواطف، استقليت على ظهري وحملقت من خلال الأغصان المتشابكة إلى السماء، بدا لي أنه من الغريب أن يكون هذا الكتيب القديم إلى جواري.

أغلقت عيني ورحت أرقب صفائح اللون الدافئ التي انسابت لدى استرخائي، ثم رحت في النوم.

عندما استيقظت نظرت إلى ساعة يدي كان كونشيس هناك واقفاً في الظلال الخضراء على مسافة سبعين ياردة من أخدود المياه، نهضت واقفاً دون أن أعرف ما إذا كان عليّ أن أنادي عليه أو أصفق بيدي أو أشعر بالخوف أو أضحك.

لم أستطع أن أفعل شيئاً سوى الوقوف والحملقة في دهشة، كان مرتدياً زياً أسود تماماً.

وكان الشعر طويلاً والياقة موشاة باللون الأبيض حول رقبته، كان واقفاً في شيء من التكلف والتصنع، يشبه الرسام رامبرانت، كان وجه

الشبه شديداً على نحو مزعج ولكنه مع ذلك يبدو غير متلائم وفي غير موضعه ـ رجلاً ثقيلاً ووقوراً وله لون أحمر، إنه روبرت فولكس.

نظرت فيما حولي متوقعاً إلى حد ما أن أشاهد كونشيس في مكان ما خلفي، ولكن لم يكن هناك أحد، نظرت مرة أخرى إلى ذلك الهيكل الذي لم يتحرك من مكانه والذي ظل يحملق في الظلام عبر ضوء الشمس الذي يغمر الأخدود، عندئذ ظهر هيكل آخر من خلف شجرة الخروب.

إنها فتاة صغيرة ذات وجه أبيض في الرابعة عشرة من العمر وترتدي فستاناً بنياً.

استطعت أن أتبين وجود طاقية قرمزية على الجزء الخلفي من رأسها، كان شعرها طويلاً، وسارت الفتاة إلى أن أصبحت وراء الرجل ثم راحت تحملق في وجهي، كانت أقصر بكثير منه ولا يكاد طولها يصل إلى ضلوعه، ظللنا واقفين نحملق في بعضنا البعض على مدى نصف دقيقة تقريباً.

وبعدئذ رفعت ذراعي وابتسمت لهما، ولكن لم تظهر ردود فعل عليهما، فتحركت للأمام نحوهما لمسافة عشر ياردات أو نحو ذلك تحت ضوء الشمس في اتجاه حافة الأخدود وبقدر ما أستطيع.

ناديت باللغة اليونانية: طاب يومكما، ماذا تفعلان هنا؟

لكنهما لم يبادرا بالردّ.

كانا يحملقان في وجهي ـ وخُيل إليّ أن الرجل يحملق في، أما الفتاة فتحملق بدون أن تظهر في وجهها أية تعبيرات وتدفقت رياح شمسية فأدت إلى رفرفة علم بني اللون هو بمثابة جزء من ظهر فستانها الذي تطاير على جانب..

اعتقدت أنه الأديب هنري جيمس، لقد اكتشف الرجل العجوز أنه

يمكن اللجوء إلى التهديد بالقوة لإرغامي على عمل شيء معين، وبعدئذ ستظهر وقاحته، تذكرت المناقشة التي تمت بيننا عن الرواية «الكلمات هي من أجل تناول الحقائق، وليس من أجل سرد القصص والروايات الخيالية».

نظرت في اتجاه المنزل، يجب أن يظهر كونشيس نفسه في تلك اللحظات.

لكنه لم يفعل، تحركت الفتاة مقتربة أكثر من الرجل الذي وضع يده على كتفها القريب منه، بدا كأنهما ينتظران مني أن أفعل شيئاً.

نظرت إلى أعلى نحو حافة الأخدود، كان من الصعب اجتيازها.

بدا الجانب الذي أقف عنده ينحدر في سهولة أكثر إلى الأرضية، فقمت بحركة تعبيرية لتوضيح ما سأقدم عليه، ثم بدأت في الصعود على التل. نظرت إلى الوراء نحو الشخصين، استدارا وراحا يرقباني إلى أن اختفيا عن الأنظار. فزدت من سرعتي، ونظرت إلى المكان الذي سبق أن نمت فيه، كان الكتيب ومجلة التايم ملقيين فوق السجادة الصغيرة التي تتألف من الأوراق الإبرية للنباتات، فسرت إلى ما وراء شجرة الخروب إلى أن وصلت إلى شريط الأسلاك الشائكة الذي يمر بين الأشجار عند حافة الجرف العالي للجزيرة، كانت الأكواخ الثلاثة تقع في بستانها الصغير المليء بأشجار الزيتون.

وفي شيء من الذعر والهلع سرت عائداً إلى شجرة الخروب، لم يكن بمقدوري أن أتخيل أن ذلك الرجل السريع الغضب قد انبطح على الأرض في مكان ما بهدف التواري والتخفي.

ترامى إلى سمعي صوت الجرس آتيا من جهة المنزل، دق ثلاث دقات، فنظرت إلى ساعتي ـ إنه وقت تناول الشاي.

اعتقدت أنه كان ينبغي لي أن أشعر بالخوف والذعر بسبب ما

شاهدته، لكنني لم أشعر بالخوف وإنما بالدهشة البالغة، فكل من الرجل والفتاة ذات الوجه الشاحب كان يبدو من الإنجليز، ومهما كانت الجنسية التي ينتميان إليها فإنني أدرك أنهما ليسا من سكان الجزيرة، لذلك كان عليّ أن أفترض أنهما قد حضرا خصيصاً إلى الجزيرة وأنهما انتظرا في مكان ما قريب لحين أبدأ في قراءة كتيب فولكس، ولقد سهلت عليهما الأمر بأن رحت في إغفاءة من النوم، إلاَّ أن ذلك كان من قبيل المصادفة البحتة، وكيف سمح كونشيس لهذين الشخصين بالوقوف في مكان قريب وإلى أيّ مكان ذهبا لكي يختبئا؟

وعلى مدى دقائق قليلة سمحت لذهني أن يتوغل في الظلام، كان هناك شيء ما فيزيقي بحت في هذه التجارب التي أفترض فيها أنها تجارب «خارقة للطبيعة» هذا بالإضافة إلى أن «التجليات» تكون أقل إقناعاً إذا ظهرت في وضح النهار، بدا الأمر كأنه قد قصد لي أن أدرك أن هذه التجليات ليست في حقيقة الأمر خارقة للطبيعة، وقفت بين الأشجار وأنا في حيرة كاملة، لقد وضعت نفسي على نحو ما في خضم من الخيالات الجامحة والأوهام الخاصة برجل عجوز غير عادي، كان ذلك واضحاً، لماذا تحتم عليه أن يبقيهما ولماذا تحتم عليه أن يفهم كنههما على ذلك النحو الغريب؟ ولماذا تحتم عليه أن يختارني أنا بالذات لأكون المستمع الوحيد له؟ كل ذلك ظل لغزاً محيراً للغاية، إلاّ أنني كنت أدرك أنني أصبحت متورطاً في شيء عجيب حتى إنه صار من المستحيل أن أتخلى عن ذلك الشيء من خلال نفاد الصبر أو افتقاد روح المزاح والفكاهة.

عبرت الأخدود مرة أخرى والتقطت مجلة التايم والكتيب، وعندما نظرت ورائي شعرت بمسحة من الخوف، الخوف من الأمور الخارقة للطبيعة.

وفي أثناء سيري إلى حيث يجلس كونشيس بينما ظهره في اتجاهي قررت أن أقوم برد فعل من جانبي.

التفت كونشيس وتساءل: هل استمتعت بالاسترخاء في فترة الظهيرة؟

ـ نعم.. شكراً جزيلاً.

ـ أقرأت الكتيب؟

ـ «أنت على حق، إنه أكثر روعة من أي رواية أو قصة تاريخية، وأنا أشكرك من كل قلبي.

وبعد أن شعر بالارتياح ذهب لكي يعزف على آلة البيان القيثاري القديمة لمدة عشرين دقيقة، واستغرقت في التفكير في أثناء الإصغاء إلى عزفه، إذ بدا لي أن هذه الأحداث قد قصد بها إدخال الخداع على الحواس كافة، فأحداث الليلة الماضية غطت حاستي السمع والشم، أما أحداث ما بعد ظهر اليوم وكذلك تلك اللمحة الخاطفة لذلك الهيكل بالأسى قد قصد بها تغطية حاسة الإبصار، أما حاسة التذوق فيبدو أنها غير ملائمة، ولكن ماذا عن حاسة اللمس؟.. كيف يمكنني أن أصدق أو حتى أدعي أنني أصدق أن الشيء الذي لمسته هو شيء خارق للطبيعة»؟

لم يكن هناك سوى شيء واحد: ألا وهو شعوره بالقلق، قد أصبح له تفسير واحد الآن، إنه قد مارس حيله الخادعة للحواس على كل من ميتفورد، وليفاريير، وطلب منهما أن يقسما بعدم إفشاء ذلك السر.

وعندما رجع أخذني معه لكي يروي خضراواته بالماء.

ثم قام بأداء تمرينات التنفس العميق، ثم ابتسم في وجهي وقفز إلى الوراء فجأة لفترة ٢٤ ساعة، حيث قال في لهجة آمرة وليس على هيئة توجيه سؤال:

ـ والآن حدثني عن هذه الفتاة.

ـ لا يوجد هناك بالفعل ما أقوله.

ـ هل هي التي تخلت عنك؟

ـ أبداً، أنا الذي تخليت عنها.

ـ وأنت الآن ترغب في....؟

لقد انتهى كل شيء، فقد فات الأوان، سبق السيف العزل.

ـ أنت شبيه بأدونيس، فأنت في غاية الوسامة، هل أصبت بأية تقرحات؟

نفس الارتباك الذي شعرت به منذ أن اكتشفت أنه قد درس الطب.

قلت معترفاً له: في حقيقة الأمر لقد أصبت بالتقرحات، لقد أصبت بمرض الزهري في أوائل هذا العام في أثينا وأنا الآن، على ما يرام، وأعتقد أنني شفيت تماماً.

ـ من الذي شخص لك هذا المرض؟

ذلك الرجل بالقرية المسمى بتاريسكو.

حدثني عن الأعراض التي شعرت بها.

فشرحت له كل شيء بالتفصيل، فقال: لقد كنت مصاباً بقروح عادية، إنها قرحة تناسلية لينة وهذا مرض في حوض البحر المتوسط، إنه يسبب بعض المتاعب ولكنه لا يحدث أضراراً، وأفضل علاج له هو الاستحمام باستمرار بالماء والصابون.

تصارعت في داخلي المشاعر: شعرت بالارتياح لأنني لم أكن مصاباً بالزهري، وشعرت بالغضب من هذا الخداع الشرير الآثم، وبعد لحظات تكلم كونشيس مرة أخرى:

وحتى لو كنت قد أصبت بمرض الزهري، لماذا لم تعد إلى الفتاة التي تحبها؟

رحت أقص عليه بعض ما حدث بيني وبين آليسون، لم أشعر

بتعاطف حقيقي من جانبه نحوي، لم يظهر عليه سوى حب الاستطلاع، أخبرته بأنني قمت مؤخراً بإرسال خطاب إليها.

قال: أنت تفكر فيها كثيراً وتتحرق شوقاً لأن تشاهدها، ولذلك يجب أن تكتب لها رسالة «لا ينبغي أن نترك كل شيء للمصادفة لكي لا نغرق في البحر».

ثم هز كتفي وأضاف: يجب أن تسبح في الماء.

ـ المسألة ليست هي السباحة في الماء ولكن المسألة هي معرفة الاتجاه الذي أسبح نحوه.

ـ تسبح نحو الفتاة، فأنت تقول عنها إنها تشاهد الحياة من خلالك، وتقول عنها إنها تفهمك جيداً، وهذا هو أمر حسن.

التزمت الصمت ثم قلت: أعتقد أنني لا أفهم طبيعة وجوهر الحب، ذلك إذا لم تكن طبيعة الحب هي بمثابة أعمال جنسية، وأنا على كل حال لم أعد أهتم بالممارسات الجنسية اهتماماً حقيقياً.

ـ يا عزيزي الشاب، أنت بمثابة كارثة، أنت إنسان مهزوم ومتشائم.

ـ لقد كنت في يوم ما طموحاً بعض الشيء، وربما كنت أعمى وربما لم أكن أشعر آنئذ أنني إنسان مهزوم.

نظرت إليه، واستطردت قائلاً: هذا الانهزام لا يرجع إلى طبيعتي الشخصية، إنه انهزام منتشر في هذا العصر.. وسائد في هذا الجيل الذي أنتمى إليه.. فنحن جميعاً معشر الشباب نشعر بالانهزامية.

ـ تشعرون بالانهزامية رغم أنكم تشهدون أعظم عصر للتنوير في تاريخ الكرة الأرضية؟

وبعد أن قمنا نحن البشر بتبديد المزيد من الظلام خلال الخمسين سنة الأخيرة.

نهض واقفاً كما لو كان الوقت له أهمية بالغة، قال: تعال معي، سأريك أعمق أسرار الحياة، ومشى بسرعة سرت وراءه إلى الدور العلوي وهناك دفعني إلى الفراندة.

ثم جاء بعد دقيقة حاملاً معه شيئاً ثقيلاً مغلقاً بفوطة بيضاء، ووضعه في حرص في وسط المنضدة، ثم توقف ساكناً للحظات ثم أزاح القماش في وقار.

كانت رأساً حجرية وكان من الصعب معرفة ما إذا كانت رأس رجل أم رأس امرأة.

الأنف كسر جزء منه، الشعر مربوط بعصابة بواسطة قطعتين جانبيتين، لكن القوة كلها متركزة في الوجه والعينين شرقيتي الطابع بعض الشيء، قال:

تلك هي الحقيقة، وليست هي المطرقة والمنجل، وليست هي راية النجوم والأشرطة المتمثلة في علم الولايات المتحدة الأمريكية، ليست هي الصليب ولا الشمس ولا الذهب، ليست الخير أو الشر وإنما هي الابتسامة.

وكان على حق، كان هذا الشيء الصغير الذي تسقط عليه إضاءة الشمس به مسحة من القوة الإلهية، ورحت أمعن النظر في تأمل شديد وبدأت أشعر بشيء ما آخر فقلت:

هناك شيء ما يتصف بالعناد أو الحقد في تلك الابتسامة.

قال: إنه يعبر عن الحقيقة، والحقيقة تتصف بالعناد ولا سبيل إلى تغييرها.

ـ من أين جئت بهذه الرأس؟

ـ من ديديما في آسيا الصغرى. إنها ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد.

- ترى أكانت مثل هذه الابتسامة ستظهر على هذا النحو لو كان صاحب هذا الرأس شاهد الحرب الحديثة؟

راح الرأس الصغير يرقبنا في أثناء تأملنا فيه، كان رقيقاً وواثقاً في نفسه وكاد يكون مليئاً بالغموض والإبهام، خطر على ذهني أنها نفس الابتسامة التي يبتسمها كونشيس في بعض الأحيان، كما لو كان قد اعتاد أن يجلس أمام هذه الرأس ليتمرن على أداء هذه الابتسامة، إنها تتسم بالسخرية الدرامية، ابتسامة أولئك الذين اختصوا بمعرفة معلومات متميزة لا يعرفها الآخرون، نظرت لأعلى نحو وجه كونشيس وأدركت أنني على حق.

(٢٣)

ظلام لامع ومرصع بالنجوم فوق المنزل والغابة والبحر، ثم نقل الأطباق عقب الانتهاء من تناول طعام العشاء، وتم إطفاء المصباح، ألقيت بظهري إلى الوراء في الكرسي، وأتاح كونشيس الفرصة لليل لكي يغلفنا في صمت ويحتوينا ويتملك مشاعرنا، وأتاح للزمن أن يتضاءل ويتلاشى، وبعدئذ بدأ يجرني إلى الوراء عبر عشرات من السنين.

في أبريل عام ١٩١٥ رجعت إلى إنجلترا بدون متاعب، لم أعرف ما ينبغي لي أن أكون، فالمرء وهو في سن ١٩ سنة لا يكون مقتنعاً بإنجاز الأعمال، فالأعمال ينبغي أن تكون لها مبرراتها أيضاً، أصيبت والدتي بالإغماء عند مشاهدتي، ولأول مرة ولآخر مرة في حياتي أشاهد والدي يبكي بالدموع، وقبل أن تتم هذه المواجهة مع أقاربي قررت أن أقص عليهم حقيقة ما حدث بكل صراحة لأنني لا يمكن أن أخدعهم ومع ذلك عندما مثلت أمامهم، ربما كان السبب هو عدم الشجاعة.. لست أدري على وجه الدقة، ولكن هناك بعض الحقائق التي تكون قاسية للغاية أمام وجوه الناس الذين ستعلنهم بها بحيث يتعذر عليك أن

تذكرها لهم، لذلك أخبرتهم بأنني تمكنت من الحصول على إجازة وتوغلت في الكذب فاخترعت لهم معركة جديدة كما لو أن المعركة الأصلية لم تكن كافية، بل أخبرتهم أنه قد صدرت توصيات بترقيتي إلى رتبة عسكرية أعلى.

وفي بادئ الأمر وقف الحظ إلى جانبي، فبعد يومين وصل إخطار رسمي بأنني مفقود وبأنهم يعتقدون أنني قد قتلت في أثناء المعارك، ومثل هذه الأخطاء كثيراً ما كانت تتكرر ولذلك لم يشك والدي في أي شيء، وتم تمزيق الخطاب في سعادة غامرة.

وبالنسبة لليلى، فربما جعلتها الأيام تشاهد في مزيد من الوضوح مشاعرها نحوي، تخلت فجأة عن كل التحفظات، فقدمت لي الكثير بقدر ما تستطيع، والوقت الذي قضيته معها بمفردها.. تلك الساعات سمحت لي باستجماع قواي والتمادي في الكذب والخداع، ولكن في نفس الوقت تملكتني الرغبة في أن أحكي لها حقيقة الموقف قبل أن تطبق عليّ أيدي العدالة، وفي كل مرة أعود فيها إلى منزلي كنت أتوقع وجود أفراد من الشرطة في انتظاري.

وذات يوم ذهبت مع ليلى للنزهة في الغابات بشمال لندن، كل ما أذكره أن تلك الغابات كانت منعزلة وجميلة رغم أنها قريبة من لندن.

استلقينا على الأرض، ورحنا نتبادل القبلات.. وبعد ظهر ذلك اليوم قالت لي ليلى إنها تريد أن تتزوجني، تتزوجني عن طريق ترخيص خاص، وبدون موافقة والديها إذا لزم الأمر، وذلك حتى نصبح ـ قبل عودتي للجيش مرة أخرى ـ متحدين في الجسد مثلما نحن متحدان في الروح وكنت أشعر برغبة شديدة في ممارسة الحب معها والارتباط معها بالزواج، إلاّ أن ذلك السر الرهيب كان يحول بيني وبينها.

وكان عليّ أن أدعي نوعاً من الشهامة الزائفة، إذ أوضحت لها أنني

لا أوافق على الزواج منها لأن هناك احتمال أن أموت في المعارك، ومن ثم لا أسمح بمثل هذه التضحية من جانبها.

فجادلت معي وانخرطت في البكاء.

واعتبرت رفضي بمثابة كرم أخلاق ونبل مشاعر وفي نهاية تلك الفترة من بعد الظهر وقبل أن نغادر الغابات كرست نفسها من أجلي حيث قالت: مهما حدث فإنني لن أتزوج من أي إنسان آخر غيرك.

وتوقف عن الكلام للحظات مثل رجل يصل فجأة إلى حافة شديدة الانحدار.

أو ربما كانت وقفة تتسم بالذكاء والدهاء.

ولكنها جعلت النجوم تنتظر هي الأخرى.

اقتربت إجازة الأسبوعين الزائفة من نهايتها، لم تكن لديّ خطة.

جاءت على لحظات فكرت فيها في العودة إلى فرنسا.

ولكن عندئذ كانت تقفز إلى ذهني أشكال الهياكل الشبحية الصفراء المترنحة مثل المخمورين والخارجة من حوائط الدخان.. وحاولت طرد هذه الصور من ذهني دون جدوى.

ارتديت الزي الرسمي العسكري الخاص بي وسمحت لوالدي ووالدتي وليلى بتوديعي عند محطة فيكتوريا، واعتقدوا أنني سأسلم نفسي في معسكر قريب من دوفر، كان القطار مليئاً بالجنود، ومرة أخرى شعرت بتيار الحرب الجارف وبالرغبة الأوربية في الموت تدفع بي إلى الأمام، وعندما توقف القطار في محطة ما بمنطقة كينت نزلت منه، وأمضيت يومين في فندق، كنت أشعر بالضياع التام، من الصعب على المرء الهروب من الحرب، وأخيراً رجعت إلى لندن، إلى الشخص الوحيد في إنجلترا الذي اعتقدت أنه يمكن لي اللجوء إليه، إنه جدي، كنت أعرف أنه يوناني وأدرك أنه يحبني، واليونانيون يضعون الروابط

العائلية فوق أي اعتبار آخر، وراح يصغي باهتمام إلى قصتي، ثم نهض واقفاً واقترب مني.

وكنت أدرك ما سيفعله، لقد صفعني في عنف شديد على وجهي.

ومع ذلك كنت واثقاً من أنه سيقدم لي كل ما في استطاعته من مساعدة.

وصب على رأسي أعنف الشتائم التي يعرفها باللغة اليونانية.

خبأني في منزله، لأنني أخبرته أنني في حالة عودتي للجيش سيقومون بإطلاق الرصاص على لأنهم سيطبقون القوانين التي تنص على إعدام الهاربين من المعارك في أثناء الحرب، وفي اليوم التالي ذهب لمقابلة والدتي وأظن أنه عرض عليها أن تختار بين أمرين: إما أن تؤدي واجبها كمواطنة وإما أن تؤدي واجبها كأم، فجاءت لزيارتي وحرصت على عدم تأنيبي، وكان هذا أسوأ عندي مما لو كان والدي قد صب جام غضبه عليّ، وكنت أدرك أنها ستعاني كثيراً إذا علم والدي بحقيقة الأمر، ثم توصلت هي ووالدي إلى قرار في هذا الشأن: ينبغي اتخاذ إجراءات تهريبي من إنجلترا إلى عائلتنا بالأرجنتين.

ومن حسن الحظ أن والدي كان لديه المال الكافي والأصدقاء اللازمون لإنجاز هذه المهمة في عالم النقل والشحن، وتم إعداد الترتيبات اللازمة، وتم تحديد موعد لسفري.

عشت في منزله ثلاثة أسابيع دون أن أخرج من المنزل وكنت في حالة من الخوف حتى إنني فكرت مرات عديدة في تسليم نفسي للجيش، كنت أشعر بالورطة إزاء ليلى.

فقد وعدتها بإرسال خطابات يومية إليها.

وبالطبع لم أستطع أن أفعل.

كنت متشوقاً لأن أقنع ليلى بأنني عاقل وأن العالم كله مجانين.

وفي إحدى الأمسيات شعرت بأني لم يعد باستطاعتي تحمل ذلك، فتسللت خارجاً من مخبئي، وذهبت إلى غابة سانت جون، وكنت أعرف أن ليلى تذهب في نفس ذلك المساء من كل أسبوع إلى المركز الوطني للحياكة.

وانتظرت في الطريق الذي ستسلكه.

جاءت بمفردها، اعترضت طريقها لدى خروجي من تحت بواكي البوابة التي انتظر عندها، شحب وجهها، أدركت أن شيئاً رهيباً قد حدث لي لدى رؤيتها لوجهي ولملابسي المدنية، وبمجرد أن شاهدتها سيطر حبي الشديد لها على كل جوارحي تماماً، ونسيت الكلام الذي رتبته لأقوله لها، وأنا حالياً لا أذكر ما قلته لها.

كل ما أذكره هو أنني سرت إلى جوارها تحت عتمة الغسق لأننا كنا نرغب في الظلام وأن نكون بمفردنا، لم نتناقش، وجدنا أنفسنا عند الترعة التي تخترق المنطقة البحرية من المنتزه، وجلسنا على مقعد، وبعدئذ انفجرت في البكاء.

ولم تسمح لي بأن أهدئ من روعها، لقد خدعتها، وهذا أمر لا يمكن اغتفاره.

لم تكن المسألة من وجهة نظرها أنني قد هربت من الجيش وإنما المسألة أنني كذبت عليها، أشاحت بوجهها بعيداً، محملقة في الترعة.

ثم وضعت يدها على يدي وطلبت مني الالتزام بالصمت، ولفت ذراعيها حولي دون أن تتكلم.

أدركت أنها لم تفهم شيئاً مما قلته لها عن الحرب، توسلت إليّ أن أعود إلى الجيش، واعتقدت أنني أعتبر ميتاً إلى أن أرجع إلى الجيش، واستخدمت مراراً كلمة «المبعوث» وحاولتُ كثيراً معرفة الموقف بالنسبة

لنا، وأخيراً قالت إن ذلك هو قرارها وأن ثمن حبها أن أعود إلى جبهة القتال، ليس من أجلها شخصياً ولكن من أجلي أنا.

لكي أتعرف على ذاتي الحقيقية مرة أخرى، قالت إنها مازالت على حبها لي ملتزمة بما قالته من قبل:

إنها لن ترتبط مطلقاً بالزواج من أي شخص آخر غيري مهما كانت الظروف.

في نهاية الأمر لذنا بالصمت، ولعلك قد فهمت، كانت ليلى بمثابة الإنسانية المرتبطة بالواجب ومقهورة ومصلوبة وسائرة في اتجاه الصليب. وأنا كنت حراً طليقاً ومصمماً أن أبقى على قيد الحياة مهما كان الثمن.

مازلت أرى وجهها المحملق في الكلام وكأنها تحاول أن تدفع نفسها للحملقة في عالم آخر.. بدا الأمر وكأننا محتجزين في غرف للتعذيب، كل منا مقيد بالسلاسل في الحائط المقابل، نواجه بعضنا البعض سعياً وراء الأبدية والخلود ولكن دون أن نتمكن من لمس الخلود.

حاولت انتزاع بعض الأمل منها مثلما يفعل الرجال، لكنها أسكتتني بنظرة لن أنساها طوال حياتي كانت نظرة كراهية، سرت عائداً إلى جوارها في صمت، وقلت لها: «مع السلامة» تحت مصباح شارع، لم نتلامس، ولم ننطق بكلمة واحدة، وجهان شابان دبت فيهما الشيخوخة فجأة وهما يواجهان بعضهما البعض، وجهان شاحبان، ورائحة أشجار اللايلاك، وظل عميق لانهائي.

وتوقف عن الكلام، لم تكن هناك عاطفة في صوته، ولكن تفكيري كان منصباً على آليسون، وعلى النظرة الأخيرة التي ألقتها آليسون عليّ.

«وهذا هو كل ما حدث، وبعد مرور أربعة أيام قضيت ٢٤ ساعة بغيضة وكريهة جاثماً في ذلك في جوف مركب شحن يونانية رأسية في ميناء ليفربول».

وساد الصمت.

ـ وهل شاهدتها مرة أخرى؟

وأطلق خفاش صوتاً حاداً قصيراً فوق رأسينا:

ـ لقد ماتت.

واضطررت لأن أدفعه إلى التحدث في مزيد من التوضيح فسألته:

ـ ماتت بعد ذلك مباشرة؟

ـ ماتت في الساعات الأولى المبكرة من صباح ١٩ فبراير ١٩١٦، فقد انتشر وباء التيفود وكانت تعمل في مستشفى.

ـ يا لها من فتاة مسكينة.

ـ كل هذا في الماضي.

ـ أنت تجعل الماضي شبيهاً بالحاضر.

كان يحملق في طيات الليل، وانساب الخفاش في طيران منخفض للغاية حتى إنني شاهدت الصورة الظلية له للحظة خاطفة منعكسة على درب اللبانة:

قلت: وهل هذا هو السبب في أنك لم تتزوج على الإطلاق؟

ـ الموتى يعيشون.

ـ ما هي الكيفية التي يعيشون عليها؟

فسمح للصمت أن يسود مرة أخرى كما لو أن الصمت سيجيب عن تساؤلي، ولكن في اللحظة التي اعتقدت فيها أنه لن يجيب عن سؤالي نهائياً بدأ يتكلم فقال: عن طريق الحب.

بدا كأنه يوجه كلامه لكل شيء فيما حولنا وكأنها تقف مصغية في الظل الداكن عند الأبواب.. كما لو أن سرده لماضيه قد ذكره بمبدأ عظيم أخذ يتبينه من جديد وبعد دقيقة التفت إليّ:

ـ أود أن تجيء لزيارتي في الأسبوع القادم، إذا سمحت ظروفك بذلك.

ـ إذا وجهت إليّ الدعوة فلن يمنعني أي شيء.

ثم نهض واقفاً، وقال: إلى النوم في السرير، فالوقت متأخر.

وسرت وراءه متجهاً إلى غرفتي حيث انحنى ليشعل المصباح، وقال: لا أريد أن يتناقش الناس هنالك عن حياتي وظروفي.

ووقف منتصف القامة في مواجهتي وقال:

ـ إذن سوف أشاهدك يوم السبت القادم؟

نظر في عيني ثم أتى بحركة غريبة: مد يده ولمس كتفي في حنان أبوي، بدا الأمر وكأنني قد نجحت في اجتياز اختبار معين.

ـ حسناً ستقوم ماريا بإعداد طعام الإفطار لك غدا، إلى اللقاء في الأسبوع القادم.

ثم انصرف، وذهبت إلى الحمام، وأغلقت بابي وأطفأت المصباح، ولكنني لم أخلع ثيابي، وظللت واقفاً بجوار النافذة وانتظرت لبعض الوقت.

(٢٤)

وعلى مدى عشرين دقيقة تقريباً لم يصدر أي صوت، ظللت منتظراً لفترة طويلة حتى قمت بخلع ملابسي وشرعت في الاستسلام للنوم الذي بدأ يزحف على عيني، إلاّ أن الصمت تحطم، إذ فتح باب كونشيس ثم أغلق في هدوء وسمعته يهبط السلم، نهضت من نومي ثم تطوحت خارجاً من السرير.

إنها الموسيقي مرة أخرى منبعثة من الدور الأرضي، إنها آلة البيان القيثاري، كانت أصداء الموسيقى تدوي في إيقاع يشبه الطرق لكنه طرق

خافت، صدر صوت جعلني أهرع بسرعة إلى الباب، وفتحته في حذر، من المؤكد أن الباب بالدور الأول مفتوح أيضاً حيث كان باستطاعتي سماع قعقعة آلة البيان القيثاري.

ولكن الشيء الذي سبب الرعشة في ظهري هو ذلك الصوت الحاد الرفيع الصادر عن آلة الفلوت، أدركت أن ذلك الصوت لا يصدر عن جراموفون وإنما هناك شخص ما يعزفه، وتوقفت الموسيقى ثم استؤنفت.. واستمرت آلة الفلوت في إصدار صوتها الحاد، ووقع العازف في غلطة ثم غلطة أخرى ولو أن العازف كان ماهراً للغاية على ما يبدو.

خرجت عارياً، ارتديت سويتر وبنطلوناً وزحفت هابطاً على السلم حافي القدمين، وتوقف صوت الفلوت، ثم سمعت صوت حفيف الأوراق يتم تصفحها وتقليبها ـ حامل النوتة الموسيقية، وبدأت آلة البيان القيثاري في عزف مقطوعة على العود في حركة جديدة خفيفة كالمطر وبدأت الأنغام والأصوات تنساب عبر أرجاء المنزل في هارمونيات غامضة ونائية، ومشيت على أصابع قدمي نحو الباب المفتوح لغرفة الموسيقى، كان الباب مفتوحاً توقفت الموسيقى وتحرك كرسي، فازدادت ضربات قلبي، ونطق كونشيس بكلمة واحدة غامضة في صوت منخفض.

فألصقت نفسي على الحائط بشدة، وصدر صوت خفيف وخشخشة، كان هناك شخص واقف عند باب غرفة الموسيقى.

إنها فتاة رشيقة في أوائل العشرينات من عمرها كانت تمسك في إحدى يديها فلوت وفي اليد الأخرى ريشة ناعمة صغيرة، كانت مرتدية فستاناً له ياقة واسعة مخططاً باللونين الأزرق والأبيض مع ترك الذراعين عاريتين، ذات وجه جميل فتان يأخذ بالألباب خالٍ من الماكياج.

وكل شيء فيها يحمل نفس الطابع الذي كان سائداً منذ أربعين عاماً.

أدركت أنني أشاهد ليلى.. إنها نفس الفتاة التي شاهدتها في الصور الفوتوغرافية، دون أي شك، نفس الوجه ونفس العينين.

شاهدتني، ووقفت متسمراً فوق الأرضية الحجرية وبدت مندهشة مثلي تماماً.. وبعدئذ نظرت بسرعة بعينيها الواسعتين إلى حيث كان كونشيس يجلس ثم نظرت إليّ مرة أخرى ورفعت ريشة الفلوت إلى شفتيها وهزتها لكي تمنعني من التحدث، ثم ابتسمت لي، كانت تشبه صورة أو لوحة من نوع معين.. كانت ابتسامتها غريبة ـ هناك شيء ما في فمها، شيء هادئ ومليء بالتسلية ولكنه في نفس الوقت مليء بالغموض مليء بالادعاء، انحنت للأمام ودفعت ذراعي في رفق مستخدمة طرف الريشة الموجودة بيدها كأنها تريد أن تقول لي: انصرف.

ولم يستغرق كل ذلك أكثر من خمس ثوان، حيث أغلق الباب ووجدت نفسي واقفاً في الظلام وأعتقد أنها لو كانت شبحاً، لو كنت الفتاة شفافة ومقطوعة الرأس لكانت دهشتي أقل، ولقد ألمحت بشكل واضح إلى أن كل شيء كان بمثابة تمثيلية ولكن يجب على كونشيس ألا يعرف أن الأمر كذلك وأن يعرف أنها قد ارتدت ملابس تنكرية من أجله وليس من أجلي أنا.

نزلت بسرعة على السلم إلى الباب الأمامي، ثم خرجت من الباب إلى صف الأعمدة ونظرت من خلال إحدى النوافذ ذات القناطر الضيقة فشاهدت كونشيس، وقد عاد للعزف، تحركت بحثاً عن الفتاة.

وتحركت في التفاف خلف ظهر كونشيس إلى أن تمكنت من مشاهدة كل جزء من الغرفة.

ولكنها لم تكن موجودة، اعتقدت أنها ربما تكون موجودة، فحملقت في حذر حول الناصية، لكنها كانت شاغرة.

المؤكد أنها جرت حول الجزء الخلفي من المنزل، فتسللت خارجاً من الأبواب المفتوحة وحملقت عبر الأراضي المزروعة بالخضراوات ثم سرت حولها، شعرت أنها هربت في هذا الاتجاه، لم يكن هناك أثر لأي شخص أو أي صوت.

فانتظرت لدقائق عديدة، توقف كونشيس عن العزف.. وسرعان ما أطفئت اللمبة واختفى كونشيس.

فجلست في الظلام في أحد الكراسي.. كان الصمت العميق سائداً.

تدفق الحدس في رأسي فقد كان هؤلاء الناس الذين شاهدتهم وتلك الأصوات التي سمعتها وتلك الرائحة القذرة أشياء حقيقية وليست أموراً خارقة للطبيعة.

وهذا البعد الجديد وهذا الإيحاء بأن «التجليات» معدة من أجل كونشيس ومن أجلي أيضاً، كان هو أكثر الأمور المحيرة.

جلست في الظلام بينما الأمل يراودني أن يظهر لي شخص ما ـ ولتكن ليلى ـ ليشرح لي جوانب الموقف، وشعرت كأنني طفل، يمشي في غرفة وهو يدرك أن كل شخص هنالك يعرف شيئاً ما عنه لا يعرفه عن نفسه.

وشعرت أيضاً بأنني خدعت عن طريق حزن كونشيس «الموتى يعيشون عن طريق الحب» إذ كان من الواضح أنهم يستطيعون أن يعيشوا أيضاً عن طريق اتخاذ أشكال أشخاص آخرين.

رحت أنتظر تلك الفتاة التي قامت بتقمص شخصية ليلى، كان عليّ أن أعرف صاحبة ذلك الوجه الأوروبي الشمالي الجميل اللطيف المفعم

بالشباب، أردت أن أعرف المكان الذي جاءت منه والحقيقة الكامنة وراء كل هذا اللغز الغامض.

انتظرت ساعة ولم يحدث أي شيء، وفي نهاية الأمر زحفت عائداً إلى غرفتي، إلاّ أنني نمت نوماً خفيفاً متقطعاً، وعندما طرقت ماريا باب حجرتي في الساعة ٥,٣٠ صباحاً استيقظت مترنحاً وكأنني قد أمضيت ليلتي في تناول قدر هائل من الخمور.

ومع ذلك استمعت وأنا أشق طريقي في الصباح الباكر عائداً إلى المدرسة، بالهواء البارد وإلى حد ما بدأت أدخل في الواقع المفعم بالحقائق في أثناء سيري.

هبط عليّ في أثناء سيري شعور عجيب للغاية ـ شعور ناجم عن الوقت المبكر في الصباح وعن الوحدة المطلقة وعن الأحداث التي جرت ـ بأنني قد دخلت في أسطورة أو في نوع من الإدراك بأنني شاب من العصور القديمة أو أنني أوديب مازال يبحث عن مصيره.

(٢٥)

كان هناك خطاب، جاء عن طريق مركب يوم الأحد.

عزيزي نيقولاس..

ظننت أنك مت.. إنني أشق طريقي في الحياة معتمدة على نفسي، إلى حد ما.

أرغب في مقابلتك مرة أخرى فالمسألة هي أنني باستطاعتي أن أقابلك، فأنا أمر بطريق أثينا الآن، أقصد أنني لم أقرر بعد ما إذا كنت خنزيراً بحيث يصبح من الجنون أن أتورط معك مرة أخرى.

لا أستطيع أن أنساك حتى ولو كنت مع أولاد أكثر ظرفاً منك بكثير، يا نيقولاس إنني مخمورة بعض الشيء ولربما أقوم بتمزيق هذا الخطاب.

ربما أرسل برقية في حالة حصولي على توقف لمدة أيام قليلة في أثينا.. وأنا إذا استمررت على ما أنا عليه فإنك قد لا ترغب في مقابلتي.. وربما لا ترغب الآن في مقابلتي، عندما وصلني خطابك أدركت أنك كتبته لأنك كنت تحس بالملل، أليس أمراً شنيعاً أنني مازلت أسرف في الشراب إلى أن أصبح مخمورة لكي يتسنى لي أن أكتب لك خطاباً.

الألوان حولي رمادية وتوحي بالكآبة والتعاسة إلى حد بعيد... آليسون.

لقد وصل خطابها في وقت غير مناسب، إذ جعلني أدرك أنني لا أرغب في أن يشاركني أي شخص آخر في بوراني، فعقب تعرفي لأول مرة على هذا المكان وعقب مقابلتي الأولى لكونشيس كانت لديّ الرغبة في التحدث عن بوراني ـ مع آليسون ـ ولكنني شعرت في هذه الآونة بالارتياح لأنني لم أتحدث مع أحد عن بوراني.

ولا أرغب أن يشاركني أحد في هذه التجربة.

الإنسان لا يقع في الحب في خلال خمس ثوان.. ولكن يمكن للثواني الخمس أن تجعل الإنسان يحلم بالوقوع في الحب، فكلما فكرت في وجه منتصف الليل ذاك بدا لي أكثر سحراً مما جذبني إليها على نحو قدري محتوم كما تجذب مصابيح صيادي الأسماك المحليين السمك في الليالي الخالية من ضوء القمر.

وذكرت نفسي بأن كونشيس غني بالقدر الذي يمكنه من التقاط أجمل النساء ولقد افترضت ضرورة وجود علاقة جنسية من نوع ما بينه وبين تلك الفتاة ـ لأنه من الغريب ألا تكون هناك علاقة جنسية بينهما، ومع ذلك هناك شيء أكثر من الجنس بينهما.

قرأت خطاب آليسون عشرات المرات محاولاً اتخاذ قرار بشأن، ما سأفعله، انتهيت إلى أنه كلما تأخرت في الرد على ذلك الخطاب كان

ذلك أفضل، ولكي أوقف الإلحاح الصامت المنبعث من ذلك الخطاب دفعت به إلى قاع درج مكتبي ثم ذهبت للنوم في سريري.

وانجرفت إلى خيالات عديدة رومانتيكية جنسية مع ذلك الهيكل المليء بالألغاز الغامضة وفشلت تماماً في الاستغراق في النوم.

الآن بدأ الشبق الجنسي يتعاظم في داخلي وبدأت أفكر في آليسون تفكيراً جنسياً وأفكر في اصطحابها إلى سرير بأحد فنادق أثينا للاستمتاع بالمباهج القذرة في عطلات نهاية الأسبوع وبدأت أفكر في أن العصفور الموجود في اليد خير من العصافير الموجودة في الشجرة، قمت بكتابة رسالة مطولة لآليسون.

قلت في خطابي إنني مشغول بالمدرسة، إن إجازة نصف السنة ستجيء بعد نحو أسبوعين وأنني قد أذهب إلى أثينا خلال تلك الإجازة ولكنني لست واثقاً من ذلك تماماً، إلاّ أنه من الرائع أن أشاهدها في أثينا.

جلست مع ميلي Meli في حجرته بالمدرسة مستلقياً في سريره ومصغياً لكلامه بعض الشيء، سألني:

هل قضيت وقتاً لطيفاً في إجازة نهاية الأسبوع؟

يجب ألا تخبر الناس الآخرين بذلك.

أعطيته فكرة عن زيارتي الأولى في الأسبوع السابق وأوضحت له أن كونشيس وبوراني في غاية السخافة.

ثم أضفت قائلاً: ولقد وجه إلى الدعوة للذهاب لزيارته في الأسبوع القادم فهل يمكن أن تقدم لي خدمة بأن تحل محلي في النوباتجية التي تستغرق الفترة من ظهر يوم الأحد حتى الساعة السادسة بالمدرسة؟

ـ سوف أحل محلك.

ـ أريد أن أعرف ما ستقوله إذا سأل الناس الآخرون عني.

فراح يفكر للحظات ثم قال: سأقول لهم إنك ستذهب إلى مدينة «هيدرا»..

ذهبت إلى القرية مرات عديدة في ذلك الأسبوع بحثاً عما إذا كان هناك أناس أجانب أو غرباء.. ولم يكن هناك أي أثر للأشخاص الثلاثة الذين أبحث عنهم رغم أنه كانت توجد بعض الوجوه القليلة الأجنبية: ثلاث أو أربع زوجات مع أطفال صغار أرسلوا من أثينا إلى الأماكن العشبية.

وأخيراً جاء يوم السبت، وبمجرد أن انتهيت من دروس الصباح تناولت وجبة غداء ثم اتجهت نحو القرية ومعي حقيبتي، وقلت لخفير المدرسة العجوز الموجود عند البوابة إنني ذاهب إلى هيلدا لقضاء إجازة نهاية الأسبوع، وبمجرد أن أصبحت متوارياً عن المدرسة شققت طريقي بين الأكواخ، خلف المدرسة ومنها إلى الطريق المؤدي إلى بوراني..

وكنت قد تعجبت أكثر في أثناء الأسبوع من شأن مجموعة الأكواخ القليلة الموجودة عن الخليج الذي يقع إلى الشرق من بوراني.

كان بمثابة مساحة من الحصباء بها صف ضخم من نباتات الصبار التي تقف شمعداناتها المرتفعة إلى ١٢ قدماً والمليئة بالأزهار في مواجهة البحر، فاستقليت فوق منحدر عند الخليج المليء بنباتات الزعتر بعد أن وصلت إليه في هدوء متسللا من بين الأشجار.. ورحت أرقب الأكواخ الموجودة أسفلي بغية مشاهدة وجود أية دلائل تدل على وجود حياة غير عادية، ورحت أتفحص المكان، وبدا لي أنه مكان غير ملائم لأن يقيم فيه، «مساعدو» كونشيس، إذ كان مكشوفاً للغاية بحيث تسهل مراقبته.

وبعد قليل شققت طريقي هابطاً إلى الأكواخ، شاهدني طفل وأنا أشق طريقي بين أشجار الزيتون فنادى بأعلى صوته، هنا ظهر جميع

سكان هذه القرية الصغيرة: أربع نساء وستة أولاد، وتماشياً مع كرم الضيافة الريفي المعتاد قدموا لي طبقاً صغيراً مليئاً بمربى السفرجل بالإضافة إلى كوب من مياه الآبار... قلت إنني بصدد الذهاب لزيارة كونشيس فظهرت عليهم الدهشة الشديدة، هل سبق لهم أن قاموا بزيارته؟ فاتجهت جميع رؤوسهم إلى الوراء كما لو أن هذه الفكرة لم تخطر على بال أحد منهم، راحت أكبر النساء سناً تحكي في فيض من الكلمات سمعت من بينها كلمة «العمدة» وكلمة «الألمان»، ورفع الأطفال أيديهم في حركة تشبه حركة البنادق.

وماذا عن ماريا؟ وهم قد شاهدوها بالطبع؟

ولكنهم قالوا إنهم لم يشاهدوها على الإطلاق.

وقالت إحداهن إن ماريا ليست من أهالي الجزيرة.

أخبرتهم بأنني مجرد صديق له.

فقالت المرأة العجوز إنه لا أصدقاء له في هذا المكان، ثم أضافت بصوت به شيءٍ من العداء: إن الرجال السيئين يجلبون الحظ العاثر.

سألت: شاهدوا ضيوفاً؟

فأجابت بالنفي.

واستأذنت في نهاية الأمر عقب إهدائهم لي غصن ريحان، ثم سرت بطول الجرف العالي إلى أن تمكنت من الوصول إلى الحافة التي تؤدي إلى بوراني.

(٢٦)

جلست في غرفة الموسيقى واستمعت إليه وهو يعزف لحناً أوركسترالياً، وطوال فترة تناول الشاي ظللت منتظراً لأية إشارة تفيد بأنه

يعرف أنني شاهدت الفتاة وهو عدم قول أي كلام إلى أن يبدأ بالكلام في هذا الشأن، لكن لم تظهر أية ثغرة في محادثتنا.

كان كونشيس يعزف كما لو كان لا توجد بينه وبين الموسيقى أية عوائق.

وكنت جالساً في الغرفة ذات النوافذ المغلقة والمليئة بالهواء المنعش البارد.. أرقب رأسه المنحنى قليلاً.

كانت تلك هي أول مرة أسمعه يعزف فيها موسيقى عظيمة فشعرت بالتأثر الشديد.

وخطر على ذهني أنني لا أرغب في الوجود في أي مكان آخر في العالم في تلك اللحظات وأن ما أشعر به قد برر كل الخطوات التي أقدمت عليها لأن كل ما أقدمت عليه كان من خلال وجودي هناك.

كان كونشيس قد تحدث عن تقابله مع مستقبله وعن شعوره بأن حياته توازنت عندما جاء إلى بوراني لأول مرة، كنت أعيش تجربة مماثلة لهذا الكلام الذي قاله كونشيس، تجربة تقبل جديد للذات، إحساس بأنني ينبغي أن أكون هذا العقل وهذا الجسد برذائله وفضائله.

إدراك مختلف تماماً عن إحساسي القديم بالعالم الذي كان قائماً على أوهام الطموح، فاللخبطة الموجودة في حياتي وحالات الأنانية والتحولات الزائفة وحالات الخيالات، كل هذه الأمور يمكنها أن تتساقط في مكانها الصحيح ويمكنها أن تصبح مصدراً للبناء، لم تكن تلك لحظات تتعلق باتخاذ قرار أخلاقي جديد وبعد أن انتهى من العزف راح يرقبني:

ـ أنت تجعل الكلمات تبدو أمورا دنيئة وتافهة.

فبدا عليه الامتعاض رغم أنه حاول أن يخفي ذلك بأن دفعني للذهاب معه لكي يقدم لخضراواته الري المسائي.

وبعد ساعة حضر إلى غرفة النوم الصغيرة مرة أخرى.. وأدركت أن هناك كتباً جديدة قد وضعت بجوار سريري، منها كتاب من القطع كبير الحجم تحت عنوان: «الحياة البرية في إسكندينافيا»، يشبه كتاب «مفاتن الطبيعة» الذي كان موجوداً في الأسبوع السابق حيث تبين لي أن «الحياة البرية» يقصد بها الحياة ذات الطابع الأنثوي: نساء جرمانيات مستلقيات أو واقفات أو جاريات وهي أمور تتعارض تماماً مع أصداء موسيقى باخ التي لا تزال تتردد في أذني.

وأخيراً كان هناك كتاب آخر باللغة الفرنسية تحت عنوان «المسرحية التنكرية الفرنسية في القرن الثامن عشر»...

فتذكرت المختارات الأدبية التي كنت قد قرأتها على البلاج وتصفحت الأوراق إلى أن وصلت إلى الصفحة التي توجد بها فقرة قد وضعت عليها أقواس لتمييزها، لقد جاء في تلك الفقرة ما يلي:

الزوار الذين ذهبوا إلى ما وراء الحوائط العالية لسانت مارتن أسعدهم أن يشاهدوا عبر المروج الخضراء وبين البساتين رعاة وراعيات أغنام يرقصون ويغنون وهم محاطون بالقطعان، كانوا يرتدون أزياء ذات طابع روماني، قيل إنه كان هناك المزيد من المناظر المثيرة للخجل، حوريات فاتنات يهربن في ليالي صيفية تحت ضوء القمر من هياكل غريبة الشكل ذات أشكال تجمع ما بين الرجل والماعز..

وأخيراً بدأ الأمر يتضح في بساطة، إن كل ما حدث في بوراني كان بمثابة المسرحيات القصيرة، ومما لا شك فيه أن هذه الفقرة كانت تلمح لي بأنه ينبغي لي ألا أدس أنفي جرياً وراء حب الاستطلاع، فشعرت بالخجل بسبب الأسئلة التي سبق أن وجهتها إليه.. اغتسلت ثم ارتديت ملابس تعتبر تحدياً للرسميات التي يحرص عليها كونشيس في فترات الأمسيات، وعندما خرجت من غرفتي لكي أهبط السلم لاحظت أن

باب غرفة كونشيس كان مفتوحاً، نادي عليّ للدخول إلى غرفته وقال: «لسوف نتناول الأوزو هنا بالدور العلوي في هذا المساء».

كان يقرأ خطاباً كان قد فرغ من كتابته توا.

كان باب الغرفة الصغيرة الموجودة في نهاية غرفته مفتوحاً بعض الشيء، فلمحت وجود ملابس وخزانة، ومن خلال البابين المفتوحين حملقت صورة ليلى الفوتوغرافية في وجهي من داخل اللوحة الخاصة بها.

ثم خرجنا إلى الفراندة، كانت هناك مائدتان: إحداهما عليها الكئوس، والأخرى عليها الأشياء الخاصة بالعشاء، وعلى الفور لاحظت وجود ثلاثة كراسي عند مائدة العشاء.. أدرك كونشيس أنني لاحظت ذلك فقال:

سيجيئنا زائر عقب العشاء، فقلت مبتسماً: «زائر من القرية؟» فهز رأسه مبتسماً هو الآخر.

تكلم قائلاً: أتعرف من سيكون الزائر؟

إنني لم أعرف ما إذا كان قد قصد لي أن أجيء في الأسبوع الماضي أم لا.

فابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

ـ هل قرأت الكتيب الصغير الخاص بي؟

ـ لم أقرأه بعد.

ـ عليك بقراءته في تمعن.

ـ بالطبع: إنني أتطلع في اشتياق إلى قراءته.

ـ وبعدئذ يمكننا أن نجري تجربة في الليل غداً.

ـ تتعلق بالاتصال بعوالم أخرى؟

ولم أهتم بطرد نبرة الشك من صوتي.

- نعم.. هناك في الأعالي.. في السماء المثقلة بالنجوم أو هنالك عبر ذلك المكان.

شاهدته وهو ينظر لأسفل إلى الخط الأسود للجبال الواقعة إلى جهة الغرب.

فقلت متفكهاً: هنالك في الأعالي، هل يتكلمون اليونانية أم الإنجليزية؟

قال: إنهم يتكلمون بالأحاسيس والعواطف.

- إنها لغة لا تتسم بالدقة الشديدة.

- بالعكس، إنها أكثر اللغات دقة وتحديداً، إذا كان باستطاعتك أن تتعلمها، الدقة بالمعنى الذي تقصده تعتبر أمراً مهما بالنسبة للمواد العلمية، ولكنها غير ضرورية بالنسبة لـ...

لم أستطع معرفة الأمور التي تعتبر لغة العواطف غير ضرورية بالنسبة لها.

وسمع كلانا نفس وقع الأقدام الخفيف الذي سبق أن سمعته من قبل، كان يبدو وكأنه يترامى من جهة البحر.

فنظر كونشيس نظرة سريعة إليَّ، وقال:

- عليك ألا توجه أية أسئلة فهذا هو أهم شيء على الإطلاق.

- فابتسمت وقلت: كما تحب، سوف ألتزم بذلك.

- وعليك أن تعاملها كأنك تعامل شخصاً فاقداً للذاكرة.

إنك تعيش في الوقت الحاضر.. وهي لا تتذكر ماضيها الشخصي - فهي بلا ماض، إذا سألتها سؤالاً يتعلق بالماضي فإنك ستسبب لها

التشويش والإزعاج، وهي حساسة للغاية، وعندئذ لن ترغب في مشاهدتك مرة أخرى.

أردت أن أقول له إنني أحب تمثيلية التنكرية وإنني لن أتسبب في إتلافها، ثم قلت له: إذا كنت لا أفهم السبب فإنني أبدأ في فهم الكيفية.

تركزت عيناه على ثم نظرة نحو الأبواب.. وبعدئذ التفت نحوي.. أدركت أن المصباح قد وضع ورائي لكي ينير لها في أثناء دخولها.

وجاء دخولها من النوع الذي يبهر الأنفاس ويجعلها لاهثة.

كانت مرتدية ملابس رسمية مسائية لها طابع عام ١٩١٥ معطفاً حريرياً فوق فستان يضيق عند الوسط.. بدت كأنها تتردد وتطفو في آن واحد لدى اقترابها نحونا.

أما تسريحة شعرها فمرتفعة لأعلى، كانت تبتسم وتنظر إلى كونشيس وإن رمقتني بنظرة بها اهتمام فاتر، نهض كونشيس واقفاً على قدميه، كانت أنيقة على نحو مذهل واثقة في جمالها وأناقتها وكأنها خرجت لتوها من محلات كريستيان ديور وعلى الفور قفزت إلى ذهني فكرة: إنها موديل محترفة، ثم بعد ثوان: إنه الشيطان القديم.

تكلم الشيطان القديم بعد أن قام بتقبيل يدها أولاً: يا ليلى، أعرفك على السيد نيقولاس أورفي، الآنسة مونتجمري.

مدت يدها فصافحتها، تقابلت عيناي من عينيها، ولكن عينيها لم تبوحا بأي شيء، فقلت: مرحباً.

فردت بانحناءة بسيطة من جسدها، ثم استدارت لكي يقوم كونشيس بخلع معطفها نيابة عنها، ووضع معطفها على ظهر الكرسي الخاص به.

كان كتفاها وذراعاها عارية.

ترتدي سواراً مصنوعاً من الذهب والأبنوس، خمنت أنها في الثالثة والعشرين كان هناك شيء ما بها يوحي بأنها أكبر بعشر سنوات، رتبت

فستانها لدى جلوسها فوق الكرسي ثم طوت يديها وابتسمت لي ابتسامة خفيفة، ثم قالت: الجو حار هذا المساء.

قال كونشيس: السيد أورفي هو المدرس الشاب الذي حدثتك عنه.

ـ نعم لقد تقابلنا في الأسبوع الماضي أو بمعنى أصح ألقينا نظرة خاطفة على بعضنا البعض.

أدركت أن كونشيس قد هيأني لاستقبال هذه الرقة والعذوبة، لكنها رقة مثيرة لشيء من الضيق لأن وجهها لم يستطع إخفاء ذكائها، كانت لها طريقة في النظر إليّ كما لو كانت تعرف شيئاً ما لم أكن أعرفه ـ شيئاً لا علاقة بالدور الذي كانت تلعبه وإنما بالحياة بوجه عام.

كانت بشرتها شديدة البياض، والواضح أنها لم تأخذ حماماً شمسياً على الإطلاق، وسادت فترة صمت مليئة بالخجل والارتباك كما لو كنا نحن الثلاثة لا نعرف أي كلام نقوله، وأخيراً قامت بتحطيم الصمت:

ـ من المؤكد أن التدريس مهنة شيقة وممتعة.

ـ ليس بالنسبة لي، فأنا أجدها مهنة سخيفة بعض الشيء، على كل أنا أغتفر للتدريس سخافته ما دام قد أحضرني هنا.

انزلقت ببصرها إلى كونشيس الذي انحنى نحوها وقالت: أخبرني موريس أنك لست سعيداً في عملك..

واستمر الكلام والحوار بيننا على ذلك النحو على مدى ١٥ دقيقة تقريباً، كانت تسأل فأجيب عليها، ولم يتكلم كونشيس سوى مرات قليلة للغاية تاركاً معظم المناقشات لنا، ووجدت نفسي أضفي الصبغة الرسمية على كلامي كأنني أتظاهر بالوجود في غرفة جلوس تنتمي إلى أربعين عاماً مضت، ورغم كل ذلك فقد كانت مسرحية تنكرية، وكنت أريد أن ألعب دوري في المسرحية، ووجدت أنها تحاول أن تسرق الكاميرا مني بعض الشيء ففسرت ذلك على أنه محاولة منها لأن تسلبني

فرصة الظهور على المسرح أو ربما لكي تختبرني وترى إذا كنت أصلح للتمثيل أمامها على المسرح، واعتقدت أنني شاهدت ومضة من الشعور بالتسلية الساخرة في عيني كونشيس.

وجدتها فتاة بالغة الحسن والروعة سواء في أثناء الخلود إلى الهدوء والسكوت أوفي أثناء التمثيل وسادت فترة صمت، ثم تكلم كونشيس: هل لي أن أحكي لك الآن ما حدث عقب مغادرتي إنجلترا؟

ـ إذا لم يكن ذلك يضايق الآنسة مونتجمري.

ـ لا، إنني أحب الاستماع إلى كلام موريس ـ وظل يرقبني متجاهلاً كلامها ـ ليلى دائماً تفعل ما أريده على وجه الدقة.

فنظرت إليها، وقلت:

ـ إذن فأنت سعيدة الحظ، ولم يرفع عينيه عن وجهي ووقعت الظلال على التجاعيد الموجودة بجوار أنفه فبدت أكثر عمقاً.. إنها ليست ليلى الحقيقية.

ـ يا سيد كونشيس، لا أعرف ماذا تريد أن تقول لي.

ابتسم واحدة من ابتساماته النادرة وقال: لا تقفز إلى النتائج، يجب أن ألفت نظرك إلى أنني في هذا المساء لا أقدم لك قصة وإنما أقدم لك شخصية.

نظرت إليّ ليلى، نظرت لي وكأنها قد أوذيت مشاعرها بشكل ملحوظ، فبدأت فكرة أخرى جامحة تتغلغل داخل ذهني: إن هذه الفتاة في حقيقة الأمر فتاة فاقدة للذاكرة، وهو على نحو ما قد استولى عليها استيلاءً حقيقياً، انتقلت بنظراتها المرفرفة المنصبة عليَّ إلى النظر إلى رأس كونشيس الذي تحول لتفادي النظرات، ومنه إلى النظر إليَّ مرة أخرى.

وعلى الفور هبط عليّ الانطباع بأننا ممثلان لديهما نفس الشكوك إزاء المخرج.

(٢٧)

عشت في بيونس أيرس أربع سنوات حتى ربيع عام ١٩١٩، تشاجرت مع عمي، كنت أشعر بأنني في منفى، وكان والدي ملتزماً بعدم كتابة رسائل إلى أو التحدث معي على الإطلاق، ولكني بعد فترة من الوقت بدأت والدتي تجري اتصالاتها معي.

هناك شيء واحد له أهمية حدث لي في الأرجنتين، إذ اصطحبني صديق في رحلة مقاطعات الأندين.. وشعرت برغبة ملحة في أن أكرس نفسي من أجل الطبقات الفقيرة، وشاهدت أشياء عديدة جعلتني أقرر أن أصبح طبيباً، ولكن الظروف الواقعية لمستقبلي الجديد كانت قاسية، فكلية الطب في بيونس إيرس لم تكن على استعداد لأن تقبلني وكان عليّ أن أقضي عاماً لكي أدرس المزيد من العلوم والمواد العلمية لكي يقبلوني في كلية الطب.

وحصلت والدتي على دخل مالي كافٍ، وكان نتيجة ذلك كله أنني عدت إلى أوروبا وأقمت في باريس معها، وعشنا في شقة قديمة ضخمة، وبدأت أدرس الطب ومن بين طلبة كلية الطب تكونت مجموعة، كنا ننظر إلى الطب على أنه دين، وأطلقنا على أنفسنا اسم «جمعية الحكمة والرشاد»... كنا نؤمن أنه على جميع الأطباء في العالم أن يتحدوا معاً لكي يصبحوا الصفوة المختارة العلمية والأخلاقية في العالم، إننا بوصفنا أطباء ينبغي أن يكون لنا وجود في كل دولة وكل حكومة، فنحن بمثابة السوبرمان الأخلاقي الذي سيقوم بالقضاء على الديماجوجية ورجال السياسية الأنانيين والرجعيين، وطبعنا بياناً رسمياً يوضح أهدافنا، وعقدنا مؤتمراً شعبياً في إحدى دور السينما، لكن

الشيوعيين أطلقوا علينا اسم الفاشستيين وقاموا بتحطيم دور السينما. التفت إليَّ: أتود أن تقرأ البيان الرسمي الخاص بنا يا نيقولاس؟ سأذهب لأحضره لك.

وهكذا أصبحت بمفردي مع ليلى، نهضت واقفة وقالت: هل يمكننا أن نتمشى؟

سرت بجوارها، نظرت فيما حولي وأدركت أن كونشيس في مكان بعيد بحيث لا يمكنه سماع كلامي، سألتها:

ـ أنت هنا منذ فترة طويلة؟

ـ لا.. لم أكن في أي مكان لفترة طويلة، من المؤكد أن موريس طلب منك عدم توجيه الأسئلة إليَّ.

ـ إنني ملتزم بعدم توجيه أسئلة إليك في أثناء وجوده معنا، فنحن من الإنجليز، لكن ما هي اللعبة على وجه الدقة؟

قالت في شيء من الحدة: لو سمحت، إنني حقاً لا أستطيع تحمل هذا.. لو سمحت أيمكن أن تغطيني بالشال؟

رجعت لكي أحضر الشال، كان كونشيس مازال في الداخل، عدت ولففت الشال حول كتفيها، فجأة مدت يدها وأمسكت بيدي وضغطت عليها كما لو كانت تريد أن تعطيني الشجاعة، ربما لكي تجعلني أعتبرها هي وليلى الأصلية الرقيقة شيئاً واحداً، وكياناً واحداً، ظلت تحملق إلى الخارج: لماذا فعلت ذلك؟

ـ لم أود أن أكون قاسية أو فظة.

فقلدت على نحو ساخر لهجتها الرسمية في الكلام وقلت لها: هل لي أن أسألك.. في أي مكان تعيشين هنا؟

استدارت على حافة الفراندة وأشارت بمروحتها وقالت: هنالك.. أؤكد لك أنني أعيش هنالك.

فهبطت على ذهني فكرة، فتساءلت: على يخت؟

ـ على أرض.

ـ أمر عجيب. ولكنني لم يسبق لي أن شاهدت منزلك على الإطلاق.

ـ أتوقع أن يكون لديك النوع الخاطئ من الأبصار، خيل إليَّ أنني شاهدت ابتسامة خفيفة عند زاوية شفتيها، كنا نقف قريبين من بعضنا البعض بينما العطر ينتشر حولنا.

ـ لا أحب أن يضايقني أحد بكثرة الأسئلة.

ـ إذن لسوف أستمر في مضايقتك.

مددت يدي وجعلتها تدير رأسها، وسمحت لأصابعي أن تستقر على البشرة الباردة لخدها ولكن نظرتها الثابتة جعلتني أرفع يدي عنها، حملت عيناها إليَّ تلميحية وتحذيرية في آن واحد: قد تكسبني بالرقة ولكن استخدام القوة لن ينفع معي على الإطلاق، والتفتت لتواجه البحر مرة أخرى: هل تحب موريس؟

ـ هذه هي المرة الثالثة فقط التي قابلته فيها وإنني لأشكره جزيل الشكر لدعوته لي لكي أجيء إلى هنا، وخاصة.. قاطعتني وأوقفت المدح والإطراء، وقالت: كلنا نحبه حباً شديداً.

ـ من تقصدين بكلمة: (كلنا)؟

ـ أنا وزائريه الآخرين.

ـ من الغريب أن تستخدمي كلمة «زائر».

ـ موريس لا يحب «الشبح».

ابتسمت وقلت: ولا يحب «الممثلة» أيضاً؟

ـ نحن كلنا ممثلون وممثلات يا سيد أورفي. وأنت من ضمن الممثلين.

(٢٨)

مازلت أعشق الموسيقى كنوع من الممارسة العملية، وذات يوم دافئ في الربيع عام ١٩٢٠ كنت أعزف بينما النوافذ مفتوحة عندما دق الجرس.. فجاءتني الخادمة لتخبرني بأن رجلاً جاء للزيارة ويرغب في التحدث معي، صحح الرجل كلامها قائلاً إنه يرغب في الاستماع لعزفي وليس للتحدث معي.. كان غريب الشكل حتى إنني لم أكن ألحظ تطفله ودخوله عندي بطريقة شاذة، كان عمره حوالي ٦٠ سنة فارع الطول للغاية ومهندم الملابس، نظرت في حدة إلى كونشيس، بدا كأنه ينظر في اتجاه البحر وسارعت ليلى إلى وضع إصبعها على شفتيها في تكتم وسرية:

كان يبدو مكتئباً للغاية، اكتشفت فيما بعد أنه أقل بؤساً مما بدا عليه، وبدون أن يتكلم جلس على كرسي، وراح يصغي لعزفي، وعندما انتهيت التقط قبعته وعصاه ذات المقبض الكهرماني بدون أن يتلفظ بكلمات، قدم لي بطاقته وطلب مني أن أزوره، عرفت من البطاقة أن اسمه هو: ألفونص دوكانز، كان يحمل لقب كونت، وفي الموعد المحدد ذهبت إلى شقته، كانت واسعة وبالغة الأناقة، قادني خادم إلى غرفة صالون، ونهض دوكانز ليرحب بي، اصطحبني مع إلى غرفة أخرى، حيث يوجد ست من آلات البيان القيثاري، وهي كلها آلات قديمة وفاخرة ومن النوع الذي يعرض بالمتاحف ووجه إليَّ الدعوة لكي أجرب العزف عليها جميعاً، ثم أخذ يعزف بنفسه لم يكن في نفس جودتي ولكن على نحو مقبول، ثم قدم لي وجبة طعام خفيفة.

ظلت معلوماتي عنه قليلة لشهور عديدة رغم أنني كنت أقابله في كثير من الأوقات، فلم يكن لديه أي شيء يقوله عن ماضيه، ولم يكن يشجع أي نوع من الأسئلة، كل ما استطعت أن أكتشفه هو أن أسرته جاءت من

بلجيكا، وأنه يمتلك ثروات هائلة، وأنه يدقق كثيراً في اختيار أصدقائه، وأنه بلا أقارب، ويكره النساء.

الحياة الحقيقية لدى دوكانز عاشها في قصره الريفي الضخم في شرق فرنسا، وهو قصر كان قد شيد في أواخر القرن السابع عشر وأقيم في حديقة تزيد مساحتها على هذه الجزيرة، كان باستطاعة المرء مشاهدة الأبراج الزرقاء والحوائط البيضاء من مسافة أميال عديدة، وأذكر أنني لدى زيارتي الأولى شعرت بالرهبة الشديدة، كانت حقول القمح قد حصدت منذ فترة، وكان الضباب المائل إلى اللون الأزرق يغلف كل شيء، وصلت إلى القصر بالسيارة التي أرسلها لإحضاري، سرت وراء الخادم عبر حديقة ضخمة رسمية تقع خلف القصر، وتخطينا سياجاً من الشجيرات ووصلنا إلى حافة البحيرة، وعلى مسافة مائة ياردة شاهدت منزلاً شرقي الطابع يطل على مياه البحيرة الهادئة، هنا انحنى الخادم وتركني كي أستمر في طريقي بمفردي، كان الممر يؤدي إلى جدول ماء صغير.. لم تكن هناك رياح، كان الجو يسوده الضباب والصمت ولكنه صمت كئيب.

وخلال تلك الزيارة الأولى شعرت بالصدمة نظراً لأنني كنت آنئذ أميل إلى الاشتراكية.

كما شعرت بالانبهار الشديد من حيث إنني رجل مرهف الحس، كان القصر بمثابة متحف كبير، هناك أروقة وصالات عرض مليئة باللوحات الزيتية والخزف الصيني والقطع الفنية على كافة أنواعها، وكانت هناك مكتبة شهيرة، علاوة على مجموعة رائعة من الآلات الموسيقية، بالإضافة إلى غرفة مليئة بالتماثيل البرونزية التي ترجع إلى عصر النهضة، وكذلك غرفة تضم أنواعاً مختلفة من الأسلحة، وغرفة أخرى تضم عملات أغريقية ورومانية، كان من الممكن أن أقضي الليل كله في

مشاهدة هذه الأشياء لأنه كرس كل حياته من أجل جمع كل هذه المجموعات المتباينة، وهي أشياء تكفي لتزيين عشرات القصور.

لم نتناقش على الإطلاق في الدين أو السياسة، كان يذهب لسماع موسيقى القداس الديني للطقوس لسبب واحد هو أن النظام الديني للطقوس شكل من أشكال تشجيع الجمال وتهذيبه، كان رجلاً غاية في البساطة والسذاجة وربما كان السبب في ذلك هو تلك الثروة الهائلة التي تغمره، وقفت معه ذات مرة ورحنا نرقب معاً طابوراً من الفلاحين يعملون في حقل مزروع بنبات اللفت دبت فيه الحياة، وكان تعليقه الوحيد هو: «أنه من الجميل أن يكونوا على ما هم عليه وأن نكون نحن على ما نحن عليه»، وبالنسبة له كانت أكثر التناقضات الاجتماعية إيلاماً والتي يمكن لها أن توخز ضمير الأغنياء الجدد الأفاقين لا تسبب له أية آلام.

أما السلوك الإيثاري فكان يسبب له إزعاجاً شديداً، فمنذ أن كان عمري ١٨ سنة وأنا أرفض تناول لحوم الطيور البرية على مائدة السفرة، وكان هذا أمراً مزعجاً من وجهة نظر دي دوكانز، فهذا السلوك من وجهة نظره مثل نغمة نشاز في مخطوطه موسيقية، ابتهج كثيراً عندما أدرك أنني أعرف قدراً من المعلومات المهمة في علم الطيور... وشجعني أن أتخصص فيما سماه على سبيل الفكاهة باسم: علم دلالات الألفاظ وتطورها لدى الطيور.

كان أغرب إنسان شاهدته في حياتي، وكان أكثر الناس أدباً وأخلاقاً، وبالتأكيد أكثرهم ابتعاداً عن تحمل المسئولية الاجتماعية، كان عمري يا نيقولاس في ذلك الوقت ٢٥ عاماً أي في نفس عمرك الحالي الآن، وقد تستنتج من ذلك أنني كنت غير قادر آنئذ على الحكم عليه وتقديمه بطريقة سليمة، وهذه المرحلة من العمر هي في رأيي أكثر المراحل

صعوبة، فالإنسان في هذه السن يعامله الناس على أنه رجل مكتمل ولكن بعض الأشخاص يحاولون إرجاعه إلى فترة المراهقة.

ولقد أثار دوكانز شكوكاً عميقة في فلسفتي في الحياة، وهي شكوك بلورها لي في خمس كلمات بسيطة.

كنت غير قادر على التصرف بطريقة عقلانية، لكن لماذا كنت أعتقد أن دوكانز إنسان شرير؟ لسوف تقول لأن الأطفال يهلكون جوعاً بينما كنت أنت تعزف تحت ضوء الشمس ولكن ألن يكون لنا أبداً قصور ولا أحاسيس راقية ولا ملذات شاملة ولا خيالات يمكن أن تتحقق؟ حتى العالم الماركسي يجب أن تكون لديه مآربه وغاياته وأهدافه ويجب أن يتطور بحيث يصبح لديه الحس المرهف بمعنى أن يحقق نوعا من البهجة الأسمى والسعادة الأكثر غنى للآدميين الواقعين في نطاقه.

من هنا بدأت أدرك أنانية هذا الرجل الانعزالي، وأن العمى الذي يعيش فيه كان بمثابة تكلف واصطناع ولو أن تكلفه كان بمثابة سذاجة، وأدركت أنه كان رجلاً أصيلاً ضاع في عالم وغير أصيل وصممت على الإبقاء على أصالته، ولكن في يوم ما بعدئذ..

ولم يتم كونشيس عبارته على الإطلاق، فعلى نحو فجائي دوى بوق من طيات الظلام من جهة الشرق.. تجمدت مروحة ليلى وتركزت عيناها على كونشيس، الذي كان يحملق في اتجاه البحر كما لو كان الصوت قد حولها إلى حجر جامد... وبينما أرقبه شاهدت عينيه تنغلقان كما لو كان يصلي في صمت، لكن الصلاة كانت أمراً دخيلاً على وجهه.

حطم البوق صمت الليل المتوتر مرة أخرى، ثلاث نغمات أحدثت أصداء خافتة مترامية من سفح تل منحدر في الداخل.

قلت لليلى: ما هذا؟

نظرت في عيني للحظات في لمحات خفيفة من الشك كأن الشكوك

تراودها، إنني أعرف طبيعة ذلك الصوت، ومرة أخرى دوى البوق ولكن في صوت أعلى بحيث أصبح لا يمكنني أن أشاهد أي شيء حتى ولو لم يكن الوقت بالليل، كان كونشيس مازال جالساً بوجهه الغافل عما يدور حوله.

ووقفت ليلى ومدت لي إحدى يديها: تعال.

تركتها تقودني إلى المكان الذي سبق أن وقفنا فيه من قبل عند الحافة الشرقية من الفراندة، وراحت تحملق لأسفل بين الأشجار فنظرت إلى بروفيل وجهها: يبدو أن شخصاً ما يقوم بمزج استعارتين غير متوافقتين في عبارة واحدة، قلت: أتمنى لو معي جهاز كمبيوتر، ولا شيء غير ذلك.

ـ كم أنت سخيف يا سيد أورفي، وبدأت الأمور تتضح، فمن مكان ما يقع ما بين الأكواخ ترامى شعاع من الضوء، وكان ينبعث من مشعل كهربائي صغير، ظهر هيكل لرجل عارٍ مثل تمثال من الرخام، كان قريباً للغاية مني مما جعلني أتمكن من مشاهدة أعضائه بوضوح، كان طويل القامة ومتين البنيان مما جعله يصلح للقيام بدور أبوللو، كانت عيناه واسعين، يقف في مواجهتنا بلا حراك، اعترتني الدهشة لأن بشرته كانت شديدة البياض بل تكاد تكون فوسفورية كأن جسده قد طلي بالدهان مثل وجهه..

نظرت إلى ورائي، كان كونشيس لا يزال جالساً على النحو الذي كان عليه من قبل... ثم نظرت إلى ليلى التي كانت ترقب الهيكل دون أن تظهر تعبيرات معينة على وجهها ولو أنها كانت ترقب في نوع من الترقب والانتظار والتيقظ.. بدت كأنها قد سبق أن شاهدت هذه البروفة من قبل فأصبحت شغوفة لأن تشاهد العرض الكامل للمشهد، مما أسكت في داخلي أية رغبة في المزاح، وأدركت أنني لست الشاب الوحيد في بوراني.

تساءلت: من يكون هو؟

ـ إنه أخي.

وقبل أن أتمكن من توجيه المزيد من الأسئلة إليها، أشارت إلى ما وراء الكوخ، لقد جاء هيكل ضوئي خفيف مهرول وخارج من النفق المظلم، حيث المدقّ المؤدي إلى المنزل ويدأ يبزغ من بين الأشجار وتحرك ضوء المشعل نحوها، لقد كانت فتاة، إنها أيضاً عارية اللهم باستثناء صندل قديم مربوط في ساقيها، لم تكن عارية تماماً ـ كان شعرها ممشطاً إلى الوراء في أسلوب كلاسيكي، وكانت بشرتها تبدو بيضاء للغاية وعلى نحو غير طبيعي مثل بشرة أبوللو، إنها تهرول بسرعة كبيرة حتى إنني لم أتمكن من مشاهدة ملامحها على وجه الدقة، ألقت نظرة وراءها لدى مجيئها في اتجاهنا: لقد كان هناك من يطاردها.

جرت في اتجاه البحر ما بين المكان الذي يقف فيه أبوللو والمكان الذي أقف فيه أنا وليلى بالفراندة، وبعدئذ ظهر هيكل ثالث خلفها، كان رجلاً يجري خارجاً من بين الأشجار ثم منطلقاً على المدق أشبه بساطير إله الغابات، جذعه العاري داكن، كان يجري محاولاً اللحاق بالفتاة، تلقيت صدمة أخرى، إذ كان يجري وراءها في شبق وقد انتصبت أعضاؤه، وشعرت بعدم التيقن، ورمقت الفتاة الموجودة إلى جواري بنظرة سريعة، وخيل لي أنني شاهدت ابتسامة خفيفة على وجهها وهي ابتسامة لم أشعر بالارتياح لها، كانت ابتسامة بعيدة عن «العالم الآخر» الذي لا تزال ترتدي ملابسه.

ثم نظرت إلى الحورية وإلى ظهرها الأبيض وشعرها الأشعث وساقيها اللتين ظهر عليها الإرهاق، غاصت بين الأشجار هابطة في اتجاه البحر، ثم اختفت ثم ظهرت فجأة في نفس المكان الذي اختفت فيه الفتاة الأولى امرأة في ثوب إغريقي ذات دروع فضية بما يتناقض تماماً مع الكتفين والذراعين العاريين، كانت بشرتها أيضاً شديدة البياض

على نحو غير عادي، والعينان تبدوان طويلتين بسبب الكحل الأسود، وكان الشعر ملقي للخلف على نحو كلاسيكي ولكن في شيء من فساد الأخلاق، وكانت تحمل على كتفها سهما فضياً وتمسك بيدها اليسرى قوساً فضياً، وكان هناك شيء ما في وقفتها وكذلك في الوجه المشوه يبعث على الخوف الحقيقي، وقفت هنالك للحظات عديدة في برود وغضب، وقد اعترضت الطريق على نحو منذ بالشؤم، ثم مدت يدها الشاغرة وانتزعت سهماً من جعبة السهام الشعاع إلى الساطير الواقع تحت الأسر، كان يقف في خوف وقد ألقى بذراعيه إلى الخلف، مدت قوسها إلى أقصى درجة.. وانطلق السهم الذي اختفى بين طيات الظلام، عاد الشعاع إلى الساطير الذي أمسك بالسهم المغروس في قلبه ثم سقط في بطء تدريجي على ركبتيه وترنح للحظات ثم ارتمى بين الأحجار والشجيرات، وخلف الشعاع الأصلي يقف أبوللو هادئاً في غير حراك، ثم بدأت الآلهة في المشي، سارت بخطوات سريعة مثل خطوات امرأة تقوم بأعمال الصيد والقنص وقد أمسكت بقوسها الفضي في يد واحدة ملقاة إلى جوارها، وقف الاثنان في مواجهتنا للحظات ثم رفع كل منهما يده الشاغرة وقد انحنت راحة اليد إلى الوراء وقدما التحية لنا في وقار شديد، كانت تلك حركة أخرى لها تأثيرها الفعال، إنها وداع الخالدين.

تحركت ليلى كأنها تود أن تحول انتباهي عن هذا الجانب من الأمور ـ استأذنك للحظات قصيرة.. ثم سارت في اتجاه المكان الذي يجلس فيه كونشيس فانحنت عليه وهمست له بكلام، ثم نظرت إلى الوراء في اتجاه الشرق.. وتحرك هيكل أسود في اتجاه الأشجار: إنه الساطير، وترامى صوت ضئيل من صف الأعمدة أسفلنا، فقد اصطدم شخص ما بطريق المصادفة في كرسي مما جعل أرجل الكرسي تحدث صوتاً كالصرير، أربعة ممثلين آخرين واثنان من الناس يقومون بمهام الإضاءة.. والجوانب الفنية والميكانيكية الخاصة بتصاعد هذا الموقف وكذلك

الأحداث الأخرى بدأت تبدو خارقة للطبيعة مثل الأحداث الحقيقية الخارقة للطبيعة، حاولت أن أتخيل العلاقة بين العجوز الذي قابلته على الطريق بجوار الفندق وبين المشهد الذي رأيته تواً، واعتقدت أنني فهمت التلميح إلى شخصية دوكانز، فقد كان يتحدث عن نفسه وعني، كان من الواضح أنها محاولة من نوع «الاستغاثة المخزية» الواردة في كتاب «المسرحيات التنكرية الفرنسية»، وعند ذلك المستوى كان يمكنني أن أسخر من أي محاولة لبعث الهراء الخارق للطبيعة، ولكني بدأت أشم المزيد من الانجراف الكريه في هذه اللعبة المسلية التي يقوم بها، الأعضاء التناسلية والعري الجسدي والفتاة العارية.. وخطر على ذهني أنه سيطلب مني القيام بأداء هذه الأدوار التمثيلية وأن الذي شاهدته ما هو إلاً تجربة استعداداً للخوض في مغامرة أكثر إظلاماً يتم إعدادي لها، شعرت بالحقد الأعمى على كل الذين ظهروا من اللامكان لينتهكوا حرمة الأراضي «الخاصة بي».

أخيراً انتصبت ليلى، ووقفت معتدلة بعد أن كانت تقف في انحناء بجوار كونشيس وتحدثه في صوت خافت، كان هناك حب استطلاع لأن تعرف رد فعلي إزاء هذه الأحداث الأخيرة، فابتسمت لها: لقد تأثرت ولكني لم أستغفل...

ابتسمت وقالت لي: عليَّ أن أنصرف الآن يا سيد أورفي..

- بلغي تهنئتي لأصدقائك على هذا الأداء التمثيلي الذي قاموا به، فتظاهرت بأنها فوجئت لكنها لم ترد عليَّ، وظهرت في عينيها ابتسامة لا يكاد يدركها المرء، ثم عضت شفتيها في رقة شديدة: متى سأراك ثانية؟

رفرفت عينيها نحو كونشيس دون أن تحرك رأسها، فأدركت أنهما مشتركان ضدي في تواطؤ تآمري.

ـ ذلك يتوقف على الوقت الذي يتم فيه إيقاظي مرة أخرى من نومي السحيق الممعن في القدم.

ـ آمل أن يكون ذلك في وقت قريب للغاية.

ورفعت مروحتها إلى شفتيها مثلما فعلت من قبل مستخدمة ريشة آله الفلوت، ثم أشارت في سرية خلسة إلى الوراء نحو كونشيس ثم اختفت في داخل المنزل.

جلست على الكرسي وظل كونشيس يحملق فيَّ، فكان لزاماً عليَّ أن أتكلم، كنت سأشعر بالمزيد من المتعة لدى رؤيتي لهذا المشهد لو كنت أعرف المعنى الذي يمكن أن يستخلص منه.

سر من سماع كلامي هذا، واضطجع إلى الوراء في جلسته وابتسم: يا عزيزي نيقولاس لقد ظل الإنسان يقول نفس كلامك هذا على مدى العشرة آلاف سنة الأخيرة، والصفة المشتركة بين جميع الآلهة الذين وجه الإنسان لهم هذا التساؤل هي أنهم جميعاً لم يردوا على ذلك التساؤل، يجب عليك ألا تعتقد أنني أعرف إجابة كل سؤال.

وحملقت في القناع الخفيف الذي يغطي وجهه في تلك اللحظة وقلت في هدوء: ولماذا أنا بالذات؟

أشار لأعلى نحو السماء: أعتقد أنه علينا أن نتفق في الرأي معاً على أن أي إله خلق كل ذلك الكون من أجل أن يعطينا درساً في اللاهوت.

أنت لك مطلق الحرية التامة في العودة إلى مدرستك إذا كنت ترغب في ذلك، وربما يكون هذا أكثر حكمة.

فتشت في عينيه فعثرت فيهما على شيء ما لم أستطع تصديقه، أدركت في شيء من الغموض أن جهلي وطبيعة تكويني ورذائلي وفضائلي كانت على نحو ما ضرورية بالنسبة لمسرحيته التنكرية،

وأحضر زجاجة البراندي من جوار المصباح وصب لي كأساً وصب لنفسه كمية ضئيلة ورفع كأسه في مواجهتي وهو ما زال واقفاً.

ـ فلنشرب معاً بمناسبة تعارفنا على نحو أفضل يا نيقولاس.

شربت وابتسمت ابتسامة مليئة بالحذر، وقلت: أنت لم تتم قصتك.

ـ حسناً كنت بصدد.. ولكن هذا لا يهم الآن، هيا بنا نقفز إلى الذروة.. في كل مرة أشاهد فيها صورة فوتوغرافية لجماعة من الفلاحين الصينيين أو لموكب عسكري أو أشاهد فيها جريدة رخيصة مليئة بالكلام الفارغ والأكاذيب أو أشاهد بها النفايات وسقط المتاع الذي تقوم ببيعه المحلات الكبيرة، وفي كل مرة أشاهد فيها أهوال السلام الذي تفرضه أمريكا على الناس أو أهوال الحضارات المسئولة عن ضعف القدرات وانخفاض الذكاء قرناً وراء قرن بسبب الانفجار السكاني وتفشي الأمية، فإنني أشاهد في نفس الوقت دوكانز، وفي كل مرة أشاهد فيها نقصاناً في المكان ونقصاناً في الفضائل الأخلاقية أفكر في دوكانز، في يوم ما بعد آلاف السنين اعتباراً من الآن ربما سيكون هنالك عالم لا يوجد به سوى قصور فاخرة كهذه وبدلاً من أن يبزغ الناس من تربة اللامساواة والاستغلال البشع فإنهم سينشأون على التطور الذي يتم التحكم فيه وتنظيمه مثل عالم دوكانز المصغر في قصره.

في يوم من الأيام قام أحد الخدم التابعين له بإدخال فتاة إلى القصر، فسمع دوكانز صوت امرأة تضحك، فأرسل شخصاً لكي يعرف من الذي تجرأ وأحضر امرأة إلى عالمه الخاص، واتضح أن الذي أحضر المرأة هو أحد السائقين، فتم فصله من وظيفته، وبعد ذلك بوقت قصير سافر دوكانز في زيارة لإيطاليا.

وذات ليلة تصاعدت رائحة الدخان في القصر فشم رئيس العمال الرائحة وذهب لكي يلقي نظرة، فاكتشفت أن جناحاً كاملاً بالإضافة إلى

الجزء المركزي الأوسط من القصر قد شبت فيه النيران، وكان معظم الخدم والعمال موجودين في منازلهم بالقرى المجاورة وذلك بسبب غياب سيدهم عن القصر، وبدأ العدد القليل من الخدم النائمين بالقصر في ملء جرادل بالماء وحملها إلى كتل النيران، وتم إجراء محاولة للاتصال تليفونياً بعربات الإطفاء كان الوقت الملائم للقضاء على النيران قد فات، ولم تترك النيران سوى أجزاء من الحوائط.

كنت في رحلة بالخارج في ذلك الوقت، وتم إيقاظ دوكانز من نومه في الفجر حيث كان نائماً في فندقه في فلورانسا، فعاد إلى منزله على الفور، وقال الناس إنه بمجرد أن شاهد آثار النيران عاد إلى باريس.. وبعد مرور يومين عثر عليه ميتاً في غرفته في باريس عقب تناوله كمية كبيرة من العقاقير.. وقد أخبرني خادمه الخصوصي أنه ظهر على وجهه وهو ميت نوع من السخرية.

عدت إلى فرنسا بعد مرور شهر على جنازته، ولم أعرف ما حدث إلاَّ بعد عودتي، وذات يوم طلب مني أن أذهب لمقابلة المحامين الخاصين به، لقد ترك لي كل ثروته، كنت في تلك الأيام مجرد شاب صغير السن يعتمد على والدته في النفقات، لم أصدق في بادئ الأمر أن كل هذه الثروة الهائلة لي.

وعدتك بأن أقول لك الكلمات التي تركها دوكانز أيضاً لي مع ثروته ومع ذكرياته، لقد ترك عبارتين باللغة اللاتينية: ما الذي تشربه؟ الماء أم الموجة؟ هل هو شرب الموجة؟

ـ نحن جميعاً نشرب كلا منهما.

رحت أفكر.. ولكني لم أستطع أن أعرف أيهما كنت أشرب.. ظللت منتظراً، اتجهت إلى النافذة ثم استلقيت ممدداً على السرير.. ثم نهضت

واتجهت إلى النافذة مرة أخرى، وفي نهاية الأمر بدأت في قراءة الكتيبين الصغيرين، كلاهما كان مكتوباً باللغة الفرنسية.

جمعية العقل والحكمة

نحن أطباء وطلبة كليات الطب بجامعات فرنسا نعلن أننا نؤمن بالآتي:

ـ أن الإنسان لا يمكنه أن يحقق التقدم إلاَّ باستخدام العقل.

ـ أن المهمة الأولى للعلم هي القضاء على اللاعقلانية في أي شكل من أشكالها في الشئون العامة وفي الشئون الدولية.

ـ المجالات الوحيدة للعقل هي المجالات البشرية، وأية مجالات أخرى هي دلائل خاصة باللاعقلانية.

ـ لا يمكن للعالم أن يكون أفضل من الدول التي تتألف منه، ولا يمكن للدول أن تكون أفضل من الأفراد الذين تتكون منهم الدول.

يتم الحصول على العضوية في جمعية العقل والحكمة لدى التوقيع على التعليمات والتعهدات الآتية:

ـ أتعهد بأن أعطي١/ ١٠ من دخلي السنوي لجمعية العقل والحكمة من أجل العمل على تدعيم أهدافها.

ـ أتعهد باستخدام العقل في جميع الأوقات وفي جميع الأماكن وذلك في حياتي الشخصية.

أيها الإخوة والأخوات في الإنسانية: نحن نناشدكم أن تشاركوا في الصراع الدائر ضد قوى اللاعقلانية، وأن تساعدونا لكي نقف جميعاً في حزم ضد المؤمرات التي يحكيها القساوسة ورجال السياسة، ولسوف تصبح جمعيتنا في يوم ما أعظم جمعية في تاريخ الجنس البشري، انضموا إلينا الآن، وقفوا صامدين.

بدا النص والتعليق في ضوء ما حدث منذ عام ١٩٢٠ وكأن الأمر مثير للشفقة، فقد سئمنا من المغالاة في العقلانية، فالكلمات فقدت قوتها سواء أكانت لصالح الخير أم لصالح الشر.

رحت أستمع إلى الليل خارج المنزل، لا يوجد سوى الصمت المطبق، التفت إلى الكتيب الثاني، أدركت من ورقه المائل إلى الصفرة ومن طرازه القديم في الطباعة أنه من الآثار المتبقية من فترة ما قبل الحرب.

عن الاتصال مع العوالم الأخرى

لكي يصل الإنسان إلى أقرب النجوم فإنه سيضطر لأن يسافر على مدى ملايين السنين بسرعة الضوء، وحتى لو كانت لدينا الوسيلة التي تعيننا على السفر بسرعة الضوء فإننا لا يمكننا أن نذهب إلى أي منطقة أخرى مسكونة في الكون والعودة منها في أية فترة حياة واحدة للفرد.. بل لا يمكننا أن نجري اتصالاتنا من خلال استخدام وسائل علمية أخرى مثل الموجات اللاسلكية، فنحن منعزلون للأبد ـ أو هكذا يبدو الأمر لنا ـ في فقاعة الوقت الضئيلة الخاصة بنا.

يا لتفاهة الضجة التي نثيرها حول طائراتنا، ويا لغباء ذلك الإنتاج من أدب الخيال العلمي الذي كتبه أدباء مثل فيرن وويلز عن الكائنات العجيبة التي تسكن كواكب أخرى، لكن مما لا شك فيه أن هناك كواكب أخرى تدور حول نجوم أخرى، وأنه يوجد بالكون مخلوقات متورطة مثلنا ولديها نفس الآمال الموجودة، فهل محكوم علينا للأبد ألا نتمكن من الاتصال بهم.

لا توجد سوى وسيلة واحدة للاتصال غير معتمدة على الوقت، والبعض لا يؤمن بوجود هذه الوسيلة، ولكن هناك العديد من حالات نقل الأفكار في نفس اللحظة التي يتم فيها إدراكها ويشهد على صحة

ذلك.. أشخاص مشهود لهم بالأمانة العلمية، وهذه الظاهرة شائعة للغاية ومتعارف عليها بين حضارات بدائية مثل حضارة اللاب حتى إنها تستخدم كوسيلة من وسائل الراحة في الحياة اليومية مثلما تستخدم نحن التليفون أو التلغراف في حياتنا اليومية، وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي ستكون لدينا دائماً من أجل الاتصال بالجنس البشري الموجود في عوالم أخرى..

والشخص الذي قام بإعداد هذا الكتيب غير مهتم بالروحانيات، ولقد أمضى بضعة سنوات في دراسة ظاهرة التخاطر وغيرها من الظواهر المماثلة بالإضافة للعلوم الطبية العادية، وهو يشير في كتيبه إلى أن هناك عوالم أكثر تحضراً من عالمنا بكثير تحاول الاتصال بنا، وأن مجموعة كاملة من السلوك الذهني المفيد والنبيل والذي يظهر في مجتمعاتنا على هيئة الضمير الحسن والأعمال ذات الطابع المتعاطف مع الإنسانية والإلهامات الفنية والعبقريات العلمية هي في الواقع أمور ناجمة عن شبه الفهم للرسائل التخاطرية الواردة إلينا من عوالم أخرى.

لم يسبق لم أن مررت في حياتي بتجربة تخاطرية، وأعتقد أنه من غير المتوقع أن أبدأ مع كونشيس، فإذا كان هناك رجال أفاضل محبون للخير ومنتمون لعوالم أخرى يقومون بتزويدي بالأمور الحسنة، فإنهم يفعلون ذلك ليس من أجلي كفرد ولكن من أجل أفراد الجيل الذي ولدت فيه، بدأت أفهم السبب الذي دعا كونشيس لأن يقول لي ذات اليوم أنني إنسان حساس للمؤثرات الخارقة للطبيعة، فقد كان هذا بمثابة إجراء تمهيدي من أجل إعدادي للمشهد الأكثر غرابة والذي حدث في المسرحية التنكرية في تلك الليلة التالية.. «التجربة».

لقد أثارت المسرحية التنكرية إعجابي الشديد ومع ذلك أثارت في داخلي القلق والتوتر مثل قصيدة غامضة لأنها لم تكن غامضة في حد ذاتها ولكنها غامضة من حيث السبب الذي دعا إلى كتابتها.. وفي المساء

خطرت على ذهني نظرية جديدة وهي: أن كونشيس يحاول أن يبعث الحياة من جديد في عالمه الخاص ولسبب ما تم الإلقاء بي في هذا الخضم على أساس أنني بمثابة ذاته أو الشخص الأصغر سناً..

في تلك الأثناء كانت المسرحية التنكرية قد سببت لي مشاعر الإحباط.. وكان الصمت مازال مهيمناً على المكان، نظرت إلى ساعة يدي، لقد مرت نصف ساعة تقريباً.. لم أستطع النوم، وبعد أن انتابني شيء من التردد تسللت هابطاً على السلم إلى غرفة الموسيقى ومنها إلى الخارج تحت صف الأعمدة، سرت بين الأشجار لمسافة قصيرة ثم قفلت راجعاً وهبطت على المنحدر في اتجاه البلاج.. كانت أمواج البحر تتسابق في بطء ونعومة جاذبة معها القليل من الحصى من وقت لآخر مما جعلها تصدر أصواتاً سريعة وخفيفة رغم أنه لم تكن توجد هناك رياح.. كانت الصخور والأشجار والزورق الصغير غارقة في ضوء النجوم وفي ملايين الأفكار المترامية من عوالم أخرى، وكان البحر الجنوبي الغامض اللامع تحت جنح الظلام في حالة انتظار وترقب، أشعلت سيجارة ثم شرعت في التسلق عائداً إلى المنزل المليء بالأمور غير السارة وإلى غرفة نومي.

(٢٩)

تناولت فطوري بمفردي مرة أخرى، كان يوماً مليئاً بالرياح والسماء زرقاء صافية كالمعتاد، نزلت إلى الشاطئ، لم يكن القارب هناك، فأكد لي ذلك نظريتي التي تشكلت تدريجياً في داخل ذهني عن «الزوار» فهم في الغالب كانوا موجودين هنالك في يخت في أحد الخلجان الصغيرة المهجورة أو ربما قد رسوا بين مجموعة الجزر الواقعة على مسافة خمسة أميال تقريباً إلى جهة الشرق، وسبحت في الماء خارجاً عن نطاق الخليج الصغير لكي أعرف ما إذا كان كونشيس في الفراندة، ولكن

الفراندة كانت شاغرة، استلقيت على ظهري فوق الماء لبعض الوقت وأنا أشعر بتلاطم الموجات الباردة من الماء على وجهي الدافئ بفعل سخونة الشمس ورحت أفكر في ليلى، ثم نظرت في اتجاه البلاج، كانت ليلى واقفة على الشاطئ، فبادرت إلى العوم في اتجاه الشاطئ، بأسرع ما يمكن، وتحركت ليلى خطوات قليلة ثم راحت ترقبني، وأخيراً وقفت أنا على قدمي في الماء لاهثا بينما الماء ينساب مني، نظرت إليها، إنها ترتدي فستاناً صيفيا يرجع إلى الموضة التي كانت سائدة في أثناء الحرب العالمية الأولى، ممسكة في يدها بشمسية ذات أهداب زخرفية مصنوعة من نفس قماش فستانها، فأمسكت الرياح بفستانها وضغطته لكي يلتصق على تفاصيل جسدها.. أظهرت مسحة من السخرية، السخرية من نفسها والسخرية مني بينما كنت واقفاً وقد انغمست في الماء حتى الركبتين، ولست أدري السبب في هبوط الصمت الشديد علينا، ولماذا حبسنا داخل نظرات وقورة، من المؤكد أن نظراتي إليها كانت مليئة بالدهشة؛ إذ كانت تبدو صغيرة في السن وداعرة ورعديدة، ابتسمت ابتسامة مليئة بالخجل لكنها في نفس الوقت ابتسامة عابثة، قلت لها:

ـ هل قام نبتون ـ إله البحر ـ بقطع لسانك؟

ـ «أنت تبدو فاتنا وباهراً مثل الرسام رينوار».

وابتعدت قليلاً عني ولفت مظلتها وأدارتها، وقمت بتجفيف ظهري بالفوطة ولحقت بها، فابتسمت ثم جلست على صخرة منبسطة تغمرها ظلال شجرة صنوبر، أغلقت مظلتها وأشارت بها إلى حجر موجود إلى جوار الصخرة لكي أجلس عليه تحت أشعة الشمس، ولكنني وضعت الفوطة على الصخرة لكي تجف ثم جلست جاثماً إلى جوارها، الفم الرطب والزغب فوق الساعدين والندبة الغائرة في معصم يدها اليسرى

وشعرها المنساب، إن الفتاة الشابة الوقورة التي تجلت في الليلة السابقة قد اختفت تماماً.

فقلت: أنت أجمل عفريتة شاهدتها في حياتي.

لقد كنت أعني ما قلته تماماً، ولكنني كنت أهدف في نفس الوقت إلى أن أسبب لها بعض الخجل ولكنها لم تشعر، فقد زادت من اتساع ابتسامتها.

سألتها: من هن هؤلاء الفتيات الأخريات؟

ـ أي فتيات أخريات؟

دعك من هذا التظاهر وأجيبي على تساؤلي ولا داعي للمزاح.

ـ أرجوك ألا تفسد الأمور.

أردت أن أدفع بشعرها إلى الخلف مرة أخرى أو أهزها في قوة ولم أعرف على وجه الدقة أي الرغبتين أريد، وفي النهاية اكتفيت بالحملقة في البحر:

ـ أنت تحرصين على الإيحاء بأنك تلعبين هذه اللعبة الزائفة من أجل أن تدخلي السرور على العجوز.. فإذا كنت تريدين لي الانضمام إلى هذه اللعبة فإنه يحسن بك أن توضحي لي السبب.

أصابها التردد واعتقدت للحظات أنني قد نجحت في اختراقها..

ـ أعطني يدك، لسوف أقوم بقراءة بختك... وأرجو أن تجلس قريباً مني بعض الشيء.

أمسكت بيدي في رفق ثم راحت تتبع خطوط الكف، تمكنت من مشاهدة شكل ثدييها عند الجزء الأسفل من فتحة ثوبها.. بشرة بيضاء شاحبة، وأوحت لي أن هذه المناورة الجنسية المبتذلة تعتبر جريئة بعض الشيء وفيها تحدٍّ للثديين، جرى طرف إصبعها في براءة، ثم بدأت

تقرأ: لسوف تعيش حياة مثيرة، ترزق بثلاثة أطفال، وستموت عندما تبلغ سن الأربعين تقريباً، عقلك أقوى من قلبك، وعقلك يخون قلبك، أشاهد خيانات عديدة في حياتك، بل أنت في بعض الأحيان تخون نفسك، وأحياناً أخرى تخون الذين يحبونك.

سألتها: هل يمكنني أن أقرأ بختك؟

ـ إنني لم أكمل كلامي.. فأنت لن تصبح غنياً ويجب أن تحترس من الكلاب السوداء والمشروبات الروحية والنساء العجائز.. ولسوف تضاجع الكثير من الفتيات ولكنك لن تحب سوى فتاة واحدة حباً صادقاً ـ وهي الفتاة التي ستتزوجها... وستكون سعيداً معها للغاية.

ـ سعيد للغاية على الرغم من أنني سأموت في سن الأربعين تقريباً.

ـ ربما السبب لأنك ستموت في سن الأربعين، فهذا هو المكان الذي ستموت عنده تقريباً وبعد الموت يتعاظم خط السعادة ويصبح قوياً للغاية.

ثم أطلقت يدي، وطوت يديها في حجرها:

ـ هل يمكن لي أقرأ كفك؟

فمدت يدها.. وتظاهرت بأنني أقرأ كفها ورحت أتتبع نفس الخطوط في كفها. وحاولت قراءة كفها في جدية تامة على طريقة شرلوك هولمز ـ كانت يداها ناعمتين للغاية ـ فجذبت يدها بسرعة وراحت تتأمل يدها وهي مقطبة الجبين وتلاطمت خصلة من شعرها على خدها وداعبت الرياح ملابسها مما جعلها تبدو أصغر سناً، وتذكرت الكلام الذي قاله كونشيس عن ليلى الأصلية، والفتاة الموجودة إلى جواري كانت تبذل جهداً شجاعاً أو ربما كان توزيع الأدوار على الممثلين قد سبق عملية تأليف الرواية، ولكن كل مهارات التمثيل في العالم لا يمكنها أن تنجز هذا الدور الحالي، ثم أمالت راحة يدها نحوي مرة أخرى.

ـ وماذا عن الموت؟

ـ أنت تنسين دورك، فأنت ميتة بالفعل الآن.

خيل لي أنني سمعت نغمة أسف، شيئاً ما يتسم بالتمرد الغامض، إشارة إلى السنة الحقيقية التي كانت فيها مترامية من خلف القناع الذي تتنكر وراءه.. فرحت أتفحص وجهها:

ـ بمعنى؟

ـ إنه يسمع كل شيء نقوله، فهو يعرف، «هل تقصين عليه كل شيء؟ وتميطين اللثام عن كل شيء؟» وبدت نبرة عدم التصديق في صوتي، فأومأت برأسها، وأدركت أنها لم تكن تفشي الأمور على الإطلاق، فسألتها:

ـ «أيتم ذلك عن طريق التخاطر».

ـ «عن طريق التليباثي وأيضاً عن طريق...»، ثم نظرت لأسفل.

ـ «وعن طريق ماذا؟»

ـ «لا يمكنني أن أقول المزيد في هذا الشأن»..

التقطت مظلتها وفتحتها كما لو كانت تعتزم الانصراف.. كان بالمظلة شرابات سوداء صغيرة تتدلى من نهايات الضلوع.

ـ هل أنت عشيقته؟

نهضت واقفة وشرعت في المشي بسرعة في اتجاه المدق الذي يؤدي إلى المنزل، فجريت وراءها وسددت عليها الطريق، نظرت بعينيها لأسفل ثم رفعت بصرها ونظرت إليَّ في نظرات مليئة بالتأنيب، وكانت هناك مسحة من العشق والغرام في صوتها وهي تقول لي:

ـ ولماذا يجب عليك أن تعرف أين أنت؟ ألم تسمع من قبل عن التصور والتخيل؟

ـ هذا كلام جميل، ولكن ذلك لا يأتي بالنتيجة المرجوة.

فحملقت في برود في وجهي المبتسم ثم نظرت لأسفل مرة أخرى.

ـ والآن فأنا أعرف السبب في عدم استطاعتك أن تكتب شعراً جيداً.

وجاء عليَّ الدور لأن أشعر بالصدمة، فقد سبق لي أن عبرت عن فشل آمالي الأدبية لكونشيس، واحسرتاه! من المؤسف أنني لم أفقد ذراعاً حيث يمكنكم جميعاً أن تسخروا من ذلك أيضاً.

فشعرت بالغيظ مما جعلها تنظر نظرة ناجمة عن ذاتها الحقيقية: نظرة سريعة ومباشرة حيث التفتت قليلاً برأسها:

ـ ما كان ينبغي لي أن أقول ذلك، أعتذر لك، فلست عشيقته.

مددت رقبتي حول حافة المظلة، فوجدت أن تعبيرات وجهها تتناقض مع الكلام الذي قالته وأدركت أنها تحاول إخفاء شعورها بالتسلية، وانزلقت عيناها لكي تتقابل مع عيني ثم أومأت تجاه رصيف الميناء سألت: هل سنذهب إلى هناك للنزهة؟

ـ إذا كان ذلك وارداً في النص المكتوب للرواية، استدارت لكي تواجهني.. ورفعت إصبعاً وقالت: ولكن مادام أنه من الواضح أننا غير قادرين على التكلم بنفس اللغة فإننا سنكتفي بالسير معاً.

كان هناك المزيد من الرياح القوية عند رصيف الميناء.. واستمرت متاعبها مع شعرها المتناثر مع شدة الهواء: أمسكت بمظلتها المغلقة نيابة عنها وحاولت هي السيطرة على خصلات شعرها العابثة، وتغيرت حالتها النفسية تماماً، إذ انخرطت في ضحكات متواصلة وراحت تتقافز مرحاً وأمسكت بذراعي ولكنها كانت مستغرقة في اللعب مع الرياح والبحر، تلميذة جميلة ولعوب في ثوب خليع.

ثم جاء صوتِ الجرس مترامياً من المنزل، فقالت في وقار ممزوج بالسخرية: الجرس يناديك.

نظرت لأعلى بين الأشجار: لا أستطيع أن أعرف السبب في ذلك.

ـ عليك أن تذهب وحدك فالجرس لم يدق من أجلي أنا...

ـ أظن أنه ينبغي لنا أن نظهر أننا صديقان مرة أخرى.

كانت واقفة بالقرب مني وقد أمسكت بشعرها لكي تمنعه من التطاير ونظرت لي نظرة متجهمة، ثم قالت: يا سيد أورفي، هل أنت بصدد أن تطلب مني أن أرتكب جريمة التقبيل؟

وكان ذلك أمراً لطيفاً، فتاة لعوب تنتمي لعام ١٩١٥ تسخر من نكتة فيكتورية واهنة، لمست خدها بشفتي حتى تراجعت إلى الوراء، نهضت واقفاً ورحت أرقب رأسها المنحنية، ثم ناولتها شمسيتها فانطلقت في اتجاه المنزل، ورحت أصعد على المدقّ وأنا أنظر خلفي من وقت لآخر ولوَّحت لي بيدها مرتين وهي واقفة عند رصيف الميناء وبدأت أشق طريقي بين الأشجار في اتجاه المنزل، شاهدت ماريا واقفة عند باب غرفة الموسيقى بجوار الجرس، ولكنني لم أكد أسير خطوتين حتى انشق العالم إلى نصفين، أو هكذا بدا لي الأمر.

ظهر هيكل في الفراندة، وكان ذلك الهيكل في مواجهتي وفي مكان أعلى مني، لقد كان ذلك الهيكل هو: ليلى، لا يمكن أن تكون هي ليلى، ولكنها كانت هي ليلى، نفس الشعر الذي تتقاذفه الرياح ونفس الفستان ونفس الشمسية ونفس القوام ونفس الوجه، تطابق في كل شيء، وكانت تحملق في اتجاه من فوق رأسي، مع تجاهلي تجاهلاً تاماً.

كانت صدمة متوحشة ورهيبة ومليئة بالتشويش واقتلاع الجذور، ومع ذلك أدركت في خلال الثواني القليلة الأولى أنها ليست نفس الفتاة رغم أنه كان من الواضح أنه يراد لي أن أعتقد أن هذه الفتاة هي نفس الفتاة التي تركتها تواً عند الشاطئ، ولكنها كانت شبيهة بفتاة الشاطئ تماماً

حتى إنهما لا يمكن إلاّ أن تكونا توأم.. لم يكن لديّ متسع من الوقت للتفكير واستجماع قواي حيث ظهر هيكل آخر بجوار ليلى الموجودة بالفراندة.

كان ذلك الهيكل رجلاً طويلاً، وربما يكون «أبوللو» أو «روبرت فولكس» أو حتى ربما يكون «دوكانز».. لم أستطع أن أتبين هذا الهيكل في وضوح لأنه كان مرتدياً ملابس سوداء وملفوفاً في ضوء الشمس ومرتدياً أسوأ قناع تنكري شاهدته في حياتي: رأس ابن آوى هائلة سوداء اللون مع وجود أنف طويل للغاية وأذنين متجهين لأعلى، كانا يقفان هنالك، المالك والمملوك، الموت المتربص الوشيك الوقوع، كان هناك شيء بالغ الغرابة يتعلق بتشخيص للموت على نحو مبالغ فيه مثل الصور التي توجد في مجلات الرعب.

اعتقدت بأن هذا الزي الذي آراه لا يزيد عن كونه مجرد تحريف رديء للمسرحية التنكرية، وهذا لا يعني أنني لم أشعر بالخوف، كنت خائفاً بالفعل، ولكن خوفي كان ينبع من أن أي شيء يمكن أن يحدث، وأنه لا توجد هناك حدود في هذه المسرحية التنكرية ولا قوانين أو مواثيق اجتماعية عادية.

وقفت متجمداً في مكاني ثم سارت ماريا نحوي، وبعدئذ انسحب الهيكلان كما لو كانا يتجنبان إتاحة أي فرصة لمشاهدتهما، وجذبت ليلى للخلف بواسطة اليد السوداء الملقاة فوق كتفها، ونظرت ليلى لأسفل نحوي في آخر لحظة ولكن وجهها كان خالياً من أية تعبيرات.

بدأت أجري مهرولاً عائداً نحو المدق، وألقيت نظرة عبر كتفي، لقد اختفى الهيكلان الموجودان بالفراندة، فذهبت إلى الناصية التي يمكن من عندها النظر إلى الأماكن السفلية والتي سبق لي أن شاهدت عندها ليلى/ الشاطئية تلوح لي في أثناء وقوفها على الشاطئ، وكان رصيف الميناء مهجوراً فجريت لأبعد مكان يمكنني منه مشاهدة معظم الشاطئ

وانتظرت لعلي أشاهد ظهور الفستان الناصع ولكن دون جدوى، فخطر على ذهني أنها مختبئة بين الصخور.

كانت ماريا مازالت في انتظاري عند حافة الأعمدة، وكان قد انضم إليها رجل، إنه هرميز الحمار القليل الكلام، من المحتمل أن يكون هو نفس الرجل الذي ظهر مغلفاً في السواد فهو في نفس القامة لكنه كان يبدو هادئاً، قلت على وجه السرعة باللغة اليونانية: «لحظة واحدة لو سمحتما».

ثم اندفعت إلى داخل المنزل، صعدت على السلالم بسرعة إلى حجرة كونشيس ورحت أطرق على الباب، فلم أسمع رداً ثم أمسكت بمقبض الباب محاولاً فتحه ولكنه كان مغلقاً بالمفتاح، هبطت السلم وتوقفت داخل غرفة الموسيقى لكي أشعل سيجارة كي أتحكم في أعصابي، إلى أن ذهب السيد كونشيس؟

لم تكن ماريا تعرف المكان الذي ذهب إليه كونشيس، وأعطتني ورقتين مطويتين عليهما اسم نيقولاس إحداهما رسالة موجزة من كونشيس موجهة إليَّ:

عزيزي نيقولاس، إنني مضطر لأن أطلب أن تقضي وقتاً بهيجاً حتى هذا المساء، فهناك أعمال تتطلب وجودي بصفة عاجلة في نوبليا.

م. كونشيس..

أما الورقة الأخرى فكانت برقية لاسلكية، جاءت من أثينا في الليلة السابقة.

سأعود يوم الجمعة القادم، وسأكون غير مرتبطة بالعمل لمدة ثلاثة أيام، الساعة السادسة مساء بالمطار، أرجو أن تجيء.

آليسون

لقد أرسلت البرقية بعد ظهر يوم السبت، فنظرت إلى كل من ماريا وهرميز، لم تنم أعينهما عن أي شيء، كانا يرقباني في بساطة.

ـ متى أحضرت هذه البرقية يا هرميز؟

فقال هرميز: في وقت مبكر من ذلك الصباح، أخذتها من دكان سرانتو بولاس بالأمس.

ـ ولماذا لم تعطني هذه البرقية من قبل؟

هز كتفيه ونظر إلى ماريا فهزت ماريا كتفيها، وبدا عليهما وكأنهما يريدان القول إن الغلطة هي غلطة كونشيس.

وسألني هرميز عما إذا كنت أرغب في إرسال ردّ على البرقية حيث إنه كان بصدد العودة إلى القرية، فقلت له إنني لا أعتزم الردّ على البرقية.

فعدت إلى الشاطئ، وذهبت مباشرة إلى الكهف، لا توجد أية دلائل تشير إلى وجود ليلى، وبعد دقيقتين من البحث الدقيق اقتنعت أنها غير مختبئة على الشاطئ.

(٣٠)

جلست تحت شجرة الصنوبر ورحت أحملق في اتجاه البحر، حاولت ترتيب أفكاري، إنهما فتاتان توأم، ليلى ذات الندبة الغائرة في معظم يدها وليلى الأخرى التي شاهدتها بالفراندة، ركزت ذهني على ليلى التي عرفتها عن كثب: ليلى ذات الندبة الغائرة، لقد حاولت أن تبدو جذابة ومثيرة لانتباهي، فإذا كانت هي عشيقة كونشيس فأنا لا أستطيع أن أتخيل الأسباب التي دعته لأن يسمح لها بأن تفعل ذلك معي بل ويتعمد أن يتركنا بمفردنا معاً، اللهم إلاَّ إذا كان إنساناً منحرفاً أخلاقياً، لقد أعطتني انطباعاً أنها تؤدي الدور بناء على أوامر صادرة لها

من كونشيس، إلاَّ أن جميع أنواع اللعب التي تتم بين رجل وامرأة تتخذ دائماً الطابع الجنسي وهي هنا على الشاطئ قد شرعت في إيقاعي في حبها، بناء على أوامر العجوز، كان «أداؤها التمثيلي» أقرب إلى أداء الهواة منه إلى المحترفين، فكل شيء تحت السطح يشير إلى أنها فتاة تنتمي لعالم شبيه بعالمي، ففي كل نظرة هناك إيحاء بأنه يتم المزاح معي أدركت أن ذلك هو ما جذبني إليها أكثر من النواحي الجسدية، وعلى نحو ما كانت مغازلتها مليئة بالمهارة واللباقة الممتازة، وقصارى القول إنه إذا كان ذلك هو دورها في الفزورة فينبغي لي أن أقع في دائرة الإغراء على ممارسة الزنا.

وانزلقت أفكاري إلى آليسون، كانت برقيتها أشبه بحبة الرمل التي تدخل في عين المرء في الوقت الذي يريد فيه الرؤية في مزيد من الوضوح، وكان باستطاعي تخمين ما حدث، فالخطاب الذي أرسلته لها يوم الإثنين السابق قد وصلها على ما يبدو، ربما كانت تشعر بالملل، فأرسلت تلك البرقية، لقد جاءت البرقية مثل شيء دخيل متطفل: مثل تطفل الحقيقة في النشوة، لم يكن بمقدوري مغادرة الجزيرة، ولم يكن باستطاعتي إضاعة ثلاثة أيام في أثينا هباء وسدى، وقرأت البرقية التعيسة مرة أخرى، ولعل كونشيس قد قرأها، هذا معناه أن كونشيس يعرف أن دعوة موجهة إليَّ للذهاب إلى أثينا من الفتاة التي سبق أن حدثته عنها أو هي الفتاة التي ينبغي «أن أسبح متجهاً إليها»، وربما لذلك غادر الجزيرة وربما كان عليه أن يلغي بعض الترتيبات التي كان من المقرر اتخاذها في خلال إجازة نهاية الأسبوع التالية، توصلت إلى قرار، إنه لا داعي لأن أتقابل مع آليسون.

دق الجرس من أجلي من مرة أخرى، موعد تناول طعام الغذاء، فجمعت حاجياتي وسرت في تثاقل صاعداً المدق وأنا أحاول البحث في جميع الاتجاهات لمواجهة ظهور أحداث أخرى خاصة بالمسرحية

التنكرية، وفي أثناء سيري بين الأشجار توقعت أن أشاهد ظهور منظر غريب. ولكني كنت مخطئاً في توقعاتي.

وعقب الانتهاء من تناولي للطعام تحت صف الأعمدة الذي تجتاحه الرياح العاصفة أخرجت آليسون من تفكيري تماماً، وأصبحت مستعداً لأي شيء قد يعرضه عليّ كونشيس، ولكي أخفف عن نفسي وأسهل الأمور عليها سرت بين أشجار الصنوبر متجهاً إلى المكان الذي سبق أن اضطجعت فيه وقرأت في كتاب «روبرت فولكس» يوم الأحد السابق، لم آخذ معي كتاباً في هذه المرة واكتفيت بالاستلقاء على ظهري وأغمضت عيني.

(٣١)

لم أعط أي وقت لكي أستغرق في النوم فما إن انقضت خمس دقائق على وجودي هناك حتى سمعت حفيفاً وشممت عطر خشب الصندل، فتظاهرت بأنني مستغرق في النوم، كان وقع أقدامها يترامى خلف رأسي مباشرة، ثم جلست على الأرض خلفي مباشرة، وظننت أنها ستسقط كوز صنوبر أو تدغدغ أنفي في وخز خفيف، ولكنها راحت تنشد أبيات من شعر شكسبير، وظللت ملتزماً بالصمت طوال الوقت مع الاستمرار في غلق عيني، وتلاعبت بالكلمات في مزاح معطية إياها معاني مزدوجة، كان صوتها جميلاً وانتهت من إنشاد الشعر ولكني ظللت مغلقاً عيني، تمتمت: استمري..

ثم فتحت عيني، فحملق لأسفل نحوي وجه شيطاني له لون أخضر/ أسود وعينان ناتئتان شديدتا الاحمرار، تلويت ناهضاً، كانت ممسكة بقناع مهرجاني صيني مرتكز على عصاً في يدها اليسرى، ثم شاهدت الندبة الغائرة، في يدها لقد غيرت ملابسها، دفعت بالقناع جانباً، أنت تؤدين الدور بطريقة سيئة.

كان من الواضح أننا مازلنا نلعب ونتسلى ولكن في نغمة مختلفة وفي مزيد من الصراحة.

وضعت يدها حول ركبتيها المغطاتين بالجونلة واستندت إلى الوراء وراحت تحملق في الأشجار الموجودة ورائي، كانت ترتدي في قدميها حذاء برقبة أسود اللون، والتزمت ليلى الصمت فترة طويلة، سألتها:

ـ ما حكاية الكلب الذي خرجت أختك التوأم معه في هذا الصباح.

ـ ليس لي أخت.

فقلت: أنت تعودين مرة أخرى للعب، في أي مكان اختبأت؟

ـ لقد ذهبت إلى المنزل.

لم تكن على استعداد لأن يلقي بالقناع الآخر، رحت أتفحص وجهها، ثم مددت يدي لكي أشعل سيجارة، وراحت ترقبني وأنا أشعل عود الكبريت وآخذ نفساً عميقاً مرتين، ثم مدت يدها على نحو غير متوقع. فناولتها سيجارتي فوضعت شفتيها على السيجارة بنفس الطريقة التي يدخن بها الأشخاص المبتدئون لأول مرة، ثم دفعت رأسها بين ركبتيها ومدت يدها بالسيجارة لكي آخذها منها، ثم سعلت مرة أخرى، ونظرت إلى مؤخرة عنقها وإلى كتفيها النحيلين فتذكرت تلك الحورية العارية التي ظهرت في الليلة السابقة والتي كانت نحيلة وصغيرة الصدر ولها نفس الطول، فسألتها: أين تلقيت تدريباتك؟

لم ترد على ذلك التساؤل، فجربت معها خطأً آخر من خطوط الهجوم، وقلت: أنت تحاولين إيقاعي أسيرا لفتنتك وجمالك، فلماذا تفعلين ذلك؟

لم تحاول في هذه المرة أن تظهر أنها قد أسيء إليها، ورفعت رأسها وألقت بظهرها إلى الوراء وارتكزت على إحدى ذراعيها ثم التقطت القناع وأمسكت به.

ـ إنني إسطارطة إلهة القمر، أم الأسرار الغامضة.

واتسعت عيناها الجميلتان وابتسمت لها ابتسامة باهتة: كنت أودها أن تدرك أنها آخذة في الاقتراب الشديد من قاع الخزانة في ارتجالاتها.

هنا سمعت صوت موتور زورق مترام من جهة البحر، ومن المؤكد أنها هي الأخرى سمعت ذلك الصوت ولكن عينيها لم تكشف عن أي شيء: قلت أتمنى أن أقابلك في مكان بعيد عن هنا.

ـ ربما في إجازة نهاية الأسبوع القادمة؟ فخطر على ذهني أنها قد أبلغت بمعلومات عن آليسون.

أكملت:

ـ لن يسمح موريس بذلك أبداً.

ـ «أنت الآن في سن يسمح لك بأن تتصرفي بدون الحصول على موافقة أحد».

ـ توقعت أنك ستكون في أثينا في عطلة نهاية الأسبوع القادم.

التزمت بالصمت للحظات ثم قلت: لا أجد مظهراً واحداً من سلوكك الغريب هنا مسلياً للغاية مثل النواحي الأخرى.

استلقت على أحد مرفقيها وقد أعطت ظهرها لي، وجاء ردها في صوت منخفض:

ـ رقة مشاعرك لا تلقى التجاهل الكامل.

أحسست بوخزة من الإثارة، واعتدلت في جلستي حتى يمكنني مشاهدة بروفيل وجهها، الذي بدأ عليه وكأنه تخلى عن لعبة التمثيل.

ـ إذن فأنت تعرفين أنها لعبة؟

ـ جانب منها فقط.

ـ لماذا يتم التجسس على حياتي الشخصية على هذا النحو؟

فهزت رأسها وقالت: لا تجسس على حياتك، لقد قيل ذلك الكلام أمامي، وهذا كل ما في الأمر.

ـ لن أذهب إلى أثينا، فقد انتهى كل شيء بيننا، وهذا من الأسباب التي دعتني للمجيء إلى اليونان، لكي أبتعد عن تلك الأمور التي بدأت تتسم بالفوضى، إنها استرالية الجنسية، وتعمل حالياً كمضيفة جوية.

ـ وأنت لم تعد تحبها؟

ـ نحن مجرد صديقين الآن.. وكنا ندرك معاً منذ البداية أن الأمر لن يدوم طويلاً بيننا، ونحن نتبادل الرسائل من وقت لآخر.. آليسون إنسانة خرقاء وهي مناهضة للبريطانيين، أعتقد أنني شعرت بالأسف الشديد من أجلها.

ـ هل عشتما معاً كرجل وزوجته؟

ـ إذا كان ينبغي لك أن تعبري عن ذلك بهذه الطريقة السخيفة، أقول لك إنني عشت معها كرجل وزوجته لمدة أسابيع قليلة وأود أن أعرف الأسباب التي تدعوك إلى الاهتمام الشديد بهذا الموضوع.

كل ما فعلته أنها حركت رأسها من جانب لآخر، بنفس الطريقة التي يلجأ إليها الناس عندما يقررون أنهم لا يستطيعون الإجابة على تساؤل، لم تكن تعرف السبب الذي دعاها للاهتمام الشديد، لذلك استأنفت قائلاً: لم أكن سعيداً للغاية في جزيرة فراكسوس، كنت أشعر بالوحدة، أدركت أنني لا أحب هذه الفتاة كل ما هنالك أنها الفتاة الوحيدة التي عرفتها وذلك هو كل ما في الأمر.

ـ وربما أنت الشخص الوحيد في حياتها.

ـ هناك عشرات الرجال الآخرين في حياتها، أقول لك ذلك بكل صدق وأمانة، على الأقل ثلاثة رجال منذ أن غادرت إنجلترا، آمل أن

تكفي عن انتحال شخصيات أخرى، ومن المؤكد أنه كانت هناك أمور مشابهة لذلك في حياتك الحقيقية.

هزت رأسها وقالت: لا.

ـ لكنك تعترفين أن لك حياة حقيقية، وأن ادعاءك الشعور بالصدمة هو أمر سخيف، أنت تدركين أنني وقفت على حقيقة الدور الذي تقومين به.

فظلت صامتة للحظات ثم واجهتني، نظرت في عيني مباشرة نظرة تسلم بما قد قلته وفي تلك الأثناء كان الزورق البخاري غير المرئي قد أخذ في الاقتراب، كان يتجه إلى رصيف الميناء الصغير، فقلت: هل تتم مراقبتنا الآن؟

فهزت كتفها هزة خفيفة للغاية، وقالت: كل شيء تتم مراقبته هنا.

نظرت حولي، لم أتمكن من مشاهدة أي شيء، فحملقت في وجهها وقلت: ربما، لكنني لن أصدق أن كل شيء يتم سماعه، فوضعت مرفقيها على ركبتيها وحملقت فيما ورائي! وقالت: المسألة تشبه لعبة الاستغماية يا نيقولاس.

فقلت: لا يوجد لعب عندما لا يسلم المرء بأنه قد تم اكتشافه في المكان الذي يختبئ فيه، أنت لست ليلى مونتجمري.

ـ هل أنت ابنتها؟

ـ نعم.

ـ بالإضافة إلى أختك التوأم.

ـ لقد كنت طفلة وحيدة.

كان ذلك أكثر مما ينبغي، وقبل أن تتمكن ليلى من التحرك كنت قد ركعت جاثماً، وأرغمتها على الاستلقاء على ظهرها، وأمسكت بكتفيها

مما جعلها تضطر لأن تتفحص عيني، وشاهدت مسحة من الخوف في عينيها فبدأت أستغل نقطة الضعف هذه فيها.

ـ الآن استمعي إليَّ، كل هذا أمر مسلٍّ، ولكنك لديك أخت توأم وأنت تعرفين ذلك، كما أنك تقومين بهذه الحيل وتتخذين هذا الطابع الخيالي في الحوار المنمق بالمحسنات البلاغية وفي الميثولوجيا، إلا أن هناك شيئين لا يمكن إخفاؤهما وهما: أنك تتصفين بالذكاء وأنك إنسانة تتمتعين بحقيقة مادية جسمانية مثلي تماماً وأنا لا أعرف ما إذا كنت تفعلين ذلك لأنك تحبين الرجل العجوز أو بسبب أنه يدفع لك النقود أو لأن ذلك يدخل عليك المتعة.

كما أنني لا أعرف المكان الذي تسكنين فيه أنت وأختك وأصدقاؤك الآخرون.

أنا لا أهتم كثيراً بذلك لأنني أعتقد أن المسألة كلها تتسم بالخيال الغريب، وأنا أشعر بالارتياح نحوك ونحو موريس ولذلك فأنا على استعداد للقيام بأي دور تمثيلي بنفس القدر من الحماس الذي تبدينه ولكن لا تجعلينا نأخذ الأمر بهذه الجدية الخطيرة.

أرجو أن تتوقفي عن جلد حصان ميت بالسياط، تتوقفي عن هذا المزاح الخشن، مفهوم؟

ظللت محملقاً في عينيها وأدركت أنني كسبت الجولة، فالخوف في عينيها قد تراجع وحل محله الاستسلام.. قالت: أنت تحطم ظهري، يوجد تحت ظهري حجر أو شيء من هذا القبيل.

ركعت جاثماً مبتعداً بعض الشيء، وأشعلت سيجارة فانتصبت في جلستها وعدلت من شأنها ودلكت ظهرها، وشاهدت كوز صنوبر على الأرض في المكان الذي اعتصرتها فيه، وبعدئذ جذبت ركبتيها لأعلى ودفنت وجهها بينهما، فحملقت لأسفل نحوها معتقداً أنه كان عليَّ أن

أدرك أن استخدام القوة معها سيأتي بالنتيجة المرجوة، دفنت وجهها بين ركبتيها بينما ذراعاها تلتفان حول ساقيها، وساد الصمت فترة طويلة فأدركت أنها تتظاهر بالبكاء، قلت: ذلك لن يظهرك أيضاً.

فجلست القرفصاء إلى جوارها، وقدمت لها سيجارتي، فأخذتها مني قلت:

لم أكن أهدف إلى إيذائك.

وسحبت نفساً من السيجارة بطريقة طبيعية وليس كإنسانة مبتدئة في التدخين:

ـ لقد حاولت بالفعل.

ـ أنت إنسانة رائعة، ليس لديك أية فكرة عن مدى غرابة هذه التجربة.

إنها أمر يشبه الجاذبية الأرضية حيث لا يمكن للإنسان أن يقاوم لفترة طويلة للغاية.

فألقت عليَّ نظرة بها قدر من الاكتئاب والاشمئزاز، ثم قالت: آهٍ لو أدركت كيف أعرف جيداً ما تعنيه.

وهنا تراءت لي صورة ذهنية جديدة: وهي أنه من المحتمل أنها كانت تلعب دورها تحت شكل ما من أشكال التهديد، قالت: إنني أصغي إليك في انتباه شديد، كلي آذان مصغية، هناك نوع من النص المسرحي، ومن المفروض أن أصطحبك لكي أريك شيئاً ما، مجرد تمثال.

ـ عظيم، هيا قوديني إلى مكانه.

ثم نهضت واقفاً فالتفتت حولها وأطفأت عقب السيجارة في حرص في الأرض، ثم نظرت إليَّ نظرة خنوع، هل سمح لي أن أعيد نفسي إلى ما كنت عليه؟ لا تتنمر عليَّ من أجل خمس دقائق؟

فنظرت إلى ساعتي وقلت: بل ولسوف أعطيك ست دقائق.. ولكني لن أسمح بثانية واحدة تزيد على الدقائق الست.

أمسكت بيدها لكي أساعدها على النهوض، ثم ظللت ممسكاً بها قائلاً: وأنا لا أطالب بأنني أرغب في أن أعرف على نحو أفضل شخصاً ما أجده جذاباً للغاية وهو يمارس استعراض عضلاته عليّ.

اتجهت بنظراتها لأسفل، وقالت: وهي لا تجد نفسها مضطرة لأن تمثل.. إنها أقل خبرة منك.

ذلك لن يقلل من جاذبيتها على الإطلاق، فقالت: إنه ليس بعيداً، هنالك عند قمة التل، ثم شرعنا في السير معاً وقد تماسكت يدانا، أخذت أعتصر يدها، فردت عليّ بالضغط على يدي، كان ذلك أقرب إلى وعد بالصداقة منه إلى أي شيء يتسم بالطابع الجنسي، اكتشفت أن الملحوظة الأخيرة، التي أبدتها عن نفسها جديرة بالثقة وكان الأمر يرجع إلى جمالها نظراً لتلك الملامح الرقيقة التي تتمشى مع توليفة من الجبن والخوف وشدة الحساسية إزاء الاتصالات الجسمانية، وأحسست أن وراءها ازدواجية الماضي الذي تلعبه، مسحة من البراءة اللذيذة، بل ربما مسحة من العذرية، إنها مسحة مؤهلة لها كي تظهر وتطرد الأرواح الشريرة بمجرد أن يسمح الوقت الملائم لذلك، لم يكن هناك أي شخص في العالم أرغب في أن أتبادل معه المواقع بحيث يحل كل منا محل الآخر وذلك بعد أن عثرت على مليكتي وأصبحت ممسكاً بيدها، بدأت أدرك أن جميع علاقاتي السابقة مع الفتيات بالإضافة إلى أنانيتي بل وطرد آليسون إلى عمق الماضي قد أصبح له ما يبرره، كان ينبغي أن يكون الأمر دائماً على هذا النحو.

(٣٢)

قادتني بين أشجار الصنوبر إلى مكان أعلى من المكان الذي شققت فيه طريقي الأسبوع الماضي، كان هناك مدق ووجدت بعض السلالم المنحوتة بطريقة بدائية، وعلى الجانب الآخر وفوق مساحة من الأرض المرتفعة وصلنا إلى تجويف صغير يواجه البحر، وفي الجزء الأوسط من هذه الأرض كان يقف التمثال الذي تعرفت عليه لتوي، إنه نسخة من تمثال بوسيدون «إله البحر» في أوائل القرن العشرين، فهناك بطاقة ملونة لهذا التمثال موجودة في غرفتي، كان ذلك الرجل الجليل يقف منفرج الساقين بينما ذراعه يشير ناحية البحر، إنه تمثال به نفس الطابع الحديث الموجود في إنتاج هنري مور ولكنه قديم للغاية في نفس قدم الصخرة التي يقف عليها، أدهشني أن كونشيس لم يصطحبني لكي أشاهد هذا التمثال، لعله كلفه أموالاً كثيرة، لذا فالاحتفاظ به في هذا المكان في غير مبالاة وفي ركن مستتر هكذا، ودون أن يتحدث عنه أمر يثير الحيرة فوجدت نفسي أتذكر دوكانز.

وقفنا معاً، ورحنا ننظر إلى التمثال، وابتسمت لدى مشاهدتها انفعالات التأثر على وجهي، كان بمقدور المرء مشاهدة البحر البعيد من فوق قمم الأشجار أما التمثال نفسه فكان يتعذر على أي شخص عند الشاطئ أن يشاهده، وجلست في غير تأنق محولة ملابسها إلى تنورة وجاكيت، كان نوعاً من التعري وخلع الملابس، وجلست على مقربة منها، أدركت أنني أنظر إليها، لقد انتهت «برهة التنفس اللاهث» قلت: أخبريني باسمك الحقيقي.

ـ ألا تحب اسم ليلى؟

ـ إنه اسم رائع، يصلح لأن يكون اسما لنادلة في حانة في العصر الفيكتوري.

فابتسمت ثم قالت: أنا لا أحب اسمي الحقيقي لقد تم تعميدي في الكنيسة تحت اسم جوليا ولكنني اتخذت لنفسي اسم جولي.

قالت: في تمتمة جولي هولمز، ولكنني لم يسبق لي أن عشت في شارع بيكار.

ـ وما اسم أختك؟

فأصابها التردد بعض الشيء ثم قالت: يبدو أنك مقتنع بها.

لقد تمت ولادتنا في فصل الصيف، ولم يظهر والداي قدراً كبيراً في ملكات التخيل والإبداع، أختي تسمى: «جين».

ـ جين، وجولي.

ـ عليك ألا تخبر موريس.

ـ هل تعرفين موريس منذ فترة طويلة؟

هزت رأسها بالنفي وقالت: ومع ذلك يبدو كأنني أعرفه منذ فترة طويلة.

ـ منذ متى تعرفينه؟

نظرت إلى تلك النظرة التي تتسم بعدم التيقن، وكان في نظراتها نوع من اللوم والعتاب نظراً لإصراري الشديد على توجيه تلك الأسئلة، من المؤكد أنها أدركت أنني لن أرجئ الحصول على رد منها مرة أخرى، فانحنت للأمام وراحت تنظر إلى الأرض، وقالت: لقد تم إحضارنا إلى هنا بناء على ادعاءات زائفة منذ أسابيع مضت، ومن السخف أننا لم نترك هذا المكان أو لم نضرب عن العمل.

أصابني شيء من التردد لأن ذهني كان قد قفز على الفور إلى ليفاريير وإلى ميتفورد، لكنني قررت أن أدخر هذه الورقة لا أكشف عنها في هذه المرحلة من الحديث معها.

ـ ألم يسبق لك أن جئت إلى هنا من قبل؟

فظهرت على وجهها دهشة حقيقية وتساءلت: لماذا؟

ـ مجرد تساؤل.. أعتقد أن هذا ربما قد حدث في العام الماضي.

كان الأمر شبيهاً بعض الشيء بنخس بغل متمرد ولكنه خائف من اتخاذ خطوة إلى الأمام، حملقت في الأرض باحثة عن كلمات وقالت: رغم كل شيء فنحن هنا بإرادتنا الحرة رغم أننا جميعاً لا نعرف على وجه الدقة ما هو مخبأ وراء الكواليس، ونحن نشعر بنوع من الامتنان أو بنوع من الثقة.

إنه من الصعب توضيح الأمور لك، ولكني أنا وأختي نشعر أننا مدينتان له بالكثير، والمشكلة هي أنني إذا قمت بالإجابة على جميع الأسئلة فإنني أدرك تماماً أنك ستتحرق شوقاً كي تسأل المزيد وعندئذ سيكون الأمر شبيهاً بقص حكاية فيلم بوليسي غامض عليك قبل ذلك الفيلم مباشرة.

ـ ومن المؤكد أن باستطاعتك أن تقصي عليّ كيفية دخولك هذا الفيلم. ـ لا أستطيع، لأن ذلك هو جزء من عقدة الرواية. شعرت كأنها تنسل هاربة من بين يدي، وشاهدت وجهها الواقع تحت الظلال، كان وجهها متهدجاً بعض الشيء، بل ويكاد يكون به مسحة من الخوف.

ـ هل يدفع لك مقابل هذا العمل؟فترددت بعض الشيء وقالت: نعم ولكن المسألة ليست مسألة نقود.

ـ لم يظهر عليك من قبل أنك تحبين العمل الذي يريدك أن تمارسيه.
ـ السبب في ذلك أننا لا نعرف كمية الصدق في الأمور التي يقولها لنا، ولا نعرف ماهي الأمور التي يجب أن نصدقها أو الأمور التي ينبغي إلاَّ نصدقها، «إذا أردتِ أن تعرف شيئاً، أحب أن أقول لك إننا قد خطونا الآن خطوات قليلة في غياهب المتاهات وذلك لا يعني أننا اقتربنا أكثر

منك من المنطقة المركزية في المتاهات». التزمت الصمت للحظات، ثم قلت: هل سبق لك القيام بالتمثيل في وطنك؟

ـ نعم.... ولكن ليس في احتراف حقيقي. ـ عندما كنت بالجامعة؟ فابتسمت في سخرية وقالت: الأمر لا علاقة له بالتخاطر، إنه الطعم الذي يوقع المرء في الشراك، مجرد مجاز.

ـ ثم ماذا؟ـ إذا أخبرتك فإن كلامي سيفسد الموضوع، وكل ما أريد أن أقوله لك إن هذه تجربة فريدة من نوعها، تجربة خارج نطاق هذا العالم. ـ هل سبق لك أن عشت هذه التجربة؟ ـ نعم وهذا هو السبب أنني أنا وأختي قررنا أن نضع فيه ثقتنا، وذلك الأمر ليس شيئاً ما يمكن خلقه عن طريق عقل شرير. لازلت غير فاهم للكيفية التي يمكنه بها أن يسمع ما نقوله من كلام.

راحت تنظر وتتأمل في الأميال الشاغرة من مياه البحر، ثم قالت: إذا كنت لا أقوم بالشرح لك فسبب ذلك أنني لست واثقة من أنه لن يسمع، لأنك سوف تخبره.

ـ إكراماً لوجه الله، لقد سبق أن أخبرتك أنني لا أفكر على الإطلاق.. أن أخونك. نظرت إليّ نظرة سريعة ثم راحت تحملق في البحر، وقالت في صوت منخفض: لسنا واثقين مما إذا كنت على النحو الذي تقوله عن نفسك ـ لسنا واثقين مما قاله لنا موريس عنك.

ـ لكن هذه حماقة شديدة. أخذت نفساً عميقاً، وقالت: من سخرية القدر أنني لست متأكدة أنه لا يراد لي أن أتخطى القوانين، إنه إنسان غريب الأطوار للغاية، لعبة الاستغماية.. فالأمر أقرب إلى غماية رجل أعمى، أو الدوران مرات كثيرة للغاية بحيث تفقد الإحساس بالاتجاهات، وأن تبدأ في أن تشاهد معنيين وثلاثة معانٍ في كل شيء يقوله وفي كل عمل يفعله.

ـ إذن حطمي القواعد والقوانين ثم ترقبي ما يترتب على ذلك. ترددت ثم ابتسمت ابتسامة فيها مزيد من الصدق، ابتسامة أوحت لي على ما يبدو بأنها تريد أن تثق بي:

ـ هل ستشعر بالارتياح إذا تم إلغاء هذا الأمر كله وإيقافه تماماً؟ إذا ما انتهى غداً؟ ـ لا. ـ أعتقد أننا هنا وفقاً لتسامحه وليس وفقاً لتشجيعه لنا، لقد حاولت أن أوحي لك بهذا المعنى من قبل. ـ لقد فهمت تلك الرسالة. ـ تلك المسألة كلها هشة للغاية، وهي شبيهة بنسيج العنكبوت، إنها تتم بطريقة عقلانية، بل بطريقة مسرحية إذا أردت ذلك، وهناك بعض الأساليب التي إذا لجأنا إليها فإنها تؤدي إلى تدمير تلك المسألة على الفور، إنني أتكلم في جدية تماماً، فأنا لا ألهو ولا أعبث الآن. ـ هل هدد بإلغاء هذا الأمر؟ ـ إنه لا يضطر إلى ذلك، إذا لم نكن نشعر أننا نجتاز هذه التجربة الغريبة والمتعلقة بحياتنا، فإنني أدرك أنه يمكن أن يبدو سخيفاً بل ومثيراً للضحك، إنه مسعور ومثير للخجل والجنون، إنه ممثل هاوٍ عجوز.. ولكنني أعتقد أنه قد اكتشف المفتاح لحل لغز شيء ما. ـ شيء ما غير مسموح لي بأن أعرفه. قالت: شيء ما قد نقوم جميعاً بمعاقبة أنفسنا إذا أفسدناه، شيء ليس من النوع الذي يمكن أن أحدثك عنه في تسلسل منطقي حتى ولو... وسادت فترة صمت.

ـ من الواضح أن لديه قوى للإقناع، اعتقدت أن الفتاة التي ظهرت في الليلة الماضية هي أختك، الآن فقط عرفت من تكون هي.

قالت في شيء من الدقة: حتى الأختان التوأم لا تكون لديهما نفس النظرة إلى الأمور، باستطاعتي أن أخمن ما تفكر فيه، لكن لم تكن هناك أدنى دلائل على... ما ينبغي أن نظل موجودين هنا لو كانت هناك دلائل، فأختي جين دائماً ما تكون أقل احتشاماً مني إزاء ذلك النوع من الأمور..

توقفت عن الكلام فجأة، رأيتها تؤدي صلاة كأنها تطلب من الله

الغفران، وابتسمت، وقلت: من الممكن أن أعرف معلومات عنكم من أكسفورد.. فما السبب إذن في أنها أرسلت تقريباً من المكان الآخر؟

ـ أوه... يا إلهي! كم أنا إنسانة مغفلة! عليك ألا تخبره.

ـ أعدك بذلك.

كان ذلك أمراً عديم القيمة، لقد عملت كموديل عارية ذات يوم على سبيل المزاح والمداعبة، ولم يعد ذلك سراً.

ـ ماذا قرأت؟

وسادت فترة صمت قصيرة، ثم تحدثت في صوت منخفض: إنه إنسان داهية فإذا قمت بإخبارك بمعلومات أكثر مما يراد لك أن تعرف، فإن الأمر لن يكون حسناً..

ـ إذن كل هذا يمكن أن يكون جزءاً من الحبكة القصصية.

ـ نعم، الأمر كذلك على نحو ما، ففي القريب العاجل للغاية سوف تمتد سذاجتك لمسافة أبعد.

سألت: هل هو الذي كان في القارب؟

أومأت برأسها وقالت: لعله يرقبنا الآن وينتظر الدور الذي سيقوم به في المسرحية.

رحت أتطلع في حذر إلى ما وراءها عبر الأشجار في اتجاه المنزل، لم أستطع مشاهدة شيء، انحنت والتقطت غصناً من شجيرة بجوار المقعد الذي تجلس عليه ورحت أحملق في الأشجار، إنها أشجار مراوغة ومحيرة للغاية، كنت قد أفرغت الألف سؤال التي أريد توجيهها إليها، أما فيما يتعلق بها فقد حصلت على إجابات ـ إن لم يكن الكثير منها صادقة وحقيقية ـ فإن بعضها على الأقل كانت إجابات نفسية وعاطفية، تخيلتها فتاة مثقفة وذات اهتمامات فكرية على الرغم من حسنها وجمالها ومظهرها، كنت أدرك أنها مازالت تمثل على نحو ما،

ولكنني شعرت أن تمثيلها أصبح وسيلة لإخفاء ما تحس به من مشاعر نحوي، قلت: يبدو أنه يوجد جزء من الحبكة القصصية يتطلب قدراً يسيراً من التعاون والاشتراك في التأليف، أو يتطلب مناقشة للبروفة.

ـ ما هو ذلك الجزء؟

ـ أنا وأنت.

راحت تسوي ذلك الجزء من جونلتها الموجود فوق ركبتها، ثم قالت: لست أنت الشخص الوحيد الذي تعرض لصدمة اليوم، فمنذ ساعتين سمعت لأول مرة عن صديقتك الأسترالية.

ـ لقد أخبرتك بحقيقة الموقف معها ونحن في المنطقة السفلي.

«إنني لآسفة، حيث بدا عليّ أنني فضولية للغاية، كانت المسألة مجرد...

ـ مجرد ماذا؟

ـ نوع من الشكوك، ومعرفة ما إذا كنت تهدف إلى تشويش.

لمست بأصابعها الغصن العطري، ظللت أنظر إليها، قلت: النقطة الرئيسية من وجهة نظري أن الفصل الأول من المسرحية قد تطلب أن تقومي بجذب انتباهي، ربما تكوني بمثابة ذبابة واقعة في نسيج العنكبوت تتضورين في تلوٍّ وانثناء.

كانت تمزق الأوراق في الغصن الصغير على نحو طبيعي وفي إصرار على عمل ذلك، ثم قالت: أعتقد أنه كان ينبغي لي أن أتطلع إلى التعرف عليك بشكل أفضل.

فكرت في الأداء التمثيلي الذي قامت به على الشاطئ في ذلك الصباح، أدركت ما كانت ترمي إليه، إن ذاتها الحقيقية ليست من النوع الذي يسهل اقتحامه، وأدركت أنه ينبغي لي أن أظهر لها أنني قد

فهمت، فانحنيت للأمام ووضعت مرفقي على ركبتي قلت: ذلك هو كل ما أردت أن أعرفه.

فقالت في بطء: بكل وضوح، لقد أريد لي أن أكون السبب في رجوعك إلى هنا.

ـ وهذا يأتي بالنتيجة المرجوة.

قالت في خجل: بكل وضوح، لقد كان هذا بمثابة شيء سبب لي بعض القلق، لقد وصل الأمر إلى هذا الحد الآن، ولذلك لا أريد أن أضللك.

تساءلت: أيوجد شخص ما آخر؟

ـ لقد أوضحت الأمر لموريس، وقلت إنني سألعب أدواراً في المسرحية من أجله، ولسوف أفعل ما فعلته في هذا الصباح، ولكن إلى ما وراء ذلك..

ـ أنت حرة في شئونك.

ـ أشعر كأنني نوع من الخنازير التي تجرى عليها التجارب، والله وحده يعرف الأسباب، الأمر غاية في الغرابة لقد جئت هنا مصادفة منذ ثلاثة أسابيع، جئت لمجرد الحصول على كوب ماء...

قالت: لا أعتقد أن الأمر جاء مصادفة أقصد أنك ربما جئت على ذلك النحو، ولكنك إذا لم تجئ كنت قد عثرت على طريقة أخرى، قيل لنا إنك بصدد المجيء قبل أن تأتي بالفعل، ثم استدارت نحوي ووضعت ذراعها على الجزء الخلفي من المقعد، وقالت: يا نيقولاس.. لا أستطيع أن أتكلم أكثر من هذا، يجب عليّ أن أتركك الآن، لقد استهوانا بالفعل بشيء أفضل من اللعب.. وسأله خنزير تجارب... إنه من الأسباب التي أدت إلى استمرار بقائنا هنا، وهناك شيء مهم، فهذه الساعة التي أمضيتها معك عادت عليّ بالارتياح، وإنني لمسرورة للغاية،

ربما نكون قد أخطأنا في فهم موريس، وفي هذه الحالة سنكون بحاجة إلى فارس جوال.

نظرت إلى مليا نظرات بها شيء من الشك ولكنها انتهت بابتسامة خفيفة، ثم نهضت واقفة.

قالت هيا نسير إلى التمثال، نتبادل التحية، وتعود أنت إلى المنزل.

فظللت جالساً: هل سأراك فيما بعد؟ أشعر كأنني زجاجة صودا بها كمية زائدة من الكربونات، أموج وأفور بالأسئلة.

ـ كن صبوراً، وبينما نسير هابطين المنحدر، قلت لها:

ـ على أية حال لقد قمت بعملية الاقتحام، بادعائك بأن ليلى منتجمري هي والدتك فهي كانت موجودة في أي زمن من الأزمنة؟

ـ تخمينك في مثل جودة تخميني، إن لم يكن تخمينك أفضل.

صمتت لمدة ثانية واحدة ثم التفتت لكي تنظر في وجهي وقالت: «عليك أن تنصرف الآن»، أمسكت بيديها: «أود أن أقبلك» فنظرت لأسفل، كانت هناك عودة خفيفة لشخصية ليلى إليها، ردت: أفضل عدم التقبيل، فهناك من يرقبنا.

ظلت يدانا متماسكتين، ولم يقم أحدنا بسحب يده، ثم وضعت ذراعيّ حولها وجذبتها، فأدارت وجهها للحظات ثم سمحت لي بالعثور على شفتيها، ظلت شفتاها مغلقتين في إحكام أمام شفتي اللهم باستثناء رعشة واحدة صغيرة من الاستجابة قبل أن تدفعني بعيداً عنها، لم يكن ذلك تعانقاً جنسياً ولكن كان هناك شيء به مسحة من الصدمة الغريبة في عينيها كما لو كانت هذه القبلة تعني الكثير بالنسبة لها، ابتسمت لكي أؤكد لها أن ابتسامة كهذه تعتبر جريمة ولكي أؤكد لها أن بإمكانها أن تضع ثقتها بي، فحملقت في وجهي ثم خفضت من بصرها، كان الموقف محفوفاً بالقلق وبدأت كل العقلانية تتهاوى بدون سبب، فخطر

على ذهني أنها تمثل دوراً آخر لصالح كونشيس أو أي إنسان آخر يرقبنا، رفعت بصرها نحوي مرة أخرى وأدركت أن عينيها تركزان على الاهتمام بي وحدي، قالت: لو اكتشفت في أي وقت من الأوقات أنك تكذب عليّ فلن أستمر.

ثم استدارت قبل أن أتمكن من الرد عليها وابتعدت بسرعة وكأنها في عجلة من أمرها، رحت أرقبها للحظات ثم استدرت لكي أنظر عبر الأخدود، وترددت فيما إذا كان ينبغي لي أن أسير وراءها، ثم أشعلت سيجارة وألقيت نظرة أخيرة على تمثال بوسيدون الرائع وإن كان يتسم بالغموض ثم بدأت في السير تجاه المنزل، وقبل الأخدود مباشرة نظرت إلى الوراء، كانت هناك ومضة من اللون الأبيض بين أوراق الشجر ثم اختفت تماماً، لم يكن مقدراً لي أن أترك وشأني، فلم أكد أصعد السلم حتى شاهدت كونشيس وكان ظهره في اتجاهي وبدا عليه وكأنه يرقب من خلال تليسكوب طائراً موجوداً فوق أعالي الأشجار إلى ما وراء، ولدى سيري نحوه أنزل نظارته المكبرة والتفت مستديراً، كأنه لم يشاهدني من قبل.. لم تكن حركة تمثيلية مثيرة للإعجاب ولكنني لم أكن أدرك أنه يقتصد في مواهبه من أجل المشهد الذي سيجيء بعد ذلك.

(٣٣)

كان مرتدياً ملابسه بطريقة رسمية أكثر من المعتاد، قررت أن ألتزم الحذر حيث هناك شيء ما في نظراته الفضولية يوحي بأنه منتبه، شعرت بأن ممثلته لم تكن تكذب عليّ، على الأقل بالنسبة للإعجاب الذي تكنه نحوه ولاعتقاده بأنه ليس شريراً، وكنت قد اكتشفت أيضاً وجود بقايا من الشك بل أقوى مما كشفت عنه لي بالفعل، وكان عليَّ أن أركز عيني على العجوز مرة أخرى لكي أدرك أنني احتفظت بالمزيد من الشك أكثر من الآخرين.

ـ مرحباً.

ـ مساء الخير يا نيقولاس، عليّ أن أعتذر عن تغيبي، فلقد كان هناك قدر ضئيل من الذعر في وول ستريت.

وبدا شارع وول ستريت وكأنه موجود عند الجانب الآخر من الجزيرة وليس فقط عند الجانب الآخر من العالم، حاولت أن يبدو الاهتمام على وجهي.

لقد تصرفت في غباء حيث دخلت في تمويل اتحاد مالي منذ عامين، هل يمكنك أن تتخيل فرساي بدون أن يكون بها ملك للشمس واحد وإنما يوجد بها خمسة منهم؟

ـ تمويل ماذا؟

آمل ألا تكون قد أفلست ماليا.

ـ الشخص العبيط فقط هو الذي يتعرض للإفلاس ويكون مفلساً منذ البداية.. منذ مولده، هل كنت مع ليلى؟

ـ نعم.

ـ وبدأنا في السير في اتجاه المنزل ووضعته في حجمه قائلاً: لقد تقابلت مع أختها التوأم.

استمر في السير لبضع خطوات وأدركت أنه كان يفكر بسرعة خاطفة.

قال: ليلى لم يكن لها أخت، ولذلك فلا توجد أخت لها هنا.

ـ أعني أنني شعرت بالتسلية العظيمة للغاية في أثناء غيابك، فلم يبتسم.. كان أشبه بأستاذ في لعبة الشطرنج وجد نفسه متورطاً بين نقلتين من نقلات تحريك حجر الشطرنج، فراح يحسب حسابات سريعة ثم التفت إلي ليقول كلاماً ما ولكنه غير رأيه: هل أعجبك تمثال بوسيدون؟

ثم وضع يده على ذراعي وأوقفني عن المشي ونظر لأسفل وبدا عليه

كأنه في حيرة بشأن اختيار الكلمات: ربما تكون قد شعرت بالتسلية، فذلك هو ما تحتاج إليه، لأسباب أنت تعرفها الآن بالطبع، وإنني لآسف بشأن هذا السر الصغير الغامض الذي نشرناه حولك من قبل.

ـ تقصد فقد الذاكرة؟

ـ توقف عن المشي مرة أخرى، كنا قد وصلنا توا إلى السلم، سأل: ألم يوجد شيء ما في شخصيتها تسبب في إصابتك بالذعر أو الصدمة؟

ـ «أشياء كثيرة».

رفع حاجبي عينيه قليلاً كما لو كنت قد سببت له الذهول ثم صعد، السلم واستدار عائداً إلى منضدة الشاي، فوقفت بجوار المقعد وهززت رأسي نحوه بنفس طريقته الاستفسارية:

ـ هذا الاحتياج الشديد إلى انتحال التنكرات، لكي تعطي نفسها دوافع زائفة، ألم يصبك ذلك بالذهول؟ فقمت بعضّ شفتي، كان وجهه جامداً ولا يعبر عما يجول في خاطره، بدت عليه الحيرة للحظات ثم ظهر الصفاء على ذهنه فقال: أنت تقصد أن الفصام ينتج عنه هذه الأعراض المرضية؟

ـ الفصام؟

أشار لي بيده لكي أجلس على الكرسي، وأضاف قائلاً: إنني آسف... ربما تكون هذه الرطانة اللغوية المتعلقة بالطب النفسي غير مألوفة لك.

ـ نعم أنا غير معتاد على هذه الرطانة ولكن...

ـ الفصام.

ـ إنني أعرف معنى الفصام، ولكنك قلت إنها تفعل كل شيء، لأنك كنت تريد لها أن تفعل ذلك.

ـ لكنها ذكية للغاية، إنها ليست طفلة.

ألقى عليَّ نظرة مليئة بالطابع المهني الاحترافي وقال:

ـ العلاقة بين الذكاء الشديد والفصام أمر معروف تماماً.

تناولت الشطيرة ثم ابتسمت في وجهه وقلت: مع كل يوم أقضيه هنا أشعر أن ساقي تزدادان في الطول بعض الشيء، أظن أنك تحاول إغوائي.. ولكني لا أكترث بذلك.

دفع بكرسيه بعيداً عن المنضدة وراح يضغط على صدغيه، كما لو كان يشعر بأنه وقع في غلطة رهيبة، أدركت أنه كان يمثل ويتظاهر.

ـ كنت واثقاً بأنك فهمت جوانب الموقف، هناك أسباب شخصية لا أستطيع ذكرها الآن تكمن وراء شعوري بالمسئولية الكاملة تجاه هذه الفتاة التعيسة التي كانت معك اليوم ـ حتى ولو لم أكن أحبها كابنة لي.. إنها السبب الرئيسي الذي دفعني إلى المجيء إلى بوراني، وكنت أعتقد أنك قد أدركت هذه الحقيقة.

ـ بالطبع أدركت ذلك.. على نحو ما.

ـ فهذا هو المكان الوحيد الذي يمكن لهذه الطفلة المسكينة أن تطوف وتطلق العنان لخيالاتها الجامحة.

ـ أتحاول أن تقول لي إنها مجنونة؟

ـ كلمة مجنون هي كلمة غير علمية من الناحية الطبية وهي كلمة ليس لها معنى، إنها تعاني من الفصام.

ـ إذن فهي تتخيل أنها خطيبتك التي ماتت منذ فترة طويلة للغاية؟

ـ لقد أعطيتها هذا الدور، فلا ضرر على الإطلاق من وراء اتخاذها لهذا الدور وهي تشعر بالمتعة في أدائها لهذا الدور، وهو دور لا يدخل ضمن أدوارها الأخرى.

ـ أدوار؟

(واختفى داخل المنزل وعاد ومعه كتاب)، وقال: هذا كتاب مدرسي عن الطب النفسي. اسمح لي بأن أقرأ لك فقرة في هذا الكتاب: من الملامح المميزة لمرض الفصام هو تكوين الأوهام الخادعة التي قد تكون متقنة أو شاذة متنافرة.

ونظر نحوي وأضاف قائلاً: وليلى تقع ضمن المجموعة الأولى واستطرد في القراءة: وهذه الأوهام الخادعة لها كلها نفس الميل إلى إقامة علاقة سببية بينها وبين المريض، فهي غالباً ما تدمج عناصر التحيز الشائع ضد مجموعات معينة من الأنشطة، كما أنها تتخذ الشكل العام لتمجيد الذات أو لأحاسيس الاضطهاد، فقد تعتقد مريضة ما بأنها كليوباترا ومن ثم تتوقع أن يتوافق جميع الناس الموجودين حولها مع اعتقادها هذا، بينما تعتقد مريضة أخرى أن أفراد أسرتها قرروا اغتيالها وهم بالتالي سيجعلون أكثر أعمالهم براءة تتوافق مع الوهم الذي ترسخ في ذهنها: «وكثيراً ما تكون هناك مساحات واسعة من الوعي غير واقعة تحت تأثير هذا الوهم، وفي كل ما يتعلق بهذه المساحات فإن المريض يبدو عليه أنه حساس ومنطقي على نحو مثير للحيرة».

أخرج من جيبه قلما رصاصاً ووضع علامات على الفقرات التي قرأها.

فنظرت إلى الكتاب محملقاً ثم نظرت لأعلى نحوه بينما الابتسامة مازالت منطبعة على وجهي، سألت: هل هي أختها؟

ابتسم وقال: نعم، بالطبع، أختها.

كنت قد بدأت أفقد إحساسي من أنه يبتكر مرحلة جديدة من مراحل المسرحية التنكرية، لذلك ابتسمت مرة أخرى: وأنا؟

ـ هل الأطفال في إنجلترا مازالوا يلعبون الاستغماية؟

اعتقدت أن العاهرة الشابة المخادعة، والثعلب العجوز الماكر يلعبان بي مثل الكرة، تلك النظرة العجيبة الأخيرة التي ألقتها عليَّ وكل ذلك الكلام عن عدم إفشاء سرها، وعشرات الأمور الأخرى، فشعرت بالخزي، كما شعرت بأن قدرتي على الهرب والحركة مسلوبة، قلت:

ـ لعبة الاستغماية؟ بالطبع.

ـ الشخص المتخفي يجب أن يكون له شخص باحث عنه، تلك هي اللعبة، والشخص الباحث يكون غير قوي الملاحظة.

ـ لقد تكون لديّ انطباع بأنني في بؤرة الانتباه إلى حد ما.

ـ إنني أرغب في إدخالك في هذا الموضوع يا صديقي، وأن تكسب من وراء هذا شيئاً ما، لا أستطيع أن أهين مشاعرك عن طريق تقديم نقود لك.. ولكني آمل أن تكون لك مكافأة.

ـ أنا لا أشكو من راتبي، لكن يهمني أن أعرف المزيد من المعلومات عن صاحب العمل الذي سيستخدمني.

ـ لقد أخبرتك أنني لم يسبق لي أن مارست مهنة الطب على الإطلاق، وهذا الكلام ليس صحيحاً يا نيقولاس، ففي العشرينيات درست تحت إشراف العالم يونج، وأنا أعتبر نفسي الآن من أنصار يونج، ولكن اهتماماتي الرئيسية في الحياة ظلت منصبة على الطب النفسي وقبل نشوب الحرب قمت بممارسات قليلة في باريس وتخصصت في حالات الفصام.. أتود أن نشاهد الدليل على ذلك؟ يمكن لي أن أريك مقالات نشرتها في العديد من الصحف والجرائد.

وجلس ملقياً ظهره إلى الوراء وقال: عليك ألا تكشف عما سأقوله لك تحت أي ظرف من الظروف، الاسم الحقيقي لليلى هو جولي هولمز، ومنذ خمس سنوات جذبت حالتها المرضية قدراً هائلاً من الاهتمام في دوائر الطب النفسي والعقلي، وحالتها هي من أحسن

الحالات المرضية المدعمة بالوثائق.. وحتى لو لم تكن هي بالفعل بمثابة حالة غريبة للغاية في حد ذاتها إلاَّ أنها كانت فريدة من نوعها، حيث إن لها أختاً توأماً ذات طراز نفسي سوي للغاية، بحيث إنها يمكن أن تقدم للعلماء ما يسمونه بالتجربة الحاكمة، وجولي وأختها توحيان بأن الحالة هي اضطراب روحاني.. ومن هنا فقد أثارا اهتماماً هائلاً في الدوائر العلمية.

- وهل هذه الوثائق موجودة؟

- لسوف تقرأ تلك الوثائق في يوم ما، فمن المهم أن تصدق أنك لا تعرف من تكون هي حقاً، ولا يمكنك أن تخلق هذا الانطباع إذا كنت تعرف كافة الحقائق الإكلينيكية المتعلقة بملاحظة المريض ومعرفة المعلومات الخفية.

- اتفقنا؟

- افترض ذلك.

- لقد كانت جولي معرضة لأخطار جسيمة بحيث تصبح مسخاً بشريّاً عجيباً من الناحية النفسية، وهذا هو ما أحاول أن أحميها من التردي إليه...

بدأت أتأرجح وأتمايل في الاتجاه الآخر.

فرغم كل شيء كانت قد حذرتني، وعليَّ أن أضع سذاجتي في الميزان الدقيق مرة أخرى، إذ لم يكن بمقدوري أن أصدق أن الفتاة التي تركتها توّاً كانت تعاني من خلل عقلي، وقد تكون كاذبة ولكنني لم أتصور أنها تعاني من إحدى حالات الجنون المشهورة، سألته:

هل لي أن أسألك عن الأسباب التي دعتك لإبداء مثل هذا الاهتمام الشديد بها؟

الأسباب بسيطة للغاية، فوالداها.. من أصدقائي القدامى، وهي

ليست فقط مجرد مريضتي الوحيدة التي أقوم بعلاجها وإنما هي أيضاً ابنتي بالمعمودية.

أعتقد أنك فقدت كل العلاقات مع إنجلترا.

إنهم لا يعيشون في إنجلترا، وإنما يعيشون في سويسرا.. وهي حالياً تقضي في سويسرا معظم أيام السنة في عيادة خاصة، وللأسف لم يعد باستطاعتي تكريس كل حياتي لها.

وكدت أشعر بأنه يود أن أصدق كلامه، قلت: قبل أن تخبرني بهذا كنت بصدد أن أهنئك على استئجار هذه الممثلة الصغيرة المتمرسة.

فنظر إليّ نظرة متوحشة على نحو غير متوقع، أحنى رأسه للحظات ثم نهض واقفاً، واتجه إلى حافة صف الأعمدة وراح يحملق إلى الخارج، ثم التفت نحوي مبتسماً.. ابتسامة فيها تنازل ما لتهدئة الأمور، وقال: أرى أن الأحداث قد سبقتني.. فهي قامت بدور جديد معك.. أليس كذلك؟

ـ إنها بالتأكيد لم تحدثني عن هذا.

وظل يتفحصني، فنظرت إليه نظرات خاوية، صافحته، كما لو كان يؤنب نفسه بسبب الغباء الخاص به، ثم عاد إلى كرسيه وجلس مرة أخرى وقال: على نحو ما، أنت على حق يا نيقولاس.. فأنا لم أستأجرها مثلما قلت أنت.. ولكنها ممثلة شابة قديرة.. ودعني أنبهك أن بعض كبار المحتالين في تاريخ الجريمة البشرية.. كانوا مصابين بالفصام.. وعليك ألا تضيق الخناق عليها، لأنك إذا فعلت ذلك فسوف تموج رأسك بالأكاذيب.. وأنت إنسان سوي وتلك الأكاذيب بالنسبة لك هي أمر يمكن أن تتحمله، أما بالنسبة لها فقد يسبب لها انتكاسة خطيرة، مما يعني ضياع مجهود سنوات طويلة من العمل.

ـ ولماذا إذن لم تنبهني إلى ذلك من قبل؟

فظل يرمقني بنظرات ثاقبة ثم نظر إلى أسفل قائلاً: نعم.. أنت على حق.. كان ينبغي عليّ أن أنبهك، لقد بدأت أدرك الآن أنني أخطأت في تقديراتي بشكل جسيم، فالإصرار على معرفة الحقائق يمكن أن يتلف التسلية التي نقوم بها هنا ولكنني أؤكد لك أن الإصرار له نتائج مثمرة من الناحية الإكلينيكية ومما أصاب بعضنا بالدهشة أن هناك تناقضاً في الطريقة التي نعامل بها الحالات غير السوية، فنحن نضع مرضانا في مواضع تسمح بأن يتم استجوابهم والإشراف عليهم ومراقبتهم، وبالطبع يمكن أن يدلل بعض العلماء على أن ذلك ليس في صالح المرضى، بل إن ذلك في صالح المجتمع، وفي حقيقة الأمر فإن العلاج كثيراً ما يقدم مادة معقولة للأوهام الخاصة بالاضطهاد، والذي أحاول أن أفعله هو خلق بيئة يمكن فيها أن تعتقد جولي أن لديها شيئاً ما من السيطرة على الظروف، بيئة تشعر فيها أنها لا تتعرض للاضطهاد.. أو أنها ليست الإنسانة التي تعرف دائماً أقل المعلومات.. فنحن جميعاً نتعاون لكي نعطيها هذا الانطباع، وأنا أجعلها تعتقد أنني لا أعرف ما يدور حولي من أحداث وأنها تسحبني من أنفي!

كانت نغمة صوته توحي بأنني كنت بطيء الفهم لأنني لم أدرك ذلك بسرعة، فهبط عليَّ ذلك الشعور المألوف الذي جاء في محادثة بوراني بأنني لا أعرف ما إذا كان هناك ادعاء بأن ليلى مصابة بالفصام فعلاً أم أن هناك افتراضاً بأنني أدرك بالطبع أن إصابتها بالفصام ليست سوى مكان في لعبة الاستغماية داخل المسرحية التنكرية.

نظرت إلى طرف سيجارتي وقلت: ألا يمكنها الخروج.. تحت نوع من الإشراف؟

- إنها من الناحية القانونية مجنونة وتلك المسئولية التي تقع على عاتقي، ولكي أضمن ألا تدخل أبداً في أي مستشفى للأمراض العقلية.

ـ ولكنك تسمح لها بالتجول في المنطقة، مما يتيح لها فرصة للهرب بسهولة..

رفع رأسه في إنكار وقال: لا يمكنها الهرب على الإطلاق.. فمرضها الخاص لا يتركها أبداً.

ـ مرضها الخاص!!

ـ إنه إنسان عاقل وكتوم وحذر للغاية، وأنها تتضايق من وجوده بصفة دائمة بالقرب منها وخاصة هنا، ولذلك يحرص على أن يوجد في الساحة الخلفية من المكان الذي توجد به ولسوف تشاهده ذات يوم..

سألته: وهل هذا هو السبب في أنك تحتفظ بها في اليخت؟

ـ اليخت؟ إنه ذلك السر الضئيل الخاص بها.. اسمح لها بالاحتفاظ بهذا السر.

ـ وهل تقوم بإحضارها إلى هنا كل سنة؟

ـ أجل.

أدركت أن أحدهما كان بالتأكيد يكذب عليَّ، قررت عدم الاعتراض على ذلك كما قررت كبت الشعور المتزايد في داخلي بأنها ليست الفتاة المسماة «جولي».. فابتسمت.. وقلت: وهذا هو السبب في مجيء الشخصين السابقين عليَّ إلى هنا، وكانا ملتزمين بالهدوء التام إزاء ذلك الأمر..

ـ جون كان ممتازاً، أما ميتفورد فكان على النقيض تماماً.. حيث خدعته جولي في أحد أدوارها عن الاضطهاد، وكالمعتاد فإنني أنا الذي أكرس فترات الصيف من أجلها، لقد حاول ميتفورد ذات ليلة أن ينقذها، وهنا تدخل مرضها، مما أسفر عن مشاجرة حامية وعلى نحو غير ملائم للغاية أدى هذا إلى إزعاجها بشدة، وأنا لا أعني بذلك أي

شيء ذي طابع شخصي، فأنت إنسان شديد الذكاء وأنت إنسان مهذب وهاتان الصفتان لم تكونا متوافرتين في ميتفورد.

حككت أنفي، وفكرت في الأسئلة الحرجة التي يمكن لي أن أوجهها إليه.. قررت عدم توجيهها إليه، فهناك ثلاثة أنماط من الأذكياء: الأول شديد الذكاء للغاية، الثاني ذكي على نحو يكفي لأن يدرك أنه يتم تملقه ولا يتم وصفه، الثالث قليل الذكاء وهو على استعداد لأن يصدق أي شيء، وكنت أعرف أنني من النوع الثاني، لذا لم يكن بمقدوري أن أصدق كونشيس، فكل ما يقوله يحتمل أن يكون صادقاً.. مجرد احتمال، وافترضت أن عددا قليلاً من الأشخاص الأغنياء المصابين بالهوس قد ظلوا موجودين خارج المصحات من خلال علاقات الضعف العقلي الخاصة بهم، ولكن كونشيس كان أقل الناس الذين قابلتهم في حياتي تعرضا للضعف العقلي الناجم عن كبر السن، ولكن هذا لم يثبت على محك التحليل، كانت هناك أشياء عديدة تتعلق بجولي مثل: نظراتها، وتلك الدموع الفجائية، وهي كلها أمور تؤكد صحة قصته، ولكنها لم تبرهن على أي شيء، فربما كان يتم التخطيط لها دائماً وهي لم تكن ترغب في إتلاف الموقف تماماً.

وقال: حسناً، هل تصدقني؟

ـ أيبدو عليَّ أنني لا أصدقك؟

ـ كل منا لا يكشف مظهره عما يعتمل في داخله، لم يكن ينبغي لك أن تقدم لي تلك الحبة الخاصة بالانتحار.

وعلى مدى لحظات قصيرة بدأت الأقنعة تتساقط على كلا الجانبين.. كنت أنظر إلى وجه خال من روح الدعابة، وهو على ما أعتقد كان ينظر إلى شخص خال من الكرم والسخاء، أخيراً ظهرت روح العداء،

وتصادمت الإرادات، ابتسمنا في آن واحد، كل منا يدرك أنه يبتسم كي يخفي حقيقة جوهرية وهي أن كلا منا لا يثق بالآخر مثقال ذرة.

ـ وأود أن أخبرك يا نيقولاس أن مسألة تصديقك لما قلته لك هي مسألة بلا أهمية، عليك أن تصدق شيئاً واحدا، وهو أن جولي سريعة التأثر وخطيرة للغاية، وهاتان الصفتان موجودتان فيها دون أن تدرك هي ذلك، فهي مثل نصل الشفرة الرقيق الذي يمكن أن يتعرض للتلف بسهولة ولكنه في نفس الوقت يمكن أن يسبب الضرر والأذى بسهولة.

علينا أن نتعلم كيف نظل منفصلين عنها عاطفياً تماماً، لأنها سوف تركز على استغلال عواطفنا ـ إذا منحناها الفرصة.

ظللت محملقاً في مفرش المنضدة مسترجعاً في ذهني كل ما بها من تهيب وخجل وعذرية، أدركت أن سرعة تقلبها ربما ترجع إلى نواح مرضية... وأن الطهارة التي تبدو على وجهها طوال حياتها بالموافقة الجنسية التي تصدر عن الرجال، من الأمور غير المعقولة، ولذلك ليس بمقدوري ألا أصدقه تماماً.

ـ وما هو الشيء الثاني؟

ـ إنه أمر مخجل بالنسبة لي ولكنه ينبغي أن يقال، فمن بين تراجيديات جولي أنها امرأة طبيعية من الناحية الجنسية ولكن ليس لديها متنفس لمشاعرها، باعتبارك شاباً جذاباً مفعماً بالذكورة فإنك تعتبر بمثابة متنفس، وهذا في حد ذاته له فائدة كبرى بالنسبة لها، إنها بحاجة إلى شخص ليقوم بتحريك مشاعرها، وأعتقد أنها حققت بعض النجاح في هذا الشأن.

ـ لقد شاهدتني وأنا أقبلها منذ لحظات.

فقاطعني بأن رفع يده وقال: اللوم لا يقع عليك، إذا طلبت فتاة جميلة فقبلها، ولكنك الآن تعرف الحقائق، لا أريدك أن تصد أي

عرض للصداقة تقدم هي عليه أو أي تلميح بالألفة وإقامة علاقات جنسية غير شرعية، ولكن عليك أن تدرك أن هناك حدودا معينة لا يمكن تجاوزها، فلن أسمح بذلك لأسباب طبية وأنا هنا أتكلم من منطلق افتراضي بحت.. حاولت إقناع ميتفورد في السنة الماضية أنها ستصبح طبيعية لو أخذها بعيداً وتزوجها.. إنها عندما تقول مثل هذه الأشياء فهي تؤمن بها وذلك هو السبب في أن أكاذيبها يمكن أن تكون مقنعة للغاية.

شعرت بالرغبة في الابتسام، لم يكن بمقدوري أن أصدق أن لديها أية مشاعر عاطفية تجاه ميتفورد المعتوه، قلت:

ـ كنت أتمنى لو أخبرتني بكل هذا من قبل.

ـ إذن ينبغي لك ألا تلوم نفسك إلا بقدر ضئيل.. لم أتوقع ردود فعل سريعة من جانب المريضة، ولم أكن لأبدأ في التحدث عن كل هذا لو لم أكن واثقاً أنك غير مرتبط ارتباطات عاطفية في مكان ما آخر.

ـ لقد انتهى الأمر.. إذا كنت تشير إلى تلك البرقية.. فأنا لست بصدد الذهاب لمقابلتها في أثينا.

فنظر لأسفل وهز رأسه: لا شأن لي بهذا الموضوع.. لكن ما قلته عن السيدة الشابة وعن مشاعرك نحوها ترك في نفسي انطباعاً قوياً.. ويجب أن أخبرك أنك ستكون غبياً إذا صرفت النظر عن هذا العرض من جانبها بتجديد الصداقة بينكما.

سأشعر بالأسف إذا كان قرارك قد تأثر على نحو ما بما يجري من أحداث هنا.

ـ قراري ليس له علاقة بالأحداث هنا.

ـ أعتقد أنه من الأفضل لك أن تفكر جيداً فيما إذا كنت ترغب في الاستمرار في زياراتك لنا في هذا المكان أم لا، سوف أتفهم الموقف

جيداً إذا اتخذت قراراً بإيقاف تعاملك معنا، وعلى أية حال أود أن أعطي ابنتي بالمعمودية فترة من الراحة لمدة عشرة أيام.

شعرت بالإحباط الشديد، وفي داخل ذهني رحت ألعن آليسون وبرقيتها المشئومة، كنت مصمماً على إخفاء الإحباط الذي اجتاحني، قلت: أريد أن أستمر معكم.

نظر إليّ مليا ثم قال: على كل حال رأيي أن تستمتع بقضاء إجازة نهاية الأسبوع مع امرأة جذابة في أثينا، أنا طبيب يا نيقولاس، واسمح لي أن أكون صريحاً.. فالشباب الذين في مثل سنك لا ينبغي أن يعيشوا في عزوبية هنا.

ثم نهض واقفاً فجأة ومدّ يده مصافحاً فصافحته.

وقال: حسناً، إنني لمسرور للغاية لأن الأمور أصبحت واضحة بيننا.

وتعمد أن تكون لهجة كلامه على نحو يوحي بأنه يتعمد الكذب كما لو كان يريد لي أن أظل في حالة من الشكوك.

ثم طوى ذراعيه وقال: لقد كنت أفكر في صديقتك، فكما تعرف أنني أمتلك المنزل الذي يعيش فيه هيرميز، وهو يستخدم الدور الأول فقط من هذا المنزل، وخطر ببالي أنك ربما ترغب في إحضار صديقتك إلى جزيرة فراكسوس لقضاء بعض الوقت، ونحن نرحب بها تماماً إذا جاءت لتقيم بالدور الثاني من هذا المنزل، المنزل بسيط ولكنه مجهز ومزود تماماً بكافة الإمكانيات اللازمة.

فشعرت بأنني في موقف حرج تماماً.

وقلت: إنها لا يمكنها أن تترك وظيفتها، ولا أرغب في التورط معها مرة أخرى، ولكنني أشكرك على كل حال على هذا العرض الذي تقدمت به.

ـ حسناً.. هذا العرض مازال قائماً.

أشاح بوجهه فجأة كما لو كنت قد أسأت إلى مشاعره، قلت له: يبدو أنك يا سيد كونشيس قد فهمت موضوع علاقتي بهذه الفتاة الأخرى بشكل خاطئ، كانت مجرد علاقة غير شرعية في عداد الماضي.

ـ لكنها ترغب في أن تقابلك مرة أخرى؟

ـ لمجرد حب الاستطلاع، فأنت تعرف طبيعة النساء الفضولية، وربما يكون سبب رغبتها في مقابلتي هو أن الرجل الذي تعيش معه يوجد حالياً خارج لندن.

ـ لن أتدخل أكثر من ذلك، الأمر يرجع إليك بالطبع.

فاستدرت مبتعداً متمنياً لو كنت قد أغلقت فمي والتزمت الصمت ولكنه نادى عليَّ باسمي، فنظرت إليه عبر الأبواب المفتوحة في غرفة الموسيقى، فنظر إليَّ نظرة أبوية وقال:

ـ اذهب إلى أثينا يا صديقي..

فهمت المعنى.. وواصلت السير صاعداً إلى غرفتي وخلعت ملابسي.. ثم أخذت دُشاً بالمياه المالحة، وعلى نحو غريب أدركت ما كان يريد أن يقوله، إنها ليست لي لأنها ليست لي، ليس لأنها شبح أو مصابة بالفصام.

استلقيت عارياً على سريري ورحت أحملق في السقف محاولاً أن أسترجع وجه جولي وذلك الانحناء الموجود في رموش عينيها، وملمس يدها وفمها وذلك الضغط الخفيف من جسدها لدى تقبيلها، كما استرجعت جسد أختها الذي شاهدته الليلة السابقة، وتخيلت جولي تجيء إليَّ في غرفة النوم أو في غابة الصنوبر تحت جنح الظلام ممتلئة بالرغبة الجامحة في أن يتم اغتصابها.

(٣٤)

لم أستمتع وأنا أتناول طعام العشاء، حاول أن يوقعني في تناقض في كلامي ناولني كتاباً بمجرد أن ظهرت في الأفق قائلاً: هذه أبحاثي كانت فوق الرف غير المخصص لها بطريق الخطأ.

لم يكن كتابا سميكاً، كان مربوطاً في قطعة من القماش دون أن يكون هناك عنوان يشير إلى المحتويات الموجودة به، فتحت الكتاب، كان من الواضح أن الصفحات بمثابة مقتطفات مأخوذة عن مجلات وجرائد مختلفة وكانت النصوص مكتوبة باللغة الفرنسية، وشاهدت تاريخاً هو ١٩٣٦، ورأيت عنوانين: «التكهنات المبكرة بالاتجاه الذي يحتمل أن يتخذه مرض الفصام الخفيف»، «تأثير المهنة على الأعراض المتزامنة لجنون العظمة»، «تجربة نفسية / عقلية في مجال استخدام أوراق نبات الداتورة».

فوضعت الكتاب قائلاً: إنني أرغب في قراءة هذا الكتاب، كنت قد اقتنعت بأن كونشيس لديه معلومات تفوق كثيراً المعلومات الموجودة لدى رجل علماني عن علم الطب النفسي، وأنه قد عرف العلاقة، ولكن بالطبع هذا لا يعني بالضرورة أنه ينبغي لي أن أصدقه فيما يتعلق بجولي.. حاولت أن أحضرها ولكنه كان عنيداً.. إنه وعدني بأن يعطيني صورة كاملة عن الموقف مع نهاية شهر الصيف.

كنت أرغب أن أتحداه ولكني أخشى من الاستياء المتزايد الذي بدأت أكنه نحوه، لأن ذلك يفجر الموقف مما قد يعود عليَّ بالخسران، كأن يطلب مني عدم زيارته بعد ذلك، كما أحسست أنه على استعداد لإلقاء المزيد من الغموض إذا حاصرته بالأسئلة، ولذلك لم يكن أمامي سوى أن أحل الألغاز عن طريق استخدام ألغاز أخرى..

وهكذا انتهت وجبة الطعام حيث أصغيت لطبيب عجوز داهية،

وحيث كنت مثل فأر في مواجهة قط وأشعر بالرغبة الشديدة في أن تجيء جولي، كنت متلهفاً لأن أعرف نوع التجربة التي سأمر بها في ذلك المساء، كان المصباح الموجود بيننا يرتعش ويتوهج ويخبو من وقت لآخر، فأدى ذلك إلى زيادة التوتر بوجه عام ولكن كونشيس وحده هو الذي بدا عليه الهدوء والارتياح.

وبعد رفع الأطباق صب مشروباً من زجاجة صغيرة، سألته:

ـ ما هذا المشروب؟

ـ إنه مشروب يسمى راكي، إنه قوي للغاية، أريدك أن تصبح مخموراً ومسمماً بعض الشيء، لكي تصبح متفتحاً وسريعاً في تقبل الأفكار والآراء.

ـ لقد قرأت الكتيب، ومن الصعب التأكد من صحة ما جاء به.

ـ التثبت من صحة الأشياء هو المعيار الوحيد للحقيقة، وذلك لا يعني أنه قد لا تكون هناك حقائق يصعب التحقق من صحتها.

ـ هل حصلت على أية ردود فعل ناجمة عن هذا الكتيب؟

ـ حصلت على ردود كثيرة من المضطربين عقلياً، ومن البائسين الذين يدمرون تطلع البشرية إلى معرفة الأسرار الغامضة المادية التي تواجه الإنسان، وهذه مسألة تكنولوجيا، ولكنني أتحدث عن الصحة النفسية العامة للأنواع والأجناس والإنسان، فالإنسان في حاجة لوجود الأسرار الغامضة.

فرغت من تناول مشروب الراكي الذي يكاد يكون من الكحول الصافي وقلت: ؟؟؟

فابتسم ورفع الزجاجة لأعلى وقال: وعليك أن تتناول كأساً أخرى.

ـ وبعدئذ تبدأ التجربة؟

ـ أريدك أن تأخذ كأسك وتستلقي على أحد المقاعد، في هذا المكان بالضبط، استلقي على الكرسي، لسنا في عجلة من أمرنا، أريدك أن تنظر إلى نجم معين، هل تعرف مجموعة نجوم سيجنوس؟ هل تعرف مجموعة نجوم سوان؟ تلك المجموعة من النجوم الثابتة التي هي على شكل صليب والتي توجد فوقك مباشرة؟

أدركت أنه ليس بصدد الجلوس على الكرسي المقابل، فجأة انتابتني الظنون: هذا.. هذا.. تنويم مغناطيسي؟

ـ نعم، يا نيقولاس، لا داعي لأن تشعر بالانزعاج.

لقد سبق أن نبهتني ليلى في تحذير: «لسوف تفهم في هذه الليلة»، أصابني التردد بعض الشيء ثم ألقيت بظهري إلى الوراء، قلت: لست منزعجاً لكنني لا أعتقد أنه من السهل إقناعي، ولقد جرب شخص ما ذلك في أكسفورد.

ـ لسوف نرى، إنها مسألة توافق في الإرادات، إنها ليست مسألة منافسة أو تعارض، عليك أن تفعل ما أوحي به إليك.

ـ هل تشاهد مجموعة نجوم سوان؟

ـ نعم.

ثم ابتلعت الكمية الباقية من مشروب الراكي في جرعة واحدة حتى كدت أختنق ثم شعرت بالمشروب يتدفق بين أرجاء معدتي.

ـ هناك نجم يعرف باسم الفاليراي، سأطلب منك أن ترقبه في إمعان.

كان النجم يتلألأ في السماء الخالية من الرياح، نظرت إلى كونشيس الذي يجلس فوق المنضدة وقد أدار ظهره ناحية البحر لكي يواجهني، فابتسمت في الظلام وقلت: أشعر كأنني فوق الأريكة أو الأرض المزروعة بالحشائش.

ـ عظيم، الآن استلق على ظهرك، وقلص عضلاتك ثم ارخها قليلاً،

فالمشروب سيساعدك على الاسترخاء، وجولي لن تظهر هذه الليلة، أبعدها عن تفكيرك، وأبعد الفتاة الأخرى عن تفكيرك، وأبعد عن ذهنك كل الأشياء التي تحيرك وكل التطلعات التي تهفو إليها وكل همومك ومتاعبك، وأنا لا أجلب لك أي ضرر، لا شيء سوى الخير.

ـ الهموم والمتاعب، ذلك ليس أمراً سهلاً.

فلم يرد عليّ، أضفت قائلاً: سأحاول أن أفعل ذلك.

ـ سيساعدك ذلك على النظر إلى النجم، لا تُحوِّل نظرك عنه، استلق فوق ظهرك.

بدأت أحملق في النجم، وحركت جسدي قليلاً لكي أجعل استلقائي مريحاً، وتحسست قماش معطفي بيدي، بدأت أشعر بالارتياح وأنا أنتظر، سادت فترة صمت طويلة، أغلقت عيني للحظات قصيرة ثم فتحتهما، وبدا النجم كأنه يسبح في بحر من الفضاء، وظهر مثل شمس بيضاء صغيرة، أحسست بالكحول لكنني مع ذلك كنت واعياً لكل ما يدور من حولي، كنت واعياً للفراندة، الموجودة في منزل يقع في جزيرة في دولة اليونان، وكانت هناك نسمة من الرياح، بل باستطاعتي سماع هدير الأمواج، شرع كونشيس في التكلم مرة أخرى:

ـ الآن أريدك أن ترقب النجم، أريدك أن ترخي جميع عضلاتك، أدخل أعصابك في حالة توتر، توتر، استرخ، الآن ارقب النجم، هذا النجم يسمى الفاليراي.

رحت أفكر: يا إلهي! إنه يحاول تنويمي مغناطيسياً، وبعدئذ سأضطر إلى اللعب بالقواعد والقوانين، ولكني سأستلقي متظاهراً بأنني وقعت بالفعل تحت التأثير المغناطيسي.

واستمر في الكلام ولكن طريقته التي تتميز بالعبارات المختصرة والمقطوعة اختفت تماماً، بدا كأن صوت الهدهدة الناجم عن البحر

والإحساس بالهواء ونسيج معطفي وصوت كونشيس قد تلاشت كلها، وخرجت عن دائرة الوعي، ودخلت مرحلة النظر بكل كياني إلى النجم وأنا مازلت مستلقياً في الفراندة، أعني أنني كنت مدركاً لاستلقائي ومدركاً لحملقتي في النجم إذا لم يكن هذا النجم قد أصبح أي شيء آخر.

ثم هبط عليَّ وهم غريب، بدا كأنني لا أنظر لأعلى وإنما أشبه شخصاً ينظر لأعماق بئر.

وشعرت كأن ذاتي غير موجودة في مكان واضح المعالم، وكان النجم محوطاً بشيء من العزلة تبدو للمشاهد من خلال النظر في تليسكوب، كان يسبح طافياً في أنفاس الفضاء في نوع من السديم الضبابي، أتذكر في وضوح شديد هذا الإدراك البالغ الغرابة تماماً للنجم وكأنه أصبح كرة بيضاء، ثم أحسست أنني معلق مثل النجم في سديم ضبابي مظلم، كنت أرقب النجم وكان النجم هو الآخر يرقبني، أصبحنا متوازنين ومتساويين في كفتي الميزان، استمر هذا الوضع لفترة طويلة على ما يبدو ولا أعرف على وجه الدقة كم من الوقت انقضى ونحن على هذه الحال، كيانان معلقان بالتساوي في السديم الضبابي خاليان من أي معنى أو شعور، لم يكن هناك إحساس بالجمال أو المبادئ الأخلاقية أو بالهندسة الفيزيقية، لا شيء سوى الإحساس بالموقف في حد ذاته، شعور قد يكون مشابهاً لما يشعر به الحيوان.

ثم حدث ارتفاع في التوتر، كنت أتوقع حدوث شيء ما، لم أعرف ما إذا كان الأمر سيبدو لي مسموعا أو مرئياً أو على أي وجه من وجوه الحواس، ولكن ذلك الشيء كان يحاول المجيء، وحاولت أن أكتشف مجيئه، بدا كأنه لم يعد هناك نجم، أذكر كلمتين، نطق بهما كونشيس: كلمة «توهج»، وكلمة» استمع».

كان هناك الضباب السديمي المتوهج المستمع، ثم هب النسيم

ملامساً وجهي على هيئة إحساس مادي ملموس تماماً، كان منعشاً ودافئاً، أدركت فجأة أن النسيم يهب عليَّ من جميع الجهات، رفعت يدي فأحسست بالنسيم فوق يدي، إنها رياح مظلمة شبيهة بتيار هوائي ناجم عن آلاف المراوح غير مرئية تتدفق عليَّ.

ثم بدأ النسيم في التغير بطريقة غير ملموسة، وأصبح ضوءاً، أدركت في غير دهشة أن الرياح أصبحت ضوءاً، إنه ضوء لذيذ للغاية، كان شبيها بأخذ حمام شمسي ذهني عبر شتاء مظلم طويل، ثم انتقلت إلى مرحلة أخرى، ذلك الأمر هو شيء ما قد جذب كل هذا الضوء، بدا كونشيس وكأنه يكشف عن شيء ما بالغ الأهمية، وكنت مدركاً لوجودي وأصبح هذا الوعي أكثر أهمية من الضوء مثلما أصبح الضوء أكثر أهمية من الرياح، وبدأ يجتاحني إحساس بالتطور وبأنني آخذ في التحول مثلما يتحول شكل نافورة لدى تعرضها للرياح فتصبح على هيئة دوامة في الماء، أصبحت كل من الرياح والضوء مجرد طرق تؤدي إلى الحالة الراهنة، وهي حالة راهنة ليس لها أبعاد ولا أحاسيس.

كان لديَّ الإحساس بأنه لا شعور بالقدسية، ولا بالأخوة الإنسانية ولا بأي شيء كنت أتوقعه قبل أن أصبح واقعاً تحت التأثير، ولا وجود لمذهب وحدة الوجود، ولا وجود للمبادئ أو الاتجاهات الإنسانية، وإنما يوجد شيء ما أكثر رحابة وأكثر اتساعاً وأكثر برودة وأكثر غموضاً، وإبهاماً وأكثر صعوبة من حيث الإدراك أو الاستيعاب، تلك الحقيقة كانت بمثابة تفاعل داخلي لا نهائي، لا يوجد خير، ولا يوجد شر، لا جمال ولا قبح، لا تعاطف ولا كراهية، يوجد فقط التفاعل الداخلي، التفرد اللانهائي للواحد، وانفصاله الكامل عن كل ما عداه، جميع الأضداد بدت وكأنها شيء واحد.

أن يعرف الإنسان وأن يرغب وأن يكون عاقلاً وحكيماً وأن يكون خيراً وأن يعرف التعليم والإعلام والتصنيف والمعرفة بكافة أنواعها

ورهافة الحس والأمور الجنسية، كل هذه الأشياء بدت سطحية، لم تكن لديّ الرغبة أن أحدد أو أحلل هذا التفاعل الداخلي، كنت أرغب فقط في أن أشكله وأكونه، بل ولم أكن «أرغب في أن أشكله وأكونه» وإنما كنت أشكله وأكونه بالفعل، كنت بدون إرادة.

أظن أنني شاهدت النجم مرة أخرى لفترة قصيرة، النجم على النحو الذي كان عليه من حيث تعلقه في السماء فوقي ولكنه الآن أصبح في حالة صيرورته، كان شبيهاً بالسير من خلال باب والطواف في جميع أرجاء العالم ثم السير من خلال نفس الباب ولكنه باب مختلف.

وبعدئذ حل الظلام الشامل، لا أذكر شيئاً، ثم حل الضوء.

(٣٥)

طرق شخص على الباب، رحت أحدق في حائط، كنت في سريري مرتدياً بيجاما، وملابسي مطوية فوق الكرسي، كان ضوء النهار ساطعاً وفي وقت مبكر للغاية حيث نظرت إلى ساعة يدي، كان الوقت يقترب من السادسة صباحاً، جلست فوق حافة السرير، أحسست بالعار والإذلال لأنني وقعت تحت سيطرة كونشيس بل لأن الآخرين ربما شاهدوا تلك التجربة، لقد رأيت نفسي ملقى هنالك وكانوا جميعاً ينظرون ويبتسمون بينما كونشيس يوجه إليّ الأسئلة في حين أرد بإجابات صريحة، من المؤكد أنه قام بتنويم جولي تنويماً مغناطيسياً وهذا يفسر السبب في عدم ذهابها للنوم في فراشها، لقد أدركت الكيفية التي تم بها تنفيذ هذه التجربة إذ كانت هناك بعض المخدرات وعقاقير الهلوسة في مشروب الراكي، ولعله وضع بعض أوراق الداتورة، ثم أوحى لي بكل هذه التخيلات وبكل هذه المراحل من المعرفة التي حفزني إليها بينما كنت مستلقياً هنالك لا حول لي لا قوة، نظرت فيما حولي باحثاً عن المجلد الذي يضم أوراقه الطبية، ولكنه لم يكن

موجوداً بالغرفة، جلست على مدى دقائق وقد وضعت رأسي بين يدي أشعر بالتمزق ما بين الاستياء والامتنان.

اغتسلت وحملقت في المرآة، ونزلت لأسفل لكي احتسى القهوة التي تقوم ماريا الصامتة بتقديمها لي، أدركت أن كونشيس لن يظهر في الأفق، وأن ماريا سوف تلتزم الصمت، كان من المقرر ألا يتم توضيح أي شيء، فقد دبرت الخطط الرامية إلى إبقائي في حالة من القلق والتشويش والترقب إلى أن أعود مرة أخرى.

بينما كنت أسير عائداً إلى المدرسة حاولت أن أقّيم التجربة، لقد بدت تجربة رائعة مليئة بالشؤم، وكان من الصعب على المرء أن يصدق تحت ضوء ذلك الصباح الباكر الذي يغمر المناظر الطبيعية الجميلة أن أي شيء على وجه الكرة الأرضية يمكن أن يكون مشئوماً، ومع ذلك كان هذا الإحساس متعمقاً في داخلي في إصرار، كان إحساساً بالإذلال ومقدم خطر جديد، إحساساً بالعبث في أشياء أكثر إظلاماً وأكثر غرابة، لقد جعل هذا خوف جولي من كونشيس أكثر إقناعاً من مجرد اهتمامه الطبي الزائف بها، وربما تكون مصابة بالفصام ولكنه كان ممارساً لمهنة التنويم المغناطيسي بشكل أكيد وثابت وعلى نحو لا يدع مجالاً للشك، لم يجعلني هذا أفترض أنهما كانا يعملان معاً من أجل الإيقاع بي في الحيل الخادعة، بدأت أفتش في داخل ذاكرتي ومن خلال جميع لقاءاتي مع كونشيس محاولاً معرفة ما إذا كان قد قام بتنويمي مغناطيسياً من قبل دون أن أكون مدركاً لذلك.

وتذكرت في مرارة أنني أخبرت جولي في فترة ظهر الأمس أن إحساسي بالحقيقة الواقعة كان شبيهاً بالجاذبية، ولبعض الوقت كنت شبيهاً برجل في الفضاء يدور من خلال الجنون، وتذكرت حالة كونشيس التي تشبه الغيبوبة في أثناء أبوللو، فهل قام كونشيس بتنويمي مغناطيسياً كي أتخيل كل ما رأيته في مشهد أبوللو؟ وهل هو الذي أراد

لي أن أنام بالفعل بعد ظهر ذلك اليوم مما أتاح له عمل الترتيبات اللازمة؟ وهل كان هناك بالفعل رجل وفتاة واقفان هنالك؟ بل وحتى جولي ذاتها، تذكرت ملمس بشرتها وشفتيها، لقد عدت راجعاً إلى الأرض ولكنني كنت مهزوزاً على نحو خطير.

لم يكن تنويمي مغناطيسياً بمعرفة كونشيس هو الذي هزني فقط، إذ أدركت أنني قد نومت مغناطيسياً بمعرفة الفتاة وذلك على نحو أكثر دهاء وإن كان بنفس الأسلوب، لقد صدقت أن الرجل والمرأة بإمكانهما أن يدركا خلال الدقائق العشرة الأولى ما إذا كانا يريدان الذهاب للسرير معاً من عدمه وأن الوقت الذي انقضى عقب تلك الدقائق العشرة بمثابة الضريبة الجديرة بالدفع لو ثبت أن ذلك الشيء كان ممتعاً حقاً أو قد تكون ضريبة مبالغاً فيها بنسبة ٩٠٪، لم يكن الأمر فقط هو أنني توقعت حدوث مغازلة شديدة الانحدار مع جولي، فهي قد هزت نظريتي بأكملها، ولكن الظلام الذي يسود خلف الباب قد منعني من فتح الباب على مصراعيه، ربما كان الأمر في أحد جوانبه بمثابة شعور جارف بالحنين إلى تلك المرأة المتعلقة بالماضي.

طوال ذلك الصباح، جلست في الفصول الدراسية أدرس للطلبة كما لو كنت مازلت واقعاً تحت التأثير المغناطيسي، إذ كنت غارقاً في بحر الاحتمالات، وبدأت أشاهد كونشيس على أنه قصاص نفساني لا يكتب الروايات لأنه لا يستخدم الكلمات في إبداعه وإنما يستخدم الناس، أصبحت أشاهد كونشيس كرجل معقد شديد الانحراف والشراسة، آراه شخصاً عبقرياً ونابغة بين أشخاص عاديين عمليين، كنت مبهوراً به على كل حال، وكذلك بجولي من حيث هي ليلى بشعرها الملقى على الجانبين وبوجهها المبلل بالدموع، في تلك اللحظة الأولى تحت ضوء المصباح بمثابة علاج بارد، لم أحاول أن أتظاهر بأنني أي شيء آخر بخلاف أنني واقع تماماً تحت تأثير بوراني، كانت هناك قوة تجذبني من

خلال نوافذ حجرة الدراسة وعبر الهواء الأزرق إلى سلسلة الجبال الوسطى ومنها إلى الأماكن السفلية حيث أرغب في الوجود دائماً، صفوف من أوجه التلاميذ ذوي البشرة الزيتونية اللون ورؤوسهم السوداء المنحنية ورائحة غبار الطباشير، وبقعة من الحبر القديم المنطبعة في ثبات على مكتبي، كل هذه الأمور كانت مثل أشياء مغلفة في الضباب، مثل أشياء حقيقية ولكنها ليست حقيقية مثل عقبات أصبحت نسياً منسياً.

وعقب تناول طعام الغذاء جاء ديمترياديس إلى غرفتي، وأراد أن يعرف من تكون آليسون وبدأ يستخدم ألفاظاً بذيئة فرفضت أن أخبره بأي شيء، وصحت فيه صارخاً أن يغرب عن وجهي، فشعر بالإساءة البالغة وظل يتجنبني على مدى الأيام الباقية من ذلك الأسبوع، فلم أهتم بذلك وشعرت بالراحة لابتعاده عني.

وبعد أن انتهيت من الدرس الأخير لم أستطع المقاومة، كان عليَّ أن أعود إلى بوراني، لم أعرف ماذا سأفعل ولكن كان عليَّ أن أدخل مرة أخرى في ذلك المجال، وبمجرد أن شاهدت بوراني وشاهدت خلية الأسرار المستلقية تحت بقايا ضوء الشمس على قمم أشجار الصنوبر الواقعة أسفل مني شعرت بالارتياح كما لو كنت لا أتوقع أن هذه الأمور مازالت هنالك، وكلما اقتربت شعرت أنني أكثر تردياً في الآثام، كنت أود أن أشاهدهم وأن أدرك أنهم في انتظاري.

وعند الغسق اقتربت من الجهة الشرقية وانزلقت بين الأسلاك الشائكة وسرت في حذر متجاوزاً تمثال بوسايدون في الأخدود الطبيعي وبين الأشجار إلى حيث يمكنني مشاهدة المنزل، كل نافذة عند ذلك الجانب كانت مغلقة بالشيش، لم يكن هناك دخان متصاعد من كوخ ماريا، فسرت حول المنزل إلى حيث يمكنني مشاهدة الواجهة الرئيسية له، كانت النوافذ الفرنسية تحت صف الأعمدة مغلقة أيضاً.. وكذلك كانت النوافذ الممتدة من غرفة نوم كونشيس إلى الفراندة مغلقة أيضاً. كان من

الواضح أنه لا يوجد أحد هنالك، فسرت عائداً بين طيات الظلام وقد تملكتني مشاعر الاكتئاب وتزايد غضبي من كونشيس لأنه حرمني من عالمه الخاص.

وفي اليوم التالي كتبت خطاباً لميتفورد قلت له فيه إنني قد ذهبت إلى بوراني وتقابلت مع كونشيس، وطلبت منه أن يحدثني صراحة عن تجربته الشخصية في بوراني.

حصلت على عنوان ليفاريير في إنجلترا من سكرتير المدرسة، واحتفظت بالعنوان معي لعلي أحتاج إليه فيما بعد.

وقمت أيضاً ببعض التقصي عن أرتيميس، إنها هي أخت أبوللو في الميثولوجيا، كانت حامية للعذراوات ومتشفعة للصيادين، وكان الرداء الزعفراني والحذاء ذو الرقبة والقوس الفضي هم الزي الرسمي لها في الشعر الكلاسيكي، ورغم أنها كانت مستعدة لإشعال نيران الحرب دون تردد بسبب شباب غارق في الحب الجنسي فإنني لم أستطع العثور على ما يفيد أن أخاها ساعدها.

اضطررت للبقاء بالمدرسة يومي الثلاثاء والأربعاء لتحضير الدروس، وفي يوم الخميس عدت إلى بوراني، بدا المكان مهجوراً مثلما كان عليه الحال في يومالإثنين.سرت حول المنزل، وحاولت مع شيش النوافذ ثم تجولت هائماً على وجهي هنا وهناك بالقرب من المنزل ثم هبطت نازلاً إلى الشاطئ الخاص الذي أبحر منه الزورق، وأخيراً جلست منخرطاً في تفكير عميق على مدى نصف ساعة في الغسق تحت صف الأعمدة، شعرت بأنه قد تم استغلالي وشعرت بالغضب من نفسي ومنهم في آن واحد، كنت متلهفاً للغاية للانخراط في هذه المسألة برمتها وكنت أشعر بالرغبة الشديدة في الاستمرار معهم رغم ما يكتنف ذلك من مخاوف هائلة، لقد غيرت رأيي مرة أخرى، لم أعد أعرف معلومات أكثر عن

الفصام ولم أستطع أن أتخيل السبب الذي دعاه لأن يوقف التمثيلية التنكرية فجأة، إذا كانت هي مجرد تسلية.

فجأة قفزت آليسون إلى ذهني، فهناك اليوم مركب خصوصي من المقرر له أن يبحر في منتصف الليل من أجل أن ينقل الأولاد والأساتذة ويعود بهم إلى أثينا لقضاء إجازة نصف السنة هناك، وكان ذلك يعني قضاء الليل كله في إغفاءة من النوم في كرسي بصالون الدرجة الأولى القذر بالمركب.. لكن ذلك يتيح الفرصة لقضاء يوم الجمعة في أثينا، ولا أدري السبب الذي جعلني أقرر السفر على نفس المركب، هل هو الغضب أم الضغينة أم الانتقام؟ من المؤكد أن آليسون لم تكن السبب، فكم أنا بحاجة إلى التحدث مع أي شخص.

وبعد دقيقة رحت أسير بسرعة هابطاً على المدق المؤدي إلى البوابة، ثم ألقيت نظرة إلى الوراء حيث كان لديَّ أمل لا يزيد على واحد في الألف في أن يظهر شخص ما وينادي عليَّ ويطلب مني الرجوع إلى المنزل، لكن، لم يظهر أي شخص، لذلك اعتليت ظهر المركب لأنه لم يكن هناك أمامي أي شيء آخر أفضل من ذلك.

(٣٦)

كانت أثينا مليئة بالتراب والجفاف والملل، بدت أشجار النخيل كأنها تعاني من الإرهاق، وتراجعت كل الصفات الإنسانية خلف بشرات سمراء.. ونظارات أكثر سواداً.. ومع حلول الساعة الثانية بعد الظهر خلت الشوارع بسبب الحرارة والكسل، استلقيت في إعياء على سرير في فندق في بيروس، ورحت في سنة من النوم المتقطع في أثناء فترة غروب الشمس، بدت المدينة غير مريحة، فبعد أن عشت في بوراني أصبحت العودة الفجائية إلى العصر الذي نعيش فيه أمراً مثيراً للارتباط والتشويش.

جذبت فترة ما بعد الظهر الساعات الفاترة المتراخية الخاملة، وكلما اقترب الوقت المحدد لمقابلتي لآليسون شعرت بالمزيد من الحيرة، كنت أدرك أن السبب الرئيسي لحضوري إلى أثينا هو الرغبة في أن ألعب لعبتي المزدوجة مع كونشيس، فبالأمس فقط وتحت صف الأعمدة بدت آليسون مجرد دمية تستخدم في اللعبة، أما الآن وقبل مقابلتي لها بساعتين.. فإن الجنس معها كان أمراً لا يشغل تفكيري، لذلك كان هناك احتمال كبير أن أحدثها عما يجري من أمور في بوراني، لم أعد أعرف السبب الذي دعاني للمجيء إلى أثينا وشعرت بالرغبة الشديدة في أن أعود إلى الجزيرة، فلم أكن أرغب في خداع آليسون وفي نفس الوقت لا أرغب في أن أكشف لها عما يدور من حقائق.

ولكن هناك شيئاً ما جعلني أستمر في الاستلقاء هنالك، شيء من حب الاستطلاع والرغبة في معرفة ما قد يكون قد حدث لها، شيء من ذكريات العاطفة والمحبة المنصرمة، ووجدت في ذلك نوعاً من الاختبار لعميق مشاعري نحو جولي واختبار لشكوكي، كانت آليسون بالنسبة لي تعني الماضي وبذلك كان بالإمكان أن أطلعها على جانب من مغامراتي الخاصة، كنت قد عثرت على حل بطريق المصادفة في أثناء الليل الطويل فوق المركب وهو أن أجعل لقائي معها خالياً من العدوى وعلى نحو يجعلها تشعر بالأسى من أجلي ومع التحفظ في نفس الوقت في علاقتي معها.

وفي الخامسة، نهضت واستقليت تاكسيا إلى المطار، وجلست على مقعد في مواجهة كونتر الاستقبال الطويل ثم تحركت بعيداً وأنا أشعر أن حالتي تزداد توتراً.

في الساعة السادسة والنصف، سرت إلى الكونتر، كانت هناك فتاة يونانية ترتدي الزي الرسمي الملائم لوظيفتها، قلت لها: إنني على موعد مع إحدى المضيفات الجويات، تسمى آليسون كيللي.

ـ آليي؟ لقد وصلت طائرتها، وهي تغير ملابسها الآن.

ثم التقطت سماعة التليفون وأدارت رقما وأضاءت بأسنانها نحوي، كانت لهجتها غاية في الإتقان وهي تنطق بلهجة أمريكية: آلى؟ صديقك الذي أنت على موعد معه موجود هنا، إذا لم تحضري على الفور سيأخذني بدلاً منك.

ثم قالت لي: وهي تريد أن تتكلم معك..

ـ أخبريها أنني سأنتظرها، ولا داعي لها أن تكون في عجلة من أمرها.

من المؤكد أن آليسون قد قالت كلاماً ما؛ لأن الفتاة ابتسمت، ثم وضعت سماعة التليفون، نظرت إلى نظرات جريئة للغاية من بين رموشها الطويلة السوداء، ثم التفتت لكي تتحدث مع امرأتين ظهرتا عند الطرف الآخر للكونتر، فذهبت لأقف بالقرب من المدخل وقد شعرت كأنني قد جئت من كوكب آخر.

ثم ظهرت آليسون عبر الباب، كان شعرها قصيراً وترتدي فستاناً أبيض اللون، لقد ارتدت ذلك الفستان لكي تذكرني بأول لقاء تم بيننا، كانت بشرتها أكثر شحوباً، خلعت نظارتها السوداء عندما شاهدتني، تبين لي أنها تشعر بالإرهاق، كان جسدها جميلاً للغاية وكذلك ملابسها ومشيتها، نفس الوجه القديم ونفس العينين الباحثتين عن حقيقة الأمور، وصلت أمامي ووقفت وابتسم كل منا للآخر ابتسامة خفيفة.

ـ هاي.

ـ هاي آليسون.

ـ آسفة لقد تأخرت كالمعتاد، كانت تتكلم كما لو كنا قد تقابلنا في آخر مرة في الأسبوع الماضي، ولكن هذا لم يأت بالنتيجة المرجوة،

فالأشهر التسعة التي انقضت وقفت مثل الغربال بيننا، حيث تنفذ الكلمات من ثقوب الغربال وإنها كلمات خالية من العواطف الصادقة.

ـ هل لنا أن نذهب؟

وأخذت حقيبة شركة الطيران التي تحملها واصطحبتها إلى الخارج، وفي داخل التاكسي جلسنا في ركنين متقابلين ونظرنا إلى بعضنا البعض مرة أخرى، وابتسمت.

ـ كنت أتوقع ألا تجيء.

ـ لم أكن أعرف المكان الذي أرسل عليه برقية تفيد رفضي للمجيء، لقد كنت ماكرة.

نظرت إلى الخارج من نافذة التاكسي، لوحت بيدها لرجل يرتدي الزي الرسمي، بدت لي أكبر سناً وأكثر خبرة في الحياة من خلال كثرة الأسفار، وبدا عليها كأنها بحاجة لأن تتعلم مرة أخرى، وأنا لم يكن لدي الطاقة التي تعينني على ذلك.

ـ لقد حجزت لك غرفة مطلة على الميناء.

ـ جميل... عظيم.

ـ إنهم يتميزون بالشراسة الشديدة في الفنادق اليونانية، كما أن الغرف فاسدة الهواء.

كنت على وشك أن أقول لها عبارات أعددتها مسبقاً في ذهني لكنني تضايقت عندما اكتشفت أنها تفترض أنني لم أتغير عن ذي قبل، أمسكت بيدها وضغطنا على الأصابع، مدت يدها ورفعت نظارتي عن عيني وقالت:

ـ أنت تبدو جميلاً بدون النظارة، هل تدرك ذلك؟ وبشرتك تبدو بنية اللون لقد جففت في الشمس.

فابتسمت ونظرت لأسفل وتركت يدها لكي أستخرج سيجارة من علبة سجائري.

وكنت أدرك المعنى الذي يستتر وراء تملقها لي، كانت تريد أن تقول إن الدعوة الموجهة لي بخصوص جسدها ما زالت قائمة وممتدة.

ـ يا آليسون، إنني أمر بحالة غريبة تتسم بالحظ العاثر.

فأنطفأ المرح الزائف من كيانها وحملقت أمامها في حيرة، قالت: أهناك فتاة أخرى في حياتك؟

ـ لا، لا.. لقد حدث تغيير في شخصيتي، ولا أعرف كيف أبدأ في شرح الأمور لك..

ـ ولهذا كنت تتمنى من الله ألا أقابلك.

ـ لا.. إنني.. سعيد لمجيئك، والتزمت الصمت للحظات قليلة، وانطلقنا على الطريق الساحلي.

قالت: مازالت علاقتي مستمرة مع بيتي.

ـ لقد سبق أن قلت لي ذلك.

ـ نسيت أنني أخبرتك بذلك، وأنا لم أكون علاقات مع أي شخص آخر منذ أن أقمت علاقات معه، أنا آسفة.. كان ينبغي أن أبدأ معك الكلام في الثرثرة في الموضوعات الخفيفة.

ـ لا... أقصد.. إنك تعرفين.

رمقتني بنظرة أخرى، كانت تدرك أن مشاعرها قد جرحت، ولكنها تحاول إقناع نفسها أن مشاعرها لم تجرح.. بذلت مجهوداً، وقالت: أعيش مع «آن»، عدت إلى الشقة القديمة في الأسبوع الماضي وماجي عادت إلى بيتها.

ـ كنت أشعر بالارتياح نحو آن.

ـ نعم أنها إنسانة لطيفة.

سادت فترة طويلة من الصمت، وانطلق بنا التاكسي، راحت تفتش في حقيبة يدها واستخرجت نظارتها السوداء، أدركت السبب في ذلك، إذ شاهدت خطوطاً من الضوء المبلل حول عينيها، لم ألمسها ولم أمسك بيدها، تحدثت عن الفارق ما بين بيروس وأثينا وأن بيروس أكثر جمالاً واتساماً بالطابع اليوناني، ظننت أنها لا تحب بيروس أكثر من أثينا، كنت قد اخترت بيروس بسبب وجود احتمال ضئيل بأن نتقابل مصادفة مع كونشيس وجولي، خطر على ذهني أنه لو حدث ذلك فقد تنظر إليَّ في برود مما يثير الرعشة في عمودي الفقري، كان هناك شيء ما يتعلق بطريقة آليسون ومظهرها بحيث إذا كان رجل معها فلا يستطيع أن يمنع نفسه من الذهاب إلى السرير، وبينما كنت أتحدث معها ساءلت نفسي في تعجب: ترى كيف سيتسنى لنا أن نواجه الحياة معاً على مدى الأيام الثلاثة التالية؟

قدمت بقشيشاً للولد فأخذ البقشيش وغادر الغرفة، اتجهت آليسون إلى النافذة ونظرت إلى رصيف الميناء العريض وإلى الجماهير التي تسير الهوينى في الفترة المسائية، وقفت خلفها وبعد حسابات عاجلة وضعت ذراعي حولها فاستندت عليّ على الفور.. قلت: إنني أكره المدن الصاخبة، وأكره الطائرات، أود أن أعيش في كوخ بأيرلندا.

ـ ولماذا إيرلندا بالذات؟

ـ في مكان ما لم يسبق لي أن ذهبت إليه على الإطلاق.. شعرت بالدفء يسرى في كياني وبالرغبة العارمة في جسدها، كان من المتوقع أن تستدير بوجهها نحوي وعندئذ يتحتم عليّ أن أبادر إلى تقبيلها، قلت: يا آليسون لا أعرف تماماً كيف أقول لك هذا النبأ؟

وأبعدت يدي عن جسدها ووقفت إلى جوارها حتى تتمكن من

مشاهدة وجهي، وأضفت قائلاً: أصبت بمرض منذ ثلاثة أشهر، إنه الزهري.

ألقت عليّ نظرة، تتسم بالاهتمام الشديد وعدم التصديق، فاستكملت: ولكني الآن على ما يرام، ولكن كما تعرفين، لا يمكنني أن...

أومأت برأسي وتحول عدم التصديق إلى التصديق.. واتجهت نظراتها إلى أسفل. ـ لقد انتقم الله لك مني.

اقتربت مني ولفت يديها حولي وقالت: أوه يا نيقولاس.. أوه يا نيقولاس.

فقلت من فوق رأسها: من المفروض ألا أقوم بأية اتصالات عن طريق الفم والتقبيل أو اتصالات جنسية كاملة على مدى شهر آخر ابتداء من الآن، لم أكن أدري ماذا أفعل، كان ينبغي على ألا أكتب خطابات إليك على الإطلاق.

فتركت مكانها عند النافذة واتجهت إلى السرير وجلست عليه، فأدركت أنني وضعت نفسي في مأزق جديد، لقد اعتقدت أن ذلك هو السبب الرئيسي في الارتباك الذي أحاق بنا، ابتسمت ابتسامة رقيقة مليئة بالعطف والحنان قائلة:

ـ احك لي بالتفصيل كل ما يتعلق بهذا الموضوع.

فأخذت أجوب الغرفة جيئة وذهاباً وأنا أحدثها عن بتاريسكو والعيادة الطبية وعن الشعر وعن محاولتي للانتحار وعن كل شيء باستثناء بوراني.

استندت بظهرها على السرير وراحت تدخن سيجارة بينما جلست أنا على حافة السرير، رحت أصغي لها في غير انتباه مؤدياً دوري التمثيلي وبدأت استمتع بوجودي معها مرة أخرى، ليس مع آليسون بصفة خاصة

ولكن في هذه الغرفة الفندقية مع سماع تمتمة جماهير المساء المترامية من أسفل وسماع أبواق السيارات علاوة على شم رائحة بحر إيجة الذي يئن من الإرهاق، لم أشعر بأي جاذبية نحوها ولا لأنها قطعت علاقاتها مع الطيار الأسترالي الجلف، لم أشعر إلا بذلك الحزن الغامض الذي يغلف الغرفة المظلمة، فسرعان ما خيم الشفق الأحمر على الأجواء، وبدت لي كل خيانات الحب المعاصر جميلة، وظللت محتفظاً بذلك السر الهائل الخاص بي بين ضلوعي، إنها اليونان مرة أخرى.. درجات من جمال في حالة انحطاط خلقي، المبادئ الأخلاقية كانت أكذوبة في أوربا الشمالية.

وسادت فترة صمت طويلة.. لم أحضر لكي أكون صديقتك القديمة، فوضعت رأسي بين يدي.

- يا آليسون، لقد سئمت من النساء من الحب والجنس، من كل شيء ولم أعد أعرف ماذا أريد، إنني حالياً أشعر بحنين جارف لأن يكون لدى أخت، فإذا قلت إن كلامي فارغ سأقدر موقفك وسأفهم ظروفك.

فنظرت لأعلى مرة أخرى وقالت: وهو كذلك، أنت تريد أختاً، ولكنك ستشفى تماماً في يوم ما.

ظهر على صوتي الارتباك وأنا أقول: لست أدري ما إذا كنت سأشفى أم لا، استمعي إلى.. يمكنك أن تبتعدي عني وتصبي على اللعنات فأنا رجل ميت في هذه اللحظات.

- رجل ميت أحببته ذات يوم، وزحف صمت طويل بيننا، اعتدلت في جلستها فجأة في حيوية وغادرت السرير ثم أضاءت الأنوار وراحت تمشط شعرها، واستخرجت القرط الذي كنت أعطيته لها في لندن

ولبسته ثم راحت تضع أحمر الشفاه، فقفز ذهني إلى شفتي جولي الخاليتين من أحمر الشفاه.

من سخرية الأقدار أن الطريق المؤدي إلى المطعم الذي اخترته كان يمرّ بالمنطقة ذات الأضواء الحمراء في بيروس، بارات ولافتات بالنيون وصور فوتوغرافية لفتيات عاريات وراقصات عاريات البطن ومجموعات من البحارة يتسكعون وصفوف من الفتيات المعروضات على أرائك مبطنة بالوسائد، كانت الشوارع مليئة بالقوادين والديوثين والمومسات والباعة الجائلين، سرنا في صمت، كنت أتخيل ليلى وهي تسير معي في ذلك الشارع وقد راحت تضفي الصفاء على كل شيء دون أن تلجأ إلى استخدام الأساليب السوقية الشرسة، كان وجه آليسون جامداً وبدأنا نسير بسرعة لكي نخرج من هذا المكان، أدركت أن مشيتها بها مسحة من ذلك الطابع الجنسي القديم المحبب للنفس وهذه خاصة متأصلة في مشيتها بحيث إنها لم تستطع أن تمنع نفسها من ذلك مما جعل الآخرين يلحظون ذلك في مشيتها.

عندما وصلنا محل سبيرو قالت في إشراق: الآن يا أخي نيقولاس ماذا ستفعل معي؟

ـ يمكننا أن نذهب إلى مكان ما، لم تشاهديه من قبل.

ـ لا أرغب في الذهاب إلى الأماكن التي يذهب إليها السياح، أريدك أن تفكر في مكان ما نكون فيه بمفردنا، فأنا أكره الناس.

ـ ما رأيك في أن نذهب للنزهة؟

ـ أرحب بذلك، أين؟

ـ حسناً، إلى هناك، إلى بارناسوس، مجرد نزهة لمسافة طويلة ويمكننا أن نستأجر سيارة ونذهب إلى معبد دلفى بعد ذلك.

وجاء سمك البربون وشرعنا في تناول الطعام، فجأة أصبحت تتدفق

بالحيوية وبدأت فكرة تسلق جبل بارناسوس تثير اهتمامها وراحت تحتسي كأساً وراء كأس من مشروب الرستينا، وفعلت كل شيء من الأشياء التي لا يمكن لجولي أن تفعلها ثم كشفت الخدعة بطريقتها الخاصة المميزة لها.

قالت: إنني أدرك أنني أبذل قصارى جهدي، ولكنك تجعلني أحب ذلك، نيقولاس، استمع إليّ، في الأسبوع الماضي كنت في غرفتي القديمة في الشقة، وسمعت وقع أقدام، في الدور العلوي، وبكيت، مثلما بكيت في التاكسي اليوم، مثلما يمكنني أن أبكي الآن، ولكنني لن أبكي، بل وباستطاعتي أن أبكي لأننا نظل نستخدم أسماء بعضنا البعض.

ـ ألا ينبغي لنا أن نفعل ذلك؟

لم نكن نفعل ذلك على الإطلاق، كنا قريبين من بعضنا بحيث لم نكن بحاجة لأن نستخدم أسماءنا، ولكن ما أريد أن أقوله هو لو سمحت كن لطيفاً معي ولا تقف لي دائماً بالمرصاد لكي تصدر حكماً على كل كلام أقوله أو كل شيء أفعله فهذه هي طبيعتي ولا أملك تغييرها.

أومأت برأسي ولمست يدها لكي أهدئ من روعها، فالشيء الوحيد الذي لم أكن أريده هو التأنيب، أو ذلك الأمر الأبدي الذي يعيد اتصالي بالماضي.

وبعد لحظات عضت فمها وكانت الابتسامات الخفيفة التي تبادلناها عندئذ بمثابة أول نظرات تبادلناها منذ أن تقابلنا.

قلت لها: طابت ليلتك، وأنا واقف خارج غرفتها، فقامت بتقبيلي على خدي وقمت بالضغط على كتفيها كما لو كان ذلك شيئاً أفضل بكثير مما تتخيله امرأة.

(٣٧)

في الساعة الثامنة والنصف انطلقنا بالسيارة إلى طيبة حيث اشترت آليسون لنفسها حذاء قوياً وبنطلوناً «جينز» متيناً، كانت الشمس ساطعة وبدا الطريق خالياً من حركة المرور أما السيارة البونتياك القديمة التي استأجرتها في الليلة السابقة فمازال بها بعض المتاعب في الموتور، كل شيء أثار المتعة في آليسون: الناس والمناظر الريفية، والإرشادات الواردة في الدليل السياحي المطبوع في عام ١٩٠٩ وحماسها الممزوج بالجهل والذي أذكره جيداً منذ أن كنا معاً في لندن لم يعد يسبب لي الضيق، بدا ذلك كأنه جزء من حيويتها وصراحتها وصدقها وعشرتها الحلوة، كان ينبغي أن تثار مشاعر الضيق في داخلي لذلك أمسكت عليها غلطة وهي أنها تموج بالبشر والبهجة بعد أن تمكنت من الخروج من أسوأ حالات الإحباط، اعتقدت أنه كان عليها أن تكون أكثر حزنا، انطلقنا بالسيارة هابطين الوادي الأخضر الذي يمتلئ بحقول القمح ومساحات متفرقة مزروعة بالبطيخ والشمام، ولكن بالقرب من ليفاديا انتشر قطيع كبير من الأغنام على الطريق فاضطررت إلى أن أقلل من سرعة السيارة إلى أن توقفت السيارة تماماً، ثم خرجنا من السيارة لنرقب قطيع الأغنام، كان هناك صبي في الرابعة عشرة يرتدي ملابس قديمة وحذاء برقبة وكانت معه أخته وهي طفلة سوداء العينين تبلغ من العمر سبع سنوات، فأخرجت آليسون بعض سكر النبات الذي يستخدم في خطوط الطيران لكن الطفلة كانت خجولة للغاية فاختبأت وراء ظهر أخيها، فجلست آليسون القرفصاء في ثوبها الأخضر محاولة إغرائها، وحملقت الطفلة في آليسون فبدأت أشعر بالتوتر، قالت: كيف لي أن أطلب منها أن تجيء وتأخذ السكر؟.

ثم وضعت آليسون قطعة من سكر النبات في فمها ومدت يدها بقطعة أخرى إلى الطفلة، مدت يدها في خوف أمسكت آليسون بيدها وجعلتها

تجلس بجوارها وجاء أخوها وقبع إلى جوارها راحت الطفلة تمتص الحلوى في وقار ووضعت آليسون ذراعها حول الطفلة وراحت تربت على خديها.

ثم بدأنا في العودة إلى السيارة وسارت الفتاة الصغيرة إلى جوارنا ثم انحنت آليسون وقبلت الطفلة، ولدى انطلاقنا بالسيارة استدرنا ولوحنا لهما بأيدينا، ثم لوحنا لهما مرة أخرى، شاهدت وجهها المشرق يستدير نحوي ثم أدركت ما يدور في ذهني فاستندت بظهرها إلى الوراء وقالت:

لم أكن أدرك أننا في عجلة من أمرنا.

كنت أدرك على وجه الدقة ما تحاول أن تقول في صمت مطبق.

وصعدنا بالسيارة فوق الوديان الجبلية الضيقة، وتناولنا وجبة غذاء على منطقة عشبية زاخرة بالنحل البري، وبعد ذلك تخطينا مفترق الطرق حيث يوجد المكان الشهير الذي قتل فيه أوديب والده، وعلى طول الطريق رحت أتحدث عن والدي من خلال تشجيع آليسون لي.. وربما لأول مرة في حياتي أتحدث عنه دون مرارة، ثم نظرت إلى آليسون التي استندت بظهرها على باب السيارة وعندئذ خطر على ذهني أنها الإنسانة الوحيدة في العالم التي أمكنني التحدث إليها على هذا النحو، وأدركت أنني انزلقت دون أن أدري إلى علاقاتنا القديمة، أصبحنا قريبين للغاية من بعضنا البعض بحيث لم تكن لنا حاجة لأن نستخدم أسماءنا، عدت بنظري إلى الطريق ولكن عينيها ظلتا مثبتتين عليّ، وكان على أن أتكلم، قلت:

ـ أشركيني في أفكارك.

ـ كم تبدو في حالة جيدة!!

ـ أنت تحملقين في مما يجعلني أشعر بالاضطراب.

ـ ألا يمكن للأخوات أن ينظرن إلى إخوتهن؟

ـ على ألا تكون نظرات جنسية زانية.

أسندت ظهرها إلى المقعد في خضوع وطاعة واشرأبت بعنقها لتنظر إلى الصخور الضخمة التي ندور أسفلها.. قالت: مجرد نزهة.

ـ أدرك ذلك، إنني أعيد النظر في هذا الموضوع.

ـ بالنسبة لي أم بالنسبة لك؟

ـ بالنسبة لك أساساً.

ـ سنرى من الذي يسقط أولاً.

كانت القرية بمثابة كتف رومانتيكي من المنازل الحمراء، فهي قرية جبلية قابعة فوق قمة وادي دلفي، قمت بالاستفسار فتم إرسالي إلى كوخ بالقرب من الكنيسة وجاءت امرأة عجوز إلى الباب ومن ورائها كان يوجد نول خاص بصناعة السجاجيد، قالت آليسون: اسألها عما إذا كان باستطاعتي أن أدخل في كوخها لأغير ملابسي وأرتدي البنطلون الجينز.

كان عليها أن تكمل الرحلة فوق بغل وأصبح الأمر في أيدي القدر.

(٣٨)

كان المدق الطويل يسير في تعرج صاعداً على وجه الصخرة، وصلنا إلى قمة برناسوس، هبت رياح باردة وإلى ما وراء المساحات العشبية كانت توجد أكواخ سوداء من الحطب والصخور التي تتقوس ثم تختفي بين السحب البيضاء، نزلت آليسون من فوق ظهر البغل وسرنا معاً فوق الأرض المكسوة بالعشب بجوار البغال.

كان عمر الرجل الذي يقود البغال نحو ٤٠ سنة، وكان ذا شارب متوحش تحت أنف مكسور مع مسحة من الشعور بالحرية، وحدثنا عن حياة الرعي، وأصوات الذئاب والنسور، إنها حياة لم تتغير على مدى

ستة آلاف سنة الأخيرة، رحت أترجم المعاني لآليسون، فتعاطفت معه وكونت معه نوعاً من الوفاق المتبادل، عبر حواجز اللغة، رفرفت عيناها في تحدٍ وتمرد لكي ترى ما إذا كانت تتصرف بطريقة سليمة من وجهة نظري، إلا أنني ظللت مُبقياً على مشاعر الحياد التي ظهرت على وجهي.

وعلى الجانب البعيد من الأراضي العشبية وصلنا إلى كوخين صغيرين بجوار ينبوع من الماء، وكان البغال بصدد اتخاذ مدق آخر ابتداء من هذين الكوخين، توقفنا فوق المدق الحجري ورحنا نصغي في تيقظ وانتباه، لم يكن هناك أي شيء سوى الصمت المطبق والنسيم بين أغصان الأشجار، فأمسكت بيدي وواصلنا المسير.

وكان المدور يتجه صاعداً بين الأشجار وبين مساحات شاغرة تعج بالفراشات، وفوق منطقة صخرية ممتدة حيث فقدنا المدق مرات عديدة، ولدى صعودنا لأعلى أصبح الجو أكثر برودة واختفى الجبل تماماً بين طيات السحب، لم نتكلم إلا فيما ندر لأن أنفاسنا كانت لاهثة للغاية، ولكن الانعزال والمجهود واضطراري لأن أمسك بيدها باستمرار عندما يصبح المدق بمثابة سلالم متآكلة، كل هذا كسر قدراً من التحفظ الجسدي بيننا، وأنشأ نوعاً من الزمالة غير الجنسية التي تقبلناها كصيغة للعلاقة بيننا.

كانت الساعة قد بلغت السادسة عندما وصلنا إلى المأوى.

إنه مبنى ضئيل بدون نوافذ وكان الباب مصنوعاً من الحديد الصدئ المليء بالثقوب الناجمة عن طلقات الرصاص الناتجة عن بعض المعارك مع الشيوعيين في أثناء الحرب الأهلية، شاهدنا أربعة من الأسرة المثبتة وكومة من البطاطين القديمة وموقداً ومصباحاً ومنشاراً وفأساً وزلاجتين للانزلاق على الثلج، بدا المكان كأن أحداً لم يسكنه منذ سنوات طويلة، قلت: إنه يوم غريب هنا.. ولكنها لم ترد بأي كلام، وارتدت

بلوزة من التريكو، غلفتنا السحب وأحدقت بنا وبدأت السماء تمطر مطراً خفيفاً، ولدى صعودنا على ربوة عالية زمجرت الرياح مثلما تفعل في شهر يناير بإنجلترا، أحاطت بناء السحب في كثافة شديدة من جميع الجهات على هيئة ضباب يموج على شكل دوامة ويحجب الرؤية على مسافة ثلاثين ياردة، التفت إلى آليسون، كان أنفها قد أصبح بالغ الاحمرار وبدت كأنها تشعر بالبرد الشديد، ولكنها أشارت إلى المنحدر التالي.

وعند قمته وصلنا إلى ممر جبلي مرتفع، وعلى نحو أقرب إلى المعجزة وكما لو أن الضباب والبرد كانا بمثابة اختبار بسيط؛ بدأت السماء تصفو مرة أخرى، بدأت كثافة السحب تقل بتأثير ضوء الشمس، ثم انقشعت السماء إلى مساحات هائلة من اللون الأزرق الصافي.. وسرعان ما أصبحنا نسير في ضوء الشمس مرة أخرى، وأمامنا كان يوجد حوض فسيح من الأراضي الخضراء المحاطة بالقمم الجبلية، وفي كل مكان توجد الأزهار والنباتات التي كانت تنبثق من جميع الشقوق الموجودة بين الصخور، وجرت آليسون في بهجة والتفتت نحوي مبتسمة وقد نشرت ذراعيها مثل طائر على وشك أن يحلق في الجو ثم واصلت الجرى بحركات صبيانية جامحة وهي تصيح:

أوه يا إلهي... أوه يا إلهي؟!

التقطنا صوراً فوتوغرافية لأنفسنا وللمنظر الطبيعي ثم جلسنا سوياً على الجانب المواجه للرياح لثلة الحجارة ورحنا ندخن السجائر وقد التصقنا ببعض بسبب الإحساس بالبرد.. وغردت طيور الغاق في الأجواء العالية وهي تمرق بين الرياح الباردة مثل الثلج، وقفزت إلى خاطري صور الرحلة الذهنية التي دفعها إلى داخل كياني كونشيس تحت التنويم المغناطيسي، وبدت لي التجربتان متوازيتين تقريباً باستثناء أن هذه التجربة الجبلية تتميز بالجمال اللحظي الفوري المباشر التلقائي.

كان طرف أنف آليسون ناصع الاحمرار ولكنني كنت أميل إلى الاعتقاد أنها تتميز بالشجاعة ولولاها ما وصلنا إلى هذا العالم المترامي تحت أقدامنا وإلى هذا الشعور بالنصر والانتصار وإلى كل هذه البلورية الفائقة المتسامية لكل ما شعرت به إزاء اليونان، علقت:

ـ هذا هو أول شيء رائع.. حدث لي منذ شهور طويلة، اليوم، هذا المنظر الطبيعي و.. أنت.

ـ لا تقولي ذلك.. فأنا لست سوى قذارة وأوساخ، وتدنيس وتلويث.

ـ مازلت مصرة على أنني لا أرغب في أن أكون في هذا المكان مع أي إنسان آخر غيرك، هل تريد أن تكون هنا مع فتاة أخرى؟.

ـ لا أعتقد أن هناك أية فتاة أخرى عرفتها في حياتي تستطيع السير لمسافة طويلة كهذه. فراحت تفكر مليا في ردي ثم نظرت إلى مرة أخرى.

وقالت:

ـ إجابتك مراوغة للغاية.

ـ إنني مسرور من مجيئنا إلى هنا، أنت عضوة في فرقة تمثيلية متجولة يا كيللي.

ـ وأنت ابن حرام يا أورفي.

كان باستطاعتي أن أدرك أنها لم تشعر بالإساءة إلى مشاعرها.

(٣٩)

وفي أثناء العودة هاجمنا التعب على نحو فجائي واكتشفت آليسون وجود ورم في كعبها الأيسر حيث كان حذاؤها الجديد يحك في قدمها، وأضعنا عشر دقائق من.الضوء الآخذ في التلاشي لعمل رباط لكعبها، ثم هجم الليل علينا، جاءت الرياح، وظلت السماء صافية وكانت

النجوم تتلألأ في حيوية، كان من الصعب مشاهدة موطئ أقدامنا، بل من الصعب أن نفكر في شيء من الحكمة، شرعنا في السير بغباء إلى أن وصلنا إلى منخفض بركاني.

كانت آليسون أكثر رعباً مني وأكثر شعوراً بالبرد القارس، وفي منتصف المنخفض البركاني اكتشفنا أنه من المتعذر الخروج إلا عن طريق العودة إلى حيث كنا.. فجلسنا لكي نستريح لدقائق تحت صخرة ضخمة، ضممتها إليّ بهدف أن أشعرها بشيء من الدفء، دفنت رأسها في السويتر في احتضان غير جنسي وهي ترتعد، شعرت أن ذلك لا يعني أي شيء ويجب ألا يعني أي شيء، وقلت لنفسي إنني كنت سأشعر بنفس هذه المشاعر مع أية إنسانة أخرى.

نظرت إلى المنظر الطبيعي المتجهم أمامي، وتذكرت كلاماً قاله البغال وهو أن الذئاب لا تقوم بالاصطياد أبداً بمفردها وإنما تهجم دائماً في جماعات، فالذئب المنفرد وحيداً خرافة.

ساعدت آليسون على الوقوف على قدميها ورحنا نشق طريقنا عائدين من حيث أتينا على نفس الطريق، شاهدنا تلا صخرياً كنت قد سبق لي أن لاحظته في أثناء صعودنا لأعلى، وكان المأوى يقع عند الجانب الآخر من التل، بدا على آليسون أنها لم تعد تبالي، ظللت ممسكاً بيدها وحرصت على جرها بالقوة، استخدمت معها الوسائل التي تبقيها في حالة من الحركة، وبعد عشرين دقيقة ظهر المأوى.

تلمست طريقي في الظلام داخل المأوى وأجلست آليسون على سرير، ثم عثرت على المصباح وحاولت إشعاله، لم يكن به زيت، ذهبت إلى الموقد، حمدت الله حيث وجدت به أخشاباً جافة، فقمت، بجمع كافة الأوراق التي يمكن جمعها: أشعلت الأوراق ورحت أصلي لله، واشتعلت النيران في الأخشاب، وفي خلال دقائق قليلة أصبح الكوخ مليئاً بألسنة من النيران الحمراء المرفوفة وبظلال بنية داكنة

وبالدفء اللذيذ، والتقطت جردلا، فرفعت آليسون رأسها، قلت: إنني ذاهب لأحضر بعض الماء.

قالت في ابتسامة واهنة: وهو كذلك، ينبغي لي أن أدخل تحت البطاطين.

عندما رجعت وجدتها تضع الكتل الخشبية من خلال الباب العلوي للموقد، كانت حافية القدمين وواقفة على بطانية حمراء، كما وضعت فوق السرير بعض ما أحضرته من طعام، قلت:

ـ كيللي، أمرتك بأن تستريحي في السرير.

ـ لقد تذكرت فجأة أنه من المفروض أن أكون مضيفة جوية، إن هذا هو روح الهبوط الاضطراري بالطائرة ومصدر بهجته.

أمسكت بجردل الماء، وعندما جثمت تمكنت من مشاهدة البقع الحمراء الملتهبة في كعبيها، فسألتها:

ـ هل تمنيت عدم قيامنا بهذه الرحلة الخلوية؟.

ـ لا، إنني مسرورة لقيامنا بهذه الرحلة.

وعادت إلى عملها وهي تشعر بالرضا، جلست أنا على حافة السرير وخلعت حذائي وجوربي، أردت أن أكون على حالتي الطبيعية ولكني لم أستطع كما لم تستطع هي أيضاً.

وضربت هبة ريح فجائية على سقف الكوخ وزمجر الباب منفتحاً فتحة صغيرة، فقالت: لقد أفلتنا من العاصفة.

نظرت إليها وأنا واقف عند الباب بعد أن أغلقت الباب في أحكام مستخدماً إحدى الزلاجات، كانت تحرك وتقلب الشيكولاته الذائبة بأحد الأغصان وكانت ترقبني في نفس الوقت، وكان وجهها متورداً، دارت بعينيها حول الحوائط، وقالت:

ـ هذا المكان شاعري، أليس كذلك؟

ـ مادام يحمينا من الرياح الشديدة بالخارج.

فابتسمت لي ابتسامة غامضة، سألتها: لماذا تبتسمين؟.

ـ لأن المكان شاعري.

جلست على السرير مرة أخرى، قامت بخلع بلوزتها أطلقت شعرها تراءت لي صورة جولي وعلى نحو لا يسمح لجولي بالدخول فيه على الإطلاق، وحاولت أن يكون صوتي مليئاً بالسكينة والهدوء، قلت: تبدين على ما يرام، هذه البيئة تتفق مع أهوائك.

ـ ينبغي أن أكون على ما يرام، لقد قضيت معظم حياتي في مطبخ سفينة مساحته ٤×٢م.

أدارت ظهرها وقالت: التعب يجعلني دائماً أشعر بأنني مثيرة للغريزة الجنسية، مغامرة أخرى واحدة.

فقلت: مجرد أن الاختبارات الأولية سلبية لا يعني...

انحنت بجواري وهي تنظر تلك النظرات الغريبة المتجهة لأسفل وتبتسم ابتساماتها التلقائية التي تتميز بها المضيفات الجويات، وقالت:

أترغب يا سيدي في أن تتناول مشروباً قبل العشاء؟

ودفعت بالكسرولة تحت أنفي فابتسمت وردت على بواحدة من ابتساماتها الرقيقة الرائعة، ذهبت إلى السرير الذي يقع في الطرف البعيد من الكوخ وبدأت تفك أزرار قميصها، سألتها، ماذا تفعلين؟

ـ أخلع ملابسي.

أشحت بنظري بعيداً، وبعد لحظات قليلة وقفت إلى جواري، وقد لفت إحدى البطاطين حولها ثم جلست على بطانية مطوية على الأرضية على مسافة قدمين مني، وعندما استدارت لتمد يدها إلى الطعام

الموجود وراءها انفرجت البطانية عند ساقيها، فأعادت تثبيتها عندما رجعت في جلستها إلى وضعها السابق.

رحنا نتناول الطعام، كانت الشيكولاته ساخنة خفيفة، لكننا لم نهتم بذلك لأننا كنا نشعر بالجوع الشديد، وأخيراً جلسنا، كنت قد انزلقت جالساً على الأرضية، أسندنا ظهرنا على حافة السرير ورحنا ندخن السجائر ونضيف دخاناً على الدخان المتصاعد من الموقد، كل منا كان ملتزماً بالصمت والانتظار والترقب، شعرت كأنني أعيش تجربتي الأولى مع أول فتاة أتعرف عليها وأعيش اللحظات الحرجة التي يتقرر خلالها ما إذا كان ينبغي إيقاف ذلك الأمر أو الاستمرار والسير فيه حتى النهاية، كنت خائفاً من القيام بأي حركة، كان كتفاها العاريان صغيرين ومستديرين ورقيقين، وكان طرف البطانية الذي ثبتته تحت إبطها قد تحلل بعض الشيء.. فتمكنت من مشاهدة الجزء العلوي من ثدييها.

وأصبح الصمت مثيراً للارتباك الشديد، على الأقل بالنسبة لي، أصبح الصمت نوعاً من اختبار القدرة على التحمل لمعرفة من منا الذي سيقوم بتحطيم الصمت أولاً، استلقت يدها على البطانية بيننا، وبدأت أشعر أنها استغلت الموقف بأكمله ورتبت كل شيء لكي تضعني في هذا المأزق الحرج، في هذا الصمت المطبق الذي سيطرت فيه على الموقف والذي اتضح تماماً من خلاله أنني أريدها، ليس لأنها آليسون ولكن باعتبارها أنثى، أي أنني أريد أية فتاة يتفق أن تكون إلى جواري في تلك اللحظات الرازحة تحت الصمت.

ألقيت عقب سيجارتي في الموقد، واستندت بظهري على السرير وأغلقت عيني كأن كل ما أريده هو الخلود إلى النوم، تحركت آليسون فجأة، ففتحت عيني، لقد كانت عارية إلى جواري، وقد ألقت البطانية إلى الوراء، ركعت وعكفت على خلع ملابسي نيابة عني.

ثم باعدت ما بين ساقي وراحت تفك أزرار قميصي ثم خلعته، أغلقت عيني وتركتها تعري صدري تماماً.

وملست بيديها على صدري وعلى كتفي ورقبتي وشفتي في نوع من المداعبة واللعب معي وتفحصي مثلما تفعل طفلة مع لعبة أطفال جديدة، ركعت وقبلت الجزء الجانبي من رقبتي فتلامست أطراف ثدييها مع بشرتي.

فقلت: لن أغفر لنفسي أبداً إذا..

ـ لا تتكلم، عليك البقاء ساكناً بدون حراك ثم قامت بخلع ملابسي كلها، وقادت يدي عبْر جميع أرجاء جسدها لكي تتعرف أصابعي على جسدها مرة أخرى وعلى بشرتها الناعمة وعلى عريها الذي يتخذ المسحة الطبيعية دائماً، ويديها، بينما ملست على جسدي فأحسست كأنني موجود مع فتاة مومس، فاليدان ماهرتان وبارعتان كيدي مومس، فلا شيء سوى اللذة الحسية، أسلمت نفسي للمتعة التي منحتها لي، ثم ألقت بنفسها فوقي فأصبح رأسها فوق صدري.. سادت فترة صمت طويلة وراحت النيران تطقطق وحرقت بعض الشيء سيقاننا.. ورحت أملس على ظهرها وشعرها ورقبتها الصغيرة واستسلمت للأطراف العصبية الموجودة في جسدي، وتخيلت نفسي مستلقياً في نفس هذا الوضع مع جولي، أدركت أن عاطفتي عندئذ ستكون جامحة بشكل كبير.

تأوهت آليسون وتحركت وعضتني وهيمنت عليّ وتمايلت فوقي في مداعبة بطريقة معينة تطلق عليها اسم «مداعبة الباشا»، حيث كانت تدرك أنني أفضل هذا النوع من المداعبة مثلما يفضلها جميع الرجال، سيدتي وعبدتي.

وأذكر سقوطنا معاً في أعماق السرير، وأذكر المرتبة القش الخشنة والبطاطين الخشنة، وأذكر إمساكها بي للحظات وتقبيلها لي قبلة واحدة على فمي قبل أن أتمكن من التفوق عليها وقلبها على ظهرها وإعادتها إلى وضعها الصحيح بينما يدي على صدرها المبتلّ ويدها ممسكة بيدي هنالك والبطن الناعم الضئيل والرائحة الخفيفة لشعرها المغسول بماء المطر، وبعدئذ وبعد ثوان قليلة وبسرعة كبيرة وقبل أن أتمكن من تحليل أي شيء هبط النوم فجأة.

استيقظت من النوم في عمق الليل، فذهبت وشربت بعض الماء من الجردل، وتسربت أشعة القمر من خلال ثقوب الطلقات القديمة، رجعت انحنيت على آليسون، لقد ألقت بالبطانية بعيداً عن جسدها بعض الشيء وكانت بشرتها متخذة اللون الأحمر العميق الظلالي تحت الضوء المنعكس عن جمرات النيران، بدا أحد الثديين عارياً ومتهاوياً في إعياء وكان فمها مفتوحاً بعض الشيء علاوة على صدور شخير خفيف، إنها مفعمة بالشباب وموغلة في القدم وتبدو بريئة وفاسدة أخلاقياً وهذه صفات موجودة في كل امرأة، حين تكون امرأة بمعنى الكلمة.

جعلتني موجة المحبة أقرر أن أخبرها غداً بالحقيقة، وأن مرضى الحقيقي لم يكن شيئاً قابلاً للشفاء مثل الزهري، وإنما هو مرض أكثر سخافة لأنه بمثابة رغبة في مضاجعة نساء عديدات بدون تمييز وهو مرض خلقي وموجود في كياني منذ ولادتي، ووقفت قريباً للغاية منها وأنا أكاد ألمسها وأكاد ألقي بالبطانية بعيداً، وأرتمي فوقها وأدخل إلى عمق كيانها، وأمارس الحب معها كما أرادت لي أن أفعل ذلك معها ولكني لم أفعل شيئاً، قمت في رفق بتغطية صدرها العاري ثم التقطت مجموعة من البطاطين واتجهت إلى سرير آخر مجاور للسرير الذي تنام عليه.

(٤٠)

استيقظت لدى سماع شخص ما يطرق على الباب، انسحب الطارق على الباب متراجعاً عندما أدرك أننا مازلنا راقدين في الأسرة، نظرت إلى ساعتي، إنها العاشرة صباحاً، ارتديت ملابسي بسرعة وخرجت من الكوخ، إنه راعي أغنام، ففي مكان ما على مسافة بعيدة كان بمقدوري سماع أجراس قطيع الأغنام الخاص به، ضرب بعصاه المعقوفة الكلبين اللذين كشرا عن أنيابهما في وجهي ثم أخرج من جيوب معطفة كميات من الجبن.

وبعد دقائق قليلة خرجت آليسون من الكوخ وهي تدفع بنهايات قميصها إلى داخل بنطالها، وتغمض عينيها قليلاً لكي تتجنب ضوء الشمس، اقتسمنا مع الراعي ما تبقي من البرتقال والبقسماط واستنفدنا الجزء المتبقي من الفيلم وكنت مسروراً بوجود ذلك الراعي، كان باستطاعتي أن أدرك أن آليسون قد اعتقدت أننا عدنا إلى العلاقة القديمة التي جمعت بيننا، وأنها قد كسرت الجليد، ولكن الموقف بالنسبة لي كان مثل القفز إلى الماء، قالت: أتمنى لو بقينا هنا للأبد، إنها مجرد رغبة.

انحنيت وقبلت خدها ووضعت يديها حولي لكي أستلقي عليها، وتحادثنا في همس من الفم إلى الأذن اليسرى لكل منا.

ـ قل إنك كنت بحاجة إليّ وقل إنك مازلت تجبني.

ـ مازلت أحبك.

ـ ولا تضاجع هؤلاء النساء القذرات مرة أخرى.

ـ لن أفعل ذلك على الإطلاق.

كنت أحملق في نهايات شعرها الملقاة على الصخرة، أحاول أن أدفع نفسي إلى نقطة الاعتراف، بدا الأمر لي شبيهاً بوضع القدمين فوق

زهرة بسبب عدم الاهتمام بتفاديها بأخذ خطوة على جانب، أمسكتني من كتفي لكي أضطر لأن أحملق لأسفل إليها، تحملت الصدق في نظراتها للحظات، ثم استدرت وجلست معطياً ظهري نحوها.

ـ ماذا حدث من أخطاء؟

ـ كل ما هنالك أنني أسأل نفسي: ترى ما الذي جعل فتاة لطيفة وجميلة مثلك تنجذب إلى شخص سافل وقذر مثلي؟

ـ ذلك يذكرني.. بمفتاح لحل لغز الكلمات المتقاطعة.. رأيته منذ شهور مضت.

انطلقنا هابطين على المنحدر.. وكلما هبطنا لأسفل أصبح الجو أكثر دفئاً، راحت آليسون تقود الطريق وتسير في المقدمة لذا لم تتمكن من مشاهدة وجهي إلا فيما ندر.. حاولت أن أعرف حقيقة مشاعري تجاهها، وشعرت بالضيق لأنها تعول كثيراً على الأمور الجنسية وعلى بلوغ النشوة القصوى الجنسية المشتركة بيننا في آن واحد.. غلطتها أنها لا تدرك أن الحب الحقيقي شيء مختلف تماماً.

وبينما نسير على المدق، قالت كل ما يؤلمني أنني ليست لي جذور ضاربة في أي مكان، لم تعد لي جذور تربطني بأي مكان، كل الأماكن متشابهة، أسافر من أماكن لأصل إلى أماكن أخرى مشابهة لها، كل ما هنالك أنني لدى أناس أشعر بالارتياح نحوهم أو أحبهم حباً حقيقياً هؤلاء الناس هم وطني الذي أشعر بالانتماء إليه، وطني الذي تركته.

ألقت بنظرة وراءها نحوي، نظرة خجولة كما لو كانت تدخر هذه الحقيقة عن نفسها وعن عدم وجود جذور لها أو وطن قومي لها، وهو أمر تدرك أنه حقيقة تنطبق عليَّ أيضاً، على الرغم من استقلاليتها الزائفة فإن لديها الحاجة لأن ترتبط.. كانت تشبه شقيق البحر الذي إذا لمسه شيء يبادر بالالتصاق به، توقفت عن المشي، عندما سمعنا معاً صوت

خرير مياه تتدفق، قالت: أود لقدمي أن تستحما في الماء، هل يمكن لنا أن نهبط إلى المياه؟

سرنا بين الاشجار وبعد قليل وصلنا إلى مدق آخر في منطقة وعرة، كان هناك شلال من مياه تسقط على مساحة عشرة أقدام وتحت الشلال توجد بركة مياه وفتحة مغارة إلى جوارها تعريشة من أغصان الأشجار.

ـ قالت: هيا بنا نسبح في الماء.

وجذبت قميصها لتخلعه من فوق رأسها ثم فكت حمالة الثدي وهي تبتسم تحت الظلال الخاصة بالتعريشة، «ربما يكون هذا المكان مليئاً بالثعابين».

«مثل عدن».

وخلعت بنطالها الجينز ثم سروالها الأبيض، ومدت يدها وانتزعت كوز صنوبر ميت من أحد أغصان التعريشة وقدمته إليّ، شاهدتها تجري عارية بين العشب الطويل نحو بركة الماء وهي تجرب الماء وتئن من شدة برودته، ثم ألقت بنفسها في الماء وهي تصرخ عاليا، كانت المياه بمثابة ثلج مذاب مما جعل قلبي يهتز في صدمة فجائية لدى إلقاء نفسي في الماء إلى جوار آليسون، ومع ذلك كان كل شيء جميلاً، ظلال الأشجار وضوء الشمس الساقط على الممر الذي يخترق الغابة والصخب الخفيف الناجم عن السقوط في الماء والبرودة الثلجية والضحك والعري، لحظات لا يمكن أن يقضي عليها إلا الموت فقط.

ثم جلسنا فوق العشب بجوار التعريشة وتركنا الشمس والنسيم لكي يجففا جسدينا ثم تناولنا الكميات المتبقية من الشيكولاته، استلقت آليسون على ظهرها، وتركت نفسها لأشعة الشمس، وأحسست أنها تركت نفسها لي أيضاً، وظللت لبعض الوقت مستقلياً إلى جوارها وقد أغلقت عيني.

قالت: أنا ملكة الربيع.

ثم نهضت جالسة واستدارت نحوي وارتكزت على ذراع واحدة، وكانت قد نسجت تاجاً بدائياً من زهور القرنفليات البرية، كان التاج قابعاً على شعرها غير الممشط، وظهرت على وجهها ابتسامة مليئة بالبراءة، بدت فجأة أشبه بقصيدة وشعرت بموجة عاطفية من الرغبة فيها، لم يكن الأمر مجرد شبق، ليس لأنها بالغة الجمال وصغيرة الثديين ونحيلة الخصر ومستندة على يد واحدة ومتخذة شكل طفلة في السادسة عشرة، وليس في الرابعة والعشرين، ولكن لأنني أدرك كافة التأكيدات القبيحة غير الشاعرية للحياة الحديثة فيما يتعلق بالذات الحقيقية لها ـ رؤية عارية بنفس الطريقة مثلما كانت عارية في الحسد.

أحسست فجأة أنني أحببتها فعلاً... أنني أود الاحتفاظ بها كما أردت أن أحتفظ بجولي، لست أريد واحدة منهما أكثر من الأخرى.

بل عليَّ أن أحتفظ بهما معاً وأنه لا توجد هناك خيانة عاطفية في ذلك الأمر، الخيانة الوحيدة كانت متمثلة في شعوري بأنني غير أمين وبأنني أخفي الأمور، إنه الحب الذي دفعني أخيراً لأن أعترف، وليست الرغبة أن أكون حراً، إنه الحب بكل بساطة.. أعتقد أن آليسون كانت تدرك ذلك، ومن المؤكد أنها شاهدت نوعاً من الاكتئاب والحزن في وجهي فقد تساءلت في رقة بالغة:

ـ ماذا حدث من أخطاء؟

ـ لم أكن مصابا بمرض الزهري، كل ذلك كان كذباً.

نظرت إليَّ بتفحص ثم هبطت مستلقية على العشب: أوه يا نيقولاس!

ـ أريد أن أقول لك.

ـ ليس الآن.. مهما حدث من أمور، تعالَ ومارس الحب معي الآن.

ومارسنا الحب معاً.. لم نمارس الجنس وإنما مارسنا الحب ولو أن الجنس كان سيصبح أكثر حكمة وتعقلا..

وفي أثناء استلقائي بجوارها بدأت أحاول أن أصف لها ما حدث في بوراني، لقد قال الإغريقيون القدماء إنه إذا قام شخص ما بقضاء ليلة في بارناسوس فإنه يصبح إما ملهماً وإما مجنوناً، وليس هنا شك إزاء ما حدث لي، لقد اخترت أسوأ اللحظات لكي أكون فيها أميناً معها مثل معظم الذين قضوا قدراً كبيراً من حياتهم في فترة المراهقة في عدم الأمانة العاطفية، فإنني أخطأت في تقديري للنتائج التي تنجم عن كوني أميناً في عرض الموضوع.

كانت هي تريد أولاً أن تعرف سبب الادعاءات الشاذة التي ركزت عليها، ولكني كنت أريدها أن تفهم غرابة منطقة بوراني قبل أن أذكر لها أشد الأمور التي تجذب الانتباه، ولم أتعمَّد إخفاء أي شيء آخر عن كونشيس ولكني مع ذلك تركت فجوات كبيرة.. أخبرتها بكل شيء، صوَّرت لها الأمور غير متعلقة بالنواحي الجنسية وإنما مجرد إبهار للعقل، قالت:

ـ لكنها تجذبك إلى الأمور الجنسية.

ـ يا آليسون، لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى كرهي لنفسي خلال إجازة نهاية الأسبوع هذه.. لقد حاولت أن أحكي لك كل شيء مراراً، فلا أريد لنفسي الوقوع تحت تأثير جاذبيتها، مازلت حتى الآن لا أعرف كنه هذه الفتاة، كل ما أعرفه أنني واقع تحت تأثير شيء في هذا المكان، وليس تحت تأثير هذه الفتاة فقط، فهناك شيء ما غريب للغاية يحدث، وأنا... متورط معهم وأنا مضطر للعودة إلى هذه الجزيرة، بسبب وظيفتي..

ـ لكن ما وضع هذه الفتاة؟

ـ إنها ليست بذات علاقة بالموضوع، حقاً.. هي بمثابة جزء ضئيل للغاية في الموضوع، أشعر وكأنه يتم تمزيقي إلى نصفين.

ـ هل هي جميلة؟

ـ لو لم أكن أشعر بمشاعر عميقة نحوك لأصبح الأمر سهلاً للغاية.

ـ هل هي جميلة؟

ـ نعم.

ـ جميلة للغاية؟

فلم أرد عليها، دفنت وجهها بين ذراعيها، قمت بالتدليك الخفيف على كتفها الدافئ، قلت: إنها مختلفة عنك تماماً، ومختلفة عن أي فتاة عصرية، لا أستطيع أن أوضح الأمور.

أشاحت برأسها بعيداً، ورددت: يبدو أنني مجرد..

ـ ما هذه السخافة التي تظهرينها الآن.

وسادت فترة صمت مليئة بالتوتر الشديد.

ـ اسمتعي إليّ، أحاول لأول مرة في حياتي التعيسة أن أكون صادقاً، ليست لديَّ أعذار، إذا تقابلت مع هذه الفتاة غداً فسأبلغها أنني أحب آليسون وآليسون تحبني ولن أفعل أي شيء بخلاف ذلك، من المقرر أن أتقابل معها مرة أخرى.

ـ وأنت لا تحب آليسون، أو أنك تحبني إلى أن تقابل فتاة أكثر جمالاً..

ـ لا تكوني بلهاء في كلامك.

ـ أنا بلهاء وأفكر بطريقة غير مهذبة وأتحدث بطريقة فجة، هل أنحني لك في احترام وأنسحب؟

ـ تمنيت من الله ألا أكون بالغ التعقيد..

ولذنا بالصمت سوياً.. ومرت أمامنا بسرعة فراشتان متلاصقتان متثاقلتان لهما لون أصفر ومتدليتان في ارتخاء، قلت: كل ما أردت أن أقوله هو أنه ينبغي لك أن تعرفي طبيعة شخصيتي.

ـ إنني مازلت أعرف شخصيتك.

واخترقت عيناها الرماديتان الباردتان أرجاء كياني في توغل إلى أن اضطررت إلى النظر لأسفل، ثم نهضت واقفة وذهبت لتغتسل، كان الموقف ميئوساً منه، لم أستطع تناول الموضوع بطريقة سليمة، لم أتمكن من توضيح الأمور لها، ولم تكن على استعداد لأن تفهم جوانب الموقف على الإطلاق، قمت بارتداء ملابسي وأدرت ظهري لها في أثناء قيامها بارتداء ملابسها في صمت.

وعندما فرغت قالت: إكراماً لوجه الله لا تقل كلاماً آخر، فأنا غير قادرة على سماع كلامك.

وصلنا إلى آرشوفا في نحو الخامسة، وانطلقنا لكي نقود السيارة عائدين إلى أثينا، وحاولت مناقشة كل شيء معها ولكنها لم تسمح لي بذلك؛ لقد قلنا كل ما يمكن أن يقال، فقد ظلت جالسة وغارقة في تفكير عميق وملتزمة بالصمت الكامل طوال الطريق.

وصلنا إلى الفندق في بيروس ـ حيث كنت قد حجزت نفس الغرفتين، صعدت آليسون إلى الفندق بينما اتجهت بالسيارة إلى الجراج، وفي أثناء عودتي اشتريت زهور قرنفل ثم اتجهت إلى غرفتها وطرقت على بابها اضطررت لأن أطرق ثلاث مرات قبل أن تفتح بابها، كانت غارقة في البكاء.

ـ أحضرت لك بعض الزهور.

ـ لا أريد زهورك اللعينة.

ـ استمعي إليَّ يا آليسون، إنها ليست نهاية العالم.

ـ إنها مجرد نهاية للعلاقة الغرامية بيننا.

فقلت بصوت مرتفع نسبياً: ألن تسمحي لي بالدخول إلى غرفتك؟

ـ ولماذا ينبغي أن أسمح لك بالدخول؟

فتحت الباب فتحة ضيقة، بدا وجهها متورماً غارقاً في الآلام.

قلت: دعيني فقط أدخل وأتحدث معك.

ـ أغرب عن وجهي.

دفعتها بقوة ودخلت وأغلقت الباب فوقفت معطية ظهرها للحائط وراحت تحملق في وجهي بشدة وتصاعد ضوء خفيف مترام من الشارع، فتمكنت من مشاهدة عينيها، قدمت لها الزهور فجذبت الزهور بعنف من يدي وألقت بها من النافذة، وضعت يدي على كتفيها ولكنها تملصت وحررت نفسها في غضب.. فجلست على السرير وأشعلت سيجارة، وترامى من مكبر للصوت في إحدى المقاهي بالشارع صوت موسيقى مقدونية، كنت جالسا وكانت هي واقفة في حالة من الشرنقة الغريبة التي أبعدتنا عن أقرب الأشياء التي تحدث بالخارج.. قلت: جئت إلى أثينا وأنا أدرك أنه لا ينبغي لي أن أقابلك.. ولقد بذلك قصارى جهدي لنفسي على أنني لم أعد أشعر بمشاعر خاصة نحوك.. لكن كل ذلك لم يفلح وذلك هو السبب أنني بدأت أتحدث معك في هذا الموضوع، في غباء شديد، وفي الوقت غير المناسب تماماً، باستطاعتي أن أظل ملتزماً بالصمت في هذا الشأن مع الاستمرار في مخادعتك.

ـ لست الإنسانة التي قامت بخداعك، فماذا تعني بتعبير «مشاعر خاصة»؟

التزمت الصمت، فأضافت هي: إنك لست خائفا فقط من أن تذكر كلمة «حب» وإنما أنت خائف أيضاً من استخدام هذه الكلمة الآن.

ـ أنا لا أعرف معنى كلمة «حب».

فاستدارت حولها، وقالت: حسناً، دعني أشرح لك معنى كلمة «حب»، الحب ليس فقط هو ما قلته لك في ذلك الخطاب، لقد اكتشفت أن الحب هو أن تشاهد الشخص الوحيد الذي تريد أن تعيش معه سعيداً بهروبه منك، أنت تظن أن الحب هو الجنس.. ودعني أخبرك بشيء: لو كنت أريدك من أجل الجنس فقط لتركتك على الفور عقب الليلة الأولى.

ـ أقدم لك اعتذاراتي.

فنظرت إليّ وأخذت نفسا عميقاً وابتسمت ابتسامة مريرة، وقالت: يا إلهي! لقد أوذيت مشاعره الآن، إنني أحاول أن أقول لك إنني أحببتك أنت من أجل شخصيتك أنت وليس من أجل مهمازك المتفجر، بالطبع أنت على ما يرام في السرير، ولكنك لست أنت الـ..

ثم ذهبت إلى نهاية السرير واستندت عليه وراحت تنظر لأسفل نحوي، وأضافت: أعتقد أنك أعمى فلا تعرف أنك لا تحبني.. بل إنك لا تدرك أنك ابن حرام وأناني وقذر لا يجب أن يكون عاجزاً وعنينا بل ولا يفكر أبداً في أي شيء سوى الجنس، لا يوجد أي شيء يمكن أن يجرح مشاعرك يا نيقولاس لقد شيدت حياتك على أساس أنه لا يمكن لأي شيء أن يصلك، ولذلك فإن أي شيء تفعله يمكنك أن تقوله، لا يمكنك أن تمنع نفسك من ذلك، ولا يمكنك أن تخسر جولة، فلديك مغامراتك التالية التي تقوم بها، دائماً لديك مغامراتك وعلاقاتك الجنسية اللعينة.

ـ أنت دائماً تحاولين لوي الحقائق..

ـ أتظن أنني أنخدع بذلك الكلام؟ هناك فتاة ما في جزيرتك تريد أن تنام معها، ذلك أمر رديء وتصرفات نابية وأنت تحاول أن تزينها لنفسك، بحيث يبدو الأمر كأنك الإنسان البريء، الإنسان المثقف الذي

عليه أن يخوض تجربته، هذا هو أسلوبك دائماً، تهيئ الكعكة لنفسك ثم تأكلها.

وددت أن أتكلم لكنها أسكتتني بحركة فجائية تدل على نفاد صبرها.. ثم راحت تجوب الغرفة جيئة وذهاباً.. وتعللت بحجة أخرى فقلت لها: كون أنني ألا أريد أن أتزوجك، أو أتزوج أي إنسانة أخرى فهذا ليس معناه أنني لا أحبك.

ـ قولك هذا يذكرني، بتلك الطفلة الصغيرة، لقد اعتقدت أنني لم ألحظ تلك الطفلة الصغيرة التي كان ببشرتها، دُمّل، لقد شعرت أنت بالضيق، فآليسون تبدو لطيفة مع الأطفال الصغار، وتتفجر فيها مشاعر الأمومة، وهل لي أن أقول لك شيئاً ما؟: لقد كنت أعبر عن مشاعر الأمومة الكامنة في داخلي.. لمجرد لحظات.. لم أفكر كيف أنني أرغب في أن يكون لدي أطفال أنجبهم منك.. وألف ذراعي حولهم في أثناء وجودك بالقرب مني، أليس هذا أمراً شنيعاً؟ إنني لدي هذا الشيء المقرف الكريه الذي يسمي الحب.. يا إلهي.. إن الزهري شيء لطيف إذا قورن بالحب.. إنني أعيش في فساد وضلال رهيب للغاية.. وفي انحلال رهيب.

ـ آليسون.

وأخذت أنفاساً مليئة بالرجفة والرعشة وأصبحت على وشك أن تذرف الدموع.

أكملت: أدركت الموقف بمجرد أن تقابلنا يوم الجمعة، فأنا بالنسبة لك لست سوى آليسون التي اضطجعت معها، الفتاة الأسترالية التي أجريت لها عملية إجهاض، التي تشبه القوس الخشبي الأسترالي الذي يقذف فيرتد إلى راميه، عليك أن تلقي بآليسون بعيداً وهي سوف تعود إليك دائماً من أجل أن تضاجعها في عطلة نهاية الأسبوع.

ـ هذا الكلام شبيه بالكلمات التي تحت الحزام.

قامت بإشعال سيجارة، فذهبت ووقفت إلى جوار النافذة وتكلمت إلى ظهري عبر السرير: طوال ذلك الوقت في الخريف الماضي، لم أكن أدرك أنك يمكن أن تصبح أكثر حناناً، اعتقدت أنك مستمر في الغلظة، والله وحده يعرف السبب في أنني أشعر بالارتياح إليك أكثر من أي رجل آخر، رغم الهوس والجنون الطبقي الذي تشعر به إزاء الطبقات الاجتماعية، لم أستطع التغلب على الفراغ الشديد الذي شعرت به عقب رحيلك.

جربت «بيتي» وجربت رجلا آخر بلا جدوى، دائماً هناك الحلم الغبي بأنك قد تكتب لي يوماً.. لذلك قمت بترتيب هذه الأيام الثلاثة.

اكتشفت أنك كنت تشعر بالملل وترغب في التسلية.

ـ هذا ليس صحيحاً، لم أكن أشعر بالملل.

ـ كنت تفكر في هذا الأمر في فراكسوس.

ـ كنت أفتقدك أيضاً، في خلال تلك الشهور الأولى بصفة خاصة.

فجأة أضاءت الأنوار الكهربائية بالغرفة.

ـ استدر وانظر إليّ.

هي واقفة عند الباب مرتدية البنطلون الجينز وقميصها الداكن.

ـ لقد وفرت بعض النقود، وأنت لا يمكن أن تكون مفلساً تماماً، فإذا أبديت رغبتك في الزواج مني فسأترك وظيفتي غداً على الفور وسأجيء إلى جزيرتك لأعيش معك، سبق أن قلت إنني أرغب في أن أعيش في كوخ في أيرلندا.. ولكنني على استعداد لأن أعيش في كوخ في فراكسوس، المسئولية الرهيبة هي أن تضطر لأن تعيش مع إنسانة تحبك.

شعرت بالارتياح عندما قالت: «كوخ في فراكسوس» لأنني لم أخبرها بالعرض الذي قدمه لي كونشيس، قالت:

يمكنك أن تقول لا...

ـ يا آليسون، لو أن..

ـ نعم أم لا؟..

فظهرت الحدة في صوتها، حملقتُ في وجهها، فلوت شفتيها وأجابت نيابة عني: لا.

ثم هرولت إلى الباب وفتحته، شعرت أنني وقعت في مصيدة الاختيار الحقيرة ما بين نعم أو لا، هذا المطلب الوحشي إزاء الارتباك التام، درت حول السرير واتجهت نحوها، وخلصت الباب من قبضة يدها، وأغلقت الباب في عنف مرة أخرى ثم أمسكت بها وحاولت تقبيلها، ثم غرقت الغرفة في الظلام مرة أخرى، لكنها قاومتني في عنف شديد وهي تهز رأسها، جذبتها إلى الوراء نحو السرير وسقطت معها على السرير مما أطاح باللمبة وطفاية السجاير من فوق الكومودينو، اعتقدت أنها سوف ترضخ وتستسلم لي إلاَّ أنها صرخت فجأة بصوت عال للغاية حتى إن صرختها قد اخترقت بالتأكيد جميع أرجاء الفندق ودوت في أصداء عبر الجانب الآخر من الميناء، وقالت:

ـ دعني، أذهب.

جلست متهالكاً للحظات وراحت تضربني بجماع يديها فأمسكت بيديها، وقالت: إنني أكرهك.

وأرغمتها على الاستلقاء على جانبها، وقام شخص ما بالغرفة المجاورة بالطرق على الحائط، وصدرت عن آليسون صرخة أخرى مدوية: إنني أكرهك.

صفعتها على صدغها، فانخرطت في البكاء في عنف شديد وتلوّت

في السرير وعوت شذرات من الكلمات في وجهي ما بين الشهقات للحصول على الهواء وما بين البكاء بالدموع:

دعني وشأني أيها القذر...

ووسط انفجارها في البكاء، نهضت واقفاً وذهبت إلى النافذة، بينما بدأت تضرب بيديها على قضبان السرير كما لو كانت غير قادرة على النطق بالكلمات، في تلك اللحظة كرهتها وكرهت عدم سيطرتها على نفسها وتذكرت أنه توجد بغرفتي بالدور الأول زجاجة ويسكي كانت قد أحضرتها لي كهدية في اليوم الأول، قلت:

استمعي إليَّ، سأذهب لأحضر مشروباً، كفي عن هذا البكاء.

وانحنيت عليها فلم تلحظ ذلك واستمرت في ضرب السرير، فاتجهت إلى الباب وترددت بعض الشيء ثم خرجت بسرعة، وكان هناك ثلاثة من اليونانيين واقفين رجل وامرأة ورجل عجوز يطلون من بابين مفتوحين في الطرقة ويحملقون في وجهي وكأنني سفاح قاتل، نزلت السلم بسرعة وفتحت الزجاجة وأخذت جرعة من الويسكي ثم عدت إلى آليسون.

كان الباب مغلقاً من الداخل، واستمر المتفرجون الثلاثة في الحملقة في وجهي وشاهدوني أحاول فتح الباب وأنادي عليها باسمها، اقترب العجوز وسأل:

ـ أهناك شيء ما خاطئ.

ابتسمت في اشمئزاز وتمتمت: إنها حرارة الجو.

فنقل هذه المعلومة في تكرار لكي يسمعها الشخصان الآخران، فقالت المرآة: آه! إنها حرارة الجو..

حاولت مرة أخرى، وناديت على اسمها من خلال ألواح الباب الخشبية، لكني لم أسمع أي شيء، ثم هبطت السلم، وبعد عشر دقائق

عدت مرة أخرى، ثم عدت أربع أو خمس مرات في خلال الساعة ولكن بدون جدوى، حيث كان الباب مغلقاً دائماً في كل مرة مما جعلني أشعر بالارتياح الداخلي بيني وبين نفسي.

كنت قد طلبت من إدارة الفندق إيقاظي في الساعة الثامنة صباحاً، فتم إيقاظي في الوقت المحدد، فارتديت ملابسي على وجه السرعة وصعدت إلى غرفتها وعندما جربت أكرة الباب فتح الباب على الفور.

كانت الدلائل تشير إلى أن آليسون نامت في غرفتها، لكنها هي وكافة حاجياتها كانت غير موجودة بالغرفة، فذهبت بسرعة إلى مكتب الاستعلامات بالفندق.

كان يجلس في هذا المكتب رجل عجوز يرتدي نظارة وهو والد صاحب الفندق، وهو قد سبق له الإقامة في أمريكا ولكنه كان يتكلم اللغة الإنجليزية بطريقة سليمة تماماً، سألته: تلك الفتاة التي كانت معي في الليلة الماضية، هل غادرت الفندق؟

ـ أوه، نعم.. لقد تركت الفندق، منذ نحو ساعة، لقد تركت لك هذا المظروف.

مظروف، عليه اسمي، والكتابة بخط يشبه الخربشة: نيقولاس أورفي

قال: لقد دفعت حسابها بأن حررت شيكاً ثم انصرفت.

وأدركت من الطريقة التي كان ينظر بها إليَّ أنه سمع الصراخ في الليلة الماضية.

عدت إلى غرفتي وفتحت خطابها، كان الخط مثل الخربشة، قرار في آخر لحظة من جانبها بعدم الانصراف في صمت:

«فكر فيما يمكن أن تكون عليه الأمور لو رجعت إلى جزيرتك واكتشفت أنه لم يعد يوجد بالجزيرة أي رجل عجوز ولا أي فتاة، ولا

مزاح غامض ولا ألعاب غامضة، وبحيث تجد المكان بأكمله قد أغلق للأبد.

لقد انتهى الأمر، انتهى الأمر، انتهى الأمر».

في نحو الساعة العاشرة اتصلت بالمطار تليفونياً، لم تكن أليسون قد عادت إلى المطار، ولم يكن من المتوقع أن تعود إلى المطار حتى حلول موعد طيرانها إلى لندن في تمام الساعة الخامسة بعد الظهر، حاولت الاتصال تليفونياً مرة أخرى في الساعة ١١,٣٠ صباحاً قبل إبحار القارب مباشرة، فتلقيت نفس الإجابة، ولدى تحرك السفينة خارجة من رصيف الميناء رحت أبحث بعيني، كان لدي بعض الأمل أن تكون بين جماهير المودعين لكي ترقب رحيلي، ولكن حتى لو كانت هناك فإنها كانت غير مرئية.

شقت السفينة طريقها في اتجاه قمة جبل إيجينا، لقد اخترت طريقي، اخترت الطريق الصعب المحفوف بالمخاطر المتسم بالطابع الشعري وإن كنت قد سمعت آليسون آنئذ تعكس في مرارة تلك الكلمتين الأخيرتين، في بار السفينة انزلق شخص ما إلى المقعد الذي بجواري، إنه ديمترياديس.. صفق بيديه منادياً على الساقي وقال لي: قدم لي مشروباً على حسابك أيها الإنجليزي الوغد وسأحكي لك كيف أمضيت عطلة نهاية الأسبوع في تسلية رائعة.

(٤١)

«فكر فيما يمكن أن تكون عليه الأمور لو رجعت إلى جزيرتك واكتشفت أن..».

وجدت نفسي لا أفكر في أي شيء طوال يوم الثلاثاء سوى ذلك، رأيت نفسي على النحو الذي رأته آليسون، قمت بكتابة مسودة لخطاب

مطول لها في ذلك المساء ثم كتبت مسودات أخرى لخطابات عديدة ولكن كل تلك مسودات لم تعبر عما كنت أريد قوله، وهو أنني تضايقت من نفسي بسبب ما فعلته بها، إلاَّ أنه لم يكن باستطاعتي أن أفعل أي شيء بخلاف ذلك، كنت شبيهاً بواحد من بحارة، «أوليس» الذي تحول إلى خنزير، الآن فقط أصبحت قادراً على أن أكون ذاتي الجديدة، ومزقت صفحات مسودة الخطابات، كنت مقتنعاً أن عليّ أن أعطي لنفسي الحرية.

وفي مساء يوم الأربعاء وبعد أن عدت إلى غرفتي عقب الانتهاء من الدرس الأخير وجدت مذكرة على مكتبي: «نحن نتطلع لمقابلتك يوم السبت، فإذا لم يصلنا ما يفيد عكس ذلك، فأنا أعرف أنك ستجيء، موريس كونشيس».

فشعرت بارتياح هائل وبموجة عارمة من الإثارة، بدا لي كل شيء في أثناء تلك العطلة الأخيرة لنهاية الأسبوع ضرورياً إن لم يكن له ما يبرره.

ولسبب ما غير عادي وفي أثناء عودتي إلى المدرسة فإن السعادة التي كانت تغمرني جعلتني أفكر في آليسون، كنت أشعر بالشفقة عليها بسبب جهلها بالمنافس الحقيقي لها ووجدت نفسي أندفع وأكتب رسالة لها.

«عزيزتي آليسون: لا يمكن لك أن تقولي لشخص ما (لقد رأيت أنه ينبغي لي أن أحبك) وأنا أمامي ملايين الأسباب التي تدعوني لأن أحبك وذلك لأنني بطريقتي الخاصة البالغة الغباء والشذوذ أحبك بالفعل، كانت بارناسوس مكاناً جميلاً ورائعاً، أرجوك ألاّ تظني أن ذلك المكان لم يكن له أهمية بالنسبة لي، إكراماً لوجه الله أرجو أن نحتفظ بهذه الذكرى في أذهاننا.. إنني أدرك أن الأمر قد انتهى. إلاّ أن قضاء لحظة أو لحظتين بجوار تلك البركة مهما كان لدى كل منا أحباء آخرون عديدون لن ينتهي أبداً».

وأراح هذا ضميري بعض الشيء، ووضعت الخطاب في صندوق البريد في صباح اليوم التالي.

في تمام الساعة الرابعة إلاّ عشر دقائق من يوم السبت وصلت إلى بوابة بوراني، وهنالك كان كونشيس يسير في اتجاهي، يسير وكأنه يتجه نحو هدف معين في عجلة من أمره، ورفع يده بمجرد أن شاهدني وتوقفنا في منتصف الممر على مسافة ستة أقدام.

هز رأسه بإيماءة خفيفة بطريقته المعتادة: أقضيت أجازة ممتعة؟

ـ لم تستطع صديقتي المجيء، فشركة الطيران التي تعمل بها وضعتها في رحلة جوية على خط آخر...

ـ أوه! آسف، يا للعار!

فهززت كتفي ثم نظرت إليه وقلت: «لقد قضيت معظم الأوقات سائلاً نفسي في تعجب عما إذا كان ينبغي لي المجيء إلى هنا مرة أخرى، إذ لم يسبق لي من قبل أن تم تنويمي تنويماً مغناطيسياً».

فابتسم وعرف التساؤل الحقيقي الذي كنت أريد أن أسأله في حقيقة الأمر، قائلاً:

إن مسألة قبول أو رفض ما يوحى به إليك متروكة لك.

فرددت عليه بابتسامة خفيفة وتذكرت أنني عدت إلى عالم متعدد المعاني من حيث الكلمات، وقلت: إنني شاكر وممتن من هذا الجانب في ذلك الموضوع.

ـ لم يكن هناك جانب آخر، إنني طبيب... ولقد حلفت اليمين الذي يقسم به الأطباء. فإذا كنت أرغب في أن أوجه إليك أسئلة معينة تحت التنويم المغناطيسي فينبغي أن أحصل على موافقتك على ذلك، وبغض النظر عن أي شيء آخر فهي طريقة غير مرضية؛ إذ اتضح أن المرضى قادرون تماماً على الكذب في أثناء التنويم المغناطيسي.. رجل التنويم

المغناطيسي يمكنه أن يرغمك على أن تفعل أشياء مثيرة للدهشة، ولكنه يقف عاجزاً أمام الأنا العليا.

فالتزمت الصمت للحظات قليلة، ثم سألته: أنت خارج الآن؟

ـ لقد ظللت منتظراً طوال اليوم، وينبغي لي أن أذهب للنزهة، وكنت آمل أن أقابلك أولاً، وهناك شخص ما في انتظارك لكي يقدم لك الشاي.

فألقى نظرة إلى الوراء في اتجاه المنزل غير المرئي، ثم أمسك بذراعي وجعلني أسير إلى جواره عائداً في اتجاه البوابة، قال: مريضتنا تمر بحالات نفسية مختلطة، وليس باستطاعتها أن تخفي مشاعر الإثارة لديها إزاء عودتك، ولا باستطاعتها أن تخفي مشاعر الإحباط لديها إزاء وجود بعض الأسرار بيني وبينك.

ـ ما هي تلك الأسرار؟

ألقى عليّ نظرة من تحت حاجبي عينيه: يا نيقولاس، التنويم المغناطيسي القائم على الفحص والاستقصاء هو جزء من العلاج المنتظم الذي أقدمه لها.

ـ بتصريح وإذن منها؟

ـ في هذه الحالة بتصريح من والديها، أنا أدرك أنها تتظاهر بأنها ممثلة وأعرف أن السبب في ذلك أنها ترغب في أن تُدخل السرور عليك.

ـ تدخل السرور عليّ أنا؟

ـ لقد اتهمتها أنت بأنها تقوم بالتمثيل أو هذا هو ما فهمته، قد تقبلت هذا الاتهام في شكر وامتنان.

ـ إذن فهي لن تثق بي بعد ذلك.

ـ لم يسبق لها أن وثقت بك على الإطلاق، لقد كشفت أيضاً تحت التنويم المغناطيسي أنها تشك منذ البداية فيك وتذهب في شكوكها إلى أنك طبيب يعمل معي.

ـ لكن أليس لها الحق في هذه الشكوك مادمت قد ذكرت لي الحقيقة؟

رفع إصبعه في ابتهاج، بدا الأمر وكأنه يهنئ تلميذاً على ذكائه، ولم ينتبه إلى الحيرة الواضحة التي ظهرت على وجهي، قال: مهمتك الآن هي العمل على كسب ثقتها، وعليك أن تشاركها في أية شكوك تظهرها إزاء دوافعي، كن حريصاً وحذراً.. فهي قد تعمل على خداعك.. وتذكر أن جزءاً واحداً من عقليتها المنقسمة قادر على التقييم العقلاني، وهي لديها خبرة كبيرة في استغفال الأطباء الذين يستخدمون أساليب سخيفة، أنا واثق أنها ستقص عليك بعض قصص الاضطهاد الذي تعرضت له، وستحاول أن تكسبك لصفها والوقوف إلى جانبها ضدي، لكن من المؤكد إذا كنا ندرك الآن أنها لا يمكن أن تكون ليلى..؟

ـ ذلك أمر تركناه جانباً، لقد أصبحت مليونيراً غريب الأطوار.. وهي وأختها ممثلتان شابتان أحضرتهما إلى هنا، وهي سوف تخترع بلا شك سبباً ما غريباً، مما قد يجعلك تعتقد أن إحضارها تم لتحقيق أهداف دنيئة ذات طابع جنسي، وأنت سوف تطلب الدليل والبرهان.

ـ وماذا سأفعل إذا حاولت تكرار ما حدث في العام الماضي، أن تدفعني لأن أساعدها على الهرب؟

نظر إليّ نظرة مليئة بالتحذير، وقال: عليك أن تخبرني على الفور، ولكنني أستبعد هذا، فقد تلقت درساً من تجربتها مع ميتفورد.. وتذكر أنها مهما بدا عليها أنها تثق بك فإنها في الحقيقة لا تثق بك، تذكر أنك لم تقل لي كلمة واحدة مهما حدث في أثناء زيارتك الأخيرة.

ابتسمت وقلت: وما هي فرص النجاح بالنسبة لها في هذا الشأن؟

ـ إنها فرص ضئيلة، ولكنها فرص قائمة، وخاصة إذا أديت دورك بطريقة جيدة، ربما هي لا تثق بك، ولكنها منجذبة إليك.

ـ سأبذل قصارى جهدي.

ـ أشكرك، إنني أثق بك ثقة كبيرة يا نيقولاس، وإنني لمسرور لعودتك إلينا.

وافترقنا.. كان من الواضح أنه سار في اتجاه موتسا، لم أصدق أنه ذاهب للنزهة سيراً على الأقدام، كان يسير وكأنه ذاهب لمقابلة شخص ما، شعرت أنني مهزوز، لقد جئت إلى بوراني وأنا مصمم، عليّ أن أنظر بعين الشك إلى كل من كونشيس وجولي، ولكنني أدركت أن الأمر سوف يتطلب مني أن أرقبها كالصقر الآن، فالرجل العجوز كان منهمكاً في الطب النفسي وبمقدوره القيام بأعمال التنويم المغناطيسي، وتلك حقائق مؤكدة وثابتة، ولا شيء مما قالته عن نفسها ثبتت صحته، رأيتها واقفة تحت إحدى البواكي وقد يممت وجهها نحو البحر، وكانت ترتدي ـ وكان ذلك بمثابة صدمة لي ـ ملابس حديثة معاصرة، وكانت حافية القدمين، فتاة يمكن أن تزدان بها فراندة أي فندق جميل، وبدت جذابة في الملابس الحديثة مثلما هي جذابة في ملابس الزي الرسمي، التفتت نحوي وبدا عليها قدر ضئيل من الدهشة كأنها توقعت أنني لن أجيء، ثم ظهر عليها الشعور بالارتياح بدا الأمر كأنني ضبطتها متلبسة بارتداء ملابس حديثة وكأنها امرأة تعرض فستاناً جديداً لأول مرة على رجل عليه أن يدفع ثمنه.

رفعت بصرها لأعلى إلى حيث أقف ممسكاً بحقيبتي ولاحظت شيئاً آخر جديداً منها: وهو ظهور سمرة خفيفة في بشرتها ناجمة عن التعرض

لأشعة الشمس، حاولت تفحصها وأنا أقول: «هذه الملابس الحديثة تتلاءم معك تماماً».

وبدت في حيرة من أمرها كما لو أن الأيام القليلة الماضية قد تركت بصمات لا تحصى عليها، سألت: هل قابلته؟

أجبت: نعم، قابلته، لقد كان خارجاً للنزهة والتريض تواً.

لم تهدأ شكوكها، وحملقت في وجهي للحظات أخرى، ثم قالت في غير مبالاة: أتريد قدراً من الشاي؟

ـ أرحب بذلك.

سارت في صمت بقدميها الحافيتين إلى المنضدة، شاهدتها تشعل عود ثقاب ثم تضع براد الشاي على الوابور، إنها تتجنب النظر إلى عيني، راحت تعبث بأصابعها في المفارش بينما الندبة الغائرة ظاهرة في معصمها، وعلى وجهها يبدو التجهم، وضعت حقيبتي إلى جوار الحائط واقتربت منها، قالت: هل هناك أمور خاطئة؟

نظرت إليّ نظرة خاطفة ثم اتجهت بنظراتها نحو المنضدة، تساءلت: أين كنت؟

ـ في اليخت، في جولة بحرية.. افتقدتكِ كثيراً.

لم ترد، توقعت أنواعاً متباينة من الاستقبال، ولكني لم أتوقع ظهور هذه الرغبة الواضحة في عدم مجيئي بالمرة، وتصاعدت في داخلي قشعريرة ضئيلة من الخوف، كانت تبدو مشحونة، بل ضائعة، ومع فتاة جميلة للغاية فإن السبب في ذلك قد يرجع إلى عدم وجود رجال آخرين في حياتها، وهو سبب لم أكن أرغب في تصديقه، قلت: أعتقد أن ليلى قد ماتت.

قالت وهي تنظر إلى المنضدة: لا يبدو عليك أنك مدهوش.

ـ لم يعد أي شيء يثير دهشتي هنا، ما هو الدور الذي تلعبينه الآن من الناحية الرسمية؟

سألت: هل استمتعت بأثينا؟

ـ لا، ولم أتقابل مع صديقتي.

ـ أخبرنا موريس أنك تقابلت معها.

لعنته في سري، ثم قلت: ذلك أمر غريب للغاية، فهو لم يكن يعرف منذ خمس دقائق فقط، حيث إنه سألني بنفسه عما إذا كنت قد تقابلت مع صديقتي أم لا، لقد انتهى كل شيء بيني وبينها، كنت أدرك أنني سأقابلك مرة أخرى.

صبت قدراً من الشاي في الأبريق، وقالت: يمكنك أن تبدأ الآن في تناول الطعام، إذا كنت جوعاناً.

ـ أشعر بالرغبة الشديدة في معرفة السبب الذي يجعلنا نتصرف كأننا غرباء تماماً.

ـ نحن غرباء فعلاً، أنا لا ألومك على اعتقادك بأنني مجنونة، لقد سألت نفسي في تعجب عما إذا كنت غير مجنونة أم لا.

شعرت بارتياح هائل، فقد فعلت الشيء الوحيد الذي لم تكن لتفعله أبداً، إذا كان الرجل العجوز قد قال لي الحقيقة ـ اللهم إلا إذا كانت هي مخادعة في جنون، تساءلت: لماذا ينبغي لي أن أعتقد أنك مجنونة؟

ـ لأن السؤال الذي سألته تواً يبرهن أنك تعتقد أنني لست مجنونة.

حملقت في فنجان الشاي ثم حملقت فيها وقلت: لا أعتقد أنك بمثابة حالة فصام نفسي.

نظرت إليَّ في تمعن دون أن يبدو أنني كسبتها إلى صفي، ثم أكملت:

ـ يا جولي، إنه لأمر سخيف أن نقع في كل فخ ينصبه لنا، لقد اعتقدت أننا اتفقنا في آخر مرة، ولا داعي لأن نضطر لأن نكذب في أثناء وجودنا بعيداً عنه.

نهضت واقفة، وسارت نحو الطرف البعيد من صف الأعمدة حيث توجد السلالم المؤدية لأسفل إلى المساحة المزروعة بالخضراوات، واستندت على حائط المنزل وقد أعطت ظهرها لي وراحت تحملق للخارج نحو الجبال.

نهضت ثم وقفت وراءها، لم تلتفت لكي تنظر إليَّ فقلت: أنا لا أوجه اللوم لك، فإذا كان قد حدثك بأكاذيب عديدة تتعلق بي فقد أخبرني بأكاذيب كثيرة تتعلق بك، لقد أنشأنا بالفعل نوعاً من الثقة بيننا في آخر لقاء.

ـ أعتقد أنك ترغب في تقبيلي مرة أخرى.

دُهشتُ من عبارتها الفجائية التي تتسم بالسذاجة.

ـ هل القبلة جريمة؟

طوت يديها فجأة وأعطت ظهرها للحائط وواجهتني في نظرات حادة: وتأخذني إلى السرير؟

ـ لن أفعل هذا إلا إذا وددت، راحت تتفحص عيني ثم نظرت لأسفل: وإذا كنت لا أريد ذلك.

ـ عندئذ سيكون كل شيء واضح.

قلت تلك العبارة في قوة شديدة لكي أتحقق من موقفها، أحنت رأسها، تكلمت في صوت أكثر رقة: ما هو الكلام الذي قاله لك بحق الجحيم؟

ـ لو كنت فقط أعرف الأمور التي ينبغي لي أن أصدقها؟ يبدو لي أن غرائزي ضلَّلت منذ أن جئت إلى هنا، لقد قال كلاماً بغيضاً عقب المرة

الأخيرة، قال إنك ذهبت إلى بيوت الدعارة التي لم تكن مأمونة وأنه يجب عليَّ ألا أدعك تقبلني مرة أخرى.

ـ إذن فأنت تصدقينه؟

شعرت بالغضب من كونشيس، إنه مليء بالحقد والضغينة، ذلك الوغد الذي تحدث عن قسم الأطباء بعدم إفشاء الأسرار، قلت: لقد سئمت من ذلك كله، لقد طفح الكيل، إنني سأنصرف الآن حالاً.

ولم أكن أعني ما أقوله في حقيقة الأمر، واستدرت راجعاً في اتجاه المنضدة كما لو كنت بصدد الانصراف، فقالت بسرعة: لو سمحت، لم أقل إنني صدقت هذا الكلام، توقفت عن المشي ونظرت إلى الوراء نحوها.

قائلاً: لكنك تتصرفين كأنك تصدقين كلامه:

ـ أنا لا أفهم السبب الذي يدعوه إلى الاستمرار في إخباري بأشياء وهو يدرك في نفس الوقت أنني لا يمكنني أن أصدق تلك الأشياء.

رغم أنها ألقت ببصرها لأسفل فإنها ظلت ناظرة في عيني لفترة طويلة.

مما جعلني أعتقد أنها صادقة في رغبتها في عدم انصرافي، اقتربت منها قائلاً: هل نحن مازلنا مقتنعين بطيبته وطبيعته الخيّرة؟

ـ على نحو ما، نعم رغم كل شيء.

ـ هل سبق أن قام بتنويمك مغناطيسياً؟

ـ نعم، مرات عديدة.

ـ إنه يدعي أنه بتلك الطريقة يعرف كل ما يدور في ذهنك.

تسبب كلامي هذا في إصابتها بصدمة، ثم أظهرت قدراً من الاحتجاج حيث قالت: ذلك أمر يبعث عليَّ السخرية، إنها مجرد طريقة

فنية للعمل، تعمل على مساعدتك على القيام بدورك التمثيلي، وهي تقول إنه يقوم بمجرد الكلام، وعلى نحو ما أقوم أنا باستيعاب كل هذا الكلام.

- هل جولي هي مجرد جزء آخر؟

- لسوف أريك جواز السفر الخاص بي، في المرة القادمة.

- كان ينبغي أن تحذريني من أن حالة الفصام كانت بصدد الحدوث.

- لقد حذرتك بالفعل من أن شيئاً ما بصدد الحدوث، بقدر ما كانت لديّ الجرأة على ذلك.

شعرت بشكوكنا وهواجسنا تتصاعد مرة أخرى، وكان عليَّ أن أسلم بأنها قد حذرتني، ثم نظرت إلى القرميد، وقالت:

- إنه يتحدث كيف أن الناس يواجهون انقساماً داخلياً داخل أنفسهم، عندما يواجهون المجهول، قال يوماً إن المجهول هو أعظم العوامل الدافعة الحافزة في كافة التجارب الإنسانية، وكان يقصد عدم معرفة السبب في وجودنا هنا، في وجودنا على قيد الحياة، والسبب في الموت، والحياة في فترة ما بعد الموت، وكل تلك الأمور، ولكن ما هو الشيء الذي يريدنا أن نبرهن عليه؟

- لقد حاولنا مراراً وتكراراً أن نجعله يعطينا تفصيلات واضحة، لكنه يصل دائماً إلى نفس الحجة، وهي أنه إذا عرفنا الهدف فإن ذلك سوف يؤثر على سلوكنا وأدائنا، وهو كلام به شيء من المنطق.

لقد أخبرني بهذا عندما طلبت منه أن أعرف تاريخ حالتك المرضية وتطورها.

التقت عيناها مع عيني وقالت: الحالة المرضية وتطورها موجودة بالفعل، ولقد كان عليَّ أن أحفظها عن ظهر قلب، فهي من اختراعه.

- أنا لم أعد مصاباً بالزهري مثلما أنك لست مصابة بالفصام، إذا كان

هذا جزءاً من لعبته فلا يهمني معرفة كمية الأكاذيب التي يقولها عني، ولكن ما يهمني هو شيء واحد: إذا بدأت في تصديق هذه الأكاذيب.

تبددت الشكوك في عينيها، وأصبح من المفهوم ضمنياً أن عينيها قد تقبلت وجهة نظري، غضت بصرها ثم انزلقت يداها خلف ظهرها، وساد الصمت، هذه المرة كان في الأمر مشاركة، تحركت شفتاها تحت شفتي وتمكنت من احتضان جسدها عن كثب فتعرفت على الانحناءات والتكورات في جسدها، كانت ترغب في أن أقوم بتقبيلها، وتلامس طرفا لسانينا وأصبح العناق قوياً، ثم جذبت فمها بعيداً على نحو فجائي وأدارت رأسها، ولكن جسدها ظل ملتصقاً بجسدي، فقبلت الجزء الأعلى من شعرها، قلت: كنت أفكر فيك كثيراً، قالت في همس: لو لم تحضر اليوم لانتقلت إلى رحمة الله.

ضغطت بذراعي حولها، وسألتها: أيمكن أن نتقابل هذه الليلة بمفردنا في مكان ما؟

ابتعدت بجسدها عني في رفق، وأمسكت بيدي قائلة: هذا أمر صعب، فهناك أناس أكثر مما تتصور.

ـ في أي مكان تنامين هنا؟

ـ لسوف أريك هذا المكان فيما بعد، سيقص علينا فصلاً آخر من حياته، ولسوف ألحق بكم عقب تناول العشاء.

ـ ما رأيك أن نتقابل في منتصف الليل بجوار التمثال؟

ـ إذا أمكنني ذلك.

عدنا إلى المنضدة، وجلسنا، تناولت شطيرة ودخنت هي سيجارة، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث، وكانت هي وأختها ـ مثلي تماماً ـ من حيث إنهما لم تستطيعا فهم ذلك التصميم المتناقض الذي يبديه الرجل

العجوز على إغوائنا بالدخول في لعبته ومع ذلك فهو يبدو عليه وكأنه على استعداد للتخلي عن ذلك.

أحسسنا أن كونشيس كان قريباً منا، وأنه يتلصص علينا، ألقيت نظرة خلفي نحو جولي، كانت تحملق في غضب في الرجل العجوز، وأدركت على الفور أن هناك شيئاً ما خاطئاً للغاية، بدا الأمر كأنني لم أعد هنالك، قال كونشيس: ماريا تريد بعض الأخشاب من أجل الموقد.

كان صوت جولي حارقاً وأقرب إلى الطابع الهستيري وهي تقول: لقد سببت لي صدمة هائلة! كيف أمكن لك أن تفعل ذلك!

كانت عيناها متسعتين وخاصة حدقة العينين كما لو كانت قد نومت مغناطيسياً بمعرفة كونشيس، بصقت بكلماتها التالية في وجهه وهي تقول له: إني أكرهك.

ـ يا عزيزتي، إنك في حالة من التوتر الشديد، اذهبي الآن واستريحي.

ـ إني أكرهك.

قالت تلك العبارة في يأس مرير مما جعل ثقتي الجديدة بها تتحطم مرتطمة بالأرض، ورحت أنتقل ببصري في ذعر وهلع شديدين بينها وبين كونشيس محاولاً مشاهدة أي دليل على وقوع تصادم، نشبت معركة قصيرة من الإرادات فوق رأسي، ثم استدارت فجأة وأخذت بسرعة فنجان الشاي الموجود أمامي وقذفته على وجهي، وكان الشاي بارداً تقريباً ولكن الحركة التي قامت بها كانت مليئة بالضغينة الرهيبة، فاجأتني تماماً بهذه الحركة، وواصلت سيرها على الفور، ونادى كونشيس في حدة: جولي!

توقفت عند الطرف الشرقي من صف الأعمدة وظلت تنظر في استياء إلينا قال: أنت تتصرفين مثل طفلة مدللة، وهذا أمر لا يمكن غفرانه.

ولم تتحرك، فاتخذ كونشيس خطوات قليلة نحوها وتحدث بصوت منخفض ولكنني سمعت كلماته: قد تظهر الممثلات قدراً من الحساسية البالغة، ولكن ليس أمام المتفرجين الأبرياء، الآن اذهبي واعتذري لضيفنا.

أصابها التردد ودارت حول نفسها، ثم عادت نحوي، كانت وجنتاها محتقنتين باللون الأحمر بعض الشيء، بينما عيناها تتجنبان النظر إلى عيني، راحت تحملق في الأرض، فرحت أمعن النظر في وجهها، نظرت في يأس خلفها، نحو كونشيس:

ـ لقد سببت لنا صدمة كبيرة.

رفع يده نحوي على نحو يفيد بأنه يرغب في تهدئة الموقف ثم تكلم مخاطباً ظهرها: نحن في انتظارك يا جولي ثم فجأة انصبت عيناها على عيني، وقالت: وأكرهك أنت أيضاً.

كان صوتها شرساً كصوت طفلة مدللة، ولكن جفن عينها اليمنى رفرف على نحو رائع وإعجازي أو هكذا بدا الأمر لي: كان عليَّ ألا أصدق كلمة واحدة من كل هذا المشهد الصغير، ووجدت صعوبة في الإحجام عن الضحك، كانت قد استدارت وشرعت في السير متخطية المكان الذي يقف فيه العجوز، فمد يده لكي يوقفها ولكنها أزاحت يده على جانب في غضب وجرت هابطة السلم، وبعد أن قطعت مسافة عشرين ياردة تقريباً توقفت عن الجري ورفعت يديها إلى وجهها كأنها كانت تشعر بنوع من الرعب الداخلي، التفت كونشيس نحوي وابتسم في وجهي الذي ظهرت عليه دلائل الاهتمام والقلق: عليك ألا تأخذ نوبة الغضب تلك مأخذ الجد، فهناك جزء من كيانها يكون دائماً على حافة اتخاذ سلوك ارتدادي بشكل حاد.

ـ كان باستطاعتها أن تستغفلني وتخدعني.

ـ ودت أن تبين كم أنا طاغية مستبد.

قلت: لا يهمني إلقاء الشاي على وجهي، لكن كل ما يهمني أنك أخبرتها أنني مصاب بمرض الزهري، بينما أنت تعرف كل الحقائق عن ذلك الموضوع.

ابتسم وقال: من المؤكد أنك خمنت السبب في قولي لها ذلك.

ـ لم أعرف سبب ذلك حتى الآن.

ـ لقد أخبرتها أيضاً أنك تقابلت مع صديقتك في الأسبوع الماضي، وربما يكون ذلك هو المفتاح؟

من المؤكد أنه قد أدرك من خلال التعبيرات التي ظهرت على وجهي أن ذلك لم يكن هو المفتاح، فأصابه التردد، ثم قال: تعال، سوف أشرح لك.

انطلقنا عائدين في اتجاه البوابة، قال: إنها تعرف أن فتاة أخرى في حياتك، وإنك ربما لا تكون شاباً مرغوباً فيه على النحو الذي تبدو عليه من أول نظرة، بالإضافة إلى أن المصابين بالفصام غير مستقرين عاطفياً على النحو الذي شاهدته تواً، وأنا أدرك أن باستطاعتي أن أثق بك من حيث إنك لن تحقق انتصاراً جنسياً على فتاة مريضة كهذه الفتاة، ولكن إذا ما تم غرس عقبات أخرى في ذهنها، فإن ذلك سيساعد على تسهيل الأمور بالنسبة لك.

أحسست بصوت كالهدير يتصاعد في داخل كياني، فتلك الغمزة من عينها جعلت جميع خداعاته جوفاء، ويمكن التغاضي عنها، كما سمحت لي أن ألجأ، أنا الآخر، إلى أعمال الخداع.

ـ وذلك هو السبب، أنني اضطررت لمقاطعتكما في أثناء تحدثكما في همس وسرية، فهي بحاجة إلى قدر ضئيل من النكسات والمشاكل

التي تتطلب التغلب عليها، مثلما أن الناس ذوي الأطراف المكسورة يحتاجون للرياضة والعلاج الطبيعي، ما هو رأيك فيها يا نيقولاس؟

ـ إنها تنظر إليَّ بكثير من الارتياب، مثلما أخبرتني.

ـ هل حاولت أن....؟

ـ كنت بصدد البدء فقط.

ـ حسناً، لسوف أختفي تماماً غداً، أو على الأقل سوف أجعلها تعتقد في ذلك، ولسوف يكون أمامك اليوم بأكمله لتقضيه معها في عزلة واضحة، ولسوف نرى أسلوبها في التصرف.

ـ كم أنا مسرور لأنك تثق بي كثيراً، فقام بلمس ذراعي وقال: وأنا أعترف أنني أرغب في أن أسبب بعض ردود الفعل الزائدة في داخلها، وهذا سيكون لصالحك، في حالة إذا ما كانت لديك شكوك متبقية تتعلق بحالتها غير السوية.

أمال رأسه وابتسمت أنا في داخل عقلي، ووصلنا إلى الشجرة التي يريد تقطيعها إلى أطوال تسمح باستخدامها كوقود، وكان من المقرر أن يحمل هيرميز الكتل الخشبية إلى المنزل، وعليَّ أن أكوم الكتل في أكوام بحيث تكون جاهزة لنقلها، انطلق منصرفاً بمجرد أن بدأت في استخدام البلطة في تقطيع الأخشاب، واستمتعت بعملي، كانت الجذوع الصغيرة جافة وهشة للغاية حتى إنها كانت تنكسر مع الضربة الأولى، وأحسست أن كل ضربة كان لها طابع رمزي، شيء ما أكثر من مجرد خشب يتم تجزئته إلى أطوال قابلة للاستعمال، كنت أشعر أيضاً أنني بصدد البدء في تكويم أسرار بوراني وكونشيس في أكوام منتظمة ومرتبة، كنت بصدد اكتشاف كل ما يتعلق بجولي، فهي واقفة إلى جانبي، أما هو فيستخدمنا كأشخاص نقوم بتجسيد سخريته من حيث نحن النماذج البشرية التي يستخدمها في استكشاف الآراء المضادة، كانت كل أكذوبة

بمثابة نوع من الحقائق، وبدأت ـ مثل جولي ـ أتقبل رغبته الأساسية في مساعدة الآخرين رغم الحيل الخادعة التي تنبع منها الشرور.

على أي حال فهو بالغ الذكاء بحيث لا يمكنه أن يتوقع لنا ألا نشاهد من خلال المظهر السطحي للأقنعة الخاصة به، ومن المؤكد أنه يريدنا أن نشاهد المعنى العميق وراء الأقنعة.

رحت أطوح بالبلطة وأهبط بها تحت شمس ما بعد الظهر مستمتعاً بالرياضة البدنية وشاعراً بسيطرتي على الموقف مرة أخرى ومفكراً في موعد منتصف الليل وفي الغد وفي جولي، وفي القبلة، وقد نسيت آليسون تماماً وكنت مقتنعاً بالانتظار طوال الصيف إذا أراد هو ذلك.

(٤٢)

جاءت نحونا في ضوء المصباح إلى المنضدة الموجودة في الركن الجنوبي الشرقي بالفراندة بالدور العلوي، كان دخولها هذه المرة على النقيض من دخولها أول مرة، في تلك الليلة التي شاهدتها فيها على أنها ليلى: كانت ترتدي الملابس نفسها علاوة على قدر ضئيل من ماكياج تظليل العيون، نهضت أنا وكونشيس واقفين من أجلها، أصابها شيء من التردد وهي واقفة أمامي ثم رمقتني بنظرة متغيرة، قائلة: أشعر أنني كنت رهيبة بعد ظهر هذا اليوم، هل ستغفر لي ذلك؟

ـ انسي هذا الموضوع، إنه بالغ البساطة.

ثم حملقت في كونشيس كما لو كانت تريد أن تعرف ما إذا كانت قد حصلت على موافقته، ابتسم لها وأشار إلى الكرسي الشاغر الموجود بيننا، لكنها وضعت يدها داخل المساحة المغلقة بالزراير في قميصها واستخرجت غصن ياسمين قائلة:

ـ هدية السلام.

جلست، صب لها كونشيس فنجاناً من القهوة بينما أشعلت لها سيجارة، بدا كأنها نالت العقاب اللازم، حرصت على تجنب النظر في عيني عقب تلك النظرة الأولى، قال كونشيس: كنت أنا ونيقولاس نتنافس في الأمور الدينية.

وكان ذلك صحيحاً، فقد أحضر إنجيلاً إلى المنضدة، ثم شرعنا في الحديث عن الذات الإلهية، حملقت نحو فنجان القهوة وراحت ترتشف، ثم شعرت بضغط خفيف على قدمي تحت مفرش المنضدة، قال: نيقولاس يقول إنه من أتباع مذهب اللاأدرية، ولكنه أضاف قائلاً بعد ذلك إن ذلك الأمر لا يهمه ولا يقلق باله.

لمست الملعقة الصغيرة الموجودة في طبق الفنجان، وقالت: كان ينبغي لي أن أعتقد أنه لا شيء أكثر أهمية من ذلك.

ـ لا شيء أكثر أهمية من الاتجاه نحو أمر لا يمكن أن يعرف جوانبه على الإطلاق؟ يبدو لي أن ذلك بمثابة مضيعة للوقت، تحسست بقدمي باحثاً عن قدمها، ولكن كانت قد اختفت، التقطت علبة ثقابها التي تركتها على المنضدة بيننا واستخرجت ١٢ عوداً ووضعتها على القماش الأبيض.

ـ ربما أنت خائف من إمعان التفكير في الذات الإلهية؟

لم تكن تبدو على حالتها الطبيعية فأدركت أن هذا كان نوعاً من المشهد المُعد له مسبقاً، فهي تقول الكلام الذي يريد كونشيس أن يقوله: لا يمكن للإنسان أن يمعن التفكير في أمر لا يمكن له أن يعرفه.

ـ ألم تفكر أبداً في الغد؟ ألم تفكر في السنة القادمة؟

راحت تعبث بأعواد الثقاب وتدفع بها بأصابعها وتشكل منها نماذج وأشكالاً، ورحت أرقب فمها وتمنيت أن أضع حداً لهذا الحوار البارد، قالت: باستطاعتي التوصل إلى تنبؤات معقولة عن الذات الإلهية، فمن

المؤكد أن الذكاء الإلهي متفوق للغاية على ذكائي، لأنني لا أستطيع الحصول على أية مفاتيح أو أية أمور مؤكدة أو أية رؤى أو أية أسباب أو أية دوافع، إنه حكيم للغاية، فإذا صليت لله فلن أطلب منه أبداً أن يكشف لي عن ذاته العليا ويتجلى لي، لأنه إذا كشف لي عن ذاته فسأدرك أنه ليس إلهاً.

ثم ألقت نظرة على كونشيس الذي كان ينظر في اتجاه البحر، اعتقدت أنه ينتظر أن تنتهي من القيام بدورها التمثيلي في هذا الفصل، شاهدت سبابتها تطرق في صمت على المنضدة مرتين، ورفرفت عيناها مرة أخرى على كونشيس، ثم عادت ونظرت إليَ، فنظرت لأسفل، لقد كانت قد وضعت عودين من الكبريت في وضع مائل على بعضهما، ثم دفعت بأعواد الكبريت وكونت منها كومة صغيرة وانحنت للوراء بعيداً عن دائرة الضوء الصادرة عن المصباح والتفتت نحو كونشيس وقالت:

ـ إنك ملتزم بالصمت الشديد يا موريس، أليس كذلك؟

فابتسم كونشيس لي وقال: إنني أتعاطف معك وأشاركك المشاعر يا نيقولاس، ولقد كانت مشاعري متماثلة مع مشاعرك عندما كنت أكبر منك سناً وأكثر خبرة مما أنت عليه الآن، فلا أحد منا لديه الخاصية البشرية الحدسية الموجودة لدى النساء، ولذلك فلا لوم علينا، ولكني بعدئذ مررت بتجربة جعلتني أفهم ما قالته لك جولي تواً، أعتقد أنها تدرك أن كافة التعريفات العميقة للذات الإلهية هي تعريفات تتعلق بمنح الأشياء، لأن الغريزة الدينية هي في حقيقة الأمر الغريزة التي تحدد ما يعطي مع كل موقف.

واستند بظهره إلى الوراء في مقعده وأكمل: أعتقد أنني أخبرتك أنني كنت بالخارج عندما قام التاريخ الحديث ـ لأن السائق كان يمثل الديمقراطية والمساواة والتقدم ـ بضرب دوكانز وتحطيمه في عام ١٩٢٢، كنت في أقصى شمال النرويج بحثاً عن أصوات الطيور،

ولعلك تعرف أن أعداداً لا حصر لها من الطيور النادرة تعيش بالمنطقة القطبية الشمالية، إنني إنسان سعيد الحظ، وأنا من النوع الذي يندفع إلى العمل في حماس، وكنت في ذلك الوقت قد طبعت ونشرت بحثين عن رموز صيحات الطيور وبدأت في مراسلة أساتذة كبار، ولذلك، ففي صيف عام ١٩٢٢ سافرت إلى المنطقة القطبية الشمالية لكي أقضي بها ثلاثة أشهر.

تحركت جولي في جلستها قليلاً فشعرت بضغط خفيف على قدمي مرة أخرى، ضغط عار ولين للغاية، كنت ألبس صندلاً في قدمي ودون أن ألفت انتباه كونشيس ضغطت على كعب الصندل في قدمي اليسرى إلى أن تحرر كعبي فشعرت بإصبع قدم عار ينزلق لأسفل على جانب قدمي وتقوست أصابع قدمها وراحت تربت على الجزء العلوي من أصابعي، كانت حركة بريئة تتسم بطابع الشهوة الجنسية، حاولت أن أصعد بقدمي على قدمها ولكن الضغط في هذه المرة كان به شيء من التوبيخ، كان باستطاعتنا أن نظل متلامسين.

أكمل كونشيس: وفي أثناء اتجاهي إلى الشمال حدثني أستاذ بجامعة أوسلو عن فلاح متعلم يعيش في قلب الغابات التي تمتد من النرويج وفنلندا إلى داخل روسيا، ويبدو أن ذلك الرجل كان لديه بعض المعلومات عن الطيور، وكان بالغابة أنواع نادرة من الطيور التي أرغب في سماع أصواتها، لذلك قررت أن أقوم بزيارة ذلك الفلاح.

كان هذا الفلاح رجلاً ضئيل الجسم وله عينان مليئتان بالحيوية، ويبلغ من العمر خمسين عاماً، قام هو بقراءة خطاب التوصية الذي سلمته له، ومعه امرأته التي تصغره بخمس سنوات، وقد وقفت وراءه، كانت ذات وجه قاس لكنه لافت للنظر، ورغم أنني لم أفهم الكلام الذي دار بينها وبين الفلاح إلا أنني أدركت أنها لا ترغب لي أن أقيم في ذلك المكان، ولاحظت أنها تتجاهل الرجلين الآخرين اللذين جاءا معي

ليجدفا الزورق نيابة عني، وعلى كل حال فقد رحب بي الفلاح، كان يتكلم اللغة الإنجليزية بطريقة سليمة.

أما المرأة ـ كما كنت أتوقع ـ فلم تكن زوجته، وإنما زوجة أخيه، وكان لها طفلان، وكلاهما في مرحلة المراهقة، لم يكن الطفلان ولا أمهما يعرفون اللغة الإنجليزية، ودون أن تظهر المرأة لي وقاحتها، فإنها أوضحت لي في صمت أن وجودي معهم هناك كان ضد رغبتها، ولكنني أنا وجوستاف نيجارد شعرنا بالارتياح من أول نظرة، أراني كتبه عن الطيور كما أراني مذكراته عنها، كان رجلاً متحمساً.

بالطبع كان من أوائل الأسئلة التي وجهتها إليه تتعلق بأخيه، قال إنه غادر المكان منذ سنوات عديدة.

كان منزل هذا الفلاح صغيراً للغاية فتم إخلاء مكان في الصندرة التي بها علف الماشية والتي تقع فوق حظيرة الماشية من أجل وضع السرير الخاص بي، كنت أتناول الوجبات مع أفراد هذه الأسرة، وكان نيجارد يتحدث معي فقط، أما زوجة أخيه فلم تكن تتكلم مثل ابنتها، أما شقيق الفتاة فكان يتمنى المشاركة في الحديث ولكن عمه لم يكن يهتم بترجمة الكلام الذي نقوله، وفي الأيام الأولى لم يشكل هذا المكان أهمية بالنسبة لي، لأن جمال الطبيعة وامتلاءها بالطيور النادرة قد سيطر على كل مشاعري، وقضيت أيامي في الإصغاء إلى البط والأوز النادر والبجع البري الموجود بكثرة في جميع البحيرات المنتشرة على طول الشاطئ، إنه مكان تتوفق فيه الطبيعة في انتصار على الإنسان، إنه لأمر عاطفي للغاية، إنه يحدث المرء عن مناظر طبيعية ويقول عنها إن لها روحاً، كان المكان يتمتع بشخصية أقوى من شخصية أي مكان آخر سبق أن شاهدته في حياتي، فهو مكان لا يشكل فيه الإنسان أهمية في هذا المكان، فالنهر زاخر بأسماك السلمون وغير ذلك من أنواع الأسماك الأخرى وكانت فترة الصيف طويلة ودافئة على نحو يكفي لزراعة

البطاطس، ورغم شعوري بالخوف من العزلة الشديدة لدى وصولي إلى هذه المزرعة لأول مرة فإنني أدركت خلال ثلاثة أيام أنني وقعت في غرام ذلك المكان، بل وأحببت بالدرجة الأولى ذلك الصمت الشديد الذي يسوده، فالأصوات التي تشبه الطرطشة لدى إلقاء بطة بنفسها على سطح الماء وصرخات طيور العقاب التي تترامى عبر أميال في وضوح لا يمكن تصديقها وبعدئذ تترامى في غموض، كانت تجعل الصمت والهدوء أكثر حدة شأن الصراخ في منزل شاغر، ولذلك بدت الأصوات كأنها تحدد الصمت وتميزه وتبرز معالمه وليس العكس.

أعتقد أنني اكتشفت في اليوم الثالث من وجودي سرهم، ففي صباح اليوم الأول حدد نيجارد مساحة صغيرة من الأرض مغطاة بأشجار طويلة ممتدة كاللسان داخل النهر وطلب مني عدم الذهاب إلى تلك المساحة من الأرض، وأوضح أنه قد علق هناك العديد من الصناديق التي تشبه عش الطيور وشيد بذلك مستعمرة مزدهرة للبلقشة البيضاء (نوع من البط) البط الذهبي العينين ولا يريد أن يسبب إزعاجاً لهذه الطيور، فوافقته على رأيه.

كان نيجارد يكره الجلوس في غرفة واحدة معي في أثناء وجود الولد والفتاة في نفس الوقت، إذ كان صمتهما المليء بالاستنكار يسبب له الضيق، لذلك اعتاد أن يجيء معي عندما أذهب إلى «غرفة نومي» الموجودة فوق حظيرة الماشية لكي يدخن غليونه ويتحدث معي، وفي ذلك المساء أخبرته أنني شاهدت ابنة أخيه ذاهبة إلى ذلك المكان وقد حملت معها طعاماً وشراباً، وسألته عمّن يكون هو ذلك الشيخ الذي يسكن في ذلك المكان، فلم يبذل أية جهود في إخفاء الحقيقة، إذ اعترف لي أن أخاه يعيش هنالك، وقال إن أخاه مجنون.

تساءلت عما إذا كان هناك طبيب كشف عليه لتشخيص حالته، فهز نيجارد رأسه كما لو كان رأيه في الأطباء لا يتسم بالثقة الكبيرة في مثل

هذه الحالة على الأقل، قال: أعتقد أننا جميعاً نعاني من الجنون في هذا المكان، ثم انصرف، إلا أنه عاد مرة أخرى بعد دقائق قليلة، وأحضر معه زكيبة صغيرة، وهزها مخرجاً محتوياتها على سريري، فشاهدت زبالة تتكون من حجارة شديدة الصلابة وشقافة من آنية فخارية بدائية عليها أشرطة زخرفية محفورة بالحفر الداخلي، وأدركت أنني أنظر إلى مجموعة من الأدوات التي كانت مستخدمة في العصر الحجري، فسألته عن المكان الذي عثر فيه على هذه الأشياء فقال إنه عثر عليها في سايديفاري.

وكانت المزرعة عبارة عن مأوى صيفي لصيد الطيور والحيوانات والأسماك ولقد قام والده ببناء ذلك البيت الصغير، وكان والده قسيساً وقد تمكن من خلال زواج سعيد الحصول على قدر كبير من الأموال مما مكنه من إطلاق العنان لتحقيق مصالحه المتعددة، وكان دارساً يتمتع بشهرة محلية، ويعشق العودة إلى الحياة البدائية، كان ابناه قد ثارا ضد النواحي الدينية في حياته، فاتجه الأكبر هنريك إلى البحر، أما جوستاف فقد اتجه إلى الطب البيطري، وعندما مات الأب ترك كل ثروته للكنيسة، وتقابل هنريك مع راجنا وتزوجها وذلك في أثناء إقامته مع جوستاف الذي كان قد بدأ في ذلك الوقت يتدرب ويمارس أعماله في تروندهايم، وسرعان ما تعرض لأزمة عصبية عقب زواجه، فتوقف عن أعماله كمهندس في شئون السفن وعاش متقاعداً في سايديفاري.

ثم سارت الأمور على ما يرام، لكن سلوكه وتصرفاته أصبحت بعد ذلك غريبة، وأخيراً قامت راجنا بتحرير خطاب لجوستاف، وما إن قرأه حتى بادر بالعودة، واكتشف أنها قامت بمفردها بتسيير شئون المزرعة، وبرعاية طفليها الصغيرين، فبدأ يرعى شئون المزرعة ويرعى أسرة أخيه.

وقال: «لم يكن هناك بديل آخر أمامي»، كنت قد شككت أن سبب ذلك هو التوتر بينهما، فقد كان يحب راجنا، فأصبحا منغلقين على

بعضهما البعض على نحو أكثر مما ينبغي - في حالة من الحب غير المتبادل من جانبه وفي حالة من الوفاء التام من جانبها.

عرفت أن أخاه اعتاد الذهاب إلى سايديفاري لقضاء فترات قصيرة في «التأمل»، ثم عاش على مدى ١٢ عاماً معتزلاً الناس، ولم يعد قط إلى المزرعة، وفي خلال العامين الأخيرين لم يتبادل الأخوان كلمات تزيد على مائة كلمة، ولم تقترب راجنا منه على الإطلاق، وكان هو بالطبع معتمداً في جميع احتياجاته عليهم خاصة منذ أن أصبح بصره ضعيفاً، ولم يعد يدرك تماماً ما يفعلونه من أجله، كان ينظر إلى ذلك على أنه نعمة هبطت عليه من السماء.

وجدت نفسي مهتماً أكثر بهؤلاء الأربعة أكثر من اهتمامي بالطيور، نظرت إلى راجنا وظننت أنني شاهدت في داخلها بعداً تراجيدياً، كان لها عينان جامدتان وسوداوان، وشعرت بالأسف من أجل الطفلين، فقد تربيا - على مزرعة استنباتية ذات طابع اكتئابي دون أن تكون هناك مقدرة على الهروب من الموقف على الإطلاق، ودون أن يكون هناك جيران على مسافة عشرين ميلاً، بل ولا توجد أية قرية على بعد خمسين ميلاً، وأدركت سبب ترحيب جوستاف بوصولي، فقد احتفظ بسلامة صحته العقلية وبمقدرته على الإدراك بطريقة سليمة، وبالطبع تكمن حماقته القصوى في حبه المشئوم لزوجة أخيه وهو حب فرضته عليه الأقدار.

ومثل جميع الشبان رأيت نفسي كشخص يجد حلاً للمواقف المعقدة الصعبة، وكانت لدي خبرتي الطبية، سرعان ما تعرفت على الأعراض المرضية المتزامنة، وبدا الأمر واضحاً لي تماماً مثل سلوك الطيور التي كنت أرقبها كل يوم، وما إن انكشف السر حتى أصبح جوستاف غير راغب في الحديث في هذا الموضوع، وفي مساء اليوم التالي راح يخبرني بالمزيد من المعلومات التي أكدت التشخيص الذي توصلت إليه.

كان هنريك من أنصار القسوة، وكان يؤمن أنه قد اختير لكي تتم معاقبة جسده وتعذيبه، ولكي يفني شبابه في المراكب المليئة بالأجواء الكريهة ولكي تنتزع جنته من بين يديه عندما يصل إلى مرحلة الاستمتاع بها، ولم يكن بمقدوره مشاهدة الحقيقة الموضوعية، بأن لا شيء ظالم بالنسبة للجميع وإن كان هناك العديد من الأشياء التي قد تكون ظالمة بالنسبة لكل فرد، وظل هذا الإحساس بالظلم كامنا داخل كيانه، فرفض الذهاب للمستشفى لإجراء فحوص على عينيه، وأصبح يتفجر بالانفعالات فتحرقت روحه في داخله وأحرقته في آن واحد، ولم يعد يذهب إلى سايديفاري لكي يتأمل، وإنما لكي يتفجر بمشاعر الكراهية.

ومما لا شك فيه أنني كنت متلهفاً لإلقاء نظرة على هذا الرجل المجنون المتدين، ولم يكن ذلك بدافع من حب الاستطلاع الطبي على الإطلاق فقد بدأت أشعر بالارتياح إزاء جوستاف إلى حد بعيد، ولقد حاولت أن أشرح له جوانب من علم الطب النفسي، لكنه لم يظهر اهتماماً به، كل ما قاله إنه من الأفضل لأخيه المجنون أن يترك وشأنه، فوعدته بأنني لن أزور ذلك اللسان من الأرض الناتئ في داخل النهر، وانتهى الموقف عند هذا الحد.

وفي أحد الأيام العاصفة، كنت قد توغلت لمسافة أربعة أميال على طول النهر فسمعت شخصاً ما ينادي عليَّ باسمي، إنه جوستاف، وكان فوق زورقه، فخرجت من بين الأشجار وقام هو بالتجديف في اتجاهي، واعتقدت أنه ينشر الشباك لاصطياد السمك، ولكنني اكتشفت أنه جاء خصيصاً للبحث عني، فقد كان يريدني أن ألقي نظرة على أخيه، وكان علينا أن نظل مختبئين ونرقبه سراً كأنه طائر، وأوضح لي جوستاف أن الوقت ملائم لإلقاء نظرة على أخيه هنريك لأنه أصبح يتمتع بحاسة سمع قوية للغاية شأن العديد من الناس الذين يصابون بضعف شديد في البصر ولذلك فإن الرياح العاصفة ستكون في صالحنا لأنه لن يحس بمقدمنا.

قفزت إلى القارب ورحنا نجدف نحو شاطئ صغير قريب من نهاية اللسان، كانت زيارة كوخه في هذه الحالة تتسم بالأمان بالنسبة لنا، شققنا طريقنا بين الأشجار حتى وصلنا إلى الكوخ العجيب، كان الكوخ غائراً في الأرض، فلم يظهر منه سوى ثلاثة جوانب فقط، أما في الجانب الرابع فكان يوجد باب ونافذة صغيرة.

أشار جوستاف بأن أدخل إلى الكوخ في حين يبقي هو ليراقب الموقف من الخارج، كان الكوخ عارياً من الأثاث مثل صومعة الناسك، إلا من سرير منخفض ومنضدة غير أنيقة، وعلبة بها مجموعة من الشموع، ولا شيء من وسائل الراحة سوى موقد قديم، لم تكن هناك سجاجيد أو ستائر، وكانت المساحات التي يعيش فيها في داخل الغرفة نظيفة بعض الشيء، ولكن أركان الغرفة كانت مليئة بالفضلات، وإلى جوار النافذة الوحيدة الصغيرة يوجد إنجيل ضخم، ونظارة مكبرة وبركة من الشمع المذاب.

عندما تركنا الكوخ، سرنا في حذر نحو لسان الأرض الممتد في داخل مياه النهر، كانت هناك صخرة جلمودية طويلة شكلتها الرياح والصقيع بهذا الشكل البديع، وأشار جوستاف بيده، كان هناك رجل يقف على مسافة خمسين ياردة عند الجانب البعيد من أشجار البتولا وكان متوارياً عن لسان الأرض الناتئ في مياه النهر، ركزت نظارتي عليه، إنه أطول من جوستاف، التفت بطريق المصادفة نحونا فتمكنت من مشاهدة وجهه النحيل، الذي أدهشني هو تلك الشراسة والوحشية التي كانت تبدو على وجهه، قسوة تكاد تصل إلى حد الوحشية، لم يسبق لي أن شاهدت في حياتي وجهاً قد عبر عن مثل هذا التصميم العنيف بألا يتصالح أبداً أو حتى يبتسم، وكان لعينيه لون أزرق بارد على نحو مذهل للغاية، عينا رجل مجنون بدون أدنى شك، وكان بمقدوري

مشاهدة كل ذلك حتى وأنا على مسافة خمسين ياردة، كان يرتدي ثوباً واسعاً فضفاضاً قديماً له ضفائر حمراء باهتة عند الأطراف.

رحت أرقب هذه العينة النادرة من البشر، توقعت أن أشاهد مخلوقاً متلصصاً متخفياً، مخلوقاً يتمتم ويهمهم لنفسه لدى زحفه بين الأشجار، وليس هذا الصقر البشري المتوحش الضعيف البصر، لكزني جوستاف بيده مرة أخرى لكي يلفت نظري، لقد ظهر ابن أخيه بالقرب من اللسان الناتئ في مياه النهر وقد حمل معه جردلا ووعاء لبن، وضعهما على الأرض ثم التقط الجردل الشاغر الآخر الذي وضعه هنريك بالتأكيد هنالك، ثم نظر فيما حوله، وصاح بكلمات باللغة النرويجية، بصوت غير مرتفع للغاية، كان من الواضح أنه يعرف المكان الذي يقف فيه والده لأنه كان يواجه مجموعة أشجار البتولا، ثم قفل راجعاً بين الأشجار، وبعد خمس دقائق بدأ هنريك في السير في اتجاه اللسان الناتئ في النهر، كان يمشي في ثقة تامة ولكنه كان يتحسس طريقه باستخدام عكازه، ثم التقط الجردل وصفيحة اللبن ووضع عكازه تحت ذراعه واستأنف سيره عائداً على المدق في اتجاه الكوخ، وبمجرد أن تخطى المكان الذي نقف فيه وقف وأدار وجهه لأعلى نحو السماء، ثم راح يصغي إلى أصوات الطيور كما لو كان ذلك بمثابة الإشارات الأولى الصادرة عن المبشرين الذين يبلغونه بأن الزيارة العظمى أصبحت على وشك أن تتم.

ثم توارى عن الأنظار وعدت إلى المزرعة مع جوستاف، لم أكن أعرف ما ينبغي أن أقوله، لم أرغب في أن أتسبب له في الإحباط، ولا أن أعترف بالهزيمة، قررت أن أقوم بزيارة هنريك بمفردي، وأخبره أنني طبيب يرغب في إلقاء نظرة على عينيه لكي أتفحصها، وفي أثناء النظر في عينيه أقوم بالنظر في داخل عقله.

ووصلت إلى باب كوخ هنريك في الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم

التالي، كانت الدنيا تمطر في رذاذ خفيف، طرقت على باب الكوخ، ظهر مرتدياً نفس الملابس التي كان يرتديها في مساء اليوم السابق، وعندما واجهته عن كثب شديد ذهلت من تلك الوحشية التي تبدو على وجهه، كان من الصعب أن أصدق أنه يكاد يكون كفيفاً حيث كانت توجد في عينيه زرقة شاحبة محملقة، لكنني أدركت وأنا قريب منه أن حملقته ضعيفة التركيز للغاية، من المؤكد أنه قد أصيب بصدمة هائلة لدى إدراكه لوجودي أمامه ولكن لم تظهر عليه دلائل تشير إلى ذلك، سألته عما إذا كان يعرف اللغة الإنجليزية ـ وكنت أعرف مقدماً أنه يعرف اللغة الإنجليزية، كنت أريده أن يجيبني على تساؤلي، اكتفى بأن رفع عكازه لأعلى كما لو كان يريد أن يوقفني عند حدي، كانت حركة تنبيه أكثر مما هي حركة تهديد، فهمت أنه يمكن لي الاستمرار في وجودي بشرط أن أحتفظ بمسافة بيني وبينه.

أوضحت له أنني طبيب، وأنني مهتم بالطيور وأنني جئت إلى سايديفاري لكي أدرس الطيور... إلخ، وكنت أتكلم في بطء شديد واضعاً في الاعتبار أنه ربما لم يسمع لغة إنجليزية على مدى ١٥ عاماً وراح يصغي إليَّ بدون أن تظهر عليه أية تعبيرات فبدأت أتحدث معه عن وسائل الطب الحديث في علاج مياه العيون، كنت متأكدا أنه إذا ذهب إلى أي مستشفى فإنه يمكن أن يتم عمل أي علاج له، وطوال فترة كلامي معه لم ينطق بكلمة واحدة، ثم التزمت أنا الآخر الصمت.

استدار عائداً إلى داخل كوخه، وترك الباب مفتوحاً، لذلك ظللت منتظراً، وفجأة ظهر مرة أخرى، كان ممسكاً ببلطة طويلة، أدركت على الفور أنه لا يفكر في قطع أخشاب وإنما يفكر في الدخول في معركة معي، وتردد للحظات ثم اندفع نحوي ملوحاً بالبلطة، ولو لم يكن هو قريباً من العمى لكان قد تمكن من قتلي، انغرست رأس البلطة في عمق

في الترمبة، وأمضى لحظات قليلة في انتزاعها مما أعطاني الحرية في الهرب.

وانطلق متعثراً ورائي عبر المساحة التي أمام الكوخ، وجريت لمسافة ثلاثين ياردة تقريباً داخل الأشجار ولكنه توقف عند أول شجرة صادفته، ربما لم يكن بمقدوره أن يفرق بيني وبين جذع شجرة، وقف رافعاً البلطة في يديه وراح يدقق النظر، من المؤكد أنه كان يدرك أنني أرقبه من على مسافة ما، لأنه قد استدار فجأة وهبط بالبلطة بكل قوته على شجرة فضية اللون تقع أمامه مباشرة، اهتزت من قمتها إلى أسفلها مع قوة الضربة، وتلك كانت هي إجابته، كنت خائفاً للغاية بسبب عنف هذا الرجل حتى إنني لم أستطع أن أتحرك من مكاني، حملق للحظات بين الأشجار نحو المكان الذي أقف فيه ثم استدار بعدئذ وسار إلى كوخه تاركاً البلطة في المكان الذي انغرست فيه.

عدت إلى المزرعة، بدا لي أنه من غير المعقول للغاية أن يرفض رجل الطب والعلاج والعقل والحكمة والعلم في مثل هذا العنف الشديد، ولكنني شعرت أن هذا الرجل كان على استعداد لأن يرفض أي شيء آخر أيضاً مقدم من جهتي حتى ولو كان ذلك الشيء له طابع المتعة أو الموسيقى أو الحكمة أو العلاج، كان على استعداد لأن يشق ببلطته جمجمة حضارتنا التي تنزع إلى المتعة وإلى العلم وإلى التحليل النفساني، فكل هذا بالنسبة له لم يكن هو اللقاء العظيم، وإنما هو ذلك الشيء الذي يطلق عليه البوذيون اسم «السير العقيم وراء توافه الأمور»، وبالطبع كان الاهتمام بالعمى الذي يزحف على عينيه من الأمور العقيمة البالغة التفاهة بالنسبة لرأيه، كان يريد أن يكون ضريراً، على أساس أن هذا يتيح له احتمالات أكثر بأن يبصر ذات يوم.

وكان من المقرر أن أغادر المزرعة بعد ذلك بأيام قليلة، وفي آخر ليلة لي بالمزرعة ظل جوستاف يتحدث معي لفترة متأخرة من الليل، لم

أكن قد قصصت له عن زيارتي تلك التي قمت بها بمفردي لأخيه، وكانت تلك الليلة الأخيرة لي بالمزرعة، بدأ الجو يميل إلى البرودة الشديدة، ذهبت إلى خارج الحظيرة لكي أتبول بعد أن انصرف جوستاف، كان القمر ساطعاً، ولكن في واحدة في تلك السماوات الصيفية المتأخرة لأقصى الشمال عندما يتسكع النهار ويمتد متوغلاً حتى تحت جنح الظلام فتصبح للسماء أعمق غريبة، سمعت صيحة مترامية عبر الماء آتية من لسان الأرض الناتئ في الماء، اعتقدت للوهلة الأولى أنها ربما تكون صيحة طائر ولكنني أدركت بعد ذلك أنها صيحة هنريك بكل تأكيد، نظرت في اتجاه المزرعة وشاهدت جوستاف يتوقف عن المشي، وترامت صرخة أخرى، صرخة شخص ما ينادي على شيء ما يقع على مسافة بعيدة، سرت عبر الأعشاب إلى جوستاف وتساءلت: «هل هو واقع في متاعب»؟ فهز رأسه وطل محملقا للخارج في الظلام عبر المياه الرمادية، تساءلت مرة أخرى.. «ما معنى الكلام الذي ينادى به»؟ فقال جوستاف: المعنى هو، هل تسمعني؟ إنني موجود هنا، ثم ترامت الصحيتان مرة أخرى مع وجود فترة زمنية قصيرة بينهما واستطعت أن أتبين الكلمات النرويجية، لقد كان هنريك ينادي على الله.

أخبرتكما أن الأصوات تترامى إلى مسافة بعيدة في منطقة سايديفاري، ففي كل مرة كان ينادي فيها كانت الصيحة تبدو كأنها تمتد لمسافات لا نهائية عبر الغابات وفوق سطح المياه ومتجهة إلى النجوم، وبعدئذ يعقبها أصداء الصوت، وترامت ضوضاء من جهة المزرعة الموجود خلفنا، فنظرت لأعلى فشادت هيكلاً أبيض اللون عند إحدى النوافذ العلوية، ولم أستطع أن أتبين ما إذا كان ذلك الهيكل هو راجنا أو ابنتها، وبدا الأمر كأننا جميعاً قد أصابنا مس من السحر والشعوذة والافتتان حيث كنا مشدوهين في صمت.

ولكي أكسر حدة الصمت رحت أوجه الأسئلة لجوستاف، هل هو كثيراً ما ينادي على هذا النحو؟ فأوضح لي أنه لا يكثر من هذه النداءات، فهو ينادي في حدود ثلاث أو أربع مرات سنوياً عندما لا تكون هناك رياح، فراح جوستاف يفكر في إمعان ثم قال: نعم، فقد قال ذات مرة عبارة: إنني في حالة انتظار وأيضاً عبارة: إنني متطهر، وكذلك عبارة: إنني على أهبة الاستعداد.

التفت إلى جوستاف وسألته عما إذا كان باستطاعتنا أن نذهب مجدداً إلى هنريك لنشاهد الأشياء التي يفعلها، فأومأ برأسه موافقاً ثم انطلقنا معاً، ووصلنا إلى قاعدة اللسان الممتدة في النهر، وكنا نسمع صيحاته ونداءاته من وقت لآخر، وشققنا طريقنا في اتجاه نهاية اللسان الممتد في الماء، وأخيراً دخلنا بين الأشجار، كان هنريك واقفا على نفس خط التقاء الأشجار بالماء وعلى مسافة قدم واحدة من الماء، كان ينظر نحو الاتجاه الشمالي الشرقي وهو الاتجاه الذي يتسع عنده النهر، وكان ضوء القمر يغطي ذلك الاتجاه في لمعان حريري رمادي، وهنالك في وسط مجرى النهر كانت هناك سلاسل من الضباب الطويل المنخفض، وبينما كنا نرقب نادى هنريك صارخاً مرة أخرى، فركزت نظارتي عليه، كان يقف منفرج الساقين وقد أمسك بعصاه في يده وعلى نحو إنجيلي مقدس، كان الصمت سائداً، ثم سمعنا هنريك يقول كلمة واحدة، بصوت هادئ نسبياً، وهي كلمة نرويجية تعني: شكراً.

ظللت أرقبه، رجع خطوة إلى الوراء بعيداً عن الماء، ثم ركع أرضاً، وسمعنا صوت الحجارة لدى تحركه فوقها، كان لا يزال متجهاً نحو نفس الاتجاه، لم يكن يصلي، وإنما كان في حالة تأمل، هناك شيء ما قريب منه يراه في وضوح، كنت على استعداد لأن أضحي بعشر سنوات من عمري في سبيل أن أتمكن من النظر إلى جهة الشمال من خلال ما يدور في داخل عقله، لم أكن أعرف الشيء الذي يشاهده ولكني كنت

أدرك أنه شيء له قوة وأسرار هائلة على نحو يقدم تفسيراً لكل الأمور، وبالطبع هبط على ذهني فجأة السر الخاص بهنريك على نحو يكاد يشبه انعكاسات التنوير التي سطعت عليه، إنه لم يكن منتظراً مقابلة الرب، بل كان مندمجاً فعلاً في لقاء خاص به.

وحتى هذه النقطة من حياتي ستدركان أن تناولي للموضوع بأكمله كان يتسم بالطابع العلمي والطبي، كنت أبحث في علاقة علم الطيور وأصواتها بالإنسان، وكنت أركز على دراسة العينات، وهنا لأول مرة في حياتي كنت غير واثق بالمعايير الخاصة بي وبمعتقداتي وبتحيزاتي، وأدركت أن ذلك الرجل الموجود عند حافة الماء كان يمر بتجربة تند عن مجال كل خبراتي في الحياة وكل ما أتمتع به من عقل وحكمة، وأدركت أن ما لدى من معرفة سيكون دائماً في حالة من الخلل والنقصان إلى أن أتمكن من فهم ما يدور في عقل هنريك على وجه الدقة، وكنت أدرك أن هنريك يشاهد عموداً من النيران فوق المياه وكنت أعرف أنه لا يوجد هناك عمود من النيران فوق المياه وأن ذلك معناه أن عمود النيران كان موجوداً في داخل ذهن هنريك.

وفي ومضة خاطفة اتضح لي فجأة أن كل التفسيرات التي نقوم بها وكل الاشتقاقات التي نقوم بها وكل علوم أسباب الأمراض التي نتمسك بها بمثابة شبكة رفيعة، وخطر على ذهني أن ذلك الوحش السلبي الهائل لم يعد ميتاً، ومن السهل التعامل معه، إذ كان مليئاً بقوة غامضة وبأشكال جديدة وكانت الشبكة عديمة القيمة حيث كانت الحقيقة تحدث تفجيرات داخل الشبكة، وربما تناقل شيء ما تخاطري الطابع بيني وبين هنريك لست أدري على وجه الدقة.

تلك العبارة البسيطة كانت هي عمود نيراني، كشفت عن عالم يقع إلى ما وراء العالم الذي أعيش فيه، لقد خلقت تواضعاً جديداً مماثلاً للوحشية، وهي بالنسبة لي بمثابة سرّ عميق، إنها بالنسبة ليّ إحساس

بتفاهة أشياء كثيرة يعتبرها العصر الذي نعيش فيه من الأشياء المهمة، أنا لا أقول أنه ينبغي لي أن أصل إلى مثل هذا التبصّر ذات يوم، ولكنني في تلك الليلة اختصرت ١٢ عاماً.

وبعد فترة قصيرة شاهدنا هنريك يسير عائداً إلى داخل الأشجار، لم أتمكن من مشاهدة وجهه، لكنني أعتقد أن الوحشية التي ظهرت على وجهه في ضوء النهار نجمت عن اتصاله بعمود النيران، فالحياة هي رغبة لا نهائية في الحصول على المزيد، وهذا ينطبق على أكثر الناس تعلقاً بالمادية وينطبق على أكثر الصوفيين سُموًّا، أنا متأكد تماماً من شيء واحد، وهو إذا كان لا يزال يفتقر إلى الله فإنه قد وصل إلى الروح القُدُسْ.

وفي اليوم التالي غادرتُ المكان، وودعتُ راجنا، وأعتقد أنها قد اكتشفت سر زوجها وأدركت أن أية محاولة نحو العلاج ستؤدي إلى موته، اصطحبني جوستاف وابن أخيه في زورق، وراحا يجدفان إلى أن وصلنا إلى المزرعة التالية، وتواعدنا أن نتراسل بالخطابات.

(٤٣)

رمقتني جولي بنظرة كما لو كانت تتساءل في صمت عما إذا كان هذا لا يبرهن أننا في أيد أمينة، توقعت أن أشاهد عموداً من النيران يتصاعد بين الأشجار، سألت: ألم ترجع إلى هناك أبداً؟

ـ أحيانا يكون الرجوع نوعاً، من السوقية.

ـ من المؤكد أنك كنت مشتاقاً لأن تعرف كيف انتهت الأمور؟

ـ لا على الإطلاق، ربما ستشهد يا نيقولاس ذات يوم تجربة تعني الكثير بالنسبة لك، عندئذ ستدرك ما أعنيه من أن بعض التجارب سوف تسيطر على وجدانك حتى إن الشيء الوحيد الذي لن تغفره هو عدم

استمرار تلك التجارب على نحو ما للأبد، إن سايديفاري مكان لا أرغب في أن يلمسه الزمن لستُ مهتماً بما عليها الآن، إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة.

وتكلمتْ جولي: لكنك قلت إنك ستتراسل مع جوستاف؟

ـ وهذا هو ما فعلته فقد أرسل لي خطابات، كتب لي رسائل منتظمة على مدى عامين، لكنه لم يكن يشير أبداً إلى الأمور التي تثير شغفك ـ فيما عدا أن يذكر أن الموقف ظل كما هو، دون أيّ تغيير، كانت خطاباته مليئة بالملاحظات التي تتعلق بعلم الطيور وأصواتها، ثم قلت، وأصبحت الخطابات قليلة للغاية وبعد ذلك، لم تصلني منه أية رسائل على الإطلاق، لقد مات كما مات هنريك راجنا.

التفت في روح أبوية إلى جولي، وقال: يا عزيزتي لقد حان الوقت لكي تذهبي للنوم.

كانت الساعة قد تخطت الحادية عشرة مساء، بقليل فهزت جولي كتفها كما لو كانت مسألة الذهاب للنوم في السرير لا أهمية لها.

وقالت: لماذا قلت لنا هذا الكلام يا موريس؟

ـ كل ما هو ماض يتملك حاضرنا، فسايديفاري تتملك بوراني، وأيّ شيء يحدث هنا حدث أساساً منذ ثلاثين عاماً في تلك الغابة النرويجية.

كان يتكلم معها على النحو الذي يتكلم به معي في معظم الأحيان، أدركت أنه يشرع في خلق نقلة أخرى في علاقاتنا أو في الأعراف والتقاليد التي تتحكم في هذه العلاقات، أصبحنا نقوم بدور اثنين من حوارييه، تذكرت الصورة الزيتية المفضلة لديه والتي تعبرّ عن بحار ذي لحية طويلة يشير إلى البحر ويروي قصة لولدين صغيرين تبادلت نظرة مختلسة سرية مع جولي، كان من الواضح أننا نتحرك في أراض جديدة

شعرتُ بقدمها بلمسة خفيفة كأنها قبلة خاطفة. قالت: حسناً، أعتقد أنه ينبغي أن أذهب يا موريس، كان ذلك أمراً مسلياً.

وقبَلته قبلة سريعة على خده، ثم مدت يدها لمصافحتي، كان هناك ظل من التآمر في عينيها بالإضافة إلى لمسة ضاغطة من أصابعهما، واستدارتْ لتنصرف.

جلست أنا وكونشيس في صمت، ثم سمعت وقع أقدام خفيفة تسير في اتجاه البحر، ابتسمتُ في وجهه الجامد الذي لا يفصح عما في داخله من مشاعر، بدا إنساناً عينيه بمثابة قناع يرقبني ويرقبني، كنتُ سأتجادل معه في أي موضوع فضيعته تضم غموضاً محيرّا أكثر مما تضم صوفية، لعله يملك جانباً قوياً في شخصيته ولكن هناك جانباً لديه يشبه ذلك الموجود لدى عجوز نصاب مخادع، قلت في هدوء:

ـ يبدو على مريضتك هذا المساء أنها طبيعية إلى حدّ كبير.

ـ ولعلها تبدو أكثر طبيعية غداً، عليك ألا تنخدع، أخبرتك أنني سوف أخفي نفسي عن الأنظار غداً، فهل يمكن أن أشاهدك في عطلة نهاية الأسبوع القادمة؟

لسوف أجيء إلى هنا، نهض واقفاً كما لو كان قد أراد أن يعطي وقتاً كافيا لجولي لكي «تختفي»، فنهضتُ أنا الآخر وقلتُ: شكراً جزيلاً على استحواذك لمشاعري.

أمال رأسه، ثم سرنا إلى داخل المنزل توقفت وقلت له: أعتقد أنني سأذهب للنزهة لبعض الوقت يا سيد كونشيس، فأنا لا أشعر بالرغبة في النوم، وكنت أدرك أنه ربما يقول إنه يريد المجيء معي للنزهة مما يؤدي إلى تعذّر ذهابي إلى مكان التمثال عند منتصف الليل، كان بمثابة مصيدة مضادة بالنسبة له وبمثابة تأمين بالنسبة ليّ، فإذا ما تم ضبطي مع الفتاة فيمكن أن أدعي أن ذلك اللقاء تم بطريق المصادفة، مدً يده

مصافحاً، وراح يرقبني للحظات، لكن قبل أن أصل إلى نهاية السلالم سمعت صوت انغلاق باب حجرته، لعله يكون قد ذهب إلى الفراندة لكي يتصنت، رحت أسير نحو المدق خارجاً من بوراني، بعد أن وصلتُ إلى البوابة صعدت على التل وجلست مستنداً على جذع شجرة يمكنني من عندها أن أرقب المدخل والمدقّ، كانت ليلة حالكة السواد ولكن النجوم كانت تنفث ضوءاً ضعيفاً للغاية فوق كل الأشياء، ضوءاً يشبه أكثر الأصوات خفوتاً، كان قلبي يدق بنبضات أسرع مما ينبغي لأنني سأتقابل مع جولي ولأنني غارق في أعماق أغرب متاهة في أوروبا، جلست هنالك، وكانت عيناي وأذناي في حالة تيقظ شديدة.

في تمام الساعة الثانية عشرة انزلقتُ من خلال البوابة وشققتُ طريقي شرقاً إلى الأخدود، كنت أتحرك في بطء مع التوقف عن المشي من وقت لآخر، وصلتُ إلى الأخدود وانتظرت قليلاً ثم سرت على المدق نحو المساحة الخالية من الأشجار والتي بها التمثال، كان المقعد الموجود تحت شجرة اللوز شاغراً، وقفتُ تحت ضوء النجوم عند حافة المساحة الخالية من الأشجار متوتراً للغاية، كنت واثقاً أن شيئاً على وشك الحدوث، رحت أدقق النظر لكي أرى ما إذا كان هناك أيّ شخص في خلفية المكان الشديدة العتمة، خطر ببالي أن هناك رجلاً ممسكاً ببلطة في يديه، وترامى صوت مرتفع، لقد ألقى شخص ما حجرا فارتطم بالتمثال، ثم تدحرج حجر آخر على الأرض أمامي مباشرة.

وأظهرت تلك الحركة لمعاناً جاء من خلف شجرة فأدركت أنها جولي، جريت صاعداً الحافة المنحدرة وتعثرت ثم وقفت، كانت واقفة بجوار الشجرة، تمكنت من رؤية قميصها، تقدمت للأمام فخطوت نحوها ورحنا نتعانق في قبلة طويلة ممتدة، وفي خلال تلك الفترة اعتقدت أنني تعرفت على جوانب شخصيتها، كانت قد تخلت عن كل

مظاهر الادعاء وأصبحت عاطفية بل كادت تكون مليئة بالنهّم الشديد، وسمحت لي بأن أسحق جسدها، رحت أتمتم بكلمات الملاطفة بصوت منخفض أمسكت بيدها ومررت بشفتي على جانب يدها.

اضطررت لأن أبعدها عن جسدي، ورحت أبحث في جيبي عن علبة الكبريت، ثم أشعلت عوداً ورفعت يدها اليسرى لأعلى، كانت يدها خالية من الندبة الغائرة، رفعت عود الكبريت لأعلى، كانت عيناها وفمها وشكل ذقنها وكل شيء فيها شبيها بجولي، ولكنها لم تكن جولي، كانت هناك تجاعيد خفيفة عند زاوية فمها مع تغير بسيط في شكلها، فضلاً عن الوقاحة وقلة الحياء المحسوبة، كانت هناك سمرة عميقة في بشرتها، نظرت لأسفل ثم رفعت بصرها لأعلى مرة أخرى تحت رموش عينيها، طرقت بإصبعي وأشعلت عوداً آخر وقلت: «يا للعنة!»

فقامت بإطفاء عود الكبريت على الفور ونطقت باسمي، وكان صوتها مليئاً باللوم والعتاب.

قلت: من المؤكد أن هناك خطأ ما، فنيقولاس هو أخي التوأم.

ـ لقد ظننت أن منتصف الليل لن يجيء أبداً.

ـ أين هي؟

كنت أتكلم في غضب، ردت: هي؟!.. أنت إنسان ذكي لأنك أدركت أن الندبة كانت مجرد ماكياج.

ـ وماذا عن صوتك؟

ـ هذا التغير في صوتي ناجم عن تأثير هواء الليل.

أمسكتُ بيدها وسرتُ بها إلى المقعد الموجود تحت شجرة اللوز: أين هي؟

ـ لم تستطع المجيء، ولا تكن فظا.

لم أهتم باستكمال الجملة، سألتها: هل أنت جين؟

ـ نعم.. إذا كنت أنت «نيقولاس».

راحت تتفحصني بعينين أقل رعونة من التي بدت في صوتها، شعرتُ بالانزعاج بسبب التشابه المذهل في الوجه مع أختها، كان الفارق بينهما في أن جين ذات بشرة أكثر سمرة بسبب التعرض كثيراً لأشعة الشمس مما يدل على أنها كثيرة الخروج من المنزل ومن ثم فهي تتمتع بالمزيد من الصحة ومن استدارة الوجنتين، وهو نفس الشكل الذي كانت ستبدو عليه جولي بالتأكيد في الظروف الطبيعية، انحنيت للأمام وقد وضعتُ مرفقيَّ على ركبتيّ، سألت: لماذا لم تحضر هي بنفسها؟

ـ أظن أن موريس ذكر لك سبب ذلك.

شعرت أنني مثل لاعب الشطرنج الواثق من نفسه أكثر من اللازم، يدرك فجأة أن ملكه المنيع أصبح على وشك السقوط عقب القيام بتحريك قطعة واحدة أخرى من قطع الشطرنج، رجعت بتفكيري للوراء، فقد ذكر العجوز عندما قال إن بعض الناس المصابين بالفصام يتمتعون بقدر عال من الذكاء، فلقد بدا مشهد إلقاء الشاي غير ملائم للغاية باعتبارها مجنونة، فلا شك أنها أكثر جنوناً إن القت بالشاي لمجرد أن تغمز لي بعينها في نهاية الأمر، ثم تلك الأقدام العارية المتآمرة تحت المنضدة، وكذلك الرسالة التي بعثت بها بواسطة أعواد الكبريت ربما هو لم يكن غافلاً عن كل ذلك على النحو الذي بدا عليه.

ـ نحن لا نلقي باللوم عليك، فقد سبق لجولي أن ضللت خبراء أعظم منك بكثير.

ـ وما الذي يجعلك متأكدة من أنني ضللت؟

ـ لأنك ما كنت ستقدم على تقبيل فتاة على ذلك النحو إذا كنت تعتقد بالفعل أنها مختلة عقلياً، أنا أدرك كم هي ماهرة في الإيحاء بأن

الجنون موجود في كل شخص من الأشخاص الموجودين حولها، إنها تتخذ أسلوب الفتاة الغارقة في الهمّ والقلق.

ظلت ملتزمة الصمت ثم تساءلت: ألا تصدقني؟

ـ أنت تدركين أنني لا أصدقك، وأعتقد أن أختك مازالت تنظر إليّ بعين الشك. سألتني، وقد بدا أنها تغير الحديث: ألم تتقابل من قبل مع موريس قبل أن تجيء إلى هذا المكان؟

ـ مطلقاً.

ـ أو توقع على أيّ تعاقد من أيّ نوع معه؟

نظرت إليها وقلت: أتقصدين أنكما قد تعاقدتما معه؟

ـ نعم، ولكن التعاقد لا يتعلق بما يدور الآن من أحداث.

ثم ترددت وقالت: لسوف تحكي لك جولي غداً.

ألقت بسيجارتها وأطفأتها، ثم ألقت بسؤالها التالي: هل هناك أفراد من الشرطة بالجزيرة؟

ـ يوجد شاويش واثنان من العساكر، لماذا تسألين هذا السؤال؟

ـ أردت فقط أن أعرف ذلك.

فأخذت نفساً عميقاً وقلت: دعينا نبصر الأمر على حقيقته، فأنتما في بادئ الأمر كنتما شبحين، ثم أصبحتما مصابتين بالفصام، والآن فأنتما بمثابة الشحنة المرسلة في الأسبوع التالي إلى قسم الحريم في سراي سلطان.

فقالت بسرعة: أحياناً أتمنى لو تم ذلك، فذلك سيكون أسهل علينا يا نيقولاس، حذار، فأنا لم آخذ أي شيء مأخذ الجد على الإطلاق، وهذا من ضمن الأسباب التي أدت إلى وجودنا هنا، إنه أمر يدعو للسخرية، نحن في الحقيقة فتاتان إنجليزيتان أوقعنا نفسينا في مياه عميقة

للغاية في هذين الشهرين الأخيرين حتى إننا مثل سجينتين هنا، إنه سجن مخفف للغاية، فلا توجد حواجز أو قضبان ـ وأظنها أخبرتك أنه يؤكد لنا باستمرار أن في إمكاننا أن نعود إلى وطننا في أي وقت، ولكننا نتعرض على نحو ما للمراقبة المستمرة.

ـ باستطاعتي إحضار الشرطة بكل سهولة، إذا كنت ترغبين في ذلك.

ـ هذا أمر يدعو للشعور بالارتياح ويزيل القلق والتوتر.

ـ وما هو رأيك فيما يدور الآن من أحداث؟

فابتسمت ابتسامة صفراء وقالت: لقد كنت على وشك أن أوجه لك نفس هذا السؤال.

ـ إنني مقتنع أنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطب النفسي.

ـ لقد قام باستجواب جولي على مدى ساعات عقب انصرافك من هنا، عن الكلام الذي قلته والطريقة التي كنت تتصرف بها والأكاذيب التي قالتها لك.. يبدو أنه يحصل على نوع من الإثارة والنشوة من وراء معرفة كافة التفاصيل.

ـ وهل يقوم بتنويمها تنويماً مغناطيسياً؟

ـ لقد قام بتنويمها مغناطيسياً وتنويمي أنا أيضاً، ذلك التنويم الغريب مثلما تعرضت أنت لتجربة التنويم.

ـ هل يقوم باستجوابها في أثناء تنويمها؟

ـ لا... فهو يحرص دائماً على وجود واحدة منا في أثناء قيامه بتنويم الأخرى، ولقد كنت دائماً موجودة هنالك لكي أصغى في أثناء تنويمه لها.

ـ ألا توجد لديك أية شكوك في هذا الشأن؟

فأصابها التردد مرة أخرى، ثم قالت: هناك شيء ما يقلقني، نوع من

اختلاس النظر من خلال ثقب مثل من يشبع رغبته الجنسية عن طريق النظر إلى الأعضاء الجنسية أو إلى العمل الجنسي، فنحن لدينا الإحساس بأنه يقوم بمراقبتك أنت وجولي وأنتما تقعان في الحب والغرام معاً، هل حدثتك جولي عن قلوب ثلاثة؟ أفضل أن تحدثك هي في هذا الشأن غداً.

ـ ما هي هذه القلوب الثلاثة؟

ـ الفكرة الرئيسية لم تنصّ على أنه ينبغي لي أن أبقى في الخلفية دائماً، أحاول أن أقول إنني لا أرغب لها في أن تعاني الآلام مرة أخرى.

ـ لن تتعرض للأذى والآلام بسببي.

انحنت للأمام وقالت: إن لديها نوعاً من العبقرية من حيث اختيارها الرجال غير الملائمين لها، وأنا لا أعرفك تمام المعرفة، ولذلك فإن كلامي هذا لا يتخذ الطابع الشخصي بالنسبة لك، كل ما هنالك أن سجلها الماضي لا يعطيني قدراً كبيراً من الثقة، أنا مهتمة بتقديم الحماية الكافية لها.

إنها ليست بحاجة لحمايتها مني.

ـ أعني أنها تبحث عن الشعر والعاطفة والحساسية وكل المطبخ الرومانسي وأنا أعيش على ريجيم غذائي أكثر بساطة.

قالت تلك العبارة في جفاف تشوبه مسحة من الحزن والكآبة التي أحبها، نظرتُ خلسة إلى وجهها، فشاهدت لمحة خاطفة لعالم يلعبان فيه الدور نفسه، قفزت إلى ذهني تلك القصص الداعرة التي سادت في عصر النهضة التي تدور عن فتيات يقمن بتبادل الأماكن في الليل، شاهدت نفسي وقد تزوجت جولي ولكن أختها التي تماثلها في الجاذبية والمختلفة عنها بعض الشيء وإن كان ذلك من الناحية الجمالية فقط، ومع وجود فتاتين توأم يتحتم دائماً وجود فوارق دقيقة لا يكاد يدركها

المرء علاوة على وجود خلط في الشخصيتين بحيث يصبح من الصعب التفرقة بين الجسدين والروحين، هل أقنعتك؟

سألتها: هل يمكنني أن أرافقك في أثناء عودتك إلى المكان الذي تختبئين فيه؟

ـ لا يمكنك الدخول في نفس المكان الذي أختبئ فيه.

ـ لكنني بحاجة إلى تبديد شكوكي وقلقي.

قالت في تردد: إذا وعدتني أن ترجع عندما أطلب منك ذلك.

ـ اتفقنا.

هبطنا في اتجاه تمثال بوسايدون تحت ضوء النجوم، ولم نكد نصل إليه حتى أدركنا أننا لم نكن بمفردنا فتجمد كل منا من هول المفاجأة، كان هيكل أبيض قد برز خارجاً من بين الشجيرات من ناحية الجانب المواجه للبحر من الأرض المكشوفة المحيطة بالتمثال، كنا قد تكلمنا بأصوات منخفضة للغاية بحيث يتعذر على أيّ شخص آخر أن يسمعنا ولكننا أصبنا بالصدمة لدى مشاهدة ذلك الهيكل، وهمستْ جين:

ـ يا إلهي! اللعنة.

ـ مَنْ يكون هذا الهيكل؟

أمسكت بيدي ودفعتني لكي أستدير بعيداً وقالت: إنه كلب حراستنا سأتركك هنا.

نظرتُ عبرْ كتفي وتبينتُ شكله على نحو أفضل، إنه رجل يرتدي معطفاً أبيض اللون، إنه ممرض يضع نوعاً ما من القناع الداكن على وجهه مما يتعذر معه معرفة ملامح وجهه، ضغطت جين على يدي ونظرت في عيني نظرة مباشرة مثل نظرات أختها وقالت: إنني أثق بك بالفعل، ونرجوك أن تثق بنا.

ـ ماذا سيحدث الآن؟

ـ لستُ أدري، ولكن لا تجادل، عليك فقط بالعودة إلى المنزل، وانحنت للأمام وجذبتني نحوها وقبلتني على خديّ، ثم شرعتْ في السير في اتجاه المعطف الأبيض، وعندما أصبحتْ قريبة من الرجل بدأت في السير وراءها، فوقف الرجل على جانب في صمت لكي يدعها تمر بين الأشجار، أدركتُ لدى اقترابي منه أنه لم يكن يضع قناعاً على وجهه مما أصابني بصدمة، كان زنجياً، كان يحملق فيَّ دون أن تظهر أية تعبيرات على وجهه، اقتربتُ منه فمدّ ذراعيه مغلقاً الطريق أمامي، توقفتُ عن المشي وقلت: أنت تبدو أكثر جمالاً عندما تضع قناع ابن آوى على وجهك، فلم يتزحزح من مكانه، ولكن وجه جين ظهر خلفه، مليئاً بالقلق والتضرّع: يا نيقولاس، ارجع إلى المنزل، لو سمحت، إنه لا يستطيع أن يتكلم، إنه أبكم.

ـ لقد اعتقدتُ أن الخصّي والطواشي السود انتهى أمرهم مع نهاية الامبراطورية العثمانية.

أحسستُ أنه لم يفهم كلامي، ولكنه طوى ذراعيه وباعد ما بين ساقيه، أدركت أنه يريدني أن أهجم عليه فشعرتُ بالرغبة في قبول تحديه، تركتُ الفرصة لجين لكي تقرّر ذلك، نظرتُ إليها من خلفه وسألتها: هل ستكونين على ما يرام؟

ـ نعم، إذهْب لو سمحتْ.

واستدارتْ مبتعدة، ورجعتُ أنا إلى البحر وجلستُ على الصخرة التي يقف عليها التمثال، ثم مددت إحدى يديّ وأمسكت بقدم التمثال البرونزي كان الرجل الزنجي يقف وقد طوى يديه مثل خادم يقف في متحف وقد أعياه الملل، رفعت يدي عن قدم التمثال وأشعلت سيجارة ورحت أتقصى بأذني عن وجود مخبأ متوقعاً سماع هدير زورق بخاري،

ولم يكن هناك سوى الصمت المطبق، شعرت أن رجولتي أهينت أمام فتاة جميلة كما شعرت بالقلق، بل اجتحاني الشعور بالذنب، فسرعان ما ستنتقل أخبار هذا الاجتماع السري إلىِ كونشيس، وربما سيبادر إلى الظهور في الأفق، لم أخش قيامه بتصفية الحساب معي بشأن هراء الفصام ولكن الذي يقلقني أنني قمت بخرق قوانينه مما قد يؤدي إلى الإطاحة بي من هذا المكان فكرت في استمالة الزنجي لصالحي بأن أجادله، ولكنه ظل منتظراً بين طيات الظلال ومن المنطقة السفلية بجوار البحر ترامى صوت صفارة، وتلاحقت الأحداث بسرعة كبيرة.

سار الهيكل الأبيض بسرعة نحوي، فنهضت واقفاً وقلت له: «انتظر قليلاً».

لكنه كان قوياً كالنمر، كان وجهه خالياً من المزاح، والغضب يتفجر من وجهه، شعرت بالخوف، خطر على ذهني أنه نسخة سوداء من هنريك نيجارد.. وعلى نحو فجائي بصق على وجهي ثم دفعني براحة يده إلى الوراء على قاعدة التمثال الصخرية، فارتطمت حافة القاعدة بالجزء الخلفي من ركبتي مما جعلني أجلس على الرغم منيّ، وبينما كنت أمسح البصاق عن أنفي وخدي شاهدته يسير هابطاً على المنحدر، فتحتُ فمي لكي أسبه ولكنني ابتلعتِ كلامي، ثم استخرجت منديلاً وعكفت على مسح وجهي، وأحسست أنني على استعداد لأن أقتل كونشيس لو كان أمامي في تلك اللحظات.

عدت إلى البوابة ومنها هبطت على المدق وألقيت بنفسي في مياه البحر ورحت أحك وجهي بالماء المالح ثم سبحت بعيداً عن الشاطئ، غطست في الماء ثم انقلبت على ظهري ونظرت لأعلى نحو النجوم، شعرت بالأمان وأنا بعيد عن قبضة أيديهم، بل شعرت أنني أتمتع بسلامة العقل، وأنا بعيد عنهم.

ساورتني شكوك كثيرة في أنه توجد دلالات خفية وراء قصة دوكانز

وصالة عرضه التي تضم الأشخاص الآليين، إن ما أقدم عليه كونشيس وهو أن يُحوِّل بوراني إلى صالة عرض كهذه ويحول الآدميين الحقيقيين إلى دميات.. ولم أكن على استعداد لأن أتحمل المزيد من الأوضاع الخاطئة، كان من الواضح أنين الرجل الوحيد الذي يمكن للشقيقتين أن تضعا ثقتهما به، وبغض النظر عن أي شيء آخر فإنهما كانتا بحاجة إلى مساعدتي لهما، أدركت أنه ليس من الحكمة أن أثير زوبعة وهجوماً داخل المنزل وأصفي حسابي مع العجوز، لأنه سيقوم بتزويدي بالمزيد من الأكاذيب، كان شبيهاً بحيوان قابع في عرين ولذلك كان الأمر يستلزم إغراءه أولاً للخروج من العرين، وذلك حتى يمكن تدميره.

سبحت في البحر مع المنحدر وهدأت نفسي تدريجياً، إذ كان من المحتمل أن تكون الأمور أسوأ بكثير من مجرد البصق في وجهي هذا بالإضافة إلى أنني أهنته، فأنا أمتلك مجموعة من العيوب لكن التفرقة العنصرية ليست من بينها، لقد جاء الدور على العجوز، فمهما كانت ردود فعله فإنني سأكتشف شيئاً ما عنه، وصلت إلى الشاطئ وجففت جسدي مستخدماً قميصي، ثم ارتديت باقي ثيابي ومشيت عائداً إلى المنزل، كان الصمت مخيماً على المنزل، رحت أصغي في انتباه دون أن أهتم بإخفاء ذلك عن أيّ شخص قد يكون هو الآخر في حالة من الإصغاء عند باب غرفة النوم الخاصة بكونشيس، ولم يكن هناك أيّ صوت.

(٤٤)

عندما استيقظت من النوم، شعرت أنني أكثر خمولاً مما اعتدت عليه، كان الوقت يقترب من العاشرة صباحاً، بلَّلت رأسي بالماء البارد ثم ارتديت ملابسي، ونزلت السلم إلى صف الأعمدة، نظرت تحت قماش الموسلين الذي يغطي المنضدة فوجدت فطوري، لم يظهر أحد

في الأفق وكان صمت رهيب في جميع أرجاء المنزل مما أثار دهشتي، توقعت ظهور كونشيس والمزيد من الكوميديا على المسرح، لم أتوقع أن يكون المسرح شاغراً.

حملت أطباق الإفطار الشاغرة وذهبت إلى كوخ ماريا، لكنني وجدت الباب مغلقاً، صعدت إلى الدور العلوي ورحت أطرق باب غرفة كونشيس وجربت مقبض الباب بلا فائدة، طفت حول جميع الغرف بالدور الأول ثم رحت أبحث عن أوراقه المتعلقة بالطب النفسي والموجودة في مكتبته، لكن دون جدوى، فهبط عليَّ خوف مفاجئ: لقد انتهى كل شيء بسبب أحداث الليلة الماضية، لقد اختفوا جميعاً إلى الأبد.

مشيت إلى التمثال وفي جميع أرجاء ذلك المكان مثل رجل يبحث عن مفتاح مفقود، ثم عدت إلى المنزل عقب مرور ساعة تقريباً، كان المنزل لا يزال مهجوراً، بدأت أشعر باليأس، ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ هل أذهب إلى القرية وأبلغ الشرطة؟ توجهت إلى الشاطئ الخصوصي، لم يكن الزورق موجوداً، سبحت في الماء إلى خارج الخليج الصغير وحول اللسان الأرضي الممتد في داخل البحر، رحت أتفحص المنحدرات الصخرية الشاهقة ولا يوجد مكان يمكن أن يرسو فيه أيّ قارب صغير، ومع ذلك فتلك هي المساحة أو المنطقة التي تتجه إليها الأختان عندما تذهبان إلى «منزلهما»، لم يكن هناك سوى شجيرات قصيرة عند قمم المنحدرات الصخرية بعد انتهاء المساحة المليئة بأشجار الصنوبر، كان من الواضح أنه من المتعذر الاختباء في تلك الأرض المليئة بالشجيرات القصيرة وطبقاً لهذا فلا يوجد سوى احتمال واحد وهو أنهما كانتا تشقان طريقهما على طول قمم المنحدرات الصخرية ثم تدوران إلى الأراضي الداخلية مرة أخرى ومنهما تهبطان إلى ما وراء الأكواخ.

سبحتُ لمسافة أبعد خارج البحر لكنني تعرضت لتيار من الماء شديد البرودة مما جعلني أدير ظهري، شاهدت فتاة ترتدي فستاناً صيفياً تقف على قمة الصخرة، إنها ملفتة للأنظار، لوحت بيدها فرددت عليها بتلويحة من يدي، ثم سارت تحت حائط الأشجار الخضراء، وبعدئذ شاهدت وميضاً آخر من اللون الوردي: إنها فتاة أخرى، كانتا تقفان وقد صارت كل منهما نسخة مطابقة للأخرى، ولوحت الفتاة القريبة نسبياً مني بيدها مرة أخرى لاستدعائي للمجيء إلى الشاطئ، ثم اختفيتا كما لو انطلقتا لتقابلاتي في منتصف المسافة.

وصلت إلى الطرف البعيد من الأخدود لاهث الأنفاس، وارتديت قميصاً فوق المايوه، لم تكونا بجوار التمثال، ومرت لحظات قليلة من الشكوك المليئة بالغضب، فقد ظهرتا لتختفيا مرة أخرى، واتجهت نحو المنحدرات الصخرية، وفجأة شاهدتهما جالستين على صخرة ظليلة في جهة الشرق، فسرت في اتجاههما بعد أن وثقت تماماً بأنهما هناك، بدت الأنوثة متفجرة منهما، وكانتا جميلتين.. فتاتين في عمر ١٩ عاماً ترتديان أجمل الملابس الصيفية، بدا أن هناك مغالاة في ملابسهما، والأغرب من ذلك أنه كانت توجد سلة مصنوعة من الحصير والنباتات المائية بجوار «جين» كأنهما مازالتا طالبتين في جامعة كمبردج.

نهضت جين واقفة لدى اقترابي وسارت لملاقاتي، كان شِعرها ممشطاً لأسفل مثل أختها.. وكانت بشرتها ذهبية بل وأكثر سمرة مما شاهدتها عليه في الليلة السابقة، كان هناك انفتاح أكبر، بل كانت توجد مسحة من التشبه بالصبيان من حيث الخشونة والصخب، أما جولي فأخذت ترقبنا ونحن نتلاقى، كان من الواضح أنها غير مبتسمة وغير راغبة في الاختلاط وابتسمت «جين» في وجهي وردت: لقد أخبرتها أنك لم تهتم بمعرفة ما إذا كنت قد تقابلت معي أو معها هذا الصباح.

ـ هذا أمر لطيف منك.

أمسكت بيدي وقادتني إلى أسفل الربوة: ها هو فارسك في عتاده الحربي اللامع.

نظرت جولي لأسفل في برود نحوي، وقالت: مرحباً.

قالت أختها: إنها تعرف كل شيء.

فانزلقت جولي ببصرها إلى أختها وقالت: وأنا أعرف أيضاً من الذي ارتكب هذه الغلطة.

كان التأنيب يطل من عينيها فأفضى هذا إلى الاهتمام: هل كنت على ما يرام في أثناء رجوعك؟

فأخبرتهما بكل ما حدث، بدأ القلق يطل من أعينهما، ثم تبادلنا النظرات كأن ذلك يؤكد شيئاً ما كانتا تتجادلان فيه، ثم تكلمت جولي أولاً: هل شاهدت موريس هذا الصباح؟

ـ المكان كله يبدو مهجوراً، ولقد ظللت أبحث عنكما في كل مكان.

ألقت جين نظرة إلى ما ورائي نحو الأشجار، ثم قالت: المكان يبدو مهجوراً، ولكنني أراهن أنه ليس مهجوراً.

من يكون ذلك الرجل الأسود اللعين؟

ـ يقول موريس إنه خادمه الخصوصي الذي يعتني بملابسه، كما يقوم بالخدمة أيضاً على المنضدة، ومن المفروض أن يقدم لنا الرعاية عندما نكون في مخبئنا الخاص، كم تقشعر أبداننا عند رؤيته.

ـ هل هو إنسان أبكم بالفعل؟

ـ نحن نشك في أنه غير أبكم، إنه يكتفي بالجلوس والحملقة كما لو كان بمقدوره أن يعبر عن رأيه.

من المؤكد أن الرجل العجوز يعرف ما حدث في الليلة الماضية.

ـ ذلك ما نحاول استنباطه.

نظرت إليها قائلاً: اعتقدت أننا لم يكن لنا أن نتقابل.

ـ كنا دائماً بصدد أن نتقابل ومن المفترض أن أؤيد قصة موريس.

وقالت جين: قررنا أن نكون على طبيعتنا، لنرى ما سيحدث.

ـ يجب عليكما أن تخبراني بكل ما تعرفانه الآن.

نظرت جولي إلى أختها نظرة جافة، وظهر على وجه جين دهشة مصطنعة قائلة: يمكنك أن تذهبي وتعالجي بشرتك المقرفة ولربما سنتغاضى عنك عند الغذاء.

وانحنت جين انحناءة خفيفة وقالت قبل أن تذهب: سأكون بحاجة لأن أعرف كل ما يتعلق بي، ابتسمت ثم أدركت أن جولي كانت تنظر إليّ نظرة باردة بعينين متسعتين، فقلت: كانت الدنيا حالكة الظلام، ونفس الملابس، ولذلك فأنا..

ـ أنا غاضبة منها، فالأمور بالغة التعقيد.

إنها مختلفة عنك تمام الاختلاف.

ـ لقد حرصنا على ذلك بعض الشيء في الحقيقة، فنحن قريبتان من بعضنا.

أمسكت بيدها لم تسمح لي أن أجذبها لكي تلتصق بي رغم أنها لم تسحب يدها، قلت:

ـ عثرت على مكان عند المنحدر الصخري، يمكننا أن نجلس فيه دون أن يرانا أحد.

وسرنا بين الأشجار، سألت: هل استمتعت وأنت تقبلها؟

ـ لسبب واحد وهو أنني كنت أعتقد أنها أنت.

ـ هل دامت القبلة لفترة طويلة؟

ـ استمرت ثواني قليلة.

فأهتزت على يدي، وقالت: كذاب.

نظرت فيما حولي ثم أخذتها، بين ذراعي، هذه المرة سمحت لي أن أقبلها قبلة سريعة، قائلة:

ـ كنت أرغب في المجيء في الليلة الماضية، اضطررت لأن أجعلها تقابلك، فهي تشكو من أنني أحصل على كل أنواع الإثارة، فقامت بتقبيل كتفي من خلال قميصي المبلل بالماء، وقالت: يجب أن نتكلم.

وخلعت حذاءها ذا الكعب المنخفض ثم جلست على السجادة وقد طوت ساقيها إلى جوارها، وكان جوربها النسائي ينتهي تحت ركبتيها العاريتين، وكانت فتحة الصدر هابطة لأسفل إلى حيث المفرق ما بين الثديين، أضفت عليها ملابسها طابع البراءة، راحت الرياح الشمسية تداعب نهايات شعرها على النحو الذي كانت عليه عندما كانت «ليلى» على البلاج ـ إلا أن ذلك الجانب تلاشى تدريجياً مثلما تتسرب المياه بين الحجارة.. جلست إلى جوارها، واستدارت هي ومدت يدها لكي تمسك بالسلة، فانضغط قماش ثوبها على ثدييها وعلى خصرها النحيل فنظرت بوجهها خلفها فتقابلت عيناها مع عيني، فأطالت النظر بعينيها الجميلتين في داخل عيني، سألتها: متى جئتما إلى هنا؟

ـ في السنة الماضية، قلت كل ما يمكنني قوله.. وإنني لخائفة للغاية لأنهم قد يشاهدون ما أفعله أنا الآن.

فنظرت حولي، ولكن الحائط الطبيعي كان يوفر لنا الحماية الكاملة، ولا يمكن لأي شخص أن يشاهدنا اللهم إلاّ إذا كان فوق أعلى الحائط.

سألتها: لماذا تودين البقاء في لندن؟

ـ لقد قمت أنا وجين بأداء الكثير من الأدوار التمثيلية في كمبردج.

وكان أمامنا مستقبل مرموق، ولكن.

ـ وما هو العمل الذي كانت جين تؤديه؟

ـ كانت تعمل في شئون الإعلان وتسجيل حق التأليف والطبع والنشر، وهو مجال لم أكن أحبه كثيراً، ولا أحب الرجال الذي يعملون فيه.

أعني أنني أنا وأختي لم نكن مغرمتين بالأعمال التي نؤديانها، لقد تورطنا مع شركة للهواء في لندن.

استندت إلى الوراء على أحد مرفقي، وجلست مستندة على أحد ذراعيها، وإلى ما وراءها كان البحر العميق يتلاقى مع السماء، وهبّ نسيم بين أغصان شجرة الصنوبر فوقنا، وداعب بشرتنا مثل تيار دافئ من الماء، عثرت على ذاتها الجديدة الحقيقية، كانت التعبيرات على وجهها تتسم بالبساطة، أدركت أن ذلك هو ما كان ينقصها: الإحساس بأنها إنسانة بسيطة وعادية وأنه يمكن الوصول إليها.

قلت: حدثيني عن السبب في عدم حبك للتدريس.

ـ هل أنت غير شغوف بالتدريس؟

ـ كنت غير شغوف بالتدريس إلى أن قابلتك.

ـ كنت أشعر أنني غير مغرمة بالتدريس، وهل ينبغي للمرأة أن تتظاهر دائماً بالتجهم والوقار الشديدين؟

بحثت في داخلها سلتها وعثرت على علبة سجائر، وقمت أنا بإشعال السيجارتين، واستطردت هي قائلة: ذات يوم قرب نهاية العرض المسرحي لمسرحية «ليسترا» جاء رجل إلى الكواليس وأخبرنا أن لديه شخصاً يريد أن يقابلنا، إنه منتج سينمائي.

ثم ابتسمت عندما شاهدت حاجبي عيني يرتفعان لأعلى، وأضافت: لم يفصح لنا عن شخصية ذلك المنتج السينمائي، ولكن بعد يومين وصلت إلى كل منا باقات من الورود رائعة علاوة على دعوة لتناول الغذاء في مطعم كلاريدج من شخص ما وقع باسمه على الدعوة.

وأحنت رأسها في سخرية لاذعة وأضافت: تناقشنا في هذا الموضوع وبعدئذ وافقنا عليه لمجرد التسلية والمزاح وأظن أنه قد بهرنا، وكنا على يقين من أن الفيلم سيتخذ طابع أفلام هوليوود الزائفة، كان صريحاً للغاية، ومن الواضح أنه بالغ الثراء، وأبلغنا أن لديه مصالح تجارية ومالية في جميع أنحاء أوربا، وأعطانا بطاقة بها عنوان في سويسرا وقال إنه يعيش أساساً بين فرنسا واليونان، ووصف لنا بوراني والجزيرة، وكل شيء هنا بالتفصيل، تماماً على النحو الذي هو عليه.. من حيث هو مكان.

ـ ألم يذكر شيئاً عن ماضيه؟

ـ سألناه عن لغته الإنجليزية: فقال لنا إنه عندما كان شاباً صغيراً كان يرغب في أن يصبح طبيباً ولذلك درس الطب في لندن، وهزت كتفيها وأضافت: أنا أعرف أن أشياء كثيرة للغاية مما قالها لنا آنئذ، كانت كلاماً مضللاً ولكننا إذا رتبنا كل هذا الكلام المتناثر الذي أدلى به لنا من ذلك الوقت ـ فإنني أعتقد أنه قضي بالتأكيد جانباً من حياته في إنجلترا عندما كان شابا، بل لعله التحق بمدرسة داخلية في وطنه ـ فقد انتقد بشدة أسلوب المدارس الإنجليزية منذ أيام قليلة، وكان انتقاده على ما يبدو نابعاً من أعماق قلبه، وإنني لواثقة بأنه ثار في إحدى مراحل حياته ضد النقود، وضد والده.

ـ ألم تكتشفي أيّ شيء..؟

ـ في نفس المرة الأولى، وأذكر على وجه الدقة أنه قال: كان والدي أغبى وأسخف المخلوقات البشرية، كان مليونيراً له عقلية صاحب المتجر وحقيقة الأمر أننا لم نعرف أية معلومات أخرى عنه بخلاف ذلك، باستثناء أنه قال ذات مرة إنه مولود في الإسكندرية ـ أي موريس نفسه، ففي الإسكندرية توجد جالية غنية من اليونانيين.

ـ إذن هناك شيء ما حقيقي على النقيض من قصة دوكانز؟

ـ أشك أن ذلك كان بمثابة إغراء تعرض له موريس في مرحلة ما.

كطريقة كان يمكن استخدامها للاستفادة من الثروة التي ورثها.

ـ وذلك هو نفس رأيي، لكنكم لم تنجزوا الموضوع في معظم كلاريدج، «كل هذا لم يساند الموقف، لقد كان حريصاً أنه يظهر نفسه كرجل ذي ثقافة متحررة من النزعات الإقليمية، وليس كرجل مليونير فقط، وسألنا عن الكتب التي درسناها في كمبردج ـ مما سمح له بأن يستعرض قراءاته المستفيضة، كان من الواضح أنه يعرف كل ما يتعلق بالمسرح المعاصر، وما يدور في أرجاء أوربا، قال إنه يساند مسرحاً تجريبياً صغيراً في باريس، على أية حال، فإن الأسس التي تقوم عليها النواحي الثقافية تعتبر راسخة للغاية، وبدأنا نفكر في الأسباب التي دعتنا للوجود.

لقد أراد لنا أن نقوم بدور البطولة في أحد الأفلام في هذا الصيف.

ـ ولكن من المؤكد أنكما..

ـ «كدنا ننخرط في ضحكات هستيرية بلهاء، وخُيل إلينا أنه يتحدث عن شيء، كنا نظن أنه يتحدث عنه في بادئ الأمر، لكنه تحدث بعدئذ عن الشروط، ألف جنيه لكل منا لدى التوقيع على العقد، وألف جنيه أخرى لكل منا لدى الانتهاء من العمل، هذا بالإضافة إلى مائة جنيه شهرياً من أجل مواجهة النفقات لكل منا، واتضح لنا أنه لا توجد نفقات حقيقية.

وراحت تلمَّس بيدها على الوبر الخاص بالسجادة، وأضافت: وهذه من الأسباب الرئيسية التي جعلتنا نلتصق بهذا المكان يا نيقولاس، إنه لأمر سخيف للغاية، ونحن لم نبذل أية جهود تستأهل الحصول على تلك النقود.

ما هو الموضوع الذي كان من المفروض أن يتناوله الفيلم؟

ـ كان من المقرر أن يتم تصويره في اليونان.. ولسوف أوضح لك ذلك بعد قليل يجب ألا تعتقد أننا كنا ساذجتين تماماً، فنحن لم نقل «نعم» على الفور، وإنما العكس، فقد لعب أوراقه في دهاء واستغل الظروف لتحقيق غرضه، وكاد أن يتسم بالطابع الأبوي، وكنا بحاجة لأن نستشير وكيلنا ـ وحتى لم يكن لدينا وكيل لنستشيره في هذا الموضوع.

استمري.

ـ وتم إرسالنا في سيارة إلى منزل لكي نفكر ونتخذ قراراً، أقلتنا سيارة رولزرايس مستأجرة، إلى شقتنا الصغيرة الموجودة فوق السطوح في بلسايز بارك، وكان هو ذكيا ولبقاً للغاية حيث لم يضع أية ضغوط مثيرة للشكوك أمامنا.. تقابلنا معه مرات بعد ذلك، واصطحبنا للخروج معه إلى المسرح والأوبرا.. أنت تعرف ما يكون عليه عندما يرغب في إبهار أيّ إنسان.

ـ ماذا كان رأي الآخرين؟ رأي أصدقائكم مثلاً.

ـ كانوا يعتقدون أن علينا أن نلتزم بالحذر الشديد، وعثرنا على وكيل لنا، لم يكن سمع موريس ولا عن شركة أفلامه في بيروت، لكنه ظل يبحث عن هذه الشركة إلى أن عثر عليها، إنها تصنع الصور واللوحات التي تعبر عن المناظر الصبيانية المليئة بمشاعر المراهقة من أجل توزيعها في الأسواق العربية: في العراق ومصر، ومثلما قال موريس لنا من قبل فإنه قد أوضح لنا أنهم يريدون التوغل في الأسواق الأوربية، وكان من المقرر أن يتم تمويل الفيلم الذي ستقوم ببطولته عن طريق الشركة اللبنانية لسبب ما يتعلق بالضرائب.

ـ ما اسم تلك الشركة؟

ـ أفلام بوليموس، لقد ورد اسمها في الدليل التجاري، وهي شركة محترمة على حد معلومات وكيلنا.

ـ أيمكن أن يكون هو الذي اختار لكما هذا الوكيل؟

أطلقت نفسا عمقياً، وقالت: لقد خطر ذلك على ذهننا، ولكنني لا أظن أنه اضطر لاختيار الوكيل لنا، أدركنا أنها نوع من المخاطرة، ربما لو كان الأمر يتعلق بواحدة منا فقط، ولكن كوننا اثنتين.....، هل أنت تصدق أي شيء من هذا؟

ـ ألا ينبغي أن أصدق؟

ـ أشعر أنني لا أوضح الأمر بطريقة جيدة.

ـ إنك توضحين بما فيه الكفاية، رمقتني وهي مازالت تشك في ردود أفعالي إزاء مثل هذا الانصياع، ثم قالت.. هناك آخر، اليونان، ودراستي للكلاسيكيات، كنت أتطلع دائماً للمجيء إلى اليونان، ظل موريس يعدني بأنه سيكون لدينا الوقت لأن نشاهد كل شيء، وهو أمر لم يتحقق، أقصد أنني شاهدت هذا المكان أما باقي الأوقات فكانت بمثابة إجازة طويلة وهو لديه يخت أسطوري، فنعيش مثل الأميرات في هذا اليخت.

ـ وماذا عن والدتك؟

ـ أوه.. لقد راعى موريس ذلك، وأصر على مقابلتها ذات يوم عندما تجيء لزيارتنا في لندن، وبهرها بلطفه وذوقه، وبهرها بأمواله أيضاً، قلنا لها إننا مازلنا نجري البروفات، فنحن لا نريدها أن تشعر بالقلق علينا إنها خبيرة في الهياج الشديد حول الأمور التافهة.

لقد عرض علينا ونحن في لندن نسخة من قصة وحوار الفيلم قال إنه يأمل في توزيع نسختين أحداهما باليونانية والأخرى بالإنجليزية مع عمل دبلجة للأصوات في كلا النسختين.

غاصت بيدها في الحقيبة ثم استدارت حتى أصبحنا جالسين وقد اتجه وجهانا إلى جهتين متقابلتين، ثم أخرجت من المحفظة قصاصتي ورق، في إحداهما تقف الأختان في أحد شوارع لندن مرتديتين معطفين ومنخرطتين في الضحك، كانت هذه القصاصة قد قصت من إحدى الصحف بتاريخ ٨ يناير ١٩٥٣، وكان التعليق تحت الصورة على النحو الآتي:

فتاتان توأم سعيدتا الحظ، جين هولمز وجولي هولمز (إلى اليمين) ستقومان ببطولة فيلم في هذا الصيف وسيتم تصويره في اليونان.. لقد تخرجتا من جامعة كمبردج وقامتا بالكثير من الأدوار التمثيلية في الجامعة وهما تتحدثان بمثاني لغات، ثم إعلان غير منصف للشباب الأعزب: ليست لديهما الرغبة في الزواج حالياً.

ـ نحن لم نكتب هذا التعليق على الصورة.

ـ وهذا هو ما استنتجته.

أصابها التردد بعض الشيء ثم أضافت: كان ذلك بمثابة عالم جديد بالنسبة لنا يا نيقولاس، لم نكن سوى فتاتين غرتين، لذلك كنا نشعر بالإثارة فقد قام بتعريفنا على رجلين: الممثل اليوناني الذي قال عنه إنه سيقوم بتمثيل دور الشاعر، ثم المخرج وهو يوناني أيضاً تناولنا جميعاً طعام العشاء، وحقيقة الأمر أننا شعرنا بالارتياح نحو هذين الرجلين، وتحدثنا كثيراً عن الفيلم.

ألم تقوما بمراقبتهما ووضعهما تحت الملاحظة.

ـ لم نمكث هناك سوى ليلتين فقط، ثم انطلقنا بعد ذلك في اليخت مع موريس.

كان من المقرر لهما أن يحضرا إلى هنا، لكننا لم نشاهدهما بعد ذلك، ثم التقطت خيطاً مفكوكاً من حاشية جونلتها، واستطردت:

وحقيقة الأمر أننا اعتقدنا أنه من الغريب حقاً ألا يكون هناك أية دعاية عن الفيلم ولكنهم كان لديهم الرد الملائم، إذ اتضح أنك إذا قلت إنك بصدد عمل فيلم فإنك تجد المئات من الأشخاص الذين يحضرون على أمل الحصول على أعمال أو وظائف تتعلق بالفيلم.

وبطريق المصادفة أدركت أن ذلك حقيقة واقعة، فمنذ ثلاثة أشهر كانت شركة أفلام يونانية تعمل في «هيدرا» فهرب اثنان من العمال الذين يعملون بالمدرسة في تقديم الطعام على أمل أن يتم استئجارهم للعمل في الفيلم، كانت فضيحة على مدى يومين، لم أخبر جولي بذلك ولكن ابتسمت عندما خطر هذا على ذهني.

قلت: ثم جئت إلى هنا.

عقب رحلة بحرية ممتعة، ولكن بعدئذ بدأ الجنون يلوح في الأفق بعد مرور ٤٨ ساعة، كنا قد أدركنا بالفعل أن هناك شيئاً مختلفاً يتعلق بموريس، ففي الرحلة البحرية شعرنا أننا قريبتان منه، كان ينقصنا وجود أب منذ عام ١٩٤٣، وكان الأمر أشبه ما يكون بالعثور على عم خرافي، نظراً لقضاء وقت طويل معه على انفراد ولأننا يمكن أن نثق به، قضينا معه أمسيات باهرة ودخلنا معه في مجادلات هائلة عن الحياة والحب والأدب والمسرح.. وعن كل شيء.. ولكننا عندما حاولنا أن نستكشف ماضيه اسدلت ستارة من نوع ما وأنت تعرف الكيفية التي يكون عليها ذلك الأمر، الأشياء التي لا يمكنك أن تشاهدها إلا إذا استعدت تطور الأحداث، لقد كان كل شيء يتسم بالتحضر الشديد في المركب، راحت تفتش في عيني وكأنني أوجه اللوم لها لإعجابها بالعجوز، كانت قد استندت على مرفقها ولاذت بالصمت، ومن وقت لآخر تلمس شعرها لتدفعه إلى الوراء بعد أن يكون النسيم قد بعثره على خدها، قلت: إنني أدرك ما تحسين به من مشاعر.

ـ أول شيء.. كنا نريده مشاهدة القرية، لكنه اعترض بشدة وكان

يرغب في الانتهاء من الفيلم بأسرع ما يمكن، لكن لا أثر للمولدات الكهربائية أو الأضواء، بالإضافة إلى الإحساس بأن موريس يرقبنا باستمرار، وكان هناك شيء غريب في ابتساماته لنا كأنه يعرف شيئاً ما لا نعرفه، وأنه لم يعد بحاجة لأن يخفي عنا ذلك الأمر بعد ذلك.

ـ أدرك ذلك تماماً.

ـ وفي فترة ما بعد الظهر من اليوم الثاني لوجودنا هنا، حاولت جين، وكنتُ أنا نائمة، الذهاب للنزهة، واتجهت نحو البوابة وفجأة شاهدت ذلك الزنجي الصامت، يعترض طريقها، ولم يسمح لها بالمرور من البوابة، بل ولم يجب على تساؤلاتها، وبالطبع صعقت خوفاً، ورجعت على الفور، ثم ذهبنا معاً إلى موريس، فحاصرنا في نوع من الاستجواب: هل سبق له أن تصرف معنا بطريقة غير لائقة، ألم يلتزم بكل ما نصت عليها الاشتراطات المالية في العقود، ثم تحدث في صراحة وقال إنه ضللنا فيما يتعلق بالفيلم وقال إنه يحتاج بالفعل لخدمات ممثلتين تتصفان بنفس الصفات الخاصة به، وقال إن علينا أن نصغي إليه في انتباه، وأقسم لنا أننا إذا أصغينا لكلامه ولم نقتنع بما يقوله فإنه يمكن لنا عندئذ.....

ـ يمكنكما أن تتركا هذا المكان.

ـ فأومأت برأسها وقالت: وهكذا وقعنا في غلطة الاستماع إليه، وفي نهاية الأمر ظل يتحدث إلينا لساعات طوال، وكانت المسألة على حقيقتها أنه رغم اهتمامه الشديد بالمسرح ـ وأنه يمتلك بالفعل استوديو لتصوير الأفلام في لبنان، فإن اهتماماته كطبيب كانت تفوق الاهتمامات الأخرى، في ذلك اليوم ظل يتحدث عن مساعدتنا له لكي يعبر الحدود إلى عالم جديد يجمع ما بين الفنون والعلوم، ولكي يدخل في مغامرة فريدة ذات طابع نفسي وفلسفي، لكي يدخل في شيء أقرب إلى رحلة غير عادية في اللاوعي الإنساني، كنا نود أن نعرف ما يكمن وراء كل

هذه الكلمات الجميلة ـ ثم ذكر لنا اسمك لأول مرة، قال إنه يريد أن يخلق موقفاً نلعب فيه نحن الاثنتين دورين يشبهان بعض الشيء الدورين الموجودين في الفيلم وبحيث تلعب أنت دور الشاعر اليوناني دون أن تكون أنت مدركاً لذلك تماماً.

أمالت رأسها وأشاحت ببصرها بعيداً للحظات وعلى نحو تعجز الكلمات عن التعبير عنه، ثم قالت: يا نيقولاس، لقد أصبنا بالحيرة والدهشة والذهول، فكما تعرف فإن رجال المسرح الحقيقيين يكونون عادة سخفاء بعض الشيء ويبدو عليهم الافتعال في أثناء وجودهم بعيداً عن المسرح، وموريس.. أذكر أن جين قالت إنها شعرت بالإهانة، إذ كيف يجرؤ أن يعتقد أن بإمكانه شراء الناس لمجرد أنه رجل واسع الثراء، لقد طعنته جين في الصميم عندما أبدت هذه الملاحظة، وشعر موريس بالألم النفسي، وألقى محاضرة مستفيضة، عن عقدة الشعور بالذنب التي يشعر بها دائماً إزاء ثروته الطائلة، وكيف أن شغفه الوحيد الحقيقي كان ينصب على رغبته في توصيل المعرفة الإنسانية للآخرين، وكيف أن حلمه الوحيد هو التوصل إلى نظرية راسخة وكيف أن الأمر لم يكن بمثابة أنانية من جانبه وليس مجرد نزوة تمرّ به... بل وتمكن من إقناع جين بوجهة نظره في نهاية الأمر.

ـ كان ينبغي أن تسأليه عن جوانب تلك النظرية.

ـ لقد سألته مراراً وتكراراً عنها، ولكنه كان ينتهي إلى الفكرة القديمة نفسها فجأة، وهي أننا إذا عرفنا جوانب النظرية فإن ذلك سوف يلوث نقاء التجربة، ويكرر نفس كلماته السابقة.

ثم أكملت قائلة: من المؤكد أنه يتحرق شوقاً لأن يعرف ما يدور في نفسك من مشاعر حقيقية ولأن يعرف الأمور التي تفكر فيها، نظراً لأنك المركز الذي يدور حوله كل شيء لأنك خنزير التجارب الرئيسي.

ـ من الواضح أنه كسبك إلى صفه.

لقد قضينا ليلة بمفردنا نتناقش في ذلك الأمر، وكنت أنا وأختي في غاية التذبذب والتردد، وفي نهاية الأمر قررت جين أن تجري اختباراً بسيطاً، فنزلنا في صباح اليوم التالي وأخبرناه أننا نرغب في العودة إلى بلدنا بأسرع ما يمكن، فراح يجادل ولكننا تشبثنا بالعناد وفي النهاية رضخ وقال إنه سيأمر بإحضار اليخت من نوبليا لكي ينقلنا إلى أثينا، لكننا أخبرناه بأنه لا داعي لليخت وأبدينا رغبتنا في أن نأخذ الباخرة العائدة إلى أثينا.

ـ وهل سمح لكما بالذهاب؟

ـ وقمنا بحزم أمتعتنا ثم اصطحبنا في الزورق وقد التزم بالصمت الشديد، ووصلنا إلى نقطة على مسافة مائة ياردة من الباخرة، فنظرت إلى جين، كان مبتهجاً للغاية، ولم يوجه اللوم لنا على الإطلاق وقال إن ذلك قد برهن على أن اختياره كان سليماً فقد رأينا الدنيا مظلمة في كل مكان سنذهب إليه.

وخلال كل هذا كنت أنتظر أن أسمع إشارة إلى الماضي، إشارة إلى المعلومة المحددة التي أعرفها عن كونشيس والتي تفيد بأن كونشيس قد خصص ثلاثة فصول من فصول الصيف من أجل «نظريته التي طال تمسكه بها» لكنني منعت نفسي من الكلام، وربما أحست جولي بأنني مازلت متشككاً.

نظرت في إمعان إلى رأسها المنحني وإلى خطوط جسدها وقربها الشديد مني، وكدت أسمع صوت كونشيس وهو يجيب عن شكوكي المتعلقة بالمصادفة، إذاً، لماذا أنت هنا مع هذه الفتاة؟ أو هل هذا يهمك مادمت معها هنا؟

قالت:

جين تقول إنه يوجه إليك أسئلة كثيرة تتعلق بي.

اتجهت نظراتها إلى السماء للحظات، ثم قالت: أنت ليس لديك فكرة عما يدور، فاستجوابه لي لا ينصب عليك فقط، إنه يسألني عمّا أشعر به، وعمّا إذا كنت أصدق كلامك.. بل يسألني عمّا في داخل ذهنه أي في داخل ذهن كونشيس، هل تتخيل أن يحدث كل هذا.

ـ من الواضح أنني لم أكن ممثلاً.

ـ لم يكن ذلك واضحاً بالمرة، لقد اعتقدت أنك إنسان ذكي فأنت تمثل بطريقة طبيعية وكأنك لا تعرف التمثيل أو لا تستطيع أن تمثل، لقد أدركنا منذ فترة طويلة أن الخط الأول الذي قدمه لنا ـ وهو أنه ينبغي لنا أن نحيرك، كان بمثابة وسيلة تضليل، فطبقاً للنص المكتوب للفيلم نقوم نحن بخداعك.. إلا أن هذا يؤدي إلى وقوعنا في التضليل أكثر منك.

أهذا هو النص المكتوب الخاص بالفيلم؟

ـ «النص المكتوب» نكتة وأضحوكة.

وهو يكاد لا يخبرنا بالوقت الذي نظهر فيه والوقت الذي نختفي فيه ونوع الجو الذي يخلقه، إنه طوال الوقت يخبرني أنه إذا لم تسر الأمور وفقاً للخطط الموضوعة فإن هذا لا يهم، مادمنا نحرص على تحقيق التطور الرئيسي، كل شيء يتعلق بالقيام بتمثيل الأدوار، وكيف يتصرف الناس إزاء مواقف لا يفهمونها.. لقد قال إن ذلك جزء من الموضوع.

ـ هناك شيء واحد واضح تماماً، أنه يريد لنا أن نعتقد أنه يضع بيننا كل أنواع العراقيل، ثم يعطينا كل هذه الفرص لتحطيم العراقيل.

ـ أولاً لم يكن هناك كلام عن نصب الشباك لك بحيث تقع في حبي اللهم إلا إذا كان ذلك الحب متمشياً مع ذلك الطراز القديم من الحب الذي كان سائداً في عام ١٩١٥.

وبحلول الأسبوع الثاني أقنعني أنه ينبغي لي أن أتوصل إلى مكانة

وسط ما بين ذاتي الزائفة لعام ١٩١٥ وبين ذاتك الحقيقية لعام ١٩٠٣، وسألني عما سأفعله إذا أردت أنت أن تقبلني، كثيراً ما تقوم الفتاة بتقبيل الرجال على المسرح، وفي نهاية الأمر اتخذت قراراً في هذا الشأن، ولذلك اصطنعت ذلك المشهد الرهيب.

ـ كان مشهد تمثيلياً جميلاً ولطيفا.

ـ تلك المحادثة الأولى معك، لقد أحدثت لي ذلك الأثر الرهيب المخلَّف في دماغي من خبرة سابقة، أثر أسوأ بكثير من أي أثر سبق أن تعرضت له على مسرح حقيقي.

ـ ولكنك أرغمت نفسك على أن تدعيني أقبلك.

ـ لسبب واحد وهو أنني اعتقدت أنه كان ينبغي لي أن أرغم نفسي على ذلك، أظن أن الأمر بالنسبة له أقرب إلى الافتراض الرياضي، حيث يمكن له أن يضعنا في المكان الذي يحبه في المعادلة الرياضية الخاصة به، إنني غير ملتزمة بالصدق والأمانة، لقد أردت أن أعرف الأحاسيس التي سأشعر بها لدى قيامك بتقبيلي.

ـ رغم الدعاية المضادة.

ـ تلك الدعاية المضادة لم تبدأ إلا بعد ظهر يوم الأحد، رغم أنه قد حذرني من التورط معك عاطفياً.

وحملقت في السجادة، وحامت فراشة صفراء اللون فوق رأسينا ثم انزلقت بعيداً.. سألتها:

ـ هل ذكر لك سبب ذلك؟

ـ «نعم.. إنني قد أجعلك تكرهني يوماً ما ولأنه يتعين عليك أن تبدأ في الشعور بالانجذاب نحو جين، فكل شيء يرجع مرة أخرى إلى قصة «القلوب الثلاثة» المثيرة للسخرية والاستهزاء، فشخصية الشاعر تنقل بالفعل عواطفه وميوله، إحدى الأختين كانت متقبلة الأطوار، والأخرى

تمسكت به لدى ارتطامه بالفتاة الأولى والارتداد عنها مثل الكرة على النحو الذي تعرفه، فهو ينتهز كل فرصة ليعيب فيك بشكل رهيب، ويذكر عيوبك أمامنا، نحن الأختين كما لو كان يعتذر لكلاب الصيد عن إحضار ثعلب شنيع ورهيب كهذا، ومن الواضح أن هذا أمر سخيف للغاية، خاصة عندما تكون قد قمت بكل أعمال الصيد، هل تذكر المحاضرة التي ألقاها عليّ ـ عندما كنت ليلى ـ والتي قال فيها عنك إنك لا تمتلك موهبة الشعر؟ ولا روح الفكاهة؟ أنا واثقة بأنه كان يقصد توجيه هذا الكلام إليّ بقدر ما هو يوجهه إليك.

ـ ولكن ما الذي يجعله يدفعنا نحو بعضنا البعض؟

لم تردّ توّاً، ثم قالت أخيراً: لا أعتقد أن قصة «القلوب الثلاثة» ذات أهمية، ولكن هناك إنتاج أدبي أعظم مثل «العاصفة» لشكسبير.

تأملتها وهي تتكلم، ثم قلت: وماذا عن المكان السري الذي تختبئان فيه؟.

ـ يا نيقولاس، لا أستطيع أن أريك إياه، فإذا كان هناك من يقوم بمراقبتنا فإنهم سيشاهدونني وأنا أريك ذلك المخبأ.

ـ هل هو قريب من هنا؟

ـ نعم.

على الأقل يمكنك أن تخبريني بالمكان الذي يوجد فيه المخبأ على افتراض أنك قد تقعي في المتاعب وتحتاجين لأن أساعدك.

فابتسمت وقالت: إذا كان مقدراً لنا أن نلقي مصيراً أسوأ من الموت.. لكان ذلك المصير قد حدث بالفعل بعد مرور كل هذا الوقت على ما أعتقد.

ـ ولكن لماذا لا يمكنني أن أعرف مكان هذا المخبأ؟ سبق أن وعدتني بذلك

ـ وأنا مازلت عند وعدي، ولكن ليس الآن لو سمحت.

ومن المؤكد أنها لمست الحدة التي ظهرت في صوتي لأنها لمست بها يدي وقالت: أنا آسفة، لقد سبق أن حنثت في وعود كثيرة أخرى وعدت بها موريس خلال هذه الساعة الأخيرة، وأنا أشعر أنه ينبغي لي أن أفي بهذا الوعد لك.

ـ هل هذا المخبأ يشكل أهمية بالغة؟

ـ لا، على الإطلاق، كل ما هنالك إنه يقول إنه يريد أن يفاجئك بهذا المخبأ ذات يوم، ولست أعرف كيف سيتم ذلك.

شعرت بالحيرة.. إلا أن ذلك بمثابة برهان إضافي على قصتها، تعمدت الصمت للحظات قصيرة كنوع من الاختبار وأنا أدرك أن الكذابين يكرهون الصمت، ولكنها تخطت ذلك الاختبار بنجاح.

ـ هل تحدثت مع الناس الآخرين هنا؟

ـ نحن لم نشاهد الآخرين لكي نتحدث معهم وبالطبع توجد ماريا ولكن لا أمل ولا رجاء فيها ومن المستحيل استخلاص أية معلومات منها شأنها في ذلك شأن جو.

ـ وطاقم البحارة على اليخت؟

ـ إنهم يونانيون، ولا أعتقد أنهم يعرفون ما يدور هنا من أحداث.

ـ هل أخبرتك جين أننا نشك في وجود جاسوس في مدرستك؟

ـ من هو؟

ـ أخبرنا موريس ذات يوم أنك كنت متحفظاً مع المدرسين ولذلك لم يشعروا بالارتياح نحوك.

ففكرت على الفور في ديميترياديس وكيف أنه من الغريب حقاً أن دردشة طبيعية كهذه كان ينبغي أن تجعل رحالات إلى بوراني باللغة

السرية، هذا بالإضافة إلى أنني كنت متحفظاً وفاتراً فهو كان المدرس الوحيد الذي أقابله من وقت لآخر خارج الغرفة المشتركة الخاصة بالمدرسين، وتذكرت ـ في وميض من الارتياح ـ أنني قد كذبت عليه فيما يتعلق بمقابلتي لآليسون، ولم يكن كذبي ناجماً عن الخداع وإنما كان لمجرد أن أتجنب مزاحه اللعين، تمتمت: ـ باستطاعتي أن أخمِّن من يكون ذلك الجاسوس.

ـ إنه الجانب الوحيد في موريس الذي لا أستطيع أن أتحمله، كل هذا التجسس الكثيف، وهو لديه كاميرا للتصوير السينمائي في اليخت الخاص به، مع وجود عدسات متطورة يزعم أن كل ذلك لمراقبة الطيور ودراستها.

ـ لو تمكنت فقط من ضبط هذا العجوز ابن الزنا...

ـ لم أشاهد هذه الكاميرا على الإطلاق، وأعتقد أن هذه مجرد وسيلة من الوسائل العديدة التي يلجأ إليها لتغيير مجرى الحديث بهدف صرف النظر عن النقطة الرئيسية.

ورحت أرقبها في تمعن وأدركت أن هناك بعض الصراع في داخلها بالإضافة إلى بعض التردد والحيرة وكذلك بعض الاعتراف بأنها أرادت أن تلاطفني لكي تستخلص مني أموراً كانت تجرى على النقيض من معظم الكلام الذي نقوله، وتذكرت ما قالته أختها عنها في الليلة السابقة، وأجريت في ذهني بعض التخمينات، ثم تساءلت: هل تريدين مواصلة الاستمرار هنا؟.

فهزت رأسها وقالت: لست أدري يا نيقولاس، اليوم نعم، وغداً ربما لا، ولم يحدث لي من قبل شيء كهذا على الإطلاق، أعتقد لو كانت لدى غريزة واضحة لأدركت أننا إذا تركنا هذا الأمر فلن يحدث لنا مطلقاً شيء مشابه هل تشعر بذلك؟

ونظرت إليّ في تفرّس وبدت لي الفرصة مواتية، قفزت إلى الاختبار النهائي الذي أجريه عليها قلت: لا أشعر بذلك، نظراً لأنني أعرف أن هذا حدث مرتين على الأقل قبل حلول هذا العام.

فدهشت حتى إنها لم تفهم وحملقت في ابتسامتي الباهتة وبعدئذ أبعدت بطنها وجلست على كعبيها وسألت: هل تقصد أن هذه ليست هي السنة الأولى لك؟

وأصيبت بما يشبه النكسة بشكل واضح وظهر الضياع والأسى في عينيها وتدفقت الاتهامات من عينيها إلى عيني.

ـ الشخصان السابقان عليك في المدرسة هل قاما بإخبارك؟ وهل كنت تعرف طوال تلك الفترة؟

وأوضحت لها كيف اكتشفت ما حدث في العامين الماضيين وكيف أن معلوماتي ضئيلة بعض الشيء وأن العجوز قد اعترف بذلك بالفعل، ومرة أخرى رحت أرقبها لكي أعرف مدى ردود الفعل عندها، ثم أضفت قائلاً: لقد أخبرني أنك أنت وأختك كنتما هنا من قبل، وأنكما تقابلتما معهما.

فحملقت في وجهي بينما مشاعر الغضب تتفجر في داخلها، وقالت: ولكننا لم تطأ أقدامنا أبداً...

ونظرت في اتجاه البحر، ثم قالت: أوه إنه إنسان لا يطاق، إذن فأنت طوال الوقت كنت تظن أننا...، وتحدثت معها عن ميتفورد وحسب قصة العجوز، فقط كان من المفروض أن يجذبها ميتفورد إليه، قامت هي بتوجيه بعض الأسئلة إليّ حيث تريد أن تعرف كافة التفاصيل، قالت: وأنت ليس لديك فكرة بالفعل عما حدث معهما؟

ـ من المؤكد أنهما لم يقوما بإخبار أي شخص في المدرسة على الإطلاق، ولقد كتبت خطاباً إلى ميتفورد، ولكنه لم يرد عليّ حتى الآن.

وراحت لا يمكن أن يكون تتفحص عيني مجدداً ثم نظرت لأسفل، وقالت: سأفترضأن هذا يدل على أن الأمر بشعاً في نهاية المطاف. وذلك هو ما أحاول أن أقوله لنفسي.

ـ يا له من أمر بالغ الغرابة!

ـ يستحسن ألا تخبريه.

ـ لن أخبره بالطبع، هل تعتقد أن لديه عدداً لا نهائياً من الأخوات التوائم؟

ـ لا يمكن أن يجد فتاتين توأم لهما نفس مواصفاتكما.

نظرت لأسفل متفادية النظر في عيني، وتساءلت: ما الذي ينبغي أن نفعله منوجهة نظرك؟

ـ متى يتوقع له أن يعود؟ أو التظاهر بأنه يعود؟

ـ هذا المساء، أو هكذا قيل لنا بالأمس

ـ أن يكون ذلك لقاء ممتعاً ومثيراً، «وقد أفصل من العمل على أساس أننيتنقصني المهارة اللازمة».

ـ من الممكن.

فقلتُ في رقة: عندئذ سأعثر لك على وظيفة.

سادت فترة صمت فمددت يدي لتلتقي مع يدها جذبتها نحوي، واضطجعنا وقد تباعد جسدانا قليلاً، بدأت أتعقّبُ خطوط وجهها.. والعينين اللتين أغلقتهما، ثم تتبعتُ الأنف حتى أرنبة الأنف، استجابتْ وإن كنت قد أحسستُ بشيء من التحفّظ، تباعدنا بعض الشيء وقمتُ بالحملقة في وجهها، بدا لي أن وجهها لا يمكن لي أن أسأم منه على الإطلاق، وجهها ليست به أية عيوب، فتحت عينيها وابتسمت لي ابتسامة رقيقة في شيء من التحفظ سألتني: فيم تفكر؟

ـ كم أنت جميلة للغاية.

ألم تقابل صديقتك في أثينا بالفعل؟

ـ هل ستشعرين بالغيرة إذا كنت قد قابلتها؟

ـ نعم.

ـ إذن فأنا لم أقابلها.

ـ أراهن أنك قابلتها بالفعل.

ـ بكل صدق وأمانة، أقول لك إنها لم تتمكن من المجيء.

ـ إذن، كنت ترغب في مقابلتها؟

ـ بدافع الشفقة ولمجرد أن أقول لها إنه لا فائدة تُرجي من وراء علاقاتنا معاً وإنني قد أعطيت كل روحي وقلبي لفتاة ذات قوى سحرية هائلة.

وقبلت يدها ثم قبَّلتُ الندبة الغائرة، ثم قمت بتقبيل معصمها وجذبتها نحوي مجدداً ثم قمت بتقبيل عينيها ورقبتها وعلى طول فتحة ثوبها فوق الثديين مباشرة ثم عثرت على فمها مرة أخرى، لا يزال هناك شيء ما يتسم بالقلق في عينيها، فجأة أغلقت عينيها ثم امتد فمها نحو فمي كما لو كان بمقدورها أن تتكلم بشفتيها على نحو أفضل من التحدث بالكلمات، وما إن بدأنا نغيب عن كل ما يدور حولنا فيما عدا شفاهنا الملتحمة وجسدينا المتلاصقين تماماً حتى حدث ما يعرقل هذه النشوة الغامرة.

إنه صوت الجرس الذي جاء مترامياً من المنزل، على هيئة دقات منتظمة واحدة، دقات ملحة في إصرار مثل ناقوس الخطر، جلسنا ونظرنا فيما حولنا وقد اعترانا شعور بالذنب، رفعت جولي يدي لأعلى لكي تنظر إلى ساعة يدي، ثم قالت: «من المحتمل أن تكون جين هي

التي تدق الجرس، فقد حان وقت تناول طعام الغذاء» انحنيت وقبلت رأسها وقلت: أفضل البقاء هنا.

فقالت في هذه الحالة ستجيء لكي تبحث عنا، معظم الناس يعتقدون أن جين أكثر جاذبية مني.

توقف الجرس عن الدق، وظلت ممسكة بيدي، ثم قالت: ربما لمجرد أنهم يريدون منها شيئاً ما ويدركون أنها تعطيهم ذلك الشيء على نحو أسهل مما أفعل أنا.

قامت بهز رأسها كما لو كان الأمر غاية في التعقيد، ثم قالت: أنا لست عذراء يا نيقولاس.

قبلتني بسرعة، ونهضت واقفة والتقطت سلتها بينما قمت بطيّ السجادة ووضعها تحت ذراعي، وانطلقنا في اتجاه المنزل، وماكدنا نقطع خطوات قليلة، داخل أشجار الصنوبر حتى شاهدت لمحة خاطفة لهيكل أسود يتراجع للوراء، لم أتمكن من مشاهدة الرجل إلاً بصعوبة، كان هناك شيء واضح تماماً بالنسبة للطريقة التي يتحرك بها، قلت: كنا تحت المراقبة، ذلك الرجل جو كان يرقبنا.

لم نتوقف عن السير، ألقت نظرة إلى الخلف، وقالت: لا يمكن أن نفعل شيئاً علينا أن نتجاهله.

لم يكن باستطاعتنا أن نتجاهل هاتين العينين المخبأتين بين الأشجار، سرنا متباعدين عن بعضنا البعض بل وكاد الشعور بالذنب يتغلغل في داخلنا.

عند اقترابنا من صف الأعمدة نهض هيكل حافي القدمين واقف على السلم قائلة: كنت على وشك البدء في تناول الطعام بدونكما، فأنا أشعر بالجوع الشديد، كان القميص غير مقفول بالأزرار فتمكنت من رؤية مايوه بكيني داكن، وكانت كلمة بكيني جديدة للغاية آنئذ مثلما أن

موضة البكيني كانت جديدة تماماً في ذلك الوقت، كان هذا أول بكيني أشاهده على الطبيعية خارج نطاق الصور الفوتوغرافية التي تنشرها المجلات فأحسست بشيء من الصدمة، سرة البطن العارية والساقان الرشيقان والبشرة الذهبية وزوج من العيون المتسائلة في شيء من المتعة والتسلية، ضبطت جولي متلبسة وهي تنظر إلى هذه الشابة المنتمية للبحر المتوسط، والتي زادت من اتساع ابتسامتها، ذهبت جين إلى ركن صف الأعمدة ونادت على ماريا ثم عادت إلى أختها، عندما جلسنا إلى المائدة ظهرت ماريا، وتحدثت إلى جولي، كان المقرر أن يصل اليخت في الساعة الخامسة لكي ينقل الفتاتين بعيداً، كما أن هيرميز سيجيء ليصطحب ماريا ويعود بها إلى القرية لقضاء ليلة هناك، كي تعرض نفسها على طبيب الأسنان كما أن «الجنتلمان الشاب» عليه أن يعود إلى مدرسته نظراً لأنه سيتم إغلاق المنزل تماماً.

قالت جولي: كنت أعتقد أننا سنبقي هنا.

ثم نظرت في شك إلى أختها التي قامت بالنظر إليَّ ثم نظرت إلى جولي متسائلة:

- هل نحن نثق به؟ هل يثق هو بنا؟

- نعم.

نظرت إلى جولي لكي تساعدني، فتمتمت قائلة: اعتقدت أنك زعمت أنك درست اللغة الإنجليزية في أكسفورد، وتصاعدت فجأة ظلال من الشكوك بيننا.

اكتشفت أن جين هي الأخت الأكبر سناً من خلال وسائل وطرق متعددة، إذ اكتشفت أنه يوجد في داخلها رغبة في توفير الحماية والرعاية لأختها وهي رغبة نابعة من شخصيتها الأكثر انفتاحاً ومن تجربتها مع الرجال، كانت هناك مسحة من الحقيقة في توزيع الأدوار

في المسرحية التنكرية، أخت ميالة إلى توكيد الذات على نحو أكثر من الأخرى، وأخت هشة أكثر من الأخرى، جلست بينهما مواجها للبحر في حالة تيقظ شديد بسبب الرجل الذي يحرص على مراقبتنا، وبدأت الفتاتان في استجوابي عن ماضيّ: لذلك رحنا نتحدث عن نيقولاس، عن أسرته وطموحاته وعن نقاط ضعفه ونقائصه، عن والدتهما ثم تنافستا على سرد قصص الحب والحنان والتي تتناول سخافة والدتهما.. كان الأمر أشبه بالدخول في غرفة دافئة لذيذة عقب رحلة باردة طويلة، غرفة تتصف بالدفء الجنسي أيضاً، ومع قرب الانتهاء من تناول الطعام انزلقت جين خارجة من قميصها، ورداً على ذلك أخرجت جولي لسانها لأختها بطريقة أخوية فردت عليها جين بابتسامة مكتوبة، وبدأت أجاهد نفسي لكي أمنع نفسي من النظر إلى ذلك الجسد المثير، إذ كانت قمة البكيني لا تكاد تغطي الثديين وكان النصف الأسفل من البكيني مربوطاً مع الردفين بشرائط بيضاء شفافة تسمح برؤية البشرة تحتها، وأدركت أنه كان يتم إغاظتي بعض الشيء وتتم مغازلتي بشيء من.. ربما قدر من الانتقام الخفيف الذي قامت به جين نظراً لإبعادها لفترة طويلة للغاية.

وفي حوالي الثانية بعد الظهر قررنا أن نذهب إلى شاطئ موتسا لكي نستحم ولنرى ما إذا كان سيتم السماح لنا بذلك، وعدت لأتحدى جو إذا اعترض سبيلنا، وبدا على الفتاتين أنهما تشاركانني الرأي حسب قوة جو الجسدية، هبطنا المدق متوقعين أن يتم اعتراض سبيلنا في أية لحظة حيث قد سبق أن تم اعتراض جين ذات مرة، ولكن لم يظهر أحد، لا توجد سوى أشجار الصنوبر وحرارة الجو، اخترنا لأنفسنا مكانا يقع عند منتصف المسافة إلى الشاطئ ونشرت سجادتين على مساحة مفروشة بأوراق الصنوبر، ثم قامت جولي بخلع جوربها الحريمي، ثم فستانها، كانت ترتدي ثوباً نسائياً عاري الظهر أبيض اللون متكوناً من قطعة واحدة تحت الفستان الذي خلعته، وبدا عليها شيء من الخجل والارتباك

بسبب ضعف لون بشرتها المائل للسمرة الناجمة عن التعرض لأشعة الشمس، نظرت إليَّ نظرة عابسة وقالت: كنت جالسة في ذلك اليخت اللعين تحت مظلة تقي من حرارة الشمس بينما كل ما تفعله هو...

قامت كل منهما بترتيب شعرها ثم سارتا إلى الماء وسبحتا لمسافة بعيدة عن الشاطئ ونظرت أنا في اتجاه بوراني ولكني لم أشاهد أحداً، كنا بمفردنا تماماً في هذا العالم، ثلاثة رؤوس في المياه الزرقاء الباردة، شعرت بأنني قريب من السعادة المطلقة، وأحسست أنني مثل طائر يرفرف في الهواء، لم تكن لديَّ الرغبة في أن أعرف ما ستسفر عنه الأمور، كنت متوافقاً تماماً مع اللحظة الحاضرة، مع اليونان، مع هذا المكان المفقود، مع هاتين الحوريتين اللتين تدب فيهما حياة حقيقية، وعدنا إلى الشاطئ وجففنا أجسادنا واستلقينا على السجادتين حيث استلقيت بجوار جولي التي دهنت جسمها بالزيوت، أما جين فكانت منبطحة على بطنها عند الطرف البعيد للسجادة الثانية وقد وضعت رأسها بين يديها واستدارت بوجهها نحونا، رحت أفكر في المدرسة وفي تلاميذها المتكبرين ومدرسيها المتجهمين وفي نقص الأنوثة، وعدم وجود النواحي الجنسية الطبيعية في الحياة المدرسة، وعدنا للتحدث عن موريس مرة أخرى ولبست جولي نظارة الشمس الخاصة بها واستلقت على ظهرها بينما ظللت أنا مرتكزاً على مرفقي.

سادت فترة قصيرة من الصمت ربما بسبب الخمور التي تناولناها مع الغذاء أو بسبب الشمس المخدرة الباعثة للنعاس، ومدت جين يدها إلى ظهرها وقامت بفك الخطاف الموجودة في أعلى المايوه البكيني من الخلف ثم تمددت بجسدها لأعلى وخلعت الخطاف ووضعته على الأحجار بجوارها لكي يجفّ، فلمحت ثدييها بينما هي تمد يدها لكي تفعل ذلك، كما لمحت ظهرها الطويل الذهبي الذي يفصله عن الساقين الطويلين الذهبيين الشريط المشدود ذو اللون الأزرق الداكن، ولم يكن

هناك شريط أبيض اللون على بشرتها، وكان الثديان لهما نفس لون باقي البشرة، من المؤكد أنها قد سبق لها أن عرضت جسدها مرات عديدة لأشعة الشمس على ذلك النحو، لقد فعلت ذلك بشكل طبيعي، وحرصت على أن تنظر عيناي في اتجاه البحر عندما استلقت مرة أخرى والتفتت نحونا، وأصيبت بالصدمة مرة أخرى: فهذه الملابس لم تكن متمشية مع آخر موضة فقط وإنما كان السلوك أيضاً هو سلوك سابق على أوانه لسنوات عديدة، أدركت أنها تحملق في وجهي وتدعوني إلى عقد مقارنة، وبعد لحظات قليلة حركت رأسها لكي تنظر في الاتجاه الآخر، فرحت أتطلع إلى قوامها البني اللون ثم نظرت لأسفل إلى جولي، واستلقيت على ظهري وتحسست بيدي باحثاً عن يد الفتاة المستلقية إلى جواري، وتجعدت أصابعها بين أصابعي وراحت تعبث وتلعب وتتلقص، فأغلقت عيني.

ولكن سرعان ما حلّ بي العقاب فبعد دقيقتين ترامى زئير فجائي وقادم من اللامكان، أدركت أن ذلك صوت لم أسمعه منذ أن جئت إلى الجزيرة: إنه صوت طائرة تنطلق على ارتفاع منخفض، فهبت جولي جالسة وكذلك فعلت أنا أما جين فاكتفت بالاستناد على مرفقها وقد أعطت ظهرها لنا، وكانت الطائرة منخفضة، خرجت في لمح البصر من خلف رأس بوراني وانطلقت بسرعة البرق فوق المياه، واختفت في ثوانٍ قليلة وراء لسان الأرض الممتد في البحر في اتجاه الغرب، تمكنا من مشاهدة العلامات الأمريكية قبل اختفائها، وبدا على جولي أنها مهتمة أكثر بظهر أختها العاري، وقالت جين: يا له من طيار وقح، من المحتمل أن يعود مادام قد شاهدك وأنت على ذلك النحو.

ـ لا تفرطي في الاحتشام إلى هذا الحد.

التفتت جين نحونا وهي مرتكزة على مرفقيها وقد تدلي صدرها

الصغير بجوار ذراعها القريب المنحنى، وكانت تعض شفتيها وتقول «لم أدرك أن الأمور ذهبت بعيداً إلى هذه الدرجة».

وكان الموقف لذيذاً وممتعاً، كانت تشعر بالخجل والغضب في آن واحد مثل مياه ساكنة تتكدر، ونظرت إليَّ في تأنيب كما لو كانت الغلطة هي غلطتي، ثم ألقيت نظرة على جين عند نهوضي واقفاً، اضطررت لأن أعض على شفتي، ثم سرت أنا وجولي الهويني مبتعدين في داخل الأشجار وتحت الظلال بأقدام حافية، كان هنا تورد جذاب للغاية في خديها وتحريض وإثارة وعناد في فمها، قالت أختها: إنها تحاول فقط مضايقتك.

ـ باستطاعتي أن أخربش عينيها إذا لزم الأمر.

ـ الإنسانة الدارسة لآداب الأغريق والرومان لا تصدم بسبب العري في اليونان.

ـ أنا الآن لست خريجة قسم الدراسات الكلاسيكية، بل فتاة تتعرض لظروف معوقة.

فملت عليها وقبلت جانب رأسها فدفعتني بعيداً عنها.

وصلنا إلى الكنيسة الصغيرة ذات الجدران البيضاء واعتقدت أن أبوابها ستكون مغلقة، ولكن المزلاج الخشبي البدائي تداعي في انهيار ـ من المؤكد أن شخصاً ما بهذه الكنيسة نسي أن يعيد غلق الباب بالقفل، انبعثت رائحة بخور عطرية خفيفة، نظرنا إلى رسومات القديسين المرسومة على الحائط الخشبي الذي نخرته الحشرات والديدان، كنت أدرك أن انتباهنا لم يكن منصباً على صور القديسين وإنما على الظلام الذي يكتنف هذا المكان الصغير، وضعت ذراعي على كتفيها، وبعد لحظات استدارت إليَّ وغرقنا سوياً في قبلة طويلة، نظرت إلى الباب المفتوح ثم دفعت جولي إلى الوراء نحو الباب إلى أن أصبح ظهرها

ملاصقاً للباب ثم استندت على الحائط عند جانب مفصلة الباب وبدأت ملاطفتها: قالت: لا ينبغي أن تفعل ذلك، إلا أن صوتها كان به تلك النغمة الأنثوية الغريبة التي تدعو المرء إلى الاستمرار بالقدر الذي تريده، فقمة الأنثوية الغريبة التي تدعو المرء إلى الاستمرار بالقدر الذي تريده، فقمت بإزاحة الأشرطة عن كتفيها وأنزلت الشرائط لأسفل إلى أن أصبحت عارية حتى خصرها، ثم رحت أداعب خصرها بيدي وارتفعت بيدي في بطء لأعلى نحو صدرها.

هنا وضعت يديها فجأة على يدي ثم همست: لو سمحت، لم يحن الوقت الملائم بعد فمررت بشفتي على فمها وقلت لها: أنت جميلة وفاتنة للغاية.

وانزلق ذراعاها حول رقبتي وانغمسنا في عناق، وراح كل منا يسحق الآخر وجذبتها إلى جسدي في قوة والتوى فمي وفمها فبدأت تترنح وأحسست أنها قد بدأت تفقد السيطرة على نفسها.

وترامى صوت، كان صوتاً ضعيفاً بحيث لم نعرف المصدر الذي صدر عنه، فتشبثنا ببعضنا في رعب والتفت رأس جولي لكي تنظر في نفس الاتجاه الذي أنظر نحوه ولكن كميات الضوء القليلة المتسربة من جوانب الباب المغلق لم تساعدنا على الرؤية، وبطريقة غريزية قمنا نحن الاثنين برفع شرائط ثوبها الداخلي لأعلى، ثم أمسكت بيدها وقدتها لتصبح ملاصقة للحائط إلى جواري ثم مددت يدي إلى الباب، وبعدئذ فتحت الباب فتدفق الضوء إلى داخل الكنيسة، وحملقت الأيقونات ولم يكن هناك أي شيء آخر، أدركت أن الأيقونات كانت تبعد عن الحائط مثلما هو الحال في كافة الكنائس اليونانية ولاحظت أن هناك باباً ضيقاً عند طرف واحد، فجأة تحركت جولي في مواجهتي وراحت تهز رأسها في عنف، فلقد خمنت على الفور من يكون ذلك الرجل: إنه الزنجي

الملعون، لعله تسلل في هدوء في أثناء سباحتنا في البحر وافترض أننا لن نترك الشاطئ.

وجذبت جولي يدي وهي تلقي نظرة نحو الطرف البعيد فترددت ثم تركتها تسحبني نحو الهواء المكشوف، وبعدئذ أغلقت باب الكنيسة في عنف ثم نظرت إليها، دفعتني لأن أسير لخطوات قليلة، وتحت الشمس تمكنت من مشاهدة جين وقد اشرأبت برأسها وراحت تنظر إلينا، يبدو أنها سمعت صوت باب الكنيسة لدى غلقه في عنف، قالت جولي: من المؤكد أن موريس سوف يعرف ذلك.

لم يعد هذا يقلقني، لقد فعل ذلك في الوقت القاتل.

نادت جين قائلة: هل هناك متاعب من نوع ما؟ فرفعت جولي إصبعها إلى فمها، فاستدارت أختها وجلست منتصبة القامة وارتدت الجزء العلوي من المايوه البكيني الخاص بها ثم جاءت لملاقاتنا وقالت: جو موجود هنا، متخفياً، نظرت جين نحو الحوائط البيضاء ثم إلى وجهينا، وقالت جولي: سأواجه موريس وأتكلم معه بكل صراحة، إما أن يذهب جو، وإما أن نغادر نحن هذا المكان.

ـ لقد أبديت هذا الرأي منذ أسابيع.

ـ أعرف ذلك.

وعدنا إلى مناقشة الأشياء الخاصة بنا لدقائق قليلة ونحن نرقب باب الكنيسة الذي ظل على ما كان عليه لكن الوجود الأسود غير المرئي في المبنى الصغير انتشر في جميع أرجاء المنظر الخلاب وتغلغل في ضوء الشمس وانسحب على فترة ما بعد الظهر بأكملها، شعرت بإحباط جنسي عنيف.. وقررنا أن نعود راجعين إلى المنزل.

بالمنزل وجدنا ماريا جالسة خارج كوخها تتحدث مع الحمار هيرميز، وقالت لنا إن الشاي في انتظارنا على المنضدة، وراح هذان

القرويان يحملقان في وجوهنا وهما جالسا كما لو كنا أشخاصاً بعيدين عن عالمهما أشارت ماريا في غموض تجاه البحر وقالت كلمتين باللغة اليونانية نظرنا في اتجاه البحر لكننا لم نشاهد شيئاً، قالت جولي: إنها تقول إن هناك أسطولاً حربيا.

وذهبنا إلى حافة منطقة الحصباء ورأينا صفا من السفن تكاد هياكلها تكون مغمورة في الماء وكانت تتجه شرقاً عبر بحر إيجة حاملة طائرات وسفينة حربية وأربع مدمرات عاقدة العزم على الدخول في طروادة جديدة، وهكذا عرفنا السبب في الاقتحام العنيف للطائرة المقاتلة للأماكن الهادئة التي ننعم بها، قالت جين: لعلها الخدعة الأخيرة التي يقوم بها موريس، بأن يضربنا بالقنابل حتى الموت.

وضحكنا معاً إلاَّ أن ضحكاتنا توقفت بسبب معدات الموت التي تحمل آلاف الرجال، وقفت بين الفتاتين وأحسست بتداعي المشروع العجوز بل وبتداعي الزمن في حدّ ذاته، كنت أدرك أنني لن أتمكن من الحصول على مغامرة كهذه مستقبلاً، وكنت على استعداد لأن أضحى بكل أيامي المتبقية من أجل أن أجعل فترة ما بعد الظهر هذه لا نهائية.

وتناقص الشعور بالغبطة الذي كان يجتاحني أكثر في أثناء تناول الشاي، إذ كانت الفتاتان قد دخلتا إلى داخل المنزل ثم ظهرتا مرة أخرى مرتديتين ملابس الصباح نفسها، كانتا في حيرة من أمرهما بشأن ما ينبغي لهما أن تفعلاه، لقد تحدثنا عن إمكان مجيئهما معي إلى الجانب الآخر من الجزيرة وقضاء الليل في الفندق، لكننا في نهاية الأمر قررنا إعطاء كونشيس فرصة أخيرة لكي يعلن عن نفسه بوضوح، وكنا مازلنا نتناقش عندما وقع بصري على شيء في عرض البحر، اقترب ذلك الشيء منا ودار حول لسان الأرض الممتد في البحر، كانت الفتاتان قد تحدثتا معي عن هذا اليخت، وكيف أنه بمثابة برهان ساطع على ثراء العجوز، وعدنا جميعاً إلى منطقة الحصباء حيث يمكن لنا

مشاهدة ذلك الشيء في مزيد من الوضوح، كان به قبطانان، وكان يتحرك في بطء شديد تحت قوة الموتور وبدا هيكله طويلاً أبيض اللون.. كما تدلي العلم اليوناني في تكاسل من صارية موجودة في المؤخرة، وشاهدت ستة بحارة وكان اليخت مازال بعيداً مما تعذر معه مشاهدة وجوه الناس، فقالت جين: عليك أن تشاهد ما هو تحت ظهر اليخت، فهنالك ثمانية أصناف من العطور الفرنسية فرق المنضدة بمقصورتنا.

وكاد اليخت يتوقف تماماً عن الحركة، لم يكن اليخت في حد ذاته تنقصه النواحي الجمالية، لكنني شعرت بشيء سخيف يتعلق بامتلاكه وشاهدت نفسي بداخله يوماً ما، وتصاعدت في داخل مشاعر الحسد والحقد تجاه الفتاتين، لقد كان الأمر أكثر سهولة بالنسبة لهما، فجمال الشكل كان هو جواز المرور لهما لكي تدخلا إلى ذلك العالم، لقد كان الحصول على الأموال هو أمر له طابع الذكورة، وربما أحست جولي بكل هذا، وعند رجوعنا إلى صف الأعمدة لكي تقوما بحزم أمتعتهما، أمسكت بيدي وجذبتني إلى داخل المنزل بعيداً عن سمع وبصر جين وقالت لي: سأغيب عنك لأيام قليلة فقط.

ـ إنها أيام ستبدو كأنها سنوات.

كنا واقفين وقد اقترب جسدانا، سألتها، هل تشعرين بنفس الشعور؟

ـ لا أعرف يا نيقولاس ما أشعر به، أريد أن أحس بنفس الشعور.

ثم نظرت نحو الأبواب المفتوحة وقالت: «إنني أود أن أخرج معك في إحدى الليالي ولكن.. يمكنني أن أعمل ترتيبي على يوم الأربعاء حيث يمكن لنا أن نتقابل بجوار الكنيسة الصغيرة».

وطلبت مني أن أتفهم الموقف، وقالت: ربما لا نكون هنا.

ـ سوف أجيء، عقب حلول الظلام، وسأظل منتظراً حتى منتصف

الليل فذلك أفضل من قيامي بقضم أظافر أصابعي في تلك المدرسة اللعينة.

ـ وأنا سوف أحاول، إذ كان بمقدوري أن أجيء إليك، إذا كنا موجودين هنا.

وخرجنا.. كانت جين تنتظر بجوار منضدة الشاي، ثم أومأت برأسها، وهنالك كان الزنجي واقفاً على المدق الذي يؤدي لأسفل إلى الشاطئ الخصوصي، وزأرت سرينة اليخت مرة أخرى، وترامى إلى سمعي صوت محرك في مؤخرة زورق قادم بسرعة نحو الشاطئ، رفعت جين إحدى يديها وتمنيت لهما حظاً سعيداً، ثم شاهدتهما وهما تسيران في فستانيهما ورديَي اللون وقد أمسكت كل منهما بسلتها في يدها، استدار الزنجي قبل أن تصلا إليه بفترة طويلة وشرع في النزول على المدقّ، كان واثقاً بأنهما ستسيران وراءه، وبعد أن اختفت رأساهما تماماً ذهبت إلى قمة المدقّ. ودخل الزورق إلى الخليج، وسار بحذاء رصيف الميناء، ونزلت إلى رصيف الميناء ورأيت الهيكل الأسود للزنجي والهيكلين الورديين للفتاتين خلفه مباشرة، وكان هناك بحار في الزورق يرتدي شورتاً أبيض بالإضافة إلى قميص أزرق غامق، ساعد البحار الفتاتين على الصعود إلى الزورق، ثم قفز الزنجي داخل الزورق، ثم اتجه الزورق إلى عرض البحر، من المؤكد أنهم عقب التحرك لمسافة ياردات قليلة قد تمكنا من مشاهدتي واقفاً في أعلى المدقّ حيث لوحتا لدى مغادرتين الميناء الصغير.

استدرت عائداً إلى المنزل حيث كانت ماريا تنتظر لكي تغلق أبواب المنزل تماماً، لم أحاول انتزاع المعلومات منها من خلال توجيه الأسئلة حيث كنت أدرك أنه لا فائدة من وراء ذلك، فصعدت إلى غرفتي وعبأت حاجياتي في حقيبتي وعندما نزلت إلى الدور الأول كان الزورق يتم رفعه لوضعه داخل اليخت الذي شرع في الإبحار، وشعرت بالرغبة

في مراقبة اليخت إلى أن يغيب عن الأنظار ولكنني أدركت أنه ربما يكون هناك شخص ما يقوم بمراقبتي من مكان ما، قررت ألا أقوم بدور الرجل الذي عوقب بتركه وحيداً في جزيرة مهجورة.

وبعد لحظات انطلقت عائداً إلى المستعمرة الكئيبة والتي أقضي فيها العقوبة اليومية والتي تقع عند الجانب البعيد للحلم، مثلما ترك سيدنا آدم جنة عدن.

(٤٥)

في أثناء عودتي رحت أعاني من ردود الفعل الناجمة عن أحداث اليوم، ولم يكن باستطاعتي أن أشك في البرهان المادي الذي قدمته جولي على أنها إنسانة ينبغي لي أن أثق بها من الناحية العاطفية، ولكنني ظللت أفكر في أسئلة أخرى ينبغي لي أن أوجهها لها ـ كان من السهل إدراك أن الفتاتين لا تزالان تسايران الطرفين ـ بمعنى أن جولي قد تجدني جذاباً من الناحية الجسدية ومع ذلك فهي على استعداد لأن تقوم بتضليلى، كما أن هناك أيضاً اجتماعي التالي مع كونشيس: وهو دليل قوى على أنني أعرف حقيقة أمر الفتاتين وأنني تأكدت من ذلك من مصادر بعيدة عن الجزيرة، وهذا في حد ذاته قد يبرهن على أنه أمر مفيد للغاية.

في مساء يوم الأحد، وبعد أن عدت إلى غرفتي قمت بتحرير خطابات إلى مدام هولمز في سيرن أباس، وإلى ب.ج ڤيرن مدير بنك باركليز وإلى ناظرة المدرسة الإعدادية التي قامت جولي بالتدريس فيها، في الخطاب الأول قلت لمدام هولمز إنني قد تقابلت مع ابنتيها بخصوص الفيلم الخاص بهما وأن ناظر المدرسة الريفية طلب مني أن أعثر له على مدرسة ريفية بإنجلترا يمكنها أن تقدم «أصدقاء بالمراسلة» وأن الفتاتين اقترحتا أن أكتب لأمهما وأطلب منها أن تجعلني على صلة

مستمرة مع المدرسة الابتدائية في سيرن أباس، وفي الخطاب الثاني قلت إنني أرغب في فتح حساب بالبنك وإنه قد تمت التوصية عليَّ بمعرفة اثنتين من زبائن فرع البنك، وفي الخطاب الثالث أعطيت لنفسي رئاسة لمدرسة إعدادية ستبدأ أعمالها في الخريف بأثينا وقلت إن الآنسة جوليا هولمز تقدمت بطلب لهذه المدرسة للحصول على وظيفة.

ووضعت الخطابات في صندوق البريد كما وضعت خطاباً موجهاً إلى ليفاريير.. وكان لديَّ الأمل في أن يكون هناك خطاب في انتظاري مرسل من ميتفورد، تعمدت أن يكون خطابي المرسل إلى ليفاريير مقتضباً للغاية وبحيث أعرفه على شخصيتي، ثم أقول له: السبب الرئيسي الذي دفعني للكتابة إليك أنني تعرضت لموقف معقد، ولقد علمت أنك اعتدت على أن تزور كونشيس هناك وأنا أحتاج بالفعل للحصول على نصيحة شخص آخر وأحب أن أضيف أن مساعدتك لي في هذا الشأن لن تعود بالفائدة عليَّ فقط، لأن هناك أشخاصاً آخرين متورطين.

وحتى لحظة إغلاقي ذلك الخطاب كنت أدرك أن صمت ميتفورد وصمت ليفاريير هو أفضل وسيلة متاحة للتنبؤ بما قد يحدث لي، فإذا كان قد حدث في سنوات سابقة أمور غير سارة في بوراني فإن ذلك سيدفعهما لتوضيح الأمور، أما إذا التزما بالصمت فمن المؤكد أنه صمت ناجم عن الامتنان والعرفان بالجميل.

وكلما فكرت ازداد يقيني بأن ديميترياديس هو الجاسوس، إن القاعدة الأولى للتجسس المضاد أن يتظاهر المرء بأنه مخدوع، لذلك أظهرت له روح الودّ عقب تناول طعام العشاء في يوم الأحد، ورحنا نتنزه على حاجز المياه الخاص بالمدرسة للعصور على أية نسمة من الهواء في تلك الليلة التي تشع فيها الحرارة القابضة للصدر، قلت: شكراً لك يا ميلي فقد قضيت عطلة نهاية أسبوع جميلة في بوراني حيث استمتعت بالقراءة والسباحة والاستماع للموسيقى.

كان يريد أن يعرف مقدرتي على الإبقاء على فمي مغلقاً من أجل أن يبلغ كونشيس بذلك فيما يتعلق بالطريقة التي أمضيت بها وقتي هناك، كما شكرته أيضاً على التزامه بالهدوء التام والسرية التامة مع باقي المدرسين الآخرين.

وبينما نتسكع نظرت عبر المياه الداكنة في المضايق التي تقع في الجزيرة، فساءلت نفسي: ترى ماذا تفعل الفتاتان في تلك اللحظة وما هي المياه الداكنة الأخرى التي يركبانها؟

يوم الأربعاء.. يوم الأربعاء.. لم يكن باستطاعتي الانتظار لحين حلول يوم الأربعاء، ولذلك قمت عقب انتهاء الدراسة في مساء يوم الثلاثاء بالصعود إلى أعلى الربوة، وكنت قد أقنعت نفسي بأن هذه بمثابة رحلة بلا جدوى، ولكنني كنت مخطئاً في تقديراتي، فهنالك إلى أسفل وعلى مسافة بعيدة شاهدت ذلك الشيء رأسياً مثل لعبة أطفال في خليج موتسا مما جعل قلبي يقفز بين ضلوعي، إنه الهيكل الأبيض، لقد أدركت عندئذ أن العجوز قد استسلم.

(٤٦)

وصلت إلى البوابة حوالي التاسعة والنصف، وانتظرت لدقائق قليلة لكي أصغي فلم أسمع أي شيء وسرت بين الأشجار إلى مكان يمكنني منه أن أراقب المنزل، كان المنزل يرقد في سكون في مواجهة آخر الأضواء المنبعثة من جهة الغرب، كان هناك مصباح مضاء في غرفة الموسيقى، وكانت هناك رائحة منبعثة عن أخشاب الصنوبر التي تحترق داخل كوخ ماريا، ولدى عودتي في اتجاه البوابة انزلق هيكل أسود صغير في الهواء فوق رأسي واتجه هابطاً في اتجاه البحر بين أشجار الصنوبر: ربما هو كونشيس الساحر متمثلاً على هيئة بومة.

سرت بسرعة هابطاً إلى خارج الضيعة نحو الشاطئ: كانت الغابة

مظلمة وكان صوت الأمواج خافتاً للغاية، وفي داخل البحر شاهدت الضوء الأحمر الموجود في جانب اليخت الرأسي، لم يكن هناك دليل على وجود حياة داخل اليخت، فسرت بسرعة بين حافة الأشجار نحو الكنيسة.

كانت جولي منتظرة عند الحائط الشرقي للكنيسة، وتحركت جولي للأمام بمجرد أن شاهدتني وكانت ترتدي قميصاً داخلياً، وكان شعرها مربوطاً للوراء بواسطة شريط، توقفنا على مسافة ياردة من بعضنا وقد أصابنا الخجل والارتباك فجأة.

ـ هل تمكنت من الإفلات منهم؟

الوضع على ما يرام، وموريس يعرف أنني هنا ولم تعد هناك أعمال تجسس، فقد حسمنا النزاع.

ـ أتعنين...

ـ إنه يعرف ما بيننا، لقد أخبرته بذلك، أخبرته أنني قد أكون مصابة بالفصام وفقاً لخطته ولكنني لست كذلك في الواقع.

لم تفارق الابتسامة وجهها، ثم اتخذت خطوة للأمام وارتمت بين ذراعي، لكنني عندما حاولت أن أحتضنها في عنف في أثناء القبلة تراجعت للوراء قليلاً وقد نكست رأسها، قالت: أردتك أن تجيء، من كل قلبي.

ـ هيا بنا نسير للنزهة في اتجاه الطرف البعيد، وأمسكت بيدها وبدأنا نسير الهويني متخطيين الكنيسة ثم السير بين الأشجار، لقد قامتا بتصفية الموضوع مع العجوز بمجرد أن صعدتا إلى اليخت في يوم الأحد الماضي، وكان من الواضح أنه قد مثل دور الساذج بعض الشيء ولكن جين انفجرت في غيظ شديد بسبب ذلك الزنجي وبسبب التجسس الذي تم بالكنيسة الصغيرة، كانتا قد فاض بهما الكيل سواء أخبرهما بالأمور

التي كان يفعلها أم لا.. وتنهدت جولي تنهيدة خفيفة تتسم بالارتياب ثم نظرت إليَّ: أتعرف ما الذي قاله؟ في برود شديد وكأننا قد أخبرناه أن صنبوراً يحتاج للإصلاح؟ حسناً، هذا هو بالضبط ما كنت تأمل فيه وما كنت أتوقعه، وقبل أن نتمكن من استرداد أنفاسنا، أبلغنا أن ما حدث كان مجرد بروفة على التمثيل، كان ينبغي أن تشاهد ابتسامته، كانت ابتسامة مليئة بالزهو كأننا تلميذتين نجحتا في امتحان بالابتدائي.

- بروفة تمثيلية من أجل ماذا؟

أولاً وقبل كل شيء فإنه سيتم توضيح وشرح كل شيء لنا، فخلال عطلة نهاية الأسبوع القادم، سيجيء شخص آخر، بل أناس ومن المقرر أن يحصلوا على أدوارنا حتى الوقت الحاضر، أعمال اللف والدوران، ولكن بمعرفتنا وبواسطتنا في في هذه المرة.

من هم هؤلاء الناس؟

- لم يفصح عن ذلك، لقد أفاد أنه يريدك أن تكون هنا أيضاً.

- هل من المتوقع أن تقومي بإيقاع شخص ما آخر في أحابيلك ومغازلته؟

- ذلك كان أول شيء قلته، قلت إنني سئمت مغازلة الغرباء بعيني، وخاصة الآن.

- هل قمت بإخباره بما بيننا؟

- ضغطت على يدي وقالت: «نعم».

ثم تنهدت وأضافت: قال إنه يخشى من تفجر أسوأ الأمور بمجرد أن يقع بصره عليك.

- وما هي أسوأ الأمور؟

- إن الجبن في المصيدة الخاصة به قد يشغف به الفأر.

وقالت: إنه لا يتوقع منك أن تنجز هذا الموضوع بدون مقابل.. وذلك سيقوم بدفع الثمن لك، وعلى كل فإن ذلك لن يبدأ قبل انتهاء فصلك الدراسي وهو يريد لنا نحن الثلاثة أن نعيش وننام بأية طريقة في المنزل الموجود بالقرية، وكأننا لم نتقابل على الإطلاق مع موريس.

ـ وهل وقعت تحت هذا الإغراء؟

لاذت بالصمت للحظات ثم قالت: إنه يريد لنا أن نتظاهر بأننا بمثابة رجل وزوجته أمام الشخص الذي سيجيء إلينا مهما كان ذلك الشخص.

ـ ليس بمقدوري أن أتظاهر وأدعي فليست لي نفس مقدرتك على التمثيل.

ـ كن جاداً.

ـ إنني ملتزم بالجدية في القول.. وعلى نحو أكثر مما تظنين، ومرة أخرى مالت برأسها على كتفي ثم قالت: حدِّثني عمّا تشعر به.

ـ كل شيء يتوقف على عطلة نهاية الأسبوع القادم، عندما نعرف ما هو مخبأ لنا من مخاطر في حقيقة الأمر.

نظرت إلى الخارج في اتجاه اليخت الصامت ثم تساءلت: إلى أين ذهبتما؟.

ـ ذهبنا إلى «كيثيرا» وعدنا بالأمس.

رحت أفكر في الأيام الثلاثة الخاصة بي: تعويض ما فاتني من تصحيح الكراريس المتراكمة اللانهائية الخاصة بالتلاميذ، وتحضير اثنين من الدروس التي سأشرحها للأولاد ورائحة الطباشير والأولاد، والتفكير في قرب انتهاء الفترة الدراسية.

قلت: لقد حصلت على نسخة من رواية «القلوب الثلاثة».

ـ هل استطعت قراءتها؟

ـ بالقدر الذي يسمح لي بأن أصدق ذلك الجزء من الرواية.

التزمت بالصمت مرة أخرى للحظات، ثم قالت: يا نيقولاس، إنني سأفعل أي شيء تقوله، لسوف نرجع الآن مباشرة ونخبره، بكل جدية.

فترددت ثم ابتسمت وقلت: هل يمكنني أن أعتمد عليك إذا لم أعجب بالفصل التالي الذي سيورده؟

ـ أنت تعرف أنك يمكنك الاعتماد عليَّ.

ثم استأنفنا السير ووصلنا إلى الطرف البعيد من الخليج، كان الجوّ خالياً من النسيم، وقالت: إنني أعشق الليالي هنا، أكثر من النهار.

ـ وأنا أيضاً.

ونزلنا إلى منطقة المياه، وركلت قدميها خالعة حذاءها، وخلعت أنا حذائي أيضاً، تركتني أقبلها مرة أخرى وأمسكت بها في إحكام ثم همست في أذنها: مازلت أذكر الحالة التي كنت عليها في الكنيسة.

كنت أشعر بأن جسدي متفكك، لقد جعلتني أشعر وكأنني مازلت عذراء.

ـ ألم يكن في حياتك رجال آخرون؟

ـ واحد أو اثنان

وعدنا مرة أخرى إلى داخل الأشجار وصعدنا المنحدر وكانت هناك كتلتان من الصخر الجلمودي قد سقطتا منذ الماضي السحيق فوقفنا عند صخرة منهما، ثم جلست معطياً ظهري لهذه الصخرة، واستندت جولي عليَّ، مددت يدي وفككت الشريط الموجود حول شعرها الطويل.

ـ هل نمت مع فتيات كثيرات؟

ـ ليست هناك واحدة مثلك، لم يسبق لي أن احتفظت بفتاتين في آن واحد، أدركت أن تساؤلها يخلو من الكياسة، فأضافت قائلة: لم أن

أكن أقصد.. ولم يكن ذلك موضوعاً أرغب في التحدث عنه في إسهاب لكنه يحمل في طياته انبهاراً بها مادام أنه قد تم التطرق إلى هذا الموضوع.

قلت: لا أستطيع أن أنظر إلى هذا الموضوع نظرة باردة مثلما تفعل جين.

ـ هل جين لا تبدي نحوي الكثير من المشاعر الشخصية؟

ـ أنت تحصلين على موافقتها، بالنسبة للأمور الجديرة بذلك، لقد شعرت بالكراهية نحوها في يوم الأحد وشعرت بالكراهية نحوك لأنك لم تشعري بالكراهية نحو أختك.

ضممتها إليَّ قليلاً، وقلت أعرف المقدرات العقلية التي أفضلها.

وساد السمت، أمسكت بيدي وراحت تتحسس أصابعي وقالت: لقد جئنا إلى هنا الليلة الماضية «لماذا؟».

ـ كان الجو قائظاً، ولم نستطع النوم، فجئنا للسباحة في البحر، كانت هي تأمل أن يبزغ من بين الأشجار راعي أغنام يوناني محبب للنفس.

أما أنا فقد كنت أفكر في الراعي الإنجليزي الخاص بي.

لم تقل أي كلام للحظات ومع ذلك كان باستطاعي أن أدرك أنها تبتسم، ارتفعت بهامتها وهمست في أذني: لماذا يرغب الرجال في أن يعرفوا من خلال التعبيرات بالكلمات؟

وفي اللحظة التالية هبت واقفة على قدميها وجذبتني لكي أقف على قدمي، ورجعنا عائدين إلى الشاطئ، كان الضوء الأحمر يطفو سابحاً على جانب اليخت الأبيض، وكانت هناك ومضة من الضوء تنفذ من الأشجار العالية الموجودة في مواجهة المنزل، أمسكت بأطراف قميص نومها ورفعت يديها لأعلى لكي أقوم بخلع قميصها من فوق رأسها، ثم

أدارت ظهرها لي لكي أقوم بفك صديرية الثديين، بينما راحت تعبث بيديها في جونلتها، وانزلقت بيدي إلى الأمام، وسقطت جونلتها لأسفل، واستندت بظهرها عليَّ للحظات قليلة وغطت بيديها يدي لكي تسكتهما وتثبتهما على صدرها، قمت بتقبيل منحنى رقبتها، ثم سارت نحو الماء بشعرها الطويل وقوامها الرشيق الشاحب مع وجود شريط أبيض وضيق حول خصرها، صدى ليلى لأختها على نفس الشاطئ عندما كانت أختها غارقة تحت وهج الشمس منذ ثلاثة أيام مضت، وقمت بخلع ملابسي، ودون أن تنظر وراءها اقتحمت المياه مع إحداث طرطشة خفيفة وبدأت في العوم في اتجاه اليخت على بطنها، وبعد نصف دقيقة كنت إلى جوارها وانطلقنا معاً لمسافة أبعد، ثم توقفت وابتسمت لي، كان ذلك بمثابة مسرحية هزلية تتم بطريقة فجائية، بمثابة حركة، جريئة يتم إنجازها قالت: سأطفو عائمة على سطح الماء، لقد تعلمت كيف أفعل ذلك منذ فترة قصيرة، ثم مدت ذراعيها وطفت فوق الماء على ظهرها كطفلة تستعرض مهارتها، كانت مستلقية على ظهرها وقد أغلقت عينيها وبدت بشعرها المبلل أصغر سناً، وكان البحر هادئاً للغاية ومثل زجاج أسود اللون.

ـ أنت تشبهين أوفيليا.

ـ هل أدخل نفسي في دير للراهبات؟

ـ لم أشعر أبداً بأنني أقل من هاملت لعلك الشخص المغفل الذي نصحني أن أتزوجه.

دفعتي نفسي قليلاً مقترباً منها ثم قلبت الجزء الجانبي من جسدها، وحاولت أن أعضها في رفق ولكنها دفعتني بعيداً عندما التوت وغاصت تحت الماء مرة أخرى، وكان هناك قدر من الهياج في الماء عندما حاولت احتضانها، ومنحتني قبلة عابرة من فمها ثم سبحت على بطها عائدة إلى الشاطئ.

فجأة تفجر الصمت والسماء اللامعة بالنجوم والإثارة الجنسية في داخلي أدارت رأسها في عنف وتعلقت بي وبعد لحظات سمعتها تهمس قائلة: أيها المسكين، الوقت غير ملائم.

ـ ما باليد حيلة، فأنت تثيرين مشاعري إلى درجة كبيرة.

ـ لا أريد أن تتمالك نفسك، سحبت نفسها قليلاً ودفعت بإحدى يديها لأسفل خلال الماء لتحول بيني وبينها، وأوقفتني فجأة، بدأت تمشط أصابعها من خلال الماء ثم همست مرة أخرى: أتريد مني أن أفعل ذلك.

ـ حمقاء.. عبيطة.

فأصابها التردد ثم انزلقت بيديها اليمنى حول وسطي بينما وضعت يدي اليسرى على كتفاها وجذبتها إلى جانبي، وتحسست يدها اليسرى لأسفل وراحت تربت وتلمس واتجهت بيدها إلى أعلى الجذع وأمسكت واعتصرت، وبدت الأصابع خالية من الخبرة وخائفة من الأضرار، بدأت أفقد الإحساس بكل ما يدور حولي، لم يكن هناك شيء سوى لسانها وعريها الضاغط وشعرها المبلل، كنت مستعداً أن يستمر هذا الوضع طوال الليل.

هذا الإغواء من جانبها هو إغراء على الاندماج، باعدت قليلاً ما بين قدمي لكي أتمكن من الوقوف في مزيد من الثبات والتفت إحدى ساقيها حول ساقي، بدت الرغبة الجنسية جامحة للغاية، ويبدو أنها أدركت بغريزتها الفطرية أنني لم أعد أرغب في الممارسة معها لكنها ظلت متشبثة بي بدت مبتدئة قليلة الخبرة.

وتفكك جسدها، وخففت من قبضة يدها عليَّ ثم راحت تربت لأعلى على بطني، وأدرتها بقوة وقبلتها قد أصابتني الدهشة بعض الشيء بسبب ذلك النزول السريع عن الأفراط في الاحتشام، ساورتني الشكوك

أن الفضل في ذلك يرجع إلى معاكسات أختها ربما كان في داخل جولي نفسها رغبة داخلية أن يحدث شيء كهذا، وقفنا متشبثين ببعضنا البعض بدون أن نكون بحاجة لأن نتكلم بعد أن تحطم الحاجز الأخير بيننا، راحت تقبل بشرتي في رفق، ثم قالت: ينبغي لي أن أذهب الآن، لأن جين في انتظاري، وتبادلنا قبلة أخيرة سريعة.

ثم سبحنا في الماء إلى حافة الشاطئ وسرنا عائدين بحذاء حافة الماء إلى بوراني وقد تشابكت أذرعنا، وهبط عليَّ إدراك حدسي بأن ذلك يعني الكثير بالنسبة لها... كان بمثابة نوع من إعادة الاستكشاف لقواها الجنسية الكامنة من خلال الإشباع الجنسي الذي حدث لي، ومن خلال الليل والدفء والسحر القديم لبلاد اليونان الضارية الوحشية، بدأ وجهها أكثر نعومة وبساطة لم أعد بحاجة للحصول على إجابات على الخطابات التي أرسلتها.. لحظة فوق السطح أو تحت الماء ولكنها كانت لحظة متقاسمة بين الطرفين ومطلوبة على كلا الجانبين قمت فجأة بجذبها نحوي في أثناء سيرنا فالتفتت إليَّ ورفعت فمها في لهفة كما لو كانت قد تواجدت داخل عقلي وقرأت أفكاري، كان كل شيء غاية في الوضوح والشفافية بيننا.

اصطحبتها عائدين إلى داخل الأراضي وتكلمنا همساً عن عطلة نهاية الأسبوع القادمة، إلا أن كل ذلك تقلص، فالعجوز كان عند كلمته حيث لم يتم التجسس علينا، لقد تم إعطائي إذناً رسمياً فمهما حدث فإن الصيف كان ملكاً لنا بل كل الحياة كانت ملكاً لنا.

قبلتني واستدارت بسرعة وجرت عائدة إليَّ وقبلتني مرة أخرى، ثم شاهدتها تنزلق تحت صف الأعمدة وتختفي.

رغم أنني كنت أشعر بالإرهاق فإنني سرت على المدق الصاعد على التل متجهاً إلى القمة من أجل أن أجفف ملابسي المبللة، ولم أفكر في أن النهار على وشك البزوغ وإنني أعاني من النقص في النوم وإنني قد

أكافح لكي أظل مستيقظاً في أثناء وجودي في الفصل أمام التلاميذ، لقد سحرتني جولي وسلبت عقلي واستحوذت على مشاعري، وكأنني عثرت على أميرة ناعسة، وأنها استيقظت في حالة من العشق الشديد بل من الشهوة الجنسية العميقة متلهفة كي تطرد من داخلها كل التجارب المريرة الخاصة بممارسة الجنس معها، وتخيلت جولي وقد اكتسبت كل تجارب آليسون وكل انفعالاتها العاطفية المتقدة وكل دلالها وعلاوة على ذلك فإنها تتصف بسعة الأفق وسمو الذوق وشدة الذكاء بالإضافة إلى تذوقها للشعر والنواحي الفنية، ظللت ابتسم أثناء سيري، كنت قد بدأت أحفظ عن ظهر قلب طريقي الذي يتغلغل في الغابة الشبحية المليئة بأشجار الصنوبر، لم أشاهد أي شيء في أثناء سيري، لاشيء سوى الجسد المفعم بالرغبة:

بدأت أسترجع ذلك السر الغامض الذي جعلني ألتقي بجولي، إن ذلك السر الغامض هو كونشيس وأهدافه، لو كان لديك مجموعة حيوانات متوحشة محبوسة في سيرك فإن كل اهتمامك ينصب على الاحتفاظ بالحيوانات دون أن تملي عليها ما ينبغي أن تفعله داخل القفص، فكونشيس قد أقام حولنا حواجز جنسية نفسية جعلتنا مربوطين بالسلاسل في بوراني، كان يعتقد أنني والفتاتين لاخبرة لنا في الحياة، ولكننا استطعنا أن نكشف خيانته.

كانت الأشجار أقل كثافة حيث ترتفع الأرض في انحدار شديد نحو الجرف الصغير، توقفت للحظات لكي ألتقط أنفاسي والتفت إلى الوراء نحو بوراني، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل، والجزيرة بأكملها غارقة في النوم، وتحت الضوء الفضي الخافت للقمر شعرت بمشاعر العزلة في الفلسفة الوجودية، شعرت بالوجود بمفردي في عالم تقدمه الليالي الصامتة أحياناً.

سمعت صوتاً من ورائي، إنه صوت خفيض كفيل بأن يجعلني أخرج

عن المدقّ بسرعة وأستتر وراء شجرة صنوبر، لقد قام شخص بإلقاء حجر، وسادت فترة صمت على مدى ١٥ ثانية أو أكثر، تجمدّ الدمّ في عروقي بسبب الصدمة كان هناك رجل واقف فوق قسمة المنحدر العالي ثم تبين لي وجود رجلين آخرين وكان باستطاعتي سماع الصوت الخافت لأقدامهم فوق الصخر وسماع الطقطقة المكتومة لشيء معدني كان هناك ستة من الرجال ستة ظلال رمادية واقفة على طول خط السماء، رفع أحدهم ذراعاً وأشار بيده ولكنني لم أسمع أية أصوات آدمية، هل هم من أهالي الجزيرة؟ إنهم نادراً ما يستخدمون الجبال في فصل الصيف، أدركت فجأة حقيقة هويتهم، لقد كانوا جنوداً، إذ أصبح بمقدوري مشاهد الخطوط الخارجية غير الواضحة لبنادقهم ورؤية اللمعان الخفيف لإحدى الخوذات.

كانت هناك مناورات حربية يونانية بالأراضي الرئيسية اليونانية منذ شهر مضى، مع وجود زوارق خاصة لإنزال الجنود إلى البر، من المؤكد أن هؤلاء الرجال يقومون بتدريبات على غرار العمليات الفدائية التي تهدف إلى اقتحام أرض العدو.

استدار أحد الرجال إلى الوراء وتبعة الآخرون، أدركت حقيقة ما حدث، لقد جاءوا على طول الممر الذي يؤدي لأسفل إلى بوراني.. ومما أكد تخميناتي أنني سمعت فرقعة مثل التي تحدث في الألعاب النارية، شاهدت ضوءاً لامعا في السماء، كان من الواضح أن هؤلاء الجنود الستة بصدد القيام «بهجوم» على موقع ما في الجانب الآخر من بوراني، نظرت حولي، هناك مجموعة من الصخور تضم شجيرات صغيرة تكفي لتوفير الحماية لي، جريت تحت الأشجار، ألقيت بنفسي في مكان منخفض يقع بين صخرتين.

وبعد ثوان حدثت حركة شاحبة اللون فأدركت أنني كنت صائباً في رأيي، إذ بدأ الرجال يهبطون لأسفل، ربما كانوا مجموعة من الصبية

القادمين من أبيروس، ضغطت نفسي بقدر ما أستطيع أدركت أنهم قد جاءوا سائرين على صف واحد وعلى مسافة ثلاثين ياردة بدأت أنظر في تلصص من خلال الأغصان التي كانت تحميني.

وقفز قلبي بين ضلوعي، إنهم يرتدون الملابس العسكرية الألمانية، وللوهلة الأولى اعتقدت أنهم قد ارتدوا هذه الملابس لكي يقوموا بدور «العدو» في أثناء المناورات العسكرية، إلا أن ذلك التصرف كان أمراً لا يقبله العقل خاصة بعد الأعمال الوحشية التي تمت في أثناء الاحتلال ولذلك لا يمكن لأي جندي يوناني أن يرتدي الزي العسكري الألماني حتى ولو من أجل تدريبات، عندئذ بدأت أدرك حقيقة الموقف، لقد انتقلت المسرحية التنكرية إلى خارج الضيعة كما أن ذلك الشيطان العجوز لم يستسلم على الإطلاق.

وكان الرجل الأخير يحمل بقجة أكبر من التي يحملها الآخرون، وهنا لاحت الحقيقة كالوميض في داخل ذهني، إذ أدركت في لمحة خاطفة أن ديميترياديس كان له زميل جاسوس بالمدرسة، كان رجلا يونانياً متين البنيان وقليل الكلام وكان أحد المدرسين الذين يقومون بتدريس العلوم، ولم يسبق أن دخل غرفة المدرسين حيث كان يوجد معملة، كان زملاؤه يطلقون عليه اسم «الكيميائي» تفكهاً، تذكرت أن ذلك الرجل كان من الأصدقاء المقربين لباتاريسكوبل أنه كان لديه جهاز إرسال في معمله نظراً لأن بعض التلاميذ يرغبون في أن يصبحوا ضباط لاسلكي، أصبح كل شيء واضحاً للغاية فذلك هو السبب في أنهم يعرفون دائماً أنني قادم.

لقد ذهب الرجال، ومن المؤكد أنهم كانوا يلبسون أحذية من المطاط يحملون أمتعتهم في مهارة لكي لا يحدثوا سوى قدر ضئيل من الأصوات، وكان من الواضح أن سيرى بسرعة أفسد حساباتهم وتلك الشعلة المتوهجة لم تكن سوى إشارة متأخرة تفيد أنني متجهة في

طريقي، روادتني الرغبة في السير وراء الرجال لكي أعرف المكان الذي يهدفون إليه، لكنني تذكرت تدريباتي العسكرية، لا تذهب في دورية في ليلة خالية تماماً من الرياح على الإطلاق إذا كان باستطاعتك أن تتجنب ذلك، وتذكر أن الشخص القريب أكثر من القمر يستطيع أن يشاهدك على نحو أوضح من مشاهدتك أنت له.

وعند قمة السلسلة الجبلية كان على أن أعبر الأراضي المكشوفة قبل أن تنحدر الأرض.

وما إن قطعت نصف المسافة فوق تلك المساحة المكشوفة، حتى سمعت صوت فرقعة، أغرقت سلسلة الجبال في ضوء باهر، فألقيت نفسي على الأرض محولاً اتجاه وجهي، ثم تلاشى الضوء، ثم سارعت الخطي نحو أشجار الطرفاء، واحتميت في داخلها محاولاً معرفة طبيعية الخدعة الجديدة التي يلعبها كونشيس، ثم سمعت وقع أقدام تجري على طول سلسلة الجبال من ناحية الاتجاه الذي تفجرت فيه الشعلة، وبدأت أسرع هابطاً المدقّ بين الشجيرات التي يصل ارتفاعها إلى سبعة أقدام.

ووصلت إلى منحنى منبسط أكثر اتساعاً على المدق حيث يمكنني الجري بسرعة أكبر، وفجأة تم الإمساك بقدمي فارتميت للأمام، وشعرت بطعنة بحافة حادة لقطعة من الصخر، وضربة عنيفة أليمة في ضلوعي، فسمعت أنفاسي تحدث صوتاً متفجراً في داخل رئتي مع الاصطدام وسمعت صوتي وأنا أقول في صدمة بالغة «أيها السيد المسيح» شعرت بدوار شديد للحظات ولم أستطع أن أتبين حقيقة ما حدث، لقد صدر أمر عسكري بصوت منخفض من وراء الأشجار، إنه صوت ألماني الطابع على ما يبدو.

وأصبحت محاطاً برجال يرتدون ملابس الجنود الألمان السبعة، زحفت على ركبتي بينما رحت أمسح الحبيبات الرملية الخشنة العالقة في يدي، وقف رجلان ورائي وأمسكاني من ذراعي لكي أنهض واقفاً،

بينما وقف رجل آخر وسط المدق، كان من الواضح أنه قائد المجموعة، لم يكن يحمل بندية مثل الآخرين، وإنما كان معه مسدس فقط، نظرت إلى البندقية التي يعلقها الرجل الواقف إلى يساري على كتفه، إنها بندقية حقيقية، بل كانت ملامح الرجل ألمانية وليست يونانية.

وتكلم الرجل الذي معه المسدس مرة أخرى فانحنى رجلان يقفان على جانب المدقّ، ثم أطلق الرجل الذي معه المسدس صفارة في هدوء، فنظرت إلى الرجلين اللذين بجواري، وتساءلت: هل تتكلمان اللغة الإنجليزية؟ فلم يبديا أدنى اهتمام واكتفيا بهز ذراعي لكي ألتزم الصمت، فقلت لنفسي: عليَّ أن أنتظر إلى أن أرى كونشيس، وقف الجاويش في منتصف المدقّ وقد أعطى ظهره لي وتجمع الرجال الآخرون وراءه ثم جلس اثنان منهم على الأرض، كانوا جميعاً من الألمان وليسوا مجرد يونانيين يعفون كلمات ألمانية، وقلت للجاويش: عندما تنتهي من هذا التهريج آمل أن أعرف الأسباب التي تدعوني إلى الانتظار هنا، استدار الرجل نحوي، لم تبد عليه الوحشية، وإنما بدا كأنه يؤدي دوره.

ظل محملقاً في وجهي، كان يشعر بالارتياح لأنه شاهدني أخيراً، ثم استدار مبتعداً وخفف العساكر من قبضتهم عليَّ، لو كنت أشعر بأنني أقل انهياراً لفكرت في الهرب، ترامى إلى سمعي وقع أقدام عند الحافة الجبلية فوقي، وبعد ثوان قليلة بدأ الرجال الستة يهبطون المدقّ في طابور.

كان الولد الممسك بي من جهة اليمين في حوالي العشرين عاماً، وبدأ يصفّر بصوت منخفض، وفي خلال هذا الأداء التمثيلي المقنع ـ على الرغم من تعليقي عليه بأن تهريج ـ أخذ يصفر بنغمة واضحة المعالم بعض الشيء لأن اللحن كان هو لحن «ليلى مارلين» الشهير بدا

كأنه لا يعرف سبب وجوده هنا ولا يعرف من أنا وليست لديه الرغبة في أن يعرف فكل ما يهمه أنه ينفذ الأوامر الصادرة له.

ورحت أعدّ ثلاثة عشر رجلاً نصفهم من الألمان، وتكلفة إحضارهم إلى الجزيرة، وتكاليف التدريب على البروفات، وتكاليف عودتهم من الجزيرة إلى ألمانيا، لا يمكن أن يتم ذلك في حدود ٥٠٠ جنيه، ترى لماذا؟ هل من أجل إخافة، أو إبهار شخصي بلا أهمية، شعرت أن موقفي من الأحداث قد تغير، فهذا المشهد كان محكم الإعداد للغاية، ووقعت تحت تأثير تعويذة الساحر كونشيس مرة أخرى، كنت خائفاً لكنني كنت منبهراً، وبعدئذ ظهر المزيد من وقع الأقدام.

ثم ظهر رجلان آخران، أحدهما قصير نحيل، جاء هابطاً بخطوات واسعة أما الآخر فأطول منه وكلاهما كان يرتدي قبعة الضباط ونهض الجنود لدى مروره بجوارهم ولكنه حرك يده في رشاقة نحوهم لكي يأخذوا راحتهم، وشق طريقه نحوي مباشرة، وكان من الواضح أنه ممثل تخصص في القيام بدور الكولونيل الألماني، بدأ وجهه جامداً، وكل ما ينقه هو نظارة ذات عدسات مستطيلة وإطار من الصلب قلت: مرحباً.

فلم يجب، ونظر إليَّ نظرة أشبه بنظرة الجاويش، أما الضابط الآخر فكان برتبة ملازم على ما يبدو، أنه ضابط مرافق، لاحظت أنه يعاني من عرج خفيف سألت وأين المنتج؟

أخرج الكولونيل علبة سجاير من جيبه الداخلي سحب منها سيجارة وعندئذ تقدم الضابط الملازم نحو الكولونيل لكي يشعل له السيجارة.

أكملت يهمني أن أقول إنكم تؤدون دوركم في إتقان.

أشاح بوجهه، وقال كلاماً ما باللغة الألمانية ثم صعد الممر إلى المكان الذي كان يقف فيه «الجاويش» كان هناك شيء غريب في نظرات

«الملازم» كأنه يرغب في أخباري بشيء ما ولكنه لا يستطيع ذلك، راح يتفحص وجهي بحثاً عن إجابة ثم التفت في شيء من الارتباك، مستديراً على عقبيه ولحق بالكولونيل ثم سمعت أصواتاً ألمانياً خافتة وبعدئذ سمعت أمراً عسكرياً متقضباً صادراً عن الجاويش.

ووقف الرجال لدى سماع الأمر العسكري ولسبب لا أعرفه اصطف الرجال على جانبي المدقّ ولم تكن وقفتهم هي وقفة انتباه عسكرية، ظننت أنهم بصدد أن يأخذوني إلى مكان، وأمسك الجاويش بالمصباح الذي ألقى دائرة من الضوء حولي، وأدركت أن للمصباح وظيفة درامية.

وساد صمت شديد للغاية، كان دوري هو دور المتفرج على نحو ما، وليس الشخصية الرئيسية في المسرحية، وأخيراً سمعت أناساً آخرين يجيئون، وبزغ في الأفق هيكل لا يحمل الطابع العسكري، وخطر على ذهني أنه مخمور، لكنني أدركت أن يديه مربوطتان خلف ظهره وأنه سجين مثلي تماماً، كان يرتدي بنطلوناً داكنا لكن الجزء العلوي من جسده كان عارياً، وكان أحد الجنديين يقوم بنخسه، حيث كان يتوجع، ولدى اقترابه مني أدركت أن الزمام ينفلت من المسرحة التنكرية، وقف إلى جواري، إنه شاب قصير القامة يبدو أنه يوناني، كان وجهة مليئاً بالكدمات وكان أحد جانبي وجهة غارقاً في دماء منسابة من جرح بالقرب من عينه اليمنى، وكان يبدو عليه أنه يشعر بالدوار وأنه غير قادر على الكلام، ولم يلحظ وجودي إلى جواره، عندما توقف عن المشي ونظر إليّ في وحشية، حيث أدركت أنه شاب قروي أمسكوا به وضربوه ضرباً مبرحاً، وفجأة قام العسكري الواقف وراءه بلكزه وفي وحشية في الجزء الأسفل من عموده الفقري رأيت شهقة الألم الحقيقية التي نجمت عن اللكزة، زلت قدمه وهو يندفع متعثراً لمسافة ياردات وعندئذ بصق الكولونيل بكلمة واحدة، فتقدم الحراس وأوقفوا الشاب وتحرك الكولونيل هابطاً لأسفل إلى أن أصبح أمامي مباشرة بينما سار «الملازم»

في عرج إلى جواره، وساد الصمت، لا شيء سوى الأنفاس اللاهثة، جاء هيكل آخر وقد ربطت يداه خلف ظهره وقد وقف وراءه جنديان مثل زميله، هنا أدركت طبيعة الموقف والمكان، لقد رجعت إلى عام ١٩٤٣ وكنت أنظر إلى أفراد المقاومة الذين يتم إلقاء القبض عليهم.

وكان من الواضح أن الرجل الثاني الذي ألقى القبض عليه هو القائد، نزل هابطاً على المدقّ في اتجاهي، كان له وجه لصّ وكان ذا شارب كثيف، لقد سبق أن شاهدت مثل هذه الوجوه في البيلوبونيسوس، كان باستطاعتي مشاهدته واقفاً في صورة فوتوغرافية مطبوعة في أوائل القرن التاسع عشر مرتدياً الأزياء الفلكلورية وقد وضع المسدسات في حزامه، ومتخذاً شكل اللصّ النبيل، كان يرتدي الزي الكاكي الذي يخص الجيش البريطاني في أثناء المعارك الحربية، إنه حافي القدمين رفض أن يتعثر، كان أقل انهياراً من الرجل الآخر وربما كان الجرح هو السبب في ذلك.

وعندما أصبح موازياً لي توقف عن المشي ثم نظر إلى ما وراء الكولونيل والملازم نحوي مباشرة، وفهمت أنه كان يراد له أن يتعرف عليَّ بدت نظراته مليئة بالكراهية وباليأس الغاضب، التزم الصمت للحظات، وبعدئذ همس بكلمة واحدة باللغة اليونانية «خائن»، بدا مندمجاً في دوره، وفي شبه وعي كأنني أحسست أنه يجب عليَّ أن أصبح ممثلاً، فأنا لم أدل بتعليق صغير وتم ركلة مرة أخرى، ألقى عليَّ نظرة حارقة إلى الوراء عبر ضوء المصباح الممتد لعشرة أقدام، ثم قال الكلمة مرة أخرى كأنني ربما لم أتمكن من سماعها في المرة الأولى، ما إن قالها حتى صدرت صرخة على هيئة صيحة تعجب، فألقى الكولونيل أوامره في سرعة وخشونة: لا تطلقوا الرصاص.

فشدد الحراس من قبضتهم عليَّ، لقد أفلت الرجل الأول هارباً وغاص داخل الأشجار، واندفع وراءه الحارسان ثم اصطف ثلاثة جنود

على المدقّ، وصدرت صرخة اشمئزاز مليئة بالألم وترامى صوت الركل لجسد وضربه بمقبض البنادق.

هنا التفت الملازم:

ونظر الملازم نحو أعماق الليل، وكان يتعمد أن يجعلني أفهم أنه تضايق من هذه الوحشية، أما الكولونيل فقد ألقى نظرة محملقة على الملازم، ثم تكلم باللغة الفرنسية لكي يفهم الحراس كلامه، يا صديقي الملازم هذه هي أجمل موسيقى في العالم.

كانت لغته الفرنسية مثقلة بالنبرة الألمانية، وضغط بشفتيه في تهكم على كلمة «موسيقى»، لقد كان من النوع الألماني، السادي النزعة أما الضابط «الملازم» فكان ألمانيا مهذباً وطيباً.

وبدا على الملازم أنه على وشك أن يقول شيئاً ولكن سكون الليل تمزق فجأة، لقد صدرت الصيحة عن قاطع الطريق النبيل ومن المؤكد أن الصيحة ترددت في أرجاء الجزيرة كنت أدرك أن كان تمثيلاً لكنه تمثيلاً كان رائعاً جاءت الصرخة مزعجة كالنيران، كانت أقرب إلى العواء الشيطاني منه إلى أيّ شيء آخر، ولكنه عواء مكهرب نابع من أعمق الأعماق.

وإلى أسفل المدقّ شاهدتهم يجرون الرجل الآخر من بين الشجيرات.

لم يكن قادراً على الوقوف فكانوا يجذبونه من ذراعيه، ثم أسقطوه في منتصف المدق فارتمى على جانبه وراح يتوجع، نزل الجاويش وأخذ زجاجة ماء من أحد الجنود وصب الماء على وجهه، فبذل الرجل محاولة لكي يقف على قدميه، تكلم الكولونيل، فانقسم الجنود إلى قسمين بينما كان الأسرى في الوسط وبدأوا في التحرك، وفي خلال دقيقة صرت بمفردي مع الحارسين والكولونيل والملازم.

سار الكولونيل نحوي، وتكلم بلغة إنجليزية واضحة، لم ينته

الموقف بعد، ارتسمت ابتسامة خفيفة خالية من روح الفكاهة على وجهه، يشع منها التهديد، كما لو كان يقصد أن نتيجة هذا المشهد أصعب مما رأيته، وأن الفكر النازي سيتم بعثه من جديد ثم استدار وشرع في السير وراء الجنود هابطاً على المدق فذهب معه الملازم فناديت صائحاً: وما هو الشيء الذي لم يتم بعد؟.

لم أتلق أية إجابة على تساؤلي، واختفى الهيكلان الداكنان ـ بينما الهيكل الأكثر طولاً يمشي في عرج ـ بين الحوائط اللينة الشاحبة لأشجار الطرفاء، فالتفت ناظراً إلى الحارسين وسألت: وماذا بعد الآن؟

ورداً على تساؤلي وجدت نفسي مرغماً على الجلوس، وبعد دقيقة كانا قد ربطا قدمي في حبل، ثم نقلاني عند صخرة جلمودية كي أتمكن من أن أسند ظهري عليها، ووضع الجندي الأصغر سناً يده في الجيب العلوي لسترته وألقى إليَّ سجاير، وتحت ضوء عود الثقاب الذي أشعلته رحت أنظر إليهما، بدت نكهة السيجارة كريهة للغاية فعمرها عشر سنوات على الأقل وكما لو كانوا قد أطيح بهم فاستخدموا سجاير من علبة صفيح يرجع تاريخها إلى فترة الحرب، ومن المؤكد أن مذاق تلك السجاير كان طازجاً في عام ١٩٤٣.

بذلت محاولات متكرر لكي أتكلم معهما ولكنهما كانا يجلسان في تبلد وبلاهة أمامي على الناحية الأخرى من المدق، ولم يتحدثا بأكثر من عشر كلمات معاً وكان من الواضح أن التعليمات صدرت إليهما بعدم التحدث معي.

وبعد قليل سمعت صوت أقرب إلى صوت ديزل خاص بزورق، لقد صعدت شخصيات المسرحية إلى ظهر السفينة مرة أخرى، ومن المؤكد أن الحارسين الخاصين بي كانا ينتظران سماع ذلك الصوت، إذ وقفا، ورفع أحدهما سكيناً لكي أراها ثم ألقى بها في نفس المكان الذي كانا يجلسان فيه، ثم شرعا في السير بعيداً ـ ولكن ليس في نفس الاتجاه

الذي سلكه الآخرون، إذ صعدا على المدقّ عائدين إلى السلاسل الجبلية الرئيسية ومنها هبطا إلى بوراني.

وبمجرد أن تأكدت من انصرافهما رحت أزحف على الحجارة في اتجاه السكين، كانت سكيناً غير حادة وكان الحبل جديداً فلم أتمكن من فك قيودي إلا بعد عشرين دقيقة من الغيظ، ثم تسلقت راجعاً دقيقة إلى الحافة الجبلية إلى حيث يمكنني إلقاء نظرة نحو الشاطئ، بالطبع كان الشاطئ ساكناً، كان اليخت مازال راسياً، وبمقدوري سماع صوت الزورق متجهاً بعيداً وفكرت في الانقضاض في غضب على بوراني وإيقاظ الفتاتين من النوم، والإمساك بلحية كونشيس في غضب طالبا منه تقديم تفسير لما حدث ولكني كنت أشعر بالإرهاق الشديد وكنت واثقاً ببراءة الفتاتين شعرت ـ علاوة على مشاعر الغضب المتفجرة في داخلي بالرهبة القديمة من الأعمال التي يقوم بها كونشيس، كنت بمثابة رجل متورط داخل أسطورة خرافية وغير قادر على فهم كنهها وطبعتها ولكنه يدرك على نحو ما أن فهمه لها يعني أنه ينبغي لها أن تستمر عندما ظهرت في الفصل في صباح اليوم التالي، كان الجو مزعجاً حيث لم يكن به نسمة من الهواء، البحر فقط هو الذي ظل باقياًعلى قيد الحياة، ولم أبدأ في التفكير في شيء من التماسك إلا بعد أن انتهت الفترة المدرسية ظهرا حيث أمكنني أن ألقى بنفسي في الماء وأن أستلقى في ارتياح بين طياتها الزرقاء.

خطر على ذهني شيء واحد أن جميع الجنود الألمان باستثناء الممثلين الرئيسين، كانوا صغار السن للغاية، ولأننا في أوائل شهر يوليو فهذا معناه أن الفترات الدراسية في الجامعات الألمانية واليونانية قد انتهت، فإذا كان لكونشيس علاقة بإنتاج الأفلام فأنه يكون قد تمكن من الحصول على بعض الطلبة الألمان وإحضارهم بسهولة للعمل لأيام قليلة معه وبعدئذ يقضون إجازاتهم في بلاد اليونان، وما لم أستطع تصديقه

هو أنه قد أحضرهم لليونان لكي يستخدمهم مرة واحدة فقط، إذ كنت أتوقع من كونشيس المزيد من السادية، فهو ما هدد به الكولونيل.

سبحت طافياً على ظهري وقد نشرت ذراعي وأغلقت عيني، كانت مشاعر الغضب المتفجرة في داخلي قد هدأت كثيراً، وكنت في الصباح قد لاحظت وجود شيء ما يتسم بالفضول في عيني ديميترياديس - والإجراء الوحيد الأكيد من جانبي هو ألا أفعل ما هو متوقع، ومع التفكير في الأمر مليا اعتقدت أنه لا يوجد أي خطر داهم على الأختين، مادام أنه يعتقد أنهما قد ضللتا فإنهما في حالة من الأمن والأمان، وإذا كان عليَّ أن أخلصهما من ذلك الوضع فمن الأفضل أن أنتظر إلى أن تصبحا أمامي وبدا لي أن من السخف أن أغضب من الطريقة التي تم بها تنفيذ ذلك الأمر في حين أن الحقيقة المذهلة تشير إلى أن ذلك تم بأية حالة من الأحوال.

وجاءت الخطابات في أثناء فترة تناول طعام الغذاء، جاءتني ثلاثة خطابات، كان أحدهما نادراً حيث جاءني من عمي الموجود في روديسيا، أما الخطاب الثاني كان مرفقاً به النشرات الإخبارية التي أرسلتها القنصلية البريطانية في أثينا، أما الخطاب الثالث فقد عرفته من الخط اليدوي المكتوب به، شققته، فسقط من المظروف نفس الخطاب الذي أرسلته لآليسون، وكان لا يزال مغلقاً كما هو ولم يكن هناك أي شيء آخر في المظروف، وعند عودتي إلى غرفتي وضعت الخطاب في طفاية السجائر دون أن أفتحه وأشعلت فيه النيران.

وفي اليوم التالي وصلني خطاب آخر في أثناء تناول الغذاء وعرفت من الخط الشخص الذي أرسله ولم أفتحه إلى أن غادرت غرفة الطعام وكان ذلك تصرفا سليماً لأن محتوياته المقتضبة جعلتني أسب وألعن بصوت مرتفع، كان خطابا وحشياً وغير متوقع مثل صفعة على الوجه، وكان بدون تاريخ وبدون مكان وبدون عنوان:

«أي زيارات أخرى تقوم بها لبوراني ستبوء بالفشل الذريع، ولا أعتقد أن علي أن أوضح لك الأسباب، لقد خيبت ظني وسببت لي الإحباط بشكل شنيع.

موريس كونشيس

وعلى الفور غرقت في حالة من الإحباط المذهل فبأي حق أصدر مثل هذا القرار الاستبدادي؟ لقد كان قراراً غامضاً ومتناقضاً مع كل شيء سمعته من جولي فذلك الاتهام بالخيانة والغدر قد اكتسب دلالات جديدة وأدركت في شيء من القشعريرة أن مشهد الاحتلال ربما كان يعني أيضاً أنه المشهد الختامي وأنه إنذار بالطرد، طوال اليوم كنت أتوقع مجيئهما إليَّ بالمدرسة، من المؤكد أنهما فهمتا كل جوانب شخصيته وراودتني أفكار بأن أتوجه إلى قسم الشرطة وأتصل بالسفارة البريطانية في أثينا ولكنني عدت تدريجياً إلى ضبط النفس، تذكرت جولي ليس لأنها الجسد العاري في البحر ولكن أيضاً لثقتها بعلاقتنا الفردية وعندما ذهبت للنوم في سريري رأيت أنه ينبغي عليَّ أن أنظر إلى ذلك على أنه مجرد مزاح سخيف من جانبه أو مجرد خدعة مشابهة للعبة النرد، رفضت أن أصدق أنه سيحجب جولي عني أو سيحجب الحقيقة الكاملة عني لأسبوع آخر، من المؤكد أنه يدرك أنني سأذهب بالتأكيد إلى بوراني في اليوم التالي، وهو قد يستمر في كوميديا لها طابع الاستنكار الشديد ولكنه سيكون هناك، وستكون دميته موجودة أيضاً هنالك لكي تساعدني على كشف خدعته في نهاية الأمر.

وعقب الساعة الثانية مباشرة في يوم السبت كنت في طريقي صاعداً نحو التلال، دخلت في مجموعة الأشجار، ظل الطقس خالياً من النسيم وراكداً ـ كان من الصعب على أن أصدق أن ما رأيته حدث بالفعل، وكانت هناك العديد من الأحجار المقلوبة في المكان الذي انفلت فيه

«السجين» هارباً حيث كان قاع تلك الأحجار ملطخاً باللون الأحمر الذي هو لون تربة الجزيرة، كما كانت هناك المزيد من الأزهار المحطمة، قمت بالتقاط العديد من أعقاب السجاير الملوية المبرومة، كان عقب واحد منها فقط لسيجارة تمّ تدخين نصفها فقط.

وقفت على المنحدر ورحت أنظر نحو الجانب الآخر من الجزيرة فأدركت أن اليخت لم يعد هناك ولكنني مع ذلك لم أدع هذا يقتل كل الآمال في داخلي.

وصلت إلى البوابة ومنها إلى المنزل الذي كان مهجوراً، قمت بهز شيش النوافذ، فلم يتداع أي منها، رحت أنظر حولي ليس بسبب أنني كنت أشعر أنه تتم مراقبتي بالفعل ولكن لأنني كنت أشعر أنه عليَّ أن أحس بذلك، فمن المؤكد أنهم كانوا يرقبونني وهم متخفون في داخل المنزل ورحت أحملق نحو الشاطئ في اتجاه تمثال بوسايدون، وفي اتجاه المنحدر الصخري وفي المكان الذي سبق أن جلست فيه مع جولي يوم الأحد الماضي.

بدأت أسير في اتجاه الخليج الذي توجد به الأكواخ الثلاثة، ثم صلت إلى الأسلاك الشائكة التي توضح حدود بوراني، كانت أسلاكاً رمزية وليست حقيقية، وإلى ما وراءها بمسافة قصيرة كانت الصخرة الواقعة إلى الداخل توجد على مسافة من الأرض المنخفضة، انحنيت بين الأسلاك ثم سرت إلى الداخل، وصلت إلى الموقع الذي يتجه السور عند نحو البوابة، ولم تكن هناك أية أحجار مقلوبة ولا فجوات واضحة في الأسلاك، فسرت مع المنحدر الصخري الشاهق إلى أن وصلت إلى المدق الذي سبق لي أن سرت عليه في أثناء زيارتي السابقة للأكواخ.

وكان اثنان من هذه الأكواخ المكونة من طابق واحد متلاصقين، وكان الباب الأمامي لكل منهما مغلقاً بالترباس، أما باب الكوخ الثالث

فكان يبدو قابلاً للفتح وعندما حاولت فتحه انفرج لمسافة معقولة، كان هناك قضيت خشبي مثبت في الداخل، فذهبت إلى الجانب الخلفي من الكوخ، عندما وصلت إلى جانب الآخر من الكوخ وصعدت على عشة دواجن اكتشفت وجود شيس لنافذتين غير محكم، فرحت أحملق من خلال النافذتين القذرتين فشاهدت سريراً قديماً من النحاس في وسطه مكعب من المفارش المطوية، كان هناك حائط عليه صور فوتوغرافية، كان للكوخ مزلاج مغلق على بابه الخلفي، بدا المزلاج مربوطاً بخيط من الدوبارة، فأشعلت عود كبريت وبعد نصف دقيقة وقفت داخل الكوخ لم يكن هناك أي شيء يثير الشكوك داخل الغرفة المظلمة، وكان هناك باب يؤدي من غرفة الجلوس إلى الكوخ المجاور مباشرة.

قضيت فترة ما بعد الظهر في البحث على الشاطئ في المساحة الواقعة إلى الشرق من الأكواخ الثلاثة، ثم عدت راجعاً مارا بالأكواخ الثلاثة في اتجاه بوراني مرة أخرى مع التوقيت الملائم لتناول الشاي تحت صف الأعمدة، ظل المكان مهجوراً مثلما كان عليه من قبل، وأمضيت ساعة زمنية أخرى في البحث عن دليل، بدا الأمر كأنني رجل عبيط يقوم بقلب محتويات درج رغم أنه قد سبق له البحث في الدرج عشرات المرات.

وفي تمام الساعة السادسة شرعت في العودة إلى المدرسة وقد اجتاحتني موجات من الإحباط، الغضب من كونشيس ومن جولي ومن كل شيء.

على الجانب البعيد من القرية كان هناك ميناء آخر لا يستخدمه سوى صائدي السمك المحليين، وكان كل شخص بالمدرسة يتجنب الذهاب إلى الميناء، كما يتجنب الذهاب إليه كل شخص له وضع اجتماعي بالقرية وكانت الكثير من المنازل متداعية.

أما المنازل التي لا تزال صامدة كانت ذات أسقف مقوسة ومتموجة

بها رقعات، لا يوجد بينها سوى حانة واحدة بها بعض المناضد القليلة الخشبية خارج أبوابها.

ذهبت إلى تلك الحانة ذات يوم في أثناء عودتي من إحدى النزهات الشتوية لكي أتناول بها مشروباً وتذكرت صاحب الحانة أنه رجل حلو الحديث يشعر المرء بالألفة لدى التحدث معه كان يسمى «جورجيو» وله شارب صغير مما أعطاه تشابهاً كوميدياً مع هتلر، في صباح يوم الأحد جلست تحت شجرة، فجاء صاحب الحانة نحوي في ابتهاج لأنه حصل على زبون غني، وقال إنه يسعده أن يتناول كأساً من الأوزو معي، ثم نادى على واحد من نادليه لكي يخدم علينا، تركت له العنان لكي يوجه الأسئلة المعتادة، ثم شرعت أنا في العمل، وكانت هناك اثنا عشر من الزوارق الطويلة في المياه الزرقاء الساكنة الهادئة أمامنا، فأشرت إلى تلك الزوارق وقلت إنه لأمر مؤسف ألا يجيء إليكم إلى هناك أي سياح أجانب، في يخوت.

بصق من فمه بذرة زيتونة وقال:

- فراكسوس جزيرة ميتة.

- ظننت أن السيد كونشيس يرسي يخته هنا!

سأل: هل قابلت ذلك الرجل؟

أخبرته أنني لم أتقابل مع كونشيس، وأوضحت له أنني أفكر فقط في القيام بزيارته، تساءلت: وهو يمتلك يختاً بالفعل؟

- نعم، ولكن يخته لم يقترب أبداً من هذا المكان بالجزيرة.

- هل سبق لك أن تقابلت مع كونشيس؟

- لا....

- هل كونشيس يمتلك منازل في القرية؟

أفاد بأن كونشيس لا يمتلك سوى المنزل الذي يسكن فيه هيرميز، وهو منزل قريب من كنيسة القديس إلياس التي تقع في الجزء الخلفي من القرية، فقمت بتغيير موضوع الحديث وسألته في شيء من التكاسل عن الأكواخ الثلاثة القريبة من بوراني وسألته عن المكان الذي ذهبت إليه العائلات التي كانت تقيوم في هذه الأكواخ الثلاثة.

فهز يده في اتجاه الجنوب وقال: ذهبوا إلى الأراضي الرئيسية في العمق، بسبب حلول فصل الصيف.

وأوضح لي أن أقليه من صائدي الأسماك بالجزيرة هم من البدو شبه الرحل، وهم في الشتاء يقومون بصيد الأسماك في المياه المحمية خارج نطاق شواطئ فراكسوس.. أما في الصيف فإنهم يأخذون أفراد عائلاتهم ويبحرون إلى مسافات بعيدة تصل أحياناً إلى جزيرة كريت بحثاً عن أماكن أفضل لصيد الأسماك.

سألته: هل تشاهد ضيوفه في القرية؟ رفع رأسه في غير اهتمام ولم يكن يهمه ما إذا كان هناك ضيوف له أم لا، فألححت في إصرار على التساؤل، وسألته عما إذا كان يعرف ما إذا كان أجانب يقيمون هنالك، هز كتفيه وقال ربما ثم وقف الحظ إلى جانبي بطريق المصادفة، إذ ظهر رجل عجوز قادم من زقاق جانبي ووقف خلف ظهر جورجيو، كان يرتدي طاقية بحار قديمة، رمقة جورجيو بنظرة لدى مروره بجور منضدتنا ثم نادى عليه، تعال يا باربا ديمتراكي لكي تتكلم مع أستاذ اللغة الإنجليزية.

فتوقف الرجل العجوز عن المشي، كان يبدو في حوالي الثمانين من عمره، يرتعش ويهتز بشدة لكن عقله لم يكن متداعياً للغاية، التفت جورجيو نحو قائلاً: قبل نشوب الحرب، كان يقوم بنفس المهمة التي يقوم بها هيرميز حالياً، كان يحمل الخطابات البريدية إلى بوراني.

وأقنعت الرجل العجوز بأن يجلس معنا وطلبت المزيد من الأوزو كما طلبت مزة أخرى، سألته هل تعرف بوراني معرفة جيدة؟

فلوح بيده العجوز بأنه يعرف بوراني على نحو يفوق مقدرته على التعبير عن ذلك، ثم قال كلاماً لم استطع فهمه، فقام جورجيو الذي كان يمتاز بأنه واسع الحيلة بتكويم علب السجاير وعلب الكبريت التي أمامنا على هيئة قوالب من الطوب.

ـ لقد فهمت، عام ١٩٢٩؟

ـ هل كان للمستر كونشيس العديد من الضيوف قبل الحرب؟

أجانب كثيرون، فرنسيون، إنجليز.

ـ وماذا عن مدرسي اللغة الإنجليزية بالمدرسة؟ هل كانوا يذهبون إلى هناك؟

ـ نعم.. كلهم يذهبون.

ـ هل يمكن أن تتذكر أسماءهم؟

ـ فابتسم لسخافة السؤال، فهو لم يكن يتذكر الشكل الذي كانت عليه وجوههم، باستثناء شخص واحد منهم كان يتميز بأنه فارع الطويل.

ـ هل تقابلت معهم في القرية؟

ـ أحياناً كانوا يغنون ويرقصون!

وما نوع الغناء والرقص؟ لم يكن يعرف على وجه الدقة، بدت عيناه الراشحتان وكأنهما تفتشان في الماضي البعيد ثم أضاف قائلاً: كانت هناك أمور أخرى، حيث كانوا يقومون بالتمثيل في روايات ومسرحيات لقد حدث ذلك بالفعل، وأنا أقول الصدق.

أوحيت للعجوز أنني أصدق كلامه، ثم قلت له: ما هو نوع تلك

المسرحيات؟ ولكن الملامح على وجهه دلت على أنه لا يعرف ثم قال: كان هناك مسرح في الحديقة.

ـ في أي مكان بالحديقة؟

ـ خلف المنزل، ومسرح له ستائر، مسرح حقيقي.

ـ هل تعرف ماريا؟

ـ يبدو أنه كانت هناك مديرة أخرى لشئون المنزل في فترة ما قبل الحرب تسمى سولا لكنها قد ماتت.

ـ متى ذهبت إلى هناك في آخر مرة؟

ـ منذ سنوات عديدة قبل نشوب الحرب.

ـ هل مازلت تحب كونشيس؟

وما الرجل برأسه، ولكنها إيماءة مقتضبة وفي شيء من الثقة، ولكن جورجيو تدخل في الحديث مقاطعاً وقال:

«لقد قتل ابنه الأكبر في عملية تنفيذ الإعدام رمياً بالرصاص.

فهز الرجل العجوز كتفيه: إنها القسمة والنصيب، إنه ليس رجلاً سيئاً، وليس شريراً.

ـ هل كان يعمل لصالح الألمان في أثناء الاحتلال؟ فرع العجوز رأسه معبراً عن النفي القاطع، وظهر الاستياء الشديد على وجه جورجيو بسبب إجابة العجوز وبدأ يجادله بسرعة فلم أتمكن من متابعة ما يدور بينهما من كلام، سمعت العجوز يقول: كنت موجوداً بنفسي هنا، أما أنت فلم تكن هنا في تلك الآونة.

فنظر إلى جورجيو وغمز لي بعينه وقال:

ـ لقد قام باعطاء العجوز منزلاً.. كما يعطيه نقوداً كل عام وهو بذلك لا يعبر عما يدور في عقله من آراء حقيقية.

ـ وهل يفعل ذلك مع الأقارب الآخرين؟

ـ سحقاً له، إنه يفعل ذلك مع شخص أو شخصين، من العجائز الطاغين في السن، ولم لا يفعل ذلك؟ إنه يمتلك الملايين.

وصدرت عنه حركة تعني أنها نقود عبر عن ضميره الذي يؤنبه، ثم قال ذات مرة: كان هناك مهرجان ضخم يضم العديد من الموسيقى والألعاب النارية المختلفة، والكثير من الضيوف.

وأضاف: شاهدت منظراً غير معقول لحفلة في حديقة: مئات من الفتيات والنساء الرائعات.. ورجال يرتدون ملابس الصباح.

ـ متى حدث ذلك؟

ـ قبل الحرب بثلاث سنوات، ولم يكن يعرف سبب هذا الاحتفال سألته: هل كنت هناك؟

ـ كنت مع ابني نصطاد السمك، وشاهدنا الاحتفال في بوراني، فقال جورجيو: لقد كنت مخموراً يا باربا.

لا، لم أكن مخموراً، لم أكن ثملاً ورغم محاولاتي العديدة فإنني لم أتمكن من الحصول على المزيد من المعلومات من العجوز، ثم لذلك قمت بمصافحة الرجلين وسددت فاتورة الحساب وأعطيت جورجيو بقشيشاً كبيراً، ثم سرت عائداً إلى المدرسة.

شيء واحد كان واضحاً، لقد كان هناك ليفاريير وميتفورد وأنا، ولكن كانت هناك أيضاً تلك الأسماك التي ترجع إلى الثلاثينيات، إنه طابور طويل من الأسماء وقد أعطاني هذا عودة إلى التوقعات والشجاعة على مواجهة أي شيء جديد يتم إعداده في ذلك المسرح الخالي من الستائر الموجودة على الجانب البعيد.

عدت إلى القرية في ذلك المساء، وجلت في الشوارع الضيقة المرصوفة بالحصى والتي تؤدي إلى الجزء الخلفي من القرية إلى أن

وصلت إلى بوابة ذات بواك بأعلاها حجر مكتوب عليه عام ١٨٢٣، وذهبت في تخميناتي إلى أن المنزل بالداخل قد شيد بمعرفة أحد القراصنة المنتمين لحرب الاستقلال، وكان هناك باب ضيق يؤدي إلى إحدى البوابتين وهو البوابة الواقعة إلى الجهة اليمني، وفي ذلك الباب الضيق يوجد شق طوالي من أجل الخطابات، وفوقه كانت توجد لوحة معدنية صغيرة مكتوب عليها: «هيرميز أمبيلاسي»، وإلى اليسار تراجعت الأرض وراء الكنيسة، لم تكن هناك وسيلة لتفحص الحائط، من ذلك الجانب، فذهبت إلى الباب الصغير ودفعته في رفق لكي أرى ما إذا كان بالإمكان فتحه بسهولة، ولكنه كان مغلقاً بالقفل، دهشت والجزيرة لا تعرف اللصوص، ولا أذكر أنني شاهدت بوابة خارجية مغلقة على ذلك النحو في أي مكان آخر بالجزيرة، أدركت أن المنزل لم يكن ضخماً ولكنه بالمقارنة مع مستويات المنازل بالقرية يعتبر فخماً ولا يتناسب مع حمار يشتغل في قيادة الحمير.

نافذتان بالدور الأول وثلاث نوافذ بالدور العلوي كلها مغلقة بالمصاريع وكلها ساكنة تحت ضوء الشمس الأخير ومن المؤكد أنها تقدم منظراً جميلاً من جهة الغرب فوق القرية وإلى أسفل وفي ميدان صغير تحتي شاهدت امرأتين يرقباني في شغف واهتمام، فلوحت بيدي وواصلت سيري كما لو كانت نظراتي لأعلى هي من قبيل حب الاستطلاع العادي، وصلت إلى زقاق صاعداً إلى نقطة بدايتي، كان المنزل بمثابة حصن منيع في عيون الناس المارين بجواره.

وعندما وصلت إلى فندق فيلادلفيا نظرت ورائي، كان باستطاعتي مشاهدة كافة الأسطح المتداخلة ومشاهدة المنزل الواقع إلى يمين الكنيسة بينما النوافذ الخمسة تطل محملقة إلى الخارج.

بدت النوافذ كأنها تنظر في تحدٍ وتمرد ولكنها كانت عمياء.

(٤٧)

كان يوم الإثنين هو يوم إنجاز أعمال مدرسية، حيث عكفت على تصحيح أوراق امتحانات نهاية الفترة الدراسية وحاولت طوال الوقت عدم التفكير في جولي.

كنت أدرك أنه لا جدوى من وراء الاستعانة بديميترياديس كي يساعدني على معرفة أسماء مدرسي اللغة الإنجليزية بالمدرسة في فترة ما قبل الحرب، وحتى لو كان هو يعرف أسماءهم فإنه سيتمتنع عن تزويدي بها ذهبت إلى الصرَّاف، لكنه لم يستطع مساعدتي، فجميع السجلات التي كانت لديه ذهبت مع رياح عام ١٩٤٠، وفي يوم الثلاثاء حاولت مع الأستاذ الذي يشرف على مكتبة المدرسة، وجذب مجلداً يضم البرامج الخاصة بيوم التأسيس، وكان القصد من تلك البرامج أحداث تأثير على أولياء الأمور الزائرين وكانت تحتوي في الصفحات الأخيرة بها قوائم بالفصول الدراسية بالإضافة إلى أسماء المدرسين وحصلت على أسماء ستة من المدرسين ممن قاموا بالتدريس في الفترة من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٣٩ ولكن كان عليَّ أن أواصل الجهد لمعرفة عناوينهم.

ومرت أيام الأسبوع بطيئة وفي كل فترة من فترات تناول طعام الغذاء كنت أرقب ساعي البريد، لم تصلني أية خطابات، وبدأت أتوقع القسوة من جانب كونشيس ولكنني وجدت من الصعب عليَّ أن أعفو عن جولي.

الاحتمال الأكثر وضوحاً انهما طارتا عائدتين إلى إنجلترا، وفي هذه الحالة ليس باستطاعتي أن أصدق أنها لم تحرر رسالة إليَّ لكي تخبرني بما حدث والاحتمال الثاني أنها اضطرت لأن تتقبل إلغاء إجازة نهاية الأسبوع، ولكنها مع ذلك بمقدورها أن تكتب رسالة لكي تشرح لي

جوانب الموقف، والاحتمال الثالث أنها وضعت في حبس انفرادي، وقطعت الصلة بينها وبين العالم الخارجي بحيث لا يمكنها أن ترسل خطاباً إليَّ، لم أستطع تصديق ذلك ولو أن لحظات الغضب كانت لا تزال تتصاعد في داخلي كلما فكرت في اللجوء إلى الشرطة.

ومرت الأيام في بطء وتثاقل ولكن وصلت إليَّ معلومة بسيطة بطريق المصادفة، فبينما كنت أستعرض الكتب الموجودة في جناح الكتب الإنجليزية بالمكتبة عثرت على كتاب مكتوب عليه بخط اليد: د. ب. ر. نيفينسون وعرفت أن هذا المدرس كان موجوداً بالمدرسة في فترة ما قبل الحرب، وتحت اسمه كانت عبارة كلية باليول ١٩٣٠، لقد ترك نيفينسون معلومة لا بأس بها.

تركت مائدة الغذاء مبكراً في يوم الخميس وطلبت من أحد التلاميذ أن يحضر لي أية خطابات تخصني لدى توزيع الخطابات، وبعد دقائق، كنت قد ارتديت بيجامتي استعداداً للنوم قليلاً في فترة القيلولة، طرق التلميذ باب غرفتي وسلمني خطابين... أحدهما من لندن عبارة عن كتالوج تعليمي خاص بأحد الناشرين، أما الخطاب الثاني فكان عليه طابع بريد يوناني، وعلامات بريدية من المتعذر فك رموزها، وكتابة بخط اليد باللغة الإنجليزية.

عزيزي وحبيبي نيقولاس.

أدرك أنك كنت تشعر بإحباط رهيب بسبب إجازة نهاية الأسبوع وآمل أن تكون الآن في حالة أفضل، لقد أعطاني موريس خطابك، وكم أشعر بالأسف من أجلك، لم أتمكن من الكتابة إليك في وقت مبكر ولقد كنا في البحر واليوم هو أول مرة يقع فيها بصرنا على صندوق البريد، لقد قالوا توا إن القارب الذي يأخذ البريد لأثينا في نصف ساعة، وأنا أكتب

لك هذا الخطاب وأنا جالسة على مقهى قريبة من الميناء، لقد كان موريس ملاكاً صامتاً بالفعل، إنه يصر على الانتظار إلى أن تصبح معنا في إجازة نهاية الأسبوع هذه القادمة إذا كنت في حالة أفضل، لقد أبدى موريس قدراً من الاستياء أيضاً لأننا لا نقدم له وعدا بالتجاوب مع خطته الجديدة اللهم إلا إذا اطَّلعنا على خطته بالتفصيل، ولقد توقفنا بالفعل عن محاولاتنا الرامية إلى معرفة جوانب خطته ـ وأدركنا أننا نضيع وقتنا عبثاً لأنه يستمتع كثيراً بكونه محيراً لنا وغامضاً أمامنا، لقد أشار إلى أنه يرغب في أن يقص عليك الفصل الأخير من حياته وأنك ستتوقع سماع الفصل الأخير الآن... إنه إنسان رهيب، فهو لن يكف عن اللهو واللجوء إلى الحيل المخادعة، وعلى أية حال فإنني آمل أن تعرف كل ما يتعلق بالموقف.

إنني أبذل قصارى جهدي رغم المصاعب لمواجهة الأمور حتى النهاية، لقد أقسم لنا أنه لن يتم إبعادنا عن هذا المكان مرة أخرى إذا كنا نرغب في البقاء في حزيرته بمنزله الريفي.

وربما تتغير مشاعرك نحوي، فلا تشعر نحوي بالحب الجارف إذا أصبحت تشاهدني يومياً، وأصاب الضيق «جين» لأنني بدأت أخيراً أحصل بعض الشيء على بشرة سمراء مائلة للحمرة نتيجة للتعرض لأشعة الشمس.

لسوف يصلك خاطبي هذا في خلال يومين ولعله يلعب لعبة أخيرة من لعبة الموريسية، لذلك أرجوك أن تتظاهر بأنك لم تسمع شيئاً عن موضوع الفصل الأخير وأعطه الفرصة ليقوم بآخر أعماله المزعجة إذا كان يرغب في ذلك، وأظن أن هناك قدراً ضئيلاً من الغيرة منك والحقد عليك، فهو دائماً ما يشير إلى أنك إنسان سعيد الحظ للغاية.

يا نيقولاس.

ـ لن أنسى أبداً مياه الليل، فقد كنت رائعاً للغاية، ينبغي أن أنهي خطابي الآن.

ـ أحبك من كل قلبي.

جولي

قرأت الخطاب ثلاث مرات كان من الواضح أن الشيطان العجوز مازال منهمكاً في حيله، فلم يسبق لها على الإطلاق أن شاهدت خط يدي ولكن من السهل تقليد خط اليد خاصة أن ديميترياديس يمكن أن يزوده بعينات من خط يدي، لماذا يلقي بهذه العقبات الأخيرة؟ لم أستطع تخيل الأسباب، ولكن الكلمات الأخيرة الواردة في نهاية الخطاب مع الإشارة إلى إقامتي معها في القرية، كل ذلك جعل الخطاب يبدو عديم الأهمية وشعرت بالغبطة الكاملة مرة أخرى وشعرت أنني قادر على حل كافة المشاكل مادامت ستظل في اليونان تنتظرني.

صحوت في الساعة الرابعة عند سماعي صوت الجرس معلناً عن نهاية فترة القيلولة وهو جرس يقوم بدقة دائماً تلميذ مكلف بحفظ النظام، فيعكف على دقة في عنف انتقامي مما يجعل الصوت يدوي في إزعاج شديد في الدهليز الحجري الموجود خارج غرفنا وصدر وابل من الصيحات الغاضبة كالمعتاد من باقي المدرسين زملائي، واستلقيت على مرفقي ورحت أقرأ خطاب جولي مرة أخرى، ثم تذكرت الخطاب الآخر الذي ألقيت به على مكتبي، وذهبت إلى المكتب في تثاؤب لكي أفتح مظروف ذلك الخطاب.

في داخله كانت توجد ورقة صغيرة مكتوبة على الآلة الكاتبة علاوة على مظروف آخر مفتوح وعليه أختام البريد الجوي، إلا أن كل انتباهي انصب على قصاصتين.. من الصحف مرفقتين مع الورقة الصغيرة بالجزء العلوي منها، فاضطررت لقراءتهما أولاً.

كانت قصاصة الجريدة العلوية مقصوصة من جريدة محلية لندنية وجاء بها ما يلي:

انتحار مضيفة جوية

ثم العثور بالأمس على مضيفة جوية أسترالية تسمى آليسون كيللي، ٢٤ سنة راقدة في سريرها في شقة بميدان راسيل، وتقيم معها في هذه الشقة صديقتها الأسترالية التي تسمى أن تيلور وقد تم العثور على آليسون راقدة في سريرها عقب عودتها من إجازة نهاية الأسبوع وقد تم نقلها بسرعة إلى مستشفى ميديلسيكس ولكنهم اكتشفوا أنها لفظت أنفاسها في أثناء التصريح لها بدخول المستشفى، وتم علاج الآنسة تيلور من الصدمة العصبية التي تعرضت لها، سيتم عمل تحقيق رسمي لمعرفة أسباب الوفاة وذلك في الأسبوع القادم.

أما قصاصة الصحف الثانية فجاء بها ما يلي:

فشلت في الحب فقتلت نفسها.

أبلغ الشرطة هنري دافيز نائب مفتش التحقيقات بهولبورن يوم الثلاثاء أنه عثر مساء يوم الأحد ٢٩ يونيو على فتاة مستلقية في سريرها مع وجود زجاجة أقراص منومة شاغرة إلى جوارها، وقال إنه قد تم استدعاؤه بمعرفة زميلة الفتاة المتوفاة والتي تسكن معها في نفس الشقة والتي تسمى أن تيلور والتي تعمل في العلاج الطبيعي والتي عثرت على الفتاة الميتة آليسون كيللي المضيفة الجوية البالغة من العمر ٢٤ عاماً عقب عودتها من قضاء إجازة نهاية الأسبوع باستراتفورد.

قالت الآنسة تيلور إن صديقتها تعرضت لنوبات من الاكتئاب وكانت لا تتمكن من الحصول على قدر كاف من النوم على النحو السليم إلا أنها ليست الأسباب الكافية التي تجعلها تفترض أن المرحومة كانت تفكر في الانتحار بشكل جدي، ورداً على بعض الأسئلة قالت الآنسة

تيلور «لقد تعرضت صديقتي أخيراً لحالة شديدة من الاكتئاب بسبب وقوعها في حب تعس، ولكنني كنت أظن أنها قد تغلبت على الاكتئاب وشفيت منه تماماً».

أما الدكتورة بهرينز وهي الطبيبة الخاصة بالقتيلة فقد قالت لمفتش التحقيقات إن الآنسة كيللي جعلتها تعتقد أن عملها كمضيفة جوية هو سبب لها حالات الأرق، وعندما سألها مفتش التحقيقات عما إذا كانت قد اعتادت أن تكتب لها بالروشتة مثل هذه الكميات الهائلة من الأقراص قالت الطبيبة: إنها كانت تضع في الاعتبار المشقة التي تتعرض لها المتوفاة لدى التردد كثيراً على الصيدلية، وقال إنها لم تتصور أن تستخدم الأقراص في ارتكاب جريمة الانتحار.

قال مفتش التحقيقات إن الشرطة قد عثرت على رسالتين موجزتين ولكن هاتين الرسالتين لم تلقيا أي ضوء على الدافع الحقيقي وراء هذا الانتحار المأساوي.

وكانت الورقة المكتوبة على الآلة الكاتبة مرسلة من آن تيلور، وكان نصها كالآتي:

عزيزي نيقولاس أورفي: القصاصتان المرفقتان ستوضحان لك السبب في إرسال خطاب لك، إنني لآسفة للغاية، فهذا سيسبب لك صدمة هائلة ولكنني لا أعرف وسيلة أخرى لكي أطلعك بها على هذه الأنباء المؤسفة، كانت آليسون مكتئبة للغاية عقب عودتها من أثينا، لكنها لم تتكلم عن أسباب اكتئابها ولذلك لا أعرف غلطة من هذه، لا أعرف من منكما أخطأ في حق الآخر، لقد سبق لها التحدث معي عن رغبتها في الانتحار أكثر من مرة ولكننا كنا ننظر للأمر دائماً على أن هذا مجرد مزاح.

لقد تركت هذا المظروف من أجلك وقامت الشرطة بفتح المظروف،

ولكن لم يكن بداخله أية رسالة موجزة.. كانت به رسالة موجزة موجهة إليَّ ولكنها رسالة لا يوجد بها أية معلومات ـ مجرد اعتذارات.

شعرنا جميعاً بالحزن العميق لما حدث، وأنا أشعر بأن ضميري يؤنبني، والآن وبعد أن انتقلت هي إلى رحمة الله على ذلك النحو أصبحنا ندرك مدى حساسيتها وظروفها فلا أتصور كيف يمكن لأي رجل يعرف الأمور الدفينة الحقيقية في داخلها ومع ذلك لا يرغب في الزواج منها، أعتقد أنني لا أفهم طبيعة الرجال.

المخلصة الغارقة

في الأحزان

آن تيلور

ملحوظة: لا أعرف ما إذا كنت ترغب في تحرير رسالة إلى أمها.. سيتم إرسال رماد جسدها إلى عنوان أمها بأستراليا، وكتبت عنوانها.

نظرت إلى الظرف الخاص بالبريد الجوي، كان اسمي مكتوباً عليه من الخارج وكان مكتوباً بخط يد آليسون، أخرجت المحتويات على مكتبي، كانت المحتويات عبارة عن كتلة متشابكة من أزهار البنفسج وبعض أزهار القرنفل.

وفي رعب شديد انحرطت في بكاء مرير.

لم تستمر دموعي لفترة طويلة للغاية، فأنا لم أكن أعيش في عزلة عن باقي الغرف المجاورة.. ودق الجرس إيذاناً ببدء التدريس في الفصول مرة أخرى وبدأ ديميترياديس يطرق باب حجرتي، فمسحت الدموع من عيني مستخدماً ظهر معصمي واتجهت إلى الباب وفتحته، كنت مازلت مرتدياً البيجاما، وقال: ماذا تفعل؟ لقد تأخرت كثيراً.

ـ أشعر أنني لست على ما يرام.

ـ يا زميلي العزيز، شكلك يبدو غريباً للغاية.

ـ عليك بإبلاغ التلاميذ بأن يقوموا بمراجعة دروسهم استعداداً للامتحان، وأخبر التلاميذ في الحصص التالية أن يفعلوا نفس الشيء.

ـ وما الذي سأقوله فيما يتعلق بأسباب اعتذارك؟

ثم دفعته في عنف إلى خارج غرفتي قائلاً: تعلل لهم بأي شيء وبمجرد أن تلاشت الأصوات ووقع الأقدام بالمدرسة أدركت أن المدرسة استأنفت العمل وارتديت ملابسي وخرجت من المدرسة، كنت أريد أن أبتعد عن كل شيء، سرت نحو خليج صغير مهجور وجلست هنالك على حجر وأخرجت قصاصات الصحف مرة أخرى ورحت أقرأهما ثانية.

الأمر لا يقتصر فقط على أنني أشعر بالذنب لأنني تخليت عن آليسون بل أدركت أن انتحارها جاء كنتيجة مباشرة لإخباري لها بمحاولة الانتحار التي سبق لي أن قمت بها، لقد أدركت أنني كنت أخدعها للمرة الأخيرة، وقالت لي: لا أظن أنك تعرف معنى الحزن الحقيقي.

تذكرت المشاهد الهستيرية في فندق بيرايوس وتلك «النغمة الانتحارية» المبكرة التي صاغتها لكي تبتزني بالتهديد كما تصورت آنئذ قبل مغادرتي لندن مباشرة، وفكرت فيها عندما كنا في بارناسوس عندما كنا في ميدان راسيل وفي الكلام الذي قالته وفي الأعمال التي فعلتها وفي كل تلك التصرفات التي عبرت عن شخصيتها، فهبطت على سحابة هائلة سوداء من الشعور بالذنب وإدراكي لأنانيتي الوحشية، كل تلك الحقائق المريرة عن نشأتها الأولى والتي ألقت بها إلى منذ البداية ومازالت تحبني، كانت عمياء للغاية حتى إنها كانت لا تزال تحبني، لقد قالت لي ذات يوم: «عندما تحبني ـ وهي لم تكن تقصد هنا بكلمة «حب» ممارسة الحب أو المعاشرة الجنسية ـ فإن الأمر سيبدو وكأن الله

قد غفر لي حياة العبث والفوضى التي كنت أعيشها، أخذت كلامها هذا على أنه مجرد ابتزاز عاطفي ولكي تعطيني الإحساس بالمسئولية تجاهها، وعلى نحو ما كان موتها بمثابة الفصل الأخير من الابتزاز ولكن الإنسان الواقع عليه الابتزاز ينبغي أن يشعر أنه بريء وأنا شعرت بالذنب ـ وبدا لي الأمر في هذه اللحظة التي كنت فيها أرغب تماماً في أن أكون نظيفاً ونقياً كأنني ترديت إلى أعماق الفحشاء، كنت في أقصى درجات الانطلاق نحو المستقبل ومع ذلك كنت مكبلاً بالأغلال إلى أقصى درجة وهي أغلال تجذبني إلى الماضي في عنف شديد.

وجولي، لقد أصبحت الآن ضرورية تماماً ولا غنى عنها على الإطلاق، ليس فقط الزواج منها وإنما الاعتراف لها، لو كانت هي بجانبي آنئذ لقصصت عليها كل شيء بكل صراحة وأبديت لها رغبتي في البدء بداية نظيفة، كنت في مسيس الحاجة لأن ألقي بنفسي تحت رحمتها وأحصل منها على الغفران، إذ أصبح غفرانها هو التبرير الوحيد الممكن آنئذ، كنت قد سئمت الخداع ومن وقوعي إلى ما لا نهاية تحت رحمة أعضائي التناسلية، فذلك التلهف نحو تحقيق ما هو أفضل هو الذي أوقعني في كل تلك المتاعب وهو الذي جعلني إنساناً سيئاً للغاية.

عندما رجعت في ذلك المساء قمت بكتابة خطابين: أحدهما موجه إلى آن تيلور والآخر موجه إلى والدة آليسون، وشكرت «آن» وألقيت باللوم على نفسي بقدر ما أستطيع وذلك بما يتماشى مع صدق تصميمي الجديد، أما خطابي لوالدة آليسون فكان خطاب تعزية ومشاطرة للأحزان.

(٤٨)

ووصلني خطاب آخر من إنجلترا في صباح يوم السبت، كان يوجد نسر أسود صغير فوق لسان مظروف الخطاب: بنك باركليز.

عزيز المستمر أورفي

أشكرك على الكتابة إليَّ بشأن التوصية على الآنستين هولمز، ويسعدني أن أرفق طيه استمارة وآمل أن تتكرم بملء بياناتها وإعادتها بالتالي إليَّ كما أرفق طيه كتيباً صغيراً يتضمن بياناً تفصيليا عن الخدمات الخاصة التي نقدمها لزبائننا فيما وراء البحار.

المخلص

ب. ج فيرن

المدير العام

وعقب الانتهاء من قراءة الخطاب نظرت في عيني الصبي الذي كان جالساً إلى المنضدة في مواجهتي وابتسمت له ابتسامة خفيفة، الابتسامة غير المكبوتة التي يتسم بها لاعب البوكر الرديء.

وبعد نصف ساعة كنت أشق طريقي صاعداً بين أرجاء الغابة الخالية من النسيم في اتجاه سلسلة الجبال الرئيسية، وصلت إلى مكان يمكن لي منه الرؤية لأسفل في اتجاه الجنوب ثم قفز قلبي بين ضلوعي، لقد كان اليخت هناك ويمكن منه مشاهدة بوراني، ثم جلست هنالك لمدة نصف ساعة بينما موت آليسون ما زال قاتماً وداكنا في داخل كياني والأمل المعقود على جولي موجود تحتي هنالك في ضوء الشمس: وكنت قد بدأت في خلال اليومين الأخيرين في الاستيعاب التدريجي لحقيقة موت آليسون وقررت أن أنزل إلى هناك.

كنت أمر بنفس الأحوال التي مررت بها في اليوم الأول، الوجود بدون دعوة رسمية وعدم التيقن من ردود الفعل، والذهاب من خلال البوابة، والاقتراب من المنزل المغلف بالغموض المضاء بأشعة الشمس، والتجول حول صف الأعمدة، وهنالك وجدت أيضاً نفس

الشيء، منضدة الشاي مغطاة بقماش الموسلين ولا أحد على الإطلاق، البحر والحرارة المتغلغلة بين الأقواس والبواكي والأرضي المغطاة بالقرميد والصمت والانتظار.

ورغم أنني كنت عصبياً للغاية لأسباب عديدة فقد قمت بوضع حقيبتي فوق الأريكة ودخلت إلى غرفة الموسيقى، فنهض هيكل من خلف آلة البيان القيثارى كما لو كان قد ظل جالساً هنالك في حالة انتظار والتزم كل منا بالصمت للحظات، فسألت:

هل حضوري متوقع؟

ـ نعم

حملق في وجهي ثم نظر إلى يدي ـ نحو الجرح الذي أصابني نتيجة للحدث النازي الذي تم منذ عشرة أيام مضت، كانت هناك ندبة غائرة لا تزال مكسوة باللون الأحمر نتيجة لقيام الزائرة الصحية بالمدرسة بوضع الميكروكروم عليها، قال: عليك إن تلتزم بالحذر، فهناك مضاعفات تنجم عن التيتانوس.

لا اعتذارات، ولا إلقاء أي ضوء لتوضيح الأمور، ولا رد عن أسئلة: من الواضح تماماً أنه لم يشر فيما قال من كلام عنيّ للفتاتين أنه يحاول الاحتيال عليَّ.

شاهدت ماريا تمر ومعها صينية، لاحظت اختفاء الصورة الفوتوغرافية الخاصة بـ«ليلى» من مقصورة المعروضات المنافية للآداب، وضعت حقيبتي المصنوعة من القماش على الأرض، ثم طويت ذراعي وابتسمت له ابتسامة خفيفة، قلت:

لقد تحدثت مع باربا ديمتراكي منذ أيام فأدركت أن لديَّ زملاء من الضحايا أكثر مما كنت أتخيل.

ـ ضحايا؟

ـ لقد استعنت بأناس يعانون من مشاكل دون أن يكون لهم خيار في ذلك.

ابتسم، كأنه أخذ الكلام الذي قلته عنه في سخرية على أنه مدح وثناء، دار حول آلة البيان القيثارى لكي يجيء نحوي، وقال: هيا بنا نشاهد يدك هذه فرفعت يدي في نفاد صبر، كانت مخدوشة على طول المفاصل بين سلاميات الأصابع ولكن الجروح كانت قد التأمت إلى حدّ، راح يتفحص يدي وسألني عما إذا كان هناك أي تسمم دموي جراثيمي، ثم نظر في عيني وقال: لم يكن هذا متعمداً، فهل سنتقبل ذلك على الأقل؟

ـ لن أتقبل شيئاً بعد اليوم يا سيد كونشيس، باستثناء الحقائق الخالصة.

ـ ربما تكتشف أن عدم معرفتك للحقائق كان سيضمن لك الشعور بالمزيد من السعادة.

ـ لسوف أخاطر بذلك.

فراح يسبر أغوار النظرات التي ظهرت في عيني ثم هز كتفيه هزة خفيفة، وقال:

ـ حسناً، هيا بنا نتناول الشاي معاً.

فسرت وراءه إلى المكان الموجود تحت صف الأعمدة، وقف ليصب الشاي، ولوح بيده في اتجاه الطعام وقال: «تفضل لو سمحت» فأخذت «ساندويتش» ولكني بدأت في التكلم قبل الشروع في الأكل: «اعتقدت أن الفتاتين ستسمعان الحقائق معي».

ـ إنهما تعرفان الحقائق بالفعل الآن.

ـ بما في ذلك الحقيقة التي تتعلق بقيامك بكتابة خطاب مزور نيابة عني موجه إلى جولي؟

ـ إن خطاباتها المرسلة إليك هي الخطابات المزورة.

لاحظت أنه تحدث عن خطاباتها بصيغة الجمع، من المؤكد أنه قد ضمن أنها كانت تكتب لي خطابات ولكن تخمينه جاء خاطئاً بالنسبة للكمية، فابتسمت وقلت: آسف، لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين فنظر لأسفل، وهدأ من ثورته وغضبه وتخيلت في شيء من القلق وجود احتقان في وجهه وكان من الواضح أنه لا يعرف المدى الكامل للوئام الموجود بيني وبين جولي ولا يعرف حافة مفرش المنضدة، نظر إليَّ بعينين وقورتين.

ـ وما الذي أفعله فيما تظن؟

ـ أنت تمارس بعض الحريات الجهنمية.

ـ هل أرغمت على العودة إلى هنا؟ وهل أرغمت على المجيء إلى هنا في بادئ الأمر؟

ـ أنت تعرف جيداً أنه لم يكن بمقدور أي إنسان غير عادي أن يبقى بعيداً، ورغم هذا فأنا أبعد ما يكون عن نكران الجميل، ولكن المرحلة الأولى من المسرحية التنكرية قد انتهت.

وراح يفتش في داخل عيني مرة أخرى، وتذكرت شيئاً ما كانت جولي قد قالته: «إنه يريد لنا أن نكون غامضين بالنسبة له أيضاً» كان من الواضح أنه يريد أن تكون لدينا فقط حرية محدودة وأسرار محدودة أيضاً، فمهما بلغ كبر حجم المتاهة التي يشيدها العالم فإن الهدف من وراء المتاهة مازال هو السماح للعالم بأن يرقب كل حركة عن كثب، وبدا عليه أنه اتخذ قراراً، سأل: هل أخبرك باربا بأنه كان لدي مسرح خصوصي صغير هنا قبل الحرب؟

ـ نعم.

فاستند بظهره إلى الوراء، وقال: «في أثناء الحرب كان لدي متسع

من الوقت لأفكر ولم يكن لدي أصدقاء ليقوموا بتسليتي، فتخيلت نوعاً جديداً من الدراما، دراما يتم فيها إلغاء الفصل التقليدي ما بين الممثلين وجمهور المشاهدين، وتلغى جغرافية المناظر التقليدية والجزء الأمامي من خشبة المسرح والصالة التي يجلس فيها المتفرجون، بحيث تكون والقصة متميعة ولا يوجد سوى نقطة مغادرة ونقطة محددة للختام، وما بين هاتين النقطتين يبتكر المشاركون مسرحهم»، ولسوف تجد أن أرتو وبيرانديللو وبريخت قد كانوا يفكرون على نفس المنوال بوسائلهم المختلفة، ولكنهم لم يمتلكوا المال ولا العزيمة ولا الوقت الذي يعينهم على التوغل كثيراً في هذا المجال مثلما فعلت أنا، ولقد كان جمهور المشاهدين هو العنصر الذي لم يستطيعوا التخلي عنه.

فابتسمت ابتسامة مليئة بالشك، كان كلامه معقولاً بعض الشيء عن «تفسيراته» السابقة لكنه ظل متعامياً في سخافة عن الحقيقة التي مفادها أنه دمر كل آمالي في أن أصدق أي شيء يقوله، بمعنى أنه عرض هذه القصة الجديدة مستخدماً طريقته الاقناعية المألوفة كأن ذلك سيجعلني أصدق ما يقوله قال:

ـ كلنا ممثلون يا صديقي، لا أحد بيننا يبدو على ما هو عليه في الحقيقة، فنحن جميعاً نكذب في بعض الأوقات والبعض منا يكذب في جميع الأوقات.

ـ باستثنائي أنا.

ـ ما زال أمامك الكثير الذي ينبغي أن تتعلمه، وأنت بعيد عن ذاتك الحقيقية، مأساة الإنسان البالغ الثراء أن رصيده في البنك لا يقدم له أية مفاجآت، سواء سارة أو غير سارة، وأعترف أن هذا كان أكثر الأمور طموحاً لإبداعاتنا لسبب واحد أنه قد لا تكون هناك سنة أخرى بالنسبة لي.

إنه يبدو لائق صحياً، مما أبعد أي تعاطف مهما كان الأمر، قلت: استمع إليَّ ياسيد كونشيس، أعرف الكلام الذي كنت تقوله لجولي عن الأوقات المتبقية من هذا الصيف، أنا لم أجيء إلى هنا لكي أحرص على الدخول في مشاجرة معك، فهل يمكننا أن نكف عن الكلام الفارغ المثير للسخرية وأنني خيبت آمالك بطريقة ما؟.

«أقول لك باعتباري المخرج إنك فشلت في الحصول على دور، وإنك حتى لو حصلت على دور فإن ذلك لم يكن ليحقق رغبتك، فالفتاة الشابة التي تعتبرها فاتنة، والتي من المقرر أن تكون نقطة الختام في هذا الصيف.

- أود أن أسمع ذلك الكلام منها.

- لم تعد لديك الرغبة في مشاهدتها مرة أخرى، لقد انتهت الملهاة.

- ولكنني أعتزم مشاهدة منزل الممثلة فيما بعد.

- لقد وعدت بذلك، ما في ذلك شك، لكن وعودها لا قيمة لها، فكل شيء هنا دهاء وخداع، إنها تمثل وتسلي نفسها معك، وهي تقوم بدور أوليفيا.

- وأنا أفترض أن اسمها ليس جولي هولمز؟

- اسمها الحقيقي هو: ليلى.

فابتسمت ابتسامة عريضة حتى إنني اضطررت لأن أبدي إعجابي بقدرته على إخفاء ضحكاته، سألت: هل يمكن لي مشاهدتهما الآن؟

- إنهم في أثينا، ولن تشاهد ليلى أو روز ثانية.

فقلت في عدم تصديق مليء بالتهكم: روز؟ أنت لست بلطجياً، ولم يعد أحد يشير إلى فتيات من نفس سنهما بأسمائهن المجردة بدون أن يسبق الاسم كلمة «آنسة».

ـ لن تشاهدهما ثانية.

ـ سوف أشاهدها، أولاً لأنك تريدني أن أشاهدهما، وثانياً: لا شيء يمكنه أن يمنعني من مشاهدة جولي، وثالثاً: ليس من حقك التدخل في العلاقات الشخصية المتبادلة بيني وبينها.

ـ أوافق أن تلتقي بها إذا كانت العلاقات الخاصة صادقة وحقيقية من كلا الطرفين.

تحكمت في أعصابي وجعلت صوتي يتسم بمشاعر عدوانية أقل قائلاً: وأنا أعرف أنك تتصف بالنواحي الإنسانية بحيث لا يمكنك أن تفكر أنه باستطاعتك أن تتحكم في عواطف الناس بسهولة.

ـ المسألة أبسط مما تظن، عندما تتقن الحبكة القصصية.

ـ الحبكة الحالية دمرت، موضوع «القلوب الثلاثة»، وأنت تعرف ذلك أفضل مني، اعترفت بالكثير للفتاتين، فلماذا تجعلني أظن أنك لم تفعل ذلك؟

يا سيدي كونشيس، نحن في أشد الحاجة للإقناع، يسعدنا جميعاً أن نعترف أننا واقعون تحت تأثير فتنتك الساحرة، وفي نطاق حدود معينة، نحن مبتهجون بحيث لا يمكننا أن نتذمر من أي شيء يجيء في خطتك التالية.

ويبدو أن كلامي قد أحدث تأثيراً عليه، فشعرت للحظات قليلة أنني كسبت الجولة، ولكن عينيه سقطتا عليَّ مرة أخرى فأدركت أنني لم أكسب الجولة، قال: خذ نصيحتي، عد إلى إنجلترا وسوي خلافاتك بطريقة ودية مع تلك الفتاة التي حدثتني عنها، وتزوجها وكون لنفسك أسرة، وتعلم كيف تعيش وفق شخصيتك الحقيقية.

فأشحت بوجهي بعيداً، وأردت أن أصيح في وجهه قائلاً: إن آليسون

ماتت، وإنني لا أستطيع أن أفعل ذلك لأنه قد نسج حياتي مع حياة جولي إلى حد كبير.

كدت أخبره أنني لا أريد منه المزيد من حالات الغش والخداع والكلام الذي يحتمل أكثر من معنى والذي يعتبر عقيماً، ولكنني التزمت الهدوء والصمت، سألت: هل هذا هو رأيك؟ مجرد الزواج وتكوين أسرة ووظيفة ثابتة؟

ـ معظم الناس يعيشون على ذلك النحو.

ـ إنني أفضل الموت على ذلك.

هز كتفيه في أسف كأنه لم يعد تهمه مشاعري، ثم نهض واقفاً فجأة.

وقال: لسوف نتقابل ثانية لنتناول العشاء معاً.

ـ أود مشاهدة يختك.

ـ هذا أمر عسير.

ـ أريد التحدث مع الفتاتين.

ـ قلت لك إنهما في أثينا، وأنا أنوي أن أخبرك هذه الليلة بشيء يتعلق بجنسنا وحدنا بمعنى أنه شيء لا علاقة له بالمرأة.

الفصل الأخير:

لقد ضمنت بالفعل المقصود من وراء هذا الكلام.

استدار وسار في مشية عسكرية إلى داخل منزله، كنت غاضباً منه إلا أن غضبي كان ناجماً عن نفاذ الصبر أكثر مما هو ناجم عن الخوف، وافترضت أنني أنا وجولي قد أفسدنا تسليته وأننا تمكنا من اختراقه بطريقة لم يحبها، وربما على نحو أسرع مما كان يتوقع، وكنت أدرك أن الفتاتين في اليخت، وأنني لو لم أتمكن من مشاهدتهما في هذا

المساء فسأشاهدهما في اليوم التالي، والتقطتُ كعكة ورحت أتناولها وأنا غارق في التفكير.

فكرت أن علينا أن نستمر، فكل ما مررت من تجارب كان مجرد نوبة من الخداع في الجانب المبكر من لعبة بوكر، فالمقامرة الحقيقية لم يجئ موعدها بعد.

تذكرت وجبة الغذاء على نفس المنضدة منذ أسبوعين ثم نظرت إلى خارج صف الأعمدة، ربما كانت الأختان تنتظران ما بين أشجار الصنوبر.. ربما لم يكن الأمر سوى هذه الطريقة الدؤوبة الخاصة به والتي تجعلني أنظر، وأخذت حاجياتي إلى الدور العلوي ووضعتها في غرفتي ثم رحت أبحث تحت الوسادة وفي دولاب الملابس على أمل أن تكون جولي قد تركت رسالة صغيرة لي، ولكنني لم أعثر على أي شيء، ثم خرجت من الغرفة.

بدأت أتنزه وأسير الهوينى في أرجاء الضيعة تحت الهواء الخالي من النسيم، وانتظرت في كافة الأماكن السابقة، التفت هنا وهناك أنظر إلى الوراء مع إرهاف السمع، إلا أن كافة المناظر الطبيعية بدت صامتة ولم يظهر لي أي شخص، حتى اليخت لم يكن به دلائل تشير إلى وجود حياة بداخله ولو أني لاحظت أن الزورق البخاري كان فوق الماء، بدا المسرح خالياً مثل باقي المسارح الخالية، لقد أصبح في نهاية الأمر كئيباً وموحشاً بعض الشيء.

تقرر أن نتناول طعام العشاء تحت صف الأعمدة، وكانت المنضدة المعدة لشخصين قد وضعت في أقصى الطرف الغربي بحيث تطل على الأشجار، ووضعت منضدة أخرى بالجزء الأمامي عند السلم الرئيسي وقد وضع عليها الشيري والأوزو بالإضافة إلى الماء وسلطانية مليئة بالزيتون.

كنت قد قررت في أثناء انتظاري أن أكون أكثر دبلوماسية، وساورتني الشكوك في أنني كلما ازداد غضبي ازداد شعوره بالبهجة، واضطررت أن أرضى بالأمر الواقع وهو عدم مشاهدة الفتاتين وأن أتظاهر بتقبلي للتفسير الذي أبداه، وجاء في صمت إلى حيث أقف، فابتسمت له.

صببت له نصف كأس وناولته له، ثم قلت: إنني آسف للغاية إذا كنت قد أتلفت خططك، فشرب نخبي في صمت وقال: خططي هي كل شيء، وأنت لا تستطيع أن تتلفها.

ـ لكنك أدركت أننا سنواصل القيام بالأدوار التي أعطيتها لنا وينبغي أن ندرك حقيقة هذه الأدوار.

نظر نحو الشاي وقال: الهدف من وراء المسرح السامي أن نسمح للمشاركين بأن يدركوا المرامي الكامنة في الأدوار الأولى، لكن ذلك ليس سوى التأزم السابق لذروة المسرحية.

أي ما يسبق الفصل النهائي، إنها الكوميديا، وفقاً لما تكون عليه الحالة.

ـ وفقاً للحالة التي تعتمد عليها؟

ثم قفزت بسؤالي التالي عليه عقب مرور لحظات من الصمت مع استخدامي لنفس الأسلوب: إلى أي حد تعتبر كراهيتك لي جزءاً من دورك الخاص؟.

لم تظهر عليه الحيرة وقال: إبداء الميل والارتياح نحو الشخص الآخر ليس له أهمية، بين الرجال.

فشعرت بالأوزو يتسرب في كياني، ثم قلت: حتى ولو كنت لا تشعر بالارتياح نحوي؟

ـ أشعر بالارتياح نحو عدد قليل من الناس، الذين هم في نفس عمرك ومن جنسك، فالشعور بالارتياح نحو الآخرين، وهم وخداع

نرحب به في داخل أنفسنا إذا كان علينا أن نعيش في مجتمع، وهو وهم قد تخلصت منه منذ فترة طويلة وأبعدته عن حياتي هنا، أنت ترغب في أن تكون محبوباً من الآخرين، وأنا أيضاً، وربما ستعرف ذات يوم معنى هذه الرغبة، وعندئذ سوف تبتسم، ليس عندي وإنما معي.

التزمت الصمت للحظات، ثم قلت: كلامك يشبه كلام جراح، شغوف بالعملية الجراحية أكثر من المريض نفسه.

ـ لا أحب أن أضع نفسي بين يدي جراح لا يتخذ وجهة النظر تلك.

ـ إذن يمكن القول إن مسرحك السامي هو في حقيقة الأمر مسرح طبي؟.

وظهر ظل ماريا خلفي لدى إحضارها سلطانية مليئة بالحساء إلى المنضدة ـ البيضاء الفضية الغارقة في بركة من ضوء المصباح، قال: لعلك تنظر إلى المسرح السامي على ذلك النحو، أما أنا فأفضل أن أنظر إليه على أنه مسرح ميتافيزيقي، وأعلنت ماريا أنه يمكن لنا أن نجلس على مقعدينا، فرد على كلامها بانحناءة خفيفة من رأسه ولكنه لم يتحرك من مكانه، ثم أضاف قائلاً: المسألة وقبل كل شيء نوع من الهروب من التصنيفات.

ـ أقرب إلى الفن منه إلى العلم؟

ـ كافة أنواع العلوم الجيدة هي فن، وكافة أنواع الفنون الجيدة هي علم.

وبهذه العبارة الجميلة من حيث الشكل، الجوفاء من حيث الجوهر، وضع كأسه على المنضدة وتحرك نحو المنضدة الأخرى الخاصة بالطعام، فتحدثت إلى ظهره في أثناء سيري وراءه، يبدو لي أنني الشخص المصاب بالفصام بالفعل هنا.

فلم يجب عليَّ إلى أن أصبح جالساً على كرسيه، ثم قال:

الأشخاص المصابون بالفعل بالفصام ليس لهم خيار في الوضع الذي هم عليه.

ووقفتُ في مواجهته: إذن فأنا شخص غير مصاب بفصام حقيقي؟

وما إن شرعنا في تناول الطعام حتى سمعت وقع أقدام أشخاص بالقرب من كوخ ماريا، فرفعت بصري عن الحساء لكي أنظر ورائي، ولكن المنضدة كانت قد وضعت بحيث يتعذر عليَّ رؤية أي شيء، ومما لا شك فيه أن ذلك تم بشكل متعمد.

قال كونشيس: أود أن ألقي على قصتي المزيد من الإيضاح عن الطريق ضرب الأمثلة.

وأشار أنه ينبغي لي الاستمرار في تناول الطعام لأنه لن يقول أي كلام آخر، سمعت وقع أقدام على الفراندة فوق رأسينا تماماً، انتهيت من تناول حسائي وفي أثناء انتظارنا قيام ماريا بإحضار باقي أصناف الطعام حاولت التهدئة من روعه واسترضاءه، فقلت: يؤسفني أنني لن أسمع منك المزيد عن حياتك في فترة ما قبل الحرب.

علق قائلاً: هناك بعض الصدق فيما قلته لك، كان هناك حدث مهم في حياتي يعتبر متشابهاً مع القصة التي ابتكرتها، كان هناك دائماً صراع في داخل كياني ما بين السر الغامض والمعنى، لقد اقتفيت أثر المعنى وسعيت وراءه ونظرت إليه نظرة تقديس باعتباري طبيباً عقلانياً، وبعدئذ أدركت أن محاولة إضفاء الطابع العلمي على الحقيقة ومحاولة تسميتها وتصنيفها ومحاولة تشريحها وعزلها عن الوجود هو أمر أشبه بمحاولة تسميتها وتصنيفها ومحاولة تشريحها وعزلها عن الوجود هو أمر أشبه بمحاولة إبعاد الهواء عن الغلاف الجوي، وفي أثناء خلق الفراغ الكوني كان القائم بالتجربة هو الذي مات لأنه كان موجوداً في داخل الفراغ الكوني.

ـ هل دخولك في عالم الثراء كان أشبه بقصة دوكانز؟

رد: لقد ولدت غنياً، ولم أولد في إنجلترا.

ـ من المؤكد أنك ولدت في مكان ما.

ـ منذ فترة طويلة لم أعد أهتم بمثل هذه الأمور المتعلقة بي وفق تلك المصطلحات.

ـ من المؤكد أنك عشت في إنجلترا.

وأحضرت ماريا طبقاً مليئاً بلحوم مطهية على نار هادئة وأخذت أطباق الحساء الشاغرة ثم ساد الصمت، ولكنه لدى مغادرتها المكان نظر إليَّ على نحو غير متوقع، كان عنده كلام آخر يريد أن يقوله: الثروة هي مارد شديد البأس، إنها وحش كاسر، والأمر يستغرق شهراً لكي يتعلم المرء كيف يسيطر على الثروة ويستغرق سنوات لكي يتعلم كيف يتحكم فيها من الناحية النفسية، لقد عشت حياة مليئة بالأنانية، وقدمت لنفسي كل بهجة من مباهج الحياة، فسافرت كثيراً، وفقدت بعض الأموال في مجال المسرح وكسبت الكثير من الأموال في سوق الأوراق المالية، لقد كسبت أيضاً العديد من الأصدقاء وبعضهم قد حقق شهرة كبيرة، لكنني لم أكن سعيداً للغاية في أي وقت من الأوقات، لقد اكتشفت ما لم يكتشفه بعض الأغنياء.

ـ وهو أننا لدينا جميعاً مقدرة معينة على السعادة والتعاسة، وأن ذلك الأمر لا تؤثر فيه المقامرات الاقتصادية تأثيراً خطيراً.

ـ متى بدأت في مسرحك هنا؟

ـ اعتاد الأصدقاء أن يجيئوا، كانوا يشعرون بالملل وكثيراً ما كانوا يسببون لي الضجر، ويمكن لشخص مسلّ في لندن أو باريس أن يصبح إنساناً لا يطاق عندما يكون في جزيرة في بحر إيجة، كان لدينا مسرح صغير مثبت وخشبة للمسرح.

ـ هل ظللت على اتصال بالأشخاص الذين جاءوا قبلي؟

كان يأخذ لنفسه كمية ضئيلة من اللحوم المطهية على نار هادئة، ثم قال: «قبل الحرب، كنا نمثل مسرحيات من تأليف رجال آخرين، أو نمثل ترجمات لها، لم نكن نمثل مسرحيات من تأليفنا.

ـ حدثني باربا عن عروض للألعاب النارية، لقد شاهد هو تلك العروض عندما كان في زورقة بالبحر.

أومأ برأسه إيماءة خفيفة، ثم قال: لقد شاهد إحدى الليالي المهمة في حياتي دون أن يدرك ذلك، حدث ذلك في عام ١٩٣٨، لقد اشعلت النيران في مسرحي في المبنى، وكانت الألعاب النارية احتفالاً بذلك.

تناول كمية ضئيلة للغاية من اللحم وقبل أن أنتهى من تناول كل ما في طبقي بوقت طويل نهض واقفاً على قدميه، وقال: خذ راحتك في تناول الطعام، ولسوف أعود إليك.

ثم اختفى داخل المنزل، وبعد وقت قصير سمعت أصواتاً خافتة تتكلم اليونانية في الدور العلوي، ثم ساد الصمت مرة أخرى، وأحضرت ماريا طبق الحلوى ثم أحضرت القهوة، رحت أتشبث بآمال لا رجاء فيها بأن جولي وأختها قد تجيئان، كنت في مسيس الحاجة إلى دفئهما وإلى حالتهما الطبيعية وإلى لغتهما الإنجليزية السليمة، لقد كان كلامه طوال فترة تناولنا الطعام معاً يكتنفه شيء غريب، كان هناك شيء كئيب في داخله، شيء ينسحب إلى داخله، وكنت قد صدقت كلامه عندما أوضح لي أنه لا يحبني، وعلى نحو ما أدركت الآن أنه لن يبعد الفتاتين عني بالقوة... شعرت بشيء من الرعب لأنه عرف أنني تقابلت مع آليسون في أثينا، لقد حصل على برهان يثبت به أنني كاذب وأكثر ابتذالاً.

ظهر مرة أخرى عند عتبة حجرة الموسيقى وقد أمسك بيده مطوية من

الورق المقوي، أشار إلى المنضدة التي كانت توجد عليها المشروبات والتي أصبحت خالية بعد أن قامت ماريا بنقل ما عليها، ثم قال: أحضر كرسيين لو سمحت، وكذلك المصباح، فنقلت الكرسيين إلى هناك، وبينما كنت أنقل المصباح جاء شخص ما حول زاوية صف الأعمدة، فقفز قلبي بين ضلوعي للحظات قصيرة، لأنني تخيلت أن جولي قد جاءت أخيراً، ولكنه كان الرجل الزنجي وكان يرتدي الملابس الداكنة، وكان يحمل أسطوانة طويلة، وسار أمامنا، ثم وضع الاسطوانة على طرفها الذي به حامل ثلاثي القوائم.

سرعان ما أدركت طبيعة الأسطوانة ـ لقد كانت شاشة سينما صغيرة، وصدر صوت خشن ناجم عن ترس وسقاطة لدى قيامه بنشر المربع الأبيض اللون وتثبيته بخطاف من أعلى ومواءمة الزاوية الخاصة به، ونادى شخص ما في هدوء من منطقة علوية، أنه صوت شخص يوناني لم أعرف صاحبة.

رجع الزنجي في صمت عائداً من نفس الطريق الذي جاء منه دون أن ينظر إلينا، وخفض كونشيس من شعلة المصباح إلى أقل توهج ممكن ثم جعلني أجلس في مواجهة الشاشة، قال: ما سأقوله لك الآن قد يساعدك على فهم السبب في قيامي بإنهاء زياراتك لنا هنا ابتداء من الغد، وما سأقوله قصة حقيقية بالفعل.

فلم أرد عليه رغم أنه ظل صامتاً للحظات كأنه يتوقع مني أني أعترض على ذلك، وأضاف، أود منك أن تنظر بعين الاعتبار إلى أن تلك القصة لا تحدث إلا في عالم يعتبر فيه الرجل نفسه أعلى من المرأة ومتفوقاً عليها، في العالم الذي يسميه الأمريكان باسم «عالم الرجل» عالم تتحكم فيه الوحشية والغطرسة الخالية من روح الفكاهة والهيبة المخادعة والغباء البدائي الذي يرجع إلى أقدم العصور الجيولوجية، الرجال يعشقون الحروب لأنها تسمح لهم بأن يتخذ شكلهم طابع

الوقار، إنهم يتخيلون أن الحروب هي الشيء الوحيد الذي يمنع النساء من السخرية منهم، فأثناء الحروب يمكن للرجال تخفيض قيمة النساء بحيث يصبحن مجرد أشياء، وذلك هو الفارق الهائل بين الجنسين، الرجال يشاهدون الأشياء، والنساء من يشاهدن العلاقة ما بين الأشياء، إنه بعد إضافي للمشاعر غير موجود لدينا نحن الرجال وذلك هو السبب الذي يجعل الحروب بغيضة من وجهة نظر النساء الحقيقيات، ولسوف أحدثك عن جوهر الحرب، الحرب هي الاختلال العقلي الحاد الناجم عن عدم المقدرة على رؤية العلاقات الموجودة بين الأشياء، أو رؤية العلاقات الموجودة بين زملائنا من الرجال، أو رؤية علاقاتنا مع موقفنا التاريخي ووضعنا الاقتصادي، وأولاً وقبل كل شيء عدم القدرة على رؤية علاقاتنا بالعدم، بالموت.

وتوقف عن الكلام، كان وجهه المتواري وراء القناع مسحوباً إلى الداخل تماماً على نحو لم أره عليه من قبل، ثم قال: لسوف أبدأ.

(٤٩)

«عندما قام الإيطاليون بغزو اليونان عام ١٩٤٠ قررت عدم الهرب، ربما كان السبب هو مجرد حب الاستطلاع، أو الشعور بالذنب إذا هربت، أو اللامبالاة، وهنا في هذا المكان الذي يقع في ركن بعيد بجزيرة بعيدة نائية لم يستلزم شجاعة كبيرة، وحل الألمان محل الإيطاليين في ٦ أبريل ١٩٤١، وبحلول يوم ٢٧ أبريل وصل الألمان إلى أثينا، وفي شهر يونيو بدأوا غزوهم لجزيرة كريت ودخلنا في عنفوان الحرب لفترة من الوقت، كانت طائرات النقل تمر في الجو طوال النهار وكانت الزوارق الألمانية الخاصة بإنزال الجنود ومعداتهم إلى البر تملأ المواني، ولكن بعد ذلك سرعان ما خيم السلام والهدوء على الجزيرة، لم تكن للجزيرة قيمة استراتيجية سواء بالنسبة للمحور أو

بالنسبة للمقاومة، وكانت الحامية هنا صغيرة للغاية، أربعون من النمساويين ـ فالنازيون كانوا يعطون النمساويين والإيطاليين كافة مواقع الاحتلال السهلة ـ تحت قيادة ضابط برتبة ملازم جُرح في أثناء غزو فرنسا.

«وفي أثناء غزو جزيرة كريت صدرت الأوامر لي بالفعل بمغادرة بوراني، وتم إقامة نقطة مراقبة دائمة هنا، وصيانة نقطة المراقبة هذه كانت السبب الحقيقي في وجود حامية في هذا المكان، ومن حسن حظي أنني كان لدي منزل في القرية، وكان الألمان مهذبين معي، حيث قاموا نيابة عني بنقل كافة حاجياتي التي يمكن نقلها من بوراني إلى منزلي بالقرية بل ودفعوا لي إيجاراً بسيطاً نظير مبيت الجنود في بوراني، وبدأت الأمور تسير في هدوء وتستقر على ذلك النحو إلى أن تصادف أن أصيب عمدة القرية بجلطة دموية فتم استدعائي بعد مرور يومين لكي أقابل قائد الجزيرة الجديد الذي وصل إليها أخيراً، وكان ذلك القائد ورجاله متمركزين في مدرستك التي أغلقت منذ الكريسماس.

«توقعت أن أقابل ضابطاً من ضباط الإمداد والتموين مُرقى حديثاً لكني وجدت نفسي أمام شاب وسيم للغاية يتحدث الفرنسية بطلاقة مما جعله يدرك أنني أتكلم الفرنسية أيضاً بطلاقة، وكان غاية في الأدب الجم وأبدى لي بعض الاعتذار وسرعان ما تطرق إلى الموضوع الرئيسي، لقد كان يريدني أن أشغل منصب العمدة الجديد للقرية، فرفضت لأنني لم أكن أرغب في التورط في هذه الحرب على الإطلاق، ثم طلب استدعاء ثلاثة من كبار الشخصيات بالقرية، وعندما جاءوا تركني بمفردي معهم فاكتشفت أنهم هم الذين رشحوا اسمي لأكون العمدة، وكانت حقيقة الأمر بالطبع هي أنه لم يكن يوجد بينهم من يرغب في الحصول على هذه الوظيفة لأنها تنطوي على التعاون البغيض وأنا من وجهة نظرهم الشخص الملائم، وأوضحوا لي أن هذه المسألة

تتسم بالطابع الأخلاقي بالإضافة إلى أنها بمثابة تكريم كبير لشخصي.. قصارى القول إنني تقبلت هذه المهمة».

«إنه مجدي الجديد ولو أنه مجد مريب قد جعلني على اتصال مع الملازم كلوبير في أوقات كثيرة، وبعد مرور خمسة أسابيع على أول اجتماع أخبرني ذات مساء أنه يريدني أن أناديه باسمه آنطون عندما نكون بمفردنا، وهذا يوضح لك أننا كنا بمفردنا في أغلب الأحيان وأننا قد أكدنا على شعورنا بالارتياح نحو بعضنا البعض، ولقد تمت أول علاقة بيننا من خلال الموسيقى، كان له صوت تينور جميل، ومثل الكثير من الهواة الموهوبين بالفعل فإنه كان يغني لشوبيرت وولف على نحو أفضل من الآخرين باستثناء أفضل الموهوبين المحترفين، أي أفضلهم بالنسبة لأذني الموسيقية، وعندما قام بزيارته الأولى لمنزلي شاهد آلة البيان القيثارى، وفي شيء من سوء القصد عزفت له تنوعات جولدبرج فإذا أراد أحد أن يسيل دموع شخص ألماني حساس فتلك هي أفضل موسيقى يعزفها له، ينبغي ألا أوحي لك بأن آنطون كان من الرعاة الذين يصعب هزيمتهم، كان يميل إلى الشعور بالخجل من نفسه وكان يميل إلى الرغبة في العثور على شخصية مناهضة للنازية لكي يعبدها، وفي المرة التالية التي زرت فيها المدرسة طلب مني أن أصطحبه إلى بيانو المدرسة الذي نقله إلى المسكن، ثم جاء الدور عليَّ لكي أشعر بالتأثر العاطفي، ولكن ليس إلى حد ذرف الدموع».

«ومن أوائل الأمور التي أردت أن أعرفها هو السبب في أن آنطون لم يوضع في فرنسا المحتلة رغم إجادته التامة للغة الفرنسية، ويبدو أن «مواطنين معينين» اعتبروه «ليس ألمانيا بالقدر الكافي»، من حيث اتجاهاته إزاء الفرنسيين، ومما لا شك فيه أنه تحدث أكثر من مرة في المطعم العسكري كلاماً يعتبر دفاعاً عن ثقافة بلاد الغال، وذلك هو السبب في تخفيض رتبته العسكرية ونقله بشكل مؤقت إلى هذه المنطقة

النائية، نسيت أن أخبرك أنه أصيب في عام ١٩٤٠ فأصبح يعرج في مشيته مما جعله غير صالح لأداء المهام الحربية الميدانية، كان ألمانيا وليس نمساوياً، من أسرة غنية، قضى عاماً في الدراسة بجامعة السوربون قبل نشوب الحرب، وكان قد قرر أخيراً أن يشق طريقه في الدراسة من أجل أن يصبح مهندساً معمارياً، ولكن دراسته قد تعرقلت بالطبع بسبب نشوب الحرب».

«لم يعجبه منزلي هذا، وعدني بأن يجيء إليَّ عقب انتهاء الحرب ليشيد لي منزلاً آخر جديداً بما يتمشى مع أفضل النظريات».

وكشف لي عن الخرائط المكتوبة باللغة الفرنسية، وكانت الرسومات التصميمية عليها التوقيع التالي، آنطون كلوبير وتركني أنظر في مزيد من التمعن للحظات أخرى قليلة ثم خفض من شعلة المصباح مرة أخرى.

وعلى مدى سنة في أثناء الاحتلال كان كل شيء معقولاً ومريحاً، وكان لدينا نقص شديد في الطعام ولكن آنطون ورجاله أغمضوا أعينهم عن انتهاكات القوانين والأصول المرعية، وكانت تلك الانتهاكات عديدة بلا حصر، بمعظم الجنود النمساويين كان عمرهم يزيد على أربعين عاماً أي أنهم كانوا هم أنفسهم من الآباء ـ وبذلك كانوا يعطفون على الأطفال بالقرية.. وفي فجر أحد الأيام الصيفية عام ١٩٤٢ جاءت طائرة تابعة للحلفاء وألقت طوربيداً على زورق للمؤن ألماني كان راسياً في الميناء القديم استعداداً لاستئناف رحلته إلى جزيرة كريت، فغرق الزورق، وطفت على السطح مئات من صناديق الطعام، وفي ذلك الوقت لم يكن سكان الجزيرة قد تناولوا أي نوع من الطعام، باستثناء السمك والخبز الرديء، وكان منظر كل تلك الصناديق المليئة باللحوم واللبن والأرز وغير ذلك من الأطعمة الفاخرة أكثر مما يستطيع الأهالي احتماله، فتجمعوا وراحوا يلتقطون أي شيء يطفو على سطح الماء، وأخبرني شخص ما بما حدث فأسرعت إلى الميناء، كان للحامية مدفع عند

اللسان الممتد إلى داخل المياه وكان ذلك المدفع قد قصف طائرة الحلفاء في وحشية غاضبة وبذلك تخيلت مناظر رهيبة لمذبحة انتقامية، ولكنني عندما وصلت إلى هناك شاهدت أهالي الجزيرة منهمكين في جر صناديق الطعام، على مسافة لا تزيد على مائة ياردة من موقع المدفع، وكان آنطون يقف خارج نطاق اللسان ومعه الفرقة العسكرية الصغيرة، ولم يطلقوا رصاصة واحدة.

وفي وقت لاحق من ذلك الصباح استدعاني آنطون، وبالطبع عبرت عن شكري الجزيل له، وقال لي إنه كان بصدد إعداد تقرير يفيد أن العديد من بحارة الزورق تم إنقاذهم بواسطة القرويين حيث قاموا بالتجديف في البحر لإنقاذهم، ومن المؤكد أنه حصل على بعض الصناديق القليلة التي سلمت له كدليل على ما قاموا به من عمليات الإنقاذ.

«وأذكر أن مجموعة من الجنود المخمورين شرعوا في الغناء عند الميناء ذات مساء عقب حادث الزورق بحوالي شهر، وعندئذ بدأ أهالي الجزيرة يشاركون في الغناء، وكان ذلك أمراً غريباً للغاية، وفي النهاية تغنوا جميعاً بأغنيات بعضهم البعض.

«كان ذلك هو قمة عصرنا الذهبي الضئيل فمن المؤكد أنه كان هناك جاسوس في مكان ما بين الجنود النمساويين، فبعد مرور أسبوع تقريباً تم إرسال فرقة عسكرية صغيرة تضم عدداً من الجنود الألمان للانضمام إلى حامية آنطون بهدف «تقوية المعنويات»، وجاء إليَّ آنطون ذات يوم مثل طفل غاضب وقال: قيل لي إنني في خطر لأنني بصدد أن أصبح إنسانا يقوم بنزع الثقة من جيش الدفاع الألماني وبذلك ينبغي لي أن أحسن من سلوكي، وتم منع جنوده من إعطاء الأطعمة لأهالي الجزيرة ولم نعد نشاهد جنوده يتجولون بالقرية كثيراً مثلما كان يحدث من قبل، وفي شهر نوفمبر، ومن حسن حظي أن القرويين كانوا قد منحوني ثقة

أكثر مما أستحق بسبب البساطة في أسلوب الحكم، ولذلك تقبلوا الموقف على أحسن وجه يمكن أن يتوقع منهم».

وتوقف كونشيس عن الكلام، ثم صفق بيديه مرتين.

«أودك أن تشاهد آنطون».

ـ أعتقد أنني شاهدته بالفعل.

ـ لا، فآنطون قد مات، لقد شاهدت ممثلاً يشبهه، ولكن هذا هو آنطون الحقيقي، وفي أثناء الحرب كان لديَّ كاميرا سينمائية صغيرة وبكرتا فيلم، وقد احتفظت بهما حتى عام ١٩٤٤ حيث قمت بتحميضهما، ولكن النوعية رديئة للغاية».

وسمعت الصوت الخفيف الذي ينبغي من آلة العرض السينمائي، وترامى شعاع من الضوء من أعلى وتم ضبطه ومواءمته وتركيزه على الشاشة، وظهرت صورة مشوشة وتجميع متسرع في البؤرة.

وشاهدت شاباً وسيماً من نفس عمري تقريباً، لم يكن هو نفس الشخص الذي شاهدته في الأسبوع السابق وإن كان له نفس الملامح وخاصة بالنسبة لحواجب العينين القاتمة الكثيفة حيث كانت متشابهة للغاية، إنه ضابط من زمن الحرب على نحو لا يدع مجالاً للشك، وبدا أشبه ما يكون بطيار يتسم باللامبالاة، وكان يسير على مدق بجوار حائط مرتفع، لعله حائط منزل هيرميز وكان مبتسماً، وكان صوته يميل إلى الصوت التبنور العالي البطولي في الغناء وكان يضحك في شيء من الخجل أو الارتباك، فجأة انتهت اللقطات السينمائية التي تتابعت على مدى عشر ثوان، وفي اللقطة التالية كان يحتسي القهوة ويلعب مع قطة، بدت نظراته وقورة تتسم ببعض الحذر كما لو كان شخصاً ما قد نبهه لكي لا يبتسم، وظهرت لقطة سينمائية أخرى، طابور من الرجال يسيرون عند ميناء الجزيرة ويبدو أن تلك اللقطة قد صورت من مكان

مرتفع أو من نافذة بالدور العلوي، قال: ذلك هو آنطون، إنه في المؤخرة، كان يعرج خفيفاً، أدركت أنني كنت أرقب الحقيقة غير القابلة للتزييف، وإلى ما وراء الرجل شاهدت رصيف ميناء عريض حيث يوجد به مبنى الجمرك الصغير ومبنى حرس الحدود.

أدركت أن هذه المباني الصغيرة قد شيدت منذ نشوب الحرب، وفي هذا الفيلم كان رصيف الميناء شاغراً.

وبعدئذ أطفئ شعاع الضوء.

لقد التقطت مناظر أخرى ولكن بكرة واحدة أصابها التلف، وتلك البكرات هي كل البكرات التي تمكنت من إنقاذها عقب الحريق، أما الضابط المسئول عن «تدعيم المعنويات» في هذه المنطقة فكان برتبة كولونيل ويسمى فميل ديتريش، وبحلول ذلك الوقت الذي أتحدث عنه كان حركات المقاومة قد بدأت بالفعل في بلاد اليونان، في كل مكان تسمح فيه التضاريس الأرضية بذلك وكانت جزيرة كريت بالطبع هي الجزيرة الوحيدة من بين كافة الجزر التي كانت تسمح ظروفها بعمليات الفدائيين.. في البيلوبونيوس كانت جماعة إيلاس والجماعات الأخرى قد بدأت في تنظيم نفسها، وكان يتم إسقاط الأسلحة لها، وكان هناك أشخاص مدربون على القيام بأعمال التخريب، وكان فميل قد أحضر إلى نوبليا في أواخر عام ١٩٤٢ من بولندا نظراً لما حققه من نجاح كبير هناك، وكان مسئولاً عن الأجزاء الجنوبية الغربية من اليونان وهي الأجزاء التي تشملنا، كان لدي فيميل أساليب غاية في البساطة، إذ كان لديه قائمة أسعار تنص على الآتي: إذا جرح أي ألماني يتم إعدام عشرة من أسرى الحرب المحتجزين كرهائن، وإذا قتل أي ألماني يتم إعدام عشرين من أسرى الحرب المحتجزين كرهائن وكانت هذه الطريقة ناجحة بالفعل.

وكان يعمل تحت قيادته مجموعة منتقاة من الوحوش الذين كانوا

يقومون بالاستجواب والتعذيب وتنفيذ حكم الإعدام وغير ذلك من الأهوال، وكانوا يعرفون باسم: الغربان السود.

«قابلته قبل أن تصبح بشاعته معروفة على نطاق واسع، وذات صباح في الشتاء سمعت أن زورقا ألمانيا قد أحضر على نحو غير متوقع ضابطاً مهما إلى الجزيرة، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم استدعاني آنطون، وتم تقديمي في مكتبه إلى رجل نحيل ضئيل الحجم، إنه من نفس طولي وسني، وكان في غاية الأناقة والنظافة وكان مؤدباً للغاية، ونهض واقفاً ليصافحني بيده، وكان يعرف قدراً ضئيلاً من اللغة الإنجليزية وعلى نحو يكفي لكي يدرك أنني أتكلم الإنجليزية بشكل أفضل منه، وعندما اعترفت له أنني كانت لدى ارتباطات ثقافية عديدة مع إنجلترا وأنني قد حصلت على قسط من التعليم هناك، قال: «أكبر مأساة في وقتنا هذا هي دخول إنجلترا وألمانيا في حروب ضد بعضهما البعض» وأوضح آنطون الموقف قائلاً إنه قد سبق له أن تحدث مع الكولونيل عن أمسياتنا الموسيقية وإن الكولونيل أبدى رغبته في أن أنضم إليهما على مأدبة طعام الغذاء».

لم أشعر بالارتياح نحو الكولونيل على الإطلاق، كانت له عينان حادتان مثل شفرة الحلاقة، إنهما أسوأ عينين شاهدتهما في وجه كائن بشري، كانتا خاليتين تماماً من أي حنان إزاء أي شيء يقع بصرها عليه، لا شيء سوى التقييم والتخمين والظنون، ولو كانت هاتان العينان تتصفان بالوحشية أو الفجور أو الدعارة أو السادية لكانتا أفضل حالاً، ولكنهما كانتا عينين آليتين.

آلة مثقفة متعلمة، تناولنا أشهى وجبة غذاء حتى إنني لم أتناول وجبة رائعة مثلها منذ شهور عديدة، وتناقشنا في موضوع الحرب مثلما يتكلم الناس عن الأحوال الجوية، وكان الكولونيل نفسه هو الذي غير موضوع الحديث وتطرق إلى الأدب، كان من الواضح أنه قارئ ممتاز حيث كان

يعرف شكسبير وجوته وشيللر معرفة جيدة، فقد قام بعقد مقارنة أدبية بين الأدب الإنجليزي والأدب الألماني ولم يكن كلامه كله في صالح الأدب الألماني، ولاحظت أن آنطون كان غير ملتزم بالحذر بالنسبة للكلام الذي يقوله، لقد كنا نحن الاثنين تحت المراقبة في حقيقة الأمر، وقد أدركت هذه الحقيقة بعد مرور بعض الوقت في أثناء تناولنا الطعام، وعرف الكولونيل أنني أدركت ذلك، وقمنا نحن الرجلان الأكبر سنا باستقطاب الموقف، وأصبح آنطون لا صلة له بالمناقشات، كان الكولونيل من النوع الذي يشعر بازدراء واختفاء الموظف اليوناني العادي وكان تكريماً كبيراً لي أن يعاملني كشخص متساو معه تماماً، ولكنني لم أخدع.

وعقب تناول طعام الغذاء أدينا قدراً ضئيلاً من الغناء من أجله ـ فعبر عن شكره، ثم أعلن عن رغبته في التفتيش على نقطة برج المراقبة التي تقع عند الجانب البعيد للجزيرة ووجه لي الدعوة للذهاب معه ـ لم يكن لذلك المكان أهمية عسكرية كبيرة، لذلك انطلقت معهم في اللنش إلى موتسا وصعدنا إلى المنزل هنا، كنت سعيداً لأن المنزل لم يتعرض للدمار على الإطلاق، وقام الكولونيل باستعراض الجنود وكان يتكلم معهم باللغة الألمانية، وكان يشير إليَّ بقوله «هذا الجنتلمان» وأوضح لهم أنه ينبغي لهم احترام ممتلكاتي والحفاظ عليها.

ثم لم نشاهده بعد ذلك طوال تسعة أشهر حتى خريف عام ١٩٤٣.

كان الوقت في نهاية شهر سبتمبر، وكنت في منزلي عندما جاء إليَّ آنطون في خطوات واسعة، فأدركت أن شيئاً رهيباً قد حدث، وكان قد عاد لتوه من بوراني، وفي ذلك الصباح نزل أربعة رجال ممن هم في غير أوقات العمل الرسمية إلى شاطئ موتسا لكي يستحموا في البحر، ومن المؤكد أنهم اعتادوا على الاسترخاء وعدم الالتزام بالدقة، فقد نزلوا إلى الماء في وقت واحد، ثم خرجوا الواحد تلو الآخر وراحوا

يستمتعون بتعريض أجسامهم للشمس على الشاطئ، وبعدئذ خرج ثلاثة من الرجال من بين الأشجار الموجودة وراءهم، وكان أحدهم ممسكاً بمدفع يدوي رشاش، ولم يكن لدى الألمان فرصة للهرب، وسمع الجاويش المكلف بالحراسة الطلقات النارية من المنزل فاتصل بأنطون باللاسلكي ثم هبط نازلاً إلى موتسا لكي يلقي نظرة، فعثر على ثلاث جثث وعلى رجل واحد مصاب ظل على قيد الحياة لفترة تسمح له بأن يقول ما حدث، كان الفدائيون قد اختفوا بعد أن أخذوا بنادق وأسلحة الجنود، وعلى الفور انطلق آنطون في لانش حول الجزيرة.

«مسكين آنطون، لقد كان ممزقاً ما بين تأدية واجبه وبين محاولة تأجيل إبلاغ النبأ إلى الكولونيل فميل الرهيب، وهو بالطبع كان يدرك أنه عليه أن يكتب تقريراً عن هذا الحادث، فقام بكتابة التقرير بالفعل، لكنه لم يكتبه إلا بعد أن قابلني في المساء وقال لي: إنه ذهب في تفكيره إلى أن الفدائيين تسللوا إلى الجزيرة ليلاً ولذلك فهم لن يغامروا بالعودة من الجزيرة قبل حلول الظلام، لذلك قام بجولة في المياه حول الجزيرة في بطء شديد مع البحث في كل مكان عن زورق قد يكون مختبئاً، وبالفعل عثر على زورق بين الأشجار عند نهاية الجزيرة، ولم يكن أمامه خيار آخر، من المؤكد أن الفدائيين شاهدوه وهو يبحث، وكانت هناك أوامر عليا مشددة في مثل هذه الطوارائ، وصدرت الأوامر بتدمير وسيلة التراجع، فأشعلت النيران في الزورق، ووقعت الفئران في المصيدة.

لقد جاء إليَّ ليوضح لي كل هذه الأمور، كانت قائمة أسعار فميل أصبحت مشهورة ومعروفة لدى الجميع، أصبحنا مدينين له بثمانين رجلاً، وكان آنطون يعتقد أن لدينا فرصة واحدة، وهي أن نلقي القبض على الفدائيين ونتحفظ عليهم لحين وصول فميل، وكان وصوله مؤكداً في خلال اليوم التالي، حيث كان يمكننا على الأقل أن نبرهن على أن

الفدائيين ليسوا من أهالي الجزيرة وإنما هم مجرد عملاء، ونحن ندرك أنهم بالتأكيد من الشيوعيين لأن سياستهم ترتكز على التحريض المتعمد على الأخذ بالثأر من الألمان ـ بهدف تقوية المعنويات لدى الجانب اليوناني.

وفي تمام الساعة الثامنة من ذلك المساء استدعيت جميع الشخصيات القيادية بالقرية وشرحت الموقف لهم، ولكن الوقت كان متأخراً للغاية بحيث لم يكن هناك مجال لعمل أي إجراء، كانت فرصتنا الوحيدة هي التعاون مع جنود آنطون في تمشيط الجزيرة في اليوم التالي، كانوا غاضبين للغاية بسبب تعرض أمنهم وحياتهم لمثل هذه الأخطار الداهمة، ووعدوا أن يقضوا الليل في حراسة زوارقهم وخزانات المياه مع الانطلاق في الفجر لاقتفاء أثر الفدائيين في الأماكن القريبة من السواحل.

استيقظت من النوم في منتصف الليل لدى سماع أصوات أقدام تسير في مشية عسكرية، إنه آنطون لقد أتى ليخبرني أن الزمام قد أفلت من بين يديه، حيث صدرت إليه الأوامر بألا يتخذ أية إجراءات من تلقاء نفسه، لأن فميل سيصل الجزيرة في الصباح، وقال إن الأوامر صدرت بوضعي تحت الإقامة الجبرية، وإن جميع الذكور الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٤ سنة، ٢٧ سنة سيتم حشدهم في الفجر، قال آنطون هذا الكلام في غرفة نومي، كان يجوب الغرفة في قلق شديد بينما الدموع تكاد تتجمع في عينيه، وكنت أستمع إليه وهو يقول إنه يخجل أنه جاء إلى هذه الحياة، بل وقال إنه سيبادر إلى قتل نفسه لو لم يشعر أن من واجبه أن يحاول أن يتوسط لدى الكولونيل في خلال اليوم التالي، رحنا نتحدث سوياً لفترة طويلة، وزودني بالكثير من المعلومات عن فميل، فقد كنا منعزلين هنا عن العالم الخارجي للغاية، قال في نهاية الأمر إن

هناك شيئاً واحداً حسناً في هذه الحرب، أنها أتاحت له الفرصة كي يقابلني، ثم تصافحنا بالأيدي في نهاية هذا اللقاء.

عدت معه إلى المدرسة ونمنا هناك تحت الحراسة المشددة.

وعندما تم اقتيادي والهبوط بي إلى الميناء في صباح اليوم التالي في الساعة التاسعة كان جميع الرجال ومعظم النساء بالقرية هنالك، وكان جنود آنطون يحرسون جميع المنافذ، وكان من الواضح أن الفدائيين لم يشاهدوا، وكان القرويون في حالة من اليأس المرير، ولم يكن هناك شيء يفعلونه.

وفي تمام الساعة العاشرة وصل «الصاعقة» في زورق خاص بإنزال الجنود ومعداتهم إلى البر، وكان باستطاعة المرء أن يلحظ الفارق بينهم وبين النمساويين، كانوا أفضل من حيث التدريب ومن حيث اقتلاع المشاعر الإنسانية من قلوبهم، وكانوا صغار السن، واكتشفت أن أشد الأمور المرعبة فيهم هو شبابهم المفعم بالتعصب الشديد، وبعد مرور دقائق هبطت طائرة مائية، وأذكر ظلال جناحيها لدى سقوطها على البيوت المطلية باللون الأبيض، مثل منجل كبير أسود ذي يدين، والتقط صياد أسماك شاب زهرة هبسكوس ووضع الزهرة القانية على قلبه، وأدركنا جميعاً المعنى الذي كان يريد أن يقوله.

وصل فميل إلى الشاطئ، وكان أول شيء يفعله أنه أمر بتجميع الرجال ودفعهم إلى رصيف، ولأول مرة أدرك أهالي الجزيرة بأنهم سيتعرضون لما يشبه الركل والضرب بواسطة جنود أجانب، أما النساء فتم إعادتهم إلى الأزقة القريبة، ثم اختفى فميل في بار مع آنطون، وسرعان ما تم استدعائي، فقام جميع القرويين برسم علامة الصليب بأيديهم على أنفسهم، واقتادني اثنان من رجاله في مشية عسكرية لكي أقابله، ولم ينهض واقفاً لكي يرحب بي وعندما تكلم موجهاً كلامه إليَّ كان كمن يتحدث إلى شخص غريب عليه تماماً، ورفض أن يتحدث

بالإنجليزية، وكان قد أحضر معه مترجماً يونانياً، وكان باستطاعتي أن أدرك أن آنطون في حيرة، لم يكن يعرف ماذا يفعل بسبب الصدمة التي وقعت عليه نتيجة هذه الأحداث.

وتم الإعلان عن لوائح فميل، وأصبح الأمر يتطلب اختيار ٨٠ رهينة على الفور، على أن يقوم باقي الرجال بتمشيط الجزيرة والعثور على الفدائيين وإحضارهم ومعهم الأسلحة المسروقة، ولا يكفي إحضار جثث الفدائيين الثلاثة الشجعان، فإذا فعلنا ذلك في خلال الـ ٢٤ ساعة التالية سيتم إرسال الرهائن إلى معسكرات العمل، وإذا لم ننجح في مهمتنا سيتم إطلاق الرصاص على الرهائن.

وتساءلت عن الكيفية التي يمكن استخدامها لإلقاء القبض على الفدائيين المسلحين في حالة العثور عليهم، فنظر في ساعة يده بكل بساطة وقال باللغة الألمانية «الساعة الآن الحادية عسرة وأمامكم مهلة حتى ظهر غد».

وعند الرصيف كان عليَّ أن أكرر باللغة اليونانية الكلام الذي قيل لي، فبدأ جميع الرجال يصرخون من التذمر ويطالبون بالحصول على أسلحة حتى يتمكنوا من القبض على الفدائيين، وفي نهاية الأمر أطلق الكولونيل رصاصة من مسدسه في الهواء فساد الصمت بين الجميع، وتم تلاوة أسماء رجال القرية من الكشف لمعرفة الحاضرين، وقام فميل باختيار الرهائن بنفسه من بين صفوف الحاضرين، ولاحظت أنه قام باختيار أكثرهم صحة وعافية وممن تتراوح أعمارهم ما بين عشرين وأربعين عاماً كما لو كان يضع في اعتباره معسكر العمل، ولكنني اعتقدت أنه كان يختار أفضل العينات من أجل إعدامهم، واختار ٧٩ رجلاً وبعدئذ أشار إليَّ، لقد كنت أنا الرهينة رقم ٨٠».

تم اقتيادنا إلى المدرسة تحت الحراسة المشددة، ثم حشرونا في فصل واحد بدون تزويدنا بأي طعام أو شراب ـ وكان الصاعقة يقومون

بالحراسة علينا، كنا منعزلين عن كافة الأخبار، فلم أعرف إلا في وقت متأخر الأحداث التي تمت في أثناء ذلك الوقت.

اندفع الرجال المتبقون إلى منازلهم والتقطوا كل ما يمكن أخذه من عصي وسكاكين ومناجل ثم تقابلوا مرة أخرى فوق تلك بجوار القرية، رجال طاعنون في السن لا يمكنهم السير إلا بصعوبة وأولاد من سن العاشرة والثانية عشرة، حاولت بعض النساء الانضمام إليهم ولكن تم دفعهم إلى الوراء، لكي تكن متكفلات بعودة رجالهن.

هذه الكتيبة الحزينة راحت تتجادل وتتناقش مثلما يتناقش اليونانيون دائماً، واتفقوا على خطة معينة ثم غيروا رأيهم واتفقوا على خطة أخرى، وفي النهاية تولى شخص القيادة وحدد المواقع التي سيتم البحث فيها، انطلقوا جميعاً وكان عددهم ١٢٠ شخصاً، لم يدركوا أنهم يبحثون دون جدوى.

ظلوا فوق التلال طوال الليل حيث وقفوا على هيئة كردون مضروب حول الجزيرة ـ وكان بالطبع كردونا مفككا ـ على أمل أن الفدائيين قد يحاولون اختراق الحصار ويتجهون إلى القرية.. وفي صباح اليوم التالي راحوا يبحثون في وحشية، وفي العاشرة صباحاً فكروا في القيام بهجوم يائس على الجنود الموجودين بالقرية، ولكن العقلاء بينهم أدركوا أن تلك المحاولة لن ينجم عنها إلا مأساة مروعة، فلقد قام الألمان منذ شهرين بقتل جميع الرجال والأطفال والنساء بقرية في ماني بسبب قيامهم بأعمال استفزازية أقل خطورة.

وعند الظهيرة نزلوا إلى القرية، وكان فميل واقفاً في انتظارهم، حكى المتحدث الرسمي عن الأهالي وهو بحار عجوز كذبة عقيمة، حيث أفاد أنهم شاهدوا الفدائيين يهربون في زورق صغير، فابتسم فميل وهز رأسه وأمر بالقاء القبض على الرجل العجوز ليصبح الرهينة رقم ٨١، فما

حدث كان أمراً غاية في البساطة، إذ إن الألمان تمكنوا من الإمساك بالفدائيين، في داخل القرية، وتعال لنرى كيف كان فميل.

شعرنا بالأمل يراودنا بعد أن تم إلقاء القبض على الفدائيين وبعد مرور بعض الوقت فتح باب غرفتنا على مصراعيه، ونودي على اسمي وعلى رجل آخر: الجزار المحلّي.

وتم اقتيادنا في مشية عسكرية لنهبط على السلالم إلى خارج المدرسة نحو الجناح الذي يعيش فيه الآن مدرسوا المدرسة، وكان فميل واقفاً عن مدخل ذلك الجناح ومعه ضابط برتبة ملازم من التابعين له.

وعلى جانب السلالم خلفهما كان المترجم المتعاون مع الأعداء جالسة وقد وضع رأسه بين يديه، يبدو شاحب الوجه وكأنه أصيب بصدمة نفسية، وعلى مسافة عشرين ياردة شاهدت جثتين لفتاتين مقتولتين بجوار الحائط، وقام الجنود بدحرجة الجثتين لوضعهما فوق نقالتين لدى اقترابنا، واتخذ الضابط الملازم خطوة للأمام وأعطى إشارة للجزار لكي يتبعه.

استدار فميل ودخل إلى المبنى وتم دفعي للأمام لكي أسير وراء فميل كان يقف عند باب في نهاية الطرقة ينتظرني، وكان الضوء يتدفق من ذلك الباب، وعندما وصلت إلى هناك أشار لكي أدخل من الباب.

وأظن أن أي شخص غير طيب كان سيغمي عليه، وكان ينبغي لي أن أرحب بأن يغمي عليَّ، كانت الغرفة شاغرة، وفي وسطها منضدة وكان هناك شاب مربوط بالحبال في المنضدة، إنه أحد الفدائيين، كان عارياً تماماً باستثناء الفانلة الداخلية، الملطخة بالدماء، كانت أعضاؤه التناسلية قد اختفت.

وفي إحدى الأركان البعيدة بالغرفة كان هناك رجل آخر عار ملقى على الأرض، وكان وجهه متجهاً نحو الأرضية ولم استطع أن أتبين ماذا

فعلوا به، كان مغمياً عليه، ولن أنسى في حياتي السكون الشديد الذي كان سائداً في تلك الغرفة، كان هناك أربعة جنود ساديون مختلون عقلياً ـ أحدهم ممسك بخازوق حديدي.

وكان هناك رجل آخر مربوط في كرسي في إحدى الأركان، وكان قد تم تكميمه، رجل مثل الثور الهائل، كان مصاباً بجروح بالغة في أحد ذراعيه من الواضح أنه لم يتم تعذيبه بعد، لقد بدأ فميل أولاً مع الأشخاص الذين كان من المتوقع لهم أن يهربوا.

«أعترف أن مشاعري كانت هي الخوف الشديد، ظل فميل صامتاً لفترة طويلة لكي يتيح لي الفرصة لأفكر في عمق، فتوصلت إلى أنه سيتم تعذيبي في وحشية أيضاً، وكان العالم قد خلا من كل حكمة أو تفكير سليم، عندما يمكن للمخلوقات البشرية أن تمارس مثل هذه الأمور البشعة».

التفت إليَّ فميل، بدا كأنه الشخص الآخر المتصف بالمشاعر الإنسانية الخالصة داخل الغرفة، كان يبدو عليه الإعياء والغضب، وكأنه في حالة من الخجل بسبب الفوضى التي خلقها رجاله.

وقال لي باللغة الإنجليزية (هؤلاء الناس يفعلون ذلك من أجل التسلية، وأنا شخصياً لا أفعل ذلك، وآمل.. قبل أن يبدأوا في تعذيب ذلك السفاح الموجود هناك، أن تتحدث معه أولاً).

ـ قلت: وماذا ينبغي لي أن أقوله له؟

ـ إنني أريد أن أعرف أسماء أصدقائه، والذين يساعدونه، والأماكن التي يختبئون فيها وأماكن الأسلحة، فإذا قام بتزويدي بكافة هذه المعلومات فإنني أتعهد له بأن يتم تنفيذ حكم الإعدام فيه بطريقة عسكرية سليمة.

فتساءلت: ألم يقوموا بإخبارك بقدر كاف من المعلومات؟

فقال فميل: قالوا كل ما يعرفونه ولكن هذا الرجل يعرف المزيد، ولقد تمنيت أن أقابل هذا الرجل، وباستطاعة أصدقائه أن يدفعوه إلى التكلم، ولا أعتقد أننا سننجح في حفزه على التكلم، أما أنت فربما توفق في ذلك، ولسوف تنصحه بأن يقول كل المعلومات التي يعرفها، وإنه لن يشعر بالذنب مادام أنه قد تم إلقاء القبض عليه وتم إرغامه على التكلم، أتفهمني؟ تعال معي.

وذهبنا إلى غرفة أخرى شاغرة مجاورة، وبعد لحظات قليلة تم سحب الجريح الذي كاد لايزال مربوطاً في كرسيه ووضع في منتصف الغرفة، قدم لي كرسياً لكي أجلس في مواجهته، وجلس الكولونيل في المساحة الخلفية، وأمر رجال التعذيب بالخروج من الغرفة، فبدأت أتكلم مع الجريح.

وقلت نفس الكلام الذي أمرني الكولونيل بأن أقوله، بمعنى أنني توسلت للرجل بأن يقول كل المعلومات التي يعرفها، قد تقول إنني فعلت بذلك أموراً غير شريفة لأنك تفكر في العائلات الذين سيفشي سرهم هذا الرجل، ولكنني في تلك الليلة عشت في هاتين الغرفتين، إنهما بمثابة الحقيقة الوحيدة، فالعالم الخارجي لم يكن موجوداً على الإطلاق، وشعرت أن من واجبي هذه الأمور الوحشية التي يتعرض لها الآدميون، وشعرت أن عناد هذا الرجل يزيد الأمور تعقيداً.

أخبرته أنني لست متعاوناً مع الأعداء، وأنني طيب، وأن عدوي الحقيقي هو المعاناة الإنسانية، أخبرته أنني أتكلم دفاعاً عن اليونان عندما أقول له إن الله سيغفر له إذا تكلم لأن أصدقاءه عانوا بما فيه الكفاية، وقلت له كل حجة منطقية خطرت على ذهني.

ولكن التعبيرات التي ظهرت على وجهه كانت تنم عن العداء الشديد نحوي، ومقته الشديد لي، ويبدو أنه لم يكن يصغي لأي كلام أقوله له،

ومن المؤكد أنه اعتقد أنني متعاون مع الأعداء وأن الكلام الذي قلته له من قبيل الأكاذيب.

لم أستطع إخفاء فشلي الذريع، ومن المؤكد أن الكولونيل أعطى إشارة للحراس بالخارج لأن واحداً منهم دخل الغرفة ووقف وراء الرجل الكريتي وفك الكمامة، وعلى الفور أصدر الرجل صوتاً كالزئير ـ وقد برزت كل أوتار حلقه ـ ناطقاً بنفس الكلمة، بتلك الكلمة الوحيدة: الحرية، لم يكن هناك شيء نبيل في هذه الكلمة، كانت بمثابة وحشية خالصة، كما لو كان يلقي بصفيحة من البنزين المشتعل علينا، فدفع الحارس بالكمامة في وحشية مرة أخرى على فمه ولواها إلى الداخل وربطها.

بالطبع لم تكن هذه الكلمة بالنسبة له بمثابة فكرة أو مفهوم ذهني أو مثل أعلى، لقد كانت بكل بساطة هي سلاحه الأخير.

فقال الكولونيل (عد به وانتظر لحين أن أصدر لك تعليمات أخرى) وتم جر الرجل إلى تلك الغرفة المشئومة وسار الكولونيل إلى النافذة، وأطل على الظلام ثم التفت إليَّ وقال.

ينبغي لي أن أجعلك تشاهد الحوار الذي سيتم بين رجالي وبين ذلك الحيوان، سألني عما إذا كنت أعتقد أنه يستمتع بمثل هذه المناظر، فلم أرد عليه، ثم قال: إنني سأكون سعيداً للغاية إذا جلست في مركز القيادة وبحيث لا أفعل شيئاً سوى التوقيع على الأوراق والاستمتاع بمشاهدة الآثار الكلاسيكية الجميلة، أنت تظن أنني رجل ساد، أنا لست سادياً وإنما أنا إنسان واقعي.

ظللت جالساً في صمت، وزرع نفسه أمامي وقال: سيتم وضعك تحت الحراسة في غرفة مستقلة، ولسوف أصدر تعليماتي بإحضار بعض الطعام والشراب لك، ولأنني متحضر يخاطب متحضراً فإنني آسف

بسبب أحداث اليوم وبسبب الأحداث بالغرفة المجاورة، وأنت بالطبع لن تكون أحد الرهائن.

من أكبر المغالطات العظمى التي شهدها عصرنا أن النازيين وصلوا إلى السلطة لأنهم أدخلوا النظام على الفوضى، فالعكس هو الصحيح تماماً ـ لقد كانوا ناجحين لأنهم فرضوا الفوضى على النظام، فقد مزقوا الوصايا والسنن المفروضة وأنكروا الأنا الأعلى، لقد قدموا للبشرية كل غواياتها الكبرى، لا شيء يتسم بالصدق، وكل شيء مسموح به.

أعتقد أن فميل كان يدرك جوانب مهمته البشعة، وأنه يلعب بعواطفي ويغرر بي، وألقى عليَّ نظرة أخيرة ثم خرج من الغرفة، وسمعته يتكلم مع أحد الحراس الذين أحضروني، وتم اقتيادي إلى غرفة في طابق آخر وتم تقديم بعض الطعام لي بالإضافة إلى زجاجة من البيرة الألمانية، كانت تجتاحني مشاعر عديدة، ولكن أهم تلك المشاعر أنني سأظل على قيد الحياة.

كنت أشعر بأنني سأتمكن من مشاهدة الشمس تشرق مرة أخرى، سأتمكن ثانية من التنفس ومن تناول الخبز ومن لمس مفاتيح آلة البيان القيثارى.

ومرت تلك الليلة، وأحضرت لي القهوة في الصباح وسمح لي بأن أغتسل، وفي تمام الساعة العاشرة والنصف طلب مني أن أخرج من الغرفة، فوجدت جميع الرهائن الآخرين في حالة انتظار.. لم يقدم لهم أي شراب أو طعام ومنعت من التحدث إليهم، ولم يكن هناك أي أثر لفميل أو آنطون.

وتم اقتيادنا إلى الميناء، وكانت القرية كلها هناك تحت حراسة صف من الصاعقة راحوا جميعاً يصرخون عندما ظهرنا أمامهم.. كنا نحاول تحطيم القيود ولكننا كنا غير قادرين على عمل ذلك...

كان هناك منزل كبير له غرفة علوية ضخمة فوق السطوح يطل على الميناء ـ هل تعرف ذلك المنزل؟ ـ في تلك الأيام كانت هناك حانة بالدور الأرضي، وفي الشرفة التي فوق الحانة شاهدت فميل ورأيت آنطون وراءه وقد التف حولهما رجال يحملون مدافع رشاشة، وتم إخراجي من طابور الرهائن، ثم إيقافي في مواجهة الحائط تحت الشرفة بين الكراسي والمناضد، أما باقي الرهائن فقد دخلوا في شارع، ثم اختفوا عن الأنظار.

كان الجو حاراً وسيق القرويون من الرصيف إلى الشرفة التي توجد بها المدافع القديمة والتي توجد أمام الحانة، وقفوا هناك.. لم يكن بمقدوري مشاهدة الشرفة، ولكن الكولونيل فرض صمته على الناس، وفي الأعالي بالسماء شاهدت السنونو الصغيرة المهاجرة، من الغريب أن أشاهد حشداً كبيراً من يونانيين دون أن تصور عنهم كلمة واحدة، لا شيء سوى التغريد الخافت للطيور الصغيرة.

وبدأ فميل يتكلم، والمترجم يترجم:

لسوف تشهدون ما سيحدث لأولئك الناس أعداء ألمانيا.. وبناء على الأحكام الصادرة عن المحكمة العسكرية للقيادة العليا التي عقدت جلسة لها في الليلة الماضية، فقد تم تنفيذ حكم الإعدام في ثلاثة أشخاص ولسوف يتم الآن تنفيذ حكم الإعدام في شخصين آخرين.

أما الثمانون، رهينة فوفقا لقانون الاحتلال.. وكانتقام من الاغتيال الوحشي.. للأشخاص الأربعة الأبرياء التابعين للقوات المسلحة الألمانية، فسيتم تنفيذ حكم الإعدام فيهم.

وعندما قام المترجم بتوضيح معنى العبارة الأخيرة، تصاعدت زفرات مليئة بالأنين والزمجرة وكأنهم ضربوا جميعاً في المعدة في آن واحد..

وخز العديد من النساء، ومن المؤكد أن فميل قد انسحب لأن التوسلات تحولت إلى نحيب وبكاء بصوت مرتفع.

تم إخراجي من عند الحائط ودفعي للسير وراء الرهائن، وكان الجنود النمساويون يقفون عند جميع المداخل المؤدية إلى الميناء ويدفعون القرويين إلى الوراء، وقد راعني أن يقوم النمساويون بمساعدة الصاعقة وإطاعة أوامر فميل وأنهم يدفعون الناس في عنف وخشونة رغم أنهم لم يكونوا يشعرون تجاههم بأية كراهية منذ يومين فقط وهذه حقيقة كنت أدريها تماماً، فلم تكن هناك أية كراهية من جانب النمساويين إزاء الأهالي.

كان الزقاق يتلوى لأعلى بين المنازل وينتهي عند الميدان الموجود إلى جوار مدرسة القرية، إنه مسرح طبيعي يميل إلى الجهة البحرية.

وكان ذلك هو أول شيء شاهدته لدى وصولي إلى الميدان: ثلاثة جثث معلقة في فروع الشجرة وشاحبة في الظلال وبشعة وفظيعة مثل الصور المطبوعة من ألواح معدنية محفورة والخاصة بالفنان جوياً..

وخلف تلك الهياكل الشنيعة الثلاثة شاهدت الرهائن.. كان قد تم تجميعهم في مواجهة المدرسة في حظيرة محاطة بالأسلاك الشائكة.. والرجال الموجودين في الجزء الخلفي كانوا تحت ظلال الحائط أما الموجودون منهم الجزء الأمامي فكانوا تحت أشعة الشمس، وبمجرد أن شاهدوني شرعوا في الصباح، انطلقت شتائم نحوي وكأنني إذا قلت أي كلام للكولونيل.. فإنه قد يعدل عن قراراته.. وكان الكولونيل موجوداً هنالك وسط الميدان مع آنطون وحوالي عشرين من الصاعقة.

تم إيقافي خلف صفَّي الرجال، لم يكن آنطون على استعداد لأن ينظر إلى وجهي وإن كان فميل التفت إليَّ.. وكان يحملق في الفراغ، كما لو كان قد نوم نفسه مغناطيسياً بحيث أصبح يعتقد أن الأمور التي

شاهدتها لا وجود لها في الواقع، واستدعى الكولونيل الشخص المتعاون مع الأعداء لكي يجيء إليه، اعتقدت أنه يرغب أن يعرف معنى الصيحات التي يصيح بها الرهائن.. كأنه يفكر، ثم اتجه نحو الرهائن، فلاذوا بالصمت الشديد.. بالطبع لم يكونوا يعرفون أنه أصدر بالفعل أوامره بإعدامهم، لاحظت أن القرويين قد ركنوا إلى الهدوء، ومعنى ذلك أن الكلام الذي قيل لهم لم يكن هو قرار الإعدام.. وسار الكولونيل في مشية عسكرية عائداً إليَّ.

وقال لي: (اقترحت على هؤلاء الفلاحين اقتراحاً).. كان وجهه خالياً من الانفعالات العصبية، كان مسيطراً على أعصابه، ثم أضاف قائلاً:

لن ينفذ الإعدام فيهم.. سأكتفي بإرسالهم إلى أحد معسكرات العمل.. ولكن بشرط واحد.. فباعتبارك عمدة القرية ستقوم بتنفيذ حكم الإعدام في الفدائيين أمام القرويين.

فقلت.. لكن مهنتي ليست هي تنفيذ أحكام الإعدام.

وبدأ رجال القرية يصيحون في قلق شديد في وجهي.

ونظر إلى ساعة يده وقال:

أمامك ثلاثون ثانية لكي تتخذ قراراً في هذا الشأن.

وبالطبع لا يمكن للمرء أن يفكر جيداً في مثل هذه المواقف.. ويجب أن تتذكر هذا جيداً.. بدأت أتصرف دون عقل وأتصرف على نحو لا يتمشى مع الحكمة.

فقلت: ما باليد حيلة.. لا يوجد أمامي خيار آخر.

أمسك مدفعاً رشاشاً من كتف أحد الرجال وتأكد أنه مشحون بالطلقات قدمه إليَّ، فراح الرهائن يهتفون ويرسمون علامة الصليب على أنفسهم، ثم لاذوا بالصمت.. وراح الكولونيل يرقبني.. وراودتني فكرة:

وهي أن أصوب المدفع الرشاش إلى الكولونيل.. ولكنني أدركت على الفور أنني إذا فعلت ذلك ستقام مذبحة كاملة للقرية كلها بشكل أكيد.

سرت تجاه الرجلين المربوطين بالأسلاك في البوابات الحديدية، وأدركت السبب الذي جعله يتصرف على ذلك النحو.. فالصحف الخاضعة للرقابة الألمانية، سوف تتحدث عني كرجل يوناني تعاون مع النظام الألماني، وسيكون هذا بمثابة تحذير للعمد الآخرين.. ولكن هؤلاء الرجال كيف يمكنني أن أصدر عليهم حكماً بالإدانة؟.

أصبحت قريباً للغاية من الفدائيين، وكنت أنظر إلى الحائط المرتفع ذو القمة المائلة وإلى قارورتين للزينة فوق قمة الأعمدة الموجودة على جانبي البوابة وإلى أوراق شجرة الفلفل الموجودة إلى الوراء، ثم اضطررت للنظر في وجهيهما.. كان أصغرهما سناً يئن ويتوجع.. ويتمتم بكلام ما.. كان في حالة من الهذيان والهلوسة.

أما الفدائي الآخر فكان فمه قد تعرض لضربة شديدة، وكنت في حالة من اليأس المرير.. وشاهدت العديد من الحروق في أماكن متفرقة من جسده.. ولكن الألمان كانوا قد وقعوا في غلطة واحدة رهيبة لأنهم لم يقوموا بفقأ عينيه.

رفعت المدفع الرشاش وأنا لا أكاد أرى شيئاً أمامي، وضغطت على الزناد.. ولكن لم يحدث أي شيء.. لا شيء سوى صوت طقطقة، فضغطت على الزناد مرة أخرى.. ومرة أخرى تجيء الطقطقة الخاوية.

التفت ونظرت حولي.. كان فميل والحارسان يرقبون الموقف.. وفجأة بدأ الرهائن ينادون عليَّ.. اعتقدوا أن عزيمتي قد خارت، استدرت مرة أخرى وجربت ثانية.. وجاءت نفس الطقطقة مرة أخرى.. التفت نحو الكولونيل ولوحت بالمدفع لكي أوضح أن النيران لا تنطلق

منه.. وشعرت بالغثيان والاشمئزاز الشديدين.. ولكني كنت غير قادر على الوقوع في دائرة الإغماء بالفعل.

قال لي: هل هناك شيء ما خاطئ؟

قلت: لقد حاولت وفشلت.

ـ لن تنطلق النيران لأنه لا توجد به ذخيرة.

فقلت في عجز ويأس؟ وكيف يمكن لي أن أقتلهما؟

ابتسم ابتسامة رفيعة مثل جرح السيف.

ثم قال: إنني منتظر.

إنه يريد أن أقوم بضربهما حتى الموت..

مشيت نحوه.. وظن الحارسان أنني بصدد الهجوم عليه، لأنهما رفعا مدفعيهما في حدة، توقفت قريباً منه.. ورحنا نحملق في بعضنا البعض في عمق.

ـ أتوسل إليك باسم الحضارة الأوربية أن توقف هذه الأعمال الهمجية.

ـ وأنا آمرك أن تستمر في تنفيذ العقاب، وإذا رفضت التنفيذ، فإن هذا سيؤدي إلى تنفيذ حكم الإعدام فيك على الفور.

فسرت عائداً إلى البوابة، ووقفت أمام الرجلين، وكنت بصدد أن أقول للرجل الذي يبدو عليه أنه قادر على الفهم إنني مغلوب على أمري وإنني مضطر لأن أفعل فيه ذلك الشيء الرهيب.. ولكنني توقفت عن الكلام ثانية واحدة مميتة..

وفي خلال تلك الثواني الخمس المذهلة والتي تمثل أخطر لحظات في حياتي فهمت حقيقة شخصية هذا الفدائي على نحو أفضل من فهمه لنفسه، إذ ساعدني، وحاول أن يمد رقبته نحوي وأن يقول الكلمة التي

لم يستطع أن يقولها.. لم تكن على هيئة صوت وإنما كانت مسخاً وتشويهاً في حلقه كانت اختناقاً به خمسة مقاطع لفظية..

فلم يكن به سوى شيء واحد لا يقدر بثمن.. إنها الحرية.. كان هو فوق العقل والحكمة والمنطق والحضارة والتاريخ.. لم يكن إلهاً.. كان بمثابة حق الإنسان في أن يرفض ويستنكر وأن تكون له حرية الاختيار..

حرية خصي رجل وإزالة أعضائه التناسلية باستخدام مقص لقطع الأسلاك الشائكة.. كان بمثابة شيء ما تخطي إلى ما وراء المبادئ الأخلاقية.

كل هذا يتطلب العديد من الكلمات التي أقولها لك.. لم أقل كلاماً عن كيف أنني شعرت أن هذا المعدن غير القابل للطرق عليه هو أمر يوناني أساساً.. بمعنى أنني اتخذت طابعي اليوناني في نهاية الأمر.. لقد أدركت في «لا زمن» أنني الإنسان الوحيد المتبقي في هذا الميدان الذي تركت له الحرية في أن يختار وأن الدفاع عن تلك الحرية كان أمراً أكثر أهمية من الحفاظ على الذات.. بل من حياتي ذاتها وأكثر أهمية من حياة الثمانين رهينة، ومنذ تلك اللحظات وأولئك الرجال الثمانون ينهضون في الليل ويوجهون أصابع الاتهام إليَّ.. ويجب أن تتذكر أنني كنت متأكداً أنني سوف أموت أيضاً.

ولكن كل ما كان عليَّ أن أضعه أمام وجوههم المعذبة التي رسمت عليها علامة الصليب بالأيدي هي تلك الثواني القليلة البالغة السمو من المعرفة.. إنها معرفة تشبه السخونة البيضاء حدثني عقلي مراراً وتكراراً أنني على خطأ.. ولكن كياني الشامل مازال يقول لي إنني كنت على حق.

ألقيت بالمدفع اليدوي الرشاش على الأرض واتخذت خطوة إلى جوار القائد الفدائي، وشاهدت الكولونيل يرقبني، فقلت: موجهاً

كلامي له ولبقايا الرجل الموجود إلى جواري لكي يسمعني الكلمة الوحيدة التي بقيت لتقال.

وفي مكان ما خلف فميل شاهدت آنطون يمشي بسرعة نحوه.. ولكن الزمام كان قد أفلت.. إذ تكلم الكولونيل، وصدر الوميض من المدافع اليدوية الرشاشة فأغمضت عيني في نفس اللحظة التي أصابتني فيها الرصاصات الأولى.

(٥٠)

وانحنى للأمام عقب فترة من الصمت.. ثم رفع شعلة المصباح لأعلى وحملق في وجهي.. أحسست أن شيئاً ما تحرك في داخل أعماقه.. قال: المساوئ الموجودة في هذه الدراما الجديدة الخاصة بنا أنك في دورك لا تعرف الأمور التي يمكن أن تصدقها والأمور التي لا يمكن أن تصدقها، إذ لا يوجد شخص في الجزيرة الآن كان موجوداً في الميدان.. ولكن يمكن لأشخاص عديدين أن يؤكدوا لك حدوث كل واقعة أخرى من الوقائع التي قصصتها عليك.

لم أشك في هذه القصة التي قالها كونشيس وأدركت أنني كنت أستمع إلى تاريخ الوقائع التي قد حدثت بالفعل وأنه في قصة حياته قد التزم بالصدق حتى النهاية.. سألته:

وماذا حدث بعد إطلاق النيران عليك؟

ـ سقطت على الأرض ولم أعد أعرف أي شيء آخر لأنني تعرضت للإغماء، وأعتقد أنني سمعت زئيراً مترامياً من الرهائن قبل هبوط الظلام على عيني.. وربما ذلك هو الذي أنقذني، وفي تخيلي أن الرجال الذين أطلقوا الرصاص قد وقعوا في الارتباك والتشويش، إذ صدرت تعليمات أخرى بإطلاق الرصاص على الرهائن.. قيل لي ذلك بعد مضي نصف

ساعة عندما سمح للقرويين بأن «يولولوا» على موتاهم، فتم العثور على حيث كنت ملقي على الأرض غارقاً في بركة من الدماء عند أقدام الفدائيين.. ولقد عثرت عليَّ مديرة شئون منزلي «سولا».

قبل حلول الأيام التي جاءت فيها ماريا ـ وكان هرميز معها في أثناء العثور عليَّ.. وعندما قاما بتحريك جسدي ظهرت عليَّ دلائل خفيفة تؤكد أنني مازلت على قيد الحياة.. فقاما بنقلي إلى المنزل وخبآني في غرفة، وأشرفا على علاجي.

ـ وماذا عن الكولونيل؟

ـ بعد انتهاء الحرب، أصبح من المطلوب إلقاء القبض عليهم ومحاكمتهم بسبب الأعمال الوحشية التي لا حصر لها التي ارتكبوها.

ـ وماذا عن آنطون؟

ـ اعتقد آنطون أنني مت، فخدمي لم يبوحوا بالسر لأي شخص آخر، وغادر فميل الجزيرة بعد ظهر نفس ذلك اليوم تاركاً آنطون وسط هذه المجزرة من الجثث البشرية وبحيث لا يمكنه أن يقول شيئاً عن العلاقات الطيبة التي أنشأها.. من المؤكد أنه قضى طوال الفترة المسائية وربما قضى الليل كله منتظراً الحصول على تقرير تفصيلي عن هذه الأحداث البشعة بأكملها، وقام بنفسه بكتابة التقرير على الآلة الكاتبة.

لم يخف أي شيء في تقريره ولم يلتمس الأعذار لأي شخص بما في ذلك هو نفسه شخصياً ولسوف أعرض عليك ذلك بعد لحظات.

ـ وماذا حدث له؟

ـ بعد يومين عثر على جثته تحت حائط مدرسة القرية، حيث كانت الأرض مازالت مسودة بسبب الدماء.. لقد أطلق الرصاص على نفسه.. كان يريد للقرويين أن يدركوا كم هو نادم، وتكتم الألمان الأمر، وبعد فترة قصيرة تغيرت الحامية.

هبط الصمت فجأة، فرحت أقطعه قائلاً:

ـ من المؤكد أن تلك السنوات أصابت فلسفتك بالتوتر والإجهاد، فلسفة الابتسام.

بل العكس، فالتجربة جعلتني أدرك تماماً جوهر روح الفكاهة، إنها بمثابة كشف عن الحرية ولأن هناك حرية فالابتسامة موجودة ولا يمكن أن يكون هناك عالم خال من الحرية اللهم إلا إذا كان ذلك العالم قد قدر أمره مسبقاً تماماً، وفي النهاية إذا أصبح الفرد ضحية، فإن النكتة القصوى تغيب عن باله ـ حين يكتشف أن مَنْ لم يعد له وجود، يصبح فاقداً للحرية.. وذلك هو ما يتعين على الغالبية العظمى من البشر أن يكتشفوه دائماً.. أو ما سوف ينبغي لهم أن يكتشفوه دائماً.

واستطرد كونشيس قائلاً: يجب أن تستقر على رأيي يانيقولاس.. إما أن يندرج تحت لواء أمثال ذلك السفاح الذي لم يكن يعرف سوى كلمة واحدة أو تحت لواء آنطون.. إما أن ترقب وتشعر باليأس، وإما أن تشعر باليأس وترقب، وأنت في الحالة الأولى تنتحر انتحاراً فيزيقيا، وفي الحالة الثانية تنتحر انتحاراً أخلاقياً.

مازال بمقدوري أن أشعر بالشفقة عليه.

ـ يمكنك أن تشعر بالشفقة عليه، ولكن هل ينبغي لك أن تشعر بذلك؟ وانزلق ذهني إلى التفكير في آليسون.. وشعرت بالشفقة عليها مثلما شعرت بالشفقة على ذلك الوجه الألماني المجهول، وربما شعرت بإعجاب، ذلك الإعجاب الذي يشبه الحقد على أولئك الذين ساروا لمسافات أبعد على نفس دربي.. فكلاهما شعر باليأس المرير بحيث لم تعد لديه الرغبة في مشاهدة المزيد، في حين كان انتحاري هو الانتحار الأخلاقي.

وقلت: نعم.. إنه لم يكن في وسعه إلا أن يفعل ذلك.

ـ إذن فأنت مريض، لأنك تعيش من خلال الاعتماد على الموت، وليس على الحياة..

ـ تلك مسألة فيها نظر.. فرأيي فيها يخالف رأيك.

ـ إنها مسألة عقيدة لأن الحدث الذي قصصته يعبر عن أحوال أوربا بالفعل.. شخص برتبة كولونيل يسمى فميل، وتمرد مجهول الاسم، وشخص يسمى آنطون يتمزق بينهما ويقتل نفسه عندما يشعر أن الزمام أفلت، مثل.

ـ ربما لا يكون لدي الاختيار.

شعرت بحيويته المتدفقة وبوحشيته وبقسوته وبنفاد صبره إزاء غبائي واكتئابي الأسود وأنانيتي.. لم تكن كراهيته منصبة عليَّ فقط وإنما منصبة على كافة الأمور التي اعتقد أنني أدافع عنها: أمور تتسم بالسلبية.. كان شبيهاً برجل يرغب في تغيير كافة الأمور ولكنه لم يستطع، فشعر بالغضب الشديد بسبب عجزه وضعفه ولم يكن أمامه سواي ـ ميكروسوم لكي يقوم بهدايتي إلى مذهب جديد أو صب غضبه الشديد عليَّ.

ـ إذن فأنت تعتقد أنني آنطون آخر؟

أنت شخص لا يفهم المعنى الحقيقي للحرية.. والأهم من ذلك كله أنك كلما فهمت الحرية على نحو أفضل كلما أصبحت أقل امتلاكاً لها.

حاولت أن أستوعب هذه العبارة المتناقضة وأن أفهمها، وتساءلت: هل أظهرت لك الكثير من الجوانب بحيث أصبحت لا أدخل السرور عليك؟.

رد: أصبحت لا تمثل أهمية بالنسبة لي، والآن أقترح أن نذهب للنوم.. فتكلمت في حدة: لا يمكن لك أن تعامل الناس على هذا النحو.. كما لو كنا جميعاً مجرد قرويين يطلق الرصاص عليهم حتى يمكنك أن تبرهن على صحة نظرية مجردة غير تطبيقية عن الحرية.

فنهض واقفاً، وحملق لأسفل نحوي، وقال: طالما أنك تفضل وجهة نظرك الحالية عن الحرية، فإنك أنت الذي أمسكت بمدفع المنفذ لحكم الإعدام.. فانزلق تفكيري على آليسون مرة أخرى.. فأخمدت تفكيري.

سألته: ما الذي يجعلك متأكداً أنك تعرف ذاتي الحقيقية؟

ـ أنا لا أدعي ذلك.. فرأيي يقوم على إدراكي بأنك غير قادر على معرفة ذاتك بنفسك.

ـ إذن ما الذي تريدني أن أفعله الآن؟

هل تريدني أن أضع حاجياتي في حقيبتي وأعود إلى المدرسة؟

يبدو أن تساؤلي هذا جعله يتراجع قليلاً، وعلى غير متوقع تردد قبل أن يجيب وأن كان قد حدث تغيير على ملامح وجهه يوحي بأنه يحاول أن يخفي شيئاً، كما ترغب، كان من المقرر أن يقام احتفال ختامي صغير صباح الغد.. لكنه احتفال لا أهمية له.

ـ حسناً.. يهمني إلا يفوتني ذلك.

وراح يتأمل ابتسامتي الخالية من روح الفكاهة والتي انصبت عليه، ثم أومأ برأسه إيماءة خفيفة وقال: «تصبح على خير» فأدرت ظهري، وبدأ صوت وقع أقدامه يتلاشى تدريجياً ولكنه توقف عند باب غرفة الموسيقى وقال: «إنني أكرر، لن يجيء أحد».

واستمر في السير في داخل المنزل.. صدقته فيما يتعلق بعدم حضور أحد ولكني كنت قد بدأت أبتسم لنفسي في الظلام.. إذ أدركت أن تهديدي بالذهاب أرغمه على أن يلقي أمامي بحافز سريع.. أو يهيئ لي سبباً يدعوني للبقاء.. ومن المؤكد أن كل ذلك كان بمثابة اختبار ينبغي لي اجتيازه قبل أن أدخل الدائرة الداخلية.. أحسست إحساساً صادقاً أن الفتاتين في اليخت، وإذا جاز القول فإنني قد وقفت أمام فرقة عسكرية

لتنفيذ حكم الإعدام ولكن في هذه المرة كان الأمر يستلزم وجود إرجاء لتنفيذ حكم الإعدام في آخر دقيقة، وكلما حرمني من جولي، كلما سار في نفس درب فميل وعلى الأقل كنت أدرك أن كونشيس مخلوق آدمي مختلف للغاية.

أشعلت سيجارة، كان هناك هدوء مليء بالسخونة الهائلة وجو خانق يقبض الصدور، روحت أمشي الهوينى فوق المدق هابطاً إلى الشاطئ، لم أتوقع مثل هذا المشهد الختامي: كان قد خمن أن الحرية بالنسبة لي تعني حرية إشباع الرغبات الشخصية، وفي مواجهة ذلك فإن الحرية مسئولة بالتأكيد عن أعمالها، أنها شيء أكثر قدماً من الحرية الوجودية أو هي على ما أظن أمر أخلاقي لا يتخذ الطابع السياسي أو الديموقراطي، ورجعت بتفكيري إلى سنوات حياتي القليلة وإلى الكفاح المرير نحو الفردية التي كانت تتملك مشاعر كل أفراد جيلي عقب سنوات الحرب وانسحابنا من المجتمع إلى داخل الذات، وأدركت أنني لا أستطيع أن أرد بالفعل على اتهامه وعلى التساؤل الذي طرحته قصته، وأنني لا يمكن أن أفلت بأن أدعي أنني كنت ضحية تاريخية وكنت عاجزاً عن أن أكون أي شيء آخر بخلاف أن أكون أنانياً ـ أو أنه لا ينبغي أن أكون قادراً على الإفلات من الآن فصاعداً.

راح ذهني يتجول في حالات الصمت الرمادية وينصب منزلقاً على آليسون وليس على جولي.. ومع الحملقة للخارج في اتجاه البحر تمكنت من إرغام نفسي على التوقف عن التفكير فيها كإنسانة مازالت على قيد الحياة تتنفس وتعمل وتتحرك وإن كان ذلك في داخل الذاكرة فقط وبحيث ينصب تفكيري عليها من حيث هي كميات من الرماد المبعثر بالفعل ومن حيث هي رابطة مقطوعة ونهاية ميتة بيولوجية وانسحاب أبدي من الواقع الملموس.

لم أقم بالصلاة من أجلها، لأن الصلاة لن تعيدها إلى الحياة، ولم

أنخرط في البكاء من أجلها أو من أجل نفسي لأن المنبسطين هم فقط الذين يبكون مرتين، جلست في صمت تلك الليلة وفي ذلك العداء اللانهائي للإنسان وللديمومة والبقاء للأبد وللحب وغرقت في التفكير فيها وتذكّرها.

(٥١)

في الساعة العاشرة استيقظت وتأرجحت خارجاً من السرير بعد أن أدركت أنني نمت فترة أطول من المعتاد، حلقت ذقني على وجه السرعة.. وفي مكان ما أسفلي سمعت صوت طرق بمطرقة وصوت رجل بالإضافة إلى صوت شبيه بصوت ماريا.. ولكن الرواق ذا الأعمدة كان مهجوراً وخاليا من الناس عندما نزلت إلى الدول الأول، وعند الحائط شاهدت أربعة صناديق شحن خشبية.. كان من الواضح أن ثلاثة من هذه الصناديق بها لوحات ملونة في داخلها، ونظرت إلى الوراء نحو غرفة الموسيقى وإلى داخلها، لقد اختفت لوحة موديلياني وكذلك لوحة روان الصغيرة ولوحة جياكوميتي وخمنت أن الصندوقين الآخرين يضمان لوحات بونار الذي كان بالدور العلوي.. وسرعان ما تلاشى التفاؤل الذي اجتاحني في الليلة السابقة أمام هذا الدليل الواضح على أن «المسرح» يتم تفكيكه.. وهبط عليَّ حدس بأن كونيش كان يعني الكلام الذي قاله على وجه الدقة.

وظهرت ماريا حاملة القهوة من أجلي.. فأشرت لها بيدي نحو الصناديق، وقلت: ماذا يحدث؟

فقالت: نحن ذاهبون.

إنه بصدد المجيء فتركتها وشأنها، وابتلعت فنجانا من القهوة.. كانت هناك رياح مشرقة، كان يوماً مليئاً بالحيوية والحياة المفعمة بالألوان، فسرت نحو حافة منطقة الحصباء.. كانت الحياة تدب في اليخت

وتمكنت من مشاهدة العديد من الناس فوق ظهر اليخت.. لم يكن بينهم نساء.. ألقيت نظرة نحو المنزل فشاهدت كونشيس واقفاً تحت رواق الأعمدة كما لو كان في انتظار عودتي.

إنه يرتدي ملابس غريبة الشكل، متنافرة وذات ألوان زاهية.. وكان شبيهاً برجل أعمال مثقف بعض الشيء.. شنطة أوراق سواء من الجلد، وحلة صيفية زرقاء، وقميص أصفر باهت ورباط عنق (بابيون) كان منظره يتلاءم مع أثينا ولكنه مثير للسخرية في جزيرة فراكسوس.. ولم يكن هناك داع لأن يرتدي تلك الثياب في فراكسوس ما دام سيقضي ست ساعات على الأقل في اليخت، ثم يغير ملابسه بعد ذلك مرة أخرى، اللهم إلا إذا كان يريد أن يثبت لي أن عالمه الآخر استدعاه بالفعل.. ولم يبتسم في وجهي لدى اقترابي منه، قال: إنني بصدد مغادرة هذا المكان بعد فترة قصيرة للغاية.. في نفس هذا الوقت غداً سأكون في باريس.

وأحدثت الرياح صوتاً كالطقطقة في الأوراق السرخسية لأشجار النخيل.. كان الأمر يستلزم تأدية الفصل الأخير بإيقاع سريع، علقت: إسدال سريع للستارة؟

ـ لا توجد ستارة في المسرحية الحقيقية، فهي تمثل وبعدئذٍ تستمر في التمثيل.

ـ وحملق كل منا في وجه الآخر في عمق.

وماذا عن الفتاتين؟

ـ ستجيئان معي إلى باريس.. أنت دائماً تتصرف في سذاجة شديدة.

ـ على أي نحو؟

ـ من حيث افتراضك أن الأغنياء يتخلون عن دمياتهم.

وابتسم في غير مزاح وقال: «جولي وجين ليستا من دمياتك» أتظن

أن الذكاء والذوق السليم والجمال والفتنة لا يمكن شراؤها؟ إنك مخطئ تماماً.

ـ إذن فأنت لديك فتاتان غير مخلصتين للغاية.

واستمررت في إثارة روح الفكاهة عنده فقال: عندما تصبح أكبر سناً سوف تدرك أن الخيانة الزوجية أمر لا أهمية له.. إنني أدفع التكاليف الخاصة بمظهرهما ووجودهما ومحادثتهما وليس تكاليف جسديهما، وفي مثل سني فإن المطلب هنالك يتم تلبيته بسهولة.

هل تتوقع لي أن... فقاطعني قائلاً: أعرف ما تفكر فيه.

لقد أمرت بعزلهما في مقصورة.. ونحن لم نتقابل في عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة لسبب بسيط للغاية.. لكي أتيح الفرصة لليلى لكي تقرر ما إذا كانت تفضل الحياة مع شخص مفلس مالياً ومدرس غير موهوب وهذا هو ما أشك فيه.. أو تفضل المعيشة في عالم مليء بالثراء والإثارة والتسلية.

فطوى ذراعيه وقال: إقراراً للحق أقول إنها ترددت، وربما يحمل كلامي هذا شيئاً من المواساة لاعتدادك بنفسك.. ولكنها في نهاية الأمر أدركت أن الحياة الطويلة المملة والمستقبل الذي يمكن التكهن بكافة جوانبه سيكون ثمناً باهظاً للغاية تدفعه في مقابل إشباع نزوة جنسية عابرة.

فالتزمت الصمت لحظات قليلة، ثم وضعت فنجان القهوة وقلت «ليلى» وما قلته: روز؟.

لقد أخبرتك في الليلة الماضية، فحملقت في وجهه ثم أخرجت حافظة نقودي.. وعثرت على الخطاب المرسل من بنك باركليز.. ودفعت به نحوه.. فأمسك بالخطاب وألقى عليه نظرة سطحية عابرة قائلاً: إنه مزيف.. آسف.

فجذبت الخطاب من يديه في عنف وقلت: يا سيد كونشيس، أريد مشاهدة هاتين الفتاتين وأنا أعرف الطريقة التي لجأت إليها لكي تحضرهما إلى هنا في بادئ الأمر.. وربما سيهتم البوليس بمعرفة تلك القصة.

سيهتم البوليس بذلك في أثينا، مادامت الفتاتين هناك حالياً.. ولسوف تسخران من اتهاماتك على الفور.

ـ أنا لا أصدقك، إنهما في اليخت ـ يمكن لك أن تجيء معي إلى اليخت الآن، وتفتش في كل مكان، وتستجوب البحارة، ولسوف نعيدك إلى الشاطئ قبل أن نبحر.

ـ وهو كذلك.. ولكنني سأضع المسألة برمتها في أيدي السفارة البريطانية بمجرد أن أصل إلى القرية.

لا أظن أن السفارة سوف تهتم بذلك وخاصة إذا اكتشفوا أن الاستنجاد بمساعدتهم يجيء من مجرد عاشق يشعر بالإحباط «والآن، فإن اثنتين من الممثلات التابعات لي ترغبان في توديعك».

ونادى: كاترين!

وتم نطق تلك الكلمة بالطريقة الفرنسية، ثم استدار نحوي.. «ماريا ـ بالطبع ـ ليست فلاحة يونانية بسيطة».

ـ مثل هذه المشاهدة تنتمي للدراما القديمة وليس الدراما الجديدة.

ـ ذلك ليس له علاقة بطبيعة شخصية جولي.

ربما ستتقابل معها في يوم ما مرة أخرى، وقد تطلق العنان لغرائزك الماسوشية عندئذ.

وظهرت ماريا فوفرت علينا كافة المجادلات الأخرى.. كانت امرأة متقدمة في السن ولها وجه مليء بالتجاعيد ولكنها ترتدي بدلة سوداء متوائمة معها تماماً مع وجود بروش.. وكان بوجهها مسحة خفيفة من

المساحيق وأحمر الشفاه.. منظر لسيدة من الطبقة المتوسطة تبلغ ٦١ عاماً من النوع الذي يمكن أن يشاهدها المرء في أي شارع من الشوارع الحديثة بأثينا.. تقف وقد ظهرت عليها ابتسامة خفيفة ـ المفاجأة والدخول المتميز بالتغير السريع.. وراح كونشيس يرقبني في سخرية..

هذه هي السيدة كاترين أتانا سوليس.. والتي تخصصت في أدوار الفلاحات، ولقد سبق لها أن ساعدتني مرات عديدة من قبل.

ومد يده في أدب نحوها مشيراً لها لكي تقترب، فتقدمت وقد فتحت راحة يدها في شيء من التأسف بسبب خداعها، لي خداعاً كاملاً، فنظرت إليها نظرة باردة، ثم أحنت رأسها انحناءة زائفة بعض الشيء وقال كونشيس: الأمتعة.

فرمقتني بعينها وقالت: كل شيء جاهز.. ثم أضافت: حسناً، مع السلامة..

ثم انسحبت في هدوء ورباطة جأش مثلما جاءت، وكنت قد بدأت أشعر بشيء يشبه اليأس، كنت أدرك أن كونشيس كان يكذب ولكنه كان يكذب إلى مثل هذا الحد وبمثل هذه التفصيلات الدقيقة للغاية، ولم يخف التوتر في داخلي لأنه نظر عبر منطقة الحصباء وقال: «عظيم.. ها هو جو»..

إنه الزنجي.. كان يسير الهوينى قادماً على المدق الخاص بالشاطئ وكان مرتدياً حلة بنية داكنة ورفع يده لدى إدراكه أننا في انتظاره وجاء عبر منطقة الحصباء وابتسم في وجه كونشيس مع الإتيان بحركة مراوغة بفمه في اتجاهي.

هذا هو جو هاريسون.

وقال جو: مرحباً.

فلم أرد بأي كلام.. وألقى نظرة جانبية خفيفة نحو كونشيس ثم مد يده وقال: آسف يا صديقي.. لقد قمت فقط بتنفيذ تعليمات سيدي.

كان أمريكياً وليس من جزر الهند الغربية، تجاهلت يده الممدودة، وهو يقول لي: بالطبع نحن الزنوج جميعاً أولاد العم الأوائل للقرود، وأنتم تسموننا الخصي والطواشي، ونحن لا نفهم ذلك..

- إنني لم أقصد ذلك..

تبادلنا نظرات حذرة، ثم نظر كونشيس وقال: إنهم قادمون لأخذ المواد.

فقال كونشيس: لدى بعض الأشياء الأخيرة بالدور العلوي.

وتركني واقفاً مع جو، وظهرت المزيد من الهياكل على المدق، أربعة من البحارة يشبهون اليونانيين ولكن أحدهم كان له شعر أشقر فاتح ويبدو عليه أنه إسكندنافي، ولم تكن الفتاتان قد تحدثنا معي عن البحارة إلا فيما ندر من الحق والغيرة، بدأت أشعر أنني منبوذ ومجرد عبء.. رمقت جو بعيني وكان جو مستنداً في تكاسل على أحد الأعمدة بالبواكي، وكان يبدو كأنه مجازفة بسيطة ولكنه المجازفة الوحيدة أمامي.. سألت: أين الفتاتان؟.

فرمقتني نظارته السوداء في تفحّص بطيء وقال: في أثينا.

وما معنى كل ذلك؟

فهز كتفه هزة خفيفة قائلاً: تلك كانت الطريقة التي قيلت بها.

فقلت: أنت تتكلم من واقع الخبرة؟

فتمتم في خفة: يمكن أن يكون الأمر كذلك.

ومر البحارة إلى جوارنا وذهبوا إلى الصناديق، ثم ظهر هيرميز حاملاً معه المزيد من الحقائب ومتجهاً نحو الشاطئ، وسارت وراءه ماريا

مرتدية أفخر ثيابها، ووثب جو مبتعداً عن العمود ممسكاً بيده علبة سجاير أمريكية يمدها نحوي.. فترددت بعض الشيء، ثم أخذت سيجارة وانحنيت لكي أشعلها من عود الثقاب الذي أشعله، وبعدئذ تكلم في صوت منخفض فقال: لقد عبرت عن أسفها..

تساءلت: وهل كانت تعني ما تقوله؟

فانزلقت عيناه نحو الأبواب وكأنه لم يكن يرغب في أن يتم ضبطه متلبساً بالتحدث معي في سرية، ثم قال: موقفك ضعيف في مواجهته.. ولا توجد أمامك فرصة سانحة.. هل تفهمني؟

وعلى نحو ما أقنعني كلامه هذا أكثر من أي كلام آخر قاله العجوز بنفسه.. وفكرت في أن أرد عليها برسالة مريرة ينقلها لها جو ولم يكن هناك متسع من الوقت، إذ وقف كونشيس في المدخل ومعه حقيبة صغيرة.. وتحدث مع أحد البحارة باللغة اليونانية.. فلمس جو ذراعي في تعاطف سرى، ثم تحرك للأمام لكي يأخذ الحقيبة من يد كونشيس.. ولدى رجوعه ومروره بجواري عوج فمه في ازدراء وقال: أتعرف العبء الذي يلقيه الرجل الأبيض على كاهلنا؟ إنهم يصنعون العبء ونحن نحمله.

رفع يده في تحية وداع، ثم انطلق وراء هيرميز وماريا، وانطلق البحارة ومعهم الصناديق، وبذلك تم تركي مرة أخرى مع كونشيس.

ومد لي يديه في غير ابتسام وفي شيء من التوتر: من الأفضل لي أن أصدقه الآن.

فقلت: أنت لم تستمع إلى كل ما أريد أن أقوله.

- لا ينبغي أن أكون عبيطاً، فالنقود لها مفعول السحر في هذه البلاد.

- والسادية، على ما يبدو.

فراح يتفحصني للمرة الأخيرة، ثم قال: لسوف يعود هيرميز ليغلق

الأبواب بالأقفال بعد دقيقة، كانت أمامك الفرصة، أقترح عليك أن تفكر في تلك الأمور الموجودة بداخلك والتي فوتت عليك انتهاز الفرصة.

واكتفى بتثبيت عينيه عليَّ، كما لو كان بمقدوره أن ينومني تنويماً مغناطيسياً لكي أتراجع وأعترف بأخطائي.. فقلت: إنني أعني ذلك، ومرت لحظات قصيرة، ثم هز رأسه في بطء، ثم قال: أنت لا تعرف المعنى الذي تقصده أو المعنى الذي أقصده أنا.

ومن المؤكد أنه أدرك أنني لست على استعداد لمصافحة يده، تحرك ماراً بجواري، ثم التفت إليَّ وقال: نسيت أن أقول لك إن النزعة السادية لديَّ لا تمتد إلى معدتك، إذ سيقوم هيرميز بتقديم وجبة غذاء معدة لحملها في علبة من أجلك.. وهذه الوجبة جاهزة الآن.

وما إن مشى مسافة صغيرة حتى فكرت في إلقاء ملاحظة لاذعة عند انصرافه فصحت بصوت مرتفع لكي يسمعني.

«شطائر بها حامض الهيدروسيانيد؟».

تجاهل كلامي، فشعرت بالرغبة في أن أجرى وراءه وأمسكه من ذراعه وأوقفه بالقوة ولكنني أدركت أنني عاجز، وظهر هيرميز على المدق عائداً من الشاطئ إلى ما وراء كونشيس.. ثم سمعت صوت موتور الزورق الصغير وهو يقوم بالنقلة الأولى إلى اليخت.. توقف الرجلان وتبادلا بضعة كلمات، ثم تصافحا بالأيدي، ثم جاء الحمار مواصلاً سيره نحوي.. وتابع كونشيس سيره هابطاً على المدق إلى أن توارى عن الأنظار، ووقف هيرميز عند أسفل السلالم ونظر إليَّ في تجهم، ثم رفع كتلة من المفاتيح، سألته باللغة اليونانية: هل الفتاتان في اليخت؟.

فلوى فمه حيث أصبح شبيهاً بفم ضفدعة: إنه لم يكن يعرف،

أشحت بوجهي بعيداً في استياء وصعد هيرميز ورائي إلى الدور العلوي، ثم تركني عند باب غرفتي وانطلق ليغلق النوافذ في جميع الأماكن.. لم أشاهده وهو يفعل ذلك، فما إن دخلت إلى غرفتي حتى أدركت أن هدية وداع قد تركت لي، كانت ملقاة فوق الوسادة: مظروف محشو بالأوراق المالية اليونانية، فرحت أعد وأحصى النقود، ٢ مليون درخمة.. إنه يزيد على ٢٠٠ جنيه ويعادل ما يزيد على ثلث مرتبي السنوي.. فعرفت السبب الذي دعا العجوز إلى التسلل إلى الدور العلوي قبل مغادرته المنزل وتصاعد الغضب في داخلي لأن ذلك يعني أنني أيضاً يمكن شرائي بالأموال أنه بمثابة الإذلال لي.. وفي نفس الوقت فإن المبلغ كبير للغاية وفكرت في أن أجري إلى رصيف الميناء وألقى بالمبلغ في وجهه، كان من المقرر أن يفرغ الزورق الصغير حمولته، ثم يعود ولكنها أفكار تراودني فقط، وعندما سمعت وقع أقدام هيرميز سارعت بحشر النقود داخل حقيبتي المصنوعة من القماش.. ونظر من فتحة الباب إليَّ، بينما كنت أقوم بوضع باقي حاجياتي القليلة في حقيبتي، ثم تبعني مرة أخرى وأنا أهبط السلم، كأن عليه أن يراقب كل حركاتي.

ألقيت نظرة أخيرة على غرفة الموسيقى وعلى المسمار وعلى العلامة الموجودة على الحائط، حيث كانت لوحة لموديلياني معلقة.. وبعد لحظات قليلة وقفت بمفردي تحت بهو الأعمدة بينما هيرميز يغلق باب غرفة الموسيقى من الداخل.. وسمعت صوت الزورق البخاري يعود من اليخت إلى الشاطئ، وكنت مازلت واقعاً تحت إغراء وإلقاء النقود في وجهه.. ولكن كان عليَّ أن أفعل شيئاً ما إيجابياً وليس رمزياً.. حيث باستطاعتي التحدث مع جاويش الشرطة بالقرية لكي يسمح لي باستخدام جهاز اللاسلكي الخاص بحرس السواحل.. ولم أكترث بما إذا كان ذلك

التصرف سيجعل مني أضحوكة بين الناس.. كنت متشبثاً بأمل واحد أخير، إن كونشيس قص على الفتاتين قصة جديدة مما جعل غيابهما عن الجزيرة أمراً مقنعاً، وفكرت في أنهما قد حصلتا على شيء ما متكافئ مع ما قاله لي عنهما ولعله أقنعهما بأنني أكذب على جولي، ولذلك فكرت في أن عليَّ مقابلتهما ربما لأكتشف أنهما على النحو الذي ادعاه ولكنني لم أكن على استعداد لأن أصدق ذلك قبل أن أسمعه منهما شخصياً، وتشبثت بذكرياتي مع جولي في الماء.. جولي التي كانت بالتأكيد غاية في الإخلاص على مدى لحظات لا حصر لها وتشبثت بطابعها الإنجليزي وبكل تلك الخلفية المشتركة بيننا من حيث الانتماء للطبقة المتوسطة وللطابع الجامعي، ولكي يبيع المرء نفسه ولو لشخص مثل كونشيس فإن الأمر يستلزم فقدان روح الفكاهة والنقد الموضوعي فضلاً عن ضحالة لا تفقد شيئاً إذا استبدلت الذوق بالترف والعقل بالجسد.. ولم تكن هناك فائدة ترجي من وراء ذلك، ومهما حاولت أن أبث قدراً كبيراً من الشكوك الإنجليزية إزاء حالات الفساد الأوربية المنحطة ثقافياً والمنحلة خلقياً فإنني لا أزال حائراً إزاء السر الغامض الذي جعل مثل هاتين الفاتنتين ترفضان المعجبين بهما مع حجب نفسيهما بحيث لا يراهما إلا كونشيس، إذن فقد وضع قبضته الثقافية على جولي بثروته الهائلة وهناك احتمال بأن الفتاتين اعتادتا على حياة الترف على نحو يفوق ادعاءاتهما.. ولهذا كله عدلت عن فكرة الاتصال باللاسلكي.

واتخذت قراراً: إنني كلما أسرعت بتحريك الأمور كان ذلك أفضل.. سرت نحو البوابة وقفزت من حافة بهو الأعمدة إلى منطقة الحصباء، فنادى هيرميز في حدة: الطعام!.

فلوحت بيدي له دون أن أتوقف عن السير: فليذهب الطعام إلى

الجحيم.. فواصلت سيري دون أن أعيره أدنى اهتمام، ثم شاهدته وهو يجذب شيئاً ما من الظلال السائدة في داخل المدخل وسمعت صوت أقدامه السريعة مندفعاً ورائي، استدرت لكي ألوح له بيدي في غضب مرة أخرى للذهاب بعيداً عني.. ولكني توقفت وقد تجمدت يدي..

كان ممسكاً بسلة مصنوعة من سيقان النباتات.. إنها سلة سبق لي أن شاهدتها من قبل بجوار جولي في أثناء يوم الأحد الذي أمضيناه معاً، وانتقلت ببصري في بطء من السلة إلى عيني هيرميز، وحثني على أن آخذ السلة، ثم قال باللغة اليونانية إنه ينبغي لي أن آخذها.. ولأول مرة منذ أن عرفت ذلك شاهدت ابتسامة خفيفة على وجهه.

وترددت، ثم وضعت حقيبتي على الأرض وأخذتها وفتحتها: تفاحتان وبرتقالتان، ولفافتان مغلفتان بورق أبيض ومربوطتان في أناقة..

حركت أحد لفافتي الساندويتش لكي أشاهد البطاقة الخاصة بها: كروج، فنظرت لأعلى وقد ظهرت على وجهي ملامح الدهشة.

سألته: هل تنتظر؟

أومأ برأسه وراءه نحو الصخور التي تقع إلى الشرق من الشاطئ الخصوصي، بنظرة في ذلك الاتجاه متوقعاً أن أشاهد هيكلاً.. سمت صوت الزورق البخاري عائداً من اليخت، وفي هذه المرة أشار هيرميز بيده، قائلاً: أنت لا تعرف حتى الآن المعنى الذي أريد أن أقوله لك، ولكي أحافظ على وقاري.. سرت في مجرد الأخدود الطبيعي ولكنني لم أستطع التراجع، كان تمثال بوسايدون يقف تحت ضوء الشمس، يبدو هذه المرة أقل جلالاً.. كانت هناك لافتة ترفرف مع النسيم مثل جلباب معلق على حبل، وكانت معلقة من ذراع التمثال.. تشير نحو المنحدر الصخري الشاهق.. فهرولت هابطاً إلى أشجار الصنوبر.

(٥٢)

تمكنت من تحديد مكانها من خلال الأشجار الرفيعة، كانت تقف عند حافة المنحدر الصخري الشاهق.. تنظر في اتجاهي، فلوحت لها بيدي فردت عليَّ بالتلويح لي ـ ولدهشتي الشديدة فإنها بدلاً من المجيء في اتجاهي استدارت وغابت عن الأنظار أسفل المنحدر، فشعرت بالارتياح الشديد حتى إنني لم أشعر بالقلق بسبب اختفائها ـ فلربما كانت تريد أن تعطي إشارة لليخت للإفاءة بأن كل شيء على ما يرام.. فشرعت في الجري، ولم تمر أكثر من ٢٥ ثانية ما بين رؤيتي لها وبين وصولي إلى المكان الذي وقفت فيه.. توقفت عن الجري وأنا لا أصدق ما أشاهده.. فالأرض كانت متجة لأسفل في انحدار شديد قبل أن تصل إلى حافة الصخرة المنحدرة ذاتها.. لم يكن هناك مكان يمكنها أن تختبئ فيه.. ومع ذلك كانت قد اختفت تماماً.. كانت ملابسها من النوع اللافت للنظر للغاية.. فوضعت السلة وحقيبتي على الأرض وسرت على طول قمة المنحدر في نفس الاتجاه الذي سلكته، ثم نزلت على نفس حافة المنحدر الصخري ولكنه كان منحدراً صعباً للغاية بحيث لا يمكن أن ينزل عليه إلا شخص من المتخصصين في تسلق الجبال ومع استخدامه للحبال.

كان أمراً يتناقض مع الأسباب المادية.. لقد اختفت في طيات الهواء الرقيق، وحملقت لأسفل نحو اليخت.. شاهدت البحارة يرفعون الزورق البخاري لوضعه على ظهر اليخت.. وشاهدت عشرة رجال فوق ظهر اليخت ما بين بحارة ومسافرين، وكان الجسد الرئيسي لليخت في حالة حركة وهو يتقدم بحذاء المكان الذي أقف فيه كما لو كان الأمر يستلزم السخرية مني علناً.

فجأة سمعت سعالاً.. فاهتززت مستديراً حولي ـ نحو منظر غير

عادي.. وعلى مسافة ١٥ ياردة ورائي.. رأس جولي وكتفاها من الأرض.. كان مرفقاها مرتكزين على الأرض وخلف رأسها كانت هناك دائرة مشرشرة مثل هالة ما سوداء مشوهة.

فتسلقت مقترباً منها، كانت بشرتها قد اكتسبت المزيد من اللون البني بحيث أصبحت قريبة من لون بشرة أختها.. أدركت أن الدائرة الموجودة خلفها كانت عبارة عن غطاء حديدي.. وكانت الأحجار مثبتة بالأسمنت حول حافتها العلوية من جميع الجهات.. وكانت جولي نفسها موجودة في أنبوبة حديدية عمودية غائرة في الأرض.. وكان هناك سلكان متدليان لأسفل من الغطاء كنوع من الجهاز المعادل.. وعضت شفتيها.. وقوست أصبعها مشيرة لي بالمجيء إليها قائلة: ألا تريد الدخول إلى غرفة الجلوس؟

ولكن فجأة تغير صوتها وتغيرت التعبيرات على وجهها: أوه أيها المسكين ـ ماذا حدث ليدك!

ـ ألم يقم بإبلاغك؟ لا تقلقي، ذلك جزء من التاريخ المنصرم.

ـ المنظر يبدو شنيعاً.

وقفنا سوياً للحظات، ثم أمسكت بيدي ذات الندبة الغائرة وراحت تفحصها، ثم نظرت في عيني نظرة مليئة بالحرص على راحة ضيفها، فابتسمت لها وقالت: ذلك أمر بسيط، انتظر لحين أن أقص عليك المتاعب التي أوقعني فيها على مدى الساعات الأخيرة.

ـ اعتقدت أنه سيفعل ذلك.

وأومأت برأسي نحو الحفرة الموجودة في الأرض وتساءلت: ما هذا بحق الجحيم؟

الألمان.. في الحرب.

أوه.. يا إلهي.. كان ينبغي أن أخمن ذلك.

من المؤكد أن كونشيس قد قام بإخفاء المدخل وسد الفتحات الأمامية.. كانت الحفرة غارقة في الظلام.. وتمكنت من مشاهدة سلم وأثقاف ضخمة متعادلة عند نهاية الأسلاك، كما شاهدت مساحة قاتمة من الأرض الخرسانية في القاع.. ومدت جولي يدها ولمست الغطاء فهبط في سلاسة لأسفل إلى مستوى الأرض حيث تلاءمت الأحجار الناتئة الموجودة فوق الجانب الأعلى مع الأحجار المحيطة بها مثل أجزاء لعبة الصور المقطعة، كان من المستحيل على المرء أن يشاهدها.

قلت: لا أستطيع أن أصدق أن هذا يحدث منذ نصف ساعة فقط.. قال لي إنك فتاته وإنني لن أراك أبداً.

ـ فتاته.

وجين أيضاً.

وجاء الدور عليها في هذه المرة لكي تصاب بالصدمة، وحملقت في وجهي كأنني أحاول أن أختبرها، ثم أظهرت احتجاجها على ذلك الكلام..

وقالت: ومن المؤكد أنك لم تصدق كلامه.. ولو صدقته لامتنعت عن الكلام معك للأبد.

ضممتها بين ذراعي وتقابلت شفاهنا.. بدا ردها مختصراً ومقنعاً.

جذبت رأسها في رفق بعيداً عني.. ثم قالت: أعتقد أن هناك من يرقبنا فنظرت في اتجاه اليخت وتركت جسدها ولكنني لم أترك يديها..

وظللت تنظر إليَّ للحظات ثم أحنت رأسها وقالت: هل تعتقد أننا يمكننا أن نتحمل بعضنا البعض مثل الناس العاديين، دون كل هذه الإثارة؟

هذا الكلام سخيف للغاية لدرجة أنني لن أجيب عليه.

فابتسمت وهي تنظر لأعلى: إذن، فالأمر يبدو كأنك ملتصق بي

تماماً، وصدر صوت سرينة اليخت، فالتفتنا وقد تماسكت أيدينا، وكان اليخت قد أصبح في مواجهتنا على مسافة ٣٠٠ ياردة تقريباً من خط الشاطئ، فرفعت جولي يدها ولوحت بها.. وبعد لحظات لوحت بيدي أيضاً، وتمكنت من رؤية كونشيس وجو بينما الهيكل الأسود وماريا بينهما، ولوحوا بأيديهم ونادى كونشيس في اتجاه رجل موجود، وكان هناك خيط من الدخان المتصاعد إلى عنان السماء.. وصدر صوت فرقعة مع انطلاق شيء أسود صغير إلى أعلى بالسماء.. وتصاعد ذلك الشيء، ثم أبطأ من سرعته وانفجر.. وتلألأ وابل من النجوم المتوهجة بالضوء للحظات قليلة من صدور أصوات فرقعة عبر الألوان اللازوردية، ثم تكرر المنظر، ألعاب نارية من أجل انتهاء المسرح.. وصدر أنين مطول من السرينة وتزايد التلويح بالأذرع.. وضعت جولي يديها على فمها وطبعت قبلة على يديها وألقت بها نحو اليخت، ثم لوحت مرة أخرى وبعدئذ بدأ جسم اليخت الطويل الأبيض اللون يتجه بعيداً عن الشاطئ..
سألت: هل قال إنني امرأته المصونة؟

فكررت لها نفس الكلمات التي قالها على وجه الدقة..

فحملقت وراء اليخت: يا لها من وقاحة!!

ـ أدركت أنه يبالغ في كلامه ويتظاهر بذلك.

ـ سأواجهه بهذا الكلام وسأتحدث معه في عنف عندما أشاهده في المرة القادمة، إن جين سيجن جنونها إذا عرفت ذلك، على فكرة، أنا أشعر بالجوع الشديد!.

ـ أريد أن أشاهد المكان الذي تعيشين فيه.

ـ فيما بعد.. هيا نأكل أولاً، وعدنا إلى المكان الذي تركت فيه السلة، ثم جلسنا تحت شجرة صنوبر.. وقمنا بفك االفائف وفتحت الشمبانيا، وشربنا نخب بعضنا البعض.. ثم تبادلنا القبلات وشرعنا في

تناول الطعام، وأرادت أن تعرف مني كل الأمور التي حدثت بالأمس فقصصت عليها ما حدث، ثم حكيت لها عن المناورات الليلية والخطاب الذي كان عليَّ أن أرسله لها في الأسبوع قبل السابق، بالإضافة إلى أنني لم أكن مريضاً..

سألتها عما كانت تفعلانه في كريت في أثناء الجولة البحرية، فلوت عضلات وجهها في عدم ارتياح، وقالت: مجرد الاستلقاء تحت الشمس والشعور بالملل والسأم.

أمسكت بحقيبتي وجعلتها تشاهد مظروف النقود وقلت: انظري إلى هذا.. وذكرت لها حجم النقود وعددها وأخبرتها أنني أرغب في التخلص من النقود، لكنها رفضت وجهة نظري قائلة: عليك أن تأخذ تلك النقود، فمن حقك الحصول عليها، وهو إنسان غني ولديه الكثير من الأموال.. وأنت قد تضطر لأن تبدأ في شراء الطعام من أجلي، فأنا الآن عاطلة.

ألم يحاول إغراءك بالمزيد من النقود؟

حاول بالفعل.. وأنت الذي حال دون استكمال اتفاقية النقود وخلعت القبعة وراحت تتأملها كطفلة، فأملت نفسي عبر القبعة وقبلت خدها.. ثم وضعت ذراعي حول كتفيها وجذبتها نحوي.. كان اليخت قد أصبح على مسافة ثلاثة أميال حيث بدأ يختفي عند طرف جزيرة فراكسوس.. وأصبح البحر شاغراً وهبت الرياح في رفق بين أغصان الصنوبر وحركت خصلات قليلة من شعرها.. كانت قد تهاوت عليَّ قليلاً، بينما كنت جالساً مستنداً بظهري على جذع شجرة الصنوبر..

أدرت وجهها نحوي، ثم استلقينا تحت الظلال التي تتخللها بقع من ضوء الشمس وغرقنا في وابل من القبلات.. كنت أريدها ولكنني لم أكن في عجلة من أمري مادامت فترة الصيف كلها أمامنا.. لذلك اكتفيت بأن

وضعت يدي تحت قميصها واكتفيت بفمها، وفي النهاية وضعت شفتيها على خدي في صمت، وهمست قائلاً: هل كنت تشعرين بالرغبة الشديدة في رؤيتي؟.

ـ أكثر مما تتصور.

ـ أريد أن أستلقي على هذا النحو في كل ليلة طوال حياتي، جرت بأصابعها في داخل قميصي وقالت: أكانت هي ممتعة في السرير؟ صديقتك الأسترالية؟

فشعرت بالقشعريرة للحظات وأنا مستلق هنالك وحملقت لأعلى، من خلال أغصان شجرة الصنوبر نحو السماء وقد راودتني فكرة أن أقص عليها ماحدث.. ولكنني غيرت رأيي.. كان من الأفضل أن أنتظر: لسوف أحكي لك كل شيء عنها ذات يوم.

قرصتني في رفق وقالت: كان عليك أن تحكي قصتها منذ فترة.

ـ لماذا تسألين عنها؟

ـ ربما لأنني لست مثل.. كما تعرف.

فالتفت وقبلت شعرها، وقلت: لقد برهنت بالفعل على أنك أكثر ذكاء ومهارة.

فالتزمت الصمت وبدت كأنها لم تتبدد شكوكها تماماً.. ثم قالت: لم يسبق لي أن مارست حباً جسدياً مع أي شخص.. ثم قامت بتقبيل رقبتي وقالت.. تتشابه آرائي أنا وجين حول الرجال فيما يتعلق بك.

ـ إنها مولعة بمداعبتك ومضايقتك.

ـ ثم قلت:

ـ أريد أن أخلع لك ثيابك الآن.

ـ عندئذ ستجعلني أعود لذكري الأيام السالفة.

ـ لن يهمني ذلك.

فاستندت على إحدى مرفقيها، ثم انحنت عليَّ وقبلتني وابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت: الليلة.. أعدك.. وجين في انتظارنا.. دعيني أشاهد مكانكما أولاً..

ـ أنه مكان فظيع ومقرف، أشبه بالمقبرة.

فنظرت بتفرس في عينيّ كأنها تميل لأن تتناقش معي في ذلك، ثم ابتسمت ومدت يدها إليَّ، وسرنا على المنحدر الصخري المشرف على البحر.. وانحنت جولي وجذبت حجراً: فارتفع الغطاء، ففتحت الحفرة المظلمة فمها.. ثم ركعت وتحسست لأسفل بقدمها لكي تضعه على الدرجة الأولى للسلم، وبدأت تهبط السلم حتى وصلت إلى القاع.. ثم أشرأبت بوجهها لأعلى قائلة:

ـ كن حذراً.. فبعض درجات السلم متآكلة.

وبدأت أهبط السلم وراءها.

كان الجو في داخل هذه الأنبوبة مثيراً للخوف من الأماكن المغلقة.

ولكن عند القاع وفي مواجهة السلم كانت هناك غرفة صغيرة تؤدي إلى الخارج، وتحت الضوء الخافت تمكنت من مشاهدة باب في كل حائط جانبي وعلى الجانب الذي يتجه نحو البحر كانت توجد الفتحات المسدودة والتي كانت بالتأكيد ذات يوم بمثابة الفتحات الخاصة بالمدافع، وكانت هناك منضدة وثلاثة كراسي ودولاب صغير، وكان الهواء غير متجدد وبه رائحة عفنة وشبيهة برائحة الرطوبة وكما لو كان الصمت له رائحة خاصة به.

ـ هل معك علبة كبريت؟

ثم رفعت المصباح الذي لا تطفئه الرياح أو الأمطار فقمت بإشعاله، وكان الحائط الأيسر للغرفة مطلياً بصورة جدارية غير جميلة ـ صورة

لسرداب تقدم فيه البيرة في أقداح فوارة وفتيات خليلات لهن صدور ناهدة وعيون غامزة، وكانت هناك آثار ضعيفة توحي بأنه كانت هناك ذات يوم ألوان ولكن لم يتبق منها سوى الخطوط الخارجية السوداء، وعلى الحائط الذي يقع جهة اليد اليمنى كان هناك شيء ما أكثر حذقاً ومهارة ـ رسم منظري لشارع في مدينة نمساوي، وضمنت أيضاً أن يكون أنطون قد ساعد على تنفيذ هذا الرسم، وكان البابان الجانبيان يشبهان الأبواب الجاهزة المانعة للمياه الموجودة بالسفن، وكانت هناك أقفال ضخمة فوق البابين.

وأومأت جولي برأسها وقالت: تلك كانت غرفتنا، وكان جو يستخدم الغرفة الأخرى.

يا له من مكان شنيع، رديء الرائحة.

ـ اعتدنا أن نسمي هذا المكان الجحر، هل سبق لك أن شممت رائحة جحر ثعلب؟

ـ وما السبب في إغلاق الأبواب بالقفل؟

ـ لست أدري، إذ لم يغلقا من قبل على الإطلاق، وأظن أن أناساً في الجزيرة يعرفون أن هذا المخبأ موجود ولا ينقصك أي شيء هنا، الملابس الملائمة موجودة، والأسرة، والمزيد من الصور الحائطية المرعبة.

نظرت إليها تحت ضوء المصباح وقلت: أنت فتاة شجاعة، لأنك تواجهين مثل هذا الأشياء.

ـ لقد كرهنا هذا المكان، ولقد كرهه الكثير من البشر التعساء، فالمرء يحتجز هنا بعيداً عن ضوء الشمس.

فقمت بلمس يدها: لقد شاهدت بما فيه الكفاية.

ـ هل يمكنك أن تطفئ المصباح؟

فأطفأت المصباح، واستدارت جولي تصعد على السلم، ساقان زرقاوان رشيقان حيث كان ضوء النهار الساطع يخطف بالأبصار لدى تدفقه لأسفل، انتظرت للحظات عند القاع لكي أترك مسافة بيني وبين قدميها ثم بدأت في صعود السلم، حتى اختفى الجزء العلوي من جسدها، ثم صرخت منادية على اسمي، فلقد قفز شخص ـ وربما شخصان ـ من خلف الغطاء وأمسكا بذراعيها، ثم رفعها لأعلى وراحت تركل بإحدى ساقيها في وحشية، سمعتها تنطق باسمي مرة أخرى ولكن صوتها انقطع فجأة، وسمعت اصطدام الأحجار ببعضها بالخارج دون أن أتمكن من مشاهدة أي شيء، وخربشت بيدي في عنف صاعداً على الدرجات المتبقية بالسلم، وأطل وجه في لمحة خاطفة من الفتحة الموجودة فوقي، إنه شاب أشقر، نفس البحار الذي سبق أن شاهدته في ذلك الصباح بالمنزل، أدرك أنه لا يزال أمامي درجتان من السلم لكي أصل إلى السطح ثم أغلق الغطاء في عنف على الفور، فصحت كالثور لدى هبوط الظلام الفجائي حولي، ورحت أدفع بكل قوتي في الجانب السفلي من الغطاء، فانفرج انفراجاً ضئيلاً للغاية، كأن شخصاً ما كان واقفاً عليه، لكن الغطاء رفض التزحزح مع المحاول الثانية، ولم أتمكن من ممارسة الكثير من الضغوط لأعلى.

واستجمعت قواي لكي أدفع الغطاء لأعلى مرة أخرى ثم توقفت عن ذلك ونزلت على السلالم إلى القاع ثم أضأت المصباح مرة أخرى، وجربت فتح البابين الهائلين، كان من المتعذر اختراقهما على الإطلاق، فحطمت الدولاب وفتحته، كان خالياً تماماً، زمجرت في غضب، وتذكرت الخروج الخرافي لكونشيس: الوداع المرح والألعاب النارية وزجاج الكروج، لقد انتهى صخبنا.

وقفت عند أسفل السلم وتأججت غضبا محاولاً فهم الرياء السادي لدى هذا العجوز، حاولت أن أقرأ ذلك الرق الأثري العتيق الذي

استعمل للكتابة مرة ثانية بعد الكتابة الأصلية.. ذلك الرق الخاص به. أن المسرح «الذي هو بدون متفرجين» وما ينادي به ليس له أي معنى، ولا يمكن أن يقدم التفسير لذلك، فالشيء الوحيد الذي يتطلع إليه كافة الممثلين والممثلات هو جمهور المشاهدين، ربما أن ما يفعله نبع من نظرية عن المسرح ولكنه سبق أن قال: «القناع ليس سوى استعارة»، إنها فلسفة ما جديدة غير قابلة للفهم: الاستعارية؟ ربما كان ينظر لنفسه على أنه بروفسور في التورية، رحت أفكر مرات عديدة لم أصل إلى أي شيء سوى المزيد من الشكوك، بدأت الشكوك تمتد لتشمل جولي وجين أيضاً، من المؤكد أن ذلك هو مسرح العضام، لقد تم التخطيط لكل ذلك من البداية وعلى أساس ألا أتمكن من الحصول عليها على الاطلاق، وأن يتم تعذيبي باستمرار، كيف يمكن لأي فتاة أن تفعل ما فعلته هي مازلت أشعر بنبض قبلاتها وأتذكر كل كلمة من الكلمات الهامسة التي قالتها إنها لا تعني مثقال ذرة مما قالته أو فعلته؟ اللهم إلاّ إذا كانت مشوشة عقليا بالفعل ومدركة على نحو ما أن الأمر لا يحتاج منها إلى الإيفاء بوعودها.

ولكن، كيف يمكن لرجل يدعي أنه طبيب أن يسمح لمثل هذه الأمور أن تحدث؟ كان ذلك أمراً لا يصدقه العقل ولا يتصوره.

وبعد نصف ساعة، وعقب قيامي بالمحاولات العديدة تراجع الغطاء عند دفعه لأعلى، صعدت إلى ضوء الشمس مرة أخرى، كان البحر شاغراً.

وتسلقت المنحدر إلى موقع يمكنني منه الرؤية لمسافات أبعد ولكن لم يكن هناك شيء.

وبعد دقيقتين وصلت إلى المنزل، كانت النوافذ مغلقة تماماً على النحو الذي كانت عليه عندما شاهدتها آخر مرة، فشرعت في السير

بسرعة في اتجاه البوابة، وهناك اكتشفت أنه ترك لي مفتاحاً يعينني على معرفة اللغز، أو بالأحرى ترك لي مفتاحين.

(٥٣)

كانا يتدليان من غصن شجرة الصنوبر القريبة من البوابة في منتصف المدق على مسافة أقدام من الأرض كانا يتأرجحان مع نسيم الهواء بينما أشعة الشمس تلامسهما، إحداهما، كان دمية والآخر كان جمجمة بشرية.

تدلت الجمجمة من حبل متين أسود أما الدمية فمتدلية من حبل أبيض اللون، وكانت رقبة الدمية معلقة في أنشوطة، إنها مصنعة من الخشب ومطلية باللون الأسود والفم مبتسم والعينان بيضاوان. كانت تلك الدمية تشير إلى أن جولي إنسانة شريرة وأنها سوداء مستترة تحت البراءة البيضاء اللون التي ترتديها.

لويت الجمجمة وجعلتها تلف وتدور، كانت الظلال تغمر تجويفاً بالجمجمة وكان الفم بالجمجمة يبتسم في تجهم، كانت هناك عيون يرقبني، ولكنني لم أشاهد شيئاً يتحرك، كانت الأشجار الجافة غارقة تحت ضوء الشمس، اجتاحني الخوف، فتملك الأشجار وهذه الشمس بمثابة الشراك الرفيعة للحقيقة، كنت بعيداً عن موطني، إن أعمق المسافات لا تكتسب الطابع الجغرافي على الإطلاق.

أمسكت بي الافتراضات وعرقلتني أقدامي في الأرض، كل ما أعرفه أنني تحرقت شوقا لجولي، كنت مجنوناً بها، وكان العالم في ذلك اليوم ليس لا معنى له بخلاف ذلك، لذلك أسرعت إلى المدرسة مثل زعيم عصابة يستعد للانتقام في إحدى قصص البطولة، ولو أنه توجد في داخل ذهني دائماً فرصة ضئيلة أخيرة في أن أعثر على جولي منتظرة إياي، ولكنني عندما فتحت باب غرفتي في عنف فإنني فتحت الباب

على غرفة شاغرة، على ذهني أن أذهب إلى ديميترياديس لكي أحاول استخلاص الحقائق منه مع إرغامه على المجيء معي لكي نذهب إلى أستاذ العلوم، وقررت أذهب إلى أثينا، ولكني غيرت رأيي، وربما كان السبب الوحيد الذي جعلني أغير رأيي هناك أسبوعين على انتهاء الفترة الدراسية.

وأخيراً ذهبت إلى القرية ومنها مباشرة إلى المنزل الذي يقع خلف الكنيسة، كانت البوابة مفتوحة وكانت الحديقة يانعة بأشجار الليمون، ورغم أن ذلك المنزل لم يكن كبيراً إلا أن به أناقة معينة، وكانت الواجهة المطلية باللون الأبيض مغمورة في الظلال، وبينما أسير بين الحوائط الباردة للأشجار ظهر هيرميز عند الباب الأمامي، وبدا مندهشاً لرؤيتي بمفردي، سألته باللغة اليونانية: هل السيدة الصغيرة موجودة هنا؟.

ـ فرفع رأسه لأعلى بما يفيد «لا».

ـ هل ذهبت هي مع السيد كونشيس إلى أثينا؟

ـ نعم.

من الممكن أن يكون اليخت قد رسى في أحد موانئ القرية عقب اختفائه عن الأنظار وافترضت أن تكون جين قد صعدت إلى ظهر اليخت، أحملق في هيرميز للحظات ثم اندفعت متخطياً إياه ودخلت في المنزل.

صالة مليئة بالهواء الطلق ورطبة وشاغرة، وكانت هناك سجادة تركية جميلة معلقة على أحد الحوائط، ومن خلال باب مفتوح إلى جهة اليسار شاهدت الصناديق التي تضم اللوحات والصور التي نقلت من بوراني، وكان هناك ولد يقف في مدخل الباب ومن المؤكد أنه كان أحد

أبناء هيرميز، ولم يقل الرجل لابنه أي كلام وحملق الطفل حملقة بنية رزينة ثم استدار منصرفاً، وتكلم هيرميز خلف ظهري: ماذا تريد؟.

ـ ما هي الغرف التي كانت بها الفتاتان؟

فترددت بعض الشيء ثم أشار لأعلى السلم، وكان انطباعي عنه أنه عاجز عن تتبع الموضوع، وانطلقت صاعداً السلم، كانت الطرقات تتجه إلى كل من اليسار واليمين بطول المبنى، نظرت إلى هيرميز الذي تبعني، وأصابه التردد مرة أخرى ثم أشار بيده إلى باب في الجهة اليمنى، ووجدت نفسي في غرفة شبيهة تماماً بالغرف الأخرى بالجزيرة: سرير عليه مفرش من المشغولات اليدوية والأرضية مثبتة عليها الألواح الخشبية التي جرى تلميعها، وكان شيش النافذة التي تواجه الناحية الغربية قد أغلق ثلاثة أرباعه عن طريق السقاطة.

وفتحت جزءاً من الشيش لكي أسمح بدخول المزيد من ضوء الشمس، وكان هيرميز يقف في فتحة الباب محملقاً في ريبة، سألني عما أفعل، بدا أنه لم يهتم بأن يسألني عن المكان الذي توجد فيه جولي، في هذه المرة تجاهلته، كنت أتمنى أن يحاول التعرض لي نظراً لأنني أشعر بتزايد الرغبة في داخلي نحو اللجوء للعنف الجسماني من أي نوع، لكنه لم يحاول إيقافي، فاضطررت لأن أصب كل ما لدي من إحباط على دولاب الملابس الصغير، ورحت أنظر في أرجاء الغرفة، والجونلات بالإضافة إلى معطف صيف، وتعرفت على الرداء الوردي الذي ارتدته يوم الأحد الذي حُكي لي عما بدا أنه حقائق، وفوق الأرضية توجد حقيبة سفر، فالتقطت الحقيبة وألقيت بها على السرير.

كان يوجد المزيد من الملابس، من الواضح أنها أشياء لا يحتاج إليها في صيف اليونان.

سأل هيرميز: عن أي شيء يبحث؟

فقلت في تمتمة «لاشيء»، كانت لدى شكوك أن كونشيس يعمل وفق المبدأ الذي يطبق في خلية التجسس وبحيث لا تبلغ التشكيلات الأدنى بأكثر مما يحتاجون إلى معرفته من معلومات.. ولذلك لم يكن هيرميز يعرف معلومات كثيرة، فتركت حقيبة السفر ونظرت إليه: أين غرفة الفتاة الأخرى؟

ـ لا يوجد أي شيء، لقد أخذت معها كل حاجياتها.

أرغمته أن يريني الغرفة، كانت مماثلة من حيث الأثاث، ولكن الدلائل كانت تشير إلى أن أحدا لم يشغلها على الإطلاق، وحتى سلة المهملات بجوار منضدة كانت شاغرة، فثبت نظراتي على هيرميز مرة أخرى.

ـ ولماذا لم تأخذ حاجيات أختها معها؟

فهز كتفيه كما لو كنت أسأله سؤالاً غير معقول، ثم قال: أخبرني السيد أنها ستعود معك.

وعندما نزلنا إلى الدور الأول طلبت من هيرميز أن يستدعي زوجته، كانت امرأة من نساء الجزيرة تبلغ من العمر خمسين عاماً، إنها أقل تجهماً من زوجها وأكثر ثرثرة منه، نعم، لقد قام البحارة بإحضار الصناديق ولقد جاء السيد، وكان ذلك في حوالي الساعة الثانية، وذهبت معه الفتاة لدى انصرافه من هنا، هل كان يبدو عليها أنها تعيسة؟ لا، على الإطلاق، فقد كانت تضحك، وأضافت قائلة: إنها سيدة شابة بالغة الجمال، هل سبق لها مشاهدتها من قبل في أي وقت قبل هذا الصيف؟ لا، على الإطلاق وأضافت أنها فتاة أجنبية على أساس أنني ربما لا أعرف هذه الحقيقة، هل قالت: إنها سوف تعود مرة أخرى؟ ففتحت المرأة يديها بما يفيد أنها لم تكن تعرف، ثم أضافت قائلة: ربما، شعرت أنهما كانا قطعتي شطرنج وحتى إذا كانا يدركان على وجه

الدقة طبيعة ما يدور من أحداث فإنه كان من الواضح تماماً أنهما ليسا على استعداد لأن يخبراني بأي كلام مفيد، لقد كانت تضحك، كان باستطاعتي أن أتخيل أن جين قد خدعت وأقنعت أن تذهب مع كونشيس ولكن كان عليها ألا تكتفي بمجرد الضحك، كان الموقف مليئاً بالزيف وزاد ذلك من شكوكي، هذا بالإضافة إلى تلك الحاجيات الخاصة بجولي والتي مازالت بالغرفة العلوية، بدأت أعتقد أنه ينبغي عليَّ أن أتذرع بالصبر مهما أصابني من الإحباط الشديد.

وصلني خطاب في أثناء فترة تناول طعام الغداء في يوم الإثنين، كان خطاباً مرسلاً من مدام هولمز.

«أسعدني كثيراً أنك تقابلت مع جولي وجين كما أسعدني أن هناك شخصاً بريطانيا في الجزيرة، فهذا أمر يبدو رائعاً ومحبباً للنفس للغاية، أرجوك أن تذكرهما لكي تقوما بكتابة الخطابات إليَّ، فهما كسولتان بشكل شنيع في إرسال الخطابات إليَّ.

المخلصة

كونستانس هولمز

كنت قائماً بأعمال النوباتجية في ذلك المساء ولكنني تسللت خارجاً عقب ذهاب الأولاد للنوم في أسرتهم، ذهبت إلى منزل هيرميز، ولم تكن هناك أنوار في الدور العلوي.

وجاء يوم الثلاثاء، وشعرت بالقلق وبعدم الجدوى وبعدم المقدرة على اتخاذ أي قرار، وفي وقت متأخر من بعد الظهر سرت إلى الميدان الذي تم تنفيذ حكم الإعدام به وكانت هناك لوحة لتخليد الذكرى على حائط مدرسة القرية، وكانت شجرة الجوز مازالت جهة اليمين، بدا الميدان شبيهاً بالغرفة بغرفة التعذيب تلك التي ذهبت لمشاهدتها عندما

رجعت من القرية مساء يوم الأحد حيث كان مغلقاً درت حول المكان من الخارج ورحت أدقق النظر إلى الداخل فاتضح أنها استخدمت كغرفة مخازن، من المؤكد أنها تركت على حالتها بالإضافة إلى المنضدة الوحيدة الرهيبة في الوسط.

ربما كنت مشغولاً للغاية بشئون المدرسة خلال تلك الأيام، فالامتحانات كانت قد بدأت، نصت النشرة المطبوعة على «أن يقوم مدرس اللغة الانجليزية بامتحان الطلبة امتحانا تحريرياً»، مما يعني أن أمامي حوالي ٢٠٠ ورقة إجابة تستلزم مني القيام بتصحيحها، لم أنزعج كثيراً لأن انشغالي بتصحيح الأوراق يمكن أن يبعد عن الهموم الأخرى.

أدركت أن هناك تغييراً داخل كياني وأنه لم يعد بمقدوري أن أثق بالفتاتين، بعد أن اتضح أنهما تنفذان رغبة كونشيس أي أنهما تعرفان ما يكمن وراء كل ذلك، ولكن إذا كان هذا هو أحد الافتراضات المعقولة فينبغي أن أضيف افتراضاً آخر، لقد كانت تخدعني لصالح العجوز ولكنها كانت تخدعه أيضاً لصالحي، مما يعني أنها تدرك أنني لن أحرم منها في نهاية الأمر وأن هذه المضايقات ستتوقف يوماً.

كان يوم الأربعاء خانق الحرارة عديم الرياح وكأنه آخر يوم في عمر الكرة الأرضية، في تلك الليلة، قضيت جلسة طويلة لتصحيح أوراق الامتحانات، وكان يوم الخميس هو المحدد لتسليم الأوراق لنائب ناظر المدرسة، كان الهواء ثقيلاً للغاية، وفي حوالي العاشرة والنصف سمعت دمدمة، كان المطر بصدد الهطول، وبعد ساعة كنت قد انتهيت من تصحيح ثلث الأوراق، سمعت طرقاً على الباب، ظننت أن الطارق هو أحد المدرسين لكن الطارق كان باربا فاسيلي، وكان قد جاء من البوابة، وارتسمت ابتسامة تحت شاربه الأبيض الشبيه بشارب عجل البحر، وما أن لفظ كلماته الأولى حتى قفزت ناهضاً من مكتبي.

(٥٤)

ـ معذرة يا سيدي ولكن سيدة شابة..

ـ أين هي؟

فأشار بيده في اتجاه البوابة، ارتديت معطفاً بسرعة خاطفة، وأضاف هو: أنها فتاة أجنبية بالغة الحسن.

تخطيته وانطلقت في الطرقة، ثم قفزت هابطاً على السلالم، وأسرعت من المبنى في اتجاه البوابة، توقعت أن أشاهدها واقفة في تلك المساحة ولكن لم يكن هناك أحد، كانت البوابة مغلقة نظراً لأننا نحن المدرسين كان لدينا جميعاً مفاتيح لاستخدامها في فتح البوابة، تذكرت أنني تركت مفتاحي في السترة التي كنت أرتديها في الفصل، فنظرت من خلال القضبان، لم يكن هناك أحد على الطريق، ولا بجوار مياه البحر.

لم يظهر أي هيكل سريع من وراء الحوائط، فاستدرت في حنق وسخط، كان باربا فاسيلي يمشي بين الأشجار قادماً من الكتلة السكنية الخاصة بالمدرسين، سألته: أليست هي هنالك؟ بدا كأنه يستغرق وقتاً طويلاً للغاية في فتح البوابة الجانبية التي تستخدم في الفترات المسائية، وخرجنا إلى الطريق، وأشار العجوز إلى مكان بعيد عن القرية، بدأت أشم رائحة المزيد من المكايد، كان هناك شيء ما في ابتسامة الرجل العجوز، ومع ذلك قررت الانطلاق وليحدث ما يحدث.

ـ هل لي أن آخذ مفتاحك ياباربا؟ لكنه رفض إعطائي المفتاح الذي معه، اضطر إلى العودة داخل مسكنه مع البحث لاحضار مفتاح آخر، وبدا كأنه يتعمد تعطيلي وعندما رجع ومعه مفتاح اختطفته منه على وجه السرعة.

وسرت بسرعة على الطريق، وبعد أن ابتعدت عن المدرسة، ظننت

أن جولي ربما تكون منتظرة ولكنها لم تكن هنالك، لم يكن الطريق يمتد لمسافة أكثر من ربع ميل، وبعد الحائط كان الطريق يمتد حتى جسر صغير وفي اتجاه الأراضي الداخلية كانت توجد كنيسة صغيرة متصلة بالطريق بواسطة صف من أشجار السرو الطويلة، وكان القمر قد احتجب بسبب سحابة عالية كثيفة، وصلت إلى الجسر وأصابني التردد ما بين الاستمرار في السير على الطريق أو العودة إلى القرية، وعندئذ سمعتها تنادي على اسمي.

جاء صوتها مترامياً من بين صف أشجار السرو، كانت واقفة متوارية عن الطريق ما بين أشجار السرو، معطف مشمع للوقاية من الأمطار وإيشارب حريمي وبنطلون وقميص أسود اللون على ما يبدو والشكل البيضاوي الأكثر شحوباً لوجهها، صحت: جولي:

ـ أنا جين، أشكر الله على مجيئك، اقتربت منها وقلت: أين جولي؟

فأطالت النظر إليَّ ثم نكست رأسها.

«لقد اعتقدت أنك عرفت ما يدور من أحداث بينها وبين موريس».

فالتزمت بالصمت ونظرت هي لأسفل مرة أخرى.

تساءلت: ماذا تظنون فيَّ أنتم جميعاً بحق الجحيم؟ يبدو أنكم نسيتم أنني قد دخلت هذه المسرحية الهزلية حول الفتاة والعجوز.

فهزت رأسها وقالت: لم أقصد ذلك، مجرد أنها سوف تفعل أي شيء يطلبه منها، بطرق أخرى.

وظلت رأسها منكسة آنئذ، كان عليَّ أن أستدير على عقبي وأسير عائداً إلى المدرسة وإلى تصحيح أوراق الامتحانات فقد أدركت أنني عدت إلى نقطة البداية فيما يتعلق بالمسرحية التنكرية، وفي ضوء الحقيقة المرة لم أعرف المزيد عن حقيقة الفتاة منذ أن وقعت عيناي عليها لأول مرة، أدركت أنني لا أستطيع أن أستدير على عقبيّ عائداً

مثلما أن الحجر الذي يلقي على الأرض لا يمكنه أن يطير عائداً إلى اليد سألت: وما الذي تفعلينه هنا على وجه الدقة؟

- لا أظن أن الأمر يتصف بالعدل.

- ما هو الأمر الذي لا يتصف بالعدل؟

- نظرت نحوي، وقالت: كل شيء كان مخططاً له، بما في ذلك بعادها عنك على ذلك النحو، فهي كانت تدرك أن ذلك سوف يحدث.

- ومجيئك لي الآن ليس مخططاً له؟

فحملقت إلى ما ورائي نحو طيات الليل وقالت:

- لا ألومك إذا افترضت ذلك.

- لم تذكرني المكان الذي توجد فيه جولي الآن.

- إنها في أثينا، مع موريس.

- أهي في المكان الذي جئت أنت منه تواً.

رحتُ أبحث عن الانطباعات التي ظهرت على وجهها وهي تومئ برأسها، كان بها شيء من البراءة علاوة على التأنيب بسبب شكوكي فيها، كان من الواضح أنها تلعب دوراً معيناً، سألت: ولماذا لم تنتظري عند البوابة؟.

- شعرت بالهلع والذعر، فقد نادي عليك ولكنه استغرق وقتاً طويلاً للغاية، ورفرف البرق مرة أخرى، وكان الهواء محملاً برائحة قدوم الأمطار.

- وما الذي جعلك تشعرين بالهلع؟

- لقد هربت يانيقولاس، من المؤكد أنهم خمنوا ليعرفوا إلى أين ذهبت.

- ولماذا لم تذهبي إلى الشرطة، أو السفارة؟

ـ هذه الإساءة لا تعتبر جريمة، فتشجيع شخص ما لكي يحبك تحت ادعاءات مزيفة لا يعتبر جريمة، إنها أختي وهذه التصرفات لا يفعلها موريس، إنما تفعلها جولي.

سمعنا صوتاً مترامياً من الطريق، نظرنا معاً حول شجرة السرو، كانت هناك ثلاثة هياكل معتمة لرجال يسيرون في اتجاه الجسر يتكلمون اليونانية، نظرت إليَّ جين نظرة توحي بالخوف، نظرت في اتجاه الطريق، كان الرجال الثلاثة يسيرون في هدوء وقد أصبحت ظهورهم في اتجاهنا وأصبح الشريط الرمادي للطريق مترامياً وكذلك البحر المعتم، قلت: «استمعي إليَّ، لقد سئمت كل هذا تماماً، ليس لدي مانع من لجوئكما للعب، ولكنني لا أوافق على اللعب بعواطف الناس.

ـ هذا هو ما أشعر به، لقد غشتك وخدعتك.

ـ لقد خدعتني كثيراً، لذلك أرجو أن تتكلمي معي بصراحة، أين هي؟

ـ لعلها في السرير مع حبيبها الحقيقي.

فسحبت نفساً عميقاً وقلت: موريس؟

ـ مع الرجل الذي تعرفه باسم جو.

فضحكت لأن ما تقوله غير معقول على الإطلاق.

فقالت: وهو كذلك، لست مضطراً لأن تصدقني.

ـ وينبغي لك أن تقول كلاماً معقولاً أفضل من ذلك، وإلا فسوف أعود إلى غرفتي، وأنا أفترض أنه يقف ويرقبنا ونحن نمارس الحب معاً.

يمكن للمرء أن يفعل ذلك إذا كان يمارس الحب بالفعل مع إنسانة ما في كل ليلة، وإذا كان يدرك أن الرجل الآخر يتم خداعه.

كانت مصرة على رأيها تماماً، وكان الأمر أشبه بمحاولة بيع شيء ما

مرتين لنفس الزبون، قلت: لقد سئمت كثيراً، وحصلت على ما فيه الكفاية وضقت ذرعاً.

استدرت لكي أنصرف ولكنها أمسكت بذراعي.

ـ لو سمحت يانيقولاس، بغض النظر عن أي شيء آخر فأنا لا أعرف أين أقضي ليلتي، ولا أستطيع الذهاب إلى المنزل بالقرية.

ـ حاولي الذهاب إلى الفندق.

فابتلعت الاهانة ثم حاولت مرة أخرى، قائلة: من المحتمل أن يكونوا هنا غداً، وإذا ما كنت بصدد التعرض لأي اتهام فإنني أود أن تقف بجانبي.

وللوهلة الأولى كانت هناك نغمة تتسم بالمزيد من الصدق في صوتها، ابتسمت أخيراً ابتسامة خفيفة جعل صوتي يكتسب شيئاً من الرقة وأنا أقولها: ما كان عليك أن تقصى عليَّ قصة «القلوب الثلاثة».

ـ هل هي قصة غير محتملة للغاية؟

ـ تعرفين أن عدم الاحتمال هنا يكمن في قيامكم بلوي الحقائق لكي تتلاءم مع القصة.

كانت نغمة صوتي قد بدأت تتخذ طابعاً أكثر تهكماً نظرت إليَّ في تفرس عميق واتسعت حدقتا عينيها وأصبحت مثل حدقتي طفل جريء يرغب في التحدي، قلت: كلما ازدادت معرفتي أصبحتما غير معقولتين بحيث يزداد عدم تصديقي لكما.

ـ هل لأننا نشعر أنك جذاب ووسيم بعض الشيء؟ ولأنني أشعر بالأسف من أجلك؟ مثلما أشعر بالأسف من أجلي أنا.

فحملقت في وجهها وقد شعرت برغبة في أن أختبرها، بدا أن الاختبار الحقيقي كان اختباراً لي قلت:

ـ هل أخبرت جولي أنني بعثت بخطاب إلى والدتكما؟

ـ نعم.

ـ وصلني رد منذ يومين، وأنني لأسائل نفسي في تعجب: ترى ما الذي ستعتقده لو أرسلت خطاباً أخبرتها فيه عن حقيقة وضعكما؟ إنها لن تصدق شيئاً.

راحت تتأملني ثم نظرت لأسفل، وقالت: خطاب أمنا الوهمي المرسل إليك كان نصه كالآتي: عزيزي السيد أورفي، قمت بتسليم خطابك للمستر فوليامي الذي هو ناظر المدرسة الابتدائية هنا..

جاء الدور لكي أتهاوى، تحولت الأرض الراسخة تحت قدمي إلى رمال هشة متحركة في خلال ثوان قليلة، فقلت: لقد تم تحرير الخطاب هنا وتم لصق طابع بريد إنجليزي عليه، وبعدئذ..

ثم قامت بالحركة التي يتم بها ختم الخطاب بخاتم البريد، وقالت: والآن هل ستصدقني؟

ورجعت بتفكيري للوراء في يأس مرير: إذا كانوا يقومون بفتح خطاباتي المرسلة للخارج.

سألتها: هل تقومون بفتح الخطابات الواردة لي من الخارج أيضاً؟

ـ أخشى أن يكون الأمر كذلك.

ـ إذن فأنتم تعرفون موضوع صديقتي الأسترالية؟

فصدرت حركة خفيفة من كتفيها «بالطبع»، قلت: أنت تعرفين بالفعل أنني قابلتها في أثينا في إجازة نصف السنة؟

أصابها التردد ثم ابتسمت في وجهي ولاذت بالصمت، تذكرت أنني تركت خطاب والدتها على مكتبي، ولعل شخصاً تسلل إلى غرفتي وقرأه، أما خطاب آن تيلور وما به من قصاصات الصحف فقد خبأته

تماماً في حقيبة مغلقة بالمفتاح، قلت: إذن، برهني لي على ذلك، هل قابلتها في أثيونا أم لا؟.

ـ أنت تعرف جيداً أنك لم تقابلها.

وقبل أن تتمكن من لتحرك صفعتها على خديها، وشعرت بالصدمة، ثم وضعت يدها في بطء على خدها، وأكملت:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ ولسوف أصفعك مرة أخرى إذا لم تقولي الحقيقة، هل يتم فتح الخطابات المرسلة إليَّ بالبريد؟

فترددت وهي لا تزال ممسكة بخدها ثم أذعنت في استسلام: لانفتح.. سوى الخطابات التي تتعلق بنا.

ـ ذلك أمر يدعو للأسف.. ينبغي لك أن تكوني أكثر دقة في كلامك، لو فتحت الخطاب لعرفت أنني قابلت تلك الفتاة المسكينة في أثينا.

ـ إنني لا أدرك ماذا.

ـ بسبب أختك طلبت من هذه الفتاة المسكينة أن تخرج من حياتي، وبعد أسبوعين خرجت، ليست فقط من حياتي ولكن أيضاً من حياتها، لأنها ماتت منتحرة، والآن أنتم تدركون الثمن الباهظ الذي نجم عن اللهو الذي تمارسونه.

راحت تحملق، ظننت أنها صدقت كلامي، ولكنها أشاحت بوجهها بعيداً، ثم قالت: لو سمحت، لا تحاول أن تلعب لعبة موريس.

فأمسكت بذراعيها وهززتها وقلت: أنا لا ألهو من أجل التسلية أيتها البلهاء، لقد قتلت نفسها.

بدأت تصدقني، فقالت: ولكن.. لماذا لم تخبرنا بذلك الانتحار؟

تركت ذراعيها، قلت: لأنني شعرت بتأنيب الضمير.

سادت فترة من الصمت، ثم تكلمت في نوع من الخجل:

ـ هل تحدثت معها عن جولي؟

أحسست بذعر في صوتها، قلت: كنت غارقاً في حب أختك على هذا النحو السخيف.

ـ ولكن موريس سبق أن حذرك.

ـ ومتى قال هو الحقيقة لي في أي وقت من الأوقات؟ فالتزمت بالصمت مرة أخرى وغرقت في التفكير، وبدأ يظهر عليها شيء من التغيير ونظرت إليَّ نظرات عميقة متفرسة في عيني، وقالت: هذا أمر في غاية الأهمية، ألا تكذب عليَّ؟

لدى البرهان في غرفتي، أتودين أن تشاهديه.

ـ لو سمحت.

وظهر في صوتها شيء من الاعتذار، قلت: وهو كذلك، انتظري عند البوابة في خلال دقيقتين.

عندما رجعت بعد دقيقتين ومعي الخطاب وقصاصات الصحف شاهدتها على جانب الطريق المواجهة للبوابات، وكان باربا واقفاً في مدخل بابه المضاء ولكنني تجاهلته، أمسكت بالظرف الذي دفعت به نحوها، استدارت لكي تستقبل الضوء المترامي من المسكن وبدأت في القراءة، ظلت تحملق في الخطاب للحظات ثم نظرت في اقتضاب إلى قصاصات الصحف، أحنت رأسها، ثم راحت تطوي الأوراق في بطء ووضعتها في داخل الظرف وأعادته إليَّ، وظل رأسها منكساً.

ـ إنني لآسفة، لا أعرف ماذا أقول.

ـ وها أنت الآن تعرفين.

ـ كان عليك أن تخبرنا بكل ذلك.

ـ لكي أجعل موريس يخبرني بأن ذلك هو جزء من كوميديا الحياة؟

فنظرت لأعلى بسرعة وكأن شيئاً لدغها قالت: إذا كنت تعرف.. ذلك ليس عدلاً بكل أمانة يانيقولاس.

وراحت تتأملني في وقار، وقالت: لا أعرف ماذا أقول، المؤكد أن ذلك كان...

ـ زمن خاطئ.

استدارت وعبرت البوابة الجانبية نحو باربا فاسيلي، سمعتها تتحدث معه باللغة اليونانية بسرعة كبيرة، شاهدت العجوز يحني رأسه متقبلاً منها بعض التعليمات، ثم رجعت جين من فتحة البوابة، ووقفت قريباً مني، ونظرت إليَّ نظرة فيها اعتراف بأخطائها.

ثم قالت: هيا بنا إلى المنزل، فجولي تنتظر هناك.

ابتسمت في رقة لكي تهدئ من وجهي المليء بالضياع، أمسكت بذراعي لكي أضطر للنظر إلى وجهها، وقالت: أريدك أن تنسى كل ما قلته لك هذه الليلة، اسمي هو جين هولمز، وهي اسمها جولي هولمز، ولدينا أم بلهاء، وهي تكتب بالفعل على ذلك النحو، ولكننا قمنا بتلفيق الخطاب.

ـ وماذا عن جو؟

ـ جولي تشعر بالارتياح نحوه، لكنها لا تنام معه في السرير، أرجوك أن تثق بي، إلى أن نصل إلى هناك، أقسم لك أننا لم نعرف تلك الأخبار المفجعة عن صديقتك، وأقسم لك أننا كنا سنتوقف عن تعذيبك على الفور لو علمنا بهذه الأنباء المفجعة.

بدت فتاة مختلفة، سألتها ماذا قلت توا لباربا فاسيلي؟

ـ لدينا كلمة سر خاصة بالطوارئ، أوقف التجربة.

ـ هل العجوز موجود هنا؟

ـ إنه في بوراني، وسيتم إرسال الرسالة له باللاسلكي، وخلفها راح باربا فاسيلي يغلق البوابة الجانبية بالمفتاح، شاهدته يسير في اتجاه العمارة السكنية الخاصة بالمدرسين، وحملقت جين في الاتجاه الذي أنظر إليه ثم أمسكت بيدي وجذبتها قائلاً: هيا بنا.

كنت لا أزال أشعر بالتردد لكن تصميمها جعلها تنتصر عليَّ، فشعرت بنفسي منجذباً خلفها وقد أمسكت بيدي مثل إنسان مقبوض عليه، سألت: ما هي تلك التجربة؟

فضغطت على يدي ولكنها التزمت بالصمت على مدى خطوات قليلة وقالت: لسوف يفقد موريس صوابه لأن ما فعلته صديقتك أمر كان قد كرَّس معظم حياته ليحاول منع حدوثه.

راحت تنظر في تفرس شديد في عيني حتى اضطررت لأن أحول بصري وأنظر لأسفل، قلت: لقد نفد صبري.

ـ أدرك أنني أطلب منك الكثير، ولكننا سنكون شاكرين فضلك إذا تحليت بالصبر.

لم أظهر أي دليل على موافقتي على كلامها ولم أدخل معها في مزيد من المناقشات وشرعنا في السير معاً مرة أخرى، من المؤكد أنها شعرت أنني عنيد، وبعدخطوات قليلة بدأت تقول كلاماً لاسترضائي، سوف أقدم لك مفتاحاً واحداً، المجال الذي تخصص فيه موريس هو علم الطب النفسي بدأ يزيد من اهتماماته بالجانب الآخر، لماذا يكون الناس العقلاء، ولماذا لا يتقبلون الخيالات على أنها أمور حقيقية، من الصعب أن تستكشف ذلك إذا قلت للإنسان العاقل الذي تجري عليه التجربة: إن كل شيء سيتم إخباره به هو محاولة لتضليله، ومن المؤكد أنك ستعتقد أننا نقتحم مجالاً دقيقا للغاية في القواعد الأخلاقية الطبية،

ونحن على وعي لهذه الحقيقة، ولكن هناك ما يبرر تصرفاتنا بالضحايا المؤقتين من العقلاء أمثالك سيكونون قد ساعدوا بعض المرض الشديد، وربما أبعد مما يخطر ببالك، والتزمت بالصمت على مدى بضعة خطوات قليلة في أثناء سيرنا.

ـ وما هو الوهم الذي وضع في خطة هذه الليلة؟

فقالت: إنه يمثل في أنني صديقتك الحقيقية وهو أمر لم يكن أكذوبة، الجزء الخاص بالصداقة على أية حال.

وابتسمت لي ابتسامة أخرى سريعة وأضافت: «إذا كان باستطاعتك أن تتخيل أنك تلعب الشطرنج ولكن ليس بهدف أن تكسب.. ولمجرد أن تشاهد التحركات التي يقوم بها الشخص الآخر.

سألتها: تلك الفتاة «ليلى» والفتاة روز، هل هما مجرد عبث؟

«الأسماء هي نوع من الأضحوكة، وهناك بطاقة في ميثاق طاروت تسمى الساحر، الساحر.. المشعوذ، وهناك رمزان من رموزه التقليدية يسميان زهرة الزنبق والوردة».

اقتربنا من الفندق ووصلنا إلى الميدان الصغير، وجعل البرق واجهات الفندق تنبض بالحياة مثل معدات المنظر على المسرح.. وما كانت قد شرعت في إخباري به، بدا شبيهاً بالبرق: ومضات من مشاهدة كل شيء وظلام الشكوك التي مازالت عالقة، ولكن التنوير والاستنارة بدأ يتغلب على الليل مثلما هو الحال مع البرق الحقيقي.

ـ ولماذا تعتبر هذه السنة هي الأولى بالنسبة لوجود جولي هنا؟

ـ أعتقد أنها حدثتك عن حياتها العاطفية.

ـ هل كانت في جامعة كمبردج؟

ـ نعم، ولقد كانت علاقاتها مع أندرو بمثابة كارثة، لم تتغلب عليها

ولم تشف تماماً، ظننت أن هذا قد يساعدها على الشفاء، كما أن موريس استهوته فكرة وجود أختين توأم.

ـ أكان يقصد لي أن أنخدع بها؟

ترددت، ثم قالت: باستطاعتك أن ترغم الناس على عمل الكثير من الأمور، ولكن لا يندرج الجاذبية الجنسية تحت ذلك أو العكس، الأمور تتم بطريقة مرتجلة يانيقولاس، فالفأر يعطي نوعاً من التكافؤ مع الشخص القائم بالتجربة، ويمكنه إملاء حوائط المتاهة مثلما فعلت أنت دون أن تدرك ذلك، ولسوف أقول لك سراً آخر، جولي لم تكن سعيدة على الإطلاق بسبب ما حدث في يوم الأحد، الاختطاف، وحقيقة الأمر أننا لم نكن متأكدين أنها ستفعل ذلك.

ورجعت بتفكيري للوراء، وتذكرت إحجام جولي عن إتاحة الفرصة لي لمشاهدة المكان الذي تختبئ فيه تحت الأرض قبل قيامنا بالنزهة الخلوية وتذكرت ما أعقب ذلك من أحداث، وتذكرت كيف أرغمتها أن تريني ذلك المخبأ.

ثم أكملت قائلة: أنا إنسانة ماكرة، وأندرو ماهر للغاية، لكنه كان مخنثاً، ولذلك واجها مشكلات رهيبة، وهي الآن في أشد الحاجة إلى شخص ما، ورأيي من الناحية الطبية البحتة عثرت على الشخص الملائم.

وسرنا صاعدين على زقاق متجه لأعلى التل ومؤدي إلى الميدان الذي تم فيه تنفيذ حكم الإعدام، سألتها: هل كل ما قاله لي العجوز عن ماضيه كانت حكايات ملفقة؟

ـ نحن متلهفون لمعرفة تخميناتك.

ـ لكنك تعرفين الحقيقة؟

أصابها التردد، ثم قالت: أظنني أعرف الحقائق، التي سمح لنا موريس أن نعرفها.

وأشرت بيدي إلى الحائط الذي عليه اللوحة التذكارية الخاصة بتنفيذ حكم الإعدام ثم تساءلت: وماذا تعرفين عن ذلك؟

ـ اسأل أي شخص في القرية عنه.

ـ هل حدثت الأمور على النحو الذي قاله؟

فالتزمت بالصمت للحظات، ثم قالت: لماذا لا تعتقد أن الأمور حدثت على النحو الذي قاله؟

ـ ذلك هو ما شعرت به.

فشاهدت ابتسامتها، وقالت: إذن ربما كانت تلك هي غلطتك في الحكم، عندما كنت على النحو الذي أنت عليه الآن فإنه قضي أمسية في تدمير كل المعتقدات التي كانت لدي في ذكائي وتدمير كل فخر كنت أحس به في العمل الذي أقوم به.. وفي النهاية أصبت بانهيار عصبي وأنا أردد هذا ليس صحيحاً، فلست على ذلك النحو.

ـ أتمنى ألا يكون قد حقق لنفسه متعة سادية من وراء فعلته.

ـ لكن ذلك هو السبب أن المرء يصدقه، إن المؤامرة السادية ضد الفرد هي ما نسميه التطور، الوجود، التاريخ.

ـ لقد أدركت أن ذلك هو ما يدور حوله المسرح الفلسفي، ومن الواضح أنك معجبة به كثيراً.

فأومأت برأسها قليلاً في أثناء سيرها ثم قالت في هدوء: أعتقد أنه أعظم معلّم في العالم.

«وماذا عن ليفاريير»؟

فابتسمت ابتسامة لها طابع الذكرى العاطفية على نحو لا يدع مجالاً

للشك ثم قالت: «جون» وبعدئذ لمست ذراعي وأضافت «تلك هي قصة مختلفة تماماً، أقولها لك غداً؟ والآن جاء الدور عليك، حدثني أكثر عن... أنت تعرف ما أريده».

ثم طلبت مني أن أحدثها عن آليسون، سألت: ألم يسبق لها أن قامت بمحاولات الانتحار؟

ـ لا، على الإطلاق، فهي دائمًا إنسانة تأخذ الأمور على ماهي عليه.

ـ هذا يحدث، مع النساء، وعلى نحو فجائي، والمأساة أنهن في الغالب لا يعنين الانتحار، ربما كان الانتحار كامناً في داخل كيانها، ولو أنه توجد دلائل تشير إلى ذلك وعادة ما يكون هناك سبب أهم من مجرد قطع العلاقات الشخصية.

ـ لقد حاولت أن أشعر بذلك.

فقالت: على أية حال أنت لم تكذب عليها ولم تحاول أن تخدعها عليك ألا تلقي باللوم على نفسك.

ووصلنا إلى المنزل، وكان وصولنا في الوقت المناسب لأن قطرات المطر الأولى الثقيلة بدأت في السقوط، دفعت جين البوابة الخارجية فسرت وراءها على الممر، واستخرجت مفتاحاً ثم فتحت الباب الأمامي، كانت الصالة مضاءة رغم أن التيار الكهربائي ظل يتأرجح تحت وطأة التيارات الكهربائية الأخرى الهائلة التي تطلق في السماء، وهنالك استدارت وقبلت خدي في شيء من الخجل.

ـ انتظر هنا، فلربما تكون نائمة، سأعود إليك بعد قليل.

ورحت أرقبها وهي تصعد السلم، وترامى صوت طرق خفيف ثم صوتها وهي تنادي باسم جولي بصوت منخفض، ثم فتح باب وأغلق، وبعدئذ ساد الصمت، كان الرعد يبرق بالخارج مع صراخ فجائي لأمطار أكثر رسوخاً وطرقا على الألواح الزجاجية للنوافذ علاوة على هبة ريح

باردة قادمة من مكان ما، وانقضت دقيقتان، وبعدئذ فتح الباب غير المرئي بالدور العلوي.

وجاءت جولي أولاً عارية القدمين وكانت مرتدية كيمونو فوق قميص نوم أبيض، وتوقفت للحظات وراحت تنظر نحوي بوجه حزين ثم هبطت على السلالم بسرعة: أوه! نيقولاس.

ألقت بنفسها بين ذراعي، ولم نتبادل القبلات، وظلت جين واقفة أعلى السلم نحونا في ابتسام، وأبعدتني جولي قليلاً لكي لا أنظر إلى جين وراحت تنظر في عيني في عمق، ثم تساءلت: لماذا لم تقم بإخباري؟

ـ لست أدري.

فغاصت في داخلي مرة أخرى كما لو كانت هي الشخص الذي يحتاج إلى تطييب الخاطر، فأخذت أربت على ظهرها، وأرسلت جين بقبلة خفيفة إلى عبر الهواء إلى أسفل من فوق السلم ثم اختفت، سألتني: هل أخبرتك جين عن كل شيء؟.

ـ أخبرتني ببعض الأشياء.

فزادت من التصاق جسدها بي، وقالت: أشعر بالارتياح لأن كل شيء انتهى.

ـ لن أغفر لك ما حدث يوم الأحد، فنظرت لأعلى وقد ظهر على وجهها قدر كبير من الجدية وتوسلت إليَّ أن أصدقها.

ـ لقد كرهت ذلك الأمر يانيقولاس، وأنا لم أفعل ذلك تقريباً، لقد كان ذلك أمراً رهيباً حيث أدركت ذلك بصدد أن يحدث.

ـ لقد أخفيت ذلك عني بشكل مثير للاشمئزاز.

ـ كنت أدرك أن كل شيء قارب على الانتهاء.

ـ سمعت أن هذه هي السنة الأولى لك هنا.

ـ وستكون آخر سنة لي هنا.

التمست مني أن أتفهمها وأعفو عنها، ثم قالت: كانت جين غامضة للغاية دائماً إزاء ذلك الأمر، عليَّ أن أعرف طبيعة تلك الأمور.

وزادت من اقتراب جسدها من جسدي مرة أخرى، وبحثت عن يدي فأمسكت بها وقرصتها في رفق كنوع من العتاب ثم تكلمت بصوت هامس: لا يمكن أن ترجع إلى مدرستك تحت هذا الوابل من الأمطار وأنا أكره أن أظل بمفردي في أثناء الرعد والبرق.

أمسكت بيدي وقادتني إلى الدور العلوي، ووصلنا إلى باب الغرفة التي قمت بتفتيشها منذ ثلاثة أيام ولكنها ترددت بعض الشيء عند الباب ثم نظرت إليَّ نظرة بها شيء من السخرية ومليئة بالخجل الحقيقي وقالت: هذا هو المكان الذي تتوقف فيه أعمال السحر عن العمل.

ثم نظرت إليَّ في عمق وبدت كأنها بصدد أن تقول شيئاً ثم غيرت رأيها، فتحت الباب، ودخلنا، كان هناك مصباح مضاء بجوار السرير، وكان السرير على الحالة الذي تركته عليها، الوسادة متجعدة، وهناك ديوان للشعر مفتوحاً تحت المصباح كما كانت هناك محارة مستخدمة كطفاية للسجاير، ووقفنا في شيء من الحيرة، وكان شعرها منساباً لأسفل، وكانت الحاشية البيضاء لقميص نومها تكاد تصل إلى كعبيها، راحت تحملق في أرجاء الغرفة وكأنها تنظر من خلال عيني، حدث وميض من البرق، ارتجفعت اللمبة وانطفأت، فغمرنا الظلام، ثم ترامى رعد فوق رؤوسنا، وقبل أن يتلاشى صوت الرعد ارتمت بين ذراعي وغرقنا في القبلات في نهم شديد، فتلوت في أحضاني وتشبثت بي مثل طفلة، فقبلت قمة رأسها وقمت بالتربيت على ظهرها، وقلت في تمتمة: هل لي أن أخلعك ثيابك وأضعك على السرير؟

ـ دعني أجلس على حجرك للحظات قليلة.. فالرعد يجعلني أشعر بالخوف الشديد، جلست على الكرسي وجلست فوق ركبتي ورحنا نتبادل القبلات، ثم استندت عليَّ، عثرت على يدي الشاغرة ودفعت بأصابعها بين أصابعي، قالت: حدثني عن صديقتك، وماذا حدث، قلت لها نفس الكلام الذي قلته لأختها منذ دقائق قليلة، قالت: هل حدثتها عني؟

ـ أخبرتها أنني تقابلت مع إنسانة في الجزيرة.

ابتسمت في الظلام من هذه المعركة غير المتوارية تماماً ما بين التعاطف وحب الاستطلاع الأنثوي، وقالت: يا لها من فتاة مسكينة، إنني على الأقل أستطيع أن أتخيل المشاعر التي شعرت هي بها.

ـ لم تكن مثلك، فلم تأخذ أي شيء مأخذ الجد، خاصة إذا كان ذلك الشيء له طابع الذكورة.

ـ من المؤكد أنها أخذتك مأخذ الجد، في نهاية الأمر.

كنت قد توقعت ذلك، فقلت: أظن أنني مجرد رمز، نوع من الرمز، لكل الأمور التي سارت في الاتجاه الخاطئ في حياتها، أصبحت القشة التي قصمت ظهر البعير.

وتوغلت أظافرها في رفق في ظهر يدي ثم قالت: أراهن أنك نمت معها في السرير.

ـ لماذا أنت محبة للاستطلاع للغاية؟

ـ لأن هناك أموراً كثيرة لا أعرفها عنك.

وسادت فترة من الصمت وبعدئذ قامت بتقبيل خدي وقالت: «إنني أحاول فقط أن أعرف ما إذا كنت أقضي الليل مع خنزير منحط قاسي القلب أو مع ملاك مليء بالرضوض والكدمات».

وقبلتني قبلة خفيفة أخرى، ثم انزلقت محررة نفسها من بين ذراعي

وتحركت بجوار السرير، كانت الغرفة معتمة، لكن البرق ارتعش مرفرفاً من خلال شيش النوافذ، وعلى مدى ومضة شاهدتها واقفة تقوم بخلع قميص نومها من فوق رأسها، فمددت يدي ثم جذبت ظهرها العاري إلى حجري.

وتقابلت شفاهنا، ورحت أتجول في أرجاء جسدها: البطن الملساء والشعر والردفين، كان باستطاعتي استخدام عشرات الأيدي وليس يداً واحدة.. لكي أجعلها طيعة وملكاً لي، حددت مكان حجري وبدأت تفك الأزرار في قميصي، ومع ومضة برق أخرى تمكنت من مشاهدة التعبيرات على وجهها ـ نوع من الجدية في إصرار شديد مثل طفلة تقوم بخلع ملابس دمية، وخلعت عن جسدي السترة والقميص، شابكت يديها خلف رقبتي مثلما في مياه البحر، قلت: أنت أجمل شيء وقع نظري عليه في حياتي.

ـ أنت لا تستطيع مشاهدتي.

وانحنيت وقبلت صدرها، ثم جذبتها إلى جسدي، كانت تضع نوعاً من العطر الغريب الذي يجمع ما بين رائحة المسك ورائحة البرتقال، وبدا أنه يتلاءم مع شيء ما في داخلها له الطابع الجنسي والبراءة في آن واحد، بعد لحظات قليلة همست قائلة: دعنا نفتح شيش النافذة، فأنا أحب رائحة المطر.

وانزلقت لكي تفتح الشيش، وعندئذ قمت بسرعة بخلع باقي ثيابي وأمسكت بها لدى رجوعها من النافذة، وجعلتها تستدير وأمسكت بها في إحكام من الخلف، كنا نقف بينما الأمطار تنهمر على مسافة ثلاثة أقدام منا على شكل حائط بارد من الهواء المظلم، رحت أربت على بطنها الصغير، فأدرات رأسها قليلاً ثم وضعتها على كرسي أسفل النافذة، ثم أمسكت بيدي الأخرى، ظلت في سلبية تامة متيحة لي الفرصة لكي أثيرها، كأن المطر هو عشيقها الحقيقي وكذلك الليل،

قفزت طرطشات قليلة من الأمطار من قاعدة النافذة على يدي السفلية وعلى بشرتها، همست قائلاً: أتمنى لو استطعنا الخروج إلى الطبيعة لكي نخوض غمار المعركة، التوى فمها لكي تقبلني، لكن يديها عثرت على يدي مرة أخرى وضغطت عليهما لكي تبقيهما في مكانهما، كان العالم الحقيقي الوحيد هو جسدها، أمسكت بيدي ووضعتهما على بطنها سألتها: أهناك شيء ما خاطئ؟

ـ أنت إنسان شرير.

استدارت إليَّ وهي تدفق وجهها وقالت: حدثتني عن الطريقة التي كنت تفضل أن تمارسها هي معك.

تذكرت قانون أورفي القديم: إن الفتيات يمتلكن لباقة جنسية بنسبة عكسية مع المستوى التعليمي لهن، سألت: لماذا تريدين أن تعرفي؟

ـ لأنني أريد أن أفعل ذلك لك.

ضممتها أكثر إليَّ وقلت: أريدك على النحو الذي أنت عليه.

كان يبدو عليها شيء من العذرية لكنها ترغب في أن تساق إلى ما هو أبعد من ذلك.

كان هناك المزيد من الضوء وقد خفت كثافة السحب بعض الشيء حيث تمكنت من مشاهدة الخطوط الخارجية لجولي.

كان المطر قد بدأ يخف ولكن طابع الهواء الطلق المصاحب للأمطار، ورائحة خزانات المياه، كانت تسود في أرجاء الغرفة، وشاهدت المياه وهي تنساب في خفية إلى أسفل حوائط مئات خزانات المياه بينما ثعابين الماء في حالة من الإثارة عند القاع، ازدادت ابتسامتها، اقتربت منها، فنهضت وسحبت نفسها فوقي وعندئذ ساد الصمت باستثناء لغة الأجساد، تظاهرت بأنها تتملكني بل كما لو كانت ستذوب في داخل كياني، قمت بتحطيم تعويذة الصمت فتحركت هي

واستلقت على ظهرها وقد رفعت ذراعاً وألقت برأسها على جانب، أدركت أنني قد كسبت شيئاً يزيد كثيراً على مجرد جسدها، ظللنا مستلقين لفترة قصيرة في حالة اتصال بين طيات الصمت الشديد للمنزل، ثم انقلبت على بطنها، فرحت أربت على ظهرها، شعرت بموجة عارمة من الغبطة، إذ لم أكن أتوقع ذلك الأمر بهذه المشاركة العميقة ولم أكن أتوقع منها أن تكون دافئة على ذلك النحو، قلت لنفسي: إنه كان عليَّ أن أتوقع كل ذلك لأن أختها جين من النوع الذي يستمتع بذلك، لقد عبر جسدانا عن مشاعرهما، وكنت أدرك أنه بالمستطاع إنجاز ذلك الأمر على نحو أفضل.

رحنا نرقد في صمت مطبق حيث لم نكن بحاجة إلى الكلمات، وظللنا على تلك الحال لمدة خمس دقائق، دفعت نفسها لأعلى، وانحنت عليَّ وقبلتني قبلة سريعة، ثم وضعت وجهها على وجهي في سحابة معلقة من شعرها بينما عيناها فوق عيني.

ركعت للوراء وتركت السرير ومدت يدها لكي تلتقط الكيمونو، كان ينبغي أن يكون رد فعلي أكثر سرعة، خاصة بالنسبة لحركاتها الخاطفة وهي تلتقط ثوبها فلم أنتبه لذلك الشيء الغريب الذي ظهر في صوتها وفي وجهها عندما كانت تنظر لأسفل نحوي، سألت: إلى أين أنت ذاهبة؟

استدارت وهي تجرب الشريط القماش للكيمونو ونظرت نحوي، وأظن أنه كان لايزال على وجهها بقايا ابتسامة خفيفة.

ـ إلى المحاكمة».

ـ إلى ماذا»؟

وتداعت الأحداث بسرعة هائلة، إذ بدأت تنصرف على وجه السرعة

قبل أن أتمكن من التعرف تماماً على التغيير الذي طرأ على صوتها وهو تغيير يفيد بوضوح بأنه لا توجد أي براءة أو سذاجة في صوتها.

ـ «جولي»؟

فاتجهت إلى الباب تاركة البرهة الدقيقة للمثلة قبل خط خروجها، قائلة: اسمي ليس جولي يانيقولاس، يؤسفني أننا لا نستطيع أن نقدم الشعلات المتعارف عليها.

وفي هذه اللحظة جلست معتدلاً ـ شعلات، أي شعلات ـ ولكن قبل أن أتمكن من التفوه بكلمة قامت بفتح الباب على مصراعيه وخطت خارجة منه، وعندئذ غمرت الأنوار الغرفة.

(٥٥)

وكان هناك تدفق عنيف من الهياكل.

ثلاثة رجال، يرتدون بنطلونات داكنة وبلوزات سوداء لها رقبة عالية ضيقة تطوي حول العنق، دخلوا الغرفة بسرعة هائلة حتى أنني لم يكن لدي وقت لأن أفعل أي شيء سوى جذب مفرش السرير لكي أغطي الجزء الأسفل من جسدي بعد أن شعرت أن الشلل اجتاح كل شيء في داخلي باستثناء الغريزة، كان قائد المجموعة هو جو الزنجي، ألقي بنفسه عليَّ في نفس اللحظة التي كنت على وشك أن أصيح فيها مستغيثاً، وضغطت يده على فمي في وحشية وشعرت أن قوته قد ألقت بي على ظهري، ومن المؤكد أن واحداً من الآخرين قد أضاء المصباح المجاور للسرير، وشاهدت وجهاً آخر أعرفه: آخر مرة شاهدت فيها ذلك الوجه كان فوق سلسلة الجبال عندما كان صاحب ذلك الوجه يرتدي الزي العسكري الألماني ويقوم بدور آنطون، أما الوجه الثالث فإنه وجه البحار الذي شاهدته مرتين في بوراني، وبينما أقاوم تحت جو

حاولت أن أشاهد جولي ـ كنت لا أزال غير قادر على أن أتقبل أن هذا لم يكن كابوساً من نوع ما، كل ما لمحته كان مجرد ظهورها لدى مغادرتها الغرفة، وتقابل شخص ما معها هنالك ولف ذراعه حول كتفيها كما لو كانت قد أفلتت لتوها من كارثة طيران جوي وجذبها بعيداً عن الأنظار.

بدأت أقاتل في عنف ولكن كان من الواضح أنهم توقعوا ذلك حيث أحضروا معهم أنشوطات من الحبال، وفي أقل من نصف دقيقة تم وثاقي وإلقائي على وجهي، لا أعرف ما إذا كنت قد ظللت أصيح فيهم بأفحش الألفاظ ولكنني كنت بالتأكيد أفكر في تلك الألفاظ، تم تكميمي، وألقى شخص ما ملاءة السرير عليَّ، وحاولت أن ألوي رأسي لكي أشاهد الباب.

وظهر هيكل آخر في الغرفة: إنه كونشيس، كان مرتدياً ملابس سوداء مثل الآخرين، الشعلات، الشياطين، جهنم، تقدم ووقف أمامي ونظر نحو عيني المتفجرتين بالغضب نظرات خالية من أي تعبير، وقذفت بكل الكراهية الموجودة في داخلي نحوه، وحاولت الإتيان بأصوات يمكن له أن يفهم معناها، رجع ذهني إلى تلك الحادثة التي حدثت في الحرب: غرفة في نهاية الممر ورجل ملقي على ظهره وقد أزيلت أعضاؤه التناسلية، وبدأت عيناي تمتلئ بدموع الغضب والإذلال المليء بالإحباط الشديد، وأدركت أخيراً الشكل الذي بدت عليه النظرة الأخيرة التي ألقتها جولي عليَّ، لقد كانت نظرة شبيهة بنظرة الجراح الذي انتهى تواً من إجراء عمليته بنجاح وهو يقوم بخلع القفاز المطاطي ويرقب خياطة الجرح، المحاكمة، الشعلات، ألسنة اللهب، من المؤكد أنهم مجانين وهي أكثرهم شراً وصفاقة وانحلالاً.

مد «أنطون» محفظة صغيرة في اتجاه كونشيس منها محقنة للحقن بإبرة تحت الجلد وتأكد أنها ممتلئة بالسائل بطريقة سليمة، ثم انحنى

عليَّ قليلاً وعرضها عليَّ لكي أشاهدها، وقال: لن نتسبب في إخافتك أكثر من ذلك أيها الشاب، لكننا نريد لك أن تستغرق في النوم، ولسوف يكون ذلك أقل إيلاماً لك، وأرجوك أن تلتزم بعدم المقاومة.

خطر على ذهني كومة أوراق الامتحانات التي تتطلب أن أقوم بتصحيحها، وقام جو والرجل الآخر بقلبي على ظهري مرة أخرى وأمسكا بذراعي اليسرى وكأنهما يستخدمان كماشة من الحديد، قاومتهما ثم استسلمت وأحسست بمسح بمنديل أو قطنة مبللة، وانغرست الإبرة في الجزء العلوي من ذراعي، وشعرت بالمورفين يدخل إلى جسدي، ثم تراجع كونشيس للوراء وراح يرقبني ثم استدار ووضع المحقنة في المحفظة الطبية السوداء التي أخذت منها.

حاولت أن ما ترديت إليه: عالم من أناس لا يعرفون أية قوانين أو أية حدود.

مخلوق أسطوري نصفه الأعلى بشرى والأسفل حيواني وقد غُرس سهم في قلبه، ربما مرت ثلاث دقائق، وبعدئذ ظهرت جولي في مدخل الباب، لم تنظر إليَّ، كانت مرتدية ملابس تشبه الرجال: قميص أسود وبنطلون أسود تأججت في سخط شديد وأنا أتذكر أنها قد ارتدت نفس تلك الثياب خارج المدرسة، أدركت أن هذا كان مقرراً له أن يحدث بعد أن حدثتهم أخيراً عما حدث لآليسون، تحركت جولي عبر الغرفة وكان شعرها مربوطاً إلى الوراء، راحت في برود تفرغ الملابس من الدولاب الموجود في ركن الغرفة وتضع الملابس في حقيبة سفر، وبدأ رأسي يعوم، وبدأت الوجوه والأشياء وسقف الغرفة تتراجع، إلى أسفل، كان يوجد لغم أسود عميق، لغم من الصدمة وعدم الفهم والأعماق المضروبة للانتقام المستحيل.

(٥٦)

فقدت الإحساس بالزمن على مدى الأيام الخمسة التالية، وعندم استيقظت لأول مرة لم أعرف عدد الساعات التي انقضت، كنت أشعر بالعطش الشديد ومن المؤكد أن ذلك هو السبب الرئيسي الذي أدى إلى استيقاظي، أحسست بالدهشة البالغة لأنني وجدت نفسي مرتدياً بيجامتي ولكن لست في غرفتي بالمدرسة، أدركت أنني في سرير في البحر ولكنني لست في زورق شراعي خفيف كنت في المقصورة الأمامية الضيقة في يخت، غير راغب في التخلي عن النوم وغير راغب في التفكير أو الإتيان بأي عمل باستثناء الارتماء في أحضان النوم مرة أخرى، وتم تقديم كوب من الماء لي بمعرفة البحار وكان من الواضح أنه قد ظل منتظراً استيقاظي من النوم، كنت أشعر بالعطش الشديد حتى اضطررت لأن أشرب الماء رغم أنني قد أدركت أن لون الماء مكفهر على نحو يوحي بالشكوك، ومن المؤكد أنني رحت في نوم عميق مرة أخرى.

ونفس هذا الاجراء حدث مرة أخرى، مرة واحدة أو مرتين، لست أعرف على وجه الدقة وفي ظروف مختلفة، وفي هذه المرة كنت في غرفة وفي سرير ملائم، وكان الوقت دائماً بالليل حيث يوجد دائماً الضوء الكهربائي والأصوات غير الواضحة المعالم وبعدئذ يحل الظلام.

ذات صباح ـ كان الوقت شبيهاً بالصباح ـ أيقظتني الممرضة وجعلتني أجلس على سريري وأرتدي ملابسي وأتمشى داخل الغرفة جيئة وذهاباً، وكان هناك رجل آخر لم أشاهده من قبل يقف عند الباب.

ظننت أنني حملت به في ضباب سديمي: صورة جدارية غير عادية مسيطرة على الحائط المطلي باللون الأبيض والذي يواجه السرير، كانت الصورة عبارة عن هيكل أسود ضخم أكبر من الحجم الطبيعي، وهناك

يد هزيلة تشير نحو مرآة معلقة على الحائط، وتحثني لكي أنظر إلى نفسي كي أفكر أنني يجب أن أموت، وكان باستطاعتي أن أدرك أن هذه الصورة رسمت منذ فترة قصيرة.

طُرق الباب، ظهر رجل ثالث، كان يحمل معه صينية عليها إبريق مليء بالقهوة، الجميلة الرائحة، رائحة أقرب إلى رائحة بن الجبل الأزرق، وكانت هناك فطائر هشة أسطوانية وزبد ومربى البرتقال والسفرجل وطبق به لحم خنزير وبيض، وعلى الرغم من هذه الظروف فإنه كان من أجمل وجبات الإفطار التي تناولتها في حياتي، كان يبدو عليَّ وكأنني بصدد الهلاك من شدة الجوع فأكلت كل ما بالصينية وشربت كل قطرة من القهوة وكان باستطاعتي تناول أضعاف تلك الكميات من الطعام والشراب.

قمت بعملية جرد للأشياء الموجودة، كنت أرتدي أحد بلوفراتي، وأحد بنطلوناتي، وكان السقف المقوس هو سقف لخزان مياه تحت منَزل، وهناك ضوء كهربائي، أما حقيبتي الصغيرة فواقفة في ركن، وكانت سترتي معلقة في شماعة بواسطة مسمار.

رحت أفتش في حقيبتي فوجدت قميصاً نظيفاً و«تغييرة» من الملابس الداخلية وبنطلوناً صيفياً، كما شاهدت ماكينة الحلاقة، وأطلت عليَّ من المرآة لحية لم تحلق منذ يومين على الأقل، كان وجهي غريباً، نظرت إلى هيكل الموت الموجود على الحائط فوقي، هيكل الموت، وزنزانة الموت والإفطار الأخير التقليدي الذي يقدم قبل الوفاة: تنفيذ صوري بالإعدام كان يتعلق بالإذلال الوحيد الذي تركته لكي يعاني.

وخلف وتحت كل شيء كانت هناك الخيانة الشريرة التي لا يمكن اغتفارها خيانة لكل الغرائز البالغة النبل والسمو ترتكبها جولي، أو ليلى، أو أي اسم تندرج هي تحته، بدأت أفكر فيها على أنها ليلى مرة أخرى ربما لأن قناعها الأول قد بدا أكثر صدقاً لأنه أكثر تزيفاً من

الأقنعة الأخرى، حاولت أن أتخيل حقيقتها، كان من الواضح أنها ممثلة شابة شديدة البراعة في الخداع وتقوم بدور غير أخلاقي تماماً بالإضافة إلى ذلك، ولا يمكن أن تتصرف أي فتاة على ذلك النحو إلا إذا كانت مومساً، إنهما اثنتان من الفتيات المومسات، لأنني ذهبت في تخميناتي إلى أن أختها جين أو روز ربما قد أعدت لتنفيذ ذلك الفصل الأخير البغيض البالغ السوء، وربما كانوا يريدون لي أن أتعرض للإذلال بشكل مضاعف.

كل قصصهم ورواياتهم كانت أكاذيب، إنها بمثابة الطعم الذي يستخدم في صيد الأسماك، ومن المؤكد أنهم حرصوا على ألا أتمكن من كشف ألاعيبهم بسهولة، وفي ومضة خاطفة شرسة خطر على ذهني ما يلي: أن كافة الخطابات التي جاءت إليَّ بالجزيرة وكافة الخطابات التي أرسلتها إلى الخارج تمت قراءتها بمعرفتهم، أدركت أنهم عرفوا حقيقة آليسون كاملة، وعندما نصحني كونشيس بالرجوع لكي أتزوجها فإنه كان يعرف بالتأكيد أنها قد ماتت، وغاص ذهني في شيء من الغثيان كما لو كنت قد ابتعدت عن حافة العالم، لقد شاهدت قصاصات مزورة من الصحف عن الأختين، ولذلك إذا كان الأمر مجرد قصاصات مزورة ذهبت إلى سترتي حيث وضعت خطاب آن تيلور، كان الخطاب لا يزال موجوداً، رحت أحملق في الخطابات وفي القصاصات المرفقة به مع البحث عن أية علامة أو دليل يدل على أن كل شيء كان تلفيقاً، لكن دون جدوى، وتذكرت المظروف الذي تركته في غرفتي ولم أره لها والذي يوجد به حروف منقوشة بخط يد آليسون.

آليسون

نظرت في المرآة وحملقت في عيني، وفجأة بدت أمانتها وعدم خيانتها، وموتها الحقيقي الصادق، بمثابة خطاف السفينة الأخير، لقد

أصبحت الحياة كلها مؤامرة كبرى، وغصت مجاهداً في أعماق الزمن لكي أمسك بآليسون، ولكي أتمكن من الأسماك بجوهر آليسون الحقيقي المستتر إلى ما وراء كل قوى الحب والكراهية لديها وإلى ما وراء كل الفساد المتعلق بقوى الحَب والكراهية، وتركت ذهني يتجول في طيات الجنون الذي لا يسبر له غور.

حملقت في وجهي في المرآة، إنهم يحاولون دفعي إلى التعرض للجنون وإلى إجراء غسيل مخ لي بطريقة مذهلة، ولكنني تشبثت بالحقيقة بشيء ما داخل كيان آليسون، شيء ما شبيه بقطرة من الدموع.

لم تكن دموعي مسكوبة عليها فقط وإنما هي دموع الغضب من كونشيس وليلى، فهما على يقين من أنها ماتت ومع ذلك كانا يستخدمان الاحتمال المثير للعذاب من أجل أن أتمرغ في الألم والعذاب، ولكي يمارسا عليَّ ـ لسبب ما غير مفهوم وغير معقول ـ تجربة بالغة القسوة والانحطاط بهدف التوصل إلى مزيد من المعلومات الطبية.

جلست وأمسكت رأسي بيدي، وظلت شرائح متناثرة من الكلام الذي قالاه تقفز إلى ذهني مع ظهور معان مزدوجة رهيبة ومع ظهور سخرية لاذعة، كل عبارة قالها كونشيس أو ليلى كانت تتسم بالسخرية اللاذعة بما في ذلك الحوار الأخير مع «جين» والذي تضمن معان مزدوجة بشكل واضح.

تواترت على ذهني صور ليلى وتدفقت صور ليلى وهي في مرحلة جولي، كما تدفقت لحظات من العاطفة القوية بما في ذلك الاستسلام الكامل لجسدها وغير ذلك من لحظات أخرى تتسم بروح الود علاوة على لحظات تلقائية لا يمكنها أن تكون لحظات قد تدربت عليها مسبقاً وإنما لحظات نبعت من اندماجها العميق في الدور الذي كانت تؤديه، رجعت إلى تلك النظرية التي تفيد بأنها كانت تمثل دورها تحت التنويم المغناطيسي، ولكنها لم تكن نظرية معقولة.

ترامت ضجة من الخارج ثم فتح الباب، وجاء البحار وإلى خلفه ظهر آنطون، يرتدي أفرول طبيب أبيض اللون وبدون ياقة، وكان لصوته نغمة ألمانية يبدو وكأنه يقوم بالواجبات الروتينية اليومية، سأل: كيف حالك الآن؟.

فحملقت فيه وتحكمت في مشاعري وقلت: رائع للغاية، وأستمتع بكل دقيقة تمر عليَّ، فنظر إلى صينية طعام الافطار وتساءل: أتحب أن تتناول المزيد من القهوة؟.

فأومأت برأسي، فأشار بيده إلى الرجل الذي قام بنقل الصينية إلى الخارج، وجلس آنطون على الكرسي الموجود بجوار المنضدة، واستند البحار الشاب على الباب، وإلى ما وراءه ظهر دهليز طويل وفي نهاية الدهليز من الجهة اليمنى كانت هناك سلالم تؤدي إلى ضوء النهار، كان يعتبر خزاناً كبيراً للغاية بالنسبة لمنزل خاص، وراح آنطون يرقبني ورفضت أن أتكلم ولكننا جلسنا في صمت لبعض الوقت، قال: «أنا طبيب، وعليَّ أن أفحصك»، هل تشعر أنحالتك ليست سيئة للغاية؟

فاستندت إلى الوراء على الحائط وحملقت في وجهه، فلوح بإصبعه في توبيخ وتبكيت: أجب عليَّ لو سمحت.

فصرخت قائلاً: إنني أستمتع بهذا الإذلال الذي ينصب عليَّ، ويسعدني أن أحصل على فتاة، وأن أطأ بقدمي على اللياقة الإنسانية، وفي كل مرة يخبرني فيها هذا العجوز الأفاق بكذبة أخرى أشعر بالغبطة الهائلة تسرى في كياني، والآن، أين أنا بحق الجحيم؟

فأعطاني انطباعاً بأن كلماتي لا معنى لها، ولا جدوى منها لأن مهمته هي مراقبة سلوكي، ثم قال في بطء: حسناً ها أنت قد استيقظت.

تساءلت: أين تلك الفتاة المومس؟

فبدا كأنه لم يفهم، فأضفت قائلاً: ليلى، جولي، مهما يكون اسمها.

فابتسم وقال: كلمة مومس.. بمعنى عاهرة؟

فأغلقت عيني، كان الصداع قد بدأ يزحف على رأسي، وكان عليَّ أن أحافظ على هدوئي ورباطة جأشي والتفت الرجل الواقف عند الباب وظهر الرجل الثاني أسفل السلم البعيد حاملاً صينية، وقام آنطون بصب القهوة في فنجان من أجلي ثم في فنجان وقام آنطون بابتلاع قهوته على وجه السرعة، وقال: يا صديقي، أنت مخطئ في رأيك، فهي فتاة طيبة، وشديدة الذكاء، وشجاعة للغاية.

ـ كل ما ينبغي أن أقوله إنني عندما أخرج من هنا سأخلق لكم جميعاً جحيماً دموياً.

فرفع يده في تهدئة وفي شيء من العفو عني، وقال: ذهنك ليس على ما يرام، فلقد أعطيناك الكثير من العقاقير في هذه الأيام الأخيرة، فأخذت نفساً عميقاً: ما عدد هذه الأيام الأخيرة؟

ـ نحن الآن في يوم الأحد.

ثلاثة أيام ضائعة تماماً: تذكرت أوراق الامتحان اللعينة، والمدرسة بأكملها لا يمكن أن تكون متواطئة مع كونشيس، إن شناعة الإساءة هي التي أربكتني على نحو يفوق كثيراً الآثار الناجمة عن العقاقير التي أعطيت لي، لقد تمكنوا من تحطيم القوانين وتحطيم وظيفتي وكل شيء من شأنه أن يجعل العالم مألوفاً ومتعارفاً عليه وصالحا للإقامة فيه وموحياً بالتكيف مع البيئة، كان ذلك بمثابة تنكر لما فهمته عن عالم كونشيس، رحت أحملق في آنطون، ثم قلت: أعتقد أن كل هذا يعتبر مزاحاً مألوفاً عندكم أيها الألمان.

ـ إنني سويسري، وعلى فكرة.. أود أن أقول لك أن والدتي يهودية.

كان حاجباً عينيه كثيفين للغاية وعلى هيئة خصلات شعر من الفحم النباتي، وكانت عيناه تموجان بالتسلية، وتناولت في جرعات كبيرة

الكميات المتبقية من القهوة في فنجاني، ثم ألقيت بالفنجان الشاغر في وجهه، فلوث الفنجان معطفه الأبيض ببعض البقع، فاستخرج منديلاً من جيبه ومسح وجهه، وقال كلاماً للرجل الموجود بجواره، لم تظهر مشاعر الغضب على وجهه واكتفى بهز كتفيه ثم ألقى نظرة على ساعة يده وقال: الساعة الآن العاشرة و٣٨ دقيقة، واليوم سنعقد المحاكمة وعليك أن تكون يقظاً.

- المحاكمة؟

- في خلال فترة قصيرة للغاية نذهب للمحاكمة وأنت سوف تحكم علينا، سوف تصدر حكماً علينا.

- أصدر حكماً عليكم!

- نعم، أنت تظن أن هذا المكان شبيه بالسجن، إنه ليس سجناً على الإطلاق، إنه مكان يشبه.. ماذا تسمون الحجرة التي يعيش فيها القاضي؟

- الغرفة، لسوف يكون هناك عدد كبير من الناس.

«فحملقت في وجهه، وقلت «من الأفضل أن يكون هناك عدد كبير من الناس».

فأيد وجهة نظري، ثم أومأ برأسه نحو الرجل الأشقر، وقال: آدم سيعود إليك بعد عشرين دقيقة لكي يقوم بتجهيزك.

- تجهيزي؟

- إنها مسألة بسيطة للغاية، فنحن لدينا كتاب طقوس صغير، وهو لا يشكل أهمية بالنسبة لك، وبالنسبة لنا.

- لنا؟

- سوف تفهم كل شيء وتمنيت لو أبقيت كمية كبيرة من القهوة لكي ألقيها عليه، ابتسم، ثم انحنى وخرج، وقام الشخصان الآخران بغلق

الباب ثم سمعت صوت الترباس، فرحت أحملق في الهيكل الموجود على الحائط، وفي طريقته التي تتسم بتحضير الأرواح والسحر بدا عليه وكأنه يقول نفس الكلام: حالا وفي وقت قصير للغاية لسوف تفهم، كل شيء.

(٥٧)

بعد مرور عشرين دقيقة بالضبط، عاد الرجلان إلى الزنزانة مثلما حدث من قبل، جعلتهما الملابس السوداء يبدوان أكثر فاشستية مما كان عليه من قبل، ولم يكن هناك شيء ما يتسم بالوحشية في وجهيهما بصفة خاصة، ووقف آدم الأشقر أمامي وقد أمسك بيده حقيبة صغيرة غريبة الشكل، قال: أرجوك.. ألا تقاوم.

ثم وضع الحقيبة الصغيرة على المنضدة ثم استخرج منها إثنين من الكلبشات، فمددت معصمي يدي في استخفاف وسمحت لنفسي بأن يتم ربطي مع الشخصين الآخرين الموجودين إلى جواري، ثم قام باستخراج كمامة للفم سوداء اللون وغريبة الشكل ومصنوعة من المطاط، كمامة مقعرة لها نتوء سميك بحيث يقوم المرء بالعض على هذا النتوء، وقال: لو سمحت.. سألبسك هذه الكمامة، ولن تصاب بأي أذى.

أصابني التردد للحظات، كنت قد قررت ألا أقاتل مع الاحتفاظ بالهدوء وانتظار اللحظة المناسبة التي أتمكن فيها من إلحاق الأذى بشخص أرغب في إيذائه بالفعل ومد الكمامة المطاطية فهزت كتفي في لامبالاة، شعرت بطعم مادة معقمة، وقام آدم بربط شرائط الكمامة إلى الوراء في مهارة بالغة، ثم قام بلصق أطراف الكمامة على بشرتي، وعندئذ تمنيت لو كنت قد حلقت ذقني.

وأدهشتني الحركة التالية، إذ ركع آدم وشمر رجل بنطلوني اليمني

إلى مافوق الركبة وثبت البنطلون برباط مرن، وطلب مني الوقوف مرة أخرى ثم نبهني بحركة لكي لا أصاب بالفزع وقام بجذب السويتر للوراء من فوق رأسي وأنزله لأسفل إلى أن أصبح معلقاً من معصمي ورائي، ثم قام بفك أزرار قميصي، وألقى بالجانب الأيسر من القميص إلى الوراء إلى أن أصبح كتفي عارياً، ثم استخرج أشرطة بيضاء في كل منها حلية من الحرير الأحمر، وربط شريطاً منها حول الجزء الأعلى من بطن ساقي اليمني وربط شريطاً آخر تحت إبط ذراعي وفوق الكتف العاري، وبعدئذ قام بتثبيت دائرة سوداء يبلغ قطرها حوالي ٢ بوصة في منتصف جبهتي، ثم قام بوضع حقيبة فضفاضة سوداء فوق رأسي، تزايدت رغبتي في المقاومة إلا أن الفرصة كانت قد مرت، وانطلقنا، وكانت هناك يد فوق كلتي ذراعي.

وقاما بإيقافي في نهاية الدهليز وقال آدم: سنذهب إلى الطابق الأعلى، صعدت على أصابع قدمي كان باستطاعتي الإحساس بالشمس على بشرتي العارية، وخيل إليَّ أنني شممت رائحة البحر ولكنني لم أكن واثقا بذلك، وتوقعت أن أشعر بحائط وراء ظهري وأن أجد نفسي أمام فرقة عسكرية لإطلاق النيران عليَّ، ولكنهما أوقفاني عن السير مرة أخرى وقال صوت: «إلى الطابق الأسفل الآن»، وأعطياني متسعاً من الوقت لكي أنجح في العثور على السلم، وأصبح الهواء أكثر برودة، أدركت من خلال إصدار الصوت أننا دخلنا غرفة كبيرة، كما كانت هناك رائحة منذرة بالشؤم لخشب يحترق، وتم إيقافي، ثم قام شخص ما بجذب الحقيبة عن رأسي.

كنت قد توقعت أن أشاهد أناساً، ولكنني كنت بمفردي مع الحارسين في إحدى أطراف غرفة ضخمة تحت الأرض، غرفة تشبه خزاناً هائلاً يصل حجمها إلى حجم كنيسة صغيرة، تذكرت أنني سبق أن شاهدت

غرفة مشابهة لها في بيلوس، ونظرت لأعلى وشاهدت فتحتين تشبهان فتحات المداخن.

وفي الطرف البعيد كان يوجد منبر صغير، عليه عرش، وفي مواجهة العرض توجد ثلاث مناضد طويلة بجوار بعضها في شكل هلال منبسط وعليها مفرش أسود اللون، وخلف هذه المنضدة ١٢ كرسياً أسود مع وجود مكان شاغر للكرسي رقم ١٣ في المنتصف.

وكان هناك شيء غريب للغاية في قاعة المحكمة هذه، فالضوء الذي شاهدت به المحكمة يترامى من سلسلة من الجمرات المتوهجة التي كانت تحترق على طول الحائط الجانبية، ولكن في كل ركن من الأركان الموجودة وراء العرش هناك وابل من آلات تسليط الأشعة الضوئية، مصوبة نحو المنضدة الهلالية الشكل، أن كابلاتها يكتنف الغرفة، ولم تكن الغرفة شبيهة بمحكمة العدل وإنما كانت شبيهة بمحكمة الظلم واللاعدل.

دفعت لكي أتقدم في السير، وتخطينا المنضدة الهلالية الشكل واتجهنا نحو العرش، وبمجرد أن جلست على العرض تم فك الكلابشات، ونظرت لأسفل، كان العرش مربوطاً في أحكام مع المنبر عن طريق أذرع وركائز متينة، وغمغمت من خلال الكمامة ولكن آدم هز رأسه، كان عليَّ أن ألاحظ وليس لي أن أتكلم، واتخذ الحارسان الآخران موقعيهما خلف العرش، وقام آدم بفحص الكلابشات وجذب القميص الذي حاولت أن ألقي به على كتفي الأيسر، ثم استدار ملتفتاً ثم انحنى انحناءة خفيفة ودار حول المنضدة ثم خرج من الباب.

رحت أنظر في أرجاء الغرفة، كانت هناك شعارات تصوفية يهودية، وعلى الحائط الذي يقع إلى يميني يوجد صليب أسود، ليس الصليب المسيحي لأن قمة الدعامة العمودية كانت منتفخة وعلى هيئة كمثرى معكوسة، وإلى اليسار وفي مواجهة الصليب توجد وردة.

وعند الطرف البعيد وفوق الباب الكبير هناك رسم باللون الأسود ليد مقطوعة عند المعصم مع اتجاه الأصبع السبابة والأصبع البنصر في إشارة لأعلى بينما الإصبعان الموجودان في الوسط يضغطان لأسفل على إصبع الإبهام، وكانت الغرفة بها الرائحة النتنة للطقوس الدينية، وكنت أدرك أن منظري يبدو مثيراً للسخرية بسبب وجود تلك العين السوداء على جبهتي ووجود الأشرطة البيضاء والحليات الحريرية الملونة، ولكن كان عليَّ أن أبتكر طريقة لكي أبدو غير مثير للسخرية.

وبعدئذ تقافز قلبي مهتزاً في عنف، فعلى نحو فجائي ظهر «هيرون الصياد» آلة نيوليتي من العصر الحجري، وكان أسود مثيراً للقشعريرة، رجل له رأس ظبي، إنه عملاق على هيئة لا يمكن للمرء أن ينساها وكانت خطوطه الخارجية منعكسة على الحائط المطلية باللون الأبيض والمضاءة إضافة خافتة وهي حائط الدهليز الواقع إلى الوراء، وكانت القرون ضخمة وهائلة وفي سواد أغصان شجرة اللوز وعديدة السنون الشوكية، كان الرجل غارقاً في السواد من قمة رأسه إلى إخمص قدميه ولا يظهر أي شيء باللون الأبيض سوى العينين وفتحتي أنفه، وفرض هذا الرجل وجوده عليَّ ثم تقدم في بطء ماشياً في الغرفة نحو المنضدة، ثم تحرك نحو أقصى الطرف الأيسر، وأدركت أنه مضطر أن يتحرك في بطء لأن القناع كان غير محكم حيث كان كبيراً للغاية.

الخوف الذي أحسست به هو نفس الخوف القديم، إنه الخوف من الباعث المستتر وراء المظهر، ولم يكن القناع هو الشيء الذي خفت منه لأننا في قرننا هذا تعودنا كثيراً من خلال قصص الخيال العلمي وأصبحنا واثقين تماماً بالحقائق العلمية بحيث لم نعد نشعر بالخوف من الأمور الخارقة للطبيعة مرة أخرى، ولكننا نخاف من الأمور الكامنة وراء القناع.

وظهر هيكل آخر، في هذه المرة كانت القادمة امرأة، ترتدي الزي التقليدي الإنجليزي للساحرة، تلبس قبعة سوداء ذات حافة صلبة مثبتة

في مقدمتها، ذات شعر أبيض طويل ومريلة حمراء وعباءة سوداء وقناعاً مليئاً بالحقد والضغينة، وكان لها أنف شبيه بالمنقار، سارت في عرج ومنحنية الظهر إلى الطرف الأيمن من المنضدة ووضعت القطة التي تحملها فوق المنضدة، كانت القطة ميتة ومحشوة في وضع الجلوس، وكانت عينا القطة الزجاجتين مثبتتين عليَّ.

ثم هيكل آخر مزعج: رجل له رأس تمساح ـ قناع غير مألوف ناتئ للأمام وله ملامح زنجية أكثر من أي شيء آخر مع وجود أسنان بيضاء شرسة وعينين جاحظتين، اتجه بسرعة إلى مكانه بجوار الرجل الظبي كما لو كان الشخص الذي يرتدي ذلك القناع لا يشعر بالارتياح في ذلك الزي وغير معتاد على مثل هذه المناظر.

ثم جاء هيكل لذكر أكثر قصراً: رأس كبير بشكل غير طبيعي به أسنان بيضاء على شكل كعوب في ابتسامة وحشية، وبدت عيناه كأنهما مدفونتان في محجرين عميقين أسودين، وحول قمة رأسه توجد أهداب هائلة، وكان هذا الرجل يرتدي عباءة سوداء اللون ويشبه المكسيكيين.

ثم ظهر هيكل أنثوي آخر، أحسست أنها ليلى، إنها مصاصة الدماء المجنحة، رأس خفاش به أذنان ومغلف في فراء أسود اللون وسنتان طويلتان، وفي أسفل خصرها ترتدي جونلة سوداء، اتجهت بسرعة إلى مكانها بجوار التمساح، جاء الهيكل التالي كان إفريقيا مرعباً، بدا قناع الرأس مصنوعاً من الخرق البالية مع وجود ثلاث ريشات بيضاء في القمة وعينين هائلتين، وبدا ذلك الهيكل بدون ذراعين وبدون ساقين بل وغير محدد من حيث الذكورة أو الأنوثة، اتجه للأمام ليتخذ مكانه بجوار مصاصة الدماء، ولكي ينضم إلى كوراس الحملقات الغامضة.

أما الرجل الذي جاء بعد ذلك على النقيض من سابقيه، حيث كان يتسم أساساً باللون الأبيض، وعلى هيئة هيكل عظمي لمهرج تقشعر منه الأبدان، إنه بمثابة صدى للرسم الموجود على حائط الزنزانة الخاصة

بي، وكان قناعة على شكل جمجمة، وله مشية ناشفة عظيمة، ثم ظهرت شخصية أكثر شذوذاً وغرابة، لقد كان امرأة، ولذلك بدأت أشك فيما إذا كانت مصاصة الدماء هي ليلى، وسار ذلك الهيكل للأمام في بطء بينما يدها اليسري تساند بطنها المنتفخ بالحمل البالغ ثمانية أشهر وقد وضعت يدها اليمنى بين الثديين، وكان رأسها الأبيض الشبيه بالمنقار، بدت المرأة/ السمكة/ الطائر جميلة ورقيقة على نحو غريب بالمقارنة بالتهافت والتهديد الذي تتسم به الهياكل الأخرى، وتبقت أربعة أماكن.

وكان الهيكل التالي يكاد يكون صديقاً قديماً، إنه رأي ابن آوى، كان متيقظاً ومليئاً بالشرور، وسار بخطوات واسعة إلى مكانه في مشية زنجية، رجل في عباءة سوداء مكتوب عليها رموز خاصة بالتنجيم والكيمياء باللون الأبيض، يرتدي قبعة لها قمة يبلغ ارتفاعها ياردة ولها حافة بشعة يتدلى منها غطاء للرقبة أسود، يمسك بعصاً طويلة تعلوها دائرة عبارة عن ثعبان ممسك بذيله في فمه، وتعرفت على شخصيته، وكان باستطاعتي مشاهدة العينين اللامعتين والفم المتصلب اللدود.

وظل هناك مكانان شاغران في الوسط ومرت فترة من التوقف، وحملق صف الهياكل الموجود وراء المنضدة لأعلى نحوي بدون حركة وفي صمت مطبق تام، نظرت إلى حراسي الذين كانوا ينظرون أمامهم مثل الجنود، ثم هززت كتفي.

وظهر أربعة رجال في الدهليز يحملون عربة سوداء بدون عجلات شبيهة بتابوت منتصب القامة، وشاهدت ستائر مسدلة على جوانبها وفي المقدمة، وعلى اللوحة الأمامية كان قد دهن باللون الأبيض نفس الشعار الموجود فوق عرشي، على هيئة عجلة ذات الأشعة الثمانية.

وكان الأشخاص الأربعة الذين يحملون الكرسي يرتدون أثواباً نسائية

فضفاضة، وعلى رؤوسهم أقنعة شاذة مشوهة للخلقة ـ أوجه ساحرات، ويرتفع من فوق تاج كل رأس صلبان عمودية.

لم يصلوا مباشرة إلى وسط المنضدة ولكنهم حملوا التابوت، وداروا به أمام عرشي حتى يمكنني أن أشاهد رموز آلة القمر الموجودة على اللوحات ثم واصلوا سيرهم نحو الباب إلى المنضدة.

ثم ظهر الهيكل الثالث عشر، وعلى النقيض من الآخرين كان يرتدي ثوباً نسائياً فضفاضاً طويلاً أبيض كهنوتياً، وكانت الزخرفة الوحيدة في ذلك الثوب تتمثل في الشرائط السوداء الموجودة حول الكمين الفضفاضيين، كان يحمل عصاً سوداء في يديه المغلفتين بقفاز أحمر اللون، وكانت رأسه هي رأس جدْي حقيقية يرتديها كنوع من الطاقية، قرنان هائلان ملقان إلى الوراء ضاع منهما لونهما الطبيعي، وعينان زجاجيتان لهما لون الكهرمان، والزينة الوحيدة تتمثل في شمعة ممتلئة وذات لون أحمر كالدماء كانت الشمعة مثبتة بين القرنين، تمنيت لو استطعت أن أتكلم لأنني في مسيس الحاجة إلى فضح وكشف الناس على حقيقتهم، ولكن كل ما استطعت أن أفعله أن أظهر بخلاف ما أبطن.

وتقدم الهيكل ـ الجدْي للأمام في مهابة فاستجمعت قواي لمواجهة الأحداث: إذ كان من المتوقع إقامة قداس أسود، وربما كان من المقرر أن تتحول المنضدة إلى الهيكل للكنيسة، وحملق الصف الطويل من الدميات الكرنفالية نحوي، فحملقت بدوري في ذلك الصف الطويل: الشيطان/ الظبي والشيطان/ التمساح والشيطانة مصاصة الدماء والمرأة / الطائر والساحر والكرسي/ النعش والهيكل العظمي / المهرج والدمية / الغلة والساحر، ،ووجدت نفسي أنظر فيما حولي نحو حراسي الغامضين، وبدأت أشعر بالآلام الناجمة عن الكمامة الموضوعة على

فمي، في نهاية الأمر اكتشفت أنه من المريح لي أن أحملق لأسفل المنبر.

ومثلما يفعل الممثلون على نحو فجائي لدى خروجهم من المسرح قام صف الهياكل الموجود أمامي بإزالة أقنعتهم وخلع عباءاتهم، واستدار الرجال ذوو الرؤوس المتقاطعة وحملوا الشعلات وساروا نحو الباب، ثم اضطروا للانتظار بسبب ظهور مجموعة من الشباب يصل عددهم إلى عشرين فرداً ويرتدون ملابس عادية، وبعضهم يحمل كتباً وملفات، وقد التزموا بالصمت واتخذوا أماكنهم بسرعة على المقاعد الجانبية التي تقع إلى يميني، ثم ختفى حاملوا الشعلات، فنظرت إلى القادمين الجدد ـ إنهم من الألمان، كان الذكاء يطل من وجوههم، من بينهم ثلاث فتيات، تعرفت على اثنين من الرجال سبق أن شاهدتهما.

وآخر رجل وصل إلى القاعة وهو الذي له رأس جدْي، إنه عجوز ذو لحية بيضاء، كان شبيهاً بالسناذج، شاهدته يبتسم لكونشيس الساحر الموجود إلى جواره، وفي المكان الذي يلي كونشيس ظهرت امرأة رشيقة متوسطة العمر عقب إزالة رأس الطائر والبطن الحامل، يبدو أنها تشتغل بالأعمال التجارية، وكان جو الذي كان يرتدي رأس ابن آوي مرتدياً حلة داكنة، وظهر آنطون على نحو مثير للدهشة من خلف زي الهيكل العظمي، أما دمية القمح فكانت ماريا، والرأس الإغريقي كان للكولونيل الألماني أو هو فميل الزائف، أما مصاصة الدماء فلم تكن ليلى وإنما أختها حيث بدا معصمها خالياً من الندبة الغائرة، أما التمساح فهو في أواخر العشرينيات له لحية رفيعة، أما رأس / الظبي فكان رجلاً لا أعرفه، يبلغ من العمر حوالي أربعين عاماً، وكانت بشرته مكتسبة اللون الأسمر الناجم عن التعرض للشمس.

وتبقت بعد ذلك الساحرة إنها ليلى، ترتدي فستاناً من الصوف أبيض، شاهدتها وهي تربت على شعرها ثم ترتدي نظارتها، وانحنت

لكي تتمكن من سماع كلام ما كان يهمس به «الكولونيل» الجالس إلى جوارها، وأومأت برأسها ثم فتحت الملف الموجود أمامها.

لم يكن هناك سوى شخص واحد لم يكشف النقاب عنه: إنه الشخص المتواجد في التابوت، كنت أجلس في مواجهة منضدة تضم أناساً لهم أشكال مألوفة تماماً، كانوا جالسين يفحصون ملفاتهم وبدأوا ينظرون إليَّ، كان الاهتمام يطل من وجوههم، حملقت في وجه جين/ روز فنظرت إليَّ بدون أن تظهر أية تعبيرات على وجهها كما لو كنت تمثالاً من الشمع، أما ليلى فعندما نظرت إليَّ لم يبد أي شيء في عينيها، كان موقعها يوحي بأنها عضو له أهمية قليلة في لجنة تحقيق.

وأخيراً نهض العجوز ذو اللحية مشذبة فتوقف الهمهمة، وشاهدت بعض «الطلبة» وقد وضعوا كشاكيل مفتوحة على حجرهم استعداداً للبدء في الكتابة، وحملق العجوز نحوي من خلال نظارته ثم أومأ برأسه منحنياً، قائلاً:

ـ يا سيد أورفي، من المؤكد أنك توصلت في استنتاجاتك أنك وقعت في أيدي رجال مجانين ساديين، وأعتقد أن أول مهمة أقوم بها هي أن أعرفك عليهم، لكن علينا أولاً أن نعيدك إلى حالتك الطبيعية مثلما أعدنا أنفسنا.

وأومأ في هدوء للحارسين، فراحا يفكان الشرائط البيضاء وأعادا ملابسي إلى وضعها الطبيعي على جسدي وأزالا الرقعة السوداء التي كانت ملصقة على جبهتي وقلبا إلى الوراء البلوفر الصوفي الخاص بي، بل وقاما بتسوية شعري بالفرشاة ولكنهم تركا الكمامة على فمي.

ـ حسناً، والآن.. إذا سمحت لي فإنني سأقدم نفسي أولاً، أنا الدكتور فردريش المدير الحالي لمعهد علم النفس التجريبي التابع لجامعة أيداهو بأمريكا، وعلى يميني يوجد الطبيب كونشيس من جامعة

السوربون الذي تعرفه (فنهض كونشيس واقفاً وانحنى لي انحناءة مقتضبة، فحملقت فيه)، وعلى يمينه توجد الدكتورة الطبيبة ماري ماركوس الاستاذة بجامعة أدنبرة(فأمالت هذه المرأة التي يبدو عليها أنها تمارس مهنة الطب رأسها تحية لي) وعلى يمينها يوجد البرفسور ماريو سياردي الأستاذ في ميلانو (فنهض واقفاً وانحنى وهو رجل ضئيل ولطيف مثل ضفدعة)، وبعده توجد السيد يني كوتوبولوس، مدير مسرحنا، ثم هاهو آرني هالبرشتدت الأستاذ بمسرح استكهولم وهو أستاذ فذ في تحويل القصص إلى مسرحيات وأستاذ كبير في الإخراج المسرحي ونحن جميعاً مدينون له، فنحن كنا مجرد هواة في الدراما الجديدة، بالكثير بسبب هذا النجاح العظيم.. لمشروعنا من حيث الاخراج والفتنة الجمالية.

استدار العجوز وقال: والآن ـ أنت تشاهد ـ على يساري ـ صندوقاً شاغراً، ولكننا نود أن ترى فيه إلهة عذراء لم يشاهدها أي واحد منا من قبل على الإطلاق، ونحن نسميها أشتاورث، وأنني لواثق بأن خبرتك في الأدب ستسمح لك بأن تخمن والمغزى الذي يستتر وراءها، وبعد الصندوق يوجد الطبيب الدكتور جوزيف هاريسون المنتمي لقسمنا في إيداهو والذي يليه هو الدكتور الطبيب هيزيش ماير الذي يعمل في فيينا، ثم مدام كونشيس التي يعرفها الكثير منا على أنها الباحثة الموهوبة التي أعدت أبحاثاً عن تأثير الصدمات النفسية التي قد تؤدي إلى العصاب على الأطفال اللاجئين في أوقات الحرب وأنا بالطبع أشير إلى الدكتورة أنيتا كازانيان الأستاذة بمعهد شيكاغو، وبعد مدام كونشيس يوجد ثورفالد الأستاذ بجامعة عالبورج وبعده توجد الدكتورة فانيسا ماكسويل، أعتقد أننا نشعر جميعاً أن نجاح الجانب الطبي من مشروعنا هذا الصيف يرجع إلى الدكتور ماكسويل.

أما الطلبة الذين تشاهدهم فهم طلبة دراسات عُليا نمساويون ينتمون لجامعة عالبورج.

ابتسم وراح يرتشف كوبا من الماء، وقال موجهاً كلامه إليَّ: حسناً، لذلك لعلك سيد أورني قد عرفت سرنا الآن، فنحن مجموعة دولية من العلماء النفسيين ولقد كان لي شرف قيادة هذه المجموعة لأسباب تتعلق بأقدميتي في الوظيفة، ولأسباب عديدة فإن مسار البحث يتطلب منا أن يكون لدينا أناس من غير المتطوعين، يتم إجراء تجربة عليهم، ونحن لسنا متفقين في نظرياتنا عن السلوك بأي حال من الأحوال ولسنا متفقين من حيث مدارسنا العلمية المختلفة ولكننا متفقون من حيث النظر إلى طبيعة التجربة، أنا متأكد من أنك ـ عندما تتمكن من استجماع قواك في هدو ـ ستجد نفسك قادراً على استنتاج جزء على الأقل من قوانينا حول العلة والمعلول، لقد وضعناك خلال هذه الأيام الثلاثة الأخيرة في حالة من فقدان الشعور تحت تأثير المخدرات والنتائج التي حصلنا عليها من ورائك، كانت بالغة الأهمية ولذلك فنحن نعبر عن تقديرنا من الحالة السوية التي ظهرت عليها في أثناء جميع المتاهات وحالات الإرباك والتشويش التي جعلناك تمر بها.

وعندئذ وقف جميع الحاضرين وصفقوا تصفيقاً حاداً، شعرت أنني لم أعد أستطيع السيطرة على أعصابي، وشاهدت ليلى وكونشيس يصفقان بأيديهما كما شاهدت الطلبة يصفقون، فرفعت رسغي لأعلى وأعطيت لهم علامة على شكل حرف V وعندئذ شعر العجوز بالحيرة لأنه استدار نحو كونشيس لكي يسأله عن المعنى المستتر وراء هذه العلامة، التفت كونشيس إلى الطبيبة، فتكلمت بصوت قوي: هذه العلامة هي المعادل المرئي لبعض التعبيرات الكلامية مثل «أنت لوطي».

ويبدو أن هذا التفسير قد أثار اهتمام العجوز، فقام بتكرار هذه الحركة وهو يرقب يده.

انحنى فميل / جورجنسين للأمام وقال في لكنة قوية: هل هناك ارتباط بين هذه الحركة وبين الإشارة إلى حركة الزوج المخدوع أو زوج المرأة الفاسقة؟

فقمت بثني عضلاتي وحك ساقي في بعضهما البعض وأرغمت نفسي على أن أظل عاقلاً لكي أتمكن من معرفة الأسباب التي تكمن وراء كل هذا من معرفة الأسباب التي تكمن وراء كل هذا الجنون، لم أستطع أن أصدق أنهم من علماء النفس لأنهم لا يمكن لهم أن يجازفوا باعطائي أسماءهم.

ومن ناحية أخرى فإنهم بارعون بالتأكيد في ارتجال اللهجة الملائمة الخاصة بمهنتهم طالما أن الحركة التي قمت بها قد صدرى فجأة وبدون سابق إنذار، أم أنهم كانوا يتوقعون تلك الحركة من جانبي؟ رحت أفكر بسرعة، كانون بحاجة إلى مشاهدة هذه الحركة، لكي يبدءوا حوارهم، فهم عندما أظهروا إعجابهم بي عن طريق التصفيق، شعرت أنني مضطر لأن أعطى الإشارة، ومن هنا عليَّ أن أكون على حذر بحيث لا أفعل أي شيء بدون تدبر.

وقام العجوز بوضع حد للمناقشات، ثم استطرد قائلاً: يا سيد أورفي، إن الحركة المهمة التي قمت بها تقودني إلى الهدف الذي نصبوا إليه من وراء مقابلتنا معك هنا، ونحن ندرك أنك ممتلئ بمشاعر الغضب العميق إزاء بعضنا على الأقل، ولكن يقول الزميل الدكتور هاريسون «إن ما نؤمن أننا نعيش عليه هو ما يهمنا بالدرجة الأولى»، ولذلك تجمعنا اليوم لكي نسمح لك بأن تقوم بالحكم علينا بدورك، وذلك هو السبب أننا وضعناك في كرسي القاضي، ولقد قمنا بإسكاتك ومنعك من الكلام لأن العدالة ينبغي أن تكون بكماء إلى أن يحين الوقت الملائم لإصدار الأحكام بعقوبة ما، ولكن قبل أن نسمع حكمك علينا، عليك أن تسمح

لنا بأن نقدم دليلاً إضافياً «ضد» أنفسنا، والمبرر الحقيقي الذي دفعنا إلى ذلك هو مبرر علمي.

ولكننا جميعاً متفقون أن متطلبات الممارسة الطبية الممتازة تمنعنا من تلمس مثل هذه الأعذار، وأنا أناشد الآن الدكتورة ماركوس أن تقرأ بصوت مرتفع ذلك الجزء من التقرير الذي أعددنا عنك كإنسان عادي.

فنهضت المرأة واقفة، كان عمرها يبلغ نحو الخمسين وشعرها يميل إلى اللون الرمادي، واقلت: إن موضوع تجربتنا لعام ١٩٥٣ ينتمي إلى فئة مألوفة من الانطواء الذاتي الشبه ذهني، ورغم أن نموذج شخصيته يعتبر ممتازاً بالنسبة لأهدافنا إلا أن هذا النموذج يخلو من الاهتمام الثانوي، فأهم ملامح حياته أنها تخلو من المحتوى الاجتماعي والدوافع التي تحدد سلوكه تنبع من عقدة أوديب.

«هذا الشخص استغل من الناحية الجنسية والعاطفية عدداً من الفتيات الشابات وافترسهن، وكان سبيله إلى ذلك ـ وفقاً لما أوردته الدكتورة ماكسويل ـ هو التركيز على شعوره بالوحدة القاتلة، وقصارى القول إنه كان يلعب دور الولد الصغير الذي يبحث عن أمه المفقودة، وهو

بذلك كان يثير غرائز الأمومة المكبوتة داخل ضحاياه من الفتيات وكان يبادر إلى استغلالهن في غير رأفة وبأسلوب أقرب إلى الزنا.

«والمخرج له من حالة القلق والانفصال الرئيسي الذي يعاني منه يتطلب منه أن يعطي لنفسه دور الثائر أو الخارج على القانون، وهو لا شعورياً يهدف من وراء السعي إلى هذه العزلة إلى العثور على مبرر يسوغ له افتراس النساء والانسحاب بعيداً عن أية جماعة تتحرك في اتجاهات عدائية ضد احتياجاته الرئيسية المتعلقة بالانجذاب نحو الذات.

«وأسرة هذا الرجل وكذلك الطبقة الاجتماعية المغلقة التي ينتمي إليها والخلفية الوطنية القومية التي ينتمي إليها لم تساعد على حل مشكلاته،

فهو يجيء من أسرة عسكرية كان بها عدد كبير من المحرمات الناجمة عن النظام الأبوي الصارم، والطبقة الاجتماعية الخاصة به في داخل بلاده وهي الطبقة الوسطى المهنية، وقد أشارت الدكتورة ماكسويل أن هذا الرجل قد قال: «كان عليَّ أن أعيش حياتين طوال فترة المراهقة التي مررت بها»، وهذا وصف جيد من جانب رجل علماني للبواعث النفسية البيئية التي تؤدي في النهاية إلى الفصام.

وبينما هي تتكلم كان الجالسون إلى المنضدة يصغون بطرقهم المختلفة، إذ كان بعضهم ينظر إليها بينما آخرين غارقين في التآمل في المنضدة، وكانت ليلى تصغى في انتباه شديد، وكان «الطلبة» يكتبون في كراساتهم بعض الملاحظات، ولقد قضيت كل الوقت محملقاً في المرأة التي كانت تقرأ والتي لم تنظر إليَّ ولو مرة واحدة على الاطلاق، شعرت بالغضب الشديد يتصاعد في داخلي، وبالكراهية إزاء جميع هؤلاء الناس، كانت هناك بعض الحقائق في الكلام الذي كانت تقوله ولكنني كنت أدرك أنه لم يكن هناك أي مبرر لمثل هذا التحليل العلني حتى ولو كان ذلك التحليل يتسم بالصدق، كما لم يكن هناك أي مبرر لهذا السلوك الذي سلكته ليلى ـ لأن معظم «المادة العلمية» التي قام عليها التحليل قد استيقت من ليلى، فرحت أحملق في وجهها ولكنها لم تنظر نحوي. وراحت المرأة الأمريكية ترتشف ماء من كوب وسادت فترة من الصمت، وكان من الواضح أن التقرير لم ينته، واستطردت في القراءة: ويوجد ملحقان، أحدهما ورد إلينا من البرفسور سياردي وهذا هو نصه: «إنني أعارض الرأي القائل بأن هذا الشخص الذي أجرينا عليه التجربة هو إنسان بلا دلالة خارج نطاق تجربتنا، ففي رأيي أنه يمكن للمرء أن يتوقع في خلال عشرين سنة فترة ازدهار كبير في الغرب وهو أمر لا يكاد يتصوره أحد في هذه الأيام، فإنني أتنبأ بأن الرجل الذين حرموا من ثدي الأم مثل هذا الرجل سيصبحون هم النموذج أو قاعدة

السلوك فنحن بصدد الدخول في عهد إباحي يكون فيه إشباع الذات على هيئة أجور مرتفعة ومساحة ممتدة من البضائع الاستهلاكية التي يمكن الحصول عليها أمراً متاحاً للغالبية العظمى من الناس أن لم تكن متاحاً لكافة الناس، وفي مثل هذا العهد فإن نموذج الشخصية سيصبح نموذجاً يتسم بالإهاجة الذاتية.

ومثل هذا الشخص سيصبح لأسباب اقتصادية معزولاً ـ عن الاتصال المباشر بشرور الحياة الملائمة وغير ذلك من شرور أخرى، فالإنسان الغربي بوصفه نوعاً بيولوجياً سوف يصبح إنسانا انعزالياً، ورغم أن لدي قدر من التعاطف مع هذا الشخص من حيث هو زميل في البشرية فإن ورطته ومأزقه تثيران اهتمامي باعتباري عالم في علم النفس الاجتماعي.

ثم وضعت المرأة الورقة على المنضدة والتقطت ورقة أخرى» وهذا التذييل الثاني قد كتبته الدكتورة ماكسويل التي كانت لها أوثق العلاقات الشخصية مع هذا الرجل، وهذا هو نص ما كتبته:

«وفي رأيي أن أنانية هذا الرجل وعدم توافقه الاجتماعي قد تحدداً عن طريق ماضيه وأي تقرير ننقله إليه ينبغي أن يشير إلى أن نواحي الاختلال في شخصيته ترجع إلى ظروف خارجة عن إرادته، وقد لا يدرك هذا الرجل أننا نقوم بإعداد شرح إكلينيكي ولذلك فإن اتجاهنا ينبغي أن يتسم بالشفقة نحو شخصية كان عليها أن تخفي نقائصها تحت العديد من الأكاذيب التي يسوقها وعي، وينبغي أن نتذكر دائماً أن هذا الرجل الذي أطلق إلى هذا العالم كان تعليمه ضاراً فهو ـ إذا جاز القول ـ قد ولد قصير النظر بطبيعته تم تعرض للمزيد من العمي عن طريق بيئاته، ولا عجب في أنه لا يستطيع العثور على طريقة.

وجلست المرأة الأمريكية، وأومأ العجوز كأنه قد ابتهج وسر مما قيل، ونظر إلى ثم نظر إلى ليلى، وقال: أعتقد يا دكتورة ماكسويل أنه

من المفيد لهذا الرجل أن نقوم بتكرار ما سبق أن قلته لي في الليلة الماضية فيما يتعلق به».

فأحنت ليلى رأسها ثم نهضت واقفة وتحدثت للآخرين ونظرات إليَّ نظرة خاطفة كما لو كنت أنا بمثابة رسم بياني مثبت على سبورة، «أثناء علاقاتي مع هذا الرجل مررت بدرجة معينة من التحول المضاد، ولقد قمت بتحليل هذا بمساعدة الدكتور ماركوس ونحن نعتقد أن هذا التعليق العاطفي يمكن تقسيمة إلى عنصرين، الأول نشأ عن جذبه جسمانياً وقد تعمق هذا العنصر من خلال الدور الذي كان عليَّ أن أؤديه، أما العنصر الثاني فقد كان تقمصاً وجدانياً، والإشفاق على الذات لديه ينعكس على بيئته إلى الحد الذي يجعله متلوثاً بواسطتها.

فأومأ العجوز برأسه ثم نظر لأعلى نحوي وقال: «قد يبدو كل هذا قاسياً من وجهة نظرك، ولكننا نرغب في عدم إخفاء أي شيء (وتكلم إلى ليلى) فيما يتعلق بالعنصر الأول وهو الجاذبية الجنسية نحوك فهل لك أن تصفى لهذا الرجل ولنا مشاعرك الحالية؟

أعتقد أن هذا الرجل سيصبح زوجاً غير ملائم للغاية باستثناء المشاركة في النواحي الجنسية.

وتدخل الدكتور ماركوس متسائلاً: هل لديه دوافع أساسية تتسم بتدمير الحياة الزوجية؟

ـ نعم: مثل الخيانة الزوجية، الأنانية، الجفاء وعدم الاهتمام بمشاعر الآخرين في روتين الحياة اليومية، وربما بعض الانحرافات الجنسية وتساءل الرجل العجوز: «وهل يمكنه أن يتغير الموقف إذا حصل على تحليل؟.

من وجهة نظري، لا.

فالتفت الرجل العجوز: وما رأي موريس؟

فتكلم موريس، وهو يحملق في وجهي: أعتقد أننا متفقون في الرأي على أنه يدعو للاعجاب كمادة لإجراء أبحاثنا، فهو يمتلك خصائص ماسوشية بحيث أنه سيحصل على المتعة حتى من وراء مناقشاتنا لأخطائه، وفي رأيي أن المزيد بالاهتمام به ويعتبر أمراً غير ضروري.

ونظر العجوز نحوي: اكتشفنا أنك مازلت متعلقاً تعلقاً شديداً بالدكتور ماكسويل، والبعض منا اهتم بمدى تأثير متعلقاً تعلقاً شديداً بالدكتور ماكوسيل، والبعض منا اهتم بمدى تأثير فقدان الفتاة الأسترالية عليك والذي نجم عنه ـ شعور عميق بالذنب وهو شعور في اللاوعي كما اهتموا بما قد يكون قد أحدثه لديك الفقدان الثاني للهيكل الأسطوري المعروف تحت اسم «جولي»، فالنتيجة التي توصلنا إليها هي كالآتي: ان تعلقك بإشباع الذات عميق للغاية بحيث لا يمكنك أن تقدم على أية محاولة للانتحار، ولذلك فنحن نحذرك من التردي إلى تلك المحاولة.

فأومأت برأسي شاكراً في تهكم ساخر، وقلت لنفسي: عليك بالتزام الوقار والتمسك بالقدر المتبقي من الوقار والرزانة.

فنظر الرجل إلى الجالسين إلى المنضدة وقال: والآن. هل يرغب أحدكم في أن يقول أي كلام آخر؟ (فهزوا رؤوسهم جميعاً) حسناً، لقد وصلنا إلى نهاية تجربتنا، نحن لم نخف رأينا فيك، ونظراً لأن هذه بمثابة محكمة فقد كنا بالطبع نقوم بدور الشهود ضد أنفسنا، فأنت القاضي ولقد حان الوقت الملائم لك لكي تحكم علينا، ولقد قمنا أولاً وقبل كل شيء باختيار كبش فداء».

ونظر إلى يساره، فخلعت ليلى نظارتها وسارت خطوات حول المنضدة وجاءت ووقفت أمامي عند أسفل خطوات المنبر وقد أحنت رأسها بينما رداؤها الصوفي الأبيض تشع منه دلائل القدم، وحتى هنا كنت غبياً إلى الحد الذي جعلني أشاهد تطوراً وهمياً وخياليا.. زواجاً

صورياً.. نهاية سعيدة سخيفة.. ورحت أفكر في تجهم فيما سأفعله إذا ما وصلت جرأتهم إلى محاولة تنفيذ ذلك، وقال: إنها سجينتك، ولكنك لا تستطيع أن تفعل بها ما تريد، لأن قانون العدالة الطبية الذي نحرص عليه يحدد نوعاً من العقاب إزاء جريمة تحطيم كل قوى التسامح والعفو في الشخص الذي نجري عليه تجاربنا ثم استدار ملتفتاً إلى آدم الذي كان يقف بالقرب من المدخل ذي الباكية وقال له «الجهاز».

فنادى آدم بكلام ما فوقف الآخرون على جانب واحد، على هيئة مجموعة متماسكة في مواجهة «الطلبة» مع وجود العجوز في مقدمتهم ودخل إلى القاعة أربعة رجال مرتدين الزي الرسمي الأسود، وحركوا التابوت واثنتين من المناضد لكي يصبح وسط القاعة شاغراً وتم رفع المنضدة الثالثة لتصبح أمامي وبجوار ليلى، ثم غادر القاعة اثنان منهم وعادا يحملان إطاراً خشبياً ثقيلاً به رفوف كتيفية مثل إطار الأبواب، وعلى ارتفاع سبعة أقدام لأعلى كانت هناك حلقات حديدية عند قمة القوائم العمودية، استدارت ليلى وسارت إلى المكان الذي وضعوا فيه الإطار الخشبي: ووقفت أمامه ورفعت ذراعيها لأعلى، وقام آدم بربط معصميها بالكلبشات في الحلقات الحديدية ثم وضعت على رأسها خوذة من الجلد الناشف كنوع من الوقاية لقد كانت إطاراً من أجل أن يتم الضرب بالسوط.

لم أستطع مشاهدة الشيء الذي كان ممسكاً آدم به ولكنه كان يطوح بذلك الشيء لدى مجيئه في اتجاهي، هنا أدركت طبيعة الخدعة التي يلعبونها والتي لا يمكن تصديقها، إن مقبضاً ناشفاً في نهايته مجموعة من السياط الطويلة ذات اللفائف المليئة بالعقد، وقام آدم بفك ثلاث عقد متشابكة ثم وضع هذا الشيء البالغ السوء على المنضدة جاعلاً المقبض في اتجاهي، ثم عاد إلى ليلى ـ كان كل شيء قدم التخطيط له في عناية ليستم على هذا التتابع ـ وجذب لأسفل سستة ردائها الأسود

حتى خصرها، بل وقام بفك عروة السوتيان ثم طوى السوتيان والرداء على جانب حتى يتم الكشف تماماً عن ظهرها العاري، وتمكنت من مشاهدة الخطوط القرمزية الحمراء الموجودة على بشرتها في الأماكن التي كان شريط السوتيان يتقاطع عليها.

وبدأ العرق يتصبب في يدي، وغرقت في يأس مرير، فمع كونشيس دائماً ما يغرق المرء في هوة سحيقة ولا يستطيع الذهاب لمسافة أبعد تقدم العجوز مرة أخرى ووقف أمامي، قائلاً: أنت تشاهد الآن كبش الفداء وتشاهد الأداة التي تستخدم في توقيع العقاب، أنت الآن القاضي والجلاد في آن واحد، ونحن جميعاً هنا نكره المعاناة التي لا لزوم لها، عليك أن تفهم في تجربتنا لك فيها مطلق الحرية بإنزال العقاب بنا وإصابتنا بالآلام البغيضة لقد قمنا باختيار الدكتورة ماكسويل لأنها ترمز إلى ما نحن عليه بالنسبة لك، والآن نطلب منك أن تفعل ما فعله الأباطرة الرومان بحيث ترفع إصبعك الإبهام لأعلى أو تخفضه لأسفل، فإذا قمت بخفض إصبعك لأسفل سيتم إطلاق سراحك لكي تقوم بتنفيذ العقاب بالوحشية والقسوة التي تريدها بحد أقصى عشر ضربات بالسياط فهذا العدد من الضربات يكفي لتحقيق أقصى المعاناة وتحقيق التشوية الدائم، وإذا رفعت إصبع إبهامك لأعلى معطياً علامة الرحمة فإنك سوف تتحرر من قبضتنا للأبد بخلاف عملية واحدة أخيرة تتعلق بإزالة آثار التخدير وستكون لك مطلق الحرية إذا أخترت توقيع العقاب لأن هذا سيوضح لنا أيضاً الاستكمال المرضى لإزالة آثار المخدرات من جسدك، والآن أطلب منك مطلباً أخيراً: أن تفكر في حرص شديد قبل أن تختار.

ولدى انطلاق إشارة ما غير مرئية نهض جميع الطلبة، وراح كل شخص بالقاعة يحملق في وجهي، كنت أشعر أنني أرغب في اتخاذ الاختيار الصحيح، اختيار الشيء الذي يجعلهم جميعاً يتذكروني، ويبرهن لهم أنهم جميعاً مخطئون، كنت أدرك أنني لست قاضياً بالفعل،

فمثل جميع القضاة كنت أنا الذي يحكم عليه في الأمر، يحكم عليَّ من خلال الحكم الذي أصدره بنفسي.

أدركت أن الاختيار الذي عرضوه عليَّ كان سخيفاً، فكل شيء قد وضع بحيث يجعل من المستحيل عليَّ أن أعاقب ليلى، كان العقاب الوحيد الذي أردت توقيعه عليها هو أن أجعلها تصيح طالبة العفو عنها لا أن يصرخ من شدة الآلام، أدركت أنني لو أشرت بإبهامي لأسفل فإنهم سيتمكنون من إيقافي بطريقة ما، فالموقف بأكمله كان بمثابة مصيدة كان لدي الإحساس بالغفران والدهشة البالغة فكيف تم إعداد وتجهيز كل هذا من أجلي أنا فقط.

وفي تردد وتفكير لما إذا كنت حراً في الاختيار ومع إحساس بأنني متأكد أن هذا أمر غير متحكم فيه مسبقاً أنزلت إصبع إبهامي لأسفل.

فحملق العجوز في وجهي للحظات طويلة ثم أعطى إشارة للحارسين ورجع إلى المجموعة، وتم تحرير معصمي فنهضت واقفاً ورحت أحكهما ثم مزقت الكمامة ونتف شريط الكمامة شعر ذقني لدى نزع الكمامة كل ما استطعت أن أفعله أنني رحت أرمش بعيني بسبب الآلام.. لم يتحرك الحارسان، وأخذت أحك البشرة حول فمي ثم نظرت في أرجاء الغرفة، كانوا يتوقعون أن أتكلم لذلك قررت ألاَّ أتكلم.

نزلت هابطاً على السلالم الخشبية والتقطت السوط وكنت قد توقعت إلى حد ما أن يكون هذا السوط من ممتلكات المسرح، ولكنه كان ثقيلاً على نحو يدعو للدهشة، كان المقبض من الجلد المضفر فوق خشب وبدت الشرائط الجلدية وبالية أمام العقد فناشفة مثل الرصاصات، إنه سوط من النوع القديم، قطعة أثرية قديمة من ممتلكات البحرية الملكية منذ الحروب النابليونية، وعندما أمسكت بالسوط رحت أفكر، أن أكثر الحلول المتوقعة أنهم سيقومون بإطفاء وقد تحدث مشاجرة، وسيكون الرجل الأربعة وآدم عند الباب وسيصبح من المتعذر الهروب.

التقطت السوط، وهبطت به لأسفل على المنضدة، فصدرت هسهسة وحشية، ولدى ارتطام شرائط السوط بسطح المنضدة صدر صوت شبيه بالطلق الناري الصادر عن بندقية، حيث قفز طالب أو اثنان في أماكنهما لدى سماع الصوت، وشاهدت أحدهما ـ وكانت فتاة ـ تنظر بعيداً إلاَّ أن أحد لم يقترب، دون أن أتوقع الوصول إليها.

ولكنني وصلت بالفعل ومع ذلك لم يتحرك أحد، وأصبحت فجأة على مسافة قصيرة تسمح لي بضربها وقفت كما لو كنت أقيس المسافة، مددت قدمي اليسرى للأمام واستدرت لكي أضرب، بل وأعطيت ذلك السوط الوحشي مسافة اختبار بسيطة حتى يمكن للشرائط أن تتلامس مع منتصف عنقها، وكان وجهها متوارياً وراء جهاز الإضاءة، فألقيت بالسوط لأعلى وراء كتفي كما لو كنت سأهبط بكل قوتي على الظهر الأبيض اللون.

وتوقعت أن تدوي صيحة وأن أرى شخصاً ما يندفع نحوي، إلاَّ أن أحداً لم يتحرك وأدركت أنه سبق السيف العزل وقد فات الأوان، بحيث لم يعد هناك أي شيء يمكنه أن يوقفني سوى إطلاق رصاصة عليَّ، ونظرت فيما حولي متوقعاً أن أشاهد بندقية، إلاَّ أن الأحد عشر شخصاً والحارسين و«الطلبة» وقفوا جميعاً دون حراك.

عدت بنظري إلى ليلى، كان هناك شيطان حقيقي داخل كياني، في داخلي ماركيز شرير يرغب في أن يضرب ويشاهد العلامات الحمراء المبللة بالدماء تجتاز البشرة الرقيقة والهدف من وراء ذلك إصابتهم بالصدمة أكثر مما هو الحاق الأذى بها، لكي يشعروا ببشاعة الأعمال التي مارسوها، لقد قالها: «آنطون»، لقد قال: شجاعاً للغاية.. أدركت أنهم واثقون من أدبي الإنجليزي الغبي فعلى الرغم من كل ما قالوه وعلى الرغم من كل السهام التي غرسوها في احترامي لذاتي فإنهم واثقون بأنني لن أهبط بالسوط ولو مرة واحدة طوال مائة ألف عام، هنا

هبطت بالسوط ببطء شديد، وحاولت أن أحدد ما إذا كان قد خطط لي مسبقاً بحيث لا أفعل ذلك وأن ذلك التخطيط تم بمعرفة كونشيس ولكنني كنت أدرك أن لدى حرية مطلقة في «الاختيار، وأنه بمقدوري أن أفعل ذلك إذا أردت ثم فهمت فجأة أنني لم أكن ممسكاً بسوط في يدي في خزان تحت الأرض، وإنما في ميدان عمومي تغمره أشعة الشمس منذ عشرة سنوات وكنت ممسكاً في يدي بمدفع نصف آلي ألماني، ولم يكن كونشيس الذي يلعب دور فميل، فقد كان فميل في داخلي وفي ذراعي المتخشبة الملقاة إلى الوراء في كل أرجاء الماضي الخاص بي وفوق كل ذلك فيما فعلته في آليسون.

«كلما فهمت الحرية على نحو أفضل أصبحت أقل امتلاكاً لها».

وحريتي أيضاً متمثلة في عدم الضرب مهما كان الثمن ومهما أدى ذلك إلى موت ثمانين جزءاً آخر مني ومهما كانت ظنون العيون التي ترقبني.

كل مناورات كونشيس كانت من أجل أن توصلني إلى التصرف، كل هذه الفوازير الفيزيقية والجنسية ووقفت، مثلما وقف هو من قبل أمام الفدائيين غير قادر على الانتحار باطلاق الرصاص على نفسه واكتشفت أن هناك أوقاتاً غريبة للمطالبة برد القروض القديمة بل إن هناك ثمناً أكثر غرابة ينبغي دفعه.

كنت أدرك أنهم ليسوا سوى ممثلين أن مهنتهم لا يمكنها أن تعبر من خلال الصمت عن صفات إنسانية معينة مثل الذكاء والخبرة والأمانة الذهنية وأنهم لا يمكنهم أن المشاركة في مثل هذا المشهد دون وجود حافز يفوق الأموال، مهما كانت النقود التي قدمها لهم كونشيس كبيرة للغاية، أحسست بأن هناك لحظة فهم بيننا جميعاً ونوع غريب من الاحترام المتبادل، احترام من جانبهم لتوافقي مع آرائهم السرية في شخصيتي، من جانبي لأنني أصبحت مقتنعاً بعض الشيء بأنني دخلت في مجتمع أكثر عمقاً وحكمة وسرية وبينما كنت واقفاً قريباً من الصمت

الخاص بأحد عشر شخصاً وجوههم خالية من المشاعر العدائية بلا تنازل أو تساهل، وجوه منفصلة عن الغضب الذي يعتمل في داخلي.

استطعت مشاهدة ذلك في عيني كونشيس، فهنالك شيء ما بالإضافة إلى الحرية تم إثباته والبرهنة عليه، ارتعشت مئات الأشياء فوق شفتي وفي داخل عقلي وماتت هنالك، وفجأة قفلت راجعاً إلى «العرش» وشاهدت «الطلبة» يخرجون من القاعة ويفكون وثاق ليلى ساعدتها جين على ارتداء ملابسها وتم إزالة الإطار الخشبي، ولم يتبق في نهاية الأمر سوى المجموعة التي تضم ١٢ شخصاً وقف الرجال على جانب لكي تسير السيدات في المقدمة، وكانت ليلى هي أول من اختفت من النساء ثم رجعت ليلى إلى المدخل للحظات قصيرة وحملقت في وجهي دون أن يبدو أي تعبير على وجهها وأن يظهر عليها أي امتنان تاركة عشرات الأسباب معلقة في الهواء فيما يتعلق بالدافع الذي أتاح الفرصة لألقي النظرة الأخيرة عليها.

أصبحت بمفردي مع الحراس الثلاثة الذين أحضروني، قدم لي آدم سيجارة، فرحت أدخن السيجارة وأنا أموج ما بين مشاعر الغضب والارتياح لقد فعلت الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يترك لي بعض الهيبة، وما كدت انتهى من تدخين السيجارة حتى نظر آدم إلى ساعته ثم نظر إليَّ وأشار إلى الكلبشات التي تتدلى دعامتي مسند الذراع بكرسي «العرش» وقال: انظر، لقد انتهى الأمر.

فنهضت واقفاً، وأخذت نفسا عميقاً، وهز آدم كتفيه: لو سمحت وتركت نفسي لكي يتم ربطي في الكلبشات مع الرجلين، وبعدئذ جاء آدم بالكمامة، لقد كان ذلك أكثر مما أحتمل فبدأت المقاومة لكنهم دفعوني نحو العرش، ومرة أخرى أذعنت بدون أن تكون لي حرية الاختيار، ودفع بالكمامة في انزلاق على رأسي ولكن بدون أن يربطها بالشريط في هذه المرة، ثم وضع القناع على وجهي وانطلقنا معاً،

وسرنا من خلال المدخل ولكننا عندما خرجنا اتجهنا إلى اليمين لم نسلك الطريق الذي جئنا منه، ثم هبطنا لأسفل نازلين خمس درجات ومنها إلى غرفة أخرى أو خزان آخر كبير.

وأرغمت على التقهقر للوراء وكان هناك تلاعب مع الكلبشات رفعت ذراعي اليسرى لأعلى ثم صدر صوت يشبه الطقطقة، لقد تم ربطي في الإطار الخاص بالضرب بالسياط، بدأت أقاوم مقاومة حقيقية ورحت أركل بقدمي وركبتي وجذبت الرجل الذي ما أزال مربوطاً في معصم يده، كان بمقدورهم أن يشبعوني ضرباً كما يحلو لهم لأنهم كانوا ثلاثة أشخاص بالإضافة إلى أنني لم أتمكن من الرؤية علاوة على أن الموقف كان مثيراً للسخرية من المؤكد أن الأوامر صدرت لهم بأن يلتزموا بالرقة معي قدر الإمكان، وفي النهاية تمكنوا من رفع يدي الأخرى لأعلى بالقوة وربطوها مع الحلقة الثانية، ثم رفع القناع عن رأسي.

كانت غرفة ضيقة وطويلة، كانت خزاناً آخر، سقفها أكثر انخفاضاً، وفي منتصفها توجد شاشة سينما مثل الشاشة التي استخدمت في بوراني، وعند ثلاثة أرباع المسافة توجد ستارتان سوداويتين مسدلتين وممتدين بعرض الغرفة، وكانت نهاية الحائط الغامضة مرئية من فوق أعالي الستارتين، للقديسين، لقد تم تثبيتي في الإطار الذي كان قد وضع في مواجهة الحائط، وأمامي مباشرة وإلى يميني قليلاً توجد آلة عرض سينمائي من طراز ١٦مم.

ولم يضع الرجال الثلاثة المكلفين بي أي وقت، إذ اتجهوا إلى آلة العرض السينمائي وأداروها لتشغيلها، وبدأ الفيلم بالعجلة السوداء على خلفية بيضاء كما لو كان هذا هو شعار شركة أفلام، أدركت أنني قد أرغمت على «أن أعفو» حتى يمكن نقلي إلى هذا الإذلال عن طريق جلدي بطريقة استعارية كنت بمفردي مع آلة العرض السينمائي ومع ما يكمن خلف الستائر، وتلاشى الشعار وظهرت الكلمات:

أفلام بوليموس

تقدم

الحقيقة المخزية

المومس الأسطورية

بطولة: ليلى مونتجمري

ظهرت لقطة سريعة مقتضبة لليلى وهي راكعة وراء رجل، وانتهت اللقطة قبل أن أدرك أن ذلك الرجل هو أنا، في دور جولي هولمز.

ثم ظهرت لقطة أخرى سريعة: كنت واقفاً أقبلها تحت ضوء الشمس بجوار تمثال بوسايدون.

وأيضاً في دور «فانيسا ماكسويل».

وفي هذه المرة ظلت الصورة لفترة أطول، كانت تجلس وراء مكتب مغطى بالأوراق، ورف مليأئ بأنابيب الاختبار، وميكروسكوب، مدام كوري صغيرة.

وظهرت لقطة باهتة لجو مرتدياً قناع ابن آوى وهو يجري هابطاً على المدق نحو المنزل في بوراني، وجرى داخلاً في عدسات الكاميرا مما جعل المنظر يبدو حالك السواد.

شارك في التمثيل

وَحْسنْ الميسيسبي

جو هاريسون

كنت بصدد أن أشاهد فيلما يدور حول الفسق وبدأ الفيلم: غرفة نوم

مليئة بالأثاث المثير للرغبة الجنسية، غرفة كثيرة الزخارف، وظهرت ليلى في رداء فضفاض وقد انسدل شعرها لأسفل كان الرداء ينفتح على كورسيه أسود، وتوقفت بجوار كرسي لكي تواثم فردة جوربها بالطريقة المبتذلة التي يتم بها الكشف عن الساق وإن كانت اللقطة القريبة قد سمحت لها بأن تظهر معصمها ذا الندبة الغائرة ثم نظرت في اتجاه الباب ونادت فدخل صبي يرتدي الزي الرسمي للفندق ومعه خطاب موضوع على صينية.

فأخذت الخطاب، ثم ظهرت لقطة لها وهي تفتح الخطاب ويظهر عليها السخرية ثم تلقيه على جانب، ثم ركزت الكاميرا على الخطاب الملقي على أرضية الغرفة.

ثم ظهرت ليلى مضطجعة على السرير.. بينما الكاميرا تركز على جسدها، وفجأة جلست معتدلة على السرير النحاسي الفرنسي الذي يشبه الأسرة في بيوت الدعارة وراحت تنظر نظرات شبقة فاضحة، وكان هناك شخص ما قد دخل إلى الغرفة لقطة سينمائية للباب المفتوح أنه جو يرتدي بنطلونا محزقاً، كان أقرب إلى مصارع ثيران زنجي منه إلى ثور أسود، وقام جو باغلاق الباب، وراح ينظر نظرات متقدة حارقة.

وتحول الفيلم إلى الدناءة والقذارة والقرف، إنها تجري لملاقاته وأمسكها من ذراعيها ثم راحا يتقبلان في وحشية، القاها في عنف على السرير تدحرجت عليه وأصبحت فوقه مغطية وجهه راحت تقبل رقبته.

ثم لقطة أخرى لها وهي واقفة في ملابسها الداخلية السوداء مستندة على الحائط وقد مدت ذراعيها، جو راكعاً أمامها يتحسس صدرها فأمسكت بإحدى يديه وضغطتها على جسدها.

ثم جاء فاصل من الفتشية لمدة خمس ثوان، كان مستلقياً على الأرض، ثم هناك لقطة قريبة لساق عارية تنتهي بقدم يرتدي حذاء أسود

اللون ذا كعب عال والقدم ملقي على بطنه، وراح يربت على القدم بيديه، بدأت الشكوك تساورني، فهذه الساق يمكن أن تكون ساق أي امرأة بيضاء أخرى أما البطن واليدان السوداوان فيمكن أن تكون لأي رجل أسود آخر.

لقطة عبر الغرفة وهي تضغطه على الحائط ثم اندلقت يده حول ظهرها، ظهر طويل عار ملفوف في ذراعين سوداوين، وتحركت يد سوداء ويبدو أن جو قد أصبح عارياً ولو أنه كان متوارياً وراء جسدها الأبيض، كان باستطاعتي مشاهدة وجهه، إلا أن نوعية الفيلم كانت رديئة للغاية فلم أتأكد أنه جو بالفعل، أما وجهها فلم يظهر طوال اللقطة.

بدأت أشعر بالمزيد من الشكوك أكثر من شعوري بالصدمة، وظهرت سلسلة من اللقطات القصيرة ثديان عاريان بيضاوان ردفان عاريان سوداوان، وهيكلان عاريان على السرير، بدأ الشعر الأشقر للمرأة يظهر أشقر أكثر من اللازم ولامعاً للغاية: شبيهاً بالباروكة.

ظهرت مداعبات بذيئة للغاية، هنا تكمن في الحقيقة التي مفادها أن رجلاً وامرأة قد سمحا لنفسيهما بأن يضطجعا وأن يتم تصويرهما، وظهر معصم اليد اليمنى الذي لا يوجد بها الندبة الغائرة، ورغم أن تلك اليد قامت بحركة من حركات العزف على الفلوت إلا أنني تأكدت أنها ليست يد ليلى.

ثم اللقطات أكثر فسقاً حيث تركزت على الفتاة النائمة على السرير، لم تظهر اللقطة وجهها، كانت اللقطة تعبر عنها وهي في انتظار استقبال الزنجي الذي كان ظهره الأسود المشوش قريباً من الكاميرا.

فجأة تغيرت نوعية الفيلم، فقد أخذت اللقطات في اهتزاز شديد بواسطة كاميرا أخرى في ظروف وملابسات مختلفة، شخصان في مطعم مزدحم بالزبائن، وفي موجة من الغضب الشديد أدركت هوية هذين

الشخصين: إنها آليسون وأنا معها في ليلتنا الأولى في بيروس، ثم ظهرت مساحة بيضاء من الفيلم على الشاشة ثم ظهرت لقطة أخرى لنا لم أستطع تذكرها، كانت آليسون تسير في شارع قروي منحدر وأنا خلفها، كان الإرهاق بادياً على كل منا، ورغم أن اللقطة كانت بعيدة بحيث يتعذر مشاهدة التعبيرات على الوجه للمرء يمكن أن يعرف من الطريقة التي نسير بها أننا نعيش وتذكرت تلك اللقطة: إنها أثناء عودتنا إلى أراشوفا، من المؤكد أن المصور السينمائي كان مختبئاً في كوخ وربما كان يصور من وراء نافذة، وتذكرت اللقطة السينمائية المتتالية لفميل في وقت الحرب، وأدركت المغزى وهو أننا كنا تحت المراقبة، تذكرت بحيرة الماء والشمس الساقطة على ظهري العاري آليسون أسفلي، كان أمراً رهيباً أن يتم تصوير هذه اللقطات بصفة خاصة بحيث تصبح معروفة للجميع.

وظهر جزء شاغر من الفيلم مرة أخرى، ثم جاء عنوان آخر.

عملية المضاجعة

ترامى صوت من آلة العرض يشبه الطرق الخفيف، وظهر اللون الأبيض على الشاشة، ولكن شخصاً ما جرى من خلال الباب إلى داخل الغرفة وأطفأ آلة العرض السينمائي، ظللت منتظراً حدوث فقدان الأعصاب، وتداعى جرأتهم فيما يتعلق بهذه المناظر الفاضحة، وظلت الغرفة غارقة في الظلام، ثم قفز الضوء من خلف الستائر.

إذ بدأ شخص ما يجذب الستائر من الخلف عن طريق الحبال مثلما يفعلون في المسرحيات وعندما فتحت الستائر فتحة تصل إلى ثلثي مساحتها توقفت، ظهرت أريكة منخفضة، مغطاة ببطانية ضخمة ذات لون ذهبي مائل للسمرة، وكانت ليلى عارية فوق الأريكة، لم أستطع مشاهدة الندبة الغائرة في معصمها ولكنني كنت أدرك أنها هي بالفعل

فبشرتها لا تميل إلى السمرة الشديدة بتأثير الشمس وتستند على تل من الوسائد عميق، المستندة على شيء لامع مفرط في البهرجة وعلى قطعة خشبية عليها نقوش محفورة، أنها تلتفت في اتجاهي في تقليد متعمد للوحة «المايا العارية» التي رسمها جوياً لم تكن تتباهى بنفسها وإنما تعلن عن نفسها من حيث هي حقيقة مقدسة خالدة، الإبط العاري مثير جنسياً، وعينان مثبتتان في هدوء المتعجرف.

كان القوام الرقيق مستلقياً في بحيرة من الضوء الأخضر بدون أن تصدر عنها أية حركة، وهي تحملق فيَّ، اعتقدت أن هذا المنظر هو المشهد الختامي الأخير، هذه اللوحة الفنية المليئة بالحياة، هذا اللغز العاري، هذا الكيان الذي لا يمكن الوصول إليه أبدا.

ثم تحركت.

التفت رأسها في بروفيل جانبي وامتد ذراعها الأيمن في رشاقة وإغراء بنفس الحركة الكلاسيكية للوحة مدام ركايية نحو الشخص الذي أضاء الضوء وفتح الستائر، وظهر هيكل جديد، أنه جو كان يرتدي عباءة شديدة البياض حملق في للحظات قصيرة إذ كان مهيباً للغاية، يمتلك الغرفة والمسرح والمرأة، نظر إليها وأمسك بيدها الممتدة.

وفجأة فهمت من هما ومن أكون أنا، وكيف أن هذه اللحظة قد أعد لها، ؟ حاولت في يأس مرير التخلص من الكمامة وقمت بحك رأسي في ذراعي، ولكنها كانت محكمة للغاية.

وقام الزنجي المغربي بالركوع إلى جوارها وقبل كتفها، فامتد ذراع أبيض نحيل وطوق رأسه الأسود في إحكام، ومرت لحظات ثم انزلقت للوراء، واثقاً باستسلامها، ثم نهض في هدوء وقام بغلق ثوبه الفضفاض من عند الكتف.

فأغلقت عيني.

لا شيء حقيق فكل شيء مسموح به، كونشيس دوره لم ينته بعد وفتحت عيني مرة أخرى، لم يكن هناك انحراف أو تشويه للحقائق لم تكن هناك محاولة للإيحاء بأنني أرقب أي شيء آخر بخلاف شخصين ويمارسان الحب، أغلقت عيني مرة أخرى رافضاً أن أرقبها، ولكنني اضطررت أن أرفع رأسي لكي أرقب، بدأ التنميل يسري في ذراعي مشكلاً لي عذاباً إضافياً، وراح الهيكلان المستلقيان على السرير يتعانقان وهما غافلان عني وعن كل شيء آخر باستثناء الدور الذي يقومان به.

وظل الجسدان مستلقيين في هدوء مطلق على محراب السرير وكان رأسه متوارياً وراء رأسها وتمكنت من مشاهدة يديها تربتان على كتفيه وحاولت تحرير يدي المتفجرتين بالألم من الإطار كان مربوطاً في الحائط بمسامير من نوع خاص وبعد فترة لا تطاق نهض من سريره وركع وقبل كتفها على نحو يكاد يكون بطريقة رسمية، ثم ضم عباءته وغادر المسرح في هدوء متجهاً إلى الظلال، وظلت مستلقية منسحقة بين الوسائد ثم رفعت نفسها متكئة على مرفقها الأيسر واضطجعت في نفس الوضع الذي كانت عليه في البداية، وتركزت حملقتها عليَّ دون أن يبدو عليها الأسف، ثم ضم الستائر في بطء وتركت في المكان الذي ابتدأت منه بين طيات الظلام وحلت على لحظة من التعب تساءلت خلالها عما إذا كان كل ذلك قد حدث أمامي، أهي هلوسة دفعت إليها؟ ولكن الآلام الرهيبة في ذراعي أكدت لي أن كل شيء حدث.

ثم ظهر هيكل في فتحة الباب، إنه كونشيس، جاء إلى المكان الذي أتدلى فيه ووقف أمامي، فأغلقت عيني، كان الألم في ذراعي يغطي على كل شيء آخر أصدرت صوتاً له طابع الزمجرة من خلال الكمامة، لم أعرف المعاني الحقيقية التي تريد أن تعينها الزمجرة، ما إذا كنت أعاني من الألم الشديد أو أني إذا ما شاهدته في أي وقت مرة أخرى فأنني سأمزقه إرباً، إرباً، قال: جئت لأخبرك أنك أصبحت مختاراً.

فهززت رأسي في عنف من جانب لآخر قائلاً: ليس لك حرية الاختيار في ذلك فظللت أهز رأسي من جانب لآخر في مزيد من الإعياء.

فحملق في وجهي بتلك العينين التي بدت أعجز من فترة حياة الإنسان وظهر بصيص من التعاطف على وجهه كأنه مارس ضغوطاً أكثر من اللازم على ذراع رفيعة للغاية، قال: تعلم كيف تبتسم يا نيقولاس.. تعلم كيف تبتسم ثم انصرف.

وما أن انصرف حتى دخل آنطون ومعه آدم والآخرون المرتدون لقمصان سوداء.. وقاموا بفك الكلابشات وإنزال ذراعي لأسفل، وكان اثنان من مرتدي القمصان السوداء يحملون عاموداً طويلاً أسود اللون ثم قاموا بفكه ونشره، فشاهدت نقالة إرغموني أن أتمد عليها ثم تم ربط معصمي بالكلابشات في جانبي النقالة، لم يكن بمقدوري مقاومتهم لذلك استلقيت في استسلام تام وقد أغلقت عيني لكي أتجنب مشاهدتهم، وشممت رائحة الأثير وشعرت بوخز إبرة خفيف للغاية وتمنيت أن يهبط عليَّ النسيان بسرعة.

(٥٨)

وظللت مستلقياً وأنا مازلت مخدراً لا أستطيع أن أبذل المجهود الذي يعينني على معرفة المكان الذي ينبعث منه الضوء والذي يمكنني من مشاهدة الحائط، أو معرفة المكان الذي يجيئ منه صوت الأجراس، وصرير الريح لقد تعودت أن أكون سجيناً، قمت بتحريك معصمي، لقد كان غير مكبلين في الاغلال استدرت ورحت أنظر.

كان بمقدوري مشاهدة شقوق في السقف يتسرب منها الضوء، وكان هناك فتحة للباب مكسورة، وفي الخارج راح ضوء الشمس يخطف بالأبصار، كنت مستلقياً على مرتبة هواء، نظرت خلفي، كانت هناك

حقيبتي وفوقها مجموعة من الأشياء: ترمس وعلبة أوراق بنية وسجائر وكبريت وصندوق أسود يشبه علبة مجوهرات.

جلست معتدلاً، وهززت رأسي، وألقيت بالبطانية على جانب، كنت فوق قمة تل، وأمامي كان يوجد منحدر من الأطلال والخرائب الشاسعة الممتدة لأسفل، مئات من المنازل الحجرية، وفي أماكن متفرقة، توجد مساكن أقل تقوضاً عبارة عن أجزاء متبقية من الدور الثاني لها نوافذ تعطي إطاراً للسماء، ولكن الشيء البالغ الغرابة هو أن كل مدينة الأموات هذه تبدو وكأنها طافية في الهواء على ارتفاع ألف قدم من مستوى سطح البحر، تسلقت فوق قمة حائط ونظرت حولي، في الاتجاه الذي تستلقي فيه شمس ما بعد الظهيرة شاهدت أراض جبلية ممتدة لمسافات بعيدة وبدا لي أنني فوق قمة رأس بحري عملاق ممتد داخل البحر وأنني آخر رجل على وجه الكرة الأرضية ما بين البحر والسماء ولم أعرف للحظات ما إذا كانت ساعات زمنية قد مرت أو حضارات بأكملها قد انصرمت.

هبت ريح متوحشة فعدت إلى داخل الحجرة وحملت الحقيبة وخرت بها إلى ضوء الشمس ثم ألقيت نظرة على المظروف، أنه يحتوي على جواز سفري وعشرة جنيهات تقريباً بالعملة اليونانية وعلى قصاصة مكتوبة على الآلة الكاتبة، بها ثلاث عبارات» يوجد مركب سيتجه إلى فراكسوس في تمام الساعة ١١,٣٠ في هذه الليلة، وأنت الآن في المدينة القديمة والطريق الذي يهبط من هذا المكان يسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي»، لا تاريخ ولا توقيع، ثم فتحت الترمس: أنه مليء بالقهوة، صببت لنفسي ملو الغطاء وأفرغت القهوة في جوفي، كانت اللفائف تحتوي على ساندوتشات وشرعت في تناول الطعام وأنا أشعر بالغبطة البالغة من مذاق القهوة والخبز ولحوم الضأن وعصير الليمون.

ثم أحسست بأنني تمكنت من البقاء على قيد الحياة وأنني قادر على

استعادة حيويتي وربما ساعد المنظر الطبيعي ذو الهواء الطلق على هذا الشعور.. وفوق كل ذلك كانت هناك الغرابة الشديد للتجربة، تناولت هذه التجربة على أنها سر هائل أو رحلة إلى المريخ وعلى أنها جائزة لم يظفر بها أي شخص آخر، بدا لي كأنني استيقظت على مشاهدة سلوكي تحت ضوء أفضل، وأن المحاكمة وإزالة التحذير هي مجرد خيالات شريرة أرسلت لي لاختبار حالتي السوية «فهم» الأشخاص الذين تعرضوا للإذلال والتحقير في نهاية الأمر ـ وأعتقدت أن هذا العرض المذهل ربما كان القصد منه أن يكون إذلالاً متبادلاً، أدركت الآن أنه من الانتقام الذي يقدم لي في مقابل تجسسهم عليَّ وعلى آليسون.

كنت أشعر إنني منتصر في شيء من الغموض، وأنني أرفل في حرية من نوع جديد، حرية متطهرة على نحو ما.

وتعاظم هذا الإحساس وأصبح من البهجة أن ألمس الصخر الدافئ الذي أجلس عليه وأن أسمع الرياح تهب وأن أشم الهواء اليوناني مرة أخرى وأن أكون بمفردي فوق هذه الهضاب الغريبة وهي مكان كنت أنوي زيارته يوماً ما، أهم شيء أنني تمكنت من البقاء على قيد الحياة وتخطيت المتاعب سالماً.

ثم أدركت أنه كان هناك شيء ما اصطناعي في هذه البهجة، وفي التغاضي عن التحقير وعن استغلال موت آليسون ولذلك فأنا افترض أن كل ذلك تم تحت تأثير التنويم المغناطيسي الذي قام به كونشيس وربما كان هذا جانباً من وسائل الراحة شأنه في ذلك شأن القهوة والساندوتشات.

قمت بفتح الصندوق الأسود، كان بداخله مسدس جديد، فالتقطته وفتحته، ونظرت إلى الرصاصات الست، كانت الدعوة واضحة، استخرجت رصاصة، صوبت المسدس في اتجاه البحر نحو الشمال

وجذبت الزند، فصدر هائل جعل أذني تطن كما أن الطيور الضخمة التي تشق طريقها عبر السماء الزرقاء فوق رأسي ارتفعت لأعلى في وحشية.

إنها النكتة الأخيرة لكونشيس.

تسلقت إلى قمة التل، وعلى مسافة غير بعيدة في اتجاه الشمال كان يوجد جزء من جدار محطم بين برجين، إنه البقية الباقية، من حصن عثمان، أنه جبل بارنون الذي يبدو واضحاً للعيان من بوراني في الأيام الصافية، نظرت لأسفل، كانت الهضبة تنحدر انحداراً شديداً لمسافة ٧٠٠ قدم نحو شريط ضيق من الأرض المليئة بالحصباء، وهو شريط يلتقي عنده البحر الغاضب بالأرض وقفت على الجزء النائي من الحصن القديم وأطلقت الرصاصات الخمس المتبقية في الهواء في اتجاه البحر، لم أصوب النيران إلى أي هدف، ثم طوحت به في السماء شاهدته وهو يسقط بين الصخور عند حافة البحر.

شققت طريقي هابطاً الدروب التي تتخلل منازل مطلية باللون الأبيض، ووقفت امرأة قروية في مدخل منزلها وكان معها سلطانية مليئة بقشور الخضروات حيث كانت تفرغ محتوياتها لدواجنها ومن المؤكد أن منظري كان يبدو غريباً قلت لها: «مساء الخير» فسألت المرأة العجوز: أسئلة الفلاحة اليونانية: من أنت وإلى أين أنت ذاهب؟

أخبرتها أنني إنجليزي وأنني أحد أفراد الشركة التي كانت تقوم بتصوير الفيلم.

ـ أي فيلم هنالك بالمنطقة العلوية؟

تجاهلت أسئلتها العديدة المنطوية على الشكوك ثم تابعت مسيرتي إلى شارع صغير تتزاحم على طوله منازل مغلقة أو شاغرة ثم شاهدت لافتة على أحد هذه المنازل فدخلت، فخرج رجل عجوز من ركن معتم أنه صاحب الحانة ورحت اتجاذب أطراف الحديث مع الرجل فعرفت

منه كل ما يمكن معرفته، عرفت أنني أضعت يوماً كاملاً، فالمحاكمة لم تتم في ذلك الصباح وإنما تمت بالأمس، إذ كان اليوم هو يوم الإثنين وليس يوم الأحد، لقد تم تحذيري لمدة يوم كامل، ورحت أسبر أغوار التجويفات العميقة في داخل ذهني، لم تكن هناك شركة أفلام ولا أي مجموعة كبيرة من السياح ولا أي أجانب منذ عشرة أيام مضت، وأسفاه.. لم يحضر أي شخص لمشاهدة مونيمفاسيا، أكانت هنالك خزانات كبيرة بها رسومات ونقوش على حوائطها في المنطقة العلوية هنالك؟ لا شيء من هذا القبيل.

انطلقت فوق الجسر المرتفع بين الرياح العاصفة نحو القرية الصغيرة التي توجد في المكان الذي ترسو عنده السفينة البخارية، وتناولت وجبة طعام رديئة في حانة وحلقت ذقني في المطبخ ـ نعم فقد كنت سائحاً ـ وأمطرت الطباخ بوابل من الأسئلة، ولكنه لم يكن يعرف معلومات تزيد عما يعرفه الرجل الآخر.

وظلت السفينة الصغيرة ترتفع وتنخفض بتأثير الأمواج إلى أن وصلت في منتصف الليل، وتقدمت أنا واثنان من المسافرين للدخول إلى السفينة وجلست لمدة ساعتين في الصالون المهجور أقاوم دوار البحر، وفي النهاية خفت حدة الشعور بالغثيان وأفقت واستردت وعيي تماماً مثل بائع الخضار.

وعندما اقتربنا من الجزيرة خرجت إلى ظهر السفينة الصغيرة، كانت الحيتان السوداء تلوح خارجة من طيات العاصفة، وكان باستطاعتي مشاهدة رأي بوراني ولو أن المنزل كان غير مرئي وبالطبع لم تكن هناك أضواء، رحت أسأل نفسي في تعجب ترى كم من الأموال تكلفت هذه التمثيلية التي أنفق عليها كونشيس لقد تكلفت خمسين ضعف ما يكسبه واحد من فقراء هذا البلد طوال عام من العمل الشاق المرير فإلى جواري كانت توجد عائلة الزوج أحنى ظهره ورأسه على زكيبة أما

الولدان الصغيران فقد حشرا بينه وبين زوجته سعياً وراء الدفء وفوقهم بطانية خفيفة ملقاة، كانت إحدى يدي الزوجة ملقاة على كف الطفل الموجود في الجهة الأمامية، رحت اتحسس جيبي، لا يزال به ثمانية جنيهات انحنيت ووضعت كتلة الأوراق المالية في إحدى ثنيات البطانية خلف رأس المرأة، ثم غادرت المكان هارباً كما لو كانت قد فعلت شيئاً مثيراً للخجل.

في تمام الساعة الثالثة إلا الربع كنت أصعد على السلالم في صمت في الجناح المخصص للمدرسين، كانت غرفتي مرتبة وكل شيء بها في مكانه، لم يتغير أي شيء فيما عدا أن أوراق الامتحانات ليست هناك، وفي مكانها خطابات عديدة.

هناك خطاب من لندن من إنسانة ادَّعت إنها ناظرة مدرسة، وكان مكتوباً على ورقة من الورق المخصص لكتابة الرسائل وهي ورقة موثقة من المدرسة.

الآنسة جولي هولمز.

الآنسة هولمز كانت معنا لمدة عام واحد حيث قامت بتدريس الكلاسيكيات علاوة على تدريس قدر محدود من اللغة الإنجليزية في الكتاب المقدس في بعض الفصول المدرسية المخصصة للتلاميذ الصغار، وكان من المتوقع أن تصبح مدرسة ممتازة، فهي جديرة بأن يعتمد عليها وعلى وعي كبير كما كانت محبوبة من تلاميذها.

وأود أن أضيف أنها كانت ناجحة للغاية في إعداد وإخراج المسرحية التي نقدمها عادة في كل عام كما أنها قامت بدور رئيسي في جمعيتنا المدرسية ولذلك أقدم خطاب التوصية هذا الخاص بالآنسة هولمز متمنية لها كل توفيق.

أما الخطاب الأخير فكان مرسلاً من آن تيلور: وفي داخله بطاقة بريدية وصور فوتوغرافية.

قد عثرنا على هذه الأشياء.. وقد اعتقدنا أنك ربما تحب الحصول عليها ولقد أرسلت «النيجاتيف» إلى المدام كيللي نحن نشعر باللوم بطرق مختلفة، والشيء الوحيد الذي لا أعتقد أن آليسون كانت تريد هو أن نحزن حزناً شديداً على وفاتها طالما أن ذلك لن ينجم عنه أي فائدة لا وكان عليّ أن أقوم بحزم كل حاجياتها ويمكنك أن تتخيل هذا الموقف الصعب بدا لي أن حزم أمتعتها أمر لا ضرورة له وقد تسبب هذا انخراطي في البكاء مرة أخرى حسناً أعتقد أنه علينا أن نتغلب على مشاعر الحزن العميق، ولسوف أعود إلى الوطن في الأسبوع القادم ولسوف أقوم بزيارة مدام كيللي في أقرب وقت ممكن.

المخلصة

آن تيلور

ثماني لقطات فوتوغرافية رديئة، خمس لقطات منها كانت عني وثلاثة لقطات عن آليسون.

جلست إلى مكتبي وحملقت في ذلك وجهها وفي خصلة الشعر التي تطايرت عبر جانب الجبعة تصاعدت مشاعر الحزن ولم أستطع الخلود إلى النوم، قمت بوضع الخطابات والصور الفوتوغرافية في أحد الأدراج وخرجت إلى الشاطئ، وعلى مسافة بعيدة في جهة الشمال وعبر المياه كانت هناك نيران مشتعلة بين الشجيرات شعرت أنني قريباً مما قاله كونشيس: «لا شيء سوى المنعطفات الخاطئة التي لا حصر لها».

ورفضت معظم الكلام غير المفهوم الفرويدي الذي ورد في المحاكمة، ولكنني حاولت أن أحول الحياة إلى خيال وأن أزيح الحقائق

بعيداً وكنت دائماً ما أتصرف كما لو أن شخصاً ثالثاً يرقبني ويضغى إلى ويعطني درجات على السلوك كنت دائماً غير قادر على التصرف في حرية، لم يكن ذلك هو دفاعي وإنما كان هو طغياني.. لقد شاهدته ميتاً في وقت متأخر للغاية.

جلست عند الشاطئ وانتظرت بزوغ الفجر على البحر الرمادي وحيداً وبمفردي وعلى نحو لا يطاق.

(٥٩)

ألم أذهب إلى الحصة الأولى وادخرت عودتي إلى الحياة المدرسية مرة أخرى لحين حلول موعد الإفطار، وعندما ظهرت حدث صمت مطبق فجائي مثل ذلك الصمت الذي يظهر عندما تلقى حجراً في بركة مليئة بنقيق الضفادع، سكون شديد فجائي وبعده الاستئناف التدريجي للضوضاء كان بعض التلاميذ يبتسمون وراح المدرسون يحملقون في وجهي كأنني ارتكبت الجريمة القصوى، استطعت مشاهدة ديميترياديس عند الغرفة، فاتجهت وبسرعة نحوه قبل أن يتصرف أي تصرف نهض قليلاً ثم أدرك في وضوح الأمور التي يمكن أن تحدث، ثم جلس فجأة خائفاً ووقفت على مسافة خطوة واحدة منه، وصحت، انهض، عليك اللعنة.

بذل محاولة ضعيفة لكي يبتسم، وهز كتفيه وهو ينظر إلى التلميذ الموجود إلى جواره، فكررت مطلبي بصوت مرتفع وباللغة اليونانية أضفت كلمات باللغة اليونانية تتعلق بالسخرية والاستهزاء»، انهض يا سافل يا تربية والمواخير.

فساد الصمت المطبق مرة أخرى، وأحمر وجه ديميرياديس وراح يحملق لأسفل وكان أمامه طبق به خبز لين وكوب لبن ومنثور عليه عسل النحول وهي وجبة دائماً ما يتناولها كطعام للإفطار، وضربته باللبن

في وجهة فانساب على قميصه، فقفز واقفاً وراح ينفر بخفة على ملابسه مستخدماً يديه، وعندما نظر لأعلى في غضب انهلت عليه بالضرب ضربته على عينه اليمنى بعض التلاميذ مطالبين بالمحافظة على النظام واندفع مدرس الألعاب الرياضية ووقف ورائي وأمسك بذراعي ولكنني صحت في وجهه قائلاً له: إن الأمور تسير على ما يرام وأن الموقف انتهى عند ذلك الحد، ووقف ديميريادیس وقد وضع يديه على عينيه، ثم استدار في اتجاهي وراح يركل وينشب أظافره كامرأة عجوز، فقام مدرس الألعاب الرياضية الذي يزدريه بإمساك ذراعيه في قوة.

استدرت خارجاً.. وبدأ ديميريادیس يصيح بلعنات لم أفهم معناها، وكان هناك خادم واقفاً عند مدخل الباب فطلبت منه أنه يحضر القهوة إلى غرفتي ثم جلست منتظراً.

وبمجرد أن بدأت المرحلة الثانية تم استدعائي للذهاب إلى غرفة الناظر، وإلى جوار الرجل العجوز كان يوجد وكيل المدرسة وكذلك المشرف الأول ومدرس الألعاب الرياضية وافترضت أن الأخير قد تواجد بهدف مواجهة الموقف في حالة لجوئي إلى العنف مرة أخرى، وكان المشرف الأول والذي يسمى أندروتوس يتكلم الفرنسية بطلاقة وكان من الواضح أنه سيقوم بدور المترجم في هذه المحكمة العرفية.

وبمجرد أن جلست تم تسليمي خطاباً وارداً من مجلس إدارة المدرسة بأثينا كان تاريخ تحريره يفيد بأنه كتب منذ يومين، إن مجلس إدارة أولياء الأمور لمدرسة لورد بيرون قد نظر بعين الاعتبار في التقرير الذي قدمه ناظر المدرسة وقرر بكل أسف إلغاء التعاقد معكم وذلك وفقاً للبند رقم ٧ الوارد في ذلك التعاقد: سلوك غير مرضي كمدرس ووفقاً للفقرة المذكورة سيتم تسديد راتبك حتى نهاية شهر سبتمبر كما سيتم دفع أجرة تكاليف السفر الخاصة برحلة عودتك إلى وطنك.

لم يكن هناك مجال للمحاولة لإلغاء هذا القرار، لم تكن هناك سوى

العقوبة، نظرت نحو الوجوه الأربعة التي لم يظهر عليها سوى الارتباك فقلت: لم أعرف أن ناظر المدرسة كرس نفسه لخدمة كونشيس وأصبح ممالئاً له.

فظهرت الحيرة على وجه أندروتسوس، «من الذي سيدفع له النقود؟» وقام بترجمة ما قمت بتكراره في غضب، ولكن ناظر المدرسة بدت عليه الحيرة أنه رجلاً يتصف بالوقار الشديد وهو رمز لناظر مدرسة بل أقرب لرئيس كلية أمريكية منه إلى ناظر مدرسة لا يمكنه أن يتستر على عملية طرد من المدرسة بطريقة ظالمة، لقد استحق ديميترياديس أن أضربه على عينه بحيث تتحول إلى كتلة سوداء حتى قبل أن أعرف بقرار فصلي من المدرسة، المسئول عن هذه الكارثة هو ديميترياديس وكونشيس وشخص ثالث آخر له نفوذ في مجلس الإدارة.

جرت مناقشة سريعة بين ناظر المدرسة ووكيل المدرسة، وسمعت اسم كونشيس يتردد مرتين أثناء المناقشة ولكني لم أستطع تتبع ما يقال، وطلب من أندروتسوس أن يقوم بالترجمة فقال: ناظر المدرسة لا يفهم تعليقك وملاحظاتك.

ولويت عضلات وجهي وأنا أنظر إلى العجوز كنت شبه مقتنع بأنه بالفعل يفهم ملاحظاتي.

وأصدر وكيل المدرسة إشارة فرفع أندروتسوس قصاصة من الورق وراح يقرأ ما جاء بها: «الشكاوى التالية قد رفعت ضدك: أولاً: لقد فشلت في الدخول في حياة المدرسة حيث كنت تتغيب في معظم إجازات نهاية الأسبوع خلال المرحلة الدراسية، وثانياً: أنك قمت مرتين بتقديم الرشوة للطلبة المسئولين عن حفظ النظام لكي يحلوا محلك في فترات الإشراف الخاصة بك وثالثا: أنك لم تقم بتصحيح أوراق امتحانات الطلبة وهو من الواجبات المدرسية البالغة الأهمية، ورابعاً: أنت، كنت قد حصلت على ما فيه الكفاية من هذه المسرحية الهزلية،

تكلم ناظر المدرسة وقام أندروتسوس بالترجمة ويقول أيضاً ناظر المدرسة: إن هجومك على زميل لك في أثناء طعام الإفطار أحدث ضرراً بالغاً بالاحترام الذي يكنه دائماً لأراضي بيرون وشكسبير.

وانفجرت ضاحكاً، ثم مددت إصبعي في تهديد في وجه أندروتسوس، فاستعد مدرس الألعاب الرياضية للهجوم عليَّ، فقلت: أخبره أنني سأذهب إلى أثينا، إلى السفارة البريطانية ووزارة التعليم إلى الصحف ولسوف أثير ضجة كبرى.

ولم أكمل عبارتي، ونظرت إليهم في احتقار شديد وانطلقت خارجاً، من الغرفة.

ولم يتم السماح لي بالخروج من المدرسة ومعي حاجياتي إذ لم تنقض خمس دقائق على رجوعي إلى غرفتي طرق على باب حجرتي، فابتسمت في تجهم وفتحت الباب في عنف، وكان يقف عند الباب وكيل المدرسة وهو آخر عضو في المحكمة كنت أتوقع مجيئه، أنه مافروميخاليس، وهو يدير المدرسة من الناحية الإدارية أنه رئيس مجلس التأديب وهو إنسان ضامر، متوتر الأعصاب، أصلع الرأس وفي أواخر الأربعينيات من عمره ومنسحب إلى داخل نفسه حتى مع باقي اليونانيين الآخرين، ولم يربطني سوى علاقات ضئيلة إنه يعشق بلاده في شيء من التعصب، وكان يصدر جريدة سرية مشهورة في أثينا الاحتلال رغم أنه دائماً ما ينزل عند إرادة ناظر المدرسة أمام الناس فإن حيويته هي التي تعطي الدعاية للمدرسة.

راح يرقبني عن كثب عند فتحة الباب، دهشت من وجود شيء ما في عينيه مما جعله مشاعر الغضب في داخلي تتراجع قليلاً ليحل محلها الشعور بالدهشة، وحاول أن يوحي إليَّ أن أتحدث معك يا مستر أصبت بدهشة أخرى فهو لم يسبق أن تحدث معي في أي شيء بأية لغة سوى اللغة اليونانية، ولذلك كنت أفترض دائماً أنه لا يعرف أية لغة أخرى

بخلاف اليونانية، سمحت له بالدخول نحو الحقائب ثم دعاني للجلوس خلف المكتب، ثم سحب كرسياً وجلس بجوار النافذة وطوى ذراعية: عينان حادتان وجعل الصمت يتحدث نيابة عنه، سرعان ما أدركت الموقف فأنا من وجهة نظر ناظر المدرسة مدرس سيئ ومن وجهة نظر هذا الرجل فأنا شيء ما آخر بالإضافة إلى أنني مدرس سيئ قلت في برود: ماذا في الأمر، إنني آسف لهذه الظروف.

عزيزي السيد مافروميخالس، إذا تصورت..

فرفع يديه في حدة ولكن في شيء من التهدئة وقال: أنا هنا كزميل لك، والموضوع الذي أريد أن أتحدث عنه جد خطير.

كانت لغته الفرنسية ثقيلة للغاية وبعيدة عن الممارسة العملية، قلت: زميل.. أم مبعوث لأداء مهمة دقيقة؟.

راح يرقبني ثم وصل إلى لب الموضوع حيث أضاف قائلاً: إكراماً لمدرستنا فأنا لا أريد فضائح.

ولاحظت أنه يتحدث بضمير المتكلم المفرد، قلت: كان عليكم أن تفكروا في ذلك من قبل، وسادت فترة صمت أخرى، ثم قال: لدينا هنا في اليونان أغنية فلكلورية قديمة تقول: الذي يسرق من أجل الخبز بريء والذي يسرق من أجل الذهب مذنب، إذا كنت ترغب في تقديم استقالتك.. فإنني أؤكد أن المسيو المدير سيقبلها، وسوف يتم تجاهل الخطاب الآخر.

من تقصد بالمسيو المدير؟ فابتسم ابتسامة خفيفة للغاية لم يقل شيئاً وكنت أدرك أنه لن يقول أبداً أي شيء، شعرت كأنني الإنسان الذي يقوم بالاستجواب في شيء من الاستبداد نظر من النافذة إلى الخارج وقال كلاماً ليس له صلة بالموضوع: لدينا معمل علمي ممتاز.

وكنت أعرف تلك الحقيقة وكنت أعرف أن المعدات والآلات

الموجودة فيه قد قدمها فاعل خير عندما تم افتتاح المدرسة عقب الحرب قلت: أعرف ذلك جئت لكي تدعوني أن أقدم استقالتي، وهل قام زملائي السابقون بتقديم استقالاتهم؟

واقترب أكثر من الحقيقة، وقال لا أعرف ماذا حدث لك ولا أطلب أن تصفح عن ذلك، بل أن تعفو عن هذه المدرسة

ـ أنت تعتقد أنني مدرس ردئي؟

فقال: لسوف نقدم لك خطاب توصية جيد».

ـ هل أنا رديء إلى ذلك الحد؟

ـ ليس لدينا مكان هنا إلا لأفضل الناس.

نظرت إلى الحقائف فوق السرير كنت أريد الانطلاق بعيداً إلى أثينا أو أي مكان آخر إلى اللاهوية، كنت أدرك أنني لست مدرساً ممتازاً، ولكنني تعرضت لنقد مرير للغاية وتعريت أكثر من اللازم مما حال دون اعترافي بأنني مدرس غير ممتاز.

ـ أنت تطلب مني الكثير سألتزم بالهدوء في أثينا بشرط واحد هو أن يقابلني هناك.

ـ مستحيل.

وساد الصمت، وساءلت نفسي في تعجب: كيف أن إحساسه بالواجب نحو المدرسة إلى حد الهوس قد تواجد مع ولائه وطاعته تجاه كونشيس.

قلت: لماذا أنت؟

فابتسم ابتسامة بسيطة وقال:

قبل الحرب.

وأدركت أنه لم يكن يقوم بالتدريس في المدرسة ومن المؤكد أن

ذلك كان في بوراني، نظرت إلى المكتب ثم قلت: سأغادر المدرسة على الفور، اليوم.

ـ هذا أمر متفق عليه، ولكن هل تعدني بعدم إحداث المزيد من الفضائح؟

ـ سأحرص على عدم إثارة فضائح.

ودار حول المكتب لكي يصافحني بل وقام بهز كتفي مثلما كان يفعل كونشيس في بعض الأحيان كأنه يؤكد لي أنه حصل على وعد مني ثم انصراف في رشاقة وخفة.

وهكذا تم طردي من المدرسة.. وبمجرد أن انصرف من أمامي تصاعدت مشاعر الغضب في داخل كياني مرة أخرى، غضبت لأنني للمرة الثانية لم استخدم السوط، لم يهمني كثيراً أن أترك المدرسة ولم يهمني كثيراً أن يمتد تعاقدي لسنة أخرى متظاهراً بأن بوراني لم يكن لها وجود وبأنها مليئة بالأمور التي لا يقبلها العقل، ولكن المسألة تتعلق بمغادرة الجزيرة بأكملها بما فيها من بحر وأضواء للشمس ساطعة حملقت نحو حدائق الزيتون، كان الأمر أشبه ما يكون بفقدان فجائي لأحد أطراف الجسم لم تكن المسألة هي الوضاعة الناجمة عن أحداث فضيحة وإنما عدم الجدوى فهمها جرى من أحداث فقد حرمت من العيش في جزيرة فراكسوس.

وبعد برهة من الوقت أرغمت نفسي على استئناف وضع ملاسبي وحاجياتي في الحقائب وقام صراف المدرسة بإرسال كاتب ومعه شيك خاص بمرتباتي بالإضافة إلى عنوان شركة الطيران التي ينبغي لي الذهاب إليها في أثينا بخصوص رحلة عودتي إلى وطني، وعقب الظهر مباشرة خرجت من بوابة المدرسة للمرة الأخيرة.

ذهبت مباشرة إلى منزل باتاريسكو فظهرت امرأة فلاحة عند الباب

وقالت: إن الطبيب ذهب إلى روديس لمدة شهر ثم ذهبت إلى المنزل الذي يقع فوق التل، وكانت البوابة مغلقة بالقفل، عدت إلى الميناء القديم وإلى الحانة التي سبق أن تقابلت فيها مع باربا العجوز، وأرشدني جورجيو إلى غرفة في كوخ قريب، ثم أرسلت تلميذاً إلى المدرسة مع عربة صغيرة لنقل الحاجيات لكي يحضر لي حقائبي وبعدئذ تناولت قدراً من الخبز والزيتون.

وفي تمام الساعة الثانية وتحت وهج شمس ما بعد الظهر المتوحشة بدأت أجر خطاي بين سياج من الشجيرات وأشجار الكمثرى نحو سلسلة الجبال الرئيسية.. كنت ممسكاً بفانوس لا تطفئه الرياح وبعقلة حديدية ومنشار معدني فالبحث والتحري لا يعتبر فضيحة أخرى.

(٦٠)

وصلت إلى بوراني في نحو الثالثة والنصف، كان الجزء العلوي من البوابة، وكذلك الفجوة المجاورة، محاطاً بالأسلاك الشائكة بينما هناك لافتة جديدة تغطى على اللافتة المكتوب عليها (غرفة الانتظار)، مكتوب عليها باللغة اليونانية ممتلكات خاصة، ممنوع الدخول كان من السهل التسلق فوق الأسلاك ولكنني ما أن وصلت إلى الداخل حتى سمعت صوتاً مترامياً من موتسا من خلال الأشجار، فقمت بإخفاء المصباح والأدوات خلف شجيرة ثم تسللت إلى الخارج.

وسرت في حذر هابطاً المدق إلى أن تمكنت من مشادة الشاطئ كان هناك مركب راسياً عند الطرف البعيد.. هناك ستة أشخاص من غير أهالي الجزيرة ـ يرتدون مايوهات ذات ألوان زاهية، شاهدت اثنين من الرجال يلتقطان فتاة تصرخ ثم ألقيا بها في البحر مشيت ياردات قليلة داخل الأشجار لأتمكن من التعرف على شخصياتهم في أية لحظة، ولكن الفتاة بدت ضئيلة ويونانية الطابع.

كان هناك صوت خلفي، صياد حافي القدمين يرتدي بنطلوناً بالياً أنه صاحب الزورق فسألته عمن يكونوا هؤلاء الناس، أنه السيد سوترياديس وأسرته وهم يجيئون في كل صيف إلى هذه الجزيرة.

هل يجيء أناس كثيرون من أثينا إلى الخليج في أغسطس؟ فقال، عدد كبير للغاية، ثم أشار بيده إلى الشاطئ في خلال أسبوعين تجيء زوارق عدد من الناس يفوق طاقة الشاطئ لقد أصبحت بوراني حبلى بالمزيد من الناس: وأصبح لدى السبب الأخير الذي يدعوني لمغادرة الجزيرة.

كان المنزل مغلقاً مثلما شاهدته آخر مرة شققت طريقي حول الأخدود وأدهشتني الطريقة المخادعة التي تخفي الباب المسحور ثم رفعت الباب ونزلت هابطاً ومعي المصباح ومعي المعدات، وكان عليَّ أن أنشر سقاطة الباب المسحور لأول غرفة جانبيه، فانكسر تحت ضغط العتلة، فالتقطت المصباح وأوصدت الباب بالترباس ثم فتحت الباب ودخلت.

فوجدت نفسي في غرفة مستطيلة وشاهدت فتحتين قد تم سدهما بالقضبان الحديدية وكانت هناك خزانة شاغرة وحقيقة الأمر أن الغرفة كلها كانت خالية من أي شيء شخصي وعلى نحو مخيب للآمال، رحت أنشر القفل الآخر لأدخل الغرفة وكانت مؤثثة بطريقة مماثلة للغرفة السابقة بها صورة جدارية وفي دولاب عثرت على البوق الذي كان يستخدمه هيكل «أبوللو» في المناداة وعلى أفرول أبيض لرئيس الطباخين وعلى الزي الرسمي الكامل لضابط من الحرب العالية الأولى عليه شارات برتبة لواء.

توجهت إلى رف الكتب، وفي توتر جذبت كمية الكتب كلها فسقطت من إحداها نسخة قديمة من تمثيليات شعبية إنجليزية تشبه الأراجوز صادرة في عام ١٩١٤.

والذي به صور عديدة مرسومة بالطباشير الأحمر كومة مطوية صغيرة، اعتقدت في بادئ الأمر أنها مجموعة من الخطابات وكان من الواضح أنها تتضمن نوعاً من التعليمات بلا تواريخ.

١ ـ الطيار الإيطالي الذي مات غرقاً قررنا حذف هذا الحادث العرضي في الرواية.

٢ ـ النرويج: قررنا حذف الزيارات في هذه الحلقة من سلسلة الأحداث.

٣ ـ لو قام الشخص الذي تجرى عليه الابحاث باكتشاف المخبأ أرجو أن تتأكد من الإجراءات الجديدة إزاء هذا الاحتمال الطارئ بحلول إجازة نهاية الأسبوع التالية: وليلى تعتقد أن الشخص الذي تجرى عليه الأبحاث قد يقحم مثل هذا الموقف علينا.

٤ ـ هيروندل: تجنب التنويه عن أي شيء مع الشخص الذي تجرى عليه التجربة من الآن فصاعداً.

٥ ـ المرحلة النهائية: الانتهاء بحلول نهاية مايو من كل شيء باستثناء مركز النشاط.

٦ ـ حالة الشخص الذي تجرى عليه التجربة: يعتقد موريس أن الشخص الذي تجري عليه التجربة قد وصل الآن إلى المرحلة اللينة التي يمكن فيها البدء بالطرق على شخصيته، ولنتذكر أن أي تمثيل مع لشخص الذي نجري عليه التجربة أفضل من عدم التمثيل معه.

وكانت وراء كل ورقة من تلك الأوراق كتابة من الواضح أنها مسودات كتبتها ليلى، وهناك كلمات محذوفة وتشطيبات.

الحب هو المسلك الذي تسير عليه التجربة وهو الحد الأقصى للقدرة المبدعة.

والحب هو طبيعتك الإنسانية ورجولتك في حدائقي وبساتين فاكهتي.

والحب هو وجهك المكفهر ووجهك اللطيف ويداك اللطيفتان.

ـ الاختيار

اصفح عنه إلى أن يموت

عذبه إلى أن يعيش

قدر كاف من الأسرار الغامضة في وقت الظهيرة، الممرات التي لا يتردد عليها أحد والتي تخطف الأبصار الموجودة فوق البحر المطروق من جانب الكثير من المترددين، تمسك جيدا بالمتاهة وتحجب الرؤية ولا داعي لأن تتلوى تحت القمر.

هنا فوق الصخرة السرية الصاعدة.

وفي هذا الغضب الأبيض للضوء الباهر يكون الغموض كافيا في وقت الظهيرة.

أما الأوراق الثلاث الأخيرة فقد كتب عليها قصة خرافية رحت أقرأها، وكانت كافة «الأوامر» مطبوعة على الآلة الكاتبة وهو أمر مثير للشكوك، كما أن القصائد كتبت بنفس القلم الرصاص وكأنها كتبت خصيصاً من أجل غرض معين في جلسة واحدة، لم أصدق أن مثل هذه «الأوامر» يمكن أن تكون قد أرسلت، وفكرت مليا في الأمر فالقصائد والقصة الخرافية المتعلقة بنظرية المعرفة في الفسلفة من السهل فهمها حيث كانت لها تطبيقات واضحة، من الواضح أنهم لم يكونوا واثقين بأنني سأقتحم المخبأ، وربما وجدت مثل هذه العلامات مبعثرة في جميع أرجاء المكان لعلهم وضعوا في الاعتبار أنني سأعثر على نسبة ضئيلة من المفاتيح ومع ذلك فهي قد تكون مضللة مثل باقي المفاتيح الأخرى التي قدموها إل.

كنت أضيع وقتي هباء في بوراني فكل ما يبدو أنني أعثر عليه في بوراني من شأنه أن يزيد من حيرتي.

فمن خلال البحث المحموم رحت أؤلف قصة بوليسية ترتكز على أحداث الصيف ناظرا إلى الحياة باعتبارها قصة بوليسية من حيث هي شيء ما يمكن الاستدلال عليه واصطياده وإلقاء القبض عليه، وهو أمر لا يتسم بالواقعية ناهيك عن أنه لا يتسم بطابع الشعر، شأنه في ذلك شأن النظر إلى القصة البوليسية على أنها أهم أنواع الأدب بدلاً من النظر إلى القصة البوليسية من حيث حقيقة جوهرها باعتبارها أقل أنواع الأدب أهمية.

في موتسا ولدى مشاهدتي لمجموعة الناس لأول وهلة شعرت بصدمة الإثارة، ثم شعرت بصدمة من خيبة الأمل عندما أدركت أنهم مجرد سياح، وربما كان يمثل أشد حالات استيائي من كونشيس، إنه استياء لا ينصب على ما فعله وإنما لأنه توقف عن الإتيان بما كان يفعله.

قررت أن أقتحم المنزل وأن أقوم بنوع من الانتقام، بدت لي الفكرة حقيرة وغير كافية لأنني كنت أرغب في تأجيل انتقامي أدركت الكيفية التي يجب أن أعالج بها الموقف، لقد استطاعت المدرسة أن تفصلني من العمل ولكن لا شيء يمنعني من المجيء للجزيرة في الصيف القادم، وعندئذ سنرى من الذي يضحك أخيرا؟.

تركت المخبأ، ثم ذهبت إلى المنزل وسرت تحت بواكي الأعمدة.

لم تكن الكراسي متواجدة ولا حتى الجرس.

وفي حديقة الخضراوات كانت نباتات الخيار صفراء تلفظ أنفاسها الأخيرة.

كنت مليئاً بحزن شديد، حزن على الماضي والحاضر والمستقبل، أن أقول «إلى اللقاء» ولكنني على أمل أن يظهر شخص ما، ولم أعرف ماذا سأفعل لو ظهر شخص ما؟ لم أعرف ماذا سأفعل عندما أذهب إلى أثينا؟.

وإذا كنت أريد أن أعيش في إنجلترا فإنني لم أكن أعرف العمل الذي سأقوم به هناك، كنت أعرف فقط الأمور التي لا أريد أن أعملها، وكل ما استطعت التوصل إليه فيما يتعلق بمستقبلي الوظيفي أنني كنت مصمما ألا أصبح مدرسا مرة أخرى في أي نوع من أنواع التدريس، كنت على استعداد لأن أفرغ صفائح الزبالة ولا أعود للتدريس.

امتدت الصحراء الجدباء من الناحية العاطفية أمامي، وعدم مقدرة على الوقوع في الحب مرة أخرى مستقبلا وقد نجم ذلك عن الموت من الناحية العملية الواقعية لليلى وعن الموت الحقيقي لآليسون، كنت غير واقع تحت السكر العاطفي لليلى ولكن شعوري بخيبة الأمل الناجم عن فشلي في مجاراتها قد أصبح إلى حد ما شعورا بالإحباط إزاء شخصيتي ذاتها، تملكني إحساس بأنها سوف تفسد أية علاقة يمكن أن أكونها مع أية امرأة، بحيث تقف كالشبح وراء كل نقصان في الذوق، آليسون فقط كان بمقدورها أن تطرد روح ليلى الشريرة، وتذكرت تلك اللحظات من الشعور بالارتياح في مونيمفاسيا وفي السفينة العائدة إلى فراكسوس، وهي لحظات بدت فيها الأشياء العادية جميلة ومحببة للنفس.

كان باستطاعتي العثور على ذلك في آليسون فروحها كانت كامنة في سجيتها وفي تكهنها بالمستقبل وفي جوهرها البللوري الخالي من الخيانة وفي انتسابها لكافة الأمور التي لم تتعلق بها ليلى.

لقد عوقبت بتركي وحيدا في جزيرة مهجورة بدون أجنحة وثقيل الوزن كأن قطيعا غريبا من المخلوقات المجنحة أحاط بي ثم تركني منطلقا في غموض مثلما تمر الطيور المغردة في الهواء مخلفة وراءها الصمت الذي يعقب التغريد.

ولم يترام من الخليج سوى أصوات آدمية علاوة على صيحات خافتة.

كان الحاضر ينخر في الماضي ويصيبه بالتآكل ومالت الشمس من خلال أشجار الصنوبر فسرت للمرة الأخيرة في اتجاه التمثال.

كان تمثال بوسايدون يقف منحنيا تجاه بحره المقدس في جلال كامل بسبب سيطرته الكاملة على بلاد اليونان الخالدة التي لا يمكن سبر أغوارها، أكثر البلاد شجاعة وصفاء، بلاد الأسرار الغامضة في وقت الظهيرة، ربما كان هذا التمثال يقع في الجزء الأوسط من بوراني.

لم تكن السُّرَّة أو بوراني هي المنزل أو المخبأ أو كونشيس أو ليلى وإنما كان متمثلاً في هذا التمثال الصامت المسالم العاجز عن التدخل.

(٦١)

كان أول شيء قمت به لدى وصولي إلى فندق «بريطانيا العظمى» في أثينا هو الاتصال تليفونيا بالمطار، وتم توصيلي بالخط التليفوني المطلوب، ورد على الرجل سألني عن اسمي، ثم قال: انتظر دقيقة من فضلك.

ويبدو أنه يقصد دقيقة بالمعنى الحرفي، ولكنني سمعت أخيراً صوتا نسائيا فيه لكنه يونانية/ أمريكية، وبدا صوتها مشابها لصوت الفتاة التي كانت قائمة بالعمل عندما قابلت آليسون.

ـ مجرد صديق لها.

ـ هل تعيش هنا؟

ـ نعم.

وسادت لحظات من الصمت، على مدى ساعات راودني أمل ضئيل محموم، حملقت نحو السجادة الخضراء المنهكة، جاء السؤال: ألم تعرف ما حدث؟ لقد ماتت.

ـ ماتت؟

ومن المؤكد أن صوتي قد ظهرت به نبرات تدل على عدم الدهشة، جاء الصوت: منذ شهر مضي، وحدث ذلك في لندن، ولقد ظننت أن كل شخص يعرف ذلك، لقد تناولت كمية كبيرة من....

فوضعت سماعة التليفون، ثم استلقيت على السرير ورحت أحملق في السقف، ومر عليَّ وقت طويل قبل أن أكتشف أن لدى الرغبة في النزول لكي أبدأ في احتساء الخمور.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى «المعهد البريطاني» وقلت للرجل الذي كلف بالاهتمام بطلباتي إنني قدمت استقالتي «لأسباب شخصية» ولكنني بدأت أوحى له أنه ليس من حقه إرسال أناس إلى مثل هذه الأماكن المنعزلة، فقفز ذهنه فجأة إلى استنتاجات خاطئة فقلت: أنا لم أرتكب أخطاء تتعلق بالتلاميذ، لا شيء من هذا القبيل.

أيها الزميل العزيز، سامحك الله، لم أقصد ذلك.

ثم قدم لي سيجارة في شيء من الهلع.

تحدثنا بكلام مبهم عن العزلة وعن بحر إيجة والجحيم المطلق المتعلق بتعليم السفارة وإفهامها أن المجلس ليس مجرد مكتب استشاري ملحق بالسفارة، وفي نهاية الحديث سألته بطريقة عرضية عما إذا كان قد سمع عن شخص يدعى كونشيس، ولكنه لم يكن قد سمع عن ذلك الاسم قلت: إنه مجرد رجل قابلته في الجزيرة ويبدو أنه يرغب في أن تعطي الجزيرة للإنجليز.

ـ يبدو أن هذه الهواية الجديدة الوطنية، فالأهالي يرغبون في بذر الشقاق بيننا وبين الأمريكيين.

شكرا جزيلاً لك يا أورفي، أنا آسف لأنك قدمت استقالتك، ولكن لا تنزعج ولسوف ننظر بعين الاعتبار لكل ما قلته، وبينما أشق طريقي

في اتجاه الباب أدركت أنه شعر بالمزيد من الأسف من أجلي لأنه وجه لي الدعوة لكي أتناول معه طعام العشاء في تلك الليلة.

ولكنني ماإن عبرت ميدان كولوناكي الذي يطل عليه مبنى المعهد البريطاني حتى تعجبت من نفسي بسبب قبولي الدعوة، لقد كان الجو الإنجليزي الخانق في ذلك المكان غريبا عليَّ للغاية، اكتشفت أنني كنت أحاول التأقلم مع ذلك الجو.

لقد قالوا في المحكمة: «إنه يسعى إلى مواقف يعرف فيها أنه سوف يجبر على التمرد».. ولكنني إذا رفضت أن أكون ضحية فعلى أن أجد الشجاعة لرفض كل الماضي الخاص بي وكان على أن أكون مستعدا لتفريغ صفائح الزبالة بدلاً من التدريس، لقد كان الناس الموجودون في المعهد البريطاني غرباء عليَّ تماماً، أما اليونانيون المجهولو الأسماء لي والموجودون حولي في الشوارع فهم المواطنون المألوفون لي.

عندما تركت المعهد البريطاني ذهبت إلى وزارة الداخلية وتحت ادعاء أنني أقوم بإعداد كتاب عن الرحلات والأسفار ذهبت إلى القسم الذي يضم ملفات جرائم الحرب، وفي خلال ١٥ دقيقة حصلت على نسخة مكتوبة باللغة الإنجليزية للتقرير الحقيقي الذي كتبه آنطون فشعرت أنه متطابق تماماً، باستثناء بعض التفاصيل الدقيقة للغاية، مع ما قاله كونشيس.

سألت الموظف الذي ساعدني على الحصول على التقرير عما إذا كان كونشيس مازال حيا فراح يتصفح الملف الذي استخرج منه التقرير، لم يكن بالملف أي شيء باستثناء العنوان بفراكسوس، لم يكن يعرف، وهو لم يسبق له أن سمع عن كونشيس لأنه موظف جديد في القسم.

ثم قمت بزيارة ثالثة، وفي هذه المرة ذهبت إلى السفارة الفرنسية، وتقابلت مع الملحق الثقافي، وأوضحت له أنني في اشتياق للغاية لأن

أقرأ كتاب ذلك العالم الفرنسي الشهير في علم النفس والذي تحدث فيه عن الفن باعتباره وهما.. ويبدو أن هذه الفكرة أثارت اهتمامه ولكنني وقعت في المتاعب بمجرد أن ذكرت اسم جامعة السوربون، إذ أبدى أسفه وأوضح أنه لا توجد كلية للطب في جامعة السوربون.

ومع ذلك قادني إلى رف به مراجع علمية في مكتبة السفارة، وسرعان ما تأكدت أن كونشيس لم يكن تحت أي اعتبار ملتحقا بجامعة السوربون (أو في أي جامعة فرنسية أخرى) بل ولم يكن اسمه مسجلاً كطبيب في فرنسا ولم يسبق أن نشرت له أبحاث باللغة الفرنسية، كان هناك بروفيسور اسمه موريس هنري كونسيس / فيرونفاي بجامعة تولوز وهو الذي كتب سلسلة من الأبحاث على مستوى علمي رفيع عن أمراض العنب، لكنني رفضت أن أعتبره بديل.

رجعت إلى الفندق تحت حرارة منتصف النهار الشديدة، واستدار الموظف في قسم الاستقبال لكي يعطيني مفتاح غرفتي وخطابا، لم يكن على المظروف سوى اسمي فقط مع وجود كلمة «مهم وعاجل» ففتحته على الفور، كان بداخله قصاصة من الورق بها رقم واسم: ١٨٤ سينجرو.

ـ من أحضر هذا الخطاب؟ ـ إنه ساع.

ولم يكن يعرف أكثر من هذا كنت أعرف مكان سينجرو: إنه شارع عريض مشجر يمتد من أثينا إلى بيروس، فخرجت من الفندق على الفور وقفزت إلى داخل تاكسي.

وبعد دقيقة توقف التاكسي عند منزل في حديقة متوسطة الحجم، وكان الرقم ١٨٤ واضحا على اللافتة الخاصة بالمنزل.

كان الحديقة شنيعة للغاية.

النوافذ مغطاة بألواح من الخشب، وسرت إلى الباب الأمامي للمنزل

ثم درت إلى خلف المنزل، كان عبارة عن هيكل لمبنى غير مكتمل البناء، وكانت هناك آثار حريق حدث منذ بضع سنوات سابقة حيث وجدت السقف هابطاً في داخل المنزل، رحت أتفحص الجزء الخلفي من الحديقة كان جافا وكئيبا مثل الجزء الأمامي من الحديقة، وكان الباب الخلفي فاتحاً فاه، وكانت هناك دلائل مثل العارضات الخشبية الساقطة والحوائط المتفحمة بعض الشيء تدل على أن المومسات قد سكنوا ذلك المكان يوما، وكانت هناك آثار نيران حديثة نسبيا في مدفأة قديمة، أحسست أنه لا يوجد هناك شيء يمكن العثور عليه كانت المسألة خداعا.

رجعت إلى التاكسي المنتظر كانت حركة المرور كثيفة في شارع سينجرو وكانت الأوراق في شجرة نخيل عند البوابة تحدث حفيفا وقف بائع أوراق اليانصيب يتحدث مع سائقي، واستدار لدى خروجي من المنزل سألني: أتبحث عن شخص ما؟

ـ منزل من هذا؟

كان رجلاً غير حليق الذقن يرتدي حله رمادية بالية وقميصاً قذرا أبيض اللون وكان ممسكا في يديه بمسبحة رفعها، لأعلى بما يفيد أنه لا يعرف، نظرت إليه من وراء نظارتي السوداء، ثم قلت له كلمة واحدة: كونشيس؟

وعلى الفور أشرق وجهه كما لو كان قد فهم كل شيء: آه.. أفهم الآن، أأنت تبحث عن كونشيس؟

ـ نعم.

فتح يديه، وقال: لقد مات.

ـ متى؟

ـ منذ خمس سنوات ذُبح.

ابتسمت ابتسامة حادة وقلت له باللغة الإنجليزية: «من أين تجيء من المسرح القومي؟ هز رأسه وكأنه لم يفهم، نظر إليَّ السائق وقال: إنه رجل غنى للغاية، إنه مدفون في مقبرة سانت جورج، وهي مقبرة....

تساءلت: أهذا هو كل شيء؟

- لا، اذهب وشاهد قبره، إنه قبر جميل، دخلت إلى التاكسي، فاندفع نحو عصاه التي تضم أوراق اليانصيب ولوح بها مهددا من خلال النافذة قائلاً: لسوف تكون سعيد الحظ، الإنجليز دائماً سعداء الحظ، والتقط ورقة يانصيب وعرضها عليَّ، آه مجرد تذكرة يانصيب واحدة صغيرة.

فتكلمت في حدة مع السائق، فاستدار بالتاكسي استدارة شديدة، استوقفت السائق عند أحد المقاهي، وناديت على النادل وسألته: المنزل الموجود في الخلف هناك هل تعرف اسم الشخص الذي يمتلكه؟

- نعم... إنه يخص أرملة تسمى كانت تعيض في كورفو.

وفي تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم وعندما أصبحت الحرارة أقل حدة استقللت أتوبيسا للذهاب إلى المقبرة، التي تقع على مسافة بضعة أميال من أثينا، فوق منحن مليء بالأشجار لجبل آيجاليوس، وعندما سألت العجوز حارس البوابة كنت أتوقع منه أن ينظر إليَّ نظرة خاوية ولكنه سار في ألم إلى داخل مسكنه وراح يتصفح سجلاً كبيرا وقال لي: إنه ينبغي لي أن أسير في الحارة الرئيسية، ثم أصل إلى الحارة الخامسة على اليسار، ومررت بجوار صفوف من المعابد الأيونية الطراز وتماثيل نصفية في طابور طويل وبلاطات حجرية تحمل نقشا تذكاريا مزخرفا غاية من الذوق الرديء إنها غابة خضراء وظليلة.

في الحارة الخامسة على اليسار، وبين شجرتين من أشجار السرو

وتحت ظلال نبات حزين شبيه بنبات الدريقة ذي الأوراق الكبيرة الدائمة الخضرة توجد بلاطة رخامية عليها كلمات منقوشة تحت صليب:

موريس كونشيس

(١٨٩٦ ـ ١٩٤٩)

ميت منذ أربع سنوات.

وفي أسفل البلاطة الرخامية كان يوجد إناء أخضر صغير به زهرة فل بيضاء ووردة حمراء وكانت الزهرة والوردة ترتفعان فوق وسادة من الأزهار البيضاء بدا أن سويقات النباتات قد قطعت صباح اليوم.

كانت المياه صافية وطازجة، وفهمت، أنها طريقته في إخباري بما خمنته وهو أن أعمال التقصي والتحري لن تؤدي بي إلا إلى ـ قبر زائف ونكتة أخرى وابتسامة تتلاشى في نسيم الهواء.

أعدت الأزهار إلى مكانها وسقط أحد الأغصان فالتقطته ورحت أتشممه، كان له عطر جميل شبيه برائحة العسل النحل، ومادامت كانت هناك وردة وفلة فربما كان لذلك دلالة معينة، ووضعت الغصن الصغير في عروة سترتي وحاولت نسيان الموضوع.

وعند البوابة سألت العجوز عما إذا كان يعرف أي شخص من أقارب المرحوم موريس كونشيس.

فراح يبحث في كتابة مرة أخرى ولكن لم يكن هناك أي أسماء لأقاربه وهل كان يعرف الشخص الذي يحضر الأزهار؟ لا، فهناك عدد كبير من الناس يحضرون الأزهار والورد، سرعان ما جاء زوار آخرون فأنشغل عن العجوز.

كان العشاء في ذلك المساء رهيبا، كان صورة مصغرة من البلاهة الإنجليزية، وقبل أن أذهب خطر على ذهني أن أحدثهم عن بوراني،

شاهدت منضدة عشاء ساحرة، كنا ثمانية أشخاص: خمسة من المعهد البريطاني وسكرتير السفارة وشخص غريب الأطوار في منتصف العمر وهو ناقد فني قد جاء لإلقاء بعض المحاضرات، دار قدر كبير من الدردشة الودية حول الأدب، أن يتطرق الحديث إلى بعض الشخصيات الأدبية، تساءل رجل السفارة: هل قرأ أحدكم آخر رواية كتبها هنري جرين؟

ـ لم أستطع أن أتذوقها.

ـ أوه، لقد استمتعت بها بعض الشيء.

فلمس الشخص الغريب الأطوار «البابيون» الخاص به وقالت: أنت بالطبع تعرف ما قاله العزيز هنري...

عندما رجعت إلى غرفتي بالفندق كانت الساعة، قد وصلت إلى حوالي الثانية عشرة والنصف ليلاً، كان هناك نقصان في الهواء والحرارة المعتادة التي تتميز به ليالي أثينا في الصيف، وما أن خلعت ملابسي وفتحت الدش لكي آخذ حماماً حتى دق جرس التليفون بجوار السرير فاتجهت عاريا إلى التليفون، رد عليَّ البواب المكلف بنوبة الليل «يا سيد أورفي توجد مكالمة تليفونية من أجلك».

ثم حدثت طقطقة وسمعت صوت رجل لم أستطع التعرف على صوته يتكلم بالإنجليزية: هل أنت السيد أورفي؟

ـ نعم أنا أورفي من أنت؟

ـ هل تتكرم بالنظر من نافذتك لو سمحت؟ وحاولت الإبقاء على المكالمة بدون جدوى لأن الرجل قد أعاد السماعة إلى موضعها، فأخذت عباءتي على وجه السرعة حيث كانت موجودة على السرير، وأطفأت النور في الغرفة وجريت إلى النافذة.

كان هناك تاكسي واقفاً على الجانب المقابل وكان الجزء الخلفي منه

في اتجاهي وعند سفح التل، ظهر رجل يرتدي قميصاً أبيض وسارع نحو الجانب البعيد من الشارع متخطياً التاكسي، لم يكن به شيء ملفت للنظر، كانت الأرضية خالية من الناس وكانت هناك أضواء الشارع الحوانيت مغلقة والمكاتب مظلمة، ولا يوجد سوى هذا التاكسي الوحيد اختفى الرجل، ثم حدثت حركة، ففي مواجهة نافذتي مباشرة وتحتها كانت توجد إضاءة للشارع مثبتة على الحائط فوق المدخل المؤدي إلى ممر دكاكين وبسبب الزاوية لم يكن بمقدوري رؤية الجانب الخلفي من ممر البواكي.

ظهرت فتاة خارجة من الممر.

ودار موتور التاكسي.

كانت الفتاة تعرف مكاني، فخرجت إلى حافة الرصيف، وتطلعت إلى نافذتي، كان وجهها واقعاً تحت ظلال الضوء ترتدي فستانا أسود ممسكة في يدها اليسرى بحقيبة يد سوداء اللون، وخرجت من الظلال مثلما تفعل المومسات، ولم تظهر عليها أية تعبيرات. ولم يدم ذلك سوى لحظات، صعد التاكسي على الطريق ليصل أمامها مباشرة وفتح شخص ما الباب فاندفعت بداخله، ثم انطلق التاكسي بسرعة هائلة وأطلقت عجلاته صرخة مدوية عند نهاية الشارع.

(٦٢)

كنت قد صحت باسمها في غضب في اللحظة الأخيرة، واعتقدت في بادئ الأمر أنهم عثروا على «دوبلير» أو على إنسانة تشبهها تماماً، لم يكن بمقدور أية فتاة أخرى أن تقلد مشيتها وطريقتها في الوقوف.

قفزت عائدا إلي التليفون واتصلت بالبواب المكلف بالنوباتجية الليلية وقلت: تلك المكالمة ـ هل يمكنك أن تعرف من أين جاءت؟

ـ لا أعرف.

ـ هل كان هناك شخص غريب في حجرة الانتظار بالفندق خلال الساعة الأخيرة؟

ـ لا يا سيد أورفي.

أغلقت الدش، وارتديت ملابسي على وجه السرعة وخرجت إلى الميدان، وحمت حول جميع المقاهي وحملقت داخل جميع التاكسيات وذهبت إلى جميع الأماكن ذات الطراز الحديث في المنطقة وكنت عاجزا عن التفكير وعن عمل أي شيء سوى ذكر اسمها وسمعتها في وحشية بين أسناني.

آليسون، آليسون، آليسون.

لقد تقبلت وكان عليَّ أن أتقبل الحقيقة الأولى التي لا يمكن تصديقها: وهي أنها وافقت بكل تأكيد أن تنضم إليهم، ولكن كيف أمكنها أن تفعل ذلك؟

ولماذا؟ ومرة أخرى: لماذا.

ورجعت إلى الفندق.

ربما عرف كونشيس بالشجار الذي حدث بيني وبين آليسون، وربما استرق السمع في أثناء الشجار.

ولعله استخدم كاميرات فبمقدوره استخدام ميكروفونات وأجهزة تسجيل الصوت على شرائط، من المحتمل أن يكون قد أجرى اتصالات معها في أثناء الليل أو في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، تلك الرسائل الموجودة في المخبأ، وأولئك الناس بفندق بيروس الذين راحوا يرقبونني وأنا أحاول إقناعها بأن تسمح لي بالدخول إلى غرفتها، من المؤكد أن كونشيس أرهف السمع بمجرد أن ذكرت اسمها وهو بمجرد أن عرف أنها بصدد المجيء إلى أثينا أدخل تعديلات جديدة في خططه،

فكلف أشخاصاً ليتبعونا ابتداء من لحظة لقائي، ثم تمكن من إقناعها مستخدما كل ما لديه من سحر وجاذبية وربما خدعها لكي تبدأ معه، هبطت عليَّ لحظات من الغيرة غير المتصفة بالطابع الجنسي... وتخيلت أنه قال لها الحقيقة: إنني أرغب في إعطاء هذا الشاب الأناني درسا لن ينساه طوال حياته.

ترى هل كانت تعمل لصالحه؟ ألم يقم بإرغامي لمقابلتها عن طريق إلغاء إجازة نصف السنة الدراسية؟ بل وعرض عليَّ استخدام المنزل الريفي إذا وددت أن أحضرها إلى الجزيرة؟ تذكرت كلاما، كانت «جين» قد قالته في الليلة الأخيرة ـ كيف أنهم قد تحايلوا على المشكلة بحل مؤقت، من المؤكد أنهم عثروا عقب صراخها في فندق بيروس، على طريقة لشراء آليسون مستخدمين منطقهم المريض وجنونهم وأكاذيبهم ونقودهم.. وربما أخبروها بالسر الكبير الذي لم يسمح لي بأن أعرفه: وهو لماذا أختاروني في بادئ الأمر، وتذكرت جميع الأكاذيب التي قلتها لهم عن آليسون وعن الأمور التي كانت لديهم فكرة كاملة عنها بكل تأكيد، وزمجرت بصوت مرتفع لدى استرجاعي كل ذلك.

رحت أفكر في الأمر مليا، من الغريب أنهم لم يستفيدوا من «جين» سوى بقدر ضئيل للغاية، ومن المؤكد أنه كان هناك دور كبير لها في خططهم قبل «دخول» آليسون غير المتوقع إلى الميدان، وذلك اللقاء الأول الذي تم معها وجهاً لوجه وما تم فيه من سخرية من مزاجي المتقلب علاوة على الهراء المتكرر عن قصة «القلوب الثلاثة» كل ذلك يدل على الكيفية التي سارت بها الأمور، ثم يوم الأحد على الشاطئ وذلك التفاخر بجسدها العاري.. ربما لم يكن كونشيس واثقا تماماً من آليسون عقب السماح ببعض لأول مرة ولذلك كان الأمر يستلزم السماح ببعض الطوارئ المحتملة الوقوع، من المؤكد أن آليسون هي التي كسبت الجولة فانسحبت «جين» من مسرح الأحداث، وذلك هو أيضاً

السبب في أن شخصية ليلى ودورها قد تغير والسبب في أنه كان عليها أن تتخذ وبسرعة كبيرة دور سيرس..

لم يكن التابوت شاغرا، لقد أرادوا لها أن تشهد بنفسها نجاح طريقتهم، وتخاذل عقلي تحت قسوة هذا الموقف الخالي من الرحمة، كانت المحاكمة سبب «افتراس للمراهقات» من المؤكد أنها قامت بإخبارهم بذلك، والمزاج الانتحاري الذي مرت به قبل مغادرتي لندن، لقد كانوا يعرفون كل الماضي الخاص بي.

تصاعدت موجات الغضب في داخلي إلى درجة الجنون، وتذكرت كل موجات الحزن الحقيقي التي اجتاحتني عندما وصلتني أنباء موت آليسون، ربما كانت موجودة طوال الوقت في أثينا وربما بالمنزل في القرية أو في بوراني.

بحيث كانت ترقبني بما يتمشى دائماً مع أصداء تلك المواقف الشكسبيرية.. رحت أجوب غرفتي متخيلاً المشاهد التي أضع فيها آليسون تحت رحمتي، وأتخيل نفسي أضربها ضربا مبرحا مما جعلها تبكي في ندم.

ومرة أخرى انصب تفكيري على كونشيس وعلى سر مقدرته في تشكيل فتيات في مثل ذكاء ليلى والتأثير عليهن والتأثير على فتيات لهن شخصية مستقلة مثل آليسون.

كما لو كان لديه سر من نوع ما أفشاه لهن مما وضعهن تحت رحمته، ومرة أخرى أصبحت الرجل الملقى في الظلام، الرجل المنبوذ موضع السخرية باستمرار.

لم أستطع النوم، شعرت بالرغبة في الذهاب إلى إيلينيكون ولوى رقبة الفتاة الجالسة وراء كاونتر شركة الطيران، فكل من الرجل الذي رد في بادئ الأمر على مكالمتي التليفونية والفتاة ذاتها، وهذا هو ما أدركته

الآن، كان متلهفا لأن يعرف شخصيتي ومن المؤكد أنه قد أقنعهما ـ ربما بمعرفة آلسيون ذاتها ـ بأن يتعاونا في هذا الصدد، ولكنني أدرك أنني لن أتمكن من الوصول إلى حقيقة الموقف إذا ذهبت إلى هناك، ومن المتوقع تماماً أن يقدما لي نفس قصاصات الصحف المزيفة.

كان علشَّ أن أفعل أي شيء في تلك الأثناء، فنزلت إلى بهو الفندق ووجدت البواب المكلف بنوبة الليلة، قلت: أريد أن أتصل بهذا الرقم التليفوني في لندن، ثم كتبت الرقم، وبعد دقائق قليلة أشار بيده إلى كشك.

ووقفت مصغيا إلى طنين التليفون في شقتي القديمة في ميدان راسيل.

واستمر الطنين لفترة طويلة ثم توقف في نهاية الأمر حيث رفعت السماعة تساءلت:

سبحان الله.. من يكون ذلك؟

فقال عامل التليفون: هناك مكالمة لك من أثينا.

وكان يبدو من صوتها أنها فتاة لطيفة شبه نائمة، ورغم أن هذه المكالمة الخارجية كلفتني أربعة جنيهات فإنها كانت تستاهل هذا المبلغ، إذ اكتشفت أن «آن تيلور» رجعت إلى أستراليا منذ ستة أسابيع وتساءلت عما إذا كانت هناك فتاة قد قتلت نفسها فقالت: إنها لا تعرف ذلك، وأضافت: أعتقد أنها صديقة لآن تيلور وأظن أنها أخذت الشقة ولكني لم أشاهدها منذ أسابيع، وهي فتاة شقراء لم أشاهدها سوى مرتين، ويبدو أنها أسترالية، ولكن من الذي...

استيقظت من النوم متأخرا بعد أن نمت نوما أعمق مما كنت أتوقع، ظللت مستلقياً في السرير لبعض الوقت مصغيا لضوضاء الشارع المترامية إليَّ من أسفل ومفكرا في آليسون، حاولت أن أسترجع التعبيرات التي

كانت على وجهها وعما إذا كان هناك أي قدر من روح الفكاهة في وقوفها هنالك.

وكان باستطاعتي إدراك توقيت بعثها من جديد.

وأصبح من الواضح أنني سأكتشف كل شيء بمجرد عودتي إلى لندن، وكان ينبغي أن يتم اكتشافها في أثينا.

وكان عليَّ أن أبدأ في البحث عنها، انتباتني الريبة في مشاهدتها، كنت في أشد الشوق لرؤيتها واستخلاص حقيقة الأمر منها ولكي أجعلها تدرك كم كانت خيانتها لي أمراً كريها للغاية، وأنها مهما زحفت حول خط استواء على ركبتيها فإنني لا يمكنني أن أغفر لها، لكي أجعلها تدرك أن كل شيء بيننا انتهى إلى غير رجعة لأنني أصبحت مشمئزا منها إلى أقصى درجة، وأصبحت غير مفتون بها أو بليلى.

آه لو استطعت أن أضع يدي على ليلى.

ولكن الشيء الوحيد الذي لم أكن مستعدا لأن أقوم به هو البحث عن ليلى.

كان عليَّ أن أنتظر، فهم قد يحضرونها إليَّ، وفي هذه المرة سوف أستخدم السوط.

نزلت إلى المطعم وتناولت إفطارا في وقت الظهيرة، كان هناك خطاب من أجلي تم تسليمه باليد لإدارة الفندق، وفي هذه المرة كان الخطاب يحتوي على كلمة واحدة «لندن» وتذكرت ذلك الأمر كان موجودا مع الأوامر الأخرى بالمخبأ: الانتهاء بحلول شهر مايو من كل شيء باستثناء النواة إنها عشتاروث غير المرئية.. لقد كانت هي آليسون.

ذهبت إلى شركة الطيران وحصلت على مقعد على الطائرة المسائية وبينما كنت واقفا منتظرا إعطائي تذكرة السفر شاهدت خريطة لإيطاليا

معلقة على الحائط وعرفت المكان الذي توجد فيه سوبياكو على الخريطة وقررت أن أقوم بمغامرة.

دخلت إلى أكبر مكتبة لبيع الكتب في أثينا، سألت عن كتاب يتناول التعرف بالأزهار، ولم تكن محاولتي المتأخرة عن موعدها والرامية إلى الحصول على الإنعاش ناجحة مما اضطرني لأن ألقى بالزهرة الموجودة في عروة سترتي بعيداً، وقالت الموظفة بالمكتبة: إن المكتبة لا يوجد بها كتب في هذا الموضوع باللغة الإنجليزية وأضافت هناك كتاب ممتاز عن الأزهار باللغة الفرنسية وهو يعطي أسماء الأزهار باللغات المختلفة، وتظاهرت بأنني مهتم بالصور ثم رجعت إلى فهرس الكتاب وعرفت أن نبات الآلوسين في صفحة ٦٩.

وفي صبحة ٦٩ كان تعريف النبات: أوراق خضراء رفيعة وأزهار صغيرة بيضاء اللون.

يسمى بالإنجليزية: آليسون الحلو.

الباب الثالث

(٦٣)

روما

في داخل ذهني كان يخيل لي أنني تركت اليونان منذ أسابيع وليس منذ ساعات، سطعت الشمس كالمعتاد، وكان الناس أكثر رشاقة وأناقة والهندسة المعمارية والفنون أكثر ثراء بدا الأمر كأن الإيطاليين ـ شأن أجدادهم الرومان ـ كانوا يرتدون قناعا هائلاً من الرفاهية.

لم أستطع تحمل فقدان العري الجميل وإنسانية اليونان ولم أستطع تحمل رؤية الرومانيين الحيوانيين الذين تبدو عليهم مظاهر الترف والثراء، تماماً مثلما لا يستطيع المرء أحيانا أن يتحمل رؤية وجهة في المرآة.

وفي وقت مبكر من الصباح عقب وصولي استقليت قطارا محليا خارجا من روما في اتجاه تيفولي وتلال الألب، وبعد أن ركبت في الأتوبيس لفترة طويلة تناولت طعام الغداء في سوبياكوسرت في طريق صاعد فوق مساحة منخفضة خضراء اللون، وتفرعت من الطريق حارة متجهة إلى واد ضيق مهجور.

وكان باستطاعتي بسماع صوت المياه الجارية بالإضافة إلى سماع تغريد الطيور، وصلت إلى ممر يتجه بين غابة رطبة صغيرة مليئة بأشجار

البلوط الخضراء ثم استدق الممر وأصبح بمثابة مجموعة من السلالم تتلوى حول حائط من الصخر، ثم ظهر الدير للعاين متعلقا بالصخرة مثل دير يوناني، وكان هناك رواق سقوف قوطي الطراز يطل على الوادي الأخضر مجموعة صغيرة من المصاطب المزروعة الواقعة تحته، وكانت هناك صور مرسومة بالألوان الجميلة على الحائط الداخلية: البرودة ـ والصمت.

رأيت راهبا يجلس خلف الباب المؤدي إلى رواق داخلي، سألته عما إذا كان باستطاعتي أن أقابل جون ليفاريير وأوضحت له أنه رجل إنجليزي في حالة من الخلوة مع الذات، ومن حسن الحظ أنني كان معي خطابه، فعرضت عليه الخطاب، قام العجوز بفك رموز التوقيع في حرص ـ أومأ الرجل برأسه واختفى هابطاً إلى أماكن منخفضة بالدير، فتابعت سيري إلى إحدى القاعات.

ترامى صوت شخص ما يضحك، كان هناك راهب عجوز يؤنب راهبا أصغر سنا باللغة الفرنسية لدى عبورهما القاعة خلفي.

ثم ظهر راهب آخر، وأدركت في شيء من الصدمة أن ذلك الراهب هو ليفاريير.

كان رجلاً طويلاً وقد قص شعره ليكون قصيرا وقام بحركة خفيفة متسائلاً عما إذا كنت الشخص الذي سأل عنه، قلت: أنا نيقولاس أورفي، من جزيرة فراكسوس.

فبدا عليه شيء من الدهشة والارتباك في آن واحد، وبعد تردد طويل مد لي يده مصافحا، بدت يده باردة، أما يدي فكانت ساخنة بسبب المشي، تحدث في شيء من النقد اللاذع الحاد الذي يلجأ إليه بعض المحاضرين في جامعة أكسفورد: أجئت قاطعا كل هذه المسافة الطويلة؟

ـ كان من السهل عليَّ أن أتوقف في روما.

ـ أعتقد أنني قد أوضحت لك أن...

ـ نعم لقد أوضحت، ولكن.. وابتسمنا معا في آن واحد ابتسامات خالية من الحرارة بسبب العبارتين الناقصتين اللتين نطقنا بهما، ثم نظر نظرة عميقة في عيني مؤكدا قراره، وقال:

أخشى أن زيارتك ستكون بدون جدوى بكل تأكيد.

بكل أمانة لم يكن لدى فكرة عن أنك كنت.. ـ ولوحت بيدي في شيء من الغموض نحو ردائه ـ أعتقد أنك وقعت على خطاباتك.

ونهضنا واقفين في ارتباك، ويبدو أنه ضاق صبره من هذا الارتباك الذي يستحوذ عليه فقرر أن يكون أكثر لطفا معي علاوة على تطييب خاطري، أردت أن أخبره أنني لم أحضر إلى هنا بوصفي سائح ولكنه بدأ يقود الطريق ويتقدمني مخترقا فناءً داخلياً، وجعلني أشاهد الغربان والشجرة المقدسة التي ظهرت بها الورد عندما تدحرج القديس بنيديكت عليها.

لم أكتشف أي شيء على الإطلاق يتعلق بصيف عام ١٩٥١ ولو أنني اكتشفت المزيد من المعلومات القليلة عن ليفاريير، فقد كان في سكرو سبيكو لمدة أسابيع قليلة فقط حيث كان قد انتهى لتوه من ترهبنه في أحد الأديرة في سويسرا، لقد التحق بكامبردج ودرس التاريخ وكان يتحدث الإيطالية بطلاقة.

وهو لم يرجع إلى اليونان منذ أن تركها، وظل إلى حد كبير مكتسباً طابع الإنجليزي المثقف المرتبك أمام الغرباء المدرك بأنه يبدو عليه أنه ليس جاداً في كونه راهباً وفي ارتدائه لتلك الملابس.

خرج بي إلى الهواء الطلق أسفل الدير، وقادني إلى مقعد خشبي تحت شجرة تين وجلسنا، نظرت في إعجاب إلى المصاطب المزروعة

بالخضروات وكرمات العنب وقال: هذا أمر غير مرضي للغاية بالنسبة لك، ولكنني سبق لي أن حذرتك.

من دواعي الارتياح بالنسبة لي أن أتقابل مع زميل مع ضحية مثلي حتى ولو كان أبكما وصامتا.

ـ أنا زميل ولست ضحية.

ـ أردت فقط أن نتبادل وجهات النظر، فلاذ بالصمت ثم قال: من المؤكد أن جوهر أسلوبه هو أن تتعلم عدم تبادل الآراء ووجهات النظر.

ـ هل ستظل هنا في ظل الظروف الحاضرة إذا...

ـ إن الارتقاء على الطريق الذي ظل الإنسان مسافراً عليه لفترة طويلة يوضح متى، وليس لماذا.

من المؤكد أن تجاربنا اختلفت اختلافاً شاسعاً.

قال: ولماذا تتشابه تجاربنا؟ اسمع يا عزيزي، أنت لا تريد مني الإحسان، أنت تريد أن تنتزع مني اعترافات لست على استعداد للإدلاء بها، وفي رأيي أن عدم الإدلاء باعترافات هو نوع من الإحسان من جانبي، فهذا الوضع الذي أنا فيه الآن لا يسمح لي بذلك وأرجو أن تفهم ذلك، وعندما أرحل من هنا فسوف تفهم جوانب الموقف بكل تأكيد.

كان صوته خالياً من الحرارة، ثم سادت فترة من الصمت.

ثم قال: إنني آسف، فأنت ترغمني على أن أكون أكثر فظاظة وجفافاً مما أريد.

ـ يحسن بي أن أنصرف.

فانتهز الفرصة ونهض واقفاً وقال:

أنا لا أهدف إلى أي شيء شخصي.

دعني أصطحبك إلى البوابة.

وسرنا عائدين من خلال الباب المنحوت في الصخر وعبرنا أبواباً شبيهة بزنزانات السجن ومنها خرجنا إلى القاعة.

قال: كنت أريد أن أسألك عن المدرسة، كان هناك تلميذ يسمي أفنداكيس يبشر بالخير ويتوقع له أن يحقق مستقبلاً باهراً، وقد كنت أقوم بإعطائه دروساً خصوصية.

رحنا نتجاذب أطراف الحديث عن المدرسة، وأدركت أنه لم يكن مهتماً اهتماماً حقيقياً وإنما كان يبذل مجهوداً لكي يبدو لطيفا معي ولكي يقلل من شعوره بالغرور ولكنه حتى في ذلك كان خجولاً ومرتبكاً أمامي.

ثم تصافحنا بالأيدي، وقال: هذا مزار أوربي عظيم يحج الناس إليه للتعبد والتبرك، ولقد قيل لنا إن زوارنا ـ مهما كانت معتقداتهم الدينية ـ ينبغي أن يتركوا هذا المزار عقب الانتهاء من الزيارة وهم يشعرون أنهم منتعشون وأنهم قد حصلوا على المواساة.

وتوقف عن الكلام كما لو كان يتوقع مني أن أسخر منه ولكني التزمت بالصمت، فأضاف قائلاً: وينبغي لي أن أطلب منك أن تعتقد أنني التزمت بالصمت إكراما لك وإكراما لي في نفس الوقت.

ثم انحنى لي انحناءة رسمية نزلت السلالم إلى الممر مخترقاً أشجار البلوط الخضراء.

وكان عليَّ الانتظار حتى حلول المساء في سوبايكو من أجل أن أستقل الأتوبيس العائد إلى المحطة، انطلق الأتوبيس بين وديان خضراء طويلة وتحت قرى تقع فوق قمم التلال.

كان الفلاحون العجائز يجلسون عند مداخل بيوتهم وبدت وجوه بعضهم يونانية غامضة ونبيلة في حالة من السلام من النفس، وشعرت

ربما لأنني احتسيت زجاجة من الخمر في أثناء انتظاري لمجيء الأتوبيس - إنني أنتمي لعالم أقدم من عالم ليفاريير، ولم أشعر بالارتياح نحوه، وبدا لي أن عدم حبي له وحبي الجارف للعالم اليوناني اللاتيني القديم غير المتغير قد اندمجا في توحد، لقد كنت إنسانا حسياً ولسوف أظل على ذلك النحو للأبد.

وفي أثناء انتظاري للقطار تناولت المزيد من الخمور، وحاول رجل في حانة المحطة أن يجعلني أدرك أن الشاعر هوارس كان يمتلك مزرعة فوق قمة تل تقع تحت السماء الخضراء، فالشاعر هوارس بمفرده أفضل من عشرة قديسين من أمثال بنيديكت، وقصيدة واحدة لهوارس أفضل من عشرة آلاف خطبة، وأدركت في وقت متأخر للغاية أن ليفاريير ربما في هذه الحالة كان سيوافق لأنه هو أيضاً قد اختار لأن هناك أوقاتاً يكون فيها الصمت بمثابة قصيدة من الشعر.

(٦٤)

إذا كانت روما وهي مدينة «الحياة السافلة قد سببت لي الاكتئاب عقب اليونان فإن لندن وهي مدينة مغبرة ورتيبة كانت أسوأ خمسين مرة من روما، كنت قد نسيت الأمور التي لا تعد ولا تحصى والتي تتميز بها لندن، نسيت قبحها وكثافتها بالنمل الأبيض، كان الأمر أشبه بالطين بعد الماسات وأشبه بالأعشاب الشديدة الرطوبة الفاسدة الهواء المتواجدة في أرض الأدغال عقب الرخام المضاء بضوء الشمس، وبينما كان أتوبيس شركة الطيران يشق طريقة زاحفاً بين الضاحية اللانهائية التي تقع ما بين نورثولت وكنسينجتون سألت نفسي في تعجب: تُرى ماهو السبب الذي يجعل المرء يعود بإرادته الحرة إلى مثل هذه الأراضي ومثل هذا المجتمع، ومثل هذا الجو؟ وانجرفت سحب بيضاء نافخة بطنها في تراخ عبر السماء الرمادية، وسمعت الناس يقولون: «إنه ليوم جميل،

أليس كذلك؟» ولكن كل تلك الدرجات من الألوان المرهقة الخضراء والرمادية والبنية بدت كأنها تضغط حركات أهالي لندن الذين مررنا بجوارهم إلى اتساق كلي الوجود، كان ذلك شيئاً ما قد أصبحت معتادا عليه حتى إنني لم ألحظه في اليونانيين ـ كم كان كل وجه يقفز متفرداً من خلفيته، لا يوجد شخصان يونانيان متشابهان بينما بدا أن كل وجه إنجليزي في ذلك اليوم أشبه بكل شخص إنجليزي آخر.

ذهبت إلى فندق قريب من المحطة النهائية لخط أتوبيس شركة الطيران في نحو الرابعة وحاولت أن أقرب ما ينبغي لي أن أفعله، التقطت سماعة التليفون وأدرت رقم تليفون آن تيلور، فلم يرد أحد، وبعد نصف ساعة حاولت، ومرة أخرى لم يكن هناك رد، فأرغمت نفسي على قراءة مجلة لمدة ساعة، وجربت التليفون دون جدوى، فاتجهت بالتاكسي إلى ميدان راسيل، كنت مضطرباً للغاية، فلربما تكون آليسون في انتظاري أو إذا لم تكن منتظرة فربما أجد دليلاً أو مفتاحاً، كنت أتوقع حدوث شيء ما، ودخلت إلى حانة بدون أن أعرف السبب وتناولت كأساً من الويسكي.

ثم شرعت في السير إلى المنزل، كان الباب المطل على الشارع غير موصد، ووقفت أمام الباب بالدور الثالث ورحت أصغى فلم أسمع صوتاً فطرقت على الباب، لم يرد أحد طرقت مجددا، ترامت أصوات موسيقية من أعلى، فطرقت مرة أخيرة على شقة آن تيلور ثم صعدت لأعلى السلم، تذكرت ذلك المساء عندما صعدت مع آليسون مصطحباً إياها لكي تأخذ حماماً، كم عدد العوالم التي ماتت منذ ذلك الحين؟، مازالت آليسون قريبة على نحو ما، اعتقدت أنها في الشقة العلوية، لم أعرف ماذا يمكن أن يحدث، أغمضت عيني وقمت بالعد حتى رقم عشرة، ثم طرقت على الباب.

فتحت الباب فتاة تبلغ التاسعة عشر، لاحظت أن هناك شاباً وفتاة

أخرى يرقصان على موسيقى الجاز وكانت الغرفة مليئة بأضواء شمس المساء، ثلاثة هياكل تعرضت للإعاقة وظلت ساكنة للحظات قصيرة، كنت غير قادر على إخفاء مشاعر الإحباط التي ظهرت عليَّ، وابتسمت لي الفتاة الواقفة عند الباب ابتسامة مشجعة، تقهقرت للوراء، وقلت: آسف، لقد أخطأت الشقة، وبدأت في النزول، نادت عليَّ متسائلة عن اسم الشخص الذي أريده: غبت عن الأنظار قبل أن تتمكن من النطق بكلام آخر، ومن لمّ أفكارها.

توجهت إلى مطعم إيطالي كانت آليسون معجبة به، إنه المطعم المفضل لدى الأكاديميين الفقراء والفنانين وخريجي الجامعات الذين يقومون بإعداد رسائل جامعية وممثلين عاطلين معظمهم من الشباب، زبائن هذا المطعم لم يتغيروا ولكنني تغيرت، رحت أصغى للثرثرة فيما حولي، وشعرت بالنفور والاغتراب بسبب انعزال المكان وبسبب براءته التي تبدت لي فجأة، ورحت أنظر فيما حولي لعلي أعثر على شخص أرغب في التعرف عليه، ولكنني لم أعثر على أحد، كان ذلك إثباتاً لفقداني لطابعي الإنجليزي، وخطر على ذهني أنني أشعر بنفس المشاعر التي كانت آليسون تحس بها: الشعور أمام الإنجليز بمزيج من التوتر والحيرة لأنني لدى نفس اللغة ونفس الماضي ونفس التاريخ ومع ذلك لم أعد أنتمي إليهم، حالة أسوأ من اللاجذور.. أسوأ من عدم الانتساب لجنس بشري معين.

عدت وألقيت نظرة أخرى على الشقة بميدان راسيل، ولكن لم يكن هناك ضوء في الدور الثالث، ولذلك عدت إلى الفندق منهزماً، رجل عجوز، رجل عجوز.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى سماسرة الأراضي الذين كانوا يرعون شئون المنزل، كانت لهم مجموعة من الغرف الرديئة، وأدركت أن الكاتب الذي جاء ليرد على استفساراتي هو نفس الشخص الذي

تعاملت معه في السنة السابقة، سرعان ما استخلصت منه المعلومات القليلة التي كان عليه أن يقدمها لي، قال: إن الشقة قد خصصت لآليسون في أوائل شهر يوليو، ولم تكن لديه فكرة عمَّا إذا كانت آليسون مازالت تسكنها أم لا، ونظر إلى نسخة من عقد الإيجار الجديد، وكان عنوان الشخص الذي صار التنازل عن الحق إليه هو نفس عنوان الشخص المتنازل عن الحق، فقال:

من المؤكد أنهما مشاركان، وهنا انتهى البحث والتقصي، ولكنني ظللت منتظراً طوال المساء عقب زيارتي للسمسار على أمل أن تصلني رسالة أخرى، وفي اليوم التالي انتقلت إلى فندق راسيل حتى يكون بمقدوري أن أسير من مدخل الفندق وإلقاء نظرة عبر الميدان لمشاهدة المنزل وترقب ظهور الضوء في تلك الشقة المظلمة بالدور الثالث، مرت أربعة أيام بدون أن تظهر الأضواء في الشقة ولم تصلني خطابات أو مكالمات تليفونية.

كانت حاجتي لرؤية آليسون تغطي على كل شيء آخر، كنت في أشد الحاجة إلى مشاهدتها واستخلاص السر منها.. علاوة على أمور أخرى لم أستطع أن أحددها، ضاع أسبوع في الذهاب إلى دور السينما والمسارح وفي الاستلقاء في سريري بالفندق منتظراً أن يدق جرس التليفون القابع بجواري.

وأخيراً اعترفت بهزيمتي، لم أعد أطيق الفندق أو ميدان راسيل، وشاهدت مكانا معلناً عنه لوحة إعلانات، إنه «شقة» مهلهلة تحت سطح البيت مباشرة وفوق طابقين من غرف الخياطة عند الطرف الشمالي من شارع شارلوت، إنها غالية الثمن ولكن بها تليفون ورغم أن صاحبة المنزل تعيش في البدروم فإنها كانت بكل تأكيد الإنسانية البوهيمية في شارع شارلوت في الثلاثينيات، حرصت أن تدعني أعرف في خلال الدقائق الخمس الأولى أنني في المنزل الذي عاش فيه «صديقها الوفي»

الكاتب المعروف ديلان توماس ولم أصدقها، فقولها هذا مشابها للكلام الذي يفيد أن الملكة اليزابيث اعتادت أن تتردد على الفنادق الريفية الصغيرة، شعرت بارتياح نحوها وقالت لي «اسمي جوان ولكنهم ينادونني كيمب».

قالت وهي واقفة عند الباب عقب موافقتي على استئجار الغرف: حسناً، مادمت سوف أحصل على نقودك فإن لك الحق في أن تحضر أي شخص تريده وفي الوقت الذي تراه فالشاب الذي استأجر هذه الغرف أخيراً كان قواداً، وكان شاباً ظريفاً، لقد ألقى الفاشيون القبض عليه في الأسبوع الماضي.

وأشارت إلى رجلي الشرطة في نهاية الشارع.

اشتريت سيارة قديمة متهالكة ولكن الموتور كان لا يزال أمامه عمر افتراضي، وأخذت معي كيمب في جولة إلى قلعة جاك سترو، راحت تحتسي الخمور وتتحدث مثل جندي في سلاح الفرسان، كانت مثلما أنشد قلب دافئ علاوة على دردشتها عن نفسها والتي ترغم الإنسان على الإصغاء إليها، مما جعلني ـ من خلال طريقتها الدافئة ـ أتصالح بعض الشيء مع لندن ومع كوني إنجليزي ومما جعلني ـ أتوقف عن الإحساس الشديد بأنني منعزل.

(٦٥)

مر شهر أغسطس في تثاقل، تعرضت خلاله لنوبات من الاكتئاب وفقدان الحس والحركة، كنت مثل سمكة في مياه راكدة، أشعر بالاختناق، وبمجرد أن أنظر إلى الوراء، مثل آدم عقب الخطيئة، إلى المناظر الطبيعية الزاخرة بالضوء الباهر للشمس في جزيرة فراكسوس وأملاحها ونباتها العشبي فإنني أنظر إلى الوراء في أحداث بوراني التي يمكنها ألا تحدث ولكنها حدثت بالفعل، ووجدت نفسي غير قادر أن

أتمنى ألا تكون هذه الأحداث قد حدثت مثلما كنت غير قادر أن أغفر لكونشيس إعطائي الدور الذي خصصني له، وفي بطء تدريجي بدأت أدرك أن ورطتي كانت في حقيقة الأمر نوعا من غفران الأمر الواقع والتغاضي عما فعلوه معي.

وذات يوم كدت أتعرض لتصادم بسيارتي عندما لمحت فتاة رشيقة شقراء تسير في شارع جانبي، فانحرفت بسيارتي فجأة نحو حافة الرصيف وانطلقت وراءها، وحتى قبل أن أشاهد وجهها أدركت أنها ليست ليلى، ولكن كان سبب اندفاعي وراء هذه الفتاة في الشارع الجانبي أنني أريد استجوابها ومحاولة أن أفهم منها الأمور، لم أفهم معناها، كان باستطاعتي أن أشتاق لمرحلة معينة تتعلق بها هذه المرحلة التي جعلت من المستحيل أن أحبها.

كان عليَّ أن أفعل أي شيء في أثناء انتظاري، لذلك قمت خلال النصف الأخير من أغسطس باقتفاء أثر كونشيس وليلى في إنجلترا واقتفاء أثر آليسون من خلالهما.

وهذا في حد ذاته جعلني واقعا في نطاق المسرحية التنكرية وإن كان ذلك بقدر بسيط وفي شيء من التضحية، وقد أدى هذا إلى تعتيم اشتياقي الشديد المليء بالحزن لمشاهد آليسون، وهو اشتياق مليء بالحزن لأن إحساساً جديداً بزغ في داخلي، شعور كنت أريد القضاء عليه ولكنني لم أستطع ولم يكن السبب في ذلك أنني كنت أدرك أن بذرة ذلك الشعور قد زرعها كونشيس في داخلي وأن تلك البذرة كانت تنبت في ذلك الصمت المتعمد الذي أحاطني به، شعور يستحوذ على أفكاري ليل نهار، ويستمر في النمو والتصاعد مثلما ينمو الجنين في رحم امرأة غير راغبة في الحمل مما يجعلها تموج بالغضب وفي لحظات خضراء كان يذيب قلبها حناناً.

ظل هذا الإحساس مدفونا تحت التحري والتخمين، وقررت أن

أتجاهل كل ما قاله كونشيس أو الفتاتان والتوقف عن التيقن مما إذا كان كلامهم كان زائف أم صادقاً، ففي كثير من الأمور كنت أريد أن أكتشف أثراً أو بصمة أصابع: لمجرد أن اكتشف مهارتهم الخاصة في الخداع.

قصاصات الصحف فيما يتعلق بآليسون: كانت حروف الطباعة من نوع مختلف عن حروف طباعة مجلة هولبورن والتي تناولت التحقيق الصحفي عن أسباب الوفاة.

النشرات العلمية لفولكيس: ورد ذكرها في كتالوج المتحف البريطاني، أما النشرات العلمية لكونشيس فلا توجد إشارة عنها في نفس الكتالوج.

التاريخ العسكري: ورد خطاب من الرائد آرثر لي ـ جونز.

عزيزي السيد أروفي..

أخشى أن يكون خطابك من النوع الذي ينشد المستحيل بالفعل، فالوحدات التي اشتركت في نيف شابيل كانت معظمها وحدات نظامية، وأعتقد أنه من غير المحتمل تماماً أن يكون أي متطوعين في كتيبة كنسينجتون قد شهدوا ذلك الاشتباك حتى تحت الظروف التي تشير إليها، ولكننا لدينا بالطبع سجلات مكتوبة عن تلك الفترة المليئة بالفوضى.

ولا يوجد أي أثر في السجلات لكابتن يسمى مونتاجو، وعادة ما يكون المرء واقفاً على أرض صلبة بالنسبة للضباط.

دوكانز: لا توجد عائلة بهذا الاسم في أي مرجع، كما أن جيفراي ـ لو ـ دوق لم يرد ذكرها في أكبر الفهارس الجغرافية الفرنسية.

لقد قام عمدة كيركينز بتسليمي خطابك لكي أرد عليه لأنني ناظر المدرسة، أقول لكم إنه يوجد في باسفيكدال مكان يسمي سايديفاري

وكان يوجد في ذلك المكان منذ سنوات عديدة أسرة تسمي نيجارد وإنني لآسف لأننا لا نعرف ما الذي حدث لهذه الأسرة.

والدة ليلى: اتجهت بسيارتي إلى سيرن أباس بدون أن أتوقع العثور على كوخ «آنستي» ولم أعثر على شيء من هذا القبيل، فقلت لمديرة الفندق الصغير الذي تناولت فيه وجبة الغداء إنني تعرفت على فتاتين من منطقة سيرن أباس ـ وهما توأم وجميلتان للغاية، ولكنني نسيت اسم العائلة التي تنتميان إليهما فشعرت بالاهتمام الشديد للغاية ـ كانت تعرف كل فرد بالقرية ولكنها لم تستطع تحديد اسم العائلة، وكان «ناظر المدرسة» بالمدرسة الابتدائية في حقيقة الأمر ناظرة مدرسة، وكان من الواضح أن الخطابات لفقت في جزيرة فراكسوس.

زي كونشيس في أثناء المحاكمة: في أثناء عودتي من سيرن أباس توقفت لتناول طعام العشاء في هنجرفورد ومررت على دكان قديم في أثناء ذهابي إلى الفندق، وفي فاترينة العرض كانت توجد خمس بطاقات لكروت قديمة، وكانت إحداها لرجل يرتدي ملابس مشابهة تماماً للملابس التي كان يرتديها كونشيس، بل كانت توجد نفس الرموز الموجودة على عباءته، وتحت هذه البطاقة كانتت توجد كلمة «الساحر»، وكان الدكان مغلقاً ولكنني كتبت عنوانه، وبعدئذ باعوا لي البطاقة عن طريق البريد، إنها بطاقة جميلة «ترجع إلى القرن الثامن عشر».

ولقد أحدثت لي صدمة عنيفة لدى مشاهدتي لها لأول مرة ـ فنظرت فيما حولي كما لو كانت قد وضعت هنالك ومن أجلي لكي تجذب انتباهي أو كأن هناك من يرقبني خلسة.

علماء النفس في أثناء المحاكمة: أجريت اتصالات مع عيادة تافيستوك ومع السفارة الأمريكية، فاتضح لي أن كافة الأسماء غير

معروفة على الإطلاق ولو أن بعض المعاهد لها وجود حقيقي، ومع المزيد من البحث لم أتوصل إلى شيء بخصوص كونشيس.

دوجلاس نفينسون: إنه ناظر المدرسة فيما قبل الحرب والذي وردت إشارة من كلية أكسفورد في كتاب بمكتبة المدرسة، وقام مكتب أمين الجامعة في باليول بإرسال عنوان إليَّ في اليابان، فأرسلت خطاباً، وبعد أسبوعين جاءني الرد:

عزيزي السيد أورفي

أشكرك على خطابك الذي بدا كأنه وارد من الماضي، لقد سعدت كثيراً عندما علمت أن المدرسة ظللت على ما يرام عقب الحرب، وأني لواثق بأنك استمتعت بإقامتك هناك مثلما استمتعت أنا من قبل.

لقد نسيت كل ما يتعلق ببوراني ولكني أتذكر هذا المكان الآن والشخص الذي كان يمتلك بوراني، إن لدى شيء من الحدس بأنني تناقشت معه.

أما بالنسبة «للضحايا» الآخرين في فترة ما قبل الحرب فإنني لا استطيع أن أساعدك، فالرجل السابق عليَّ لم أتقابل معه على الإطلاق، كنت أعرف جيوفري الذي عمل هناك لمدة ثلاث سنوات بعدي، ولم أسمعه يتكلم عن بوراني.

وإذا ما قدر لك أن تجيء إلى هذه الجزء من العالم فإنه يسعدني أن أتكلم معك عن الأيام القديمة.

دوجلاس نيفينسون

فميل: في أواخر أغسطس صادفني الحظ السعيد، إذ بدأت أشعر بالألم في أسناني فأرسلتني كيمب إلى طبيبها، وبينما كنت جالساً في غرفة الانتظار التقطت مجلة أفلام قديمة عن شهر يناير المنصرم وعثرت

في منتصفها بالصدفة على صورة لفميل المزيف، وكان مرتدياً الزي العسكري النازي، وتحت الصورة يوجد ذلك التعليق:

يلعب إجناز بروزنسكي دور القائد الألماني الشرير لمدينة ألمانية في أفضل أفلام المقاومة في بولندا تحت عنوان «المحنة السوداء».

التنويم المغناطيسي:

قرأت كتابين عن التنويم المغناطيسي، وكان من الواضح أن كونشيس تعلم طريقة التنويم المغناطيسي بطريقة حرفية، فالإيحاء خلال السبات الذي يحدث أثناءه مع الترسيخ في الذهن أوامر يتم تنفيذها لدى إعطاء إشارة معينة بعد أن يكون الشخص قد أوقظ من حالة الغيبوبة ويكون قد عاد إلى الحالة السوية بكافة الطرق الأخرى كان «بمثابة خطة ملائمة تماماً ثبت صحتها باستمرار»، عندما أمعنت النظر أدركت أنني لم أرغم لا شعورياً على التصرف حيال أي موضوع على نحو يخالف السلوك الذي كنت أفعله وأنا في حالة من الوعي، فتصرفي لم يكن يختلف عن تصرفي الحقيقي أثناء الوعي، ومن المؤكد أنه تمت محاولات لانتزاع المعلومات مني تحت تأثير التنويم المغناطيسي، ومن المؤكد أن إرادتي الحرة قامت بالمزيد من المناورات باستثناء بعض الأمور الصغيرة التي لا أهمية لها.

رفع كلتى اليدين فوق الرأس: لقد أخذت كونشيس هذا الوضع من مصر القديمة، فتلك كانت هي علامة «الكا» التي كان يستخدمها المريدون «من أجل وامتلاك القوى الكونية للأسرار الغامضي»، وفي كثير من النقوش الموجودة على جدران المقابر كانت هذه العلامة تعني: «إنني أستاذ السحر والتعاويذ، والقوة هي قوتي، وأنا الذي أطلعكم على القوة»، وكان الصليب ذو الحلقة في قمته المرسوم على حوائط غرفة المحاكمة هو أحد الرموز المصرية القديمة الأخرى، فهو «مفتاح الحياة» لدى المصريين القدماء.

ماريا: ربما كانت هي امرأة قروية ريفية بالفعل ولكنها إنسانة ذكية، وهي لم تتحدث إليَّ سوى بكلمتين باللغة الفرنسية، وجلست صامتة طوال فترة المحاكمة حيث كانت في غير موضعها الصحيح، وهي بعكس الآخرين ربما كانت على النحو الذي بدت عليه في بادئ الأمر.

بنك ليلى: حصلت على رد من مدير فرع بنك باركليز، كان الرد مكتوباً على ورقة في أعلاها اسم البنك وعنوانه، وهي نوعية من الورق مختلفة عن الخطاب الآخر الذي سبق أن تسلمته.

مدرستها: الاسم جولي هولمز ـ غير معروف.

كنت أدرك أنني في كل هذا أقوم بالدور الذي قررت عدم القيام به: ألا وهو دور المخبر السري، توقفت عن المطاردة مرات عديدة، ثم اتضح لي أن إحدى جولاتي التي كنت لا أتوقع لها أي نجاح في البحث والتحري كانت تبشر بنتائج رائعة ومدهشة.

(٦٦)

بدا ذلك في يوم من أيام «الإثنين» بلقطة سينمائية طويلة تتعلق بالافتراض بأن كونشيس عاش في لندن عندما كان صبياً، وأنه كان هناك النسخة الأصلية من ليلى مونتجمري في منطقة سانت جونز، فذهبت إلى مكتبة ماريلوبون وطلبت أن ألقى نظرة على كتاب دليل الشوارع في الفترة بين عامي ١٩١٢، ١٩١٤، توقعت عدم ظهور اسم كونشيس، ورحت أبحث عن اسم مونتجمري، رحت أفتش في كافة الشوارع المحتملة في شرق طريق ولينتجتون، وفجأة وفي صدمة من الإثارة البالغة قفزت عيناي فوق صفحة، مونتجمري، فريد، ٢٠ طريق آليتسين.

ووردت أسماء الجيران: سميث ومااننجهام ولو أن الأخير انتقل من ذلك المكان في عام ١٩١٤ وحل محله اسم هتشستب، فقمت بكتابة

العنوان واستأنفت البحث، وعلى نحو فجائي وعلى نفس الجانب الآخر من الطريق الرئيسي وقعت عيني بالصدفة على مونتجمري آخر المرة في طريق «إيلمي»، ولكن ما أن وقع نظري عليه حتى أصبت بالإحباط لأن الاسم الكامل كان: سير تشارلز بين مونتجمري وهو جراح مشهور وذلك من خلال النظر من خلال الحروف الأولى التي تختصر اسمه، إنه ليس هو الشخص الذي وصفه كونشيس.

رحت أتابع في دلائل لندن الصادرة بعد ذلك اسمي مونتجمري اللذين عثرت عليهما، لقد اختفى مونتجمري الذي هو في طريق آليتسين عام ١٩٢٢، أما مونتجمري الذي في «ايلم ترى» فقد استمر لفترة أطول ـ مما سبب لي الضيق ـ رغم أن سير تشارلز مات بالتأكيد في عام ١٩٢٢، وبعد ذلك ظهر اسم الليدي فلورنس منتجمري كمالكة للعقار واستمر اسمها حتى عام ١٩٣٨.

وبعد تناولي طعام الغداء اتجهت بالسيارة إلى آليتسين رود، ولدى دخولي في ذلك الطريق أدركت أنه ليس طريقاً جيداً، كانت المنازل ذات شرفات صغيرة ولا يوجد بينها «منزل كبير» على النحو الذي وصفه كونشيس.

ثم وصلت إلى طريق «إيلم ترى»، كان يبدو أفضل من آليستين، وكانت به منازل كبيرة في الحجم نسبياً وكانت به أكواخ ومجموعة من الاسطبلات من الطراز الفيكتوري المبكر، بدا وكأنه لم يتعرض للتغيير، أتضح لي أن رقم ٤٦ هو أكبر المنازل في ذلك الطريق، أوقفت سيارتي في مكان قريب وسرت مترجلاً على ممر ضيق خاص بالسيارات تحفة النباتات ووقفت أمام الباب المهيب ثم دققت الجرس.

ولكن رنين الجرس كان يدوي في منزل شاغر وظل على ذلك النحو طوال شهر أغسطس، ومن المؤكد أن من يشغل ذلك المنزل موجود في أجازة، وتمكنت من معرفة اسمه من دليل السنة، أنه سيمون ماركس،

أصبحت متلهفاً لأن أنتهى من تحرياتي مثلما يريد الطفل أن ينتهي من التهام بقية الحلوى الموجودة في حوزته، وكدت أشعر بخيبة الأمل عندما شاهدت في يوماً ما في أوائل سبتمبر سيارة واقفة في ممر ضيق للسيارات حيث أدركت أملاً واهناً آخر على وشك أن يتلاشى.

ورد على الجرس رجلاً إيطالي يرتدي معطفاً منزلياً، أبيض اللون: هل لي أن أتحدث مع صاحب المنزل؟

«هل هناك موعد سابق»؟

«لا».

وتم إنقاذي من خلال ظهور صوت حاد: من يكون هذا الرجل يا إيركول؟

وظهرت صاحبة الصوت الحاد، إنها امرأة في الستين من عمرها، ترتدي ثياباً فاخرة، ويطل الذكاء من وجهها، فقلت: إنني منهمك في عمل دراسة معينة، وأحاول أن أتتبع عائل تسمى مونتجمري.

ـ سير تشارلزبين؟ الجراح؟

ـ أعتقد أنه كان يعيش هنا.

ـ نعم، إنه كان يعيش هنا.

وظل الصبي الذي يعمل بالمنزل منتظراً فلوحت له بيدها لكي ينصرف بطريقة تدل على أنها سيدة مهيبة قلت: إنني في الواقع أبحث عن الآنسة ليلى مونتجمري.

ـ نعم، إنني أعرفها»، وكان من الواضح أنها لم تشعر بالارتياح لدى ظهور ابتسامة على وجهي مليئة بالدهشة البالغة، وأضافت قائلة: «أتود أن تقابلها»؟.

«إنني أقوم بكتابة رسالة في موضوع علمي محدود عن كاتب يوناني

مشهور وأنا أعتقد أن الآنسة مونتجمري كانت تعرفه منذ سنوات عديدة مضت عندما كان هو يعيش في إنجلترا.

- ما أسم هذا الكاتب المشهور اليوناني؟

- موريس كونشيس.

كان من الواضح أنها لم تسمع عن اسمه من قبل، تغلب بريق الدراسة وسحرها على قدر ضئيل من عدم الثقة الذي يروادها، ثم قالت: سوف أبحث لك عن العنوان، تفضل بالدخول.

رحت انتظر في القاعة الفاخرة، وبعد دقيقة ظهرت ومعها بطاقة، وقرأت على البطاقة ما يلي: مدام ليلى دي سيتاس، دنزفورد هاوس، وقالت هذه السيدة: أنا لم أشاهدها منذ سنوات عديدة.

- شكراً جزيلاً لك.

- أتحب أن تتناول الشاي؟

كان هناك شيء ما يلمع.. شيء ما يتسم بالجشع الغامض في عينيها كما لو كانت قد قررت أن تمتص مني المتعة واللذة، امرأة تكاد تموت جوعاً في داخل الترف والرفاهية المحدقة بها، وشعرت بالبهجة لأنني تمكنت من الإفلات منها.

وقبل أن أنطلق بسيارتي ألقيت نظرة على المنازل التي تقع على جانبي المنزل رقم ٤٦ ربما قضي كونشيس فترة شبابه في أحد تلك المنازل.

وفي صباح اليوم التالي وفي تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً وصلت إلى العنوان، كان اليوم جميلاً ومشرقاً وكانت سماء سبتمبر خالية من السحب، إنه يوم يمكن مقارنته بيوم يوناني، وكان المنزل يقع عند مشارف القرية، منزل من خمسة أجنحة يقف في جلال ورشاقة وشيد بالطوب على مساحة فدان، وفي هذه المرة فتحت الباب فتاة

اسكندنافية من النوع الذي يقوم بخدمة منزلية مقابل الأكل والمبيت، نعم كانت المدام دي سيتاس داخل المنزل في منطقة الاسطبلات، ويمكنني أن أذهب حول المنزل لكي أصل إليها.

سرت على ممر مرصوف بالحصباء وتحت باكية مشيدة بالطوب اللبن، وكان هناك اثنان من الجراجات تمكنت من مشاهدة الاسطبلات وشم رائحتها، وظهر صبي صغير من فتحة باب ممسكاً بجرد في يديه، نادى بصوت مرتفع «يا أمي! يوجد رجل» فخرجت من نفس الباب امرأة رشيقة ترتدي بنطلوناً مخصصاً لركوب الخيول وتضع تلفيعة حمراء على رأسها وبدت في أوائل الأربعينيات، امرأة جميلة منتصبة القامة، قلت: أبحث عن المدام دي سيتاس.

ـ أنا المدام دي سيتاس.

اقتربت منها شاهدت غضون حول طرف عينيها وترهلات خفيفة حول رقبتها، وبدا أن سنها أقرب إلى الخمسين، إلا أن ذلك جعلها تبدو أقل من سنها الحقيقي بعشر سنوات.

قلت: جئت لكي أسألك عما إذا كان باستطاعتك أن تساعديني في الرسالة العلمية الأدبية التي أقوم بإعدادها.

ـ أنا!!

ـ هذا إذا كنت ذات يوم تسمين الآنسة ليلى مونتجمري.

ـ المسألة لا تتعلق بوالدك، لو كان الوقت غير ملائم الآن، يمكنني أن أجيء إليكم مرة أخرى.

ـ نحن نقوم بإزالة مخلفات الخيول من الإسطبل.

ـ إنني أكتب دراسة عن ـ موريس كونشيس؟

ورحت أرقبها مثل الصقر ولكنني كنت فوق حقل شاغر، من يكون موريس هذا؟

ـ إنه كاتب يوناني مشهور، كان يعيش في إنجلترا عندما كان شاباً صغيراً.

مشطت كتلة من شعرها إلى الوراء في شيء من الرعونة وقلة الذوق بيدها المرتدية للقفاز وأدركت أنها إحدى النساء اللائي لا يعرفن أي شيء سوي الخيول والمنازل والأطفال، وقالت: بكل صدق، إنني آسفة للغاية، من المؤكد أنك وقعت في غلطة ما.

ـ ربما تكوني قد عرفت ذلك الرجل تحت اسم تشارلز ويمرث؟ أو تحت اسم هاملتون ديوكس؟ منذ فترة طويلة للغاية.. منذ الحرب العالمية الأولى.

ـ ياسيدي الفاضل، هل تعرف كم كان عمري عام ١٩١٤؟

ـ من الواضح أنك كنت صغيرة في السن للغاية في ذلك الوقت، ابتسمت، وقالك: كنت في العاشرة.

هززت رأسي، لقد خدعني كونشيس مرة أخرى ووضعني في موقف مثير للسخرية، لعله التقط الاسم بالصدفة من دليل قديم، وغمرت نفسي في المزيد من المجازفات في غير حرص أو حذرورددت: يبدو أن هناك خطأ ما بالتأكيد.

فأصابها التردد، وكنت أنا عنيدا في أدب وكررت عليها» مجرد عشر دقائق» فاستدارت إلى ابنها وقالت: بنجي، اذهب واطلب من جنهيلد أن يعد لنا القهوة، وأحضرها إلى الحديقة.

وجرى بنجي على الحصباء وسرت وراء مدام دي سيتاس التي راحت تخلع القفاز من يديها، نفذت من باب إلى حديقة قديمة جميلة، وشاهدت بحيرة من أزهار الخريف، وعند الجانب البعيد من المنزل كانت توجد مساحة مزروعة بالحشائش وشجرة أرز، وقادت الطريق متقدمة إياي نحو رواق مشمس، وكان هناك كرسي هزاز يوجد فوقه

مظلة للوقاية من وهج الشمس، وجلست فوقه ثم أشارت إلى كرسي لكي أجلس عليه، وتمتمت بكلام ما عن الحديقة، ثم قالت: الآن حدثني عن كاتبك المشهور الذي لم أسمع عنه على الإطلاق، هل تقابلت معه؟.

ـ لقد مات في أثناء الاحتلال.

ـ يا له من رجل مسكين، وما هو سبب الوفاة؟ فأسرعت قائلاً: مرض السرطان، لقد كان متحفظاً للغاية بشأن ماضيه مما يجعل المرء يضطر لأن يستنتج أموراً من إنتاجه الأدبي، نحن نعرف أنه كان يونانياً ولكنه كان يتظاهر بأنه إيطالي، لقد تحول من الموسيقى إلى الأدب، وهناك إشارات عديدة للغاية وردت في قصائده الأولى وكذلك في رواية طويلة كتبها، إلى حب تعيش وقع فيه عندما كان لا يزال يقيم في انجلترا ولكنه حب بالغ الأهمية بالنسبة له، وبالطبع نحن لا نعرف ـ أو لم نكن نعرف ـ إلى أي حد كان يعبر عن الحقيقة الواقعة وإلى أي حد كان يبالغ في تصويره لذلك الحب.

ـ ولكن، هل ذكر اسمي.

ـ هناك إشارات ودلائل عديدة توحي بأن اسم الفتاة التي أحبها هو اسم زهرة، وبأنه كان يسكن بالقرب منها، وأن الرابطة المشتركة بينهما هي الموسيقى.

فاعتدلت في جلستها في انبهار وافتتنان، وقالت: وكيف أمكنك بحق السماء أن تربط بيننا وبين كل ذلك؟

ـ هناك مفاتيح عديدة، اعتمدت على الإشارات التي وردت في إنتاجه الأدبي، لقد تحدث عن هذه الفتاة التي تحمل اسم عائلة بريطاني قديم، كما اعتمدت على اسم والدها الطبيب المشهور، وبعدئذ بدأت أرجع إلى دليل أسماء الشوارع.

ـ هذه جهود غير عادية للغاية.

ـ عادة ما يصادف المرء المئات من الطرق المسدودة، ولكن الإنسان عليه أن يشق طريقة بنجاح.

وابتسمت وحملقت في اتجاه المنزل ثم قالت: ها هو جنهيلد.

وعلى مدى الدقيقتين أو الدقائق الثلاث دقائق التالية انهمكنا في صب القهوة وتحدثنا عن النرويج، وصدرت الأوامر لبنجي لكي ينصرف وأصبحت أنا وليلى الأصلية بمفردنا.

ولكي أحدث تأثيراً عليها، استخرجت مفكرة من جيبي، راحت تحدثني عن السيد أرت مدرس الموسيقى، وحاولت أن أجد له علاقة بكونشيس، أعتقد أنه كان يعيش في مكان مجاور لك، وهو لم يكن يسكن بجوار، فأين كان يعيش؟

ـ ليس لدى أدنى فكرة عن ذلك، فأنت تعرف تلك المرحلة من العمر.

قلت: ربما أخواتك يعرفن شيئاً؟

فتجهم وجهها، وقالت: أختي الكبيرة تعيش في شيلي، أكبر مني بعشر سنوات، أما أختي روز...

ـ روز! يا إلهي! إن هذا يحسم الأمر، فهناك قصيدة غامضة تشير إليك وإلى أخواتك، وهي قصيدة غامضة للغاية، ولكننا نعرف الآن أنك لك أخت.

ـ كانت لي أخت، لقد ماتت روز في تلك الفترة تقريباً، في عام ١٩١٦.

ـ ماتت نتيجة إصابتها بالتيفود؟

وقلت تلك العبارة في اهتمام بالغ حتى إنها أصيبت بالذعر فجأة،

ولكنها ابتسمت بعدئذ وقالت: لا، لقد ماتت بسبب تعقيدات نادرة أعقبت إصابتها بمرض اليرقان، وقد سبب لي موتها مأساة هائلة في أثناء فترة طفولتي.

ـ وأختك روز، أكانت أكبر منك؟

ـ بعامين.

ـ إذن فالصورة كانت عبارة عن فتاتين صغيرتين تضايقان مدرسا للموسيقى أجنبياً؟

وبدأت تتأرجح في مقعدها، وقالت: كنا نتجاوز حدودنا ولكنني لا أتذكر جيداً، أقصد أننا كنا نضايقه بالفعل، وإني لواثقة تماماً بأننا كنا مدللات، ولكن الحرب بدأت بعد ذلك، واختفى هو.

ـ إلى أين ذهب؟

«لا أدري، ليس لديَّ أدنى فكرة، ولكنني أذكر أن امرأة شرسة حلت مكانه، وكنا نكره هذه المرأة، وأني لواثقة بأننا افتقدناه، وأعتقد أننا كنا فتيات صغيرات متغطرسات مزعجات، هكذا كنا في تلك الأيام.

ـ على مدى كم من السنوات قام بالتدريس لكما؟

فقالت وكأنها تسألني: لمدة عامين؟

ـ أتذكرين أي دليل يدل على أنه كان يشعر نحوك بحب جارف؟

فراحت تفكر للحظات طويلة ثم هزت رأسها وقالت: أنت لا تقصد.. شيئاً ما رديئاً؟

ـ لا، ولكن هل حدث أن جلست معه في خلوة بمفردك في أي وقت من الأوقات؟

فظهرت عليها تعبيرات الصدمة الزائفة ثم قالت: أبداً، لا على الإطلاق، كانت توجد دائماً المربية الخاصة بنا أو أختي أو والدتي.

ـ ألا يمكنك أن تصفي لي شخصيته؟

«إنني متأكدة إذا تقابلت معه الآن فأنه سيكون على ما أعتقد رجلاً لطيفاً ضئيل الحجم.

ـ ألم تعزفي أنت أو أختك على آلة الفلوت؟

فابتسمت بسبب سخافة التساؤل وقالت: سبحان الله! لا.

«سأوجه إليك سؤالاً خصوصياً للغاية، هل يمكن لك القول إنك كنت فتاة صغيرة رائعة الجمال على نحو مذهل.. أنا واثق بأنك كنت كذلك ـ ولكنك كنت تدركين أنه كان هناك شيء ما له صفة الخصوصية بعض الشيء يتعلق بك؟

فنظرت لأسفل نحو سيجارتها: لصالح البحث الذي تقوم به ـ يا عزيزي كيف لي أن أقول ذلك ـ فإن إجابتي هي، نعم... أعتقد أنه كان هناك شيء ما له صفة الخصوصية، وحقيقة الأمر أنه رسمت لي صورة زيتية، وأصبحت هذه الصورة مشهورة للغاية، وكانت آخر صيحة وآخر موضة لعام ١٩١٣، وهذه الصورة موجودة بالمنزل حالياً سأريها لك في خلال دقيقة.

رجعت إلى مفكرتي.. وأنت لا تستطيعين أن تتذكري ما حدث له عندما نشبت الحرب؟

فراحت تضغط بيدها الجميلتين على عينيها ثم قالت: يا إلهي، أعتقد أنه قد اعتقل، ولكني لا أذكر على وجه الدقة.

ـ هل تعتقدين أن أختك الموجودة في شيلي قد تتذكر على نحو أفضل؟

وهل يمكنني أن أكتب رسالة إليها؟

وأملتني عنوانها، فقمت بكتابته.

وجاء بنجي وقد بدا عليه بدون أن يتكلم أن صبره قد نفد، راحت أمه تربت على شعره، بينما قلت له: يا عزيزي لقد اكتشفت والدتك منذ لحظات أنها ربة للفن وأنها مصدر الإلهام، فالتفتت الأم إليَّ وقالت: أتلك هي الكلمة؟

ـ ما معنى كلمة مصدر الإلهام.

ـ إنها السيدة التي تجعل رجلاً يكتب القصائد.

ـ وهل يكتب القصائد؟

وضحكت والتفتت إليَّ: وهل هو مشهور حقاً؟

ـ أعتقد أنه سيصبح مشهوراً ذات يوم.

ـ أيمكنني أن أقرأ شيئاً من إنتاجه؟

ـ مؤلفاته لم تترجم حتى الآن، ولكن من المؤكد أنها سوف تترجم.

ثم قالت: بكل صدق، لا أظن أن باستطاعتي أن أخبرك بالمزيد عنه، ثم ضحكت ونهضت واقفة تحت ضوء الشمس وأمسكت بيد ابنها، وقالت: سنقوم فقط بعرض لوحة زيتية على المستر أورفي ثم نعود إلى أعمالنا.

وسرنا إلى المنزل ودخلنا غرفة تضم منضدة طعام طويلة وشمعدانات فضية، وفوق مجموعة من الألواح الخشبية كانت توجد لوحة زيتية، وأسرع بنجي وأضاء لمبة كهربائية متواجدة فوق اللوحة، فظهرت صورة لفتاة تشبه بعض الشيء آليس ولها شعر طويل وترتدي زي البحارة، وكانت تلتفت نحو باب كما لو كانت مختبئة، وكان وجهها مليئاً بالحيوية والتوتر ومع ذلك كانت البراءة ما تزال تطل من عينيها، وتحت الصورة قرأت كلاماً مكتوباً بماء الذهب، المعاكسة في شقاوة / بريشة الفنان سير وليان بلانت.

ـ جميلة وجذابة وساحرة.

أومأت برأسها فصاح الولد بصوت مرتفع قائلاً: إننا نطلق على هذه الصورة اسم «كيف يمكنك أن تصبح صبيانيا ومفرطاً في العاطفة»؟

واعتذرت عن عدم استطاعتها دعوتي لتناول الغداء معهم حيث تعتمد على الوجبات الجاهزة التي تقدمها «مؤسسة النساء»، وعدتها أن لها نسخة من ترجمتي لأشعار كونشيس بمجرد نشرها.

وبعد أن أصغيت إليها أدركت أنني مازلت ضحية الرجل العجوز، وأنني مازلت أصدق إلى حد ما وصفه الأخير لماضيه الغني المتحرر من النزعات الإقليمية والذي أرغمني على تقبله، وتذكرت الأصداء المتكررة التي وردت في قصصه عن التغير الحيوي في حياته في العشرينيات، وبدأت أشيد افتراضاً جديداً، لعله كان الابن الموهوب لأسرة مهاجرة يونانية فقيرة، وأنه يخجل من اسمه اليوناني فاتخذ لنفسه اسماً إيطاليا وحاول أن يرتقي بنفسه في داخل المجتمع الغريب عليه في لندن وحاول أن ينفض عن نفسه تاريخ بحيث أصبح يعيش نوعاً من الحياة المزدوجة، وبحيث أصبحنا جميعاً نحن الذين تورطنا في «أسلوب» بوراني بمثابة كبش الفداء لكل التعاسات التي تعرض لها، وفي البيوت التي عانى في داخلها في أثناء تلك السنوات البعيدة، وابتسمت لنفسي لدى إمساكي بهذا الخيط الجديد في أثناء قيادتي للسيارة.

وصلت إلى الشارع، كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة والنصف ظهراً، فقررت أن أتناول الطعام قبل أن أعود إلى لندن، للك توقفت عند حانة صغيرة، وجلست عند البار وكنت أنا الشخص الوحيد الجالس هنالك، وتساءل صاحب الحانة وهو يقدم لي كأساً: أكنت تمر بسيارتك في أثناء رحلتك؟

ـ كنت في زيارة لشخص ما، في منزل دنزفورد.

ـ إنها تسكن في مكان جميل هنالك.

ـ هل تعرفهم؟

كانت لهجته في الكلام شبيهة بلهجة الرجل الذي هو على وشك أن يتقيأ، وظهرت رأس امرأة أضفت على شعرها اللون الأشقر عند الباب، ممسكة بطبق به شطائر، وقال وهو يناولني باقي النقود: إنها مغنية في أوبرا، ألم تكن كذلك؟

ـ لا أظن ذلك.

ـ هذا ما يقوله الناس في هذه المنطقة، والتزمت بالصمت لكي أتيح له الفرصة لتزويدي بالمزيد من المعلومات ولكنه لم يكن مهتماً للغاية بالحديث عنها، تساءلت: ما هو العمل الذي يقوم به زوجها؟

فقال: إنها غير متزوجة، نحن هنا منذ عامين فقط، وفي خلال هذه الفترة لم أسمع عن وجود زوج لها، ولكن هناك مجموعة من الأصدقاء.. وهذا هو ما قيل لي.

ـ آه، فهمت.

سادت فترة من الصمت، ثم التقط كأساً وقال إنها امرأة جميلة الشكل، ألم تشاهد كريماتها؟ فهززت رأسي، فراح يلمع الكأس وقال:

ـ إن بناتها جميلات للغاية ولهن مقدرة فائقة

ـ كم عمر بناتها؟

«لا تسألني هذا السؤال، فأنا في هذه الأيام لا أستطيع التفرقة بين الفتاة في سن العشرين والفتاة في سن الثلاثين، والبنتان الكبيرتان توأم.

ولو لم يكن مشغولاً في تلميع الكأس، لشاهد وجهي يتجمد مثل الحجر.

ثم رفع الكأس الزجاجي لأعلى في اتجاه الضوء، وأضاف: ويقال

إن أمهما لا تستطيع التمييز بينهما إلا من خلال الندبة الغائرة الموجودة في يد إحداهما.

وخرجت من الحانة بسرعة خاطفة حتى إنه لم يكن لديه متسع من الوقت لكي يصيح منادياً عليَّ.

(٦٧)

لم أشعر بالغضب في بادئ الأمر، قدت السيارة بسرعة حتى كدت أقتل رجلاً يركب دراجة ولكنني كنت أبتسم لنفسي في معظم الطريق، في هذه المرة لم أتوقف بسيارتي في تحفظ عند البوابة وإنما انزلقت بها على الممر الخصوصي، أوقفت سيارتي أمام الباب الأسود، واستخدمت مقرعة الباب في طرق عنيف لم يشهده الباب طوال حياته الممتدة على مدى قرنين من الزمان.

وفتحت مدام دي سيتاس الباب بنفسها، كانت قد غيرت ملابسها فارتدت بنطلونا من النوع العادي، ونظرت إلى ما ورائي نحو سيارتي كما لو كان ذلك سيوضح لها السبب في عودتي إليها، وابتسمت: يبدو أنك لن تخرجي لتناول الغداء خارج المنزل.

ـ نعم، لقد وقعت في غلطة في هذا اليوم.

أغلقت ياقة قميصها وقالت: هل نسيت شيئاً ما هنا؟

ـ ابنتيك التوأم.

تغيرت التعبيرات على وجهها، ولم يظهر عليها أنها مذنبة على الإطلاق، نظرت إليَّ نظرة مليئة بالإذعان ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة للغاية، وتعجبت من نفسي لأنني لم ألحظ التشابه في العينين وفي الفم الطويل، وقفزت إلى ذهني تلك اللقطة الفوتوغرافية الزائفة التي عرضتها

ليلى عليَّ، كانت صورة لامرأة ذات شعر منفوش لأعلى، ثم اتخذت هي خطوة للوراء لكي تسمح لي بالدخول.

ظهر بنجي عند باب متواجد في نهاية الصالة، فتكلمت مع ابنها في هدوء وهي تغلق الباب ورائي، وقالت له: كل شيء على ما يرام، اذهب وتناول طعام غذائك.

انحنيت قليلاً أمام الولد وقلت له: يا بنجي، هل يمكنك أن تخبرني بشيء ما؟ تخبرني باسمي أختيك التوأم؟

فحملق في وجهي في شكوك ولكنني أدركت أنه يشعر بشيء من الخوف أيضاً وكأنه ضبط متلبساً بإخفاء شيء ما، ونظر إلى والدته، ومن المؤكد أنها أومأت له برأسها، فقال الصغير: ليلى وروز.

ـ شكراً جزيلاً.

وألقى عليَّ نظرة أخيرة مليئة بالشكوك ثم اختفى، فالتفت إلى مدام ليلى دي سيتاس، قالت وهي تسير نحو غرفة الاستقبال: سميناهما بهذين الاسمين لكي نسترضي والدتي.

وجلست في كرسي فوتيه، وأشارت لي بيدها لكي أجلس على الأريكة الكبيرة التي توجد في منتصف الحجرة ولكنني هززت رأسي، ولم تكن متوترة بل وابتسمت لي وقالت: حسناً؟

نحن نبدأ من الحقيقة التي مفادها أن لك ابنتان مغامرتان، دعيني أسمعك وأنت تلفقين مرة أخرى ابتداء من هذه النقطة.

ـ أخشى أن تكون تلفيقاتي قد وصلت إلى نهايتها، ولا أستطيع إلا أن أقول لك الحقائق، موريس هو الكفيل المعمد للفتاتين التوأم.

ـ هل تعرفين من أنا؟

ـ أنا المستر أورفي، وأعرف من أنت.

نظرت لأسفل إلى يديها ثم نظرت إليَّ وقالت: لقد قتل زوجي في عام ١٩٤٣، في الشرق الأقصى، وهو لم يشاهد بنجي على الإطلاق، وهو أيضاً كان أول مدرس للغة الإنجليزية في مدرسة لورد بيرون.

ـ لم يكن مدرساً في مدرسة لورد بيرون، فلقد بحثت في كافة النشرات المطبوعة.

إذن فأنت تذكر الاسم: هيوز.

ـ نعم.

فوضعت ساقا على ساق، كانت تجلس في كرسي قديم ذهبي اللون وكانت معتدلة للغاية في جلستها وكانت كل مظاهر الخيول في هذه المنطقة قد اختفت، وقالت لي: هل تجلس.

تقبلت رفضي وبرودي، وهزت كتفيها هزة خفيفة، ونظرت نظرات عميقة في عيني، نظرات تتسم بأنها ثاقبة وخالية من الخجل والاضطراب بل ومتغطرسة، ثم شرعت في الحديث:

ـ لقد مات والدي عندما كان عمري ١٨ عاماً، ولكي أهرب من المنزل دخلت في زواج غبي، وفي عام ١٩٢٨ تقابلت مع زوجي الثاني، كنا نرغب في الخروج من إنجلترا لبعض الوقت ولم يكن لدينا قدر كاف من النقود، وتقدم هو ليشغل وظيفة مدرس في اليونان، كان عالماً مثقفاً يحب بلاد اليونان، وتقابلنا مع موريس، حملت في ليلى وزوز في أثناء وجودي في جزيرة فراكسوس، وكان ذلك في منزل أعطاه موريس لنا لكي نقيم فيه.

ـ أنا لا أصدق كلمة واحدة مما تقولينه، ومع ذلك استمري في الكلام.

ـ وشعرت بالذعر لدى إنجابي توأم في اليونان واضطررنا أن نرجع إلى إنجلترا، وكان اسم والدتي قبل زواجها هو: دي سيتاس، وكان لها

أخ أعزب، وهو بالغ الثراء وكان يعاملني كابنة له، كانت والدتي امرأة تميل إلى الاستبداد.

تذكرت أن كونشيس كان قد قال لي: إنه عثر على بوراني في إبريل ١٩٢٨.

قلت: تقولين إنك لم تقابلي موريس كونشيس على الإطلاق.. قبل عام ١٩٢٩؟.

فابتسمت وقالت: بالطبع لا، لكنني زودته بكل تفاصيل ذلك الجزء من قصته التي حكاها لك.

ـ وأختك تسمى روز؟

وراحت تنظر في إمعان في عُقب سيجارتها وجعلتني أنتظر للحظات وأكملت: أنجبت التوأم، وبعد ذلك بسنة مات عمي، واكتشفنا أنه ترك كل ثروته شريطة أن يغير بيل اسمه رسمياً إلى دي سيتاس وليس إلى دي سيتاس هيوز، وكانت والدتي هي المسئولة أساساً عن هذه الوضاعة.

ثم نظرت إلى مجموعة الرسومات المنمقة التي تتدلى إلى جوارها عند رف المستوقد، وأضافت: وكان خالي هو آخر الذكور في عائلة دي سيتاس، وحول زوجي اسمه إلى اسمي، بالطريقة اليابانية، ويمكن لك أن تتأكد من هذا أيضاً، هذا هو كل ما في الأمر.

ـ يا إلهي، ليس هذا هذا هو كل ما في الأمر على الإطلاق.

ـ ولأني أعرف عنك الكثير للغاية هل لي أن أناديك في غير تكلفة باسمك الأول: نيقولاس؟

ـ لا.

ابتسمت الابتسامة المثيرة للغيط التي كانت ترتسم على وجوههم جميعاً، وعلى وجهي ابنتيها وعلى وجه كونشيس بل وعلى وجه آنطون وماريا كما لو كانوا جميعاً قد دربوا لكي يبتسموا نفس الابتسامات

الغامضة، خطر على ذهني أنه إذا كان هناك شخص ما قد قام بتدريب الآخرين على تلك الابتسامة فإن ذلك الشخص هو تلك المرأة بالذات، قالت:

ـ لا ينبغي أن تعتقد أنك أول شاب وقف أمامي معبراً عن مرارته وغضبه من موريس، ومنا نحن جميعاً الذين ساعدناه، ولكنك أول شخص يرفض الصداقة التي عرضتها عليك الآن.

ـ لديَّ بعض الأسئلة المزعجة التي أرغب في توجيهها إليك الآن، لماذا أنت معروفة في القرية بأنك مغنية أوبرا؟

ـ لقد غنيت مرتين في كونشرتات محلية، وكنت مدربة على الغناء.

تجاهلتها وتجاهلت رقتها وتجاهلت سلاح الأنوثة الخاصة بها وأعطيت ظهري لها قائلاً: يا عزيزتي مدام سيتاس، لا يمكن لأي قدر من السحر والجاذبية والذكاء، ولا لأي قدر من التلاعب بالألفاظ أن يجعلك تفلتين من الحصار.

فالتزمت بالصمت لفترة طويلة، قبل أن تكمل:

ـ أنت الذي شكلت موقفنا، فأنت تجيء إلى هنا لكي تقول لي الأكاذيب، أنت تجيء إلى هنا من أجل كافة الأسباب الخاطئة، ولذلك فأنا أردد عليك بأن أقول لك أكاذيب، أرد عليك بأن أذكر لك الأسباب غير الصحيحة.

ـ هل ابنتاك هنا؟

ـ لا.

فاستدرت لكي أواجهها وأنظر إليها: وماذا عن آليسون؟

ـ آليسون وأنا صديقتان حميمتان.

ـ أين هي؟

فهزت رأسها والتزمت بالصمت، قلت: أطلب منك أن تذكري لي مكان آليسون.

ـ في داخل منزلي لا يمكن لأي شخص أن يصدر أوامره.

ـ حسناً، لسوف نعرف وجهة نظر الشرطة في ذلك الأمر.

ـ يمكنني أن أخبرك من الآن وجهة نظر الشرطة، إنهم سيعتقدون أنك سخيف.

أعرضت بوجهي مرة أخرى محاولاً أن أدفعها لأن تقول المزيد من الكلام، ولكنها جلست فوق المقعد فأحسست بعينيها متمركزتين على ظهري، كنت أدرك أنها جالسة، وأدرك أنها كانت تشبه آلهة جالسة على عرشها وليست مجرد امرأة ماهرة تناهز الخمسين من عمرها في عام ١٩٥٣ في غرفة مع وجود جرار يدندن في مكان ما قريب بالحقول ولكنها كانت تلعب دور متأصلاً في الولاء لمفاهيم لم أستطع فهمها والولاء لأناس لا يمكنني أن أغفر لهم حتى إنه كاد ألا يكون دوراً.

ونهضت واقفة، واتجهت إلى مكتب متواجد في الركن ورجعت ومعها بعض الصور وضعتها على منضدة وراء الأريكة، ثم رجعت إلى كرسيها، ووجهت لي الدعوة لكي ألقي نظرة على الصور، كانت هناك صورة لها وهي جالسة على الكرسي الهزاز أمام الرواق المستوف، وعند الجانب الآخر من الصورة كان كونشيس جالساً وبينهما كان يوجد بنجي، وفي صورة أخرى شاهدت ليلى وروز، كانت ليلى تبتسم وهي تنظر للكاميرا أما روز فقد ظهر بروفيل وجهها وهي تضحك ويبدو أنها كانت تمر خلف أختها، ومرة أخرى شاهدت الرواق المسقوف في خلفية الصورة، والصورة التالية كانت صورة قديمة وتعرفت فيها على بوراني، كان يوجد بها خمسة رجال واقفين أمام المنزل، وكان كونشيس واقفاً في الوسط وإلى جواره امرأة جميلة، إنها ليلى دي سيتاس، وهناك

رجل طويل يلف ذراعه حولها، نظرت إلى ظهر الصورة: كانت هناك عبارة «بوراني ١٩٣٥».

ـ من هما هذان الشخصان؟

ـ أحدهما صديقاً، أما الآخر فكان سابقاً عليك.

ـ أهو جيوفري سوجدين؟

فأومأت برأسها في شيء من الدهشة، ووضعت الصورة على المنضدة وقررت أن أقوم بقدر ضئيل من الانتقام، فقلت: لقد اقتفيت أثر أحد أساتذة ما قبل الحرب بالمدرسة، فزودني بقدر كبير من المعلومات.

سادت لحظات من الصمت المليئة بالارتباك وتفرست بعينيها في عيني، ثم قالت: ماذا قال لك؟

ـ قال كلاماً كثيراً.

ومرة أخرى اتجهت إلى المكتب واستخرجت خطاباً وفصلت الجزء الأسفل منه وعملت مراجعة على الخطاب ثم ناولتني إياه، لقد كان نسخة كربونية من الخطاب الذي أرسله نيفينسون إليَّ، وكان قد كتب في الجزء الأعلى من الخطاب ما يلي: «آمل ألا يتسبب هذا في أي ضرر دائم لعيني مستلم هذا الخطاب»! كانت قد استدارت بعيداً وبدأت تنظر إلى أرفف الكتب، ثم عادت وناولتني ثلاثة كتب وأخذت مني الخطاب، وابتلعت السخرية والتهكم، ونظرت إلى الكتاب الموجود أعلى الكتابين الآخرين ـ إنه من الكتب المدرسية المقررة على الطلبة ومربوط بقطعة من القماش الزرقاء، وقرأت عنوان ذلك الكتاب: مقتطفات مختارة من الأدب اليوناني من أجل المدرس جمعها وشرحها وعلق عليها وليام هيوز الحاصل على الماجستير من جامعة كمبردج عام

١٩٣٢ ، أما الكتاب الثاني فكان طبعة محدودة لترجمة للونجوس بتاريخ ١٩٣٦.

ـ عام ١٩٣٦ ، ما زال هيوز؟

ـ أي مؤلف له الحق في استخدام الاسم الذي يعجبه.

تذكرت كلاماً تفصيليا عن القصة التي قالت ابنتها، سألتها: هل قام بالتدريس في ونشستار؟ ابتسمت وقالت: لفترة قصيرة، قبل أن نتزوج، أما الكتاب الآخر فكان طبعه لترجمات عن قصائد لشعراء يونانيين محدثين، نظرت لأعلى في ضيق وقلت: موريس كونشيس، الشاعر المشهور، اختيار رائع من جانبي.

فأمسكت بالكتب ووضعتها على المنضدة وقالت: تصورت إنَك فعلت ذلك في ذكاء شديد.

ـ ومع ذلك فأنا شاب سخيف وغبي للغاية.

جلست في مقعدها الهزاز وابتسمت في وجهي ابتسامة دافئة في خبث، ابتسامة بها روح الصداقة من امرأة ذكية متوازنة، اتجهت إلى النافذة، فتلامس ضوء الشمس مع يدي، وشاهدت بنجي والفتاة النرويجية يلعبان عند الرواق المسقوف، ومن وقت لآخر كانت صيحاتهما تترامى إلينا.

استندت بظهرها للوراء وأغمضت عينيها، ثم قالت: يا عزيزي أورفي، عليَّ أن أوضح أنني حصلت على اسمك من المعهد البريطاني، وزوجي الذي كان أول مدرسة للغة الإنجليزية في مدرسة لورد بيرون مات مؤخراً ولقد عثرنا بين أوراقه على وصف لتجربة مشهورة بشأن.. ثم رفعت حاجبي عينيها في استفسار، أخشى ألا أستطيع أن أجيبك على ذلك التساؤل.

وصلت إلى رف في الحائط فوق المدفأة بجوارها واستخرجت صورة

فوتوغرافية، من خلف حلية، كانت الصورة لثلاث نساء ممتطيات ظهور الخيول، إحداهن ليلى دي سيتاس، وكانت الثانية جنهيلد، أما الثالثة فكانت آليسون، قد بدا عدم الثقة على وجهها وهي تضحك، سألت: هل تقابلت مع ابنتيك؟ فحملقت عيناها لأعلى نحوي، وقالت: لو سمحت احتفظ بهدوء أعصابك.

راحت ترقبني وقد وضعت ذقنها على يدها وهي جالسة في كرسيها الأصغر، وكانت هادئة، لم أعرف سبب هدوئها ولكنها مسيطرة على مشاعرها، شعرت أنني مثل جرو متهور يقتفي أثر أرنب بري عجوز ماكر، نظرت إلى صورة آليسون ثم مزقتها إلى أربعة أجزاء وألقيت بها في طفاية سجاير، ساد الصمت ولكنها قالت بعد قليل: يا عزيزي الشاب المستاء، دعني أقول لك، آليسون لديها مقدرة نادرة على الارتباط والإخلاص. وعلى نحو يفوق كثيراً ما كان لديَّ من إخلاص في أي وقت من الأوقات، وأعتقد أن هذه الميزة ذات قيمة كبيرة، لقد حاولت أن أقنعها بأنها يجب عليها ألا تقلل من قيمة الأمور التي ينبغي لها أن تقدمها.

ـ كما أنت شفوقة؟

فتنهدت قائلة: السخرية اللاذعة مرة أخرى.

ـ حسناً، وما الذي تتوقعينه؟ دموع الشعور بالندم؟

ـ أنت أكثر الشباب سعادة وأكثرهم في عدم الرؤية، أنت سعيد لأنك تتمتع بهذه الجاذبية رغم أنك مصمم على عدم إظهار جاذبيتك لي، وأنت أعمي لأنك تمتلك قطعة من الأنوثة الخالصة بين يديك، هل تدرك أن آليسون تمتلك تلك الخاصية الهائلة الوحيدة التي ينبغي أن يساهم بها الجنس الناعم في الحياة؟ إنها خاصية تتضاءل أمامها الخواص الأخرى مثل التعليم والطبقة الاجتماعية والخلفية التاريخية بل وتعتبر لا

شيء بالنسبة لتلك الخاصية الأنثوية الهائلة، ومع ذلك فقد تركتها تنزلق من بين يديك.

ـ وذلك بفضل ابنتيك الفاتنتين.

ـ لم تكن ابنتاي سوى تجسيد لأنانيتك.

فتصاعد في داخلي غضب مبهم وعميق، وقلت: لقد وقعت بطريق الصدفة، في حب واحدة من بنتيك.

ـ مثلما يقع جامع للوحات الفنية، في حب لوحة زيتية يريد الحصول عليها، ويستعد لأن يفعل أي شيء من أجل الحصول عليها.

ـ لم تكن لوحة فنية، وإنما فتاة لديها قدر من المبادئ الأخلاقية يعادل ما تملكه عاهرة ومتآكلة تعيش في بلاس بيجال.

نهضت واقفة واستندت بإحدى يديها على الرف الموجود بالحائط فوق المدفأة وراحت ترقبني وأنا أتجول داخل الغرفة، إنها تتلاعب بي مثل طائرة ورقية، كان بمقدوري أن أقوم بحركة فجائية وأنفتح، ولكنها كانت ممسكة بخيوط الطائرة الورقية، سألت: أنت على استعداد لأن تصغى في انتباه بدون أن تقاطعني في الحديث؟

فنظرت إليها ثم هززت كتفي موافقاً: حسناً، إذن فلنضع جانباً مسألة ما هو صحيح وما هو غير صحيح من الناحية الجنسية، لأنني أعيش في منزل مشابه لمنزل الملكة آن، لا تظن أنني أعيش، مثلما يظن معظم الناس في بلادنا، وفقاً لأخلاقيات الملكة آن.

ـ ليس هناك شيء بعيد عن عقلي.

وقفت عند النافذة وقد أعطيت ظهري لها، وشعرت أنه ينبغي أن أسد عليها كافة السبل وأضعها في موقف حرج، وأضافت قائلة: لو أن موريس هنا لكان قد قال لك إن الجنس بمثابة لذة أكبر من أي لذة أخرى ولكنه ليس بأي حال من الأحوال متعة مختلفة، كان سيخبرك أن

الجنس ليس سوى جزء واحد - وليس هو الجزء الجوهري - في العلاقة التي نسميها الحب، كان سيقول لك أن الجزء الجوهري في الحب هو الصدق وهو الثقة التي يشيدها الحبيبان في عقليهما، في نفسيهما، في إرادتهما، وسيقول إن الخيانة الزوجية الحقيقية هي الخيانة التي تخفي الخيانة الجنسية، لأن الشيء الوحيد الذي لا ينبغي أن يحدث بين رجل وامرأة قدما الحب لبعضهما البعض هو الكذب.

حملقت إلى الخارج في اتجاه المساحة المزروعة بالحشائش، وأدركت تحفظ كلامها عن ظهر قلب، كانت لهجتها لطيفة بشكل غير متوقع بل وأضافت: إنني أحاول أن أوضح لك ما نحن عليه، لقد أقنعنا موريس - منذ أكثر من عشرين عاماً - بأن علينا أن نلغي المحرمات المتعلقة بالسلوك الجنسي من حياتنا، ليس بسبب أننا نتسم بالفساد الأخلاقي، ولكن لأننا أكثر التزاماً بالأخلاقيات من الآخرين، لقد حاولنا أن نفعل ذلك في حياتنا الخاصة، حاولت أن أفعل ذلك بالنسبة للطريقة التي ربيت بها أطفالنا، وينبغي لي أن أجعلك تفهم أن الجنس بالنسبة لنا جميعاً، نحن الذين نقوم بمساعدة كونشيس، ليس هو الشيء الوحيد في حياة أغلب الناس، فالناس لديهم أمور أكثر أهمية ينبغي أن يفعلونها.

ثم أضافت قائلة «قبل الحرب لعبت دوراً مزدوجاً شبيهاً إلى حد ما بالدور الذي لعبته ليلى معك، وهي على استعداد لأن تفعل أشياء لم أكن على استعداد أن أفعلها، كان أمامي الكثير من المحرمات التي طرحتها جانباً، والتي كان عليَّ أن أتخلى عنها، كان لي زوج أعشقه من الناحية الجنسية مثلما أعشقه في كافة الأمور، ولكن نظراً لأننا تغلغلنا بعمق شديد في حياتك فإنني أجد لزاماً أن أقول إنني أسلمت نفسي لكونشيس مرات عديدة حتى في أثناء وجود زوجي على قيد الحياة وكان هو على معرفة كاملة بذلك وتم ذلك بموافقته، وهو بدوره في أثناء الحرب كان يحتفظ لنفسه بسيدة هندية وكنت أنا على علم بذلك

وكنت موافقة عليه، ومع ذلك أعتقد أن زواجنا كان كاملاً بل سعيداً تماماً لأننا كنا نحافظ على اثنين من المبادئ الجوهرية، إذ لم يسبق لنا أن تبادلنا الأكاذيب، لن أقول لك المبدأ الآخر إلى أن أعرف جوانب شخصيتك على نحو أفضل.

نظرت حولي في احتقار، واكتشفت أن هدوءها لا يبعث على الراحة وأدركت أن الجنون كان يتأجج تحت السطح، ثم جلست هي مرة أخرى، وقالت: إذا كنت ترغب أن تعيش في العالم الذي تحل فيه الأخلاقيات فإن ما فعلته ابنتي يعتبر أمراً مثيراً للاشمئزاز، حسناً، يجب أن تتذكر أن هناك تفسيراً آخر، فهي ربما كانت ملتزمة بالشجاعة الشديدة، لا أنا ولا طفلتي، نحن أغنياء وأذكياء ونهدف لأن نحيا حياة تتسم بالغنى والثراء والذكاء.

ـ أنتم سعداء الحظ.

ـ بالطبع، نحن سعداء الحظ، ونتقبل المسئولية التي ألقاها على عاتقنا حظنا السعيد في يانصيب الوجود، رددت على عقبي مرة أخرى لكي أواجهها قائلاً: مسئولية!.

ـ هل تعتقد أننا نفعل هذا من أجلك؟ هل تعتقد أننا لا نقوم بالتخطيط لرحلة طويلة؟ كل ما فعلناه كان بالنسبة لنا ضرورة.

ـ بكل ما تحمله ضرورة الفحش والبذاءة التي لا مبرر لها.

ـ بكل ما تحمله ضرورة تجربة بالغة التعقيد، فقد انتهى عهد التجارب التي تتميز بالبساطة.

وهبط الصمت بيننا، كنت ما زلت مليئاً بالغضب الشديد، وبطريقة ما غامضة كنت خائفاً من التفكير في آليسون وقد وقعت بين يدي هذه المرأة مثلما يسمع المرء عن منطقة ريفية جميلة يتم بيعها لمقاولين يرغبون في تشييد العمارات عليها، شعرت أيضاً أن الناس تخلوا عني.

ـ إنني أعرف شباباً يمكنهم أن يحسدونك، ثم سيشعرون بالشفقة عليك بسبب ضيق أفقك وحماقتك.

ثم وقفت ورائي ووضعت يدها على كتفي وجعلتني أستدير لكي أواجهها، سألت: هل يدل منظري على أنني امرأة شريرة؟ وهل يدل منظر ابنتي على أنهما شريرتان؟

ـ الأعمال والتصرفات هي التي تدل على ذلك وليس المظهر الخارجي.

ـ هل أنت واثق أن تصرفاتنا لم تنطو على أي شيء سوى الشر؟

نظرت لأسفل ولم أستطع أن أجيب عليها، ثم أنزلت يدها عن كتفي، ولكنها ظلت واقفة أمامي عن كثب.

هل يمكنك أن تثق بي لبرهة قليلة لمجرد لحظات قصيرة؟

لم أرد عليها فأضافت قائلة: يمكنك أن تتصل بي تليفونياً، وإذا أردت أن تفتش المنزل يمكنك أن تفعل ذلك، ولكنني أنبهك أنك لن تشاهد أي شخص تريد أن تراه، لا يوجد سوى بنجي وجنهيلد.

ثم نظرت للخارج من خلال النافذة وقالت: أود أن أساعدك.

ـ إنني أريد آليسون، ولا أريد مساعدة.

ـ هل لي أن استدعى لك كونشيس الآن؟

فالتفت بعيداً عنها واتجهت إلى منضدة الأريكة وحملقت في الصور الفوتوغرافية، وأضافت: حسناً، لن أسأل مرة أخرى.

ـ كان بمقدوري أن أذهب إلى إحدى الصحف وأحكي لهم القصة، وأن أدمر كل أعمالكم اللعينة.

ـ مثلما كان باستطاعتك أن تهبط بالسوط في عنف على ظهر ابنتي، فنظرت في حدة إليها وتساءلت: أكنت أنت المتواجدة في التابوت؟

ـ لا.

ـ هل كانت آليسون هي الموجودة؟

ـ قيل لك إن التابوت كان شاغراً، وتقابلت عيناها مع عيني غير المصدقتين، فقالت: أقول لك بكل صدق إن آليسون لم تكن في ذلك التابوت، ولا أنا، ربما كان هناك شخص آخر.

ـ من هو؟

ـ إنه شخص ما.. معروف في كل العالم، ولو شاهدته لعرفته، على الفور.

وبدأت خيوط تعاطفها تشق طريقها في داخل غضبي، فألقيت نظرة مقتضبة ومشيت نحو الباب، فسارت ورائي واختطفت قصاصة ورق من فوق قمة المكتب: خذ هذه القصاصة لو سمحت.

فشاهدت قائمة بأسماء وتواريخ مواليد، هيوز إلى دي سيتاس ٢٢ فبراير ١٩٣٣ ورقم التليفون.

فهزت كتفي ودفعت بقصاصة الورق في إهمال داخل جيبي وواصلت سيرى دون أن أنظر إليها، وفتحت الباب الأمامي في عنف، فجاءت ورائي، توقفت عند باب سيارتي وحملقت في حزن وشقاء نحو مدام دي سيتاس وقلت لها: لسوف أشاهد آليسون في جهنم قبل أن أعود إليك.

ففتحت فمها كأنها بصدد أن تجيب عليَّ ولكنها غيرت رأيها، وظهر على وجهها نوع من التأنيب، دخلت سيارتي، ولدى خروجي من البوابة لمحت هيكلها في المرآة تحت الشرفة المسقوفة، كانت لا تزال واقفة هنالك وكأنها تشعر بالأسف بسبب انصرافي من منزلها.

(٦٨)

كنت أتظاهر بأنني غاضب على نحو يفوق غضبي الحقيقي، وأنها عندما تحاول التخفيف من حدة مشاعري العدائية من خلال اللجوء إلى الهدوء، أحاول تحطيم هدوئها من خلال مشاعري العدائية، ولم أشعر بالأسف بسبب إصراري على معاملتها في غلظة، وكنت أقصد إلى حد ما قلته عن آليسون في تلك الآونة.

لأن هذا أصبح آنئذ هو السر الحقيقي: عدم السماح لي بمقابلة آليسون، كان هناك شيء ما متوقعاً مني أن أفعله، أن أقوم بنوع من الإنجاز العظيم الذي سيتيح لي الفرصة للوصول إلى الجحيم الذي كانت تخفي نفسها فيه، كنت بصدد اجتياز امتحان دقيق، ولكن أحد لم يقدم لي أي إشارة حقيقية لما يراد لي أن أبرهن عليه، كان من الواضح أنني عثرت على المدخل المؤدي إلى الجحيم، أما الأمور التي قالتها مدام ليلى دي سيتاس فلم تقربني منه السر الغامض: ما هي تلك الرحلة الطويلة وما هي تلك الخطط؟

اكتفيت بمشاعر الغضب التي لازمتني في اليوم التالي، ثم ذهبت إلى منزل سومرست، واكتشفت أن كل المعلومات التي زودتني بها مدام ليلى دي سيتاس صحيحة فأدى هذا إلى تحويل غضبي إلى حالة من الاكتئاب.

وفي ذلك المساء اتصلت برقم تليفونها، فردت الفتاة النرويجية على التليفون.

ـ من تكون أنت لو سمحت؟

من المؤكد أن شخصاً ما نادى عليها لأنني سمعتها تقول: «الشخص الذي اتصل تليفونياً لم يرد عليَّ.

وبعدئذ جاء على التليفون صوت آخر: «هالو».

وضعت السماعة وهي لا تزال هناك، ولكن لم يكن هناك شيء يدفعني إلى التكلم معها.

وفي اليوم التالي وهو اليوم الثالث عقب الزيارة قمت بتحرير خطاب مرير موجه إلى آليسون بأستراليا، وكنت قد اعتقدت أن أستراليا هي المكان الذي ذهبت إليه آليسون في نهاية الأمر، وكتبت في ذلك الخطاب كل ما كان ينبغي لي أن أقوله لها، ومن المؤكد أنني رحت أقرأه عشرين مرة كما لو كان باستطاعتي من خلال قراءته مرات كافية تحويله إلى خطاب يتناول حقائق دافعة عن براءتي وعن تواطئها معهم، ولكنني ظللت أؤجل وضعه في صندوق البريد وفي النهاية قضى الخطاب ليلته على الرف الموجود بالحائط فوق المدفأة.

كنت قد تعودت على تناول طعام الإفطار مع كيمب في معظم أوقات الصباح، ولكنني لم أتناول معها الإفطار في تلك الأيام الثلاثة الأخيرة حيث كنت أحمل في داخلي تجهماً موجها ضد كافة الأوضاع البشرية، ولم يكن لدى كيمب أي وقت لكي تقضيه في المطبخ على الإطلاق ولكنها كان بمقدورها أن تعد قهوة جيدة، وفي صباح اليوم الرابع كنت في أشد الاحتياج لاحتساء القهوة.

وعندما دخلت إلى الغرفة وضعت هي جريدة «الديلي ووركر»، ثم جلست هنالك تدخن سيجارتها، وتبادلنا سوياً عبارتين، ثم لاذت بالصمت، ولكن في خلال الدقائق التالية أدركت أنني كنت واقعاً تحت تفحص طويل من خلال الدخان الذي كانت ترتديه مثل قناع رحيم أمام وجهها الصباحي، وتظاهرت بأنني منغمس في القراءة ولكن ذلك لم يخدعها.

ـ ماذا دهاك يانيقولاس؟ لا أصدقاء لك، ولا فتيات، ولا أي شيء، إنني أحاول مساعدتك.

كانت تجلس هنالك في امتلاء وقصر قامة ترتدي فستاناً قديماً، وكان شعرها غير ممشط.

ـ أعرف أنك تحاولين مساعدتي ياكيمب.

نظرت نحو وجهها، كان شاحباً ومترهلاً، ومدت يدها عبر المنضدة وربتت على يدي، وكنت أعرف أنها أصغر في السن من ليلى دي سيتاس بخمس سنوات ومع ذلك كانت تبدو أكبر منها بعشر سنوات، قلت: المسألة في غاية التعقيد، أمامي اليوم بأكمله لكي أساعدك في حل المشكلات.

فجأة بدت لي حملقتها خاوية ومليئة بالتهديد مثل حملقة القاضي الذي يوجه الأسئلة، كنت أشعر بالارتياح نحوها ومع ذلك شعرت أن حب الاستطلاع لديها شبيه بشبكة ملقاة حولي، لقد كانوا مخطئين في آرائهم في أثناء المحاكمة، فأنا لم أقم بالهجوم على الفتيات وافتراسهن، ولكن حقيقة الأمر أن سبيلي الوحيد للوصول إلى الإنسانية السوية وإلى أي انفتاح للقلوب كان يمر من خلال الفتيات اللائي كن يفترسنني، وبذلك كنت الضحية الحقيقية.

لم يكن هناك سوى شخص واحد أريد التحدث إليه، وإلى أن يتم ذلك كنت أحمل بين ضلوعي سري الغامض، بينما تغلفني أسراري وتحدق بي مثل استحكامات دفاعية، ومثل رفيقي الوحيد.

ـ في يوم ما ياكيمب، ليس الآن، فهزت كتفيها ونظرت إليَّ نظرات متحجرة مليئة بالتنبؤ ومنذرة بما هو أسوأ.

وصاحب المرأة العجوز التي تنظف السلالم مرة واحدة كل أسبوعين من خلال الباب، لقد كان تليفوني يدق، فصعدت السلم بسرعة ورفعت سماعة التليفون في أثناء الجرس الأخير والذي بانتهائه تنفصل المكالمة التليفونية:

هالو، أنا نيقولاس أورفي.

ـ صباح الخير يا أورفي، أنا ساندي ميتفورد.

ـ ها أنت قد عدت!.

ثم سلك صوته وأضاف: وصلتني رسالتك المختصرة، وكنت أود أن أسألك عما إذا كان وقتك يسمح بأن نتناول الغداء سوياً في مكان ما.

وبعد دقيقة أخرى وعقب تحديد الوقت والمكان الذي نتقابل فيه رحت أقرأ الخطاب الذي كتبته لآليسون مرة أخرى، كان مالغوليو الجريح منتشراً بين كافة السطور، وبعد دقيقة من أخرى لم يكن هناك خطاب وإنما أصبح الخطاب كتلة من الرماد شأنه شأن كل علاقة أخرى في حياتي، الكلمة نادرة ولكنها دقيقة.

لم يطرأ أي تغير على ميتفورد على الإطلاق، بل باستطاعتي أن أقسم أنه يرتدي نفس الملابس، كان ميتفورد أقل زهواً عن ذي قبل، ولكنه بعد احتساء عدد قليل من كوؤس الجن عاد إلى غروره القديم، إنه لم يتسلم أي خطاب مرسل مني من جزيرة فراكسوس، من المؤكد أنهم مزقوا ذلك الخطاب، كان هناك شيء ما لا يريدون له أن يقوله.

ورحنا نتناول الشطائر ونثرثر ونتحدث عن المدرسة، ولم نتطرق في الحديث إلى بوراني، وظل يذكرني بأنه سبق أن حذرني، وانتظرت حلول للحظة المناسبة لكي أتطرق إلى الموضوع الوحيد الذي يهمني أن أتطرق إليه، أخيراً قام هو بفتح المجال في التحدث في ذلك الموضوع وهذا هو ما كنت آمل فيه، إذا تساءل: ألم تذهب إلى غرفة الانتظار؟

فأدركت على الفور أن تساؤله هذا لم يتم بطريقة عرضية وعلى النحو الذي كان يريد له أن يبدو عليه، أدركت أنه يموج بمشاعر الرهبة وحب الاستطلاع وأننا في حقيقة الأمر لدينا نفس السبب الذي دعانا لعقد هذا

اللقاء، قلت: أوه يا إلهي، كنت أريد أن أسألك عن ذلك، هل تذكر بمجرد أن قلنا لبعضنا البعض مع السلامة.

نظر إليَّ نظرة مليئة بالحرص والحذر ورد: نعم، ألم تذهب أبداً إلى خليج موتسا؟ إنه الخليج الجميل الذي يقع عند الجانب القبلي؟ إنني أعرفه بالطبع.

ـ ألم تلاحظ الفيلا التي تقع عند رأس الخليج من جهة الشرق؟

ـ نعم، كانت دائماً مغلقة، ولقد قيل لي ذلك.

ـ إنها ممتعة للغاية.

ونظر عبر الصالة وبدا عليه كأنه يتذكر الأحداث الماضية وتركني في حيرة وترقب، شاهدته يرفع سيجارته إلى شفتيه وشاهدت الدخان يتسلل من فتحتي أنفه، ثم قال: حسناً هكذا كان الأمر أيها الصديق القديم.

ـ لم قمت بتحذيري؟

ـ لقد أخبرتك بالفعل.

ـ أخبرتني!

ـ لقد تشاجرت مع الشخص المتعاون مع الأعداء، هل تذكر؟

ـ نعم.

ـ إنه نفس الرجل الذي يمتلك الفيلا.

رحت أطرق بخفة على أصابعي وأضفت: انتظر لحظة، ماذا كان اسم ذلك الرجل؟

وظهرت ابتسامة مليئة بالمتعة والتسلية على وجهه كما لو كان يعرف الكلام الذي بصدد أن أقوله، ثم تحسس شاربه وكان دائماً ما يسوي شاربه بيده وقال: كونشيس.

ـ ولكني اعتقد أنه فعل شيئاً ما حسناً وخيراً في أثناء مقاومة الاحتلال.

ـ لا، فحقيقة الأمر أنه عقد صفقة كبيرة مع الألمان، حيث قام شخصياً بتنظيم عملية إطلاق النيران على ثمانين قروياً، ثم جعل أصدقاءه يضعونه في صف القرويين لكي يبدو أمام الناس أنه شجاعاً وبريئاً.

نفث الدخان من أنفة محتقراً سذاجتي، وقال: أيها الصديق القديم.. يجب أن تعرف أنه لا يمكن للمرء أن يبقي على قيد الحياة إذا وقف في الصف لكي ينفذ فيه الألمان الحكم بالإعدام، لا، فهذا الأفاق خدع الناس، لأنه كان خائناً ومع ذلك نجح أن يعامله الناس على أنه بطل دموي، بل قام بتزييف تقرير ألماني كاذب عن الحادث.

فنظرت في حدة إليه، وخامرتني شكوك جديدة مريعة، دهاليز جديدة في المتاهة.

فقام ميتفورد بتحريك أصبع الإبهام والسبابة في يده بتلك الحركة اليونانية المعبرة عن الرشوة والفساد والبرطلة، فقلت: ولكنك لم تشرح لي حتى الآن مسألة غرفة الانتظار.

إنه الاسم الذي أطلقه على الفيلا، انتظار الموت أو شيء من هذا القبيل.

ـ وما الذي حدث بينك وبينه؟

ـ لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

فابتسمت في سذاجة وصفاء نية وقلت:

ـ أوه، بحق السماء، ماذا يحدث؟

فقال: كلها أمور سخيفة لعينة، في حقيقة الأمر أنني خرجت للنزهة ذات يوم، كنت أشعر بالملل من المدرسة، فذهبت إلى موتسا لكي

أسبح في الماء وأروح عن نفسي وهبطت إلى الشاطئ مخترقاً الأشجار، فشاهدت فتاتين، لم تكونا مجرد فتاتين، ولكنهما رائعتا الجمال، فاندفعت مختصراً الطريق إليهما، وقلت لهما كلاماً ما باللغة اليونانية فردتا عليَّ باللغة الإنجليزية، كانتا إنجليزيتين، مخلوقتان رائعتان للغاية، توأم.

ـ يا إلهي العظيم! دعني أقدم لك كأساً.

وقفت عند البار منتظراً تقديم كؤوس الجن ورحت أرقب نفسي في المرآة وغمزت لنفسي بعيني غمزة خفيفة وأكمل: تحركت في سرعة ونشاط، واستجمعت قواي، وتعرفت على شخصيتهما، واكتشفت أنهما ابنتان في العماد لذلك العجوز الموجود في الفيلا، وأنهما من عائلة كبيرة ذات حسب ونسب، وأنهما تعلمتا آداب المجتمع في سويسرا، وكل تلك الأمور، وقالتا إنهما موجودتان باليونان لقضاء الصيف، ثم قالتا: إن العجوز سيرحب كثيراً بمقابلتي ولذلك فليس هناك مانع من أن أصعد معهما إلى الفيلا لكي أتناول الشاي معهم، ثم انطلقنا سوياً، وتقابلت مع العجوز، وتناولنا الشاي سوياً.

ذلك الرجل الذي هو صاحب الفيلا.. لقد نسيت اسمه، هل يعرف كيف يتحدث بالإنجليزية؟

ـ إنه يتكلم الإنجليزية في إتقان شديد، قد تجول في أرجاء أوربا طوال حياته، واختلط بأفضل المجتمعات، أدركت أن إحدى الأختين تكتنفها سحابة من الحزن، وأنها من طراز لا يتمشى مع ذوقي، أما الثانية فكانت تتلاءم معي، أوكي، وانصرف الرجل والفتاة التي لا تتمشى مع ذوقي عقب تناول الشاي ثم قامت الفتاة المتلائمة معي والتي تسمى جين باصطحابي للتجول في أرجاء ذلك المكان.

ـ هذا إنجاز عظيم.

ـ وشعرت على نحو ما أن هذه الفتاة كانت مستعدة وراغبة، وأنت تعرف ظروف الحياة في هذه الجزيرة المنعزلة.

وثنى ذراعه وربت على الجزء الخلفي من شعره، ثم قال: ثم هرولت عائداً إلى المدرسة، وودعتني وداعاً رقيقا، ووجهت الدعوة لكي أتناول طعام العشاء في إجازة نهاية الأسبوع التالية، ومر الأسبوع، وارتديت أفضل ما لديَّ من ثياب وذهبت إلى هناك، وغير ذلك من الاستعدادات الضرورية الأخرى، وكانت هناك الخمور وكانت هناك الفتاتان الرائعتان العظيمتان، ولكن الفتاة الأخرى تعرضت للدورة الشهرية والحيض وصدرت عنها الروائح الكريهة، وكنت قد حصلت على رقمها في الأسبوع السابق، إنها واحدة من الفتيات المثقفات اللعينات، تظاهرت أنها قاسية مثل المجانين، وأصبح الأمر غير مأمون الجانب في أثناء العشاء، وأصبح الموقف مربكاً، بدأت هذه الفتاة التي تسمى جولي تقف ضدي ولم ألحظ هذا الاتجاه من جانبها في بادئ الأمر، ثم اعتقدت أن هذه الفتاة متضايقة من نفسها لأنها تمر بفترة العادة الشهرية، ولكنها، شرعت بعد ذلك من السخرية مني والاستهزاء بي على نحو سخيف.

ـ كيف؟

ـ تلك الحركات التي تعرفها.. راحت تقلد صوتي وطريقتي في تناول الأمور، وأعتقد أنها كانت ماهرة في تقليدي، وقد تعمدت الإساءة إليَّ بشكل لعين، كانت تقول كلاماً سخيفاً وغبياً عن حل النزاع بين الدول بالطرق السلمية، وكلاماً عن القنبلة الذرية، أنت تعرف هذا النوع من الكلام، لم يكن لدى أي خلفية عن تلك الموضوعات.

ـ ألم يشترك الآخرون في الحديث؟

لم يشترك الآخرون بأي كلمة، كانوا مرتبكين للغاية ثم انفجرت

جولي في سيل من الشتائم وفقدت أعصابها تماماً، وفتحت أبواب جهنم، فنهضت جين واتجهت إلى أختها، ورفرف العجوز بيديه مثل غراب جريح، فاسرعت جولي بمغادرة المكان ثم سارت أختها وراءها، ووجدت نفسي جالسا مع العجوز، فبدأ بتحدث معي ويقول: إن هاتين الفتاتين يتيمتان وقال كلاماً كثيراً كنوع من الاعتذار لما حدث.

ـ وما هي تلك الإهانات والشتائم التي قالتها؟

ـ كانت تقول كلاماً مثل البول ومثل الغائط، وقالت عني إنني إنسان نازي.

تهندم وسوى ريشه بمنقاره استعارياً واستطرد قائلاً: عادت جين بعد قليل، وتركنا العجوز بمفردنا لدقائق قليلة وبدت هي لطيفة معي للغاية، وأنا بالطبع تظاهرت بأن مشاعري جرحت وأشرت أن التريض قليلاً تحت ضوء القمر من شأنه أن يعيدني إلى حالتي الطبيعية، وعندئذ قالت: وما رأيك في أن نسبح في الماء سوياً؟، ورحبت بالفكرة لما يصاحب السباحة من أنشطة أخرى مسلية للغاية، واتفقنا أن نلتقي عند البوابة في منتصف الليل، ثم انصرفنا للنوم في الحادية عشرة مساءً وظللت جالساً منتظراً حلول ساعة الصفر، ثم تسللت من المنزل، لم تكن هناك مشاكل، وذهبت إلى البوابة وبعد خمس دقائق جاءت إليَّ، ويمكنني أن أقول لك إنني سبق لي القيام ببعض الممارسات مع الفتيات في شبابي ولكن وجه تلك الفتاة أضاء في ابتسامة فجائية مثل القنبلة، فبدأت أعتقد أن السباحة في منتصف الليف بصدد الإلغاء من أجل القيام بممارسات أكثر أهمية، ولكنها قالت إنها تريد أن تهدئ من روعها وتبرد نفسها لبعض الوقت.

ـ إنني لمسرور لأنك لم تقل لي هذا الكلام قبل أن أذهب، لأن مشاعر الإحباط كانت ستؤدي إلى قتلي.

فابتسم في تعاطف، وأضاف: ثم نزلنا إلى الشاطئ، وبعدئذ قالت لي لم ألبس المايوه تحت ثيابي، فهل يمكنك أن تنزل إلى الماء أولاً، فظننت أنها ربما خجولة أو ترغب في خلع ثيابها بعيداً عن ناظري، وذهبت لتتوارى بين الأشجار، وقام تشارلي بالتصرف وفقا لما قيل له على وجه الدقة.. سبح في الماء لمسافة خمسين ياردة ثم وطأ بقدميه في الماء وانتظر لمدة دقيقتين ثم ثلاث دقائق وأربع دقائق وفي النهاية وصلت المدة إلى عشر دقائق وبدأ بعد ذلك يشعر بالبرد الشديد ولكن الفتاة لم تظهر من بين الأشجار.

ـ وملابسك التي تركتها على الشاطئ، اختفت؟

ـ ها أنت قد أدركت ما حدث أيها الصديق القديم وكنت عارياً تماماً كما ولدتني أمي، ثم وقفت على الشاطئ اللعين ورحت أنادي اسمها اللعين بصوت هامس، هذا هو ما حدث، مقلب فظيع، وتصاعدت مشاعر الغضب الشديد في داخلي، وأعطيتها نصف ساعة لكي ترجع، ثم رجعت أبحث عنها، فانطلقت عائداً إلى المنزل، وقطعت جزءاً من غصن شجرة صنوبر لكي أغطي عورتي إذا اقتضت الضرورة.

ـ شيء رائع للغاية.

وبدأت أشعر أنه من الصعب عليَّ ألا أبتسم ابتسامة كبيرة ولكن كان من الواضح أنه كان يقصد لي أن أشاركه في ثورة غضبه.

ـ ونفذت من البوابة وصعدت على المدق نحو المنزل، ودرت متجهاً إلى واجهة المنزل، فماهو الشيء الذي شاهدته على ما تعتقد؟ كان هناك رجل منتظراً.

ـ أأنت تمزح؟

ـ لا، أيها الصديق القديم، بل هم الذين كانوا يمزحون، كان في الواقع عبارة عن تمثال من تماثيل الأزياء، مثل واحد من تلك الأشياء

التي تستخدمها في التمرين على الطعن بالسونكي، شيء ممتلأئ بالقش، ومعلق من حبل ملفوف حول رقبته، يرتدي ملابسه، وكان رأسه مطلياً بحيث تبدو شبيهة برأس هتلر.

ـ يا إلهي، وماذا فعلت حينئذ؟

ـ جذبت ذلك الشيء اللعين لأسفل ونزعت عنه ملابسه التي كان يرتديها.

ـ وماذا بعدئذ؟

ـ كان هناك زورق، سمعت صوته يدمدم في موتسا، وأعتقدت أنه زورق خاص بأحد صيادي السمك، كانوا قد تركوا حقيبتي في خارج المنزل، وكان كل شيء في داخل الحقيبة كما هو، لم يسرق أي شيء، كل ما هنالك أنني اضطررت تلك المسافة اللعينة التي تبلغ أربعة أميال عائداً إلى المدرسة.

ـ من المؤكد أنك كنت تموج بالغضب الشديد.

ـ كنت أشعر بالغيظ بالفعل.

ـ ولكنك حرصت ألا يفلتوا من العقاب.

ـ هذا صحيح، إذ كتبت تقريراً مختصراً، أولاً، عن ذلك الأمر الذي حدث أثناء الحرب ثم أوردت بعض الحقائق القليلة تبين التعاطفات والميول السياسية الحالية للمستر كونشيس، وأرسلت التقرير إلى الجهات المختصة.

ـ هل اتهمته بالشيوعية؟

ـ كنت أعرف واحداً من المسئولين في جزيرة كريت، واكتفيت بقولي إنني شاهدت اثنتين في جزيرة فراكسوس فتتبعتهما إلى أن وصلتا إلى منزله، وكان يكفي أن أقول لهما هذا الكلام فذلك هو كل ما كانوا

يريدونه، فمثل هذا الكلام المختصر يسير لمسافات بعيدة، ولعلك تدرك الآن السبب في أنك لم تستمتع استمتاعاً كبيراً.

ورحت أطرق بإصبعي على عنق الكأس، حيث بدأت أعتقد أن هذا السخيف الجالس إلى جانبي ربما كان السبب أنني حصلت على ذلك «الاستمتاع»، ففي وقت ما تلك السنة، ومثلما اعترفت لي جين من قبل ـ أنهم قد أخطأوا في حساباتهم وتقديراتهم مما جعلهم يتوقفون ويشعرون باليِأس: فعدم تواجد المكر والدهاء في الثعلب جعلهم يؤجلون عملية الصيد بمجرد أن بدأت تلك العملية، وما الذي قاله كونشيس عن أن المشاركة الأولى لي كانت من قبيل المجازفة والمخاطرة؟ فأنا على الأقل لم أجعلهم يندمون على ما بذلوا من مال أو مجهود، وابتسمت في وجه ميتفورد قائلاً: إذن، فأنت الذي كسبت الجولة في نهاية الأمر وأنت الذي ضحكت عليهم.

ـ هذه هي عادتي دائماً أيها الصديق القديم، وهذا يتلاءم مع شكلي ولوني.

ـ لماذا قاموا بعمل ذلك؟ لعلهم يشعروا بالارتياح نحوك، كان بمقدورهم رفضك وصدك في خشونة منذ البداية.

ـ كل ذلك الكلام عن كونها طفلتين بالتعميد لذلك العجوز كلام زائف، فهما بالطبع لم تكونا ابنتيه بالتعميد، بل عاهرتان من طبقة اجتماعية عالية، فاللغة التي استخدمتها جولي كشفت اللعبة، إنها الطريقة التي ينظم بها عمل ما والتي تشاهدها بالصدفة في حوض البحر المتوسط، لقد سبق أن تقابلت مع مثل هذه المواقف من قبل.

ـ هل تقصد...

ـ أقصد أن كونشيس الغني لم يكن ماهراً للغاية في هذه اللعبة، فهو يستمتع من وراء مشاهدته لمراحل تنفيذ هذه اللعبة؟

نظرت إليه في خلسة وأدركت أنني ضائع في متاهات الأصداء اللانهائية، أكان هو كذلك أم لم يكن كذلك؟

ـ ألم يلمحوا إلى أي شيء؟

ـ كانت هناك تلميحات، ولقد تمكنت من فهم مغزاها فيما بعد.

لم أشعر بالارتياح نحو ميتفورد لأنه كان جاهلاً، كما كان وضيعاً بل وكنت أكرهه أكثر لأنه صورة كاريكاتورية، وامتداداً لصفات معينة في داخل نفسي، إذ كان لديه فوق جلده وبشكل مرئي ومكشوف نفس سرطان الأنسجة المتواجد في داخل كياني، كان عليَّ أن أشك أنه كان بمثابة «جاسوس» آخر، ولكن مع ذلك كان هناك شيء ما لا يمكن اختراقه على الاطلاق في ذلك الرجل، فلم أستطع أن أصدق أنه كان مستهلكاً للغاية كممثل، وفكرت في ليلى دي سيتاس وكيف أنني أبدو من وجهة نظرها مثلما بدا لي ميتفورد من وجهة نظري، شخصي همجي وبربري وغير مهذب، عندما خرجنا سوياً إلى رصيف الشارع، قال: لسوف أذهب إلى اليونان في الشهر القادم، فالشركة سوف تبدأ في تنظيم رحلات إلى هناك في الصيف القادم.

نظرت إلى شارع سوهو المزدحم وقلت:

ـ آمل أن يصعقك زيوس بالبرق في اللحظة التي تصل فيها هناك.

فأخذ كلامي هذا على أنه نكتة، وقال: إنه عصر الرجل العادي أيها الصديق القديم.

ومد يده لكي يصافحني، تمنى أن أعرف كيف أتمكن من لوي يده وإلقائه من فوق كتفي إلى الأرض، وكان آخر شيء شاهدته هو ظهره الأزرق وهو يسير في اتجاه شارع شافتسبري، دائماً وأبداً المنتصر في حرب حيث يكسب فيها الخاسرون.

وبعد مرور سنوات اكتشفت أنه كان يمثل في ذلك اليوم وإن كان

على المنوال الذي كنت أخشاه، فقد وقع بصري على اسمه مكتوباً في إحدى الجرائد، حيث ألقى القبض عليه بتهمة إصدار شيكات تحت ادعاءات كاذبة، مستخدماً شخصية الكابتن إلكسندر ميتفورد الحاصل على وسام الخدمة الممتازة العالية في الحرب.

قال المدعي العام «على الرغم من أن هذا الشخص المتهم ذهب إلى اليونان ضمن قوات الاحتلال عقب سقوط ألمانيا فإنه لم يلعب أي دور يذكر في أعمال المقاومة الشعبية»، وبعد ذلك كانت هناك فقرة أخرى: «وفي وقت ما عقب تسريح الجيش عاد ميتفورد إلى اليونان حيث حصل على وظيفة مدرس عن طريق تزوير مؤهلات علمية زائفة وبالتالي تم طرده من وظيفته».

وفي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم اتصلت برقم هاتف ماتس هادهام، وأخذ التليفون يدق لفترة طويلة ولكن شخصاً ما رفع السماعة في نهاية الأمر، فسمعت صوت ليلى دي سيتاس، وكانت لاهثة الأنفاس قلت: أنا نيقولاس أورفي.

ردت في غير مبالاة: آسفة، كنت في الحديقة.

ـ أرغب في مقابلتك مرة أخرى.

فسادت فترة صمت للحظات ثم قالت: ليس لديَّ أنباء جديدة.

ـ ولكني أود أن أقابلك.

وأدركت أنها كانت تبتسم في خلال فترة الصمت التي أعقبت كلامي.

وقالت: متى؟

(٦٩)

عندما رجعت في نحو الساعة الثانية بعد الظهر عثرت على ورقة كانت كيمب دفعت بها تحت بابي: «جاء رجل أمريكي لكي يقابلك،

وقال: إنه يريد أن يقابلك من أجل موضوع مهم، ولسوف يجيئك مرة أخرى في الساعة الرابعة»، فنزلت لكي أقابل كيمب، وكانت لا تحب أن يقاطعها أحد في أثناء قيامها «برسم اللوحات الزيتية الملونة»، قلت: هذا الرجل.

ـ إنه مصمم على مقابلتك بشأن الذهاب إلى اليونان.

ووقفت مبتعدة قليلاً عن اللوحة، وكانت سيجارتها في فمها، راحت تتأمل تلك اللخبطة التي تضم ألواناً شتى، وأضافت قائلة: وبشأن وظيفتك السابقة أو أي شيء من هذا القبيل.

ـ ولكن كيف عرف عنوان المسكن الذي أقيم فيه؟

ـ لا تسألني عن ذلك.

وجاء في الساعة الرابعة إلا خمس دقائق، كان رجلاً يميل إلى الطول، نحيل الجسد، يرتدي نظارة، يصغرني بعام أو عامين وكان له ابتسامة ممتعة، ممتلئاً بالصحة والخضرة مثل الخس، ومدَّ يده لي لكي يصافحني وقال: أنا جون بريجز.

ـ مرحباً بك.

ـ أأنت نيقولاس أورفي؟ وهل نطقي لاسمك صحيح؟

فدعوته للتفضل بالدخول وقلت له: أخشى ألا يكون هذا المكان الذي أقيم فيه ملائماً.

قال إنه مكان لطيف، ثم راح ينظر فيما حوله.

قلت ونحن نصعد السلم: أتوقع أن يزورني شخص أمريكي.

ـ كنت هنا في هذه السنة الماضية بجامعة لندن، وطوال تلك الفترة كنت أحاول أن أعرف كيف يمكنني أن أحصل لنفسي على سنة في بلاد اليونان قبل أن أعود إلى وطني، وأنت لا تعرف كم أشعر بالإثارة.

وصلنا إلى منبسط الدرج، وشاهد بعض فتيات الحياكة يعملن من خلال باب مفتوح، فقامت اثنتان أو ثلاث فتيات بالتصفير بأفواهن، فلوح بيده لهن، وقال: «أليس هذا المنظر لطيفاً»؟

ـ أين سمعت عن الوظيفة؟

ـ في الملحق التعليمي لجريدة التايمز ووصلنا إلى شقتي، ثم أغلقت الباب وقلت: ظننت أن المعهد البريطاني توقف عن تعيين أعضاء جدد.

ـ هل الأمر كذلك؟ وأعتقد أن لجنة المدرسة قررت أن يقوم كونشيس بإجراء امتحان المقابلة الشخصية للمتقدمين طالما أنه هنا.

كان قد دخل إلى غرفة الجلوس وراح ينظر من النافذة إلى شارع شارلوت القديم المليّء بالقاذورات، وقال: هذا عظيم، أنني «أحب» هذه المدينة.

ـ هل المستر كونشيس هو الذي أعطاك عنواني؟

ـ بالتأكيد، أكان ذلك خطأ؟

ـ لا، ليس خطأ على الإطلاق، هل قال لك أي كلام عني؟

رفع يده كما لو كنت في حاجة إلى التهدئة وقال: حسناً، لقد نبهني إلى مدى خطورة المؤامرات التي قد يقوم بها الزملاء، وكما علمت أنه كان من سوء حظك.. ألا زلت تشعر بالضيق والمرارة مما حدث؟

فهززت كتفي وقلت: اليونان هي اليونان.

ـ إنني لواثق تماماً بأنهم يفركون أيديهم من الآن لحصولهم على شخص أمريكي حقيقي.

سألته: متى شاهدت السيد كونشيس؟

ـ عندما كان هنا منذ ثلاثة أسابيع، وكان من المقرر أن أتصل بك في وقت مبكر عن هذا الموعد ولكنه فقد عنوانك، لقد أرسل لي عنوانك

تواً من اليونان، ولم يصلني عنوانك الذي أرسله لي إلا هذا الصباح فقط، نعم، أرسل لي برقية، ولقد دهشت، اعتقدت أنه نسى الموضوع.

ـ هل تعرف كونشيس معرفة جيدة؟

ـ «أوه.. لقد قابلته مرات قليلة، ولكنني لم أكن متأكداً تماماً من سلطانه على لجنة المدرسة.

أخبرني أن ليس له وظيفة رسمية في لجنة المدرسة، وإنما يقدم يد العون فقط، ولو أن لغته الإنجليزية رائعة.

ورحنا نقيم بعضنا البعض لمعرفة خصائص ومميزات بعضنا البعض كان يكتنفه شيء من الاسترخاء ويبدو أنه اكتسب ذلك من خلال التعليم ومن خلال قراءة كتاب ما عن «كيف تشعر بالارتياح والاطمئنان في أثناء تواجدك مع أشخاص غرباء»، وليس من خلال موهبة فطرية، وشعرت أن شيئاً ما لم يسر في الاتجاه الخاطئ في حياته ولكنه كان لديه نوع من الحماس، رحت أحلل الموقف، فالمصادفة الطبيعية لظهوره وزيارتي لماتش هادهام كانت أمراً بعيداً الاحتمال للغاية من حيث أن ذلك كان في صالح براءته، ومن ناحية أخرى فمن المؤكد أن مدام دي سيتاس استنتجت من مكالمتي التليفونية أنني أمر بمرحلة تغير في مشاعري، وأن ذلك كان وقتاً ملائماً لاختبار صدق ذلك التغير، ومع ذلك فإن اخباره لي بمسألة البرقية جعله يبدو بريئاً بالفعل، ورغم أنني فهمت أن «الموضوع» كان ينبغي أن يكون من قبيل المجازفات فإنه ربما كان هناك سبب ما ونتيجة ما غير معروفة ناجمة عن ذلك الصيف جعلت كونشيس يقرر اختيار الخنزير الجديد لإجراء تجاربه عليه، وعندما تقابلت وجهاً لوجه مع بريجز الجديد لإجراء تجاربه عليه، وعندما تقابلت وجهاً لوجه مع بريجز المتحمس الخالي من المكر والخداع شعرت بنفس المشاعر التي أحس بها بالتأكيد ميتفورد معي: التسلية الخبيثة الحقودة المشوبة بابتهاج أوربي لدى مشاهدة أمريكا الوقحة الصفيقة المتهورة وقد تم

اتخاذها مطية للآخرين وعلاوة على ذلك كانت لدى رغبة ألا أتلف تجربة كونشيس وهي رغبة لم أعترف بها على الإطلاق لكونشيس أو لليلى دي سيتاس.

من المؤكد أنهم كانوا يعرفون أنني ربما أخبره بكل شيء ولكنهم يعرفون أيضاً أنني كنت أدرك أن هذا سيكلفني الكثير إذا فعلت ذلك، فذلك يعني فقط بالنسبة لهم أنني لم أتقبل أي شيء وأنني لا يمكن إعطائي أي شيء آخر كمقابل، كنت ممزقاً أمام المغامرات التي قاموا بها.

استخرج بريجز بلوك نوت من الحقيبة الصغيرة التي كانت معه، قال: هل لي أن أوجه إليك بعض الأسئلة؟

كان منهجياً ومنظماً على نحو مريع، سأل عن مناهج التدريس والكتب المدرسية والملابس والظروف المناخية والتسهيلات الرياضية، والأدوية التي ينبغي أن يتعاطاها والأطعمة وحجم المكتبة وما ينبغي أن يشاهده في بلاد اليونان وشخصية المدرسين الآخرين ـ كان يريد معلومات عن كل مظاهر الحياة، وأخيراً رفع بصره عن البلوك نوت وعن الملاحظات التي كتبها بالقلم الرصاص ثم أمسك بكأس البيرة الذي ملأته من أجله وردد: هذا رائع، هذا يغطي كل شيء؟

ـ باستثناء مسألة الإقامة هناك.

أومأ برأسه وقال: نبهني كونشيس إلى ذلك، أتعرف كيف تتكلم باللغة اليونانية؟

ـ أنني أدرس هذه اللغة حالياً.

ـ أليس لديك مغامرات مع النساء.

أومأ برأسه وقال: إنني منضبط ولكنني خطبت فتاة.

ـ هل ذكرت ذلك للسيد كونشيس؟

ـ لقد رحب بذلك ترحيباً شديداً، بل وقال: إنه يمكن لها أن نقيم في منزله.

ـ في أي منزل فهو كما تعرف له منزلان؟

قال مبتسماً: أظن أنه قال: إنها يمكن أن تقيم في المنزل الموجود بالقرية، وحقيقة الأمر أنه قال إنه سيجعلني أسدد إيجار الغرفة التي ستقيم فيها.

ثم أتى بحركة من يده تفيد أنني أعرف مثل هذه الأمور، ولكنه أدرك من وجهي أنني لم أعرف ما يدور في ذهنه وأضاف: كل ما هنالك أنه يرغب في الإبقاء على هذا الموضوع في طي الكتمان، ولقد اعتقدت أنك ربما قد سمعت عن ذلك.. ذلك الاكتشاف المشهور الذي تم في ضيعته.

ـ الاكتشاف؟

ـ يبدو أن جزءاً من صخرة قد سقط في خلال هذا الصيف فاكتشفوا أساسات وهو يعتقد أنها أساسات خاصة بقصر مسيني، إنه يعتقد أن بمقدوره الاحتفاظ بهذا السر في طي الكتمان لفترة معينة، لقد غطاه بطبقة من التراب ينوي القيام بالحفريات في خلال الربيع القادم، ومن الطبيعي أنه لا يرغب حاليا أن يقوم أي شخص بزيارة هذه المنطقة.

فانتهى من احتساء كأس البيرة الخاص به ثم نظر إلى ساعته، وصاح: يا إلهي، عليَّ أن أسارع بالانصراف، فلديَّ موعد مع أماندا، لقد استفدت كثيراً من لقائي معك، وأؤكد لك أنني سأكتب خطابات لك لكي أوضح لك كيف سارت الأمور معي.

وسرت وراءه وهو يهبط على السلالم ولاحظت شعر رأسه المملوق ليكون قصيراً مثل شعر البحارة، وبدأت أدرك السبب في اختيار كونشيس لذلك الشاب، فلو قام المرء بأخذ مليون شاب جامعي أمريكي

وعمل لهم عملية تقطير لكي يحصل من ورائهم على الزبد لحصل على شخص شبيه بالسيد بريجز.

وخرجنا إلى السلمة الأمامية، سأل: هل لديك نصائح لها طابع الحكمة تود أن تنصحني بها؟

ـ أتمنى لك خالص الأمنيات بالتوفيق، وتصافحنا بالأيدي مرة أخرى.

قلت: لسوف تواجه بعض التجارب الغريبة.

ـ أوه بالتأكيد، لا تعتقد أنني لست ذاهباً بعقل مفتوح، وربما لمواجهة كل شيء، شكراً جزيلاً لك.

فابتسمت، وأردت له أن يتذكر أنها ابتسامة تحمل في طياتها معاني تزيد على ما يتطلبه الموقف، ثم رفع يده محيياً وانطلق منصرفاً وبعد أن سار خطوات قليلة نظر إلى ساعته وبدأ يهرول مسرعاً، وفي داخل قلبي أشعلت شمعة من أجل ليفاريير.

(٧٠)

جاءت مقبلة حيث كانت متأخرة عن موعدها بعشر دقائق وقد ظهرت على وجهها دلائل الاعتذار في أدب واتجهت مباشرة إلى حيث كنت واقفاً وصاحت: أنني لآسفة للغاية، أنه التاكسي.

فسلمت على يدها الممدودة، إنها امرأة تبلغ من العمر نصف قرن جميلة على نحو مثير للإعجاب، ترتدي ملابس مميزة مما جعل معظم الزوار الموجودين حولنا يبدون أكثر قذارة مما كانوا عليه في حقيقة الأمر، كانت مرتدية بدلة شانيل بيضاء أبرزت بشرتها المدبوغة من كثرة التعرض لأشعة الشمس كما أبرزت عينيها الصافيتين.

سألتها: هذا المكان الذي تقابلنا فيه يتسم بالزحام والجنون، فهل هذا يزعجك؟

ـ لا، على الإطلاق.

ـ لقد اشتريت لوحة يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر منذ أيام.

وهم هنا ممتازون في تحديد التطابق، لن يستغرق الأمر سوى لحظات قليلة.

كان من الواضح أنها تعرف المتحف معرفة جيدة، قادت الطريق متجهة إلى المصاعد الكهربائية، كان علينا أن ننتظر دورنا، أمامي عشرات الأمور التي أريد أن أقولها، ولكن وصولها اللاهث وإحساس الفجائي بأنني كنت متهيئاً لمواجهة يوم مشحون بالعمل جعل الأمور التي أريد أن أقولها تبدو لي خاطئة، قلت: لقد شاهدت جون بريجز في يوم الثلاثاء.

«ياله من أمر مثير، لم أتقابل معه».

ـ حدثته عن كل شيء أعرفه، ذكرت له كل ما أعرفه عن بوراني وحدثته عن الأمور التي يمكن أن يتوقعها.

ـ اعتقدنا أنك ستفعل ذلك، وهذا هو السبب في أننا أرسلناه إليك.

وكنا نبتسم سوياً في آن واحد ابتسامات خفيفة في صمت مؤقت، في المصعد لم نتكلم، ثم خرجنا منه إلى قاعة خاصة بالأثاث، قالت: نعم، كان ينبغي أن توضح له.

ـ لعله مجرد اختبار.

ـ الاختبار لم يكن ضرورياً.

فنظرت إليَّ وقد اتسعت عيناها وبنفس النظرة التي ظهرت على وجهها عندما ناولتني نسخة من خطاب نيفينسون، وفي نهاية القاعة وصلنا إلى باب: قسم الخزف، فقامت بالضغط على الجرس الموجود إلى جوار الباب.

وفتح الباب، وسمح لها بالدخول، لم تعطني أي فرصة ولو أن نظرتها السريعة إلى الخلف نحوي قبل انغلاق الباب بدت نظرة مليئة بالاعتذار بل بدت وكأنها تخشى أن ألجأ إلى الفرار.

وبعد دقيقتين عادت إليَّ وسألتها: هل حالفك الحظ؟

ـ نعم، كان الأمر على النحو الذي كنت آمل فيه.

ودخلنا إلى رواق مهجور للخزف والفخار، وبدأت أشك في أنها سبق لها التدرب على هذا المشهد نظراً لأنها اتجهت مباشرة إلى أحد الصناديق الحائطية، واستخرجت اللوحة من سلتها ورفعتها لأعلى وراحت تمشي في بطء إلى أن ظهرت لوحة تكاد تكون متماثلة لها خلف مجموعة من الفناجين والأباريق، فاتجهت ووقفت خلفها، راحت تقارن ما بين اللوحتين ثم لفت لوحتها في الورق النسيجي مرة أخرى وبعدئذ قدمت اللوحة لي مما جعلني أصاب بالدهشة البالغة، وقالت: هذه اللوحة هدية لك، لقد اشتريت هذه اللوحة مع آليسون.

ودفعت باللوحة في رفق بين يدي، وفي حيرة وارتباك رحت أفك الورق عنها ورحت أحملق نحو رجل صيني وزوجته مرسومين في بساطة بينهما طفلان، ولسبب ما قفزت إلى ذهني صورة الفلاحين المسافرين على أرخص مكان للسفر على السفينة وصورة أمواج البحر العاتية والرياح الليلية، قالت: ينبغي لك أن تعتاد على التعامل مع الأشياء الرقيقة الهشة المعرضة للتلف، ومع الأشياء التي هي أكثر قيمة من ذلك.

لا أزال أحملق في الهياكل الزرقاء الغامقة للغاية.

ذلك هو السبب في أنني طلبت منك أن أقابلك في حقيقة الأمر.

وتقابلت عينانا، ولأول مرة يخالطني إحساس بأنني لا أتعرض لمجرد التقييم.

«هل لنا أن نذهب ونتناول الشاي الخاص بنا»؟

سألت: لماذا طلبت أن تقابلني؟

كنا قد عثرنا على مائدة في الركن وكان قد تم تقديم الشاي لنا.

قلت: آليسون.

فالتقطت براد الشاي وقالت: سبق أن أخبرتك أن الأمر يتوقف عليها.

ـ ويتوقف عليك أيضاً.

ـ لا. لا يتوقف عليَّ على الإطلاق.

ـ هل هي موجودة في لندن؟

لقد وعدتها ألا أخبرك عن مكانها.

ـ استمعي إليَّ يامدام دي سيتاس.

ـ ماذا تريد بحق الجحيم؟

ـ وما الذي ينبغي لي أن أفعله الآن؟ فلست على استعداد لأن أنتظر لفترة أطول.

ـ عندئذ سوف نتخلص منك.

واحتسيت قدراً من الشاي، وبدأت هي في نشر العسل في هدوء على خبزها المحمص ثم راحت تتكلم: لا أستطيع أن أفعل شيئاً من حيث أن أحضر آليسون إليك، فالمسألة الآن بكل بساطة منحصرة بينك وبينها، وآمل أن تعفو آليسون عنك، ولكن ينبغي لك ألا تكون واثقاً للغاية بأنها ستعفو عنك، عليك أن تنجح في استردادها.

ـ ينبغي أن يكون النجاح في العودة صادراً عن الجانبين.

ـ ربما، فذلك أمر ينبغي تسويته بمعرفتكما أنتما الاثنان، لقد انتهت لعبة الشيطان.

ـ لعبة ماذا؟

ـ لعبة الشيطان.

وبدأت تأكل قطعة التوست، وقمت بالحملقة إلى ما ورائها في صالة الشاي المزدحمة بالناس، وقد امتلأت بأصوات احتكاك السكاكين بالأطباق الخزفية الصينية علاوة على تمتمة أصوات الناس المنتمين إلى الطبقة المتوسطة بالمجتمع، سألتها: هل هذا الاسم هو ما تطلقونه على ذلك الموضوع؟ إنه نوع من الكنية الذي نستخدمه.

أدركت أنها قد أسهبت في الابتسام أكثر من اللازم، نظرت لأسفل وأضافت على وجه السرعة قائلة: أخبرني موريس ذات يوم ـ عندما سألته سؤالاً شبيهاً بأسئلتك:

«الإجابة تكون دائماً صيغة للموت».

كان هناك شيء ما آخر في وجهها، لم يكن شيئاً متصلباً لدوداً ولكنه كان على نحو ما شيئاً غير قابل للاختراق.

قلت: أظن أن الأسئلة هي صيغة للحياة، فلم ترد عليَّ ولكني ظللت منتظراً، ثم أضفت قائلاً: وهو كذلك، لقد عاملت آليسون معاملة سيئة للغاية، وأنا إنسان قد ولدت نذلاً وخسيساً، وبي كل الصفات الدنيئة التي تتخيلونها، ولكن ما سبب قيامكم بكل هذه الإجراءات الهائلة لمجرد أن توضحوا لإنسان بائس مفلس أخلاقياً طبيعة شخصيته؟

ـ ألم تسائل نفسك في تعجب على الإطلاق عن السبب الذي يجعل التطور يهتم بتجزئة نفسه إلى أشكال وأحجام عديدة ومختلفة للغاية؟ ألا يبدو ذلك أيضاً بمثابة إجراء غير ضروري؟

ـ من المؤكد أن هناك هدفاً يكمن وراء عدم كوننا جميعاً معصومين من الخطأ.

ـ هدف يكمن عدم كوننا على شاكلة واحدة.

ـ وما هو ذلك الهدف؟

فهززت كتفي، ثم قلت: ذلك يعطي للأشخاص الذين لا خير فيهم من أمثالي الحرية لأن يصبحوا أقل من حيث عدم الانضباط والضياع.

ترددت بعض الشيء، ومرة أخرى راحت تتفحصني ثم تكلمت في يقين أقل: أعرف أنهم قالوا لك بعض الأشياء الرهيبة في تلك المحاكمة الصورية الوهمية يا نيقولاس، ولكنك كنت القاضي، وإذا كانت الأشياء الرهيبة هي كل ما ينبغي أن يقال عنك لما كنت قد أعطيت سلطة إصدار الحكم، وكان كل فرد هناك يعرف ذلك، وليس ابنتي فقط على الإطلاق.

ـ ولماذا سمحت لي أن أمارس معها الحب؟

ـ أدرك أن ذلك يرجع إلى رغبتها، وهو قرار خاص بها.

ـ ردك هذا لا يعتبر إجابة عن سؤالي.

عندئذ فأنا أفترض أن اللذة الفيزيقية والمسئولية الأخلاقية أمران مختلفان كبيران للغاية.

هنا تذكرت الكلمات الأخيرة التي قالتها ليلى لي على ذلك السرير وأدركت أنني كان لديَّ سر واحد صغير أحتفظ به لنفسي، فتلك الليلة كانت معقدة للغاية وعلى نحو أكثر من مجرد درس موضوع وفق خطة، أو هو على الأقل كان درساً يجمع بين النقيضين، واستطردت والدتها: يانيقولاس لو أن أحداً حاول أن يستنبط شيئاً ما من الأهداف الغامضة التي تحكم الوجود فإنه ينبغي له أن يحاول الذهاب إلى ما وراء بعض التقاليد والأعراف التي ابتكرها الإنسان لكي يصد تلك الأهداف، وذلك لا يعني أننا في حياتنا العادية، نعتقد أن مثل هذه التقاليد والأعراف ينبغي اكتسابها، الأمر أبعد ما يكون عن ذلك، فهذه التقاليد بمثابة خرافات، ولكننا في لعبة الشيطان نبدأ من المقدمة المنطقية التي تقول:

إن كل شيء في الواقع هو من قبيل الاختلاقات ومع ذلك فلا يوجد اختلاق واحد له صفة الضرورية.

فرددت على ابتسامتها بابتسامة خفيفة من جانبي، ولكنني لا أعرف الشروط العملية التي تم على أساسها اختياري.

ـ المبدأ الرئيسي في الحياة هو الصدفة، وموريس يقول لي: إن هذا لم يعد مسألة تقبل المناقشة، وإذا ما تعمق المرء بالقدر الكافي في الفيزيقا النووية فإنه ينتهي إلى موقف يتسم بالصدفة البحتة، ونحن جميعاً بالطبع نتوهم أن الأمر ليس كذلك ولا يمكن أن يكون كذلك.

ـ ماذا كان سيحدث لو كنت أحضرت آليسون إلى الجزيرة؟ فقد ظهر اقتراح بهذا الشأن في إحدى المراحل.

ـ لا أستطيع أن أؤكد لك شيئاً واحداً محدداً، كان موريس سيدرك على الفور أنها ليست بحاجة لأن توضع أمانتها وصدقها العاطفي في الاختبار.

نظرت لأسفل وقلت: هل هي تعرف عن...؟

ـ إنها تعرف ما نفعله، أما التفاصيل... فلا.

ـ هل وافقت على الفور؟

ـ أنا أعرف أنها وافقت في نهاية الأمر، أو هي على الأقل وافقت بالنسبة لمسألة ادعاء الانتحار، وذلك على أساس أنك سوف تكتشف بسرعة أن الانتحار كان زائفاً.

فالتزمت بالصمت لبعض الوقت وسألت: هل قلت لها إنني أريد مقابلتها؟

ـ إنها تعرف وجهة نظري إزاء ذلك.

نظرت إلى ساعتها وقالت: «يا عزيزي، إنني لآسفة، ولكن جنهيلد وبنجي سيكونان في انتظاري، ذلك الكعك المحبب للنفس..

كان الكعك موجوداً في روعته وبهائه ذي اللون الأصفر الكرومي المتعدد الدرجات وبدون أن يُمسّ.

فقلت: أظن أن المرء يدفع ثمن الاستمتاع بعدم تناول الكعك.

فلوت عضلات وجهها موافقة على كلامي ثم ناديت على النادلة لكي تحضر إلى فاتورة الحساب، وفي أثناء انتظارنا قالت: وهناك شيء كنت أريد أن أقوله لك أن موريس تعرض خلال السنوات الثلاث الماضية لنوبتين قلبيتين خطيرتين، لذلك ربما لا تكون هناك... سنة تالية.

ـ نعم... لقد قال لي ذلك.

ـ وأنت لم تصدقه؟

ـ لا.

وبعد دقيقة كنا نسير في الدهليز في اتجاه المدخل، وكان هناك رجلان يسيران في الدهليز في اتجاهنا، وبينما كانا على وشك أن يتخطيانا صدر عن الرجل الموجود إلى اليسار شهقة لاهثة، فتوقفت ليلى دي سيتاس عن السير وقد أصابتها الدهشة البالغة أيضاً، وكان ذلك الرجل يرتدي حلة زرقاء ورباط عنق من نوع «البابيون» وله خصلة شعر في مقدمة رأسه قد أبيض لونها قبل الأوان.

استدارت على وجه السرعة وقالت يا نيقولاس.. أيمكنك أن تحضر لي ذلك التاكسي لو سمحت؟

كان له وجه رجل مشهور ـ أصبح فجأة صبياً مرة أخرى، رجل رق قلبه على نحو كوميدي بعض الشيء ودخل في ذكريات جميلة بسبب ذلك اللقاء الفجائي غير المتوقع، قمت بإظهار أدب جم نحو بعض أناس آخرين متجهين إلى صالة الشاي مما جعلني أتلكأ للحظات، كان

ممسكاً بكلتي يديها ويسحبها على جانب ابتسمت ابتسامتها الغريبة، وكان على أن أواصل السير ولكنني التفت مرة أخرى عند نهاية الدهليز، كان الرجل الآخر الذي كان معه قد استمر في السير وأصبح واقفاً في انتظار عند باب صالة الشاي، وقف كلاهما هناك، وكان باستطاعتي أما هي فمازالت تبتسم مع تلقي الثناء والتقدير.

لم تكن هناك تاكسيات فانتظرت عند الحاجز الحجري الخاص بحافة الطريق، وساءلت نفسي في تعجب: ترى أكان ذلك الرجل» هو ذلك الشخص المشهور للغاية» والذي كان في التابون؟ لم أتعرف عليه من حيث هو رجل مشهور ولكنني لم أدرك سوى ذلك الافتتان الشديد إذ كانت عيناه مشغولتين بها فقط كما لو كانت المهمة التي كان ذاهباً إليها قد زوت وتلاشت لدى رؤية ذلك الوجه.

وخرجت على وجه السرعة وسألتها: هل لي أن أوصلك بسيارتي إلى أقرب مكان تريدين الذهاب إليه؟

لم تكن بصدد تقديم أي تفسير أو إيضاح، وكانت التعبيرات التي على وجهها توحي بأنه من السوقية أن يكون المرء محباً للاستطلاع روت: لا شكراً جزيلاً لك، فأنا ذاهبة إلى شيلسي.

رحت أرقبها خفية للحظات، ثم قلت: اعتدت أن أفكر في قصة في أثناء تواجدي مع ابنتك، وأظن أنني أفكر في تلك القصة أكثر في أثناء تواجدي معك، ربما لا تكون هذه القصة حقيقية ولكنها قصة عن ماري أنطوانيت وجزار، إذ قاد الجزار حشداً من الناس الغوغاء إلى داخل قصر فرساي، وكان ممسكاً بساطور في يده، وهو يصيح قائلاً: إنه سيقوم بقطع رقبة ماري أنطوانيت، وقامت حشود الناس الغوغائية بقتل الحراس واقتحم الجزار الباب المؤدي إلى الغرف الملكية، وأخيراً تمكن الجزار من الوصول إلى غرفة نومها، كانت بمفردها واقفة بجوار نافذة، ووجد الجزار نفسه وجهاً لوجه مع الملكة.

ولمحت تاكسيا منطلقاً في الاتجاه العكسي فلوحت لسائقه لكي يلف ويستدير وأكملت: لقد خر ساجداً على ركبتيه وانفجر باكيا في دموع غريزة.

فالتزمت بالصمت للحظات ثم قالت: يا له من جزار مسكين!!

وأعتقد أن ذلك بالضبط هو ما قالته ماري أنطوانيت.

ورأت التاكسي وهو يلف ثم تساءلت: ألا يتوقف كل شيء عمّا كان يبكي عليه الجزار؟

فأشحت بوجهي بعيداً عن عينها وقلت: لا لا أعتقد في ذلك.

قمت بفتح باب التاكسي، وراحت ترقبني للحظات ومدت يدها ثم قالت: ولكن آليسون ليست هدية، فهي ينبغي دفع ثمنها.

ـ لقد حصلت بالفعل على الانتقام مني.

وكانت على وشك أن تترك يدي ولكنها آنئذ استبقت يدي في يدها.

وقالت: يا نيقولاس لم أحدثك أبداً عن الوصية التي احتفظت بها أنا وزوجي.

وذكرت لي تلك الوصية بدون أن يظهر على وجهها ابتسامة، وتعلقت عيناها بعيني للحظات ثم دخلت إلى التاكسي، ورحت أحملق في التاكسي إلى أن غاب عن الأنظار، وكنت أحملق بدون دموع ولكنني كنت فقط ـ وفقاً لتصوراتي ـ مشابهاً لذلك الجزار المسكين الذي حملق بالتأكيد لأسفل نحو السجادة.

(٧١)

ولذلك لجأت إلى الانتظار والترقب وبدت لي هذه الأيام الأخيرة من الأرض الخراب متسمة بالطابع السادي.

رحت أقضي الساعات في دور السينما أو في قراءة الكتب التافهة لأن

كل ما كنت أريده من قراءة الكتب في تلك الفترة هو الإبقاء على ذهني مخدراً، واعتدت على قيادة سيارتي طوال الليل إلى أماكن لم أرغب في الذهاب إليها.

وكانت تلك الفترات الطويلة من قيادتي للسيارة تهدئ من روعي حيث كان يبدو الأمر وكأنني أقوم بعمل بناء من خلال الانطلاق بالسيارة بسرعة كبيرة بين طيات الليل حيث كنت أقود السيارة بسرعة مخترقاً المدن النائمة مع العودة دائماً في خلال الساعات السابقةِ على طلوع الفجر والدخول إلى لندن في إرهاق مع بزوغ الفجر ثم الاستسلام للنوم حتى الساعة الرابعة أو الخامسة من بعد الظهر.

لم يكن شعوري بالملل هو الذي يحتاج إلى التهدئة، إذ كانت لدى مشكلة أخرى قبل.. مقابلاتي مع مدام ليلى دي سيتاسي بوقت طويل.

كنت أقضي العديد من ساعات النزهة في منطقة سوهو أو شيلسي، وهما منطقتان لا يذهب إليهما خطيب عفيف لفتاة اللهم إلا إذا كان متشوقاً لاختبار مدى عفته وطهارته، إذ كان هناك عدد كاف من النساء الرهيبات في الغابة ابتداء من النساء البشعات الفقيرات القذرات الملبس المتواجدات عند مداخل الشارع اليوناني إلى الفتيات «الموديلات» الجذابات الوسيمات المتواجدات في شارع الملك، وكثيراً ماكنت أشاهد فتاة تثيرني جنسياً، وقد بدأت بكبت الفكرة ذاتها وبعدئذ اعترفت بها صراحة، فإذا كنت قد صممت أن أسحب نفسي أو أشيح بوجهي بعيداً عن المواقف التي توحي بإعطاء نتيجة إيجابية فإن ذلك كان يرجع إلى أسباب مختلفة وهي أسباب تتسم بوجه عام بطابع الأنانية أكثر مما تتسم بطابع النبل، أريد أن أبين لهم أن بمقدوري أن أعيش بدون إقامة علاقات غرامية كما كنت أظهر لنفسي هذا الاتجاه، أن أكون قادراً على مواجهة آليسون بالمعرفة من حيث هي سلاح ومن حيث هي مهماز يضاف إلى السوط.

وحقيقة الأمر أن ذلك الشعور الجديد المتكرر الذي كنت أشعر به إزاء آليسون لم يكن له علاقة بالنواحي الجنسية، ربما كان له علاقة بشعوري بالاغتراب والنفور من إنجلترا والإنجليز وله علاقة بعدم وجود جنس محدد لي.

كان يبدو لي أن باستطاعتي أن أنام مع فتاة مختلفة في كل ليلة مع استمرار رغبتي في مشاهدة آليسون بنفس الحماس، فأنا أريد شيئاً آخر منها الآن.. شيء لا تستطيع أي فتاة أخرى أن تقدمه لي.

وكان ذلك هو الفرق بينها وبين جميع الفتيات الأخريات، إنه شيء لم أستطع أن أسميه بالحب لأنني شاهدته كشيء تجريبي يعتمد على عوامل مثل درجة توبتها واكتمال اعترافاتها، ومدى إقناعها لي بأنها مازالت تحبني، وأن حبها العميق لي هو الذي تسبب في خيانتها لي، عندئذ شعرت تجاه اللعبة الشيطانية بتلك المشاعر المختلطة التي تجمع ما بين الإعجاب الشديد والمقت الشديد والتي يشعر بها المرء تجاه عقيدة تتسم بالذكاء، وكنت أدرك «أنه يوجد بالتأكيد شيء ما» في ذلك الأمر ولكنني كنت أدرك أيضاً أنني لست بالتأكيد من ذلك النوع المتدين من الناس، وعلاوة على ذلك فإن النتيجة المنطقية لهذا التمييز الشديد الوضوح ما بين الحب والجنس لم يكن بالتأكيد بمثابة دعوة للدخول إلى عالم يتسم بالوفاء والإخلاص.

ومع ذلك تمرد شيء ما عميق في داخلي، لقد تمكنت من ابتلاع قصتها ولكنها كانت ترقد كالغثيان فوق معدتي، وسخر من شيء ما أعمق من التقاليد والعادات المتبعة وسخر من إحساس فطري بأنه ينبغي على أن أعثر على كل ما أريده في داخل كيان آليسون وأنني إذا فشلت أن أفعل ذلك فأن هناك شيئاً يفوق المبادئ الأخلاقية أو الانغماس في الشهوات الحسية، شيء لم أستطع تحديد هويته شيء بيولوجية يتعلق بالقدرة المبدعة وبالموت.

ربما كانت «ليلى» تتطلع إلى مبادئ أخلاقية جنسية من أجل القرن الواحد والعشرين ولكن كان هناك شيء ضائع أو وقاية حيوية من نوع ما، ساورتني الشكوك فيما إذا كنت قد قمت بالواجب إزاء القرن الثاني والعشرين.

من السهل أن يفكر المرء في مثل هذه الأمور ولكن من الصعب أن يعيشها وهو مازال في الفترة المتبقية من القرن العشرين.

إن غرائزنا تبزغ في مزيد من العري، وعواطفنا وإراداتنا تغير اتجاهاتها في مزيد من السرعة وعلى نحو لم يحدث من قبل، فالشاب الفيكتوري الذي هو من نفس عمري لا يزعجه أن ينتظر خمسين شهراً وليس مجرد خمسين يوماً من أجل محبوبته دون أن يسمح لأية فكرة أن تلوث عقله أو جسده، كنت أدخل نفسي في الحالة النفسية الخاصة بشاب من العصر الفيكتوري ولكنني في منتصف اليوم ومع وجود فتاة جميلة واقفة إلى جواري في دكان لبيع الكتب كنت أجد نفسي أدعو الله ألا تلتفت نحوي وتبتسم لي.

وفي إحدى الأمسيات ابتسمت لي فتاة بالفعل، كان ذلك في حانة إسبرسو وكنت قد قضيت معظم الوقت الذي قضيته في تناول طعامي في النظر إليها وهي تتكلم مع صديق يجلس في مواجهتها، ذراعاها عاريتين وثدياها يبشران بكل خير وإيطالية الملامح سوداء الشعر، انصرف صديقها فألقت بظهرها للوراء ثم ابتسمت بعينيها ابتسامة مباشرة لطيفة، لم تكن عاهرة بل تقول فقط: إذا كنت ترغب في التكلم تعال إليَّ.

كان تقهقري المخزي ناجماً إلى حد ما عن جنون الاضطهاد، وكانت الفتاة وصديقها قد جاءا ورائي وجلسا إلى منضدة بحيث يتعذر عليَّ مراقبتهما، بدأت أشعر أن كل فتاة تعترض سبيلي هي فتاة مستأجرة من أجل تعذيبي واختباري، وبدأت أنظر من خلال النوافذ قبل دخولي إلى الحانات والمقاهي والمطاعم لكي أعرف ما إذا كان باستطاعتي العثور

على ركن منعزل عن مناظر وأصوات المخلوقات الفظيعة وازدادت تصرفاتي الخرقاء وتزايد غضبي من الظروف التي ساعدت على جعل تصرفاتي تتخذ ذلك الطابع، وبعدئذ جاءت جوجو.

كان ذلك أثناء الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر وبعد أسبوعين من مقابلتي الأخيرة مع ليلى كنت متضايقاً إلى حد الموت من نفسي، فذهبت في فترة متأخرة من بعد ظهر أحد الأيام لمشاهدة فيلم قديم.

جلست بدون تفكير بجوار شكل محدب ورحت أشاهد الفيلم، ومن خلال أصوات التشمم بالأنف المبحوحة العديدة أدركت أن ذلك الشكل المحدب هو لأنثى، وبعد نصف ساعة استدارت إليّ لكي أشعل لها سيجارتها فشاهدت وجهها.

وعندما أضيئت الأنوار وبينما كنا ننتظر الفيلم الرئيسي حاولت أن تلتقطني ولكنها كانت قليلة المهارة على نحو مثير للشفقة، كانت ترتدي بنطلون جينز وسويتر رمادي قذراً له رقبة عالية ضيقة، كان بها ثلاثة مفاتن غريبة: عديمة الجنس وجه مبتسم باستمرار ولهجة إسكتلندنية مبحوحة ومسحة من مشاعر الانعزال عن الناس جعلتني أدرك على الفور أن لها روح تشبه روحي، وعلى نحو ما لم تبد الابتسامة حقيقية وصادقة تماماً وإنما هي نتيجة لاستغلال نفوذها من وراء ستار لصالحها الشخصي، كانت تجلس متهاوية ومتكبرة مثل ولد ممتلئ ومحزون، حاولت في غير نجاح على الإطلاق أن تستخلص معلومات عني وعن المكان الذي أسكن فيه.

ذهبنا إلى مقهى كنت أشعر بالجوع فقلت: إنني سأتناول بعض المكرونة الاسباجتي، وسألتها عما إذا كانت ترغب في تناول المكرونة مثلي فتمنعت في بادئ الأمر ولكنها اعترفت فيما بعد أنها أنفقت كل ما لديها من نقود ثم أخذت بعد ذلك تأكل في نهم شديد كالذئب، فازداد عطفي على الحيوانات العجماوات.

ثم ذهبنا إلى حانة، لقد جاءت من جلاسجو منذ شهرين لكي تدرس الفنون كطالبة، وهي في جلاسجو كانت تنتمي لجماعة بوهيمية وتعيش الآن في الحانات والمقاهي ودور السينما «عن طريق مساعدات ضئيلة للغاية من أصدقائي» وكانت قد حشدت الفن في داخل كيانها.

تزايد شعوري بالعفة والطهارة والبساطة معها وربما كان ذلك هو السبب الذي جعلني ارتاح إليها بسرعة كبيرة، أدخلت على التسلية وكانت لها شخصيتها المميزة بصوتها المبحوح وبافتقادها للجاذبية الأنوثية، لم تشعر بالشفقة على نفسها على الإطلاق، أوصلتها بسيارتي إلى باب المنزل الذي تقيم به، واعتقدت أنني كنت أتوقع منها أن «أنام معها» فسارعت إلى تحريرها من هذا الوهم قالت:

إذن فسوف نلتقي مرة أخرى قلت: «يمكننا ذلك» ثم نظرت إلى هيكلها القصير البدين المتواجد إلى جواري وتساءلت: «كم تبلغن من العمر؟»

ـ ٢١ عاماً.

شنت بأنفها وقالت: سأعرض عليك اتفاقاً يتم بيننا..

أعرض عليك وظيفة اصطحابي خلال مدة قصيرة، علماً بأن هناك وكالات متخصصة في لندن تقوم بمثل هذه النوعية من الخدمات والأعمال.

فقالت بينما الابتسامة لا تفارق وجهها: أود من كل قلبي أن تصعد معي إلى حجرتي. ـ لا، فأنت منجرفة وراء التيار بشكل مؤقت، وهكذا حالي. لذلك هيا بنا ننجرف سوياً بشكل مؤقت.

ـ سأتولى مسألة النفقات المالية كلها، ولكن بشرط عدم ممارسة الجنس، مجرد صداقة برئية.

فراحت تحك معصميها في بعض البعض من الداخل، ثم ابتسمت

مرة أخرى وهزت كتفيها كما لو أن إضافة جنون واحد آخر كان أمراً ولا أهمية له.

لذلك أخذت أتعامل معها، فإذا كانوا قد وضعوا عيونهم عليَّ فإن الأمر سيرجع إليهم من حيث اتخاذ إجراءات، بل واعتقدت أن ذلك من شأنه أن يساعدني على التعجيل في سير الأحداث.

كانت جوجو مخلوقة غريبة، إذ كانت شبيهة بأمطار لندن من حيث مومسيتها لأنها نادراً ماكانت نظيفة للغاية، وكانت بدون طموح وانزلقت في إتقان نحو تأدية الدور الذي حددته لها، فذهبنا إلى دور السينما سوياً وإلى الحانات والمعارض.

وفي بعض الأحيان كنا نقضي اليوم بأكمله في شقتي، ولكنني كنت دائماً وعند حلول الليل أطلب منها العودة إلى حجرتها الصغيرة، وفي كثير من الأحيان كنا نجلس لساعات طويلة إلى نفس المنضدة وننخرط في قراءة المجلات والصحف بدون أن نتبادل كلمة واحدة، وعقب مرور سبعة أيام شعرت كأنني أعرفها منذ سبع سنوات، كنت أعطيها راتباً قدره أربعة جنيهات أسبوعياً، كما عرضت عليها أن أشتري لها بعض الفساتين والملابس وأدفع لها إيجار غرفتها.

كانت تؤدي مهمتها على نحو جيد للغاية حيث كانت تبعد عني كل فتاة تنظر إلينا وأنا من جانبي دعمت نوعاً من الوفاء المهووس المجنون المنقول نحوها.

كانت دائماً شاكرة لكل معروف أقدمه لها مهما كان ضئيلاً مثل كلبة عجوز، كانت ملتزمة بالصبر وغير مبالية وبدون أن يخامرها شعور بالإساءة إليها ورفضت أن أتحدث عن آليسون وربما كفت جوج عن الإيمان بها وقالت لنفسي أنني «مجرد إنسان» مخبول بعض الشيء».

في إحدى أمسيات أكتوبر أحسست بعدم الرغبة في النوم وعرضت

عليها أن أوصلها بسيارتي إلى أي مكان تريد الذهاب إليه نطاق ساعات الليل، فراحت تفكر للحظات ثم قالت: إنها تريد الذهاب إلى ستونهنج هناك جلسنا في السيارة، ورحنا نتناول قطعاً من الشيكولاته، وكان بمقدوري مشاهدة وجهها... مشاهدة التطلخات الضبابية الغامقة لعينيها.. ومشاهدة ابتسامة الجرو البريئة، سألتها: لماذا تبتسمين ياجوجو؟.

ـ لأنني أشعر بالسعادة.

انحنيت للأمام وقبلت جانب رأسها، وكانت تلك أول مرة أقبلها فيها، ثم أدرت موتور السيارة على الفور، وبعد برهة قصيرة غلبها النعاس واستندت برأسها في بطء تدريجي على كتفي وعندما راحت في سبات عميق بدت وكأنها صغيرة في السن للغاية... راح شعرها يتناثر عليَّ لعلها لم تغسله في حياتها مرة واحدة، شعرت نحوها بنفس المشاعر التي أحس بها نحو كيمب: مشاعر المحبة الهائلة التي لا تمتزج بأي رغبة في جسدها.

وفي إحدى الليالي ذهبنا ومعنا كيمب إلى السينما، لقد اعتقدت كيمب أنني مخبول لأنني أضاجع هذه الصعلوكة القبيحة المنظر وأنا لم أحاول أن أوضح لها حقيقة الموقف، لكنني كنت مسروراً.

ثم ذهبنا جميعاً إلى «الاستوديو» الخاص بها وجلسنا نحتسي الكاكاو، وفي نحو الساعة الواحدة تخلصت كيمب منا حيث كانت ترغب في الذهاب للنوم كما كنت أرغب في النوم، فذهبت مع جوجو ووقفنا عند الباب الأمامي، كانت أول ليلة باردة للغاية في فصل الخريف وعلاوة على ذلك كان المطر يهطل بغزارة وقفنا عند الباب ورحنا نرقب الجو في حذر.

قالت: لسوف أنام في شقتك يانيقولاس.. فوق مقعدك.

ـ لا، لسوف يتحسن الجو، عليك بالبقاء هنا، لسوف أحضر السيارة.

كنت قد اعتدت على إيقاف سيارتي في شارع جانبي، دخلت إلى سيارتي وتقدمت بها للأمام ولكن ليس إلى مسافة بعيدة، كانت العجلة الأمامية خالية من الهواء وخامدة ولا حياة فيها، فخرجت إلى المطر ونظرت ولعنت الظروف وذهبت إلى حقيبة السيارة لإحضار المنفاخ، ولم تجده هناك، ولم تكن قد استخدمته منذ أسبوع.

فأغلقت غطاء حقيبة السيارة في عنف وجرت عائدة إلى الباب وقلت لها: اكتشفت وجود عجلة لعينة خالية من الهواء.

ـ هذا أمر حسن لا تكن مخبولاً، سأنام على مقعدك القديم.

فكرت في أن أقوم بإيقاظ كيمب من نومها، ولكنني غيرت رأيي، ورحنا نصعد السلم متخطين غرف الخياطة الصامتة وأخيراً دخلنا شقتي.

ـ استمعي إليَّ، أنت تنامين في السرير وأنا سوف أنام هنا.

مسحت أنفها على ظهر يدها ثم أومأت برأسها، وذهبت إلى الحمام ثم اتجهت إلى غرفة النوم واستلقت على السرير وجذبت معطفها الصوفي الخشن القديم على جسدها، كنت في حقيقة الأمر غاضباً منها حيث كنت أشعر بالإرهاق الشديد ولكنني جذبت كرسيين ووضعتهما بجور بعضهما البعض ومددت جسدي، وبعد خمس دقائق شاهدتها واقفة عند الباب بين الغرف تناديني.

وظلت واقفة هنالك للحظات صامتة، كانت تحب أن تتأمل وتفكر ملياً في إجراءاتها التمهيدية.

قلت: يا جوجو، نحن مجرد صديقين تجمعهما الصداقة البريئة، ولذلك لن ننام في السرير معاً.

ـ لمجرد أن نكون مع بعض معاً مرة واحدة فقط.

ـ لا.

بدت مثل بقعة ملوثة داكنة في اتهام صامت، وكان الضوء المتسلل

في الخارج يشتت الظلال حول هيكلها وحول وجهها المنعزل حتى إنها كانت تشبه صورة مطبوعة على حجر.

كان منظرها يعبر عن الغيرة.

وهي تردد: أشعر بالبرد الشديد.

ـ إذن عليك بالدخول تحت البطاطين.

وظلت منتظرة لدقيقة ثم سمعتها تزحف عائدة إلى السرير، ومرت خمس دقائق، ثم شعرت برقبتي تتخشب وتتصلب وسمعتها تنادي:

إنني في السرير الآن يانيقولاس، يمكنك بسهولة أن تنام إلى جواري هل تسمعني؟

كان المطر يهطل بغزارة في الخارج وينساب من مزاريب الماء، وكان الهواء الليلى للندن الممطرة يسود في أرجاء الغرفة، مشاعر الوحدة القاسية، والشتاء، نادت: هل يمكن لي أن أجيء لثوان قليلة لكي أشعل النيران؟

ـ أوه، يا إلهي.

ـ لن أتسبب في إيقاظك على الإطلاق.

وتسللت في داخل الغرفة وسمعتها لدى إشعالها عود كبريت، وفرقع الغاز وبدأ يصدر صوتاً هامساً وامتلأت الغرفة بتوهج يميل إلى اللون القرمزي، كانت هادئة ملتزمة بعدم إصدار أي أصوات ولكنني بعد برهة بدأت في الجلوس.

ـ لا تنظر إليَّ، فأنا لا أرتدي أية ملابس على جسدي.

نظرت إليها، كانت تقف بجوار النيران أدركت في قدر ضئيل من الصدمة أنها تكاد تكون جميلة أو هي على الأقل أنثوية الطابع ساعدني

على مشاهدتها ذلك الضوء الخافت الصادر عن الغاز، فأدرت لها ظهري ومددت يدي لكي أشعل سيجارة، وأنا أتمتم.

استمعي إليَّ يا جوجو، لن أمارس الجنس معك.

ـ سخني جسدك إلى أن تشعري بالدفء ثم عودي إلى السرير.

نظرت خلسة فيما حولي، كانت منتظرة فوق أرضية الغرفة وقد أعطت ظهرها الصغير الممتلئ لي.

وكانت محتضنة ركبتيها تحملق في النيران، وازدادت فترة الصمت، قلت: ارتدي ملابسك، أو ادخلي في السرير وبعدئذ يمكننا أن نتجاذب أطراف الحديث معاً، قمت بإشعال سيجارة أخرى مستخدما عقب السيجارة الأخيرة في الإشعال، قالت في إصرار:

أنا أعرف السبب في إحجامك، أنت تتصور أنني مصابة بأحد الأمراض اللندنية الرديئة.

ـ جوجو

ـ ربما أكون أنا مصابة بأحد هذه الأمراض، وأنت لا تريد أن تتعرض للمرض على الإطلاق.

ـ كفِّي عن هذا الكلام، أنا لم أفكر على الإطلاق في ذلك...

ـ أنا لا ألومك، لا ألومك على الإطلاق.

وسادت فترة من الصمت.

ثم خطت قدماها العاريتان في خفة عبر أرضية الغرفة وأغلقت باب غرفة النوم في عنف ـ وقفز الباب منفتحاً مرة أخرى، وبعد لحظات سمعت صوت بكائها، فرحت ألعن غبائي لأنني لم أنتبه لدلائل عديدة حدثت في أثناء فترة المساء ـ لم أنتبه إلى شعرها المغسول والذي تم تصفيفه وفقاً لتسريحه ذيل الحصان ولم أنتبه إلى تلك التعبيرات الوسيمة

التي ظهرت على وجهها.. وهبط على ذهني مشهد مريع لطرق حازم على الباب مع وقوف آليسون هنالك عند الباب، فشعرت بالصدمة، فهي لم يسبق أن سبت ولعنت على الإطلاق ولقد استخدمت الألفاظ اللطيفة المهتدية للتعبير عن الأشياء البغيضة من وجهة نظرها واستخدمتها مثل فتاة تفوقها احتراماً خمسين ضعفاً، لقد تغير اتجاهها تغييراً حاداً.

ظللت مستلقياً للحظات قليلة ثم دخلت إلى غرفة النوم، كانت النيران تلقي ضوءاً دافئاً في أرجاء الغرفة، وقمت بجذب الملاءات لأعلى حول كتفيها، وقلت: أوه يا جوجو، أنت إنسانة خرقاء.

ورحت أربت على رأسها مع الإمساك بالملاءات في إحكام بيدي الأخرى كإجراء وقائي في حالة قفزها عليَّ، وبدأت تتشمم بأنفها بصوت مسموع فناولتها منديلاً.

ـ هل لي أن أقول لك شيئاً؟

ـ بالطبع

ـ لم يسبق لي أن نمت في السرير مع رجل.

ـ يا إلهي!!

«إنني نظيفة تماماً وفي مثل النظافة التي كنت عليها يوم أن ولدت من بطن أمي.

ـ شكراً لله على ذلك.

فانقلبت على ظهرها وحملقت نحوي وقالت في تساؤل: ألا تريدني الآن؟

قمت بلمس خدها ثم هززت رأسي فقالت: إنني أحبك حباً عظيماً يا نيقولاس.

ـ يا جوجو، أنت لا تحبيني، أنت لا تستطيعين أن تحبينني.

فشرعت في البكاء مرة أخرى، مما أثار في داخلي مشاعر السخط والضيق، سألت: استعمي إليَّ، هل وضعت خطة لكي يتم ذلك؟ وقمت بترسيب الهواء من تلك العجلة؟ وتذكرت أنها تسللت مدعية أنها بصدد الذهاب إلى الدور العلوي بينما كانت كيمب تعد وتجهز على مشاعري.

ـ في تلك الليلة التي ذهبنا فيها إلى ستونهينج ومنذ ذلك الوقت لم أستطع النوم، لم يغمض لي جفن، كنت أجلس إلى جوارك بالسيارة هنالك مدعية أنني مستغرقة في النوم لكنني لم أكن نائمة.

ـ يا جوجو، هل يمكنني أن أقص عليك قصة طويلة لم يسبق أن حكيتها لأي شخص آخر؟

ومسحت دموع عينيها بالمنديل على حافة السرير معطياً ظهري لها، وحكيت لها كل شيء عن آليسون وعن الطريقة التي تركتها بها ولم أخف عنها أي شيء من كافة التفاصيل الدقيقة، حدثتها عن اليونان ولم أذكر لها الوقائع الحقيقية لعلاقتي مع ليلى لكنني حدثتها عن بارناسوس والتي تجسد كل الذنب الذي ارتكبته وشرحت السبب في أنني أنشأت علاقة معها، كانت جوجو بمثابة أغرب قسيس أعترف أمامه بخطاياي ولكنها لم تكن أسوأ القساوسة، لأنها غفرت لي ذنوبي وخطاياي.

تمتمت: أوه، إنني إنسانة ساذجة من جلاسجو بالإضافة إلى أنني في سن المراهقة، فأنا عمري ١٧ عاماً فقط يا نيقولاس، ولقد سبق أن كذبت عليك كذبة بيضاء بالنسبة لسني.

ـ إذا قمت بإعطائك أجرة سفرك فهل ستقومين..

هزت رأسها على الفور.

وسادت دقائق من الصمت بعدئذ وفي خلال تلك الدقائق رحت أفكر في الحقيقة الوحيدة التي تهمني.

وفي الخطيئة الوحيدة والجريمة الوحيدة، وعندما أبلغتني ليلى بترجمتها لتلك الحقيقة في نهاية اجتماعنا في المتحف فإنني أخذت كلامها على أنه أمر له أثر رجعي، أدركت الآن أن كلامها كان يتعلق بمستقبلي.

لقد حل التاريخ محل الوصايا العشر الواردة في التوراة، وبالنسبة لي لم يكن لهذه الوصايا العشر أي معنى حقيقي في أي وقت من الأوقات على الإطلاق، ولكن الجلوس في غرفة النوم والحملقة في وهج النيران المنعكس على عارضة الباب جعلني أدرك أنني بدأت أشعر بقوة الوصية العليا والتي تعتبر تلخيصاً لكافة الوصاية.

سألتني: هل يمكنني الحصول على سيجارة يا نيقولاس؟

فذهبت وأحضرت لها سيجارة، وراحت تدخن السيجارة وهي مستلقية وترقبني من وقت لآخر بخديها المكتسبين لون التفاحة الحمراء، فأمسكت بيدها.

فيما تفكرين ياجوجو؟

ـ فلنفرض أنها لم تحضر.

ـ سوف أتزوجك

ـ تلك كذبة بيضاء.

ولسوف أنجب منك مجموعة من الأطفال الممتلئين الذين لهم ابتسامات مشرقة مثل ابتسامات القرود.

ـ أنت وحش قاس.

ـ شخص ما أفضل مني سوف يتزوجك في يوم ما.

ـ هل هي تشبهني كثيراً؟

ـ نعم.

ـ أراهن أنتما الاثنان... لا تشبهان جميع الناس الآخرين.

وصرخ قطار جهة الشمال من عند طريق أيوستون فاستدارت وأطفأت عقب سيجارتها مرددة: أتمنى لو كنت جميلة بالفعل.

وجذبت الملاءات حول رقبتها كما لو كانت تحاول إخفاء قبحها ودمامتها.

ـ أن تكوني جميلة هو مجرد شيء ما يضاف إلى جوهرك، مثل الورق الملفوف حول الهدية، وليس هذا الورق هو الهدية في حد ذاتها.

صمت طويل، أكاذيب لها طابع التقوى والورع، ولكن ما الذي يضع حدا لسقوط المرأة وفقدان عفافها؟

ـ لسوف تنساني.

ـ لن أنساك، سوف أتذكرك دائماً.

ـ ليس دائماً، ربما ستتذكرني من وقت لآخر، أنا سوف أتذكرك بكل تأكيد.

ثم قالت بعد مرور دقائق كما لو أن الهدية لم تعد أمراً حقيقياً تماماً ولم تعد حلم طفولة: في إنجلترا العجوز النتنة الكريهة الرائحة.

(٧٢)

كانت الساعة قد وصلت إلى السادسة صباحاً قبل أن يغلبني النعاس استيقظت مرات عديدة، وأخيراً وفي تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً قررت أن أواجه النهار... ذهبت إلى باب حجرة النوم، لقد انصرفت جوجو، فاتجهت إلى المطبخ الذي كان يضم غرفة الحمام، وهناك وجدت نقشاً مكتوباً على المرآة بقطعة من الصابون: «مع السلامة» واسمها.

لقد تسللت خارجة من حياتي بطريقة عارضة مثلما دخلت، وفوق منضدة المطبخ كانت توجد المضخة الخاصة بسيارتي.

منتظراً، ودائماً في حالة انتظار، استندت على المنضدة الخشبية القديمة ورحت أحتسي القهوة باللبن وأتناول البسكويت الرطب، إذ كنت قد نسيت شراء أي خبز كالمعتاد.

ثم قمت بإعداد فنجان آخر من القهوة ولعنت آليسون... تلك اللعينة لماذا كان ينبغي لي انتظارها؟ ولماذا اخترت لندن من بين كافة الأماكن الأخرى مع أن لندن تضم فتيات متلهفات أكثر من أي مكان آخر في أوربا... فتيات أكثر جمالاً.. حشوداً من الفتيات الصغيرات اللائي جئن إلى لندن لكي يتم انتزاع ملابسهن ولكن يستيقظن ذات صباح وهن في سرير شخص غريب أجنبي بالنسبة لهن...

وبعدئذ تجيء جوجو... إنها آخر إنسانة في العالم أردت أن أسبب لها الضرر، وبدا الأمر وكأنني ركلت حيوانا مهجناً في ضلوعه المسكينة الهشة.

وهاجمتني ردود فعل عنيفة محملة بمشاعر الاشمئزاز من النفس، لقد كنت طوال حياتي إنسانا يقف في عناد ضد تأثر المرء بأفكار الآخرين، وها أنا الآن قد أصبحت لين العريكة بل أصبحت بعيداً عن الحرية أكثر مما كنت عليه من قبل، فكرت في إثارة بالغة في الحياة مع آليسون وفي الانطلاق على نحو غير متوقع مرة أخرى... بمفردي إلى أمريكا الجنوبية.

كانت الحرية تصنع اختياراً فجائياً من نوع ما وتعمل بما يتمشى مع ذلك الاختيار.

وكان على أن أمتلك عنصر المغامرة والمخاطرة وأن أحطم غرفة الانتظار التي كنت بها لأتمكن من الخروج منها.

هبطت على السلالم لكي أقابل كيمب وقلت لها: إنني بصدد ترك المنزل فاستمعت إلى كلامي في برود، وساءلت نفسي في تعجب: ترى هل علمت كيمب بما حدث بيني وبين جوجو؟ حيث شاهدت لمعاناً حجرياً من الاحتقار في عينيها لدى استخفافها بالعذر الذي سقته، وهو أنني قد قررت استئجار كوخ في الريف.

ـ ستأخذ جوجو معك، أليس كذلك؟

ـ لا.. لقد أنهينا الموقف بيننا.

ـ أنت الذي أنهيت الموقف بينكما.

إذن لقد كانت تعرف تفاصيل ما حدث بيني وبين جوجو، قلت: وهو كذلك، أنا الذي أنهيت الموقف ظننت أنك سئمت التردد على الأماكن الفقيرة تلتقط فتاة مسكينة صغيرة السن، والله وحده يعلم سبب التقاطك لها، ثم تتأكد تماماً من أنها أحبتك حباً خالصاً فتتصرف كجنتلمان حقيقي فتقوم بطردها من حياتك.

ـ استمعي إليَّ.

«لا تضايقني ولا تضحك على ذقني أيها الولد، استمر في إجراءاتك، وعد إلى منزلك بسرعة».

ثم استدارت بعيداً كأن الأمر لم يعد يهمها على الإطلاق وكأن الحياة كانت شبيهة بالاستوديو الذي تعيش فيه مليئة بأنواع الفشل والفوضى وتستهلك منها كل طاقاتها لكي تتمكن من البقاء على قيد الحياة.

وخرجت، ولكنني ما كدت أصل إلى قمة السلالم المؤدية إلى الدور الأول حتى خرجت كيمب وصرخت منادية عليَّ قائلة:

دعني أقول لك: إنك إنسان مغرور، وأنت ابن حرام، هل تعرف ماذا سيحدث لهذه الطفلة المسكينة اللعينة؟ سوف تستمر في اللعبة،

وهل تعرف مَنْ وضعها في هذا الوضع هنالك؟ ثم رفعت إصبعها في اتهام نحو وجهي وأضافت: إنه القديس نيقولاس أورفي المحترم.

وكانت تلك العبارة هي أسوأ العبارات الغامضة التي سمعتها تمر من بين شفتيها، وسقطت أشعة عينيها على فحرقتني ثم عادت وصفعت باب الأستوديو في عنف مغلقة إياه.

رحت أعبئ حاجياتي في غضب مليء بالبرود، وكنت غارقاً في شجاري الذي تم مع كيمب ورفعت لوحة «السهم» في شيء من الإهمال عن المسمار، فارتطمت بحافة موقد الغاز وبعد لحظات كنت أحملق في اللوحة كانت قد كسرت إلى نصفين في المنتصف.

ركعت على اللوحة، وكانت الدموع على وشك التجمع في عيني حتى إنني اضطررت لأن أعض على شفتي في وحشية شديدة، ركعت ممسكاً بالقطعتين، بدون أن أحاول مواءمتها مع بعضها البعض، ودون أن أتحرك لدى سماع صوت أقدام كيمب تترامى فوق السلام، دخلت كيمب وتقدمت نحوي وأنا مازلت راكعاً، لا أعرف الكلام الذي دعاها لأن تصعد إلى بالدور العلوي لكي تقوله لي ولكنها عندما شاهدت وجهي لم تنطق بكلمة.

رفعت القطعتين قليلاً لأعلى لكي أريها ما حدث للوحة، حياتي والماضي الخاص بي ومستقبلي، ظلت صامتة للحظات طويلة، وراحت تستوعب ما حدث، الحقيبة التي لم استكمل وضع حاجياتي بها، ولخبطة الكتب والأوراق فوق المنضدة، وهاهو ابن الحرام المعتد بنفسه، وها هو الجزار المطوع المرود قد خرَّ ساجداً على ركبتيه بجوار المدفأة.

فقالت: يا إلهي، من نفس عمرك في نفس سنك.

لذلك مكثت مع كيمب وبقيت معها.

(٧٣)

إن أصغر قدر من الآمال مع استمرارية ضئيلة للغاية، في التواجد على قيد الحياة يكفي من أجل المستقبل المناهض للبطل، يقول عصرنا: اتركه... اتركه حيث يكمن الجنس البشري في تاريخه لكي يفقد الكل ولا يكسب إلا المزيد من نفس الشيء، دعه يبقى على قيد الحياة ولكن لا تقدم إليه أي توجيه أو أية مكافأة لأننا في حالة انتظار في غرفنا الانفرادية المنعزلة.. لا يدق جرس التليفون على الإطلاق.. ومنتظرين هذه البلورة الشافة الخاصة بالإنسانية والخيال لكي تعود، والقول بأنها سوف تعود أكذوبة.

عشرة أيام أخرى لم يدق خلالها جرس التليفون على الإطلاق.

وبدلاً من ذلك أخذتني كيمب في اليوم الأخير من شهر أكتوبر ـ للنزهة معها، وكان ينبغي أن تساورني الشكوك إزاء مثل هذا التصرف من جانبها حيث لم يسبق لها أن اعتادت أن تفعل ذلك معي من قبل، ولكن تصادف أن كان الجو مشرقاً تسوده سماء تنتمي لربيع عالم آخر، وكانت للأشجار ألوان صخرية وكهرمانية وصفراء، وكان الهواء ساكناً مثل سكون الهواء في أثناء الأحلام، بالإضافة إلى أن كيمب كانت قد أقبلت في ارتياح على معاملتي معاملة الأم لابنها، وهي عملية احتاجت الكثير من اللغة التعويضية ومن النظافة والغلظة حتى أن العلاقة بيننا تحولت إلى شيء ما على العكس تماماً من الناحية الظاهرية من طبيعته الحقيقية، فعدم حديثنا صراحة أننا نحب بعضنا البعض، أظهر نوعاً من دماثة الخلق المتبادلة بيننا وهي دماثة برهنت على أننا نحب بعضنا بالفعل، لعل كيمب هي التي جعلتني أشعر بأنني أكثر سعادة خلال تلك الأيام العشرة، وربما كان هذا أثراً من الآثار الناجمة عن جوجو التي هي أقل الملائكة جمالاً وشفقة ولكنه أرسل عن طريق المجازفة من عالم

أفضل إلى عالمي. وربما كان هذا هو مجرد شعور بأن باستطاعتي الانتظار لفترة أطول أكثر مما كنت أتخيل آنئذ، ومهما كانت طبيعة ذلك الأمر فإن شيئاً ما في داخلي قد تغير، كنت لا زلت الشخص الذي هو موضع السخرية وإن كان ذلك في معنى آخر، فالحقائق التي قالها كونشيس وخاصة الحقيقة التي صبها في داخل كيان ليلى قد نضجت في داخل كياني، إذ بدأت أتعلم تدريجياً كيف أبتسم.. وأبتسم بالمفهوم الذي يقصده كونشيس ولو أنه يمكن للمرء أن يقرر وهو ما زال لا يصنع القرار موضع التنفيذ.

سرنا معاً عبر شارع إيوستون ومنه إلى حديقة ريجينت.

وكانت الحديقة مليئة بالمساحات الخضراء وبمجموعات لا نهائية من الناس المبعثرين هنا وهناك: عشاق وعائلات وأناس بمفردهم مع كلامهم وخفت حدة ألوان الناس والأشياء من خلال ضباب الخريف الذي لا تكاد تدركه العين وكانت الألوان بسيطة ورحنا نرقب البط في محبة وإعزاز ونرقب لاعبي الهوكي في احتقار قالت كيمب: يا ولد يا نيقولاس: إنني بحاجة لأن أتناول كأساً من المشروب الوطني اللعين.

ذهبنا إلى الجناح الخاص بالشاي، ووقفنا في طابور المنتظرين ثم عثرنا على منضدة، وبعدئذ تركتني كيمب لكي تذهب إلى دورة المياه وجذبت كتاباً له غلاف من ورق غير سميك كنت قد وضعتها في جيبي.

ضمنت أن كيمب وقفت في طابور من أجل الدخول إلى دورة المياه، ثم استغرقت في قراءة الكتاب.

في هدوء شديد وفي بساطة تامة راحت تنظر لأسفل نحو المنضدة وليس نحوي، تحركت حولي باحثاً عن كيمب لكنني أدركت إنها عادت إلى منزلها.

لقد كنت طوال الوقت أتوقع نوعاً من الدخول الجديد الهائل

المدهش... نوعاً من النداء الغامض، ومع ذلك فإنني عندما حملقت فيها وقد انعقد لساني وفي رفضها الرد على نظراتي بنظرة من جانبها أدركت أن تلك كانت هي الوسيلة الوحيدة الممكنة للعودة، صعودها إلى مثل هذه المناظر البالغة الابتذال وإلى أكثر الأماكن المبتذلة في لندن وإلى هذه الحقيقة التي هي في مثل بساطة وسخافة القمح فطالما أنها قد ألقى بها من حيث هي «حقيقة» فإنها جاءت بمفردها وتبوأت أخيراً المكانة التي تستحقها وإن كانت على نحو ما شديد التأثر وغريبة ومازالت هالة العالم الآخر تكتنفها، جاءت من الجمهور الذي وراءها دون أن تكون منتمية له.

كانت ترتدي حلة من القماش التويد وتلفيعة خضراء ملفوفة حول رأسها بأسلوب ريفي، جلست وقد وضعت يديها في حجرها كأنها أدت واجبها إنها هنا الآن، وأصبح عليَّ أن أقوم بأي مبادرة أخرى من جانبي، ولكن ما أن هبت عليَّ تلك اللحظات حتى شعرت أنني غير قادر على عمل أي شيء أو قول أي كلام أو حتى التفكير في اتخاذ أي إجراء، تخيلت وسائل عديدة تتعلق بلقائنا مرة أخرى ولكنني لم أتخيل هذه الطريقة على الإطلاق، وفي النهاية حملقت لأسفل نحو كتابي كأنني لم أعد أريد أي شيء يتعلق بها، ثم نظرت لأعلى في غضب إلى ما وراءها نحو عائلة مثيرة للإزعاج ونظرت هي نظرة سريعة للغاية إليَّ لا تتعدى جزءاً من الثانية ولكن نظرتها وقعت على وجهي فشاهدت الغضب الذي أصبه على تلك الأسرة وليس عليها هي.

فظننت أن تعبيرات الغضب موجهة لها فنهضت فجأة وغادرت المكان، ورحت أرقبها وهي تتحرك بين المناضد: بجسدها الضئيل الدقيق، تلك الضآلة والرشاقة التي كانت جزءاً طبيعياً من أنوثتها المتفجرة، وشاهدت عيون الناس الآخرين يتتبعونها إلى أن خرجت من الباب.

ظللت في مكاني متجمداً وممزقاً للحظات قليلة، ثم انطلقت وراءها مصطدماً بالناس الذين تصادف وجودهم في طريقي في عنف، كانت تمشي في بطء على العشب حتى وصلت إليها، لم نقل أي كلام، شعرت أنني مذهول من هول المفاجأة... وكانت المفاجأة تتعلق أيضاً بالملابس التي أرتديها، إذ كنت قد فقدت كل الاهتمام بمظهري الخارجي.... كنت قد اتخذت طابع التلوين الذي تتخذه الحيوانات لإخفاء نفسها وهو الطابع الذي تميزت به الحياة التي تعيشها كل من كيمب وجوجو، فشعرت أنني إنسان غريب المظهر والشكل وأنا بجوارها وشعرت باستياء من ذلك الوضع، إذ لم يكن لها الحق أن تظهر من جديد على هيئة زوجة شابة من الطبقة الاجتماعية المتوسطة متميزة بالهدوء ورباطة الجائش مع الوعي بنوعية الملابس التي ترتديها بل وبدا الأمر كأنها أرادت أن تتباهى بالصورة العكسية وبالانقلاب الذي حدث بالنسبة لأدوارنا وحظوظنا في الحياة، ثم نظرت فيما حولي، كان هناك عدد كبير من الناس بحيث يتعذر التعرف على أشخاص معينين بينهم.

سألت: أين هم؟

هزت كتفيها هزة خفيفية وقالت: إنني بمفردي.

ـ مثل عذاب جهنم.

سرنا خطوات أخرى في صمت، وأشارت برأسها إلى مقعد خشبي شاغر بجوار طرقة تتواجد بها أشجار على الجانبين، وبدت غريبة في ناظري إنها باردة وهادئة للغاية.

سرت وراءها إلى المقعد الخشبي، وجلست هي عند أحد طرفي المقعد وجلست في منتصفه والتفت نحوها ورحت أحملق في وجهها،

وشعرت بالحنق لأنها لم تنظر إليَّ ولم تظهر أدنى دليل على اعتذارها لي ولم تقل أي كلام لي.

قلت: إنني في حالة انتظار ظللت منتظراً ثلاثة أشهر ونصف.

فقامت بفك تلفيعتها وهزت شعرها لكي ينساب في حرية، لقد نما شعرها مرة أخرى وأصبح طويلاً وشبيها لما كان عليه عندما شاهدتها لأول مرة أدركت، ويبدو أن هذا قد زاد من شعوري بالتوتر، إن الصورة التي اتخذت شكلاً مثالياً والخاصة بليلى وهي في أفضل أحوالها قد شوهت آليسون ووضعتها في أسوأ أحوالها، كانت آليسون ترتدي قميصاً بني فاتح تحت الحلة، وكانت الحلة جميلة للغاية ومن المؤكد أن كونشيس أعطاها النقود اللازمة، كانت جميلة وجذابة بل وحملقت آليسون نحو طرف حذائها ذي الكعب المنخفض للغاية.

ونظرت بعيداً فوق الأعشاب وقلت: أريد إن أوضح شيئاً واحداً، إنني غفرت لك تلك الخدعة القذرة التي قمت بها في خلال هذا الصيف وأغفر لك هذا الحقد الأنثوي اللعين الذي جعلك تقررين إبقائي في حالة انتظار طوال كل هذا الوقت.

فهزت كتفيها والتزمت بالصمت للحظات ثم قالت:

ولكن ماذا؟

ـ أود أن أعرف ما جرى وما حدث في ذلك اليوم في أثينا، وجميع الأمور التي حدثت بعد ذلك منذ ذلك اليوم، أريد أن أعرف ما يدور الآن من أحداث.

ـ ثم سنرى ما تسفر عنه الأمور والتي تطل على الحديقة، زخرفة ونقوش بالجص لها لون الكريمة أو القشدة وصف من التماثيل البيضاء اللون على طول الأفاريز والكورنيشات، ودرجات اللون الأزرق البكوامات في السماء.

وجرى نحونا كلبه من نوع البوديل الذي يتميز بالذكاء والشعر المجعد الكثيف، فلوحت له بقدمي لكي ينصرف بعيداً عنا ولكن آليسون راحت تربت بيدها على رأسه، ثم نادت امرأة قائلة.. يا تينا! يا.

نظرت إليّ نظرة مقتضبة أمسكت بسيجارتها وكأنه لا يوجد شيء يدفعها أن تتكلم، وطارت ورقة من شجرة الدلب وهبطت في وثب متكاسل لأسفل ولمست جونلتها فانحنت والتقطت الورقة ثم جاء شخص هندي وجلس عند الطرف الآخر من المقعد.

تحركت قليلاً إلى جوار آليسون وأخفضت من صوتي وتعمدت أن يكون صوتي بارداً وفي مثل برودتها وأنا أقول لها: وماذا عن كيمب؟

ـ يا نيقولاس، لا تستجوبني لو سمحت، أرجوك لا تستجوبني.

لقد نطقت باسمي، وكان هذا بمثابة تقدم طفيف من جانبها، إنها لا تزال جامدة.

ـ هل يرقبوننا؟ هل هم موجودون هنا في مكان ما؟

فتنهدت في نفاذ صبر: هل هم متواجدون هنا؟

فقالت: لا لست أدري، لا أعرف.

كانت لا تزال غير راغبة في النظر إليّ، ثم تكلمت بصوت منخفض به مسحة من الملل قائلة:

الأمر لا يتعلق بهم الآن.

وسادت فترة طويلة من الصمت.

ثم قلت: لا يمكنك أن تكذبي عليّ، وجهاً لوجه.

فلمست شعر رأسها بمعصم يدها مما جعلها ترفع وجهها قليلاً لدى قيامها بهذه الحركة، فشاهدت في لمحة خاطفة شحمة أذنها فدبت

الشجاعة في أوصالي كما لو كنت قد أدركت فجأة أنني كنت محتجزاً عن ملكية خاصة بي، فقلت لها:

إنك الإنسانة الوحيدة التي قابلتها في حياتي والتي لم تكذب عليَّ أبداً، هل يمكنك أن تتخيلي الحالة التي كنت أنا عليها في الصيف؟ عندما تسلمت ذلك الخطاب وتلك الأزهار.

فقالت: إذاً سنبدأ في التحدث عن الماضي.

يبدو أنها قررت ألا ألمسها.

قالت: عدت إلى لندن لكي أبيع الشقة، ثم سأرجع إلى أستراليا.

قلت: إنها رحلة طويلة للغاية من أجل مثل هذه المسألة البسيطة.

ـ ومن أجل أن أراك.

ـ أن تشاهديني بهذه الكيفية؟

ـ لم أكن أرغب في المجيء

ـ إذن ما السبب في وجودك هنا؟ هل ذلك ضد رغبتك؟

لم ترد على تساؤلي، كانت تميل إلى الغموض وكادت أن تكون فتاة أخرى جديدة، وكان على أن أرجع إلى الوراء عدة خطوات لكي أبدأ معها من جديد، وأن أعرف المكان للمرة الأولى، وبدا الأمر وكأن ذلك الشيء الذي كان مباحاً وطليقاً في داخلها، قد أصبح محبوساً في داخل زجاجة مقدسة غير قابلة للتدنيس، كنت أعرف آليسون حق المعرفة.. وأدركت أنها قد اتخذت لون وطابع الناس الذين ارتاحت إليهم ولكنها مع ذلك قد ظلت محتفظة بشخصيتها المستقلة تحت السطح، أدركت من أين جاء هذا الصمود الناعم غير القابل للاختراق والذي اتسمت به، لقد كنت جالساً مع قديسة.

حاولت أن أكون شخصاً واقعياً ومجرد من العواطف، فتساءلت «أين كنت منذ أن غادرت أثينا؟ هل كنت في وطنك؟ أو في منزلك».

ـ ربما.

فأخذت نفساً عميقاً وتساءلت مرة أخرى: وهل كنت تفكرين فيّ.

ـ أحياناً.

ـ وهل هناك شخص آخر في حياتك؟ فأصابها التردد ثم قالت: لا.

ـ يبدو أنك غير متأكدة تماماً..

قالت: لا يوجد أحد في حياتي بمن فيهم أنت.

بروفيل الوجه المتجهم وتلك الحملقة الشرسة في الفراغ، كانت مدركة لنظراتي المنصبة عليها، تتبعت بعينيها شخصاً كان يمر أمامها كما لو كانت قد وجدته ممتعاً أكثر مني، سألت: ماذا تتوقعين مني أن أفعل؟ آخذك بالأحضان بين ذراعي؟ أخر ساجداً أمامك؟ ماذا يريدونه هم؟

ـ لا أعرف عم تتحدث

ـ أنت تعرفين جيداً.

فرفرفت عيناها رفرفة جانبية نحوي، ونظرت لأسفل ثم قالت: لقد فطنت إلى ألاعبيك في ذلك اليوم، وذلك هو كل ما في الأمر، وإلى الأبد.

ـ لقد عاشرتك جنسياً في ذلك اليوم، وأيضاً... إلى الأبد.

رحت أرقبها وهي تأخذ شهيقاً من الهواء وكأنها تكبت احتقارها وظللت منتظراً أن تقول أي شيء حتى ولو كان ذلك الكلام هو التعبير عن احتقارها لي، أخمدت الغضب المتصاعد في داخلي وحاولت أن أبدو هادئاً وأنا أقول لها:

كانت هناك لحظة فوق ذلك الجبل شهدت حبي الصادق العميق

لك، وكنت تدركين ذلك تماماً، لقد شاهدت ذلك منعكساً عليك أنا لا أتحدث عن جسدينا.

ظلت منتظرة للحظات قبل أن تجيب قائلة: ولماذا ينبغي عليَّ أن أتذكر ذلك المشهد؟ ولماذا لا ينبغي أن أبذل ما بوسعي لكي أنساه؟

ـ أنت تعرفين الإجابة عن سؤالك هذا.

ـ لا تقترب أكثر، أرجوك لا تزيد من اقترابك.

لم تكن تنظر إليَّ، وكان هناك شيء في صوتها، كان لدى إحساس بأنني أرتعش ارتعاشات عميقة بحيث لاتبدو واضحة على السطح وكأن خلايا مخي هي التي ترتعش، ثم تكلمت وقد أشاحت بوجهها بعيداً عني فقالت: «أعرف معنى ذلك» وبينما وجهها لا يزال متحولاً عني أخرجت سيجارة أخرى وأشعلتها وأضافت.. عندما أحببتك كان كل شيء تقوله أو تفعله له معنى، ويحدث تأثيراً عليَّ ويثيرني بل ويصيبني بالإحباط... إذ كان يجعلني... مثل الطريق التي تجلس بها، وبعد كل ما حدث هنا في ذلك المكان الذي يقدم الشاي وتنظر إليَّ وكأنني مومس أو أي شيء من هذا القبيل و....

ـ كانت صدمة فجائية بالنسبة لي، بحق السماء.

وضعت يدي على كتفها ولكنها أزاحت يدي، واضطررت لأن أزيد من اقترابي منها لكي أسمع ما تقوله:

في كل مرة أكون فيها معك فإن الأمر يبدو لي وكأنني أذهب لشخص ما وأقول له عذبني واستخدمني بطريقة سيئة ووجه إليَّ السباب والشتائم، وطلع روحي ونكل بي لأنني...

ـ آليسون.

ـ أوه، أنت الآن لطيف، أنت الآن ظريف لطيف للغاية وعلى نحو

لعين، وستظل كذلك لمدة أسبوع أو شهر، وبعد ذلك ستعود إلى البدء مرة أخرى.

وكانت تبكي بالدموع، فاستندت للأمام ونظرت، وعلى نحو ما أدركت أنها كانت تمثل ومع ذلك لم تكن تمثل، لعلها تدربت على تأدية هذا المشهد وذلك الكلام ولكنها لا تزال تعني ما تقول.

ـ هل سترجعين إلى أستراليا.

كنت أتكلم في لا مبالاة وبدون تهكم ولكنها التفتت ورمقتني بنظرة خاطفة كأن كلامي القاطع له طابع الوحشية، ووقعت في غلطة لأنني بدأت في الابتسام وطلبت يدها، نهضت فجأة على قدميها، وسارت تحت الأشجار ومنها إلى المساحات العشبية المكشوفة.

ثم توقفت فوق الاعشاب.

وإذا كان ذلك قد بدا مقنعاً من حيث هو رد فعل حركي وخاصة بدا أقل التوقف عن المشي، كان هناك شيء ما بالنسبة للطريقة التي توقفت بها والاتجاه الذي اتخذته... وفي لمحة خاطفة ذهنية أدركت الموقف على نحو أكيد، فإلى ما وراءها كان العشب ممتداً لمسافة ربع ميل حتى حافة الحديقة وإلى ما وراء ذلك كانت توجد الواجهة الملكية المزدانة بالتماثيل والمليئة بالنوافذ العديدة ذات التصميمات الجميلة.

نهضت واقفاً أمامها معطياً ظهري في اتجاه المباني البعيدة فأخفضت بصرها، لم يكن من الصعب عليها أن تلعب ذلك الدور، ذلك الوجه المحتقن القريب للغاية من الدموع ولكنه ليس في حالة من الدموع.

والآن استمعي إليَّ يا آليسون، أعرف من الذي يرقبنا الآن، وأعرف المكان الذي يرقب منه، وأعرف السبب في تواجدنا هنا، لذلك أقول لك: أولا: أنا إنسان أكاد أكون مفلساً من الناحية المالية، فأنا لا أشغل

أي وظيفة لها أهمية في أي وقت على الإطلاق، ولذلك فأنت واقفة مع أسوأ فرصة للنجاح في المستقبل في لندن.

وثانياً: لو أن ليلى سارت على تلك الطرق خلفنا ثم قامت بالمناداة عليَّ واستدعائي.... لست أدري، فالحقيقة التي لا أعرفها والتي ربما لن أعرفها أبداً هي ما أريده لك أن تتذكريه.

تذكري أنها ليست فتاة واحدة ولكنها نموذج من مناوشة ولقاء غير متوقع.

وثالثا: فأنا لست إنسانا ممتازاً للغاية في السرير مثلما تفضلت وقلت لي ذلك في أثينا.

ـ لم أقل ذلك.

وحملقت نحو قمة رأسها أنا أدرك أن وراء رأسي توجد النوافذ العلوية الشاحبة الخاصة.

ورابعاً: أنه قال لي شيئاً ما ذات يوم، شيئاً ما يتعلق بالذكور والإناث، وكيف أن الذكور يحكمون على الأشياء من حيث هي أشياء مدركة بالحواس بينما الأناث يحكمن على الأشياء من حيث العلاقات القائمة بين الأشياء، وهذا صحيح، فأنت دائماً كنت قادرة على مشاهدة هذا... مهما كان ذلك... بيننا، الربط بيننا، أما أنا فلم أنظر للأمور من هذه الزواية، وذلك هو كل ما في الأمر، وذلك هو كل ما يمكنني أن أقدمه لك، إمكانية أنني بصدد البدء في إدراك الموقف.

ـ هل لي أن أتكلم؟

ـ لا، أمامك الآن أن تختاري، عليك أن تقومي بذلك الاختيار بسرعة كبيرة، إما أن تختاريني أنا أو تقومي باختيارهم.

ـ ليس لك الحق في أن...

ـ إن لي الحق مثلما كان لديك الحق في تلك الغرفة بالفندق في اليونان، وهو كل الحق.

ـ الأمر ليس نفسه الأمر تماماً.

أشرت بيدي للوراء.

وأضفت قائلاً: إن لديهم كل شيء يقدمونه، ولكنني مثلك، ليس لدي سوى شيء واحد، بل إنني لا أستطيع أن ألومك إذا وقعت في نفس الغلطة التي وقعت أنا فيها... إذا اعتقدت أن كل شيء خاص بهم هو أفضل بكثير من أي مستقبل يمكن أن يكون لنا معاً، الشيء الوحيد أمامك الآن هو أن عليك أن تقامري أمامهم، الآن.

فنظرت آليسون لأعلى نحو صف المنازل واستدرت أنا أيضاً للحظات وتسببت شمس ما بعد الظهر في جعل المنازل تلمع وتتلألأ بالضوء... قالت كما كانت قد رفضتهم ورفضتني في آن واحد: سأعود إلى أستراليا.

أحسست بوجود هوة سحيقة بيني وبينها... هو عميقة على نحو لا يمكن سبر أغوارها ولكنها مع ذلك هوة ضيقة على نحو غير معقول، رحت أحملق في وجهها المحتقن في عنادها بدأت أسير في اتجاه الممر الذي يؤدي إلى البوابة الجنوبية في طريقي للانصراف إلى منزلي، وقطعت خطوتين وأربع خطوات وست خطوات، ثم عشر خطوات.

ـ نيقولاس.

وبدا صوتها ملزماً وقاطعاً وخشناً وليس استرضائيا على الإطلاق فتوقفت عن السير بشكل مؤقت ونظرت فيما حولي نظرة غير مكتملة ثم أرغمت نفسي على مواصلة المسير، فسمعتها تجري ورائي ولكني لم ألتفت إليها إلا بعد أن أصبحت على مسافة قصيرة للغاية مني، وتوقفت

هي على مسافة خمسة أو ستة أقدام وهي لاهثة الأنفاس تتنفس في صعوبة بعض الشيء، لم تكن تتظاهر، كانت بصدد العودة إلى أستراليا.

أو على الأقل بصدد العودة إلى شيء من العقلية الأسترالية.

ومع ذلك فهي لم تكن ترغب أن تدعني أنصرف من أمامها على ذلك النحو، كانت عيناها جريحتين وكانت مشاعر الإساءة البالغة تتفجر من عينيها، وكنت شخصاً لا يطاق أكثر من أي وقت آخر، اتخذت خطوتين إلى الوراء في اتجاهها، ورفعت إصبعا غاضباً في وجهها، قلت:

أنتِ لم تتعلمي بعد... حتى الآن، مازلت تتصرفين بما يتفق مع النص المكتوب في روايتهم.

فتطاير الشرر من عينيها كرد على الغضب الذي يتطاير من عيني، ثم قالت:

لقد عدت لأنني ظننت أنك تغيرت.

ولا أعرف السبب الذي دعاني لأن أفعل ما فعلته بعدئذ، فما فعلته لم يكن مقصوداً أو غريزياً، ولم يكن ناجما عن القسوة وغلطة القلب أو عن سرعة الانفعال والتهيج، ومع ذلك فقد بدا لي عند ارتكابه أنه كان عملاً ضرورياً وليس تحطيماً للسنن الطبيعية، إذ ارتفعت ذراعي وهبطت على خدها الأيسر بكل ما لديَّ من قوة، وأحدثت لها اللطمة مفاجأة وذهولاً تاماً، بل وكادت اللطمة تفقدها توازنها وتلقيها على الأرض، ورمشت عيناها مع هول الصدمة وبعدئذ وضعت يدها اليسرى في بطء شديد على خدها، ورحنا نحملق في بعضنا البعض في وحشية للحظات طويلة في نوع من الرعب، كان العالم قد اختفى وكنا نسقط من خلال الفراغ، ربما كانت الهوة السحيقة ضيقة ولكنها كانت بدون قاع، وإلى ما وراء آليسون تمكنت من مشاهدة أناس يتوقفون في أثناء سيرهم على الممر، وهب رجل واقفاً بعد أن كان جالساً على مقعد، وجلس الهندي

يرقب المشهد، وظلت يدها على جانب وجهها وكانت الدموع قد بدأت تظهر في داخل عينيها ربما بسبب الألم الناجم عن اللطمة وربما بسبب وجود نوع من عدم التصديق لما حدث.

وهبطت الحقيقة النهائية على ذهني، كنا نقف مرتعشين وباحثين بين جوانب كل ماضينا المشترك وبين جنبات كل مستقبلنا..

لم تكن هناك عيون ترقب، كانت النوافذ مصمتة على النحو الذي بدت عليه، كان المسرح شاغراً، بل لم يكن مسرحاً، ربما قد قالوا لها إنه مسرح ولعلها صدقتهم كما أنني صدقتها، ربما أن كل ذلك قد تم من أجل إعطائي الدرس الأخير والمحنة الأخيرة، أشحت بوجهي بعيداً عن آليسون ونظرت إلى النوافذ البعيدة.

كان الموقف منطقياً وكان معبراً عن الذروة المتقنة للعبة الشيطانية، لقد تسللوا منصرفين فجأة بعد أن ارتكبوا أخطاءهم وأصبحنا أنا وأنت بمفردنا، وكنت متأكداً تماماً من ذلك.

نظرت إلى الوراء نحو الممر، كان المشاهدون المتسمون بالمزيد من السمات الطبيعية يستأنفون سيرهم في بطء كما لو أن هذه الوحشية الضئيلة جعلتهم أيضاً يفقدون اهتمامهم لإلقاء نظرة أخرى، لم تتحرك آليسون من مكانها، وكانت ما تزال تضع يدها على خدها، ولكن رأسها كان منحنياً منكسراً مفعماً باليأس ومليئاً بالدهشة البالغة وهي تقول: إنني أكرهك، أنا أكرهك.

ولم أرد عليها بأي كلام ولم أقم بأي حركة لكي ألمسها، وبعد لحظات قصيرة نظرت لأعلى وظهرت على وجهها نفس التعبيرات التي لاحت من صوتها وكلماتها: الكراهية والألم وكل الاستياء الأنثوي منذ بدء الخليقة زمنياً، ولكنني تشبثت بشيء ما تشبثت بالشيء الذي لم

أشاهده على الإطلاق أو بالشيء الذي كنت أخشى دائماً أن أراه في تلك العينين الرماديتين المليئتين بالانفعالات الحادة، ذلك الشيء الجوهري الكامن وراء كل الكراهية والدموع، خطوة صغيرة متزنة وانتظار بلوري مهشم لأن تتم ولادة من جديد، وتكلمت هي مرة أخرى كأنها تريد أن تقتل ما كنت أنظر إليه: إنني أكرهك...

ـ إذن لماذا لم تتركيني لكي أنصرف؟

فهزت رأسها الذي أخفضته فجأة كما لو كان تساؤلي يتسم بالظلم وعدم الإنصاف:

أنت تعرف السبب.

ـ أنا لا أعرف السبب.

ـ لقد أدركت جوانب الموقف في خلال الثواني الأولى عقب مشاهدتك.

فاقتربت منها أكثر، وعندئذ اتجهت يدها نحو وجهها كما لو كانت تتوقع أن أصفعها على وجهها مرة أخرى، ثم قلت:

إنني أفهم تلك الكلمة الآن يا آليسون إنني أفهم كلمتك..

ظلت منتظرة وقد أخفت وجهها بين يديها مثل شخص أبلغ بتعرضه لخسارة فاجعة تراجيدية، وأضفت قائلاً: لا يمكنك أن تكرهي شخصاً ما ساجداً أبداً أن يكون أكثر من شبه إنسان بدونك، الرأس المنكس، والوجه المحتقن.

إنها ملتزمة بالصمت المطبق، إنها لن تتكلم على الإطلاق، ولن تصفح أبداً ولن تمد يداً، ولن تتخلى عن هذا التوتر المتجمد، بدت كل الانتظارات المعلقة، أشجار الخريف كانت معلقة، وسماء الخريف كانت معلقة، والناس الذين بلا سماء كانوا معلقين، عصفور صغير أبله

ومسكين يغني في خارج أوقات الموسم بين أشجار الصفصاف بجوار البحيرة، سرب من الحمام فوق المنازل، أجزاء مهشمة غير متكاملة من الحرية والمخاطرة، ومن مكان ما كانت تترامى الرائحة الكريهة الناجمة عن احتراق أوراق.

الفهرس



عزيزي نيقولاس..

ظننت أنك مت.. إنني أشق طريقي في الحياة معتمدة على نفسي، إلى حد ما.

أرغب في مقابلتك مرة أخرى..